

الشيخ عبد الله العلمي الغزني دمشقي

مؤتمّر

تفسير سورة يوسف
عليه السلام

الجزء الثاني

دار الفكر

الفصل الخامس

يوسف (ع) يعرف بحاله ويمهد الدعوة للتوحيد

آ (٣٧) ﴿ قَالَ : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثلاثون فقام السيد عبدالحق الداغستاني وقال:
(قال) يوسف ، بلسان المعرف بنفسه تمهيداً لما بعده ، مخاطباً الفتيين في
السجن (لا يأتكما) ولا يحمل اليكما في هذا السجن (طعام ترزقانه) تأكلانه
وتشربانه من أي نوع كان من المأكولات والمشروبات . وهذا العموم مستفاد من
وقوع التكررة وهي ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي ، ومن كلمة ترزقانه أيضاً التي
قصد بذكرها تأكيد إفادة العموم والشمول . أي لا يحضر لكما وقت الصباح أو
وقت الظهر أو المساء طعام ، أي طعام كان ، ترزقانه ويحلب لكما من الحكومة أو
أو من يوتكما ﴿ إلا ﴾ نبأتكما بتأويله ﴿ أي بعبارته لو فرض أنكما رأيتمه مناماً
﴿ قبل أن يأتكما ﴾ تأويله ، أي قبل مايقع مصداقه ، و ﴿ ذلكما ﴾ التأويل
والتعبير ﴿ مما علمني ربي ﴾ سبحانه وتعالى ، وكيف لا يكون لي ذلك و ﴿ إني
تركت ﴾ أي اجتنبت ﴿ ملة قوم ﴾ كأهل مصر ومن كاف الفتيان على دينهم
ونحوهم ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ قائماً بذاته ، غير منتشرفي ذرات هذا العالم ، ولا حال ،
ولا منبث في أحد من المخلوقين ، وليس له شريك ولا وسيل ، سوى عبادته وطاقته
وحده ، ﴿ وهم بالآخرة ﴾ أي بدار الجزاء ﴿ هم كفرون ﴾ منكرون وجاحدون .
قال : ﴿ لا يأتكما طعام ﴾ ترزقانه ﴿ إلا ﴾ نبأتكما بتأويله قبل ... الخ الآية ﴿

— ١ —

ههنا وقف الرئيس وتوجى ثلاثة علماء كبار من علماء المؤتمرو بأن
يقولوا كل واحد بما يفتح الله به عليه في تفسير هذه الآية ، فنهض الأول وهو
العلامة الطرابلسي^(١) وقال :

يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية

بدأ يوسف « ع » في هذه الآية والتي بعدها . يذكر للفتيين شذو من ترجمة
حياته الشخصية . والحياة العائلية ، العلمية والدينية ، بساطاً وتمهيداً للعظة ، التي
أزمع على إلقتها عليهما ، فكأنه جرى في كلامه على ما يسمونه بسياسة (المراحل)
أى التقدم مرحلة مرحلة ، ومن كلامه ظهر لهما أمران :

(١) أن هذا السجين بعدما كان في أعينها مجهول الأصل ، ومنسب النسب ،
إذا هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة .

(٢) أن هذا السجين بعدما كان في نظرها مجرم ، ظهر أنه هادي مرشد
واعظ معلم للخير .

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم سند سنوح
الفرصة ، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره ، وكأنه عليه السلام ، رام أجر أعلى تعبيره
رؤييهما ، ولكن ماهو هذا الأجر ياترى ؟ ليس هو ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً ما
من الأمور المادية ، ولكنه إصغاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليقه ووعظه .
وهذه طريقة لطيفة ، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا
استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والارشاد والموعظة والنصيحة أولاً ، ويدعوه
الى ما هو أولى به وواجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه ان العالم

(١) نسبة الى طرابلس من بلاد الشام (لبنان)

إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين ، لم يكن من باب التزكية .

ثم ان ماعمله يوسف (ع) يذكرنا اليوم بما يفعله أصحاب المستشفيات أو المدارس التبشيرية ، فانهم يطببون المرضى ، ويعلمون التلاميذ ليس في مقابلة أجرة من دينار أو درهم ، ولكن هذه الأجرة هي إصغاؤهم للكرز الديني ، الأمر الذي يشجعنا نحن أن نعمل مثل هذا العمل ، ويدعونا أن نفترس الفرص كلما لاحت لأجل أن ندعو الجحدة للإيمان ، ونرشد العصاة للطريق القويم .

كان السكوت سائداً في غرفة السجن التي فيها الرئيسان ، فوقف يوسف أمامها وقال بملء فيه : سأشرح لكم تعبير رؤييكما . ولكن أحب أن تنتظرا قليلاً ، ريثما أنكلم معكما بنبذة صالحة من تعريفكما بشخصي ، ومن العظة والذكرى . قبل كل شيء إنني أشكر الله على أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه من أي نوع كان مما يرزق عادة إلا نبأتكما بما يؤول ويصير إليه ولو فرض أنكما رأيتما مناماً ، قبل أن يحدث لكم مصداقه وعاقبته يقظة ، فأنا مستعد أن أخبركما عنه قبل وقوعه وحدثه ، وهذا الذي أذكر اني أعلمه في عبارة الرؤيا هو مما علمني إياه ربي فعلته ، فهو شيء استفدته من قبَل السماء ، لا من قبَل الأرض — وأتي بكلمة ﴿ ترزقانه ﴾ ونكر ﴿ طعام ﴾ في سياق النفي لفائدة العموم — كأنه يقول : إن علمي بتأويل الرؤى عام . وليس مقصوراً على تأويل طعام دون طعام ، بل إنني قد ر على تفسير أي رؤيا كانت ، في أي طعام يكون ، مما يرزق عادة ، فكل نوع من أنواع الأطعمة التي ترزق إذا رآه الانسان في منامه أقدر أن أفسره . فأنا قد ر على تعبير رؤيا طعام الحجر ، ورؤيا طعام الخبز ، كما إنني قد ر على تفسير ماعداهما من صنوف الطعام عموماً .

ولست أريد المكاثرة بذلك ، ولكن التعريف برجل مجهول الهوية (عندكم) ، إنني تركت منذ ديت الى أن شببت ملة قوم لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً .

وسببه انهم لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، أو بوحدانيتها ، لأن من لم يؤمن بالوحدانية ليس مؤمناً بالله الإيمان المطلوب شرعاً ، وهم كفرون بيوم الجزاء ، وان إنكار الصانع ووحدانيته مع الكفران بيوم الدينونة هو العقبة الوحيدة في سبيل تلقي العلوم الدنية من السماء .

فقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْخَبْرَ ﴾ تعليل أقوله : ﴿ ذَلِكَ تِلْكَ سَاعَتِي رَبِّي بِهَا ﴾ ، ومنه نعلم أن جزاء الإنسان على عقائده الحقة وأعماله الصالحة قد تتعجل شيء منه في الدنيا ، ثم ذلك الشيء المتعجل في الدنيا قد يكون مادياً ، وقد يكون معنوياً كما هنا ، فإن الله تعالى جازى يوسف على عدم ابتداعه باستئناف ملة الكفران ، وعلى اتباعه لملة التوحيد بأن علمه مما يشاء : ﴿ وَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَنُفَعَالَهُ كَتَابُهُ ﴾ . (٢ : ٢٨٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَذَكَّرُوا اللَّهَ بِحَمْدِ الْكَلِمَاتِ قُلْنَا لَهُ ﴾ (٢٩ : ٨) ويريد يوسف بقوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْخَبْرَ ﴾ إلى آخر آية ٣٨ ، إن الدين الذي دمه عليه اليوم ليس دين « تعيين » عيَّنه فيه أبوه مثلاً . ولا هو دين « تفويض » ، فإله فيه الأسلاف ، بل هو دين « انتخاب » انتخبه هو نفسه ، بالديار والديان ، واعتنقه مختاراً له من دون سائر الأديان .

وقد يكون قد أشار بقوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ الْخَبْرَ ﴾ إلى أنه قد ترك ما كان عليه من دين . أنه سيشير بقوله : ﴿ وَاتَّبَعْتُ الْخَبْرَ ﴾ إلى أنه « خطامي » وهو جامع الدين . هذا ما تيسر لنا الآن . واتباع الحق أسلم ، والله تعالى أعز .
ثم نهض العالم الثاني وهو العلامة المحصي وقال :

يوسف يغتنم الفرصة فيعظ الفتيين تمهيداً لدعوتها للتوحيد

يقول يوسف مخاطباً الفتيين السجينين ، إني بحمد الله على استعداد تام بوجه عمومي لتفسير كل ماترون ، فعلى الخبير سقطها — فقَالَ لَهُ : ذَاكَ الْخَلْنُ بَات ، أَمَّا الْإِنْسَانُ الْحَسَنُ — قَالَ : يَا سَائِلِي أَمَّا وَأَيُّكُمْ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ ، مَنْ كَانَ لَهُ مِنْكُمْ أَذْنَانِ

لأسمع فليسمع ، ومن كان له قلب فليحضره ، لا يأتيكما في اليقظة طعام مأكولاً كان كالتبخر الذي رآه أحدهما ، أو مشروباً كالعصير الذي رآه الآخر ، ترزقانه - (عبر بذلك لإفاده العموم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ (٦ : ٣٨) فزاد « في الأرض وجناحيه » لإفاده التعميم والاحاطة ، وكذلك ههنا زاد كلمة « ترزقانه » لإفاده الاستغراق والشمول ، فكأنه قال : أي طعام كان مما عادته أن يرزقه الإنسان في هذه الدنيا) - إلهانكها تأويله ، أي مصداقة ومرجعه ، وهو نفس الشيء المخبر عنه . أي أنبئكما بالتأويل بلفظي وبياني ، قبل أن تريا التأويل بالذات ذلكما مما علمني ربي ، ولا فخر ، فما أنا إلا سفير من سفراء الحق ، وإسان من ألسنة الصدق ، ولهذا فتأويل الروى بها عظمت هو أهون عليّ من قطع الخيط ، ولا أقول ذلك مفتخراً ، فإن آفة الحسب الفخر ، بل تحدثاً بنعمة الله تعالى .

جعل يوسف (ع) العلم اللدني ثواباً على تركه ملة من لم يؤمنوا بالله ولا يوم الدين ، ثم أخذه بجملة التوحيد (انظر التعليق الرابع من خطاب مولانا عمر البيلافي على قوله : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (آ : ٢٢) .

ثم قال الصديق عليه السلام تميماً لوعظه للفتيين : ولا اكذبكما ، ولا أخفي عنكما ، ما كان عرض لي أني استعملت عقلي ، واستخدمت أفكاري ، وجعلت البرهان رائدي ، والتبصر مطيقي ، وتفكرت في سائر الملل والنحل ، حتى وصلت لنور الحق ، وعرفت ماهي الملة التي ينبغي طرحها ، وماهي النحلة التي يجب اعتناقها . فتركت ملة قوم .. الخ ، وأنتم لو سلكتما طريقي هذه لكفيتما شر التقليد ، ووصلتما إلى نور الاستقلال الفكري ، الذي هو أصل كل خير ، وكنتم بعده تصلان إلى الملة الحققة فتعتنقانها .

هذا مرمى كلام الصديق (ع) ونري أنه قد افترض فرصة سؤالها له ، فحول - بجري الحديث إلى عظمتها ، وأخذت جمل الوعظ تنثال على شفتيه .

آئس منها ارتياحاً ، فأحب أن يطيل معها الحديث ، جرياً على رأي من قال :
وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لساناً قاثلاً فقل
اقتحم هذه الفرصة لإرشادها ، لأنه رجل ديني ، وأهل الدين يكرسون
حياتهم لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب ، حتى إنهم ليطوفون السجون
ويتعرفون إلى المسجونين ، ويتوددون إليهم ، ويعظونهم ويدعونهم إلى الحق ،
ويحرضونهم على التوبة ، فما أتاه يوسف هو من أهله في محله .
سألاه فعول على اغتنام السانحة ، لعله يستطيع التسلط على أوتكارها ، وكاشفها
بأنه هو على عقيدة التوحيد ، خلافاً للمصريين ونحوهم ، ووفقاً لعائلته الكريمة .
أتى في هذه الآية والآيات الأربع التي بعدها بحديث ذي شجون ، منه ما يتعلق
بترجمة شخصه ، ومنه ما يتعلق بترجمة أصوله ، ومنه ماله علاقة بالدعوة الدينية
والوعظ والإرشاد ، ومنه ما هو جواب على سؤالهما .

المراد « بالترك » الامتناع

والمراد بكلمة « الترك » في قوله ﴿ إني تركت ﴾ الامتناع عنه رأساً ، كما
يفصح عنه قوله الآتي : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ (آ: ٣٨) ، لا تركها
بعد ملاستها — حاشا — وإنما عبر بهذا التعبير لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائها
به (ع) فهو للاستجلاب لها أن يتركها ملتها ، وقوله : ﴿ إني تركت الخ ﴾ أول
غمزة ، ولكن في الحاشية . وقوله الآتي : ﴿ ماتعبدون الخ ﴾ هي الغمزة الثانية ،
ولكن في الصميم .

القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف

وأما هؤلاء (القوم) الذين ذكرهم السيد الصديق فلم يبين المفسرون رضي
الله عنهم من هم ، وكأنه لأن بيانهم من هم ليس مهماً ، ولكننا نحن نظن أنهم

سكان العراق وسوريا وفلسطين ومصر ، الذين كانوا معاصرين له ومحيطين به ،
وهم الأمم التالية :

(١) — القَيْنِيَّون : ، وهم قبيلة من العرب كانت متفرقة في الجنوب ،
بين العمالة .

(٢) — الحِثِّيَّون : وهم قبيلة قوية ، استولوا على سوريا ، وكانت عاصمتهم
مجاورة لبلدة (حماة) .

(٣) — الفِرِزِّيَّون : وهم إحدى قبائل فلسطين ، سكنوا في الجبال
في داخلية البلاد ، وكانوا رعاة لا مدن لهم .

(٤) — الأموريون : وكانوا في الدرجة الثانية بعد الحثيين في القوة ،
كانوا في اليهودية الجبلية ، وفي شرقي الأردن .

(٥) — الكنعانيون : وهؤلاء ينقسمون الى خمسة أمم ، (صيدوني) سكان
صيدا وصور ، و (عرقي) سكان لبنان ، و (أروادي) سكان جزيرة أراس ،
و (حماي) سكان حماة ، و (حوئي) سكان شكيم أي نابلس .

(٦) — اليَبُوسيون : سكان أورشليم وهي بيت المقدس .

(٧) — الكلدانيون : سكان العراق .

(٨) — القبط : سكان مصر .

(٩) — الفلسطينيين : سكان البلاد التي بين نهر الأردن شرقاً ، والبحر
الأبيض المتوسط غرباً .

فهؤلاء الأمم كانوا وثنيين ، ولا يعتقدون بحقيقة يوم الدين ، وكانوا معاصرين
لابراهيم فاسحاق فيعقوب عليهم السلام ، وبالطبع كان يوسف قد عرفهم ، لأنه
تولد في العراق ، وبقي فيه الى أن بلغ من العمر عشر سنين ، ثم هاجر مع أبيه

يعقوب وسائر الأسرة اليعقوبية الى سوريا فلسطين ، وبقي في فلسطين سبع سنين ولما بلغ من العمر ١٧ سنة أخذ لمصر ، وعاش فيها الى أن توفي ، وانما قلنا : نظن أنه عني بلفظ (قوم) هؤلاء الأمم لأنه عاش فيهم واختلط بهم وجاورهم وعرفهم حق المعرفة . وهنا فوائد مهمة ، لا بد من التنبيه عليها :

الادوار التي سكنت فيها يوسف والادوار التي تكلم فيها

الفائدة الأولى — فاعلم أنه كان أتى على يوسف منذ نيابه عن والده ثلاثة أدوار (الدور الأول) أخذ (السيارة) إلى مصر . كسلعة تجارية ، (الدور الثاني) — حالة الخدمة والعبودية للعزيز فوطيفار ، ونراه في هذين الدورين ساكتاً ، لم يهتف بشيء من مدح شخصه ، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ ، ذلك لأنه لم يجد داعياً لذلك ، ولكنه الآن وقد انزعج الى (الدور الثالث) — دور الاعتقال في أعماك السجون ، مع المجرمين ، منهم تهرب ، انه حزين ، فقد رأى من اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه ، وإن لم يقرظ أسرته وأصوله بعض التقريظ ، شأن كل واحد ، دون دهره شربه في طائر الناس وتصوِّح غصن فضله في أعينهم ، وابتدىء شربه ، وشرب في الناس . وانما عنه ، فانه عندئذ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ما تستدعي الحاجة . وكتاب السلجوق ويستند على أثيل منبته ، وكرم أصله ، ويأوى الى سباح من شربه ضربه من حوله ، فلهذا هذا الصدد ، ما أحسنه في الحين ، حال وحال التكلم .

معنى ترزقانه

الفائدة الثانية معنى (ترزقانه) تعطيانه وتنتفعان به ، جعل الخير ترزقاً لأنهم لم يكونوا يعتقدون تحريم شربها . والرزق هو كل ما انتفع به مطلقاً ، سواء أكان حلالاً أم حراماً .

معنى ذلكما مما علمني ربي

الفائدة الثالثة — قوله (ذلكما مما علمني ربي) كما أن الله علّم يوسف تأويل الرؤيا في قديم الأيام ، كذلك علّم (ابن سيرين) تأويلها في العصور الحديثة ، (فابن سيرين) هو يوسف (البصريين) كما أن (الصديق) هو يوسف المصريين ، فإن ابن سيرين رزق من علم (عبارة الرؤيا) العجب العجائب .

مصدر فضل يوسف

الفائدة الرابعة - قوله : (اني تركت ملة قوم الخ الآية الى أن يقول : واتبعتم الخ الآية) يبين أن ليس مصدر فضله كونه ابن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، بل جعل مصدر فضله تركه ملة أولئك الجاحدين ، واتباعه ملة آبائه الموحدين ، ففضل الانسان بأعماله لا بنسبه ، قال أبو العلاء المعري :

لا يفخرن الهاشمي : على امرئ من آل بربر

فالحق يحلف ماعليّ عنده الا كقنبر

(ترك يوسف ملة الوثنيين بدونه سبق مزاوله)

ثم هو يريد بقوله : (تركت) رفضت بدون سبق مزاوله ، كما ان (العود) قد يطلق على الصيرورة ، بدون سبق المزاوله أيضاً ، ومنه : ﴿ أَوْ يُعِيدُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ (١٨ : ٢٠) معناه يصيروكم ، لأن هؤلاء القوم لم يسبق لهم أن اعتنقوا ملة التثليث ، ومنه حديث معاذ : (أَعُدَّتْ فَتَانَا يَا مَعَاذُ ؟) ، أي أصبرت ، ويقول كعب : (وددتُ أن هذا اللّاتِبَنَ يعوذ قطراناً) أي يصير ، ف قيل له : لم ذلك ؟ فقال : (تتبعت قریش أذئاب الابل ، وتركوا الجماعات) ، فكما ان العود الى الشيء قد يستعمل بمعنى الصيرورة اليه ، بدون سبق مزاوله

سيطره (الحكومة) التي تعتقد تلك العقيدة ، أو (المحفل) الذي يؤثر بالاختلاط أو (العائلة) التي منها الجد والجدة لأُم ، ومنها الخال ، أو (الاقليم) ، ثم قاوم تلك المؤثرات ، واتخذ لنفسه عقيدة استحسنها ، فانه يصح له أن يعبر بقوله : (تركت كذا واتبعت كذا) لأنه كان بسبيل أن يفعل ويتأثر وينجذب لبعض هذه الجواذب ، ولكنه قاوم هذه كلها أشد المقاومة ، فيوسف الصديق كان عاش في العراق عشر سنين ، تحت سيطرة (حكومة) وثنية على دين الصابئة ، وكانت عيشته تلك المدة في بيت جده لأمه (لابان) الذي كان وثنياً ، ثم عاش سبع سنين بفلسطين الوثنية ، ثم عاش بمصر في بيت (فوطيفار) نحو عشر سنين ، وأصحاب هذا البيت وسكانه كلهم وثنيون ، ثم دخل (السجن) مع سجناء من الشعب المصري الوطني وشعب الاحتلال الهكسوسي ، وكلهم من أهل التوثن ، وكل من كان كذلك كان بسبيل أن يكون على ملة هذه البيئات ويخشى عليه من وراثة طريقة أحواله ، ولكن يوسف الصديق بما أوتي من عقل وافر ، وحفظ إلهي ، تغلب على كل هذه المؤثرات ، ولم يجذبه شيء من هذه الجواذب ، ولم يتمسك إلا بعقيدة التوحيد ، والايان بالإنشاء الآخرة ، لاسيما وأن ذلك هو ملة آبائه الكرام ، كان كل هذا قبل النبوة ، وأما بعدها فالأمر ظاهر .

الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً

الفائدة الخامسة - قوله : ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ يحتمل معناه : لا يؤمنون بالله واحداً ، بل يشركون معه غيره ، وذلك (كالقوم) الذين عاصروهم يوسف ، من عراقيين وفلسطينيين ومصريين ، لأن هؤلاء كلهم وثنيون ، لا يجحدون وجود الله ، بل يعترفون به ، ولكنهم لا يؤمنون به الايمان الحق ، الايمان المطلوب ، وهو ايمان التوحيد ، بل يشركون معه غيره من الآلهة التي يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، ويحتمل أن معناه موجوداً ، وذلك كالماديين ، مع أن المادة جاهلة ، لا يمكن أن

ينشأ عنها هذا الابداع في الكون ، وارتباط المصالح في سائر العوالم ، مع وجود الحكمة في كل ما نرى ونسمع ونحس ، فكل صنعة لغرض صحيح وقصد مقبول ولا يمكن للمادة — وهي لا تعقل شيئاً وانما تحدث عنها التفاعيل آثاراً صماء — أن توجد عقولاً مدبرة مفكرة ، تعمل بالحكمة وبمقدار في هذا الوجود .

الدلة على وجود الله تعالى

كان يجب أن لا يختلف الناس في العقيدة بوجود الله ، لأن دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم ، والعقل المحكم على الحكيم — بديهية ، بل قالوا ، إن ذلك بما يدركه الحيوان ، فضلاً عن الانسان ، فانك إذا ضربت الحمار مثلاً ، التفت ابرى من ضربه ؟ لأنه مركوز في فطرته ان الأثر لا يكون بلا مؤثر ، والفعل لا يكون بلا فاعل ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٤١: ٢٤) وأب إذا رأيت كلمة من ثلاثة احرف لم تشك في أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير الى الأوقات ، أيقنت أن لها صانعاً ، رتب جزاءها واعدتها لتلك الغاية ، وما مثل من ينكر وجود الخالق — وهو أظهر من الشمس — إلا كمن رأى (خزان اسوان) بالقطر المصري ، أو (برج إفل) بباريس ، مما : ان ذلك على فخامته وضخامته لا يحتاج الى (مهندس) ولا (صانع) !!! ، أو لمن رأى (كتاباً) بديعاً في مبانيه ، بليغاً في معانيه ، ومبه من الفسفة العسافية ، والأفكار السامية ، ما يفوق أفكار (أفلاطون) وفلسفة (أرسطو) ، ومنه من الأدب الرائع ، والشعر البارع ، ما يسمو على شعر (المتنبي) ، ولما نظر مبه قال : ما هذا الكتاب إلا أوراق كانت في صندوق ، وكان معها شيء من حروف الطباعة ، ثم هز الصندوق هزات متوالية ، فوجد ذلك الكتاب على منزونه . مهلا ترمي صاحب ذاك القول بالجنون ؟ .

وإذا كنت لا تسلم أن (ساعة) توجد بلا صانع ، وأن (باخيره) توجد

بلا مهندس ، بل لا تسلم أن « كلمة صغيرة » توجد بلا كاتب ، فكيف تسلم أن هذا « الكون » العظيم ، الذي يهر العقول ، وبحير الألباب ، قد وجد بلا موجد ، ونظم بلا منظم ، وكان كل ماويه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار ، الى أنواع لا يحصىها العد ، ولا يأتي عليها الحصر ، وقد وجدت بلا موجد بخرحها من العدم ، وينوعها الى ما لا يحصى من الأنواع ، ويمتعا بما شاء من الخصائص المختلفة ، والمزايا المتباينة ، والصفات المتقابلة ؟ وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفي في الدلالة على الله وجود - الأتى - بجانب - الذ كر - فهل علمت الطبيعة أن النوع لا يبقى ولا يحفظ إلا بوجود « المرأة » فأوحدها ؟ وغابت بينها وبين الرجل ، وأعدتها لما يراد منها ، فخلقت لها الرحم والمهبل ، ومنعتها بما يجذب الرجل اليها ، من صفات الجمال ، حتى في صوتها ، ومنحتها ما يحتاج اليه طفلها الصغير ، وقال أفلاطون : « يكفي ما في - العين - من التدبير الذي جعلها في مكان مكن من الحجاج ^(١) ، وجعل لها - الحاجب - ليقبها من العرق أن يتساقط فيها ، و - الهدب - ليقبها من الغبار ، ولا يمنعها الضوء » ، وهذا الباب واسع جداً ، وفيما ذكرناه كفاية .

عقيدة ابراهيم (م) وأولاده وعقيدة العرب الجاهليين

والاعتقاد بوحدانية الله تعالى هو دين ابراهيم وأولاده من جهة إسحاق ومن جهة إسماعيل ، غير أنه كان وجد في العرب مشركون لله في العبادة لا في الخلق والإيجاد ، يعني أن هؤلاء الصنف من العرب كانوا مع اعترافهم بوحدانية الربوبية ، مشركين في الألوهية ، قال تعالى : ﴿ لَتُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ !! ﴾ الى أن يقول : ﴿ وَلَتُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ -

(١) هو الحفرة العظيمة التي فيها العين ويقال لها وقب .

بعد موتها؟ لَيَقُولُنَّ: اللَّهُ، قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ (٢٩: ٦١ و ٦٣) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟﴾ (١٠: ٣١) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصرح بأن مشركي العرب إنما كانوا مشركين في الألوهية، دون الربوبية، وهكذا وحده في اليهود أناس كثيرون كذلك كما يعلم من البيان الآتي:

بيان سقوط أكثر بني إسرائيل في هاوية

التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بأيديهم

- (١) في عصر يعقوب: كان (على ذمة التوراة) يوجد في بيت يعقوب أناس وثنويون في بعض أيام حياته، كما نستفيد من قول التوراة: (وفان يعقوب لبيته ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم) (٣٥: ٢) وقولها (فاعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم) (٣٥: ٤)
- (٢) في مدة إقامتهم بمصر - «كانوا عبدوا آلهة المصريين» (١٧: ٧) و (يش ٢٤: ١٤) و (حز ٢٠: ٧ و ٨) و (أر ٤٤: ٨ - ١٩)
- (٣) في أول مدة الخروج «عبد بنو إسرائيل المعجل في البنية بعده، حر حوا من مصر في مقاطعة جبل سيناء حتى قتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل» (خر ٣٢: ٢٧ و ٢٨)
- (٤) في آخر مدة الخروج - «عبد بنو إسرائيل بعيل وغور وداب حينما كانوا في الغور فغضب الله عليهم وأمات منهم بالوباء ٢٤ ألفا» (خر ٩: ١٥)
- (٥) في مدة التيه - وقع أكثر بني إسرائيل في وهدة الشر في جميع مدة

التيه البالغة ٤٠ سنة لا فرج بين الآباء الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى ولا بين أبنائهم الذين تولدوا في البرية ، فالجميع عبدوا الأصنام في البرية ، وقربوا لها القرابين (خر ٢٠ : ٧ - ٢٦) و (تث ٩ : ٧)

(٦) في مصر يشوع - وقد وقعوا في وهدة الشرك ، وهم تحت قيادة يشوع لآخر أيام حياته (ينس ٢٤ : ١٤ و ٢٣)

(٧) من موت يشوع إلى أول قاضي - وقد رجع بنو إسرائيل للسقوط في أودية الوثنية في الجبل الذي بعد يشوع إلى أيام أول قاض قام فيهم وهو «عثنئيل» بن قناز (قض ٢ : ٨ - ٢٣ وقض ٣ : ٥ - ٩)

(٨) بعد موت القاضي الأول - مات القاضي «عثنئيل» فعاد بنو إسرائيل لشركهم المعهود (قض ٣ : ١٢ - ١٤) مع ملاحظة ما في (قض ٢ : ١٩)

(٩) بعد موت القاضي الثالث - وقع بنو إسرائيل في أودية الوثنية بعد موت القاضي «شمجر» بن عناة (قض ٤ : ١ مع ملاحظة ما في قض ٢ : ١٩)

(١٠) بعد موت دبورة وباراق - عاد بنو إسرائيل لشركهم وأدخلوا عبادة البعل الى وسط البلاد وأقاموا له مذبحاً وسارية (قض ٦ : ٢٥ و ٢٨ و ٣٠)

واعتقدوا أن البعل إله ، وبقوا على هذا الحال حتى قام القاضي جدعون (قض ٦ : ١) (١١) في أيام جدعون - ثم وقع بنو إسرائيل بواسطة مخلصهم جدعون

في الوثنية في أيام جدعون ، على إثر مقاتلته المديانيين (قض ٨ : ٢٤ - ٢٧)

(١٢) على أثر موت جدعون - كان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء «البعليم» وجعلوا لهم بعل بريث إلهها (قض ٨ : ٣٣)

(١٣) بعد موت يائير - بعدما مات «يائير» الجلعاذي الذي كان قاضياً ثامناً على بني إسرائيل عادوا يعملون الشر ، وعبدوا «البعليم والعشتاروت» وآلهة

«آرام» وآلهة «حيدون» الخ ما في (قض ١٠ : ٦ و ١٠ و ١٣ - ١٦)

- (١٤) بعد موت عبدون - بعد ما مات القاضي « عبدون » عاد بنو إسرائيل يعملون الشر المعهود بينهم وهو الوثن (قض ١٣ : ١) مع ملاحظة ما في (قض ١٩ : ٢)
- (١٥) شرك بعض اللاويين - ثبت إن بعض اللاويين كان يكن في بيت الأصنام (قض ١٧ : ٤ - ١٣) في قرية « الطيبة » التابعة لقضاء « طول كرم »
- (١٦) شرك سبط الدانين - ثبت أن سبط « الدانين » صعدوا الى جبل أفرام ، ونهبوا من بيت (ميخا) الذي في قرية (الطيبة) التمثال المنحوت والأفود والتراتيم والتمثال المسبوك التي هي آلهة (ميخا) ، وأقاموا لأنفسهم التمثال المنحوت للعبادة (قض ١٨ : ١٧ و ٢٤ و ٣٠ الخ) .
- (١٧) في عصر صموئيل - ثبت أن بني إسرائيل سقطوا في حفرة الشرك أيام النبي (صموئيل) ، فكانوا يعبدون في عصره الآلهة الغريبة و (المشتاروت والبلعيم) (١ صم ٧ : ٣ و ٤) .
- (١٨) في عصر ملئك شاول - ثبت انه كان يوجد في عصر (شاول) أول ملوكهم في بيت ابنته (ميكال) أصنام صغيرة ومجسمة ، على هيئة الانسان ، بحيث من رآها يظنها إنساناً ، وتسمى هذه الأصنام (ترافيم) (١ صم ٢٩ : ١٣) وهي في شريعة اليهود وحسب كتبهم قرينة الوثن (١ صم ١٥ : ٢٣) .
- (١٩) في عصر سليمان - تقول اليهود إن نساء سايان أملائن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، فذهب وراء أربعة آلهة ، وهم « عشتروت » و « ملكوم » و « كهوش » و « مولك » (١ مل ١١ : ٤ - ٨) وكان يوجد في الرعية في عهده قوش ، فتركوا الرب وسجدوا للآله « عشتروت » وللآله « كهوش » والآله « ملكوم » (١ مل ١١ : ٣٣) وكانوا يقربون أباءهم وبناتهم للآله « مولك » وهو محمي بالنار (٢ مل ٢٣ : ١٠) .
- (٢٠) أيام رحبعام - ثبت من التاريخ أن أهالي المملكة الجنوبية تملكة يهوذا أيام ملكها « رحبعام » بن سليمان ، عملوا الشر وعبدوا الآلهة الباطلة ، وبنوا

لها مرتفعات وأنصاباً وسواري (١ مل ١٤ : ٢٣ و ٣٢) وكذا هم يقولون إن نفس الملك رجعم أشرك بالله (١ مل ١٥ : ٣ و ١٢) .

(٢١) أيام أبيتا — سار « أبيتا بن رجبعام » في جميع خطايا أبيه الذي تقدم آنفاً أنه كان مشركاً ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الله (١ مل ١٥ : ٣) ولم تنزع الأصنام في مدته ، ولكن في مدة أبيه « آسا » (١ مل ١٥ : ١٢) .

(٢٢) أخزيا — توثن « أخزيا » ملك يهوذا بن « يهورام » (٢ مل ٨ : ٢٦) وأما الرعية فكانوا سقطوا في الوثنية بهمة أبيه « يهورام » أيام ملكه عليهم (٢ أي ٢١ : ١١ — ١٣) .

(٢٣) عثليا — « عثليا » ملكة يهوذا كانت مشركة ، لأنه هي التي أدخلت عبادة « البعل » إلى يهوذا (قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) .

(٢٤) أيام يواش — رجعت يهوذا وهم أهالي مملكة القدس إلى السقوط في الوثنية أيام الملك « يواش » (٢ أي ٢٤ : ١٨ و ١٩) حتى أنه لما قام النبي زكريا ينصحبهم رجوه بالحجارة ، بأمر الملك « يواش » في دار بيت الله (٢ أي ٢٤ : ٢٠ و ٢١) .

(٢٥) أيام أمصيا — وسقط أهالي مملكة يهوذا أيام « أمصيا » في القدس الشريفة في هوة الوثنية (٢ مل ١٤ : ٤ و ٢ أي ٢٥ : ٢٠) كما أن ملكهم « أمصيا » كان كذلك (٢ أي ٢٥ : ١٤ — ١٦) .

(٢٦) أيام آحاز — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الوثنية أيام ملك القدس آحاز ، هم وملكهم جميعاً (٢ مل ١٦ : ٣ و ٤ و ٢ أي ٢٨ : ٢ — ٤ و ٦ و ٢٣ — ٢٥) .

(٢٧) أيام منسى — وسقطت أهالي مملكة يهوذا في الشرك أيام ملكهم « منسى » . ملك أورشليم (٢ مل ٢ : ٢ — ١٦ و ٢ أي ٣٣ : ٢ — ١١) .

- (٢٨) أيام آمون — عبد « آمون » ملك يهوذا الأصنام التي عبدها أبوه « منسى » ومسجد لها ، وترك الرب إله آبائه (٢ مل ٢١ : ٢١) وهكذا الشعب (٢ مل ٢٢ : ١٧ و ٢ مل ٢٣ : ٤ — ٢٦) .
- (٢٩) أيام يوشيا — وسقطوا في الوثنية أيام « يوشيا » ملك يهوذا (٢ أي ٣٤ : ٣ — ٧) ولكن الملك كان موحداً مصلحاً .
- (٣٠) أيام يهوياقيم — سقط « يهوياقيم » ملك أورشليم وشعبه في الوثنية (٢ مل ٢٣ : ٣٧ و ٢٤ : ٢ و ٣) .
- (٣١) أيام صدقيا — سقطوا في الوثنية كل أيام الملك « صدقيا » ملك يهوذا (٢ أي ٢٦ : ١٢ — ١٧) .
- هذا ما يتعلق بمملكة أورشليم التي هي مملكة يهوذا الجنوبية ، وأما الكلام على مملكة الأسباط العشرة الشمالية التي عاصمتها « شكيم » — وهي نابلس اليوم — فلهم بالاجمال من دون استثناء قد سقطوا جميعهم في الشر من أول أن نشكلت المملكة الى أن زالت ، كما يعلم ذلك صريحاً من أسفار العهد العتيق ، ولا حاجة للاطالة بذكر تلك المواضع ، ثم أيام سبي اليهود الى بابل كانوا سقطوا في الوثنية أيضاً (حز ١٤ : ٢٢ و ٢٣) .

الإيمان بالله واليوم الآخر

القائدة السادسة — عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل الشرور والأضرار كما بالمقابلة ان الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو مصدر كل خير ونفع ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ، وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ

حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٨ : ٢٢﴾ وقال تعالى : ﴿فَإِذَا بَلَغَتِ الْمَرْءُ أَجَلَ نَحْسِنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ، وَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٦٥ : ٢﴾ وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ﴿٣٣ : ٢١﴾ وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ - أَي فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ - أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ﴿٦٠ : ٦﴾ وقال تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ، إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿٢ : ٢٢٨﴾ وقال تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، فَبَلَاغَتُنَّ أَجَلُهُنَّ ، فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ، إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿٢ : ٢٣٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿٤ : ٥٨﴾ وقال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِئَةً جَلْدَةً ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ﴿٢٤ : ٢﴾ .

يوم الآخرة

الفائدة السابعة - قوله : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ الآخرة هي اليوم الأخير الذي يبتدىء حين ترفع الشمس جاذبيتهَا عن الكواكب ، بإذن الله تعالى ، والأدلة متضاربة على وجود هذا « اليوم » المنتظر ، وأقربها تناولاً أنه إذا لم يكن آخرة ولا عقاب ولا ثواب ، كانت الحياة ضرباً من العبث ، لأن العدل في

هذه الدنيا غريب تائه ، لا يعرف مأوى ، ولا نرى في أعمال الناس غير المظالم الفادحة ، نرى الأشرار في رغد وهناء وسعادة ، بينما نرى الأبرار يقاسون مرارة العذاب ، وما كان ربك ليثيب الظالمين ، فستأتي ساعة تلقى فيها كل نفس ما كسبت ، إن خيراً وإن شراً ، ﴿ فويلٌ للذين كفروا منَ مَشيَدِ يومٍ عظيمٍ ﴾ (٣٧: ١٩) ﴿ وَلَنَنعِمَنَّ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٠ : ١٦) .

الايان بالآخرة والطوائف التي لا تعتقد به

الإيان بالآخرة هو دين ابراهيم وأولاده سواء أكانوا من سلالة إسحق ، أو من سلالة إسماعيل ، إنما وجد من سلالة إسماعيل طائفة من العرب كانوا لا يعتقدون بالآخرة : ﴿ وقالوا ماهيَ إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٤٥ : ٢٣) ، كما أنه وجد من سلالة إسحق طائفة يقال لهم « صدوقيون » نشأوا كما قاله « يوسيفوس » نحو سنة (١٥٠) ق.م أنكروا القيامة ، لأنهم أنكروا خلود النفس ، أي اعتقدوا أن النفس تموت مع الجسد ، فإذا كانت النفس قد تلاشت عند الموت ، لم يبق باب لحياة الجسد ، وهؤلاء طائفة صغيرة في اليهود ، وسطوتهم قليلة بين الشعب ، وكان لهم ميل شديد الى الفلسفة وكانت أفكارهم دنيوية ، وكان اعتبارهم للديانة الموسوية اعتباراً سطحياً ، وهم اذا رفضوا تعليم « القيامة » سقط عندهم تعليم الثواب والعقاب ، وهم يرفضون الاعتقاد بالملائكة والأرواح . (هذا ما يؤخذ من قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست) ومن « الكنز الجليل » في تفسير الانجيل للدكتور وليم أدبي الاميركافي . وقد كان يوجد شيعة في الاسلام يقال لهم « الخطائية » زعموا أن الدنيا لا تنفى ، وأن الجنة هي ما يصيب الانسان في الدنيا من خير ، وأن النار هي ما يصيبهم من شر ، وقريب منهم فرقة يونانية ، يقال لها « التناسخية » يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن لا بعث ولا آخرة ، وأما اليوم فيوجد فرقة ، يسمون

أنفسهم « بالبهائية » ، مركز تبشيرهم بدينهم عكا وحيفا ، وهم لا يستقدون بالآخرة ولا بالملائكة بالمعنى الذي نعرفه ، بل يأولون ذلك بأن الآخرة هي آخرة الأفراد أو الأمم في الدنيا ، وأن الملائكة هم خيار الناس وملحائهم ، هذا ما تيسر لنا الآن ، والله تعالى أعلم .

(مرحى)

ثم نهض العالم الثالث وهو الملامه الحموي وقال :

اتباع يوسف ملة آباءه بعد التفكير

يقول السيد الصديق عليه السلام : انه قبل أن يتبع ملة آباءه وأجداده ، كان تحرر واستقل وافتكر في ملل الناس ونحلهم فلم ترق له ولم تعجبه ، فلزم ملة آباءه وأجداده ، لأنه رآها بالبرهان الساطع أحسن من غيرها ، من ملل المعاصرين ، ونحل المجاورين ، فلم يكن متبعاً لملة آباءه لمجرد التقليد المحض ، حسب العوائد المطردة ، عند أكثر الناس - حاشا له من ذلك - بل إنما كان ذلك بعد الإيغال في التأمل والتفكير العميق ، ذلك لأنه كان تولد فيه منذ الصغر الميل الى البحث عن الأسباب ، والتماس البرهان عن كل شيء ، فنشأ لا يسالي إلا بمحقاقي الأمور ، ولا يحترم سوى العقيدة التي يطمئن لها القلب ، ويثلج بها الصدر ، وذلك لا يكون إلا غب الاستقلال ، وبعده التفكير ، ثم الاتساح ، فكأنه يقول :

إنني حررت نفسي من كل تقليد ، وركنت الى الاستقلال الفكري ، واستخدمت العقل ، وتعمقت في التفكير ملياً ، حتى وصلت بالبرهان والعقل لملة التوحيد ، التي هي ملة آبائي وأجدادي ، وأنا إذا لم أكن قد حررت نفسي سابقاً من كل تقليد ولم أركن الى الاستقلال الفكري ، فلست مستحقاً أن أقوم بالدعوة الدينية ، التي أطلب فيها من المدعو أن يعمل نظير ما عملت ، يتحرر ويستقل ويعتمد على البراهين ، حتى يصل للعقيدة الحققة .

الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له

وقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ أي لا يؤمنون بوجوده مطلقاً كالدهرية والمادية والطبيعية ، ولكن الاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، ولا تسكاد نجلو أمة متبدية أو متحضرة من اعتقاد إله ، ولكن فكرة الألوهية وأوساف الإله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، ولذلك فيمكن أن يكون قد عني بقوله ﴿ لا يؤمنون بالله ﴾ انهم لا يؤمنون به كما يجب له من « الانفراد » ، خلافاً « للوثنيين » ، ومن « الاختيار » ، خلافاً لفريق من « علماء الهيئة » ، ومن « إحاطة » علمه بكل شيء ، حتى الجزئيات ، خلافاً « للفلاسفة » ، ومن أنه « خالق كل شيء » ، خلافاً « للمانوية » ، ومن كونه هو الذي تقدم له وحده أنواع « العبادات » كلها ، وأنه هو « الشارع » ، لا غير ، خلافاً للمشركين له في « الألوهية » ومن أنه « لم يتولد من شيء » . ولم يتولد عنه شيء ، خلافاً « للنصارى » ومن أنه تعالى واحد ، ليس اثنين هما الأب والابن ، خلافاً « للمكدونيين » الذين يقولون بالوهية الآب والابن فقط ويرفضون ألوهية الروح القدس ، فهم لذلك نصارى مثنية وإمامهم في ذلك مكدونيوس ، أسقف القسطنطينية ، ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته الألوهية ، خلافاً للنصارى « الملكانية » الذين يقولون بالثالوث وبطبيعتين ، « فالثالوث » معناه الآب إله والابن إله والروح القدس إله ، والكل إله واحد ، ومعنى الطبيعتين أن لأقنوم الابن طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو طبيعة الانسان وطبيعة الاله ، وكل طبيعة على حدتها لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، وهؤلاء مثل اللاتين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والسرمان الجديد والبروتستانت ، فهؤلاء يقولون بطبيعتين في أقنوم واحد ، أو بأقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم : « إنها أم الاله ، أو أم الله ، أو والدة الاله » .

ومن أنه تعالى واحد في ذاته وطبيعته ، ولكن طبيعته ليست متزجة بطبيعة الانسان ، خلافاً للنصارى « اليعاقبة » مثل السريان القديم والأرمن والأقباط بمصر وكانت اليعقوبية منتشرة في « غسان » وسائر قبائل الشام ، وكذا في نصارى « نجران » ، وهؤلاء الطوائف يعتقدون أن المسيح طبيعة واحدة متركبة من طبيعتين ، يعنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالانسانية أو بالعكس ، وهؤلاء هرطقة (١) في نظر الملكانية .

ومن أنه تعالى واحد ذو أقنوم إلهي واحد ، خلافاً « للنساطرة » القائلين بأقنومين أقنوم إلهي ، وأقنوم بشري ، كلاهما ممتاز عن الآخر ، والأول مشرق على الثاني لإشراق الشمس على الكون تقريباً ، وبناء عليه هم لا يقولون عن السيدة مريم إنها أم الله ، بل أم الانسان فقط وهم على كل حال على غير حق ، وإن كانوا أقرب اليه بالنسبة لمن سواهم ، حتى مؤرخي النصارى اعتبرهم « كالأريوسيين » ولذلك وقع اتفاق النصارى الملكانية واليعقوبية على أن هؤلاء النسطورية هرطقة ومعظم أهالي هذا المذهب في المعجم وفيما بين النهرين (دجلة والفرات) « في جبل النساطرة » وعند منابع نهر الزاب وبحيرة أرمية ، وبين الفرات وحدود إيران وجنوبي الهند وفي الموصل على دجلة ، وفي أذربيجان ، ويسمون « الكلدان » ، وكانت النسطورية منتشرة في « الحيرة »

ومن أنه تعالى واحد ولا دخل فيه للأنوثة والذكورة ، خلافاً « للمريمين » من النصارى ، فانهم يقولون بربوبية العذراء . وهؤلاء كانوا بجزيرة العرب وهم معدودون في نظر جميع الطوائف النصرانية هرطقة ومن أهل البدعة .
ومن أنه تعالى ليس إله جمال فقط ، ولا إله أرياح فقط ، ولا إله قبيلة

(١) الهرطقة الخارجون على الدين عند النصارى .

واحدة دون أخرى ، ولا أمة واحدة دون سواها ، خلافاً لقدماء اليونان ،
و... و... الخ الخ .

عقيدة الايمان الكاملة بالله

تلخيص عقيدة الايمان الكاملة بالله بأنه : (هو الله 'أحد' ، الله 'الصمد' ، لم
يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) (١١٢) ، (وربك يخلق ما يشاء ويختار)
(٦٨ : ٢٨) وهو (خالق كل شيء) (١١٢ : ٦) ، (إياك نعبد وإياك نستعين)
(٤ : ١) وهو (رب العالمين) (١ : ١) ، (والله ما في السموات وما في الأرض)
(١٠٩ : ٣) ، (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (٢٩ : ٢) (الذي
خلق السموات والأرض وما بينهما) (٥٩ : ٢٥) (الله ربكم ورب آبائكم
الأولين) (١٢٦ : ٣٧) (الله الذي سخر لكم البحر) (١١ : ٤٥) ، (وألقى
في الأرض رواسي أن تميد بكم) (١٥ : ١٦) ، (الله الذي رفع السموات
بغير عمد ترونها) (٢ : ١٣) . (وهو الذي رسل الرياح بشفار بين
يدي رحمته) (٥٦ : ٧) ، (جعل لكم الأرض بساطاً) (١٩ : ٧١) ،
(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) (٧٢ : ١٦) (والله أنذبتكم من
الأرض نباتاً) (١٧ : ٧١) ، (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ،
ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسفط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في
ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٥٩ : ٦) ،
(إن الله على كل شيء قدير) (٢٠ : ٢) ، (إن ربك هو القوي العزيز)
(٦٦ : ١١)
« أحسن »

يوسف (ع) يبدأ بالدعوة الى التوحيد

آ (٣٨) ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي، إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثلاثون فقام السيد فتح الله اليماني وقال:
يقول يوسف : (واتبع) مع تمسكي بالدليل والبرهان (ملة آباي ابراهيم و)
ابنه (اسحق و) ابنه (يعقوب) الأنبياء الكرام ، المعروفين في العراق وسورية
والحجاز وفلسطين ، فأنا بحمد الله من بيت نبوة وتوحيد ، (ما كان) ما صح
(لنا) نحن معاشر الأنبياء (أن نشرك بالله من شيء) لا شيئاً من الشرك ولا
شيئاً من الشركاء ، فلا نشرك في عبادته ، وهو شرك الألوهية ، كما لا نشرك معه
غيره ، وهو شرك الربوبية ، و (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا) معاشر
الأنبياء الهادين (وعلى الناس) المهتدين ، فلذلك نحن وهؤلاء الناس شاكرون له
فعلاً بتمسكنا بالتوحيد ، وشاكرون له قولاً بتقديرنا هذه النعمة واعترافنا بهذا
الفضل ، وثناءنا لله عليه (ولكن أكثر الناس) مع الأسف خاصة هؤلاء المصريين
(لا يشكرون) نعمة التوحيد ، لا فعلاً باتباعهم ، ولا قولاً بالثناء على مجديها .
ووجه كون التوحيد من فضل الله انه تعالى نصب الأدلة التي ينظر فيها الانسان
ويستدل بها ثم لطف بمن لطف حتى توفى للتوحيد ، وقد نصب مثل تلك الأدلة
لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكنهم لم ينظروا ولم يستدلوا اتباعاً لأهوائهم فبقوا
كافرين غير شاكرين ، قال تعالى : (وقليلٌ من عبادي الشكور) (١٣: ٣٤)
والشاكرون في المائة لا يتجاوزون عدد الأتامل ، ولا حركات العوامل .

واتبعت ملة آبائي ، ابراهيم واسحق ويعقوب

— ١ —

وقام صنع الله الصيداوى^(١) وقال :-

ملة آباء يوسف

كان يوسف عليه السلام تابعاً لملة آبائه ، عقيدة وشريعة ، وكان تابعاً في ذلك لأبيه يعقوب ، التابع لأبيه اسحق ، التابع لأبيه ابراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، (فالملة) هي في البدء لابراهيم ، وأما أنسالة المذكورون ، فتابعون له فيها ، وإن كانوا أنبياء . ومن أمثلة ذلك أن أنبياء بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام ، تابعون له في شريعة التوراة وعقيدتها ، مؤبدون لها ، مفسرون لمعانيتها ، حصون على العمل بها والرجوع اليها ، مع ان كل واحد منهم ، نبي ، وقد يكون المعص منهم رسولا أيضاً ، وقد يكون كثير منهم أصحاب أسفار مجيده .

اصول الدين الموجودة في كل ملة موصدة

نعلم من سابق قوله : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ولاحق قوله (واتبعت ملة آبائي الخ) ان ملة آبائه هذه التي اتبعها هي الايمان بالله وبالآخرة ، ثم بالطبع كل من آمن بالله والآخرة لزم أن يعمل عملاً صالحاً ، وهذه الثلاثة هي أصول دين الله تعالى الموجوده في كل ملة ، لا بنيان فيها دين ودين ، بل الأديان فيها سواء ، قال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٦٢:٢) وقال تعالى :

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَبُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣ : ١١٤) ، وقال
تعالى : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِنْ رِزْقِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
وَكُنْ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (٤ : ٣٨) ، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ
فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ
وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٩ : ٢٠ و ١٩)
وقال تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيتَّخِذُ
مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمْ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩ : ١٠٠) ، وقال تعالى :
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، حَتَّى يُمِطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ، وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٩ : ٣٠) وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
أَخَاهُمْ شُعَبِيًّا ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَارْجِعُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلَا تَعْتُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢٩ : ٣٦) ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ
اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا ﴾ (٣٣ : ٢١) ، هذا ما يحضرنى الآن من الآيات التي تجمع الأصول الثلاثة
المهمة ، وهي الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح .

أركان الإيمان الستة

ويزاد على هذه الثلاثة ثلاثة أيضاً ، وهي : الإيمان بالملائكة والأنبياء والكتب
السمائية ، ومجموع الستة هو أركان الإيمان ، وهذه الستة مذكورة في نحو قوله

تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ (عَلَى حُبِّهِ) ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ ، وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢ : ٢٧٦)

العمل بأركان الايمان شرط مهم في الدين

فالعمل شرط مهم لاندحة عنه ، إذ ليس الغاية من الدين مجرد الاتساع اليه ولا مجرد فهمه ومعرفته حق المعرفة ، فان ذلك لا يهدي إلى خير ، ولا يدفع شراً ، وإنما العمل الانتفاع بكل ما جاء فيه ، هو الذي يرفي صاحبه إلى ذرى الكمال ، وذلك « كالطب » ، فانه لا يكفي أن يعتقد الإنسان أنه نافع ، فيبرأ من مرضه وأوصابه ، وإنما يحصل ذلك باستعماله والالتزام بأوامره ، والانتفاء عن نواهيه ، ولذلك حرصت جميع الأديان على تبين هذه الحقيقة للناس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٤٩ : ١٥) ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَوَلَّوْا وَجُوهَكُمْ ﴾ الخ الآية التي تقدمت ، فالبار الصادق التقى هو بحكم هذه الآية من جمع بين العقيدة الصحيحة ، والأعمال البدنية والمالية والأخلاق الحميدة ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيحاً وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْلَ الصَّالِحَاتِ ، مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَتَخَلَّفُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يَظْلَمُونَ تَقِيَرًا ﴾ (٤ : ١٢٢ و ١٢٣) وفي القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ : أَتَتَّخِذُونَ عِنْدَ اللَّهِ

عَمَدًا ؟ فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ إِلَى مَنْ كَسِبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ٢ : ٨٠ - ٨٢ ﴾ وفي القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ؟ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢ : ١١١ و ١١٢)

ونقل عن المسيح مامناه : « كل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، ووقعت على ذلك البيت ، فلم يسقط ، لأنه كان مؤسساً على الصخر ، وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها ، يُشَبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت فسقط ، وكان سقوطه عظيماً » (مت ٧ : ٢٤ - ٢٧) ونقل عنه أيضاً مامناه : « ماذا تظنون ؟ كان لإنسان ابنان ، فجاء إلى الأول وقال يا بني ، اذهب اليوم اعمل في كرمي ، - فأجاب وقال : ما أريد ؛ ولكنه ندم أخيراً ومضى ، وجاء إلى الثاني وقال كذلك - فأجاب وقال : ها أنا ياسيد ، ولم يعص ، فأبى الاثنين عمل إرادة أبيه ؟ قالوا له : الأول - قال لهم يسوع : الحق أقول لكم ، إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله . » (مت ٢١ : ٢٨ - ٣١)

عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد

كان نسب يوسف عليه السلام غامضاً عند المصريين ، وكان يحسب أنه من غمار

الناس ، سواء أيام وجوده عبداً في بيت العزيز ، أو في أزمئة سجنه ، ولكنه لما وجد أنه اضطهد اضطهاداً زائداً ، وقد حانت له الفرصة ، أظهر نسبه أمام الفتيين فبغتا عند سماعها كلامه ، وعظم في أعينها أكثر من ذي قبل ، إذ قال لهما إني متولد من سلالة الموحدين ، دعاة التوحيد ، وقد اتبعت ملتهم وهم إبراهيم وإسحاق عليهما صلوات الله ورحمته وبركاته ، ويعقوب حفظه الله : فإن كنتم ممن سمع بهم فقد كفا كما مسمعتاه وإن كنتم لم تسمعا بهم ، فسلوا عنهم من أهل « ما بين النهرين » وأهل مملكة « آرام » ومملكة « أبي مالك » .

وغني عن البيان أنه لا يريد بهذا القول الفخار بذكر سلسلة النسب ، لأن سائر الشرائع السماوية جاءت تدعو نحو التعصب للقبيلة والتمسك بالأنساب ، ففي الحديث الشريف : « المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم » ، ولكن يوسف عليه السلام ذكر آباءه ضمن ذكره اتباع عقيدة التوحيد :

أو تقول : ذكر ذلك على سبيل التحدث بالنعمة ، لأعلى سبيل الفخر والمنجبية وعلى كل فهو « ديمقراطي » صميم ، وليس فيه شيء من « الشيوعية » .

وهنا نذكر الشيء بالشيء فنقول إن إبراهيم عليه السلام ولد سنة (٢٦٢٠) ف.هـ وكل حياته (١٧٥) سنة ، وبعد (١٠٠) سنة من عمره ولد له إسحاق عليه السلام فيكون إسحاق قد عاش مع أبيه (٧٥) سنة ، وكل حياة إسحاق (١٨٠) سنة ، وبعد ٦٠ سنة من عمره ولد له يعقوب عليه السلام ، فيكون يعقوب قد عاش مع أبيه (١٢٠) سنة ، وكل حياة يعقوب (١٤٩) سنة ؛ وبعد (٩٣) سنة من عمره ولد له يوسف عليه السلام ، فيكون يوسف قد عاش مع أبيه (٥٦) سنة ، وبذلك أمكن ليوسف أن يتلقى التوحيد ويتلقنه جيداً من أبيه يعقوب ، كما أمكن ليعقوب أن يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إسحاق ، كما أمكن لإسحاق أن

يتلقاه ويتلقنه جيداً من أبيه إبراهيم ، فضلاً عن أن كل واحد منهم قد صار فيما بعد نبياً ورسولاً كريماً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم .

إذا تقرر هذا ، فقلوه : ﴿ واتبعتملة آباي .. الخ ﴾ يحمل على اتباع فرد من أفراد الأمة لنبينا ، بالنسبة لمدته التي قبل نبوته ، حينما كان من أمة أبيه يعقوب تابعاً صرفاً له ، ثم صار بعد ذلك رسولاً ، كما قال : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك ، قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف في هذا مع أبيه نظير « لوط » عليه السلام مع عمه إبراهيم ، حيث كان قبل نبوته فرداً من أفراد أمة عمه ، تابعاً له ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ (٢٩ : ٢٦) ، ثم صار لوط من بعد ذلك نبياً ورسولاً ، كما قال تعالى ﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴾ (٣٧ : ١٣٣) وهكذا كان « يوشع بن نون » ، فتي موسى بالنسبة لموسى ، وسليمان بالنسبة لأبيه داود ، عليهم جميعاً الصلاة والتسليم .

﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾

— ١ —

وقام مولانا صنعة الله الهندي وقال :

يوسف ينهى عن الشرك بالله والسواب القرآن في

استعمال النفي بمعنى النهي

يقول يوسف عليه السلام : (إن كل شيء من أمر الجاهلية والتوثن هو تحت أقدامنا ، هو موضوع ليس له قيمة ، هو خلاف قضية العقل ، ولا يجوز لنا شرعاً ولا عقلاً أن نجعل لله شريكاً في عبادته وطاعته ، كما في ربوبيته) أو هو نفي بمعنى

النهي ، أي لنته عن الشرك . ويوجد في القرآن من هذا الأسلوب الشيء الكثير ،
واليكم بعض الشواهد :

(١) قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وَسَمَىٰ فِي خَرَابِهَا ؟ .. أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾
(٢ : ١١٤) ، أي لا ينبغي للمؤمنين أن يمتنعوا هؤلاء من دخول مساجدهم ،
إذ ما كان لهم في حكم الله وشرعه أن يدخلوها إلا خائفين ، فهذا النفي كناية عن
نهي المؤمنين من أن يمتنعوا أحداً من الخلق الأذى بمساجدهم .

(٢) قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) ،
أي لا يباح لكم ذاكم ، فهو نفي للاباحة ، أو هو نهي بمعنى لا تؤذوا .. الخ .

(٣) قوله تعالى ﴿ لَا يَمْسَسْهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٥٦ : ٧٩) ، أي لا يجوز
لهم مسه بغير طهر ، أو هو نهي في المعنى أي لا يمسسه إلا المطهرون .

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾
(٤ : ١٤٠) أي لم يكن ليجعل من أحكام شريعته ، ما يلزم المسلمين
بالخنوع والانتقاد لأحكام الكافرين ، ولا يوجب عليهم السكون والطمأنينة
لسلطانهم ، لأنه يريد أن تكون كلمة الذين كفروا هي السفلى ، وكلمته هي العليا ،
أو هو محمول على النهي ، والمعنى لا تجعلوا أيها المؤمنون سبيلاً عليكم للكافرين ، قال
تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾
(٤ : ٥٨) ، فكلمة « منكم » صريحة في أنه ليس المؤمنون أن يطيعوا أولي الأمر
من غير أنفسهم إلا أن يتقوا منهم تقاة ، الى غير ذلك من الشواهد والأمثال القرآنية .

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الانبياء

دين التوحيد هو الدين الخالص الذي جاء به الأنبياء حتى المسيح ، فالسميع

ما جاء لينقض الناموس ، الذي أساسه التوحيد ، بل ليتمم ، ولكن « بولس » الذي هو أفضل مقدس عند النصارى ، نقض الناموس حجراً حجراً ، ولبنة لبنة ، مع انه يوجد عندهم نصوص واضحة في عقيدة التوحيد ، وإنما هم مع الأسف - أهملوها وأولوها وحرفوها .

نصوص عقيدة التوحيد في الانجيل

منها - قول المسيح : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) (يو ١٧ : ٣) فبيّن أن الله تعالى هو الإله وحده ، وأن يسوع المسيح إنما هو رسوله فقط ، وهذا هو الذي دعا إليه القرآن ، وهو عندهم بمثابة ما هو عندنا ، من قولنا : « لا إله إلا الله » ، محمد رسول الله ، وكان يجب أن يكون هذا النص أساس عقيدتهم ، يرد اليه بالتأويل كل ما يوهم خلافه ، لأجل المطابقة بين المنقولات بعضها مع بعض ، ولأجل موافقة المنقول للمقول .

ومنها - أن احد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا ، فأجابته يسوع : أول الوصايا « إسمع يا إسرائيل : الرب آلهنا رب واحد - فقال له الكاتب : جيداً يا معلم بالحق نطق ، لأنه واحد ، وليس آخر سواه ... فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له : است بعيداً عن ملكوت السموات » (مر ١٢ : ٢٩ و ٣٢ و ٣٤) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ، فإن فرضنا أنه ورد ما ينافيها ، وجب رده اليها .

الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية

والمراد من قوله : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ في جواز نوعي

الشرك في الربوبية ، أي الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية أما الشرك في الربوبية فهو أن يطاع غسير الله في أمر ونهي ، وتشريع وتحليل وتحريم ، وبعبارة أخرى : أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم لذاته ، فهذا هو الشرك في الربوبية ، المشار إليه بقوله : (أرباب متفرقون خير ؟) الخ وقد فسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً بطاعتهم فيما يحلون ويحرمون .

والشرك في الألوهية ، هو أن يعبد مع الله سواه ، وبعبارة أخرى ، أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية العامة ، فترجو نفسه وتضاف ضره ، وتدعوه وتذل له . سواء شعرت في توجه قلبك إليه بأنه ينفعك بذاته ، أو تأثيره في إرادة الله تعالى ، بحيث يفعل لأجله ما لم يكن بفعله لولاه ، بمحض فضله ورحمته ، فهذا هو الشرك في الألوهية ، المشار إليه بقوله تعالى : **يؤمنون بالله وآياته** من دونه إلاّ أسماء .. الخ (آ ٤٠٠) .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس)

— ١ —

وقال جمال الدين البغدادي : —

- (التوحيد فضل من الله على عباده) -

يقول يوسف : إن ما ذكر من الترك والاتباع ، الذي حاصله ملة التوحيد ، هو من فضل الله علينا ، لأنه وإن يكن بكسبنا وأعمال أفكارنا وسعيها ، ولكننا إنما وصلنا إليه ، وحصلنا عليه ، بتوفيق الله تعالى ، أو إن (ذلك التوحيد هو من فضل الله علينا) وليس علينا نحن خاصة ، بل (وعلى) عموم (الناس) لأنه الوسيلة العظمى ، لجمع كلمة الخلق ، والذريعة الكبرى لانتظام أمور معاشهم ، فحسن العاقبة في معادهم . وكيف لا .. وإن فكرة الحب الانساني العام هي ناشئة

عن الاعتقاد بوحدانية الله ، الله الذي نحن جميعاً (رعيته) وهو (الملك) الواحد الأكبر لجميع هؤلاء (الرعايا) فإذا (المملكة) واحدة و (مليكها) واحد و (الراية) واحدة ، و (التابعة) واحدة ، إذا فتحنا (إخوة) في الدين ، وليس بيننا (أجنبي) في هذه (المملكة الدينية) ، أو إن (ذلك) التوحيد (من فضل الله ؟ البخ) فهو مائدة مباركة منصوبة لمن يريد الجثو حولها ، والتناول منها ، فنصب هذه المائدة هو من محض كرم الله على عباده ، وأما التوجه إليها وتنفيذ الروح بها ، فهو متعلق بكسبنا ، ولا ينال إلا بعمل الفكر وسمي العقل ، ومع كل ذلك ، فهذا التوجه لهذه المائدة ، يحتاج الى لطف وتيسير ، من الله تعالى ، فعلى كل نحن أسراء فضل الله تعالى الموهوب والمكسوب ، قال الشاعر :

فله سبحانه الحمد دوماً وله الشكر بكرة وعشية

وهذا القول (ذلك من فضل الله علينا ..) يذكرنا بقوله تعالى : (يا بني اسرائيل : اذكروا نِعْمَتِي التي أنعمتُ عليكم ، وأنيّ فضَّلْتُكُمْ على العالمين) (٤٦ : ٢) ، فهذه التفضلة التي فضّلهم الله بها على عالمي زمانهم ، أي على الأمم المعاصرة لهم هي (التوحيد) الذي ذكر انه من فضل الله على بيت ابراهيم . ومع ذلك فهو لم يخص شخصه ولا بيته بهذا الفضل ، بل قال : (وعلى الناس) فعممه للجميع ، موافقة للواقع .

المؤمنون اخوة

فالشرائع السماوية تهدم (الوحدة القبيلية) (والوحدة العنصرية) وتكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس والعنصر ، فالمؤمنون كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره ، قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) (١٠ : ٩) وقال : (إنّا أكرمكم عند الله اتقاكم) (١٣ : ٤٩) ،

وقال عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية) وقال ﷺ : (من دعا الى عصبية قات ، مات ميتة جاهلية) ، وقال أيضاً : (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) ، وقال ﷺ : (الناس سواسية) ، وقال : (رب أشعث أغبر ، لو أقسم على الله لأبره) ،

(المراء بأعماله لا بنسبه)

وثبت في الصحيح انه ﷺ قال : (من بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه) ، رواه مسلم ، وخطب النبي ﷺ في خطبة الوداع : (أيها الناس ، إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى) .

وقال الشاعر :

الناس من جهة التثيل أ كفاء أبوم آدم والأم حموا
فإن يكن لهم من قبل ذا نسب يفاخرون به فالطين والماء
وقال :

وإني وإن كنت ابن سيد (عامر) وفي السير منها والصريح المذهب
فما سودتني (عامر) عن ولادة أبي الله أن أسمو بأمر ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكي

فهذا مع إمكانه أن يفتخر بالآباء ، لم يفتخر إلا بنفسه ، وقد أخذ هذا المعنى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الأحساب تتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ورآى (المأمون) يوماً رجلاً ، من أبدع الناس زياً ، ووقاراً وهيبة ،
وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فسأل عنه المأمون ، ف قيل له : « إنه عالم من العلماء ،
فأنشد عندئذ قول الشاعر :

كن ابن من شئت واتخذ أدباً يفتيك مأثوره عن النسب
إن الفتى من يقول : ها أنا ذا ليس الفتى من يقول : كان أبى

وتكلم رجل عند (عبد الملك) بكلام ، ذهب فيه كل مذهب ، فقال له
وقد أعجبه : (ابن من أذت يا غلام ؟ — فقال : ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، التي
نلت بها هذا المقعد منك ، — قال : صدقت) واخذ هذا المعنى (ابن دريد) فقال :

كن ابن من شئت وكن مؤدباً فانما المرء بفضل حسه
وليس من تكرمه لغيره مثل الذي تكرمه لنفسه

قالت عائشة (رض) مامعناه : (اذا كرمت أفعال الانسان لم يضره لؤم
آبائه ، واذا لؤمت ، لم ينفعه كرم آبائه) وقال المعري :

لو يعلم الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
لولا سبحانه وأخلاقه لكان كالعدوم في وجده (١)
ومجده أفعاله لا الذي من قبله كان ولا بعده

وقال الحريري : تباً لمفتخر ، بعظم نحر ، انما الفخر بالتقى ، والادب بالمنقى .

وما الفخر بالمعظم الرميم وانما فخار الذي يبغى الفخار بنفسه

وهذا (عصام) الجرمي ، الذي ترقى الى أن صار حاجباً عند (النعمان بن
المنذر) ، لم يكن شريفاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشد الناس بأساً ،
وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، فصار أقربهم الى النعمان ،

قال له رجل يوماً : (كيف بلغت هذه المنزلة من الملك ، وأنت دنيء الأصل ؟) — فقال :

نفس عصام ستودت عصاماً وعلمته الكرم والاقداماً
وصيرته سيداً هاماً

وبذلك صار يقال : (كن عصامياً ، ولا تكن عظامياً) أي افتخر بنفسك
لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم .
وللسيد رئيس المؤتمر :

إني وإن أكن فرع بيت طاهر ما ينبغي لي أن أكون بفاخر
لكن فخاري بالوداعة والتقى والعلم والقلب السليم العامر — ي (١)
﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾

— ١ —

وقال الاستاذ فكرة التركي :

الغمز من قناة الفتيين ، ادب الانبياء في الخطاب

يقصد يوسف من قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أن العدد
الجم من الغفلة لا يشكرون الله بتوحيده ، بل يكفرون به إذ يشركون ، فإن
كفارة النعم أكثر من الحصى ، وقد أراد يوسف (ع) بقوله هذا غمز قناة
الفتيين بأنها لم يكونا من الشكر في شيء ، ولكنها بالعكس كفرا بنعمة التوحيد
ولم يستعملا فيها قواهما العقلية .

ويلاحظ أنه لم يقل (ولكن أكثركم لا تشكرون) كما أنه قال : (يا صاحبي

(١) قوله العامري فيه تورية لأن اصول السيد رئيس المؤتمر القدماء من محلة بني عامر
في بلدة غزة هاشم .

السجن) (آ: ٢٩) ولم يقل (أيها المسجونان) وقال ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (آ: ٤٠) ولم يقل (ولكن أكثركم لا تعلمون) تحسناً للجواب ما أمكن ؛ وتلطيفاً للخطاب ماتيسر ، كما قال تعالى : ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ : (١٦ : ٢٥) وقال : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب ، لانفضوا من حولك﴾ (٣ : ١٥٩) وقال تعالى : ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ (٦٨ : ٤) ، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ومظاهر أمره ، كلهم حكماء رحماء لطفاء أصحاب أخلاق كريمة وذوو خطابات أدبية ، خلافاً « للبولسين » الذين تقلوا (كما في مت ١٥ : ٢٢ - ٢٨) أن امرأة كنعانية صرخت للمسيح ليشفي ابنتها المجنونة ، وكانت تقول له : (ارحمني ياسيد يا ابن داود) ، فلم يجبها بكلمة ، فصارت تصيح وراءه ، حتى طلب تلاميذه منه صرفها ، فقال لهم : (لم أرسل إلا الى خراف إسرائيل الضالة) فجاءت وسجدت له قائلة : (ياسيد أعني) - فقال لها : (ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) - فقالت له : (نعم ياسيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها) - حينئذ شفى لها ابنتها بعد هذا العناء العظيم ، والالحاح الكبير . فانظر الى هذه الجوابات القاسية ، والخطابات اليابسة ، في مقابلة كلام تلك المرأة اللطيف ، وخطابها الأديب ؛ بل إنهم تقلوا عنه أيضاً أنه كان يخاطب قومه بني إسرائيل بالسب واللعن بأفحش الألفاظ ، كقوله : (أيها المراؤون ، والقادة العميان والجهال والحيات أولاد الأفاعي) (مت ٢٣ : ١٣ - ٣٦) ، وقوله : (إن العشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله) (مت ٢١ : ٣١) ، كل هذا نقوله ، ونحن بريئون منه الى الله ، ولا نعتقد أنه صدر من السيد المسيح ، وإنما ننقله الزاماً للخصم ، وإظهاراً لما

تجر اليه قصص هذه الأناجيل ، وبياناً لكمال وأدب البولسيين مع السيد المسيح عليه السلام ! ! (هذا ما أعطانا الله وألهم ، وهو بالحقائق أعلم)

يوسف (ع) يدعو الى التوحيد

آ (٣٩) يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ؟ !

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثلاثون فقام العلامة التونسي وقال :
يقول يوسف (ع) بلسان الهادي الداعي مخاطباً الفتيين السجينين :
(يا صاحبي السجن) أي يا صاحبي في السجن ، وقد أضاف صاحبيه الى السجن كما تضاف الليلة للسارق في قولك : يسارق الليلة ، فكما أن الليلة مسروقة فيها غير مسروقة ، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غير وهو يوسف ، خاطبها بذلك تحبباً اليها وتودداً لأن النصيح علاج مر فليصحبه شيء من حلو الكلام ، مثل : يا بني اسرائيل . يا أهل الكتاب . يا أيها الذين آمنوا التي صدرت بها جمل الوعظ في كتاب الله المجيد ، (أأرباب متفرقون) في العدد والتكاثر ، أو مختلفون ، أي أن تكون لكما أرباب شتى يستعبدكما هذا ، ويستعبدكما هذا (خير) لكما (أم الله الواحد) أي أم يكون لكما الله الواحد الذي لا يشارك في ربوبيته ولا في الوهيته (القهار) الذي لا يغالب بل هو الغالب ؟ أفتوني مأجورين ، أفيقوا من نومكم وأجيبوني — وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام المصرية كالفرعنة والعجول ، أبيس وبوخيس وغيرها ، والشمس والتاسيح ونحوها من معبودات قدماء المصريين : الذين كانوا يمتقدون

بالحلول المأم . وانبثاث الروح الالهي في العالم ، انبثاثاً متفاوتاً على قدر مافي المخلوق من مزايا وقوى .

يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ؟!

— ١ —

وقال السيد عبد المال البحريني (١) وقال

يوسف يهدي الفتيين بالحاجة والاقناع

وقف يوسف ، وقد اتى على صاحبيه الفتيين نظرة الجد والحما ، وقال : أيها الصاحبان ، واحد منكما رأى نفسه في (المنام) أنه يحمل الكأس في يده للملك ، وثانيكما رأى نفسه في « الحلم » « يحمل الخبز على رأسه ، وأما أنا بدوري فاني أرا في « اليقظة » أحمل بين جنبي قلباً ملئ عيرة دينية ، وتوفرت لديه أسباب الدعوة والارشاد ، ولذلك وبهذه المناسبة أقول لكما : « ناشدتكما الله أأرباب متعددون متشاكسون ، متعادون ، مختلفون ، أفضل ياترى ؟ أم الله الواحد القهار ؟ افكروا وأجيباني ، إذ يجب أن يكون لنا أدمغة ، كما لنا رؤوس ، فابحثا فيما بعد هذه الجلسة ، في ذات أنفسكما ، هل تريان ضميركما يشهد أن الأرباب المتعددة ، سيما المتشاكسة المختلفة ، خير من الواحد ؟ أظن أن جوابكما سيكون باختيار الشق الثاني ، فان لم يحضر كما شيء في هذا الموضوع الآن ، فأجيباني فيما بعد .

يا شريكي في عواطفي وبلاي ، يا شريكي في هذا السجن الذي هو مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، ومحل الهوان ، يا شريكي في السجن الذي تصفو فيه المودة ، وتخلص النصيحة ، يا شريكي في هذا السجن الذي تصير فيه الأعداء أصدقاء والبُعداء أنسباء ، أفتيان في سواي .

(١) نسبة الى البحرين احدى الامارات العربية في شرق جزيرة العرب .

أنا لا أزيد كما علماً في ذلك ، فأنتم تعرفان حق المعرفة ، وتحسنان أن نحييا عنه الجواب الشافي ، فأترك الجواب في ذلك لكم ، لتحكموا بما يوحى به إليكم والوجدان الطاهر ، والعقل الكامل ، أنتم فطنان عاقلان ، فلا توقموا نفسيكم فيها يخالف العقل السليم ، والنقل الصحيح ، فمضى أن تصفيا إلى نداء الضمير ، وتعطيا جواباً يرضاه الواقع .

أنا لا أريد أن أسادر كما فيما تعتقدان ، ولا أقصد أن أهجم عليكم هجمة قاهرة بل كل الذي أريد منكم أن ترجعوا إلى عقولكم ، وتستفتيا ضمائركم ، وتسألوا وجدانكم ، أطالبكم بالحاح أن تتأملا . فان الحقيقة بنت الفكرة ، والتدبر قطرة الصواب ، والاستدلال بريد اليقين .

انظروا بعقولكم ، ولا تدوسوها تحت أقدامكم ، فان الله إلهنا أنتم عليكم بها لتستعملوها ، انظروا لا تستبد بكم رجال دينكم الكهنة المصريون ، كما يستبد رجال الأديان الأخرى بعقول عوامهم ، ليكن دينكم عقلياً منطقياً ، ولا يكون دين تقليد وجمود ، غير موافق للعقل والمنطق .

هذا ما يرمي إليه كلام يوسف عليه السلام ، وقد أبرر وسطها في صورته الاستفهام ، حتى لا تنفر طباعها من المفاجأة بالدليل من غير استفهام ، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج بفيلها ، فدا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها ، ثم كذا إلى أن يصل إلى الازعان بالحق . وأما الفتیان فلم يجيبا يوسف على سؤاله بشيء ، كيف وهما قد يؤلمها ويكوي غرورها وكبرياءها أن يكون جوابها : ﴿ الله الواحد القهار خير ﴾ .

وليسمح لي السادة أن أتكلم الآن كلمة عن الديانة الوثنية بمصر .

الديانة الوثنية بمصر

علمنا أن يوسف عليه السلام ، جرى في خطابه للفتيين على طريقة الاختصار

وأجمل الكلام إجمالاً ، ولم يشأ أن يتوسع في تسمية آلهة المصريين الدينية ، مثل المعجل (أيس) والتاسيح والهرر ، بل وكل الحيوانات المنحطة ، ولم يطلق لنفسه العنان في قباحة اعتقادهم (بالثالوث) الأقدس ، المركب من أب وأم وابن ولهم ثوابت متعددة ، أي مجموعة آلهة ثلاثة ، ثلاثة ، كما في الثالوث المسيحي ، إلا أن المسيحيين ليس لهم إلا (ثالوث واحد) وأيضاً ان المسيحيين يعتقدون أن الثالوث هو إله واحد ، ولكن المصريين لا يعتقدون أن ثلوثهم إله واحد ، بل ثلاثة ، غير أنهم يعملون معاً ، وكان لكل مدينة معتبرة (ثالوث) يحرسها ويستحق عبادتها على نوع خاص ، ومن أشهر ثوابثهم (اوسوديس وايسيس وهورس) .

إن ديانة المصريين هي الشرك كباقي الأمم القديمة في فينيقية وأشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة والعرب ، والمصريون يعتقدون بآلهة كثيرة فائقة العدد ، ويعتقدون بانبثاث الآلهة في كل العالم ، فعندهم ان كل شيء فيه جزء من الألوهية بحيث يستحق العبادة ، فأجازوا السجود لكل مخلوق ، وأجازوا أن يكون الانسان إلهاً ومألوماً في وقت واحد (وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ) (١٢٦ : ٧) ، * مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي * (٣٨ : ٢٨) ، * أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى * (٢٤ : ٧٩) .

كان لكل مدينة في مصر معبود لا يشبه معبود ما يجاورها من المدن ، وكانوا يسمون الإله في هليوبوليس (را) وفي منفيس (أمون) ، وكان لهم في منفيس ثور يدعى (أيس) وفي جهة أخرى ثور يدعى (بوخيس) وكانوا يعبدون الشمس والليل والفجر والاسد والكبش وابن آوى وغير ذلك من الحيوانات . (مرعى)

يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟

— ٢ —

وقام الأستاذ الازهري (من علماء الأزهر) وقال :

سأمرد على مسامع أعضاء المؤتمر الفوائد التي تضمنتها هذه الآية الكريمة :

واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثله من القرآن

الفائدة الأولى — نجد أن يوسف (ع) قد خاطب الفتيين بأنها رفيقاء في السجن ، وعشيراء في هذه المحنة ، تزلفاً اليها ، وارتباطاً بها وإبناساً لذفوسها ، واحتراماً للشخصية ، ذلك كله تمهيداً لسيذكره من وعظها ودعوتها ، وهذا أسلوب لطيف في الوعظ ، كما تقول الواعظ اليوم .

(أبها الاخوان) مثلاً ، ومنه نعلم أنه ينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بكلمة تشف عن ارتباطه بالموعوظين واحترامه وتنزله لهم ، وحفظ كرامتهم ، لكي يستعدوا بذلك لقبول الموعظة ، الأمر الذي يشفع للواعظ بسبب ما يستلزمه الوعظ من فطنة الالهانة ، فعندئذ يسهل على الناس احتمال الوعظ ويقرب قبولهم إياه ، وقد قال صاحبنا أمير البيان الأمير شبيب أرسلان : والنصح علاج مر ، فليصحبه شيء من حلو الكلام ، وهذه طريقة القرآن الكريم التي حري عليها كثيرة جداً ، واليك بعض أمثلة ذلك :

أولاً — قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْصَرْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٤٧ : ٤) ،

أراد تعالى أن يأمرهم بالتقوى فاستهل ذلك أولاً بتشريفهم بأنهم سلالة يعقوب ، وأنهم مهبط نعمة الله ، وأنه تعالى فضلهم على معاصريهم .

ثانياً — قال تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل ، اذكروا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴾ (٢ : ٤٠) .

ثالثاً — ﴿ يا أهل الكتاب ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؟ يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ ﴾ (٣ : ٧٠ و ٧١) .

رابعاً — ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوتوا الكتاب ، آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ الخ (٣ : ٤٦) .

وتراه إذا أراد وعظ المؤمنين وإرشادهم يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا تقولوا « رَاعِنَا » وقولوا « انظُرْنَا » ﴾ (١٠٤ : ٢) ، ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، استعينوا بالصبر والصلاة ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢ : ١٥٣) ، ويقول : ﴿ يا أيها آمنوا ، ادخلوا في السلم كافة ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢ : ٢٠٨) .

كما إنك تراه إذا خاطب كفار أهل مكة ، ناصحاً ومرشداً لهم يقول : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢ : ٢١) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناس ، كَلِمَاتُ الْأَرْضِ حَلَالٌ طَيِّبًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٦٨ : ٢) ، ويقول : ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا ، وَبَثَّ مِنْهَا رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١ : ٤) .

هذا .. وأما نحو 'قل' يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون (١٠٩ : ٢٥١) الخ فهو ليس من باب الوعظ والارشاد ، ولكنه من نوع التنصل والانفصال ، ولم يرد في القرآن الكريم « يأيها المنافقون » قط ، فافهم دقائق كتاب الله ، والا فالسلام عليك .

واجب المصلح المرشد

الفائدة الثانية - تتعلم من هذه الآية أن الرجل المصلح المرشد ينبغي أن لا يفتر عن تعليم الناس وإرشادهم في كل حين ، وفي أي مكان ، وعلى أي حال ، من عسر أو يسر ، من ضيق أو فرج ، من سرور أو حزن ، فهذا النبي يوسف الصديق قام بالنصح والارشاد وهو في سجنه ، فيأماً بحق الانسانية ، ووفاء بواجب الدين ، نصح ولم تعفئه ضيقة السجن ، ولا زور التهمة عن أن يشع عن الناس سحب الضلال ، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ، وبجلوها بجلاء المتعلمين والحكام ، فكان بذلك من المحسنين ، فليقم العلماء والمرشدون ، الى انتشارالأميين من وهذه الجهل ، وليرفعوهم الى سماء الفضيلة ، وليعمموا العلم بين أفراد الأمة كما تتعلم من كلام السيد الصديق درساً آخر ، وهو أنه ينبغي للعالم المرشد أن لا يخل برشده وهدايته على أحد مطلقاً ، حتى لو كان ريباً في الوطن أو الجنسية ، فقد نصح عليه السلام للمصريين ، وهو عريب عن وطنه وعن جنسيتهم ، ولا ينبغي للعالم اذا وجد في بلد غير بلده ، أو بين أقوام ليسوا من جنسه ، أن لا يفرأ درس الوعظ والارشاد ، ولا يقوم بهداية العباد ؛ بل عليه ذلك اقتداء بهذا النبي الصديق وبأبي الأنبياء الكرام ، الذين لم يقتصروا في هدايتهم وإرشادهم على أهل وطنهم ، وذوي جنسيتهم ، بل عمموا العلم للجميع . . .

الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا اكراه في الدين

الفائدة الثالثة - تتعلم من هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها ، أن الدعوة الى

الحق . لا تكون بالسيف والسنان ، ولكن بالدليل والبرهان ، وذلك كما قال تعالى :
 « فَذَكِّرْ لِمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ » ، لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ » (٨٨ : ٢١ و ٢٢) ، وقال تعالى :
 « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا » (٧٩ : ٤)
 وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾
 (٤٢ : ٤٨) وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ
 فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَعْمَىٰ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال
 تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ » ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٩ : ١٣٠) وقال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ
 بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ » ، قُل لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٦ : ٦٦) وقال تعالى :
 ﴿ فَتَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴾ (٣٩ : ٤١) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ،
 أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ ﴾ (٢٥ : ٤٣) وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيْتُ عَلَيْكُمْ ،
 أَتُلَوِّرُ مَكْمُوهاً ، وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ .. ﴾ (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ
 يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا
 عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ ، وَلِيَ دِينِ ﴾
 (١٠٩ :) وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ،
 أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠ : ٤١) وقال تعالى :
 ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ،
 اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤٢ : ١٥) ، فمعنى قوله (لا حجة) لا خصومة ،
 لأن الحق قد ظهر وصرت محجوجين به ، فلا حاجة الى المحاجة ، وهو على نية

مضاف ، أي لا إيراد حجة ، وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢٥٦:٢) ، وسبب نزول هذه الآية مارواه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : (كانت المرأة تكون مقلاة (أي لا يعيش لها ولد) ، فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده ، فلما اجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا قدح آبائنا) ، فأنزل الله (لا إكراه في الدين) ، وأخرج ابن جرير عن طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : (نزلت « لا إكراه في الدين » في رجل من الأتقياء من بني سالم بن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكبرُ ههنا ؟ ، فأنهياها ، فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفسيرات أنه حاول إكراهها ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال : (يا رسول الله ، أيدخل بعضي النار ، وأنا أنظر ؟) ولابن جرير عدة روايات ، في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا ، وإن المسلمين بعد الإسلام أرادوا (إكراه) من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب — على الإسلام فنزلت الآية ، فكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ قال : عندما أنزلت : (قد خير الله أصحابكم ، فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم) هذا هو حكم الدين الذي يزعم كثيرون من أعدائه أنه قام بالسيف والقوة ، قالوا : (إنه كان يُعرض على الناس ، والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه) ، هذا كلام أعداء الإسلام ، وهو تنت أو جهل وإلا فهل كان السيف يعمل عمله في « إكراه » الناس على الإسلام في مكة ، أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفياً ، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع التعذيب ولا يجدون رادعاً ، حتى اضطر النبي وأصحابه إلى الهجرة ؟ أم يقولون : إن ذلك « الإكراه » وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام ؟ ، وهذه الآية قد نزلت

في غرة هذا الاعتزار ، فإن غزوة « بني النضير » كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ، وقال البخاري إنها كانت قبل غزوة « أحمد » ، التي لا خلاف في أنها كانت في شوال ، سنة ثلاث للهجرة ، وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب .

لقد نقض « بنو النضير » عهد النبي ﷺ فكادوا له وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصروهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه « باكره » أولادهم المتهودين - على الاسلام ، ومنعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين « الاكره » على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (٢ : ٢٥٦) .

وقبل أن نختم هذا الموضوع نريد أن نذكر قوله تعالى : ﴿ وقل للذين أتوا الكتاب والأميين ، أسلمتم ؟ ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولتوا فإنما عليكم البلاغ » ، والله بصير بالعباد ﴾ (٣ : ٢٠) ، فهذه الآية نص قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله .

هذا وأما حديث : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله) فليس بالاكره على تلك الكلمة ، لأنهم يمكنهم المهاجرة ، والرسول لا يمنعهم منها ، ولأن المراد (بالناس) العرب في الجزيرة الذين كانوا استحقوا القتال باعتداءاتهم المتوالية على المسلمين ونقضهم المواثيق والعهود التي جاء ذكر نقضها في الآيات التي قبل هذه الآية ، وجرت القاعدة الإلهية غالباً ، أنه متى قيل في القرآن : (يا أيها الناس) مثلاً ، فالمراد قریش وسائر عرب الجزيرة .

أو أن المعنى حتى يقولوها ولو ظاهراً بلسانهم ، غير مكلفين أن يعتقدوها —
بدليل التعبير « بالقول » ، وبكلمة « وحسابهم على الله » ، فيكون الغرض كف
شرهم فقط ، لأنهم اذا تظاهروا بالاسلام ، لم يقدرُوا على إيذاء المسلمين المخلصين ؛
وهناك وجه رابع في الجواب عن هذا الحديث ، وهو أنه وقع فيه اختصار
من الراوي له ، إذ الأصل : (أمرت أن أقاتل الناس — أي قريش — حتى
يتمكن مرید الاسلام من قوله لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى
لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ أي حتى يصلوا في الضعف الى أن لا يقدرُوا
أن يفتنوا المؤمنين ، وهو يدل على أن الغرض من القتال كان إيجاد الحرية للمسلمين
في العقائد الدينية ، قال تعالى : ﴿ ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى
يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٨ : ٦٧) .

والذي يضطرنا الى نحو هذه التأويلات قرائن منها رواية الترمذي في سننه عن
جابر انه بعد أن أتم الحديث السابق قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ، لَسْتَ
عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (٨٨ : ٢٢) ، فهذه الآية التي استشهد بها رسول الله ﷺ
تؤيد ما قلناه في معنى الحديث ، وإلا فأي مناسبة بينها وبينه ؟ ومنها التوفيق بين
الحديث المذكور وبين الآيات القرآنية الكثيرة مثل قوله : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (١٨ : ٢٩)
و (ليس عليك هداهم) (٢ : ٢٧٢) ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنْ
اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢٨ : ٥٦) ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي
الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً . أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾
(١٠ : ٩٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا
اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٥ : ١٠٨) ﴿ لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،

فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ، فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦ : ٩٠﴾ (٦ : ٩٠) و ﴿١٠﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩ : ٧﴾ (٩ : ٧) وهذه الآيات وأشباهاها ليست منسوخة كما قال بعض الناس ، وقد ورد في الحديث الشريف : (سيكون أفلس يضرّبون القرآن بعضه يبعض ليطلوه ويتبعوا ما تشابه منه ، ولكل دين مجوس وهم مجوس أمتي و كلاب النار) .

انطباق الآية على معتقد البولسيين من التصاري ورد استدلالهم

على معتقدهم في ألوهية المسيح

الفائدة الرابعة — ما أصدق هذه الآية الشريفة على « الثالث » معتقد البولسيين . فانه يحتوي على أرباب متفرقين في الجوهر ، متفرقين في العمل ، أما كون هذا الثالث مركباً من أرباب ، فلأنهم قالوا ، إنه مركب من الآب وهو رب وإله ، والابن وهو رب وإله ، والروح القدس وهو رب وإله ، والثلاثة واحد ، وأما كون هذه الارباب الثلاثة ، أو الاقانيم الثلاثة أو الجواهر الثلاثة ، أو ماشاءوا يقولون — متفرقين في الاصاله ، فلأن أصل الجميع أقنوم الآب ، وأما الأقنومان الآخران فمشتقان منه أو متوالدان منه ، أو ماشاءوا يقولون ، وأما كون هذه الثلاثة متفرقين في الجوهر ، فلأنهم قرروا أن جوهر الآب شخص مستقل قائم بنفسه وكذا جوهر الابن ، ومثله جوهر الروح القدس ، وأما كون الثلاثة متفرقين في العمل ، فلأن الآب هو خالق ما كان وما يكون ، والابن به كان ما كان وبه يكون ما يكون ، والروح القدس ، هو الذي يثبت العلم والنور والهدى في قلوب الناس كما كان هو الناطق بالانبياء .

هذا ومن المدهشات استدلال التصاري على مستقدم في الوهية المسيح بقوله خطاباً لله تعالى : ﴿أنت في وأنا فيك﴾ (يو ١٧ : ٢١) ولكن هذه الجملة مقتطعة من مقال طويل ، لو سمعنا الا انسان لم يقدر أن يستنتج منه معتقدهم ، وإليك نقل هذا المقال ، في دعائه لأتباعه هكذا : (ليكون الجميع واحداً ، كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ، ليؤمن العالم أنك أرسلتني ، وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد ، أنا فيهم وأنت في ، ليكونوا مكمّلين الى واحد ، وليعلم العالم أنك أرسلتني ، وأحببتهم كما أحببتني) (يو ١٧ : ٢١ - ٢٣) ، ويتقلون أيضاً عن المسيح عيسى أنه قال : (إني أنا في آبي ، وآتم في ، وأنا فيكم) (يو ١٤ : ٢٠) ، فهذه العبارات ان ادعوا أنها تدل على ألوهية المسيح ، فلا شك أنه يلزمهم أن يقولوا ، إن تلاميذه أيضاً آلهة ، لأن ما عبر به عن نفسه ، عير به أيضاً عنهم بلا فرق ، وقريب من هذه التعابير ، قول النبي ﷺ لبي (رض) : (أنت مني وأنا منك) أخرجه في الصحيحين من حديث البراء بن عازب ، وفيهما عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو ، أو قلت نفقة عيالهم في المدينة ، جمعوا ما كان معهم في ثوب واحد ، ثم قسموه بينهم بالسوية ، هم مني وأنا منهم) وكذلك قال ﷺ عن حبيب : (هذا مني وأقامه ، هذا مني وأنا منه) ، رواه مسلم في صحيحه عن أبي برزة .

التثليث عند المصريين القدماء

الفائدة الخامسة — كان المصريون القدماء ، ومنهم المعاصرون ليوسف عليه السلام — من أهل « التثليث » ، ولكن ليس لهم « ثلوث » واحد ، بل كل مقاطعة تعبد « ثلوثاً » وكان أصحاب هيكل « منفيس » يعتقدون بثالوث مركب من « الله » قبل كل شيء ، ثم « الكلمة » ومعه « روح القدس » ولخولاء الثلاثة طبيعة

واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، قال « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » : (لا ريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس « كلمة » هو من أصل وثني مصري ، دخل في غيره من الديانات كالمسيحية ، و « أبولو » المدفون في بلدة « دهلي » في الهند يدعى « الكلمة » ، وفي علم اللاهوت الاسكندري الذي كان يعَلِّمه القسيس « بلاتو » قبل المسيح بسنين عديدة ، « الكلمة هي الإله الثاني » وتدعى أيضاً « ابن الله البكر » ، فالمصريون يقولون بلاهوت الكلمة ، وإن كل شيء صار بواسطتها ، وإنها « منبثقة » من الله ، وإنها هي الله ، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية ، وكذلك « أرسطو » وغيرها ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بقرون (كذا قاله « بونويك » في كتابه « عقائد قدماء المصريين ») ، وهو أشبه شيء بما في مفتتح إنجيل « يوحنا » بلا فرق ، ولكن اعتقاد مبشري المسيحيين « مقدس » ، واعتقاد قدماء المصريين « نجس » !!! وبمناسبة ذكر التثليث عند قدماء المصريين سأذكر التثليث عند باقي الأمم :

١ — (التثليث عند البراهمة) : « البراهمة » من الهند يعبدون « ثالوثاً » مركباً من « برهما وفشنو وسيفا » ، وعندهم أن هذه ثلاثة أقانيم متحدة لا تنفك عن الوحدة ، فهي إله واحد ، وعندهم أن « برهما » هو « الآب » و « فشنو » هو « الابن » و « سيفا » هو « الروح القدس » .

فبرهما الآب — هو الممثل لمبادئ التكوين والخلق ، وفشنو الابن — يمثل حفظ الأشياء المكونة — من الزوال والفساد ، وهو منبثق عن اللاهوتية ، وسيفا الروح القدس — هو الذي له التصرف والتحويل في الكون ، ويرمزون له بصورة « حمامة » (كذا قاله « موريس » في كتابه « الآثار الهندية القديمة » ج ٢) وهذا هو نظير اعتقاد مبشري المسيحيين في « ثلوثهم » من

كل وجه . ولكن ثالوث اليراهمة نجس ، وثالوث مصري للمسيحيين مقدس !!! ..
 ٢ — (التثليث عند البوذية) : البوذية يمدون « بوذا » ويسمونه « خو » ،
 ويقولون إنه إله ، له ثلاثة أقانيم ، هذا بالنسبة لبوذي الصين ، وكذلك بوذي
 « جيست » يقولون إن « جيفا - » مثلث الأقانيم ، وكذلك شيعة « تاوو » التي
 ابتدأت قبل المسيح بنحو ٦٠٤ سنين ، وكانوا يسمون إلهاً مثلث الأقانيم ، كان
 « تاوو » عندهم هو العقل الأول ، انبثق منه واحد ، ومن الثاني انبثق ثالث ، وعن
 هذا الثالث انبثق كل شيء ، وهذا القول بالتولد والاعتناق أحسن الأعلام « موريس »
 لأن قائله وثني ، ولكن الانبثاق عند هؤلاء الوثنيين باطل ، بخلاف الانبثاق
 عند مبشري المسيحيين فإنه حق !!! ..

٣ — (التثليث عند الكلدانيين) : الكلدان قوم أراهيم لهم ثالوث مركب
 من « إل » و « بعل » و « حيا » وعندهم أن « إل » هو الله ، و « أما » بعل « فتعريبه
 (كما في قاموس جورج بوست) رب أو سيد ، وهما اللفظان اللذان يلقب بهما المسيح
 كثيراً ، و « أما » حيا « فيرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة ، فهو قريب
 من « روح القدس » ؛ وعليه فيكون ثالوث مبشري المسيحيين ، « الأب والابن
 والروح القدس » تفسيراً لثالوث الكلدان « إل وبعل وحيا » ، ولكن ثالوث الكلدان
 غير صحيح وثالوث مبشري البروتستانت هو الصحيح !!! ..

٤ — (التثليث عند الفرس وأهل آسية) : قال « دوان » في كتابه « حرافات
 التوراة » كان الفرس يمدون إلهاً مثلث الأقانيم ، ويسمونها « وزمرد » ، مزار ،
 أهرمن « فاو زمرد الخلاق » ، ومزار ابن الله الخالص والوسيط ، وأهرمن
 الملك ، ودين مبشري البروتستانت يشبه دين هؤلاء ولكن عقيدة المبشرين صحيحة
 وعقيدة أسلافهم الفرس باطلة !!! ..

٥ — (التثليث عند اليونان) : كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ، ولكنه ذو ثلاثة أقانيم ، كذا في كتاب « سكان أوربا الأولين » ؛ وإن اليونان كانوا يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم ، ونقل « دوان » عن « اورفيوس » أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : « كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم » ، وهذا اعتقاد اليونانيين القدماء . الذين جال « بولص » في بلادهم جولات واسعة ، وامتزج بهم امتزاجاً شديداً ، ثم إن الكنيسة المسيحية بعد دخول نصرانية « قسطنطين » فيهم ، اقتبست منهم هذا التثليم ، ولكن يوجد فرق جوهري بين عقيدة هؤلاء الوثنيين ، وبين عقيدة مبشري البروتستانت المحققين ، وهذا الفرق ينحصر كله في قولنا : إن عقيدة وثنيي قدماء اليونان باطلة ، وعقيدة هؤلاء السادة المبشرين حقة !!! .

٦ — التثليث عند الرومان : كان الرومان الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث يؤمنون بالله أولاً ، ثم « بالكلمة » ثم « بالروح » ، (كذا في كتاب الخرافات ومخترعوها) تأليف « فسك » ص ٢٠٥ ، وهل هذا سوى عقيدة مبشري البروتستانت اليوم ؟ غير أنهم نزلوا « الكلمة » على السيد المسيح .

٧ — (التثليث عند الفنلنديين) : كان للفنلنديين البرابرة الذين كانوا في شمال بروسية — إله اسمه « تريكلاف » ، وقد وجد له تمثال في « هرتونجرج » ، له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ، قاله « بارخوست » في القاموس العبراني ، وتريكلاف مركب من كلمة « تري » ومعناها ثلاثة ، وكلمة « كلاف » ومعناها إله .

٨ — (التثليث عند الاسكندنافيين) كان الاسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ، يدعونها « أودين ، تورا ، فري » ويقولون : الثلاثة الأقانيم إله واحد ، وقد كان أهل اسوج وزوج والدينبارك يفاخر بعضهم بعضاً في بناء

الهياكل لهذا الثالث ، وكانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتماثيل هذا الثالث ، ويدعون « أودين » باسم الأب ، « تورا » باسم الابن البكر « فري » باسم مانع البركة والنسل والسلام والغنى ، (كذا قاله « دوان » في كتابه « خرافات التوراة » ص ٣٧٧) ، وغير خاف ان هذا الثالث الاسكندنافي قريب من ثالث مبشري البروتستانت الأذكىاء ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، ولكن عقيدة هؤلاء المبشرين الكرام صادقة ، وأما عقيدة أسلافهم الاسكندنافيين فهي كاذبة !!! ..

هذا ما تيسر لنا نقله في بحث الثوالمث .

فرق النصارى الشهيرة

الفائدة السادسة - فرق النصارى الشهيرة مئة :

الفرقة الاولى الأريوسية :- « يقولون بالآه واحد ، هو الله ، وينفون الالهية عن المسيح وعن الروح القدس ، ويحملون ماورد في الأناجيل من تسمية الله بالرب وتسمية المسيح بالابن - على الحجاز ، فهم من أهل التوحيد الصرف ولأجل رد قول رئيسهم « آريوس » بأن المسيح إنسان فقط ، ليس فيه لاهوت فقد انعقد أول مجمع في « نيقية » ، وهو محل قريب من الاستانة سنة (٣٢٧) مسيحية ، ويقال له « المجمع النيقاوي » وهو الذي قرر عقيدة « الأمانة » أو « قانون الإيمان » وسمى الأريوسيين « هراطقة » ولكن فكرة آريوس هذه ، وهي عقيدة التوحيد ونفي الالهية عن المسيح ، قد انتشرت في أوربا في أواسط القرن السادس عشر ، لا سيما في إيطاليا ويولا فند و ترانسلفانيا ، وقد اشتهرت هذه البلاد الأخيرة بأنها صارت مهد القول بتوحيد الله تعالى ، ثم انتشرت كنائس الموحدين من النصارى في أوربا وغيرها ، وكذلك اقيمت لهم المدارس في كبريات

المدن العلمية ، وفي كل مملكة من الممالك الاسلامية ، وآريوس هذا يعتقد في المسيح عين ما يعتقد فيه المسلمون ، ويقول عن المسيح إنه ابن الله مجازاً ، وقد كان كاهناً للكنيسة الاسكندرية ، وكان معه على هذا الاعتقاد أتباع من النصارى ورجال الدين كثيرون ، خصوصاً في الشرق ، خصوصاً في مصر وفلسطين ، وكان على مذهبه من ملوك الرومان الملك « قسطنس » والملك « فالنص » ولما فتح القوط الغربيون « اسبانيا » في القرن الخامس للميلاد كانوا يدينون بالآريوسية ، وظلوا على ذلك قرناً وبعض القرن ، وفي أواخر القرن السادس تولى اسبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » ، اتبع المذهب الكاثوليكي سنة (٥٨٧) للميلاد ، فتبعه الأساقفة ثم الرعية ، فعادت اسبانيا إلى مذهب كنيسة رومية ، ولقد كان المذهب الآريوسي مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية وقضوا نحو مئتي سنة ، وهم على مذهب آريوس ، والذين استبدلوا مذهبهم في أول الأمر إنما استبدلوه مسaire إلى « ريكارد » ، لا عن اقتناع البرهان لأن مذهب آريوس أقرب إلى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية « قاله « جين » مؤلف تاريخ المملكة الرومانية ، وهذه الفرقة من النصارى « موحدة » .

وقد حكم الجمع الذي ألفه الملك قسطنطين سنة (٣٢٥) ميلادية بمقاومة آريوس وإحراق كتبه وتحريم اقتنائها ، ولما انتشر تعليمه من بعده قضى « تيودوسيوس » الثاني باستئصال مذهبه وإبادة الآريوسية بقانون روماني صدر في سنة ٦٢٨ مسيحية ، وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضاً .

الفرقة الثانية المكدونية - يقولون بألوهية المسيح دون الروح القدس ، نسبة إلى « مكدونيوس » اسقف القسطنطينية ، وقد انعقد الجمع الثاني القسطنطيني سنة (٣٨١) مسيحية ، لأجل الرد على مكدونيوس الذي أنكر ألوهية الروح القدس وهذه الفرقة من النصارى « مشنية » .

الفرقة الثالثة الملكانية — يقولون بالثالوث ويطيبتين وأقنوم واحد ، أي للمسيح طبيعة الناسوت وطبيعة اللاهوت ، أو تقول : طبيعة الانسان وطبيعة الإله وكل طبيعة على حدها ، لم تمتزج مع الطبيعة الأخرى ، ومن هؤلاء اللاتين والروم الارثوذكس والكاثوليك والسريان الجديد واليروتسنافت فجميعهم يقولون بطيبتين في أقنوم واحد ، أو بأقنوم واحد في طبيعتين ، وبناء عليه يقولون عن السيدة مريم إنها أم الإله أو أم الله ، أو والدة الإله أو الرب ، وهؤلاء طبعاً « مثلثة » .

الفرقة الرابعة التساطرة — يقولون بالثالوث وأن المسيح له أقنومان ، أقنوم ناسوتي وأقنوم لاهوتي ، وأن أقنوم اللاهوت ليس متداخلاً معه ، بل هو مشرق عليه إشراقاً فقط ، ولذلك فليس للمسيح عندهم سوى طبيعة واحدة بشرية ، وأن السيدة مريم لم تلد إلا أقنوم الناسوت ، فليست هي أم الإله ، بل أم الانسان فقط وهم عند باقي طوائف النصارى أشبه بالرائيين ويسمونهم هرطقة ، وكان معظم أهالي هذا المذهب موجوداً في العجم وفيما بين النهرين أو حوالي ذلك ، ويوجدون عند منابع الزاب ، وبحيرة اوزمية ، وما بين العراق وحدود الفرس وجنوبي الهند ، ويسمون « الكلدات » ، ويوجدون في الموصل على نهر دجلة وفي أذربيجان ، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الثالث الاقسوسي سنة (٤٣١) ميلادية ، وينسب هذا المذهب الى « نسطوروس » أسقف القسطنطينية الذي لا يقول بالتجسد ، أي تجسد أقنوم الكلمة ، ولا يقول بالانحداد ، أي اتحاد أقنوم الكلمة بناسوت المسيح ، خلافاً للملكانية ، وقد قرر المجمع المذكور أن أصحاب هذا المذهب هرطقة ، ولكنهم على كل حال « مثلثون » .

الفرقة الخامسة اليعقوبية — يقولون بالثالوث ولكن المسيح له طبيعة واحدة

واليعاقبة هم اليوم عبارة عن أربع طوائف ، السريان غير الكاثوليك أو إن شئت قلت : السريان القديم ، والأرمن والأقباط بمصر والحبشة ، هؤلاء يعتقدون أن المسيح طبيعة واحدة إلهية مترتبة من طبيعتين ، يمتنون أنه صار امتزاج الطبيعة الألوهية بالإنسانية أو بالعكس ، وهم عند غيرهم من النصارى هراطقة ، ولأجل الرد عليهم انعقد المجمع الرابع الخلقيدوني سنة (٤٥١) م وقرر الطبيعتين .

الفرقة السادسة المريمية — تقول بربوبية العذراء ، وانها أقنوم آلهي ، هؤلاء أصحاب بدعة في نظر طوائف النصارى ، (راجع خلاصة تاريخ الكنيسة للمعلم لومند الفرنسي تعريب الخورى يوسف البستاني المطبوع في بيروت ، وغيره من تواريخ الكنيسة تقف على العجب العجيب من الخلقات والتفصيلات الكثيرة) وقبل الختام وعلى ذكر « الأقباط » تقول كان الأقباط أيام أجدادهم الفراعنة في التوثن ، وما زالوا كذلك الى سنة (٣٨١) ب . م ^(١) ، ومن هذا التاريخ اعتنقوا النصرانية بأمر « ثيودوسيوس » ولكن على مذهب يعقوب البرادعي كما علمت ، وأما الرومان الذين كان لهم الانتداب على مصر فكانوا « ملكانية » ، ولذلك كان يوجد حزازات بين الحكومة الرومانية المنتدبة ، وبين القبط الوطنيين المنتدب عليهم .

شرك المصريين القدماء في الربوبية والالهوية

الفائدة الثامنة — نعلم من قوله « أرباب ... الخ » ومن قوله الآتي « ماتعدون ... الخ » أنه كان يوجد عند المصريين القدماء شرك في الربوبية وشرك في الألوهية ، فشرك الربوبية كان عندهم باتباع رؤساء دينهم الكهنة فيما يحلون لهم وما يحرمون عليهم « وشرك الألوهية كان عندهم بعبادة غير الله تعالى كالمجلى أيس وسواه ، وقد أخذ النصارى عن المصريين وسواهم هذين النوعين من

(١) أي بعد المسيح .

(٢ : ٤٤) ، وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١ : ٦١ و ٢ و ٣)

سبب اقتصار يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد فقط

الفائدة الحادية عشرة - الدعوة إلى اصلاح العقائد ، ووضع التوحيد محل التوثن : أمر مهم يقصد منه نقل النفوس من ملة إلى ملة ، ومعلوم أن تحويل النفوس من عقيدة إلى أخرى صعب جداً على الداعي وعلى المدعو ، ولذلك سأل موسى عليه السلام ربه أن يشرك معه في الرسالة شقيقه هرون ، فقال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِ مِثْرُونِ أَخِي ، أَشَدُّ ذَبْهُ أَزْرِي ، وَآخِرُ كَيْفٍ فِي أَمْرِي ﴾ (٢٠ : ٢٩ - ٣٢) : وبعث عيسى عليه السلام إلى أهل انطاكية برجلين اثنين ليدعواهم إلى الايمان ، فقابلوهما بعتاد وتكذيب ، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بحشنها ، قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَهُكُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢٦ : ١٣ و ١٤) ، وبالنظر إلى صعوبة ذلك وأهميته جداً اقتصر يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد ، وأما الارشاد إلى أحكام الدين العملية - مثلاً - فهو أيسر من اصلاح العقائد ووضع الايمان موضع الجحود ، ووضع التوحيد موضع التوثن ، على أن التوحيد هو الأساس ، فيجب البدء بالدعوة إليه أولاً ، وأما الأعمال الفرعية فيتبني تأخير الدعوة إليها بعد اعتناق الأصول ، وبهذا تعلم نكتة كون يوسف لم ينه رئيس السقاة عن سقي ربه خمرآ ، فتفهم هذا ، والافالسلام عليك.

مثل من يبيع عذبة آلهة والربأ راءه أكل

البيع المملوك لشرب ، عذبة راءه أو لملك راءه

الفائدة الثانية عشرة - نظير هذه الآية التي نطق بها يوسف عليه السلام قول

الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، رَجُلًا ، فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ، وَرَجُلًا ، سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ ﴾ (٣٩ : ٢٩) ، فالرجل الأول مملوك من المالك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي انه عبده ، فهم يتجاذبون ويتماورونه في مهنٍ شتى ، ومشاده (أشغال) متنوعة ، واذا بدت لهم حاجة تدافعوه ، فهو سادر (متحير) في أمره ، قد تشعبت (فرقت) الهموم قلبه ، وتوزعت (فرقت) أغراضهم أفكاره ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته ؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ؟

والرجل الثاني قد سلم لملك واحد وخلص له ، فهو معتق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمته واحد ، وقلبه مجتمع ، فأى هذين العبدین أحسن حالاً وأجمل شأنًا ؟ ، والمراد تمثيل حال الرجل الأول الذي يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه ، من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبا ، ويبقى هو محيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد ؟ ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ ومن يطلب رزقه ؟ ومن يلتبس رفقته ؟ فهمته شعاع ، وقلبه أوزاع .

وحال الرجل الثاني الذي لم يثبت إلا إلهها واحداً ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما يرضيه ويسخطه ، لا يذل إلا لهذا السيد الفذ ، ولا يعتمد إلا عليه ، منه يطلب حوائجه ، وهو مع غيره حر ، معها مسه الضر .

فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها

الفائدة الثالثة عشرة - لقد فتح لنا يوسف الصديق بهذا المقال باب الوعظ والتبشير على مصراعيه ، والقرآن الكريم لا يزال يرشدنا الى هذه الفكرة الحميدة ، فكرة الدعوة والارشاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣ : ١٠٤) وهذا الأمر والنهي هو التواصي في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَّاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصُوا بِالصَّبْرِ ﴿١٠٣﴾ ، ثم إن لهذه الدعوة الى الخير والأمر والتبهي مرتبتات ، فالمرتبة الأولى هي دعوة هذه الأمة مسار الأمم الى الخير ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من التور والهدى ؛ وعليه فالخير والمعروف هو الاسلام ، والمنكر هو الشرك والكفر ، ودعوة يوسف هتتا من هذا القبيل . والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والتبهي - هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتنهائهم عن المنكر ، وعليه فالخير والمعروف هو الواجبات ، والمنكر هو الحرام .

قال تعالى : ﴿ لَسَعَيْنَ الْقَدِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥ : ٧٨﴾ .

صفات الداعي الى التوحيد

ولأننا بمناسبة دعوة يوسف لطهين الوثنيين نريد أن نذكر ما يجب أن يكون عليه « الداعي » من الصفات :

(١) العلم التام بما يدعو اليه ، وهو العلم بالقراءات والاسنة والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين . وسلف الأمة الصالح ، وأهم ما يجب أن يعمل به « الداعي » من القرآن معاني الآيات المتعلقة بالنصارى والمسيح وأمه والحواريين ، والآيات التاريخية التي لها علاقتها بتاريخ اليهود .

(٢) العلم بحال من توجه اليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم الاجتماعية .

(٣) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمة ، ليتيسر « الداعي » بيان ما فيها من الباطل ، فإن المدعو إذا لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت الى الحق القوي . عليه غيره ، وأهم شيء في هذا الباب ، الوقوف على ما عند « النصارى » مثلاً ، من

المذاهب والتقاليد الدينية ، وأهم هذا الأهم ، مطالعة كتب قوار يخ الكنيسة وكتب الجدل التي لنا ولهم ، والوقوف التام على شرح ما بأيديهم مما يسمونه بالتوزاة والانجيل والتمكن من مواطن الخلاف بين فرق النصارى الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وما تعتقده كل فرقة في غيرها ، مع الوقوف التام على عقائد الروم الأرثوذكس والروم اللاتين والبروتستانت ، وما تقوله كل فرقة في شأن غيرها .

(٤) — يجب أن يكون « الداعي » نزيهاً عن السباب والشتائم والصخب ، دمث الاخلاق ، وديعاً ، حمولاً ، حريصاً على مراعاة العواطف ، واحترام من يناظره أو يدعوه ، لا ينطق ببنت شفة تمس كرامة مدعوه ، أو تجرح عاطفته ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) وأحسن شيء يربي في « الداعي » هذه الملكة ، مراجعته الآيات القرآنية الحاوية على الجدل المتبادل ، بين الأنبياء وأممهم ، والتأمل في ذلك تأملاً عميقاً ، لكي يتخلق بأخلاق الأنبياء ، ويتأدب بأدابهم ويتحمل كما تحملوا ، ويتلطف كما تلتطفوا ، فان في القرآن من ذلك العجب العجيب ، والكثر الثمين الذي لا يقدر بثمن .

اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين

الفائدة الرابعة عشرة — لقد حث يوسف صاحبي السجن في هذه الآية وما بعدها ، على التوحيد ، ولم يحثها على الايمان باليوم الآخر ، لأن ذلك كان من أكبر عقائدهم العتيقة ، من وجود يوسف بينهم ، ولولا اعتقادهم بالدينونة في اليوم الآخر ، ما قال عزيز مصر لامرأته ، لما وجدها خاطئة : ﴿ واستغفري لِرَبِّكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (آ ٢٩) والظاهر أن هذه العقيدة ، أتت للمصريين ، من طريق الوحي إليهم ، ولذلك كانوا يعرفونها قبل اليهود ،

وكانوا يمتقدون أن قلب الانسان ، سيوزن يوم القيامة ، لمعرفة إن كان يستحق الرحمة أو المذاب ، ولعل مرادهم من ذلك هو كمراد القرآن عند المحققين ، مما ذكره مشابهاً لذلك في قوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، أَتَيْنَاهَا ، وَكُفِيَ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢١ : ٤٧) ، فالمقصود المبالغه في بيان دقة الحساب وكمال العدل الإلهي ، في ديتونة الخلائق ، كأن أعمالهم أو قلوبهم ، توزن وزناً دقيقاً .

قال صربون القدماء ، كانوا يمتقدون يوم الدين ، وكذلك ينو اسرائيل « طبعاً » كما يفهم من قول يوسف : ﴿ إِنْخِي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣٧ آ) .

وجه عدم ذكر اليوم الآخر في التوراة

لم يذكر يوم الآخرة في اسفار العهد القديم ، لأن وجود بني اسرائيل بين المصريين مدة (٤٣٠) سنة على ذمة التوراة (خر ١٢ : ٤) أو مدة (٢١٥) سنة على ما حققه علماء التاريخ المدني - استدعى اقتباسهم قديم هذه العقيدة ، التي كانت عالقـة كثيراً بأذهان المصريين ، فانتقلت منهم لبني اسرائيل ، وأصبحت من الأمور التي لا يترددون في قبولها ، فلذا لم يحتاجوا للتذكير بها كثيراً .

وهناك وجه ثالث لعدم ذكر اليوم الآخر في التوراة ، هو أن اليهود ، كانوا في تلك الأزمنة ، قصيري الإدراك ، بلداء الشعور ، وكانوا ذوي رقاب صلبة (خر ٣٢ : ٩) ، فلذا ما كانوا يتأثرون ، ولا تتفعل نفوسهم بالمواعيد العاجلة ، انفعالها بالمواعيد العاجلة ، التي أكثرت كتبهم من ذكرها لهم ، لتلظ قلوبهم وقساوتها .

ولنا وجه ثالث في الموضوع ، وهو أن كتبهم كالتوراة والزيور دخلها نقص كثير ، ونسوا حظاً لما ذكروا به ، فلعل عدم ذكر اليوم الأخير ، هو من أمثلة هذا التقصان ، ومن أفراد ذلك الحظ الذي نسوه .

عقيدة اليهود القريسيين والصدوقيين يوم الدين

لقد نجم عن عدم ذكر اليوم الأخير في كتب العهد العتيق ، ضعف هذه العقيدة في اليهود ، وكأنها مع طول الزمن ، تلاشت من بين كثير منهم ، حتى أن اليهود انقسموا الى قسمين ، قسم يُعرفون باسم « قريسيين » يعتقدون يوم الدين ، وقسم يعرفون باسم « صدوقيين » ينكرون البعث والقيامة (مت ٢٢ : ٢٣ ، أع ٢٣ : ٨) وههنا نتذكر قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ، كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٦٠ : ١٣) هؤلاء « القوم المنضوب عليهم » هم يهود المدينة ، وهؤلاء « الكفار » الذين يئسوا من أن يلاقوا أقاربهم وأصحابهم ، لأنهم لا يعتقدون بالآخرة ، وهم الدهرية من العرب .

إذا تقرر هذا ، فكيف تقدر أن تفهم أن اليهود ، لا يعتقدون بالآخرة ، كالدهرية من العرب ؟ والجواب فيما يظهر لنا أن هؤلاء اليهود الذين هاجروا للحجاز كانوا من « الصدوقيين » الذين يقولون « لا بعث ولا قيامة » أو كان بعضهم « صدوقياً » وبعضهم « قريسياً » ولكن إذا طال عليهم الأمد ، وامتزج « القريسي » بكل من « الصدوقي » اليهودي والدهري العربي ، ضعف في جميعهم الاعتقاد بالقيامة ، فئسوا من الآخرة ، كما يئس دهر يو العرب .

ضعف عقيدة اليهود بيوم الدين طنت سبباً في كون

أكثر معجزات المسيح (ع) نزل على هذه العقيدة

قال الدكتور توفيق صدقي : « وكأنه لهذا - أي لضعف هذه العقيدة في اليهود - ولكثرة الشك بين الناس فيها - جاء المسيح عيسى عليه السلام ، لتبيين هذه العقيدة .

العظمى ، واشتهر بالتصريح بها ، أكثر من جميع من سبقه من أنبياء بني إسرائيل ، وقد بين قدرة الله تعالى على البعث والنشور بمعجزاته العظيمة ، كإحياء الموتى ، وخلقه من الطين طيراً ، وبوجوده هو نفسه بدون أب ، خلافاً لما اعتاده الناس ، فآلة تعالى الذي أجرى على يديه كل هذه الآيات البينات (أع ٣٠ : ٢٢) لا شك أنه قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

لذلك زى أن أكثر معجزات السيد المسيح عليه السلام ، هي ما له علاقة بإحياء الميت ليدل بذلك كله على قدرة الله التامة ، على البعث ، فات الذي خلقه بدون استيفاء أهم الشروط المعتادة ، في خلق الأحياء الراقية ، ثم اسحبها على يديه الموتى بل الجثث ، لا شك أنه قادر على بعث الخلائق يوم القيامة ، مهما طرأ عليهم من الفساد والانحلال والتغيير ، ومنها فقد من الشروط المعتادة ، أو اللازمة للحياة في هذه الدنيا ، لذلك قال تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وَلَتَجْزِيَنَّهُ آيَةً ﴾ فاناسي (١٩ : ٢٠) وجاء عن اسائه مكرراً في موضع واحد (٣ : ٤٩ و ٥٠) قوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي إذا علمتم بما جئكم به من الآيات ، ان الله موجود ، والله سيعيشكم للحساب ، يوم القيامة ، كان واجباً — عليكم إن كنتم تقولون — أت تتقوه كما أت التقوى ونطيعوني .

وجود المسيح (م) من غير أب آية على وجود القيامة

وقبل ختم هذا البحث ، يجب أن لا ننسى قوله تعالى في شأن المسيح : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (٣ : ٤٦) ، وقد قرئ ﴿ عِلْمٌ ﴾ — بدون لام — أي هو سبب العلم بها ، فانه هو معجزاته من أعظم الدلائل ، على إمكان البعث ، وهذه البشارة في الآية بحاز مرسل ، علاقته المسيحية ، فانه تعالى أطلق المسبب ، وهو العلم ، وأراد السبب ، وهو عيسى ومعجزاته ، كقولك

أمطرت السماء نباتاً ، وقرىء (عَلَّمَ) ومعناه ان تولد عيسى من غير أب ، دليل على جواز قيام الموتى من قبورهم ، وذلك لأن فرقة من اليهود ، وهم (الصدوقيون) كما قدمته لكم ، كانوا ينكرون القيامة (مر ١٢ : ١٨) فجعل الله تعالى ولادة المسيح من غير أب ، آية لهم على وجود القيامة ، أي كما جاء أن يولد شخص بدون أب ، يجوز أن توجد الناس يوم القيامة ، بدون وساطة آباء ، بل بمحض ارادة الله تعالى .

هذا هو الاحتمال الأول لهذه الآية الكريمة ، وفيه الشاهد هنا ، ولبعض المتأخرين احتمال ثان ، وهو أن المسيح عيسى ، كان علماً لساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ، ونقلها الى بني اسماعيل ، ولهذا قال لهم المسيح : (لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ، ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه ، يسحقه) (مت ٢١ : ٤٣ و٤٤) .

التعليق على قوله « أم الله الواحد »

الفائدة الخامسة عشرة : تعليقا على قوله : ﴿ أم الله الواحد ﴾ ، قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (١١٢ : ١ - ٤) (فالله أحد) إشارة لتوحيد الربوبية ، (والله الصمد) إشارة لتوحيد الألوهية ، الذي كان العرب على خلافه ، وقوله (لم يلد ولم يولد . . الخ) رمز لتوحيد الكمية ، الذي مشى النصارى على خلافه ، إذ أن اليعقوبية من النصارى والاتوخية ومنهم السريان القديم والأرمن والأقباط ، يقولون ان ليس للمسيح الطبيعة واحدة لاهوتية فقط ، وليس له طبيعة بشرية ، ومن نتائج هذه العقيدة القول بأن المسيح هو الله ، وان العذراء هي أم الله ووالدة

الإله ، وأما الملكانية ، ومنهم الانكليز والفرنسيون والألمان والاطليقيون والروم فيثبتون له طبيعة بشرية مع الطبيعة اللاهوتية .

التعليق على قوله القهار

القائدة السادسة عشرة — تعليقا على قوله = (القهار) ، بخلاف هؤلاء الأرباب التي من دون الله ، فهي مقهورة وضعيفة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، كَتَبَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَهِيَ أَوْهَنُ الْبُيُوتِ لَبِيبٌ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٩) مثل المشرك الذي يهب الوثن ، بالقياس الى المؤمن الذي يعبد الله ، مثل العنكبوت تتخذ بيتا ، بالاتساق الى رجل يبني بيتا باجر وجبص أو ينحته من صخر ، وكما أن وهن البيوت إذا استقر بها بيتا بيتا ، بيت العنكبوت ، كذلك أصغر الأدوات ، إذا استقرت بها ، حينا ديناء عبادة الأوثان ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَمْثَالُ نَصْرُهَا لِلْإِنْسَانِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٢٩ : ٤٣) .

هذه الكلمة (القهار) تشير الى أن الرب الإله المعبود ، لا يجوز أن يكون ذليلا مقهورا ، بل يجب أن يكون عزيزا علايا ، لأن المؤمن يجب أن يكون عزيزا ، بماأولى يجب أن يكون معبوده عززا .

يوسف (ع) يتابع الدعوة للتوحيد

آ (١٠) ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ ، سَمَيْتُمُوهَا أَتْمُ وَأَبَاؤُكُمْ ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الأربعون أقام الشيخ مصطفى الطنطاوي وقال :

ماليت يوسف أن وجه خطابه لصاحبيه في السجن ولان على دينها من أهل مصر بقوله : لا أخفي عليكم أيها المصريون القدماء إنكم ما عبدتم و (ما تعبدون من دونه) أي من غيره تعالى ذات إله جوهرية مشخصة ، سوى وهم صرف وعدم محض ، بل لا تعبدون (إلا أسماء) لا غناء فيها ، أربأ بكم أن تعبدوها ، إذ سميت مالا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقت تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون سوى أسماء فارعة ، ليس تحتها مسميات ، وهذه الخيالات المعبودة (سميتموها) سميتم بها (أنتم و) من قبلكم (آباؤكم) آلهة ، وهذه المسميات في الحقيقة والواقع مألوهة لا آلهة ، فما أشبه ذلك منكم بتسمية العرب للأناء الفارغ ملأنا ، وللسيارة الذاهبة قافلة ، وليست هذه التسمية في محلها ، بل هي كما قال القائل :

أسماء مملكة في غير موضعها كالحري يحيى انتفاخاً صولة الأسد

(ما أنزل الله بها) ولا ينزل ولن ينزل أبداً بتسميتها (من سلطان) من حجة ، إذ ليس بيدكم برهان على صحة عبادتها ، ولا عقل يسلم بذلك ، وإنما هي الشبهة تزوجت بتسويل الشيطان فحبلت بهذه المعبودات فولدتها ، فإذا هي تماثيل سيئة

المثال ، فمعبوداتكم وليدة شبهة ، ونتيجة تقليد ، فأني باطل أخذتم ؟ ؛ وأي حق رفضتم ؟ . . . والحق الحق أقول : (ان الحكم) في أمر العبادة والدين (الا لله) وحده لا يمدوه لسواه ، ثم بين ما حكم به فقال : (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) خاصة (ذلك الدين القيم) الثابت الذي دلت عليه البراهين ، والذي يقوم ويثبت به الحق ، والذي هو وحده الكفيل باصلاح الانسانية ، والذي يحمل في كيانه العزاء للمكذوبين في الحياة ومن اتتبتهم مصائبها ، وحلت بهم أرزاقها ، وهو الذي يحمل في كيانه ما يرضي النفس ويحقق لها مطامحها وآمالها في حياة أخرى ، تقوم على العدل بين الناس ، ويرتفع فيها العبن وعدم المساواة ، وهو الذي وحده يغرس الفضائل في النفس ، ويقتشر العواطف الكريمة ، وآمات الأخلاق الحسنة (ولكن أكثر الناس) أي السواد الأعظم من الناس في كل زمان ومكان (لا يعلمون) من أمر التوحيد شيئاً ، فالجهلاء على وجه الأرض أكثر من الجراد ، ولا يخلو معظم الناس أن يكون من أهل الخرق^(١) والثول^(٢) لأنهم تبع لكل ناعق وناعر ، والعوام كالأنعام ، لو كانوا عبيداً لأبي يوسف ، صاحب أبي حنيفة ، لاعتقهم وأسقطوا له عنهم .

(، تعبدون من دونه إلا أسماء سميتهم رها أتم وأباؤكم)

— ١ —

وقام السيد الحسام المقدسي وقال :

لي ههنا عدة مسائل بها يتم تفسير الآية وهي :

اعتناق المصريين ابوطباط النصرانية

المسألة الأولى — كان المصريون القدماء وثنيين منذ أول عهد الفراعنة ،

(١) الخرق بالضم والتحريك ضد الرفق ، وان لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .

(٢) الثول الجنون يصيب الشاة .

وبقيت الوثنية فيهم الى أن دخلت النصرانية في الديار المصرية بأمر « ثيودوسيوس » (سنة ٣٨١ م) فاعتنقها المصريون ، وهزم الأقباط ، فصاروا على دين الدولة الرومانية الحاكمة في مصر وانقرضت الديانة الوثنية ، وهدمت هيكلها وكسرت تماثيلها ، ولكن كان « الأقباط » متمذهبين بالمذهب « اليعقوبي » وكان « الرومانيون » أصحاب الانتداب في مصر متمذهبين بالمذهب « الملكاني » ، فالمصريون الأقباط كانوا نصارى يعاقبة ، والرومان الحكام كانوا نصاري ملكانية .

وجوب الجهر بالدعوة الدينية

المسألة الثانية — رمى يوسف صاحبيه وغيرهما من المصريين بحجر واحد ، فقال « ماتعدون » الخ بصيغة الجمع ، أو يقال : هو لم يرد التحكك بشخصية واحد منها ولكنه أراد الانتقاد على عمل عام أطبقت عليه الأمة المصرية ، وهو عبادتها لغير الله تعالى ، والمخاطبان يدخلان في كلامه دخولاً أولياً ، وآثم استعبدوا للأهواء ، وخضعوا للأوهام ، وحصرواعقولهم في مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم . تعرض للطعن عليهم في دينهم ، ولم يبال بما يعلمه من أن كل من تعرض لدين قوم وجد المقاومة الشديدة من الأفراد ، ثم من الجماعات ، ثم من الدولة نفسها التي يمثلها الملك وبلاطه — لم يبال بذلك لأنه يجب على الانسان الصدع بالأمر الديني والجهر بالدعوة الدينية على كل حال ، شأن أنبياء الله وهداة دينه .

أرموز المراهقة بعبادة المعبود

المسألة الثالثة — عبادة المعبود نتيجة لأحد أمرين : الأمر الأول شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه ، فهو لذلك يخضع له ، رغبة فيما عنده من

الخير ، ورهبة مما يقدر عليه من الشر ، ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة ، لتخفيف ما ألم به من الكروب .

والأمر الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يده من عظام الأمور ، فالإنسان يتخيل لذلك أن تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة له من الإله القادر على كل شيء ، لأنه يحبه حباً جماً ، فترى العابد الخاضع يحمل هذا وسيلة في عبادته إياه ، يرجو بها رضا المعبود الأول ، الذي هو وحده خالق العالم ، وهو وحده رب السموات والأرضين ، فإن كان حياً فهو الوسيلة ، وإن كان ميتاً قام قبره مقامه ، أو جعلت له صورة تمثله ، وقد تكون من حجر أو صقر أو ماشاء كل ذلك ، وتعطي هذه الصورة من الخضوع ما كان يعطي صاحبها في حياته .

وقد يكون التعظيم أو العبادة لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة ، أو لجناد نافع أو ضار ، لأن القوة التي أعطاها ، وبها ضر ونفع — أثر من آثار الخالق الوحيد ، وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل ، وتجعل صورته أو تمثاله مما يُقرَّب من خالق القوى ، ويسمون التمثال الذي على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب « صنماً » ؛ ويسمون الحجر الغفل من الصنعة « وثناً » ، وعلى ذلك ورد في القول المأثور عنه ﷺ : (لا تتخذوا بربى وثناً يعبد) .

العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته

المسألة الرابعة — العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشئ عن اسدشعار القلب بعظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، وعن اعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها ، أنها محيطه به ، ولكنها فوق

إدراكه ، فمن ينتهي الى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، وإن قبل موطنه أقدامه . مادام سبب الذل والخضوع معروفاً ، وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، ألهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية ، أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهرأ ، أو يعتقدون حلول حصّة كبيرة من الالهوية في الملوك ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد الى الشرك ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً ، وعبدوهم عبادة حقيقية ، كما هو الحال في المصريين مع فراعنتهم ، والحقيقة أن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له تعالى دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد ، فيعظم تنظيم العبادة ..

ليس في المخلوقات شيء من اللاهوت

المسألة الخامسة — يريد بقوله « الاسماء » انكم سميت ما لا يستحق الالهوية آلهة ، ثم طفتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة ، ليس تحتها مسميات لأن معنى الالهوية فيها معدوم ، محال وجوده ، وهذا كقوله : ﴿ اتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (٧٠:٧) ، وقوله : ﴿ ما يدعون من دونه من شيء ﴾ (٤٢:٢٩) ، فتعلم من هذه الآية الكريمة انه لا لاهوت في شيء من المخلوقات ، ما عبد منها وما لم يعبد ، لا فرق فيها بين الضار والنافع ، ولا بين القوي والضعيف) خلافاً لقدماء المصريين وأمثالهم .

وقريب من هذا ، وان يكن ليس من نوعه ، احترام الناس على اسمائها ، لا على أفعالها ، فتجد الانسان متى فهم أن جليسه هو من الاسرة الفلانية أهال عليه الاحترام ، وقدم له الاكرام ، جزافاً بلا كيل .

وجوب علم أمور الدين علماً استقلالياً استدلالياً

المسألة السادسة — سبق في الآية التي قبل هذه أن يوسف (ع) أحال الخاطبين إلى غرائزهم وخطرهم ، والآف أقحم في هذه الآية كلمة « وآبؤكم » ليدكرهم بتأثير التريية التقليدية في أنفسهم ، ومناشى عروض الشبهات لأذهانهم والزامهم الحجة بحاسبة عقولهم ، ومخالفة التقاليد والمسلات ، للغرائز والملكات وهم في الحقيقة تابعون لآبائهم في ذلك ، كما قال تعالى في إخوانهم من مقلدة قريش :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ — قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا — أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا تَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ ﴾ (١٧٠:٢) وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوْا الْعَذَابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (١٦٦:٢) ، ومن هذا تعلم بطلان التقليد للآباء والأجداد والمناسخ والعلمين والرؤساء ، لأنه جهل وعصية - جاهلية ، ويجب على الإنسان العلم الاستقلالي الاستدلالي في أمور الدين ، لاسيما الأحكام الأساسية الاصولية ، وإن في تحريم الأخذ بالدليل اقتيافاً على دين الله ، ونسخاً لكتابه ، وشرعاً لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهد ، وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل . وهو أقطع المذى لأوصال الحق . وأفعل المعاول لهدم قواعد الأديان ، وعلة الحلل لاقتشار البدع التي تذهب بهداية الدين ، وتستبدل بها الخرافات ودحل الدجائين .

هذا ما تيسر لنا في هذا المقام ، فتفهمه بإيمان وإعظام ، واتباع الحق أسلم ، والله تعالى بالصواب أعلم

مرحى

وتكلم بعد ئذ رئيس المؤتمر مشيراً الى أنه لم يسمع من السيد المحاضر ما يشفي

الغليل في بيانه على جملة قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ، فتقدم عندئذ ستة من العلماء المحاضرين طالبين التكلم على هذه الآية فدون أسمائهم ، وقام أولهم وهو الامام الزقازيقي وقال :

(ما أقول الله بها من سلطان) .

Figure 1

اصطلاحات القرآن الفقهية

كل (سُلطان) في القرآن هو بمعنى (الحجة) كما انه — والتيء بالشيء — يذكر — كل فعل في القرآن من (الإمطار) فهو العذاب ودائماً بدون استثناء. كما قاله البخاري ، وكل كلمة (صَيِّحَة) في القرآن هي بمعنى (الهلكة) كما قاله البخاري والكشاف ، وكل ('ظلل الغمام) في القرآن هو عذاب ، كما يعلم من البخاري أيضاً ، ويعلم من الكشاف انه متى قيل : (أقام الله) مثلاً فهو أيضاً العذاب ، كما اذا قيل (أقامهم أمرنا) ، (فأتى الله بُنْيَانَهُمْ) ، (أو يأتي أمر ربك) ، (الآن يأتيهم الله) وكل (ولي الله) في القرآن، فهو المؤمن التقى ، وكل (أهل الكتاب) فهو اليهود والنصارى ، وكل (يا أيها الناس) فهو كفار أهل مكة.

(ما أنزل الله بها من سلطان)

ثم قام الشيخ المنصوري ^(١) وقال :

السلطان والحق ونعظيم شأنها

« السلطان » الحجة والبينة والبرهان ، وصحبت الحجة سلطانا ، لأن لها

(١) نسبة الى المنصورة من البلاد المصرية .

سلطة على العقل والقلب ، آوان اشتقاقه من السليط ، وهو القدمي ، لإخافته ،
وغني عن البيات أن الشرك بالله أبطل الباطل ، فلا يمكن أن تقوم عليه حجة
من العقل ، ولا بينة من الوحي ، وإذا آثنا منى قوله ههنا : ﴿ ما أنزل الله بها من
سلطان ﴾ والجواب عن ذلك أنه تعالى عظم مشأت « السلطان » في دينه ،
وناط به تصديق دعوى المدعي وردها ، بصرف النظر عن موضوعها ، حتى كأن
من جاء « بالسلطان » على الشرك يصدق فيه ، وهو من قبل فرص الحال ، قلباً لفة
في مدح البرهان ، وفضل الاستدلال ، وقد قال تعالى في سياق إقامة البراهين
على توحيدِهِ : ﴿ آ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾
(٢٧ : ٦٤) ، على أنه صرح بأنه ليس لديهم برهان فيما أقام على كذبهم فيه
البرهان ؛ وكيف يكون لديهم ما هو في نفسه محال ؛ وذلك في قوله تعالى :
﴿ قَالُوا : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ! ، سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِن عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ؟ ﴾ (٦٠ : ٦٨)
أي ليس لديكم أدنى دليل بهذا القول الفظيع الذي تقولونه ، مع أن مثله مما
تبطله البراهين والدلائل البينة بحتاج مدعيه إلى أقوى البراهين والحجج ،
وأعظمها سلطاناً على العقول ، ومن قميّل مقالة يوسف قوله سلفه هود عليها
السلام : ﴿ أَتَجَادُلُونِي فِي آسْمَاءٍ سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ ، صَارَ لِلَّهِ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ ﴾
(٧ : ٧٠) ، وقول جده إبراهيم : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ ﴾ (٦ : ٨١) ، وقوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ قَصِيرٍ ﴾

(٧١:٣٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ —
 إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ، مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ (٥٦:٤٠) ومن أمثلة استعمال
 لفظ « البرهان » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ —
 لَا بَرَهَانَ لَهُ بِهِ — فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢٣ :
 ١١٨) ومن أمثلة استعمال كلمة « حق » في هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
 يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ الخ (٢١ : ٣) ،
 فهذا القيد يقرر لنا أن ذم الشيء ومدحه يدوران مع « الحق » وجوداً وعدماً ،
 لامع الأشخاص والأصناف ، فهو تعظيم لشأن الحق ، حتى كأنه من قتل نبياً
 بالحق لا يؤاخذ ، وهو من باب فرض المستحيل ، مبالغة في احترام الحق !!
 ونحوه قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ ﴾ (٧ : ١٤٥) ، فلا رب أن التكبر لا يكون مرة بحق وأخرى بغير حق ،
 ولكن رمزاً لاحترام الحق ، من حيث هو حق ، وفرضاً للمحال قيل : لو كان
 التكبر في الأرض بالحق ، لكان مقبولاً ، ولكنه مستحيل ، لأن التكبر لا يكون
 إلا باطلاً ، ومن أمثلة استعمال لفظي الحق والسلطان قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
 رَبِّي الْفَوَاحِشَ — مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ — وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ (الحق) ،
 وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ (سلطاناً) ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧ : ٣٢) ، وهكذا ورد قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
 نَبَأَهُمْ (بالحق) ﴾ (١٨ : ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ
 آدَمَ (بالحق) ﴾ (٥ : ٣٠) فهذا ونحوه تعظيم للحق ، وإلا فالله تعالى لا يقص
 على نبيه نبأ دائماً إلا بالحق ، والنبي لا يتلو على قومه أي نبأ كان إلا بالحق .

(ما أنزل الله بها من سلطات)

— ٣ —

ثم قام الحافظ البصري^(١) وقال :

الدين مبني على الحجة والعلم

يقول هنا « ما أنزل الله بها من سلطان » وسبأني له أت بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فمن هاتين الكلمتين واستباهها تعلم أن الدين مبني على (الحجة) ، ومؤسس على (العلم) قال تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢ : ١١١) ، ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ (٦ : ٨٣) ، ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ (٢٢ : ٣) ، ﴿ إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ (٥٣ : ٢٨) ، ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ (١٧ : ٣٦) هذا ما يصرح به القرآن ، وهذا ما تشهد به العقول النيرة ، فمن قال ان التقليد يكفي في الدين ، فقد غس لسافه في حماه الأغاليط .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٤ —

ثم قام سيدي حسام آغا الفيومي^(٢) وقال :

المسحبات لا تنبرل بنبرل اوسما كها احد اوبيل والشمس وانها سمج

عنصبر آله بنبرل اسمأها

يقول : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ويريد أن الخطابين على ثقة من ذلك ،

(١) نسبة الى الصرة من بلاد العراق

(٢) نسبة الى الفيوم من البلاد المصرية -

آ (٤٠) سكوت صاحبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه ٨٢١

يعقلونه بعقولهم ، ولكنهم يميلون الى التقاليد المصرية ، الموروثة عن الآباء الأقدمين ، التي يسميها العلماء « الحركة المستمرة » فيقبلون الحقائق ، ويغيرون النواميس ، ويرون المألوه إلهاً ، والضعيف قوياً وما كانوا يدعون له في الصلاة عليه يوم وفاته ، صار يدعى بعد نزوله في حفرته !! ، واذا بلغ الناس في حالتهم العقلية الدينية ، الى هذه الدرجة ، فقولوا : على عقولهم السلام .

ومعلوم أن المسميات لا تتبدل بتبدل الأسماء ، لاذواتها ولا أحكامها ، ولا وضعيتها ، فالعجل « آيس » الذي يعبدونه هو مازال عجلاً ولو سمي إلهاً ، و « آمون » إله « ثنية » الموقر عندهم مازال مألوهاً ولو دعي إلهاً ، و « را » أي الشمس وهو الاله الشمسي عندهم هو في الواقع كوكب مخلوق ، وهكذا يقال في تماسيحهم وفراعنتهم وغيرها وأسُخِفَ بالعقل إن عبد اسماً بلا مسمى ! وأجْهَلَ بالإنسان إن خضع لشيء موهوم ! حقاً إن هذا الحال ليذيب لفائف القلب ويقضي بالعجب العجيب ..!

(ما أنزل الله بها من سلطان)

- ٥ -

ثم قام سميع المكي وقال :

سكوت صامبي يوسف في السجن عن الجواب حكم صامت بصحة كلامه

يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن إن عبادتهم للشمس والعجل « آيس » وغيرها لا تستند على برهان ، ولا تدعم بعقل ، فهل تظنها بعد ذلك أصفيا الى نداء الضمير ، إذا كان لها ضمير ؟! - على أنك لو سبرت غور قلوبها وهما يسمعا خطاب « الصديق » لرأيتهما يتاجيان نفسيهما ليدفعسا عنها تبكيت الضمير

بشبهة أنهما — كغيرهما من المصريين — إنما اعتقدا تعدد الآلهة ، مشياً مع القول الشائع عندهم ، وهو أن الله « روح عظيم » مبعث في هذا العالم ، انبثاث الكهرباء في الاجسام ، أو الأشعة في الفضاء ، أو الأثير في العالم ، وكل واحد له من هذا الروح حصة تناسبه على قدر الاستعداد والتأهل ، وعلى كل فلا نحسبها إلا قدرأيا شخصيتها مغلوين ، وأقنه قد سمدت عليها أبواب الجواب والدفاع لسطوع البرهان ، وظهور الصبح لذي عيتين ، ولهذا نراها قد سكتا ولم يفوها بكلمة ، مع أن لهما نفوذاً أن يتكلم مع يوسف ، إذ هما من أهل المتعصب المتعبرة في بلاط الملك ، وأما يوسف فأنما هو عبد عيرافي غريب قد اعتقل بتهمة تمس العرض والشرف . وقد كان معها في السجن كخادم لهما ، إذ أقامه رئيس الشرط عندهما لأجل هذه المهنة ، فسكوتها والحالة هذه حكم صامت واعتراف بصحة كلام هذا الصديق عليه السلام .

(ما أنزل الله بها من سلطان)

— ٦ —

ثم قام الاستاذ المحدثي وقال :

« الاستدلال المطلوب في الدين »

حكى أن حامد بن العباس ، سأل قاضي القضاة أبا عمرو عن أداء « الخمار » وعن دوائه ، فتنحج القاضي لاصلاح صوته ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٥٩ : ٧) وقال النبي ﷺ : (استعينوا على الصناعات بأهلها) والاعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة ،

وقد قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أنني امرؤ أتيت المروءة من بابها

ثم تلاه أبو قواس في الاسلام فقال :

دع عنك لومي فإن الموم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فقد استظهر في جواب المسألة بآية قرآنية ثم بمحدث نبوي ثم بين الفتيا وأدنى المعنى وتقصى من العهدة (١) ، فإذا كان الاستدلال مطلوباً حتى في آتفه الامور فما بالكم بالدين ، خصوصاً عقائده ، ولذلك طالبها يوسف الصديق بالسلطان على ما يعتقدان ان كان لهما سلطان .

ولما انتهى الاستاذ من كلامه قام السيد الرئيس وشكر الاساتذة الستة على ماذكروه من تفسيره قيم لهذه الجملة بحيث لم يتركوا زيادة لمستزيد .

(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)

قال عبد الملك الكروي :

الحكم الشرعي والحكم الفعلي

حكم الله نوعان : حكم شرعي وحكم فعلي ، فالحكم الشرعي هو بوحى الله الى رسله بأمره ونهيه وإيجابه وحظره ، وهذا يكون في العبادة والدين ، وماهتا من هذا النوع ، بدليل ما قبله وهو قوله : (ما أنزل الله بها من سلطان) وما بعده وهو قوله : ﴿ أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ، ومثله قوله تعالى : ﴿

الذين آمنوا ، أوفوا بالعقود ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْهَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
 غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَقِمِ حُرْمَ ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَّقِينَ (٥ : ٢١)
 والحكم الفعلي بمعنى القضاء والتفوذ ، يفصل فيه بين الخلق ، تارة في الدنيا ،
 وتارة في الآخرة ، كما سيقول يعقوب عليه السلام ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾
 (آية ٦٧) أي القضاء والتفوذ في الدنيا كالأخرة لله وحده ، وكما يقول الله :
 ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ، حَتَّىٰ يَجْزِيَكُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾
 (١٠ : ١٠٩) وحكمه هذا في الدنيا بين المسلمين وغيرهم بنصر الأقرب للمحل
 والإصلاح في الأرض ، ومثل حكمه في الآخرة قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ :
 لَيْسَتْ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ : لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ، -
 وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ : كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ يَجْزِيكُمْ
 فِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٢ : ١١٣) فالحكم هنا القضاء والنقل
 بتصويب قوم وادخلهم الجنة وتخطئة قوم وادخلهم النار .

(أَمْرًا أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

قال نادر الزمان الانساني :

وحدة الألوهية ووحدة الربوبية

وهذه هي وحدانية الألوهية ، وهي ترجع إلى عبادة الله وحده ، السَّوَالُ
 منه وحده ، والاستعانة به وحده ، ودعائه وحده ، (فالله) هو المعبود الذي
 تَوَلَّى الْعُقُولَ فِي مَعْرِفَتِهِ ، وَتَدْعُوهُ وَتَصُدُّ إِلَيْهِ ، لَاعْتِقَادَ دَهَائِ السُّلْطَةِ الْعَبِيدَةِ لَهُ
 وحده ، كما لنا وحدة في الألوهية فلنا وحدة في الربوبية ، وهي الاعتقاد بأن مصدر
 الخلق والرزق والأحياء والأمانة وكذا التشريع والحظر والإباحة وسن الأحكام

اغما هو الله وحده الذي يربي العالم بقوانينه السماوية ، التي ينزلها على رسله ، وإلى
الوحدتين ، وحدة الربوبية ووحدة الألوهية الاشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ
بِهِ شَيْئاً ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالِ قَوْلُكُمْ ، فَقُولُوا :
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣ : ٦٤) .

(ذلك الدين القيم)

وقال عبد العظيم التركي :

الدين والعلم اخوان

نرى في هذه الآية الكريمة ان الدين والعلم اخوان ، متى ثبتت أحدهما ثبت
الآخر ، ومتى انتفى أحدهما انتفى الآخر ، ولا يقول قائل : إنه يوجد تباين بين
الدين والعلم يتنافيان به ، فان ذلك غير صحيح ، وانما جاء ذلك لهم من أجل انهم
جعلوا من الدين ما ليس به ، أو أخطأوا مقاصده ومعناه ، قال الفيلسوف (هريوت
سينسر) : (العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ، ولكنه ليس بعدو
لدين الحق ، الذي كثيراً ما تحاول هذه الاوهام ستره عن الأبصار ، نعم إنه
يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ، ولكن هذا أيضاً
من قبيل العلم الذي أكثره وهم ، اذ العلم الحقيقي الذي بغوص وراء حقائق
الأمور لا يناقض الدين) . وقال إمام الفلسفة الحديثة (باقون) : (القليل من
العلم يبعد من الله ، والكثير منه يقرب منه) ، وقريب منه قول ابن تيمية :
(أضر شيء على الناس نصف فقيه ونصف مفسر ونصف محدث ونصف مؤرخ
ونصف طبيب وهكذا إلى آخر الأنصاف) ، وقال (هكسلي) الحكيم الكبير :

(الدين والعلم كنوأمين متلاصقين ، فصلهما يؤدي الى موتها ، فان العلم ينمو ، متى كان دينياً والدين يثبت متى كان علمياً)

— مرجى —

(ولكن اكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قاله شيخنا ابو غوسلا في

يوسف يكرر القصر من قناه صاحبيه في السجن

كان يوسف غمر من قناه الفتيين المصاحبين له في السجن بقوله لهم في الآية (٣٨) : (ولكن اكثر الناس لا يشكرون) ، وهنا في هذه الآية كرر القصر من قناتها بقوله لهما : (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعرفون حقاً ، ولا تنكر عقولهم باطلاً ، وأما أننا ايها الفتيان فلا بد أن تكونا قد عرفت وجه كلامي اليكما ، ولا أحسبكما إلا مسلمين لي اعتقادي على طول الخط ، وهذه في أهم مادة في برنامج (دين التوحيد) قد ألقت نظركما اليها ، وعسى أن تصادف كلمتي معكما آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وهذه هي الحقيقة الراهنة ، فالحواها ولا تمحوها ، واكتشفها ولا تكسفها ، واتبعها ولا تبدها :

لعمري لقد نهت من كان ناعماً وأسمعت من كانت له أذن

هذا رأيي بشئ لكما ، وأما أقتامار أيكما ؟ وهذا قولي ، لما قولكما ؟ .. أترك الجواب عن ذلك الى وجدانكما الطاهر ، وخيركما الحري ، وذوقكما السليم ، وليس من المتعذر على الباحث الذي يحمل مصباح عقله في يده اليمنى ونيراس علمه في يده اليسرى أن يصل الى نتيجة صالحة تكفل له السعادة الدينية .

(عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد)

هذه عظة يوسف التي أتى بها هنا استطراداً قد تمت ، وهذه دعوته التي قدمها انتهازاً للفرصة قد كملت ، ويظهر أنها انما كانت صرخة في واد ، أو نقحرة في رماد ، لأن الكتاب والتاريخ لم ينقلا لنا عن ايمانها شيئاً ، لاسيما (رئيس الخبازين) الذي لم يتقل عنه الكتاب أقل كلمة تشعر بميله ليوسف ، وأما (رئيس السقاة) فقد أشار الكتاب الى أنه مدح يوسف للملك الريان ، وخاطبه بلقب (صديق) ، ولما كان مأمور بتحقيق في حادثة النسوة مع يوسف ظهر له براءته ، وطهارته ، الأمر الذي لا بد أن يكون نتج عنه محبته ليوسف ، وحسن اعتقاده فيه ، هذا الذي تقدر أن نستنتجه من الكتاب ، وأما ان (رئيس السقاة) ترك دينه واعتنق دين التوحيد فلا صراحة فيه لا في كتاب ولا في حديث .

(وجوب الجهر بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان ومجال)

وبعد فهذا الوعظ والتعليم من يوسف اقدام عظيم على بث عقيدة التوحيد على رؤوس الاشهاد ، مع انه في محيط كله متوثن منذ أجيال : فدين الحكومة الرسمي هو التوثن ، وكذلك دين الشعب المصري الوطني ، وهكذا دين المستعمرين الهكسوس ، وقد أراد يوسف بما قال غمز قناة الفتيين بأنهما لم يكونا من العلم في شيء وانما هو تقليد محض وتخرض وظنون وان الظن لا يغني من الحق شيئاً .

جهر يوسف بهذه الدعوة ، دعوة عقيدة التوحيد ، وهو طريد من بلاده ، وغريب في مصر ، ومعدود من عبادان بعض رجال الحكومة ، وسجين بدعوى جريمة شائنة ، ومع هذا كله لم يسهه سوى إعلانات عقيدة التوحيد ، ودعوة الفتيين اليها ، والطمع في عقيدة التوثن التي عليها القراعنة والامة المصرية والامة الهكسوسية ، وكأن الارض — والحمد لله — لا تخلو من قائم لله بحجة في

عبادة ، حتى أرض السجون ، وهكذا كان يفعل الإمامان أبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، وهما في سجنهما ببغداد أيام العباسيين يعلمان المسجونين معها ، ويرشدانهم لما فيه خير ، رغمًا عما هما فيه من السجن .

وقد قال بعض المصريين : « لعمرى إله إذا لم يكن لدى الداعي جرأة وشجاعة أدبية في عرض دعوته ، فإن دعوته تموت ، مهما كان واثقاً من صدقها ، بل مهما كانت حقاً في نفسها ، وكم من دعوة حق ماتت في مهدها ؟ وكلة صدق أطفئت في مشكاتها ؟ يسبب تهيب الداعي من المقاومين ، وما يتقص من الشجاعة الأدبية في تحمل الكوارث والشدائد التي تعترض سيره ، ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة « الحرية الفكرية » ركناً من أركان مدنيته ، وعماداً قوياً لحضارتهم ، ولو قال قائل : إن مدنية الغربيين وظهور النوابغ فيهم ، وعروجهم في العلم والفن والصناعة والاحتراع ، ثم في العزة والصولة والغلبة الى الأوج الذي وصلوا اليه اليوم إنما هو أثر من آثار « الحرية الفكرية » — لو قال ذلك لما كان غالياً ولا مبالغاً . ومن أحب أن يسمع محبوساً في أعماق السجون يقف في سجنه خطيباً ، ويجلس في مجالس الوعظ والدعوة الى الله ، وليقرأ هذا البحث من قصة يوسف عليه السلام ، ولعمرى إن هذا لما يجب أن يحملنا على الذهاب لدور السجناء ، لأجل وعظهم وارشادهم ، وتذكيرهم بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ، ونشويقهم للتوبة ، وترغيبهم في الصبر الجميل .

حكم القرآن بالاحكام الرديئة على الاكثرية الساحقة من الناس

نقرأ في القرآن المجيد ، فتجده دائماً يحكم على الأكثرية الساحقة من الناس بالأحكام الرديئة ، كالجهل والكفر — الى الفسق والشرك — الى

الإعراض والندر والجدل ونحو ذلك ، وهاكم بعض الشواهد على ذلك :

﴿ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يعمَلون ﴾ (٦٩:٥) ، ﴿ ثمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ (٧١:٥) ، ﴿ وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٨:٢٢) ، ﴿ لَخَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مَنْ نَجَّوْهُمْ ﴾ (١١٣:٤) ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَلسُّرِفُونَ ﴾ (٣٥:٥) ، ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴾ (٦٥:٥) ، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٦٧:٥) ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ (٨٠:٥) ، ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا — لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ — أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٣:٥) ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١١٩:٦) ، ﴿ وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِلْجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ! لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٨:٧) ، ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣٥:٩) ، ﴿ رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ (٣٦:١٤) ، ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا ﴾ (٣٦:٢٢) ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٣٨:٢٤) ، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ — وَلَوْ حَرَصْتَ — بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٣:١٢) ، ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (١٧:٨٩) ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢:٢٤٣) ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧:١٨٦) ، ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ بَتَّابِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٦:١١٦) ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

للحق كارهون ﴿ (٣ : ٧٨) ﴾ ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥ : ١٠٤) ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ (١٠ : ٣٦) ، ﴿ وَمَا يَوْفُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ نَالَةً إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١٢ : ١٠٦) ، ﴿ بَلْ كَاثِرِي عِجَابٍ ذُو الْحَقِّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٤ : ٤١) ، ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ عَنْهُمْ لَا يُسْمِعُونَ ﴾ (٤١ : ٤) ، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَمُاسِقِينَ ﴾ (٧ : ١٠١) ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْعَلُونَ ﴾ (٦ : ١١١) ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

حكم القرآن بأحكام الحسنة على القليل من الناس

كما إذا قرأ في القرآن الكريم ، فنحنه بصورة مطردة إما نسبة الطاعة والابحان والعلم والشكر والعفة وما أشبه ذلك من المحامد للقليل من الناس ، والبك البيان : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (١١ : ٤٠) قيل كانوا اثنا عشر نورا ، ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (١٨ : ٢٢) ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (٣٤ : ١٣) ، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، ﴿ فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ (٢ : ٢٤٦) ، ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، قُلٌّ شَرِبَ سِوَا مَاءٍ غُلٌّ ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ يَبْغِي الْإِسْمَ اعْتَرَفَ عَرَفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ (٢ : ٢٤٩) ، ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ (٥ : ١٤) ، ﴿ لَنْ نَسْأَلَكَ نَفْسًا مِنْهُمْ أَوْ تَرْتُدَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَنْ نَحْتَبِكَ نَفْسًا دَرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٧ : ٦٤) ، ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣٣ : ١٨) ، ﴿ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فَتْحٌ مَلَكُوتٍ ، وَلَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤٨ : ١٥) إلى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم ، والحالة الطبيعية تؤيد كل ماورد من هذه النصوص ، فإن أهل الس أكثر حدًا وأجدا أكثر من أهل

الخير في كل مصر وعصر ، وكل كوخ وقصر ، (راجع كتب الملل والنحل وانظر كتب المعراية . تجد صدق ماقلنا) .

يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم

آ (٤١) ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والاربون فقام اقاي حسن جم الهمداني^(١) وقال :

قال يوسف لصاحبيه بلسان المفتي المجيب (يا صاحبي السجن) لكل حادث حديث ، اسمما تأويل رؤييكما (أما أحدكما) وهو « بنو » رئيس السقاة (فيسقي ربه) سيده (خمرأ) حيث يخرج من هذا المعتقل بريثاً ، ويرجع مقامه الأول عند « الريان » ، (وأما الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (فيصلب) على الجدع فيموت (فتأكل الطير من رأسه) ، لأنه يتهم بمقاومة الملك (قضي الأمر) قطع وتم (الذي فيه تستفتيان) ، ولو كنت أعلم أن التمني سينفع أحدكما الخباز لتنيت له السلامة ، ولكن التمني لا يدفع مقدوراً ، والأمل لا يقضي على الحقيقة . هذه فتوى يوسف التي خلاصتها هلاك أحدهما ونجاة الآخر .

(١) سبة الى همدان من البلاد الارابية .

درس الوعظ قد امتد أكثر مما كانا يتوقعان ، وقد كان قلباها متمشقين بالأكثر
لسماع تأويل حلميها ، فكانا يقولان في نفسيهما :

لك الحمد لم نسمع عبارة حلمنا ونسمع مالا نشتهي فلك الحمد
وكان كل منهما يهم بأن يقطع على يوسف سلسلة حديثه ، لولا أن ملكا نفسيهما ،
فما شعر إلا وهو يقول : ﴿ يا صاحبي السجن أمّا أحديكما .. الخ ﴾ ذلك لأن
الناس منذ القديم الى اليوم ، لا يعتنون باللب عنايتهم بالقشور .

استبشار يوسف ببراءة رئيس السقا

التكملة الثانية - كأنك بيوسف عليه السلام وقد وجد له في معتقله أخاً
مظلوماً مثله ، تبرأت ساحته - كأنك به أنه تمنى أن يكون هو أيضاً قاربت آلامه
النهاية ، والعامّة من الناس تقول : « إن مطرت بلاد بشر بلاداً » .

الحجر الاول في بناء حجر يوسف

التكملة الثالثة - كان تعبير يوسف لهذين الحلمين هو الحلقة الاولى من سلسلة
الحلقات التي تشكل سبب خروجه من السجن لدست وزارة المالية ، قم ما قيل :
« سمادتك بين شفتيك » .

وبعبارة أخرى : كان تعبيره لهذه الرؤيا هو (الحجر الأول) في أساس
خروجه من السجن وبناء مجده الخالد العظيم ، وأما (حجر الزاوية) فهو تعبيره
رؤيا الملك الآتية ، وأما (ثلاثة الأثافي) فهي ظهور براءته بلسان النسوة من كل
مارمى به ، حتى خرج من معتقله عزيز الجنب ، ناصع الجبين .

مال النفيعين حين سماعهما تعبير رؤيهما

التكملة الرابعة - كأنك (برئيس السقا) لما سمع بشارة يوسف له مثل من

الفرح وصار نشوان بخمرة هذه البشري ، وكأ أنك (برئيس الخبازين) بغت ووجم (١) وعض على سبافته ، وصار مُشْتَرَكاً (٢) مشدوهاً (٣) لا يحير جواباً ، ولا يعرف صواباً ، وسقط في يده ، وقدم ولات ساعة مندم .

النواة والشجرة والثمرة

التكملة الخامسة - كان هذا التعبير الابتدائي (نواة) لـ (لجيء) (رئيس السقا) ليوسف مندوباً من جانب ملك مصر الريان ، ليعبر رؤيا الملك ، كما أن تعبيره رؤيا الملك أخيراً كان (شجرة) من تلك النواة ، وبالتالي كان خروج يوسف من السجن الى البلاط الملوكي هو (الثمرة) لتلك الشجرة .

تسمية الملك رباً عند المصريين

التكملة السادسة - تسمية الملك (رباً) اصطلاح للمصريين كالكلدان والعبران . ونحوم وقد بحث عن ذلك سابقاً بما فيه الكفاية .

لما را عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحه

التكملة السابعة - لما وصل يوسف الى تعبير رؤيا (رئيس الخبازين) تنازعه عاملان عامل السكوت عن تأويل رؤياه ، لئلا يفزعه ويكدره ، ويكون قد واجهه بما يكره ، وعامل الصراحة ليكون ذلك الرجل على بينة من أمره ، وبصيرة من شأنه ، فيجري ما يجب أن يجريه قبلها يصلب ، فربما كان عليه أوله دين ، وعسى أن يكون عنده أو له عند غيره أمانات ، ولعله يريد أن يوصي أهله بشيء ، أو يقيم على قاصر وصياً ، أو لعله اذا عرف أمره أن يتوب من جرائمه

(٢) هو الذي يحدث نفسه فالمهموم الموسوس

(١) سكت

(٣) من دهش وتحير

وأوزاره ، قل هذا ولما كان كاتم العلم ملعون ، أولأن الله يرسل الرؤيا لصاحبها ليعرف تأويلها ، ويعمل مايجب عليه عمله بحسبها ، أولأن يوسف ألهم أن هذا الرجل كان مجرمأ ولايد ، فحقق عليه ولم يتمالك أن أخبره ، فلاجل ذلك لم يجد بداً من أن يبين له تأويل رؤياه ، وكان هذا هو أصل مايفعله حكام اليوم من تبليغهم المجرم ، الحكم الذي حكمت به عليه المحكمة ، ليكون على بينة من أمره .

ومامثل تفسير هذه الرؤيا الا كمثل الفتيا التي تصدر من المفتي يسأل عن حكم شرعي ، فيجيب مطلقاً ، أعني سواء أكان في جوابه حظ ومنفعة للسائل ، أو كان فيه متع من إرث مثلاً أو غرامة ، حتى لو اقتضى الحال أن يحويه أنه يستحق القتل أجابه بلا مواربة .

تحقق وقوع تفسير رؤيا الفتيين

التكملة الثامنة - كل ما أخبر به يوسف وقع ، فبعد ثلاثة أيام أرجع (رئيس السقاة) الى عمله في قصر الريان ، ثم أخذ بتبليغ (رئيس الخبازين) ورفع على الصليب ، ونادى المنادي : « هذا جزاء من يدخل في المؤامرة على الملك أوالتعدي على حياته » ، وجعل في اذنه رقعة مكتوب فيها (هذا جزاء من ثبتت عليه المؤامرة ضد الملك) ، وهذا الجاني هو (مجلث) ، كان أنه حينما أخرج من سجنه لشنقه ينظر الى قصره ، ولسان حاله يقول :

يامنزلا لم تبقَ أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكنني بكيت عشي فيك إذ ولتي

وعندنا انه بالنظر لكونه أطاع المؤثرين على الملك فتأمر معهم عليه بشر ، أو سم خبز ، كان حقيقة بأن يتلو هذه الآية الكريمة : ﴿ ربنا إننا أطعنا ساداتنا

وَكَبُرَاءُنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ، وَالْعَنَتُهُمْ
لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٣٣ : ٦٧ و ٦٨﴾ .

خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى

التكملة التاسعة - نقرأ في كتب التفسير أن (خباز) فرعون يوسف ،
واسمه (مجلث) قتل صلباً ، ثم نقرأ في تلك الكتب أيضاً ، عند قوله تعالى :
﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ،
هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي
من عدوه ، فوكله موسى فقضى عليه ﴾ (٣٨ : ١٥) فنرى أن هذا
المصري كان خبازا لفرعون موسى ، واسمه (فانون) وكره موسى فمات فطمره
تحت الرمل ، فسبحان الله ! خباز علق فوق الاعواد ، وخباز طمر تحت الرمل ،
وعلى كل فالنتيجة واحدة ، وهي الامانة غير الطبيعية ، فما أسوأ حظ (الخباز)
منذ القديم !!!

من عادة قدماء المصريين خلق شعور رؤوسهم ولحاهم

التكملة العاشرة - القول بأن الطير ستأكل من رأس هذا المصلوب ربما يدل
على صحة مقاله مؤرخو مصر : أن من عادة قدماء المصريين خلق شعور رؤوسهم
ولحاهم فلا يبقون منها شيئاً ، وربما كان يوجد عندهم عادة متبعة فيمن يراد صلبه وهي
تجديد خلق شعر رأسه ولحيته . والذي يحدونا لأحد هذين الاحتمالين هو أنه
لو كان المصلوب موفر شعر الرأس واللحية كما هي العادة التي كانت مطردة في
البرانيين والعرب والفرس لما كان يتسنى للطير بسهولة أن تأكل من جلدة الرأس
أو جلدة العوارض ، لكونها محجوبة بما يحوطها من الشعر .

الصلب عرفاً هو الامانة على الصليب

التكلمة الحادية عشرة - إذا قيل : « صلب فلان » فمعناه عرفاً أنه أميت على الصليب ، فالصلب عرفاً لا يطلق إلا إذا كان معه إزهاق روح ، فإذا صح هذا فلعن مرمى قوله ههنا « فيصلب » فترهق روحه عليه ، ولذلك رتب عليه قوله « فتأكل الطير من رأسه » ، لأن الطير لا تحوم حوالى رأس الحي على الصليب ، ولكن على الميت فقط ، والقرآن الكريم دائماً لا يستعمل « الصلب » إلا بهذا المعنى العرفي ، كما يقول في شأن عيسى عليه السلام ﴿ وَمَاتَ تَلَوَهُ وَمَاصَلَبُوه ﴾ (٣ : ١٥٦) أي لم يقتلوه على الأرض بأيديهم ولا على الصليب بواسطة ما كدوام التعليق وطول مدته ، أو بنحو المسامير والحراب والجوع والعطش والألم وما الى ذلك ، مما يقتضي الموت فوق الصليب .

معنى الصلب في القرآن

فإذا صح هذا فلعن المنفي عن المسيح إنما هو الصلب المقرون بالموت ، ومن هذا النوع قول الكتاب الكريم : « ثُمَّ لَأُصَلِّبُكُمْ أَجْمَعِينَ » ، قالوا : إننا الى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » (١٢٣ : ٧) ، فهم قد فهموا من تسليمهم موتهم لا محالة ، فلماذا قالوا : إنهم حينئذ يذهبون الى ربهم ، وكذا قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا » الخ (٣٦ : ٥) فلعن معناه : يقتلوا باليد على الارض بدون تصليب ، أو يشدوا على الصليب حتى ترهق أرواحهم ، بسبب ما من أسباب الموت ، فمادة « صلب » في القرآن الكريم لم ترد إلا فيما فيه إرهاق الروح فعلاً .

استشفاع يوسف بالتاجي من الفتنين

آية (٤٢) ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منها: اذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه، فلبث في السجن بضع سنين.﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والأربعون، فقام الحاج موسى النابلسي وقال:
(و) بعد ذلك (قال) يوسف بلسان الرجاء والاسترحام (لِك). رئيس السقاة
(الذي ظن انه ناج منها) من الصلب والحبس والتهمة (اذكرني عند ربك) أي
صفني عند الملك الريان بصفتي، وقص عليه قصتي، لعله يرحمني ويتناشني من هذمه
الورطة، فان العلاقة بينك وبين الملك ستكون وثيقة والصلة متينة، (فأنساه
الشيطان) أي فأنسى الشيطان رئيس السقاة (ذكر ربه) أي أن يذكر يوسف
لربه الذي هو الملك الريان (فلبث) يوسف (في السجن بضع سنين) أي ستينين.
وشيئاً من السنة الثالثة على التحقيق، والبضع من واحد الى أربعة.

(وقال للذي ظن انه ناج منها... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ بدر الدين الحمصي:

استشفاع يوسف بالفتى الناجي

مل يوسف وستّم من طول مدة سجنه، وصار يشعر ان نفسه سجيئة في صدره، كما سجن جسمه في معتقله، فزفر زفرة من زفرات الضيق، فلذلك ولكونه قد رأى أن «الانصاف» أخذ يدخل في السجن، ليخرج المظلومين —

صار له أمل قوي أن تشمله العدالة ، ويقوز بنعمة الخلاص ، ثم لكونه رئيس السقاة ، على وشك الخروج من السجن والمثول بين يدي الملك ، أدلى برجائه إليه قائلاً له :

(أيها الشرايبي ، إني مع احتياطي بالانكال على الله ، والاستمداد من مونة الحق ، أقول لك : المروف صيد ، هنيئاً لمن صاده ، والمعروف قروض ، ومع اليوم غدٌ ، وهذه فرصة لك فانتزها ، تذكر ما كان بيني وبينك من أخوة الضيق ، فاجعل ذلك شفيبي إليك ، وذماحي لديك ، أنت قد جربت الظلم ومرارة طعمه ، والقلوب التي عرفت الآلام هي التي تشفق على التالين ، والأفئدة التي احترقت بنار ظلم الحكام ، هي التي ترثي للمظلومين ، فأرغب إليك أن تجعلني منك يبال حيناً تقف بين يدي (الريان) وأن تذكرني بكلمة إسعاد عتده ، وها أنا ذا سألتك حاجتي ولم أُنْصَ وجبي عن ذلك ، فأنت لا تَصْنُ وجهك عن التعب في تميم هذا الأمر ، أنت صديقي ، وليس الصديق الذي يقبل عليك والدنيا في إقبال ويدنو منك ما حامت حولك الآمال ، إنما الصديق هو الذي يذكرك في الضيق ، أو ينقذك من ظلم الظالمين ، ولا مثوبة يقدمها المرء بين يدي الله تعالى ، يوم جزائه أفضل من إسعاد البائس ، وتفريج كربة المكروب (ومن فرّج عن أخيه كربة من كرب الدقيا ، فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، والدال على الخير كفاعله ، وإن خيراً من الخير فاعله) وتذكر اني أسمعتك صوتي ، متخللاً في أعماق قلبك ليسرك ، ويحمل إليك البشري بخروجك من هذا السجن ، فريقيك عند الملك ، فأنت بالمقابل ، أسمعني صوتك ، حاملاً اليّ — على الأقل — بشري خروجي من السجن ، وخلاك ذم) .

هذا مرهمي كلام يوسف الروحي ، وكأني (بالشرايبي) قال له : (لبيك ،

سماً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فقد تفضلت بما لا طاقة لي على شكره ، فلا أبرح
أذكر إحسانك الى آخر نسمة من حياتي ، فثق إني لسوف أقوم بواجبك ، الذي
هو حتم عليّ ، وأحسبني سعيداً إذا خدمتك . (قال ذلك ثم خرج يتعثر في أذياله
لسرعته وفرحه بلقاء أهله وذويه ، وهو بحال السلامة كأنما جاء وليداً ، وأعطى
عمرأً جديداً .

نسيان الفتى الناجي ذكر يوسف للملك واسبابه

هذا ولم يكن إلا مسافة الطريق حتى أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف
للملك ، بدليل قوله : (وقال الذي نجا منها وادكر) ، فإن الادكار إنما يكون
بعد النسيان ، هذا هو الصواب ، ولا يجوز لأحد أن يقول غيره ، إلا أن يكون
قد اعتزل العقل والذوق ، بحيث هو لا يعرفها ، وهما لا يعرفانه .

وانما نسي الشرايى ذكر يوسف للملك ، لوسوسة الشيطان اليه بما شغله عن
ذكره له ، حتى ذهب عنه وزل عن قلبه ذكره ، فقربه من الملك أنساه بوعده
السابق ، وقصر الملك أنساه السجن . وأيام السعادة أنسته أيام الشقاء « وأصحابه
في البسائط أنسوه صاحبه في حبسه ، وحالة السعة والعز جعلته ينسى حالة الضيق
والذل ، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم التي كانت تقام له بعد خروجه ، وبأهله
وذويه ، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك ، أصبح شغله شاغل ، هذه هي
الوسائط التي استعملها الشيطان ، حتى غفل (الشرايى) عن يوسف ، ولكون هذه
الأشياء وما إليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء اليه ، ولو أن يوسف عليه السلام
استقبل من أمره ما استدبر ، لما كان قدم للشرايى رجاءه ، ولكن لا يعلم الغيب إلا
الله عز وجل .

وهذا النوع من النسيان محمود ، وليس يذم ولا مستبعد ، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء ، فكأي من يصحيك حال شدته وضيقه ، ينساك يوم الرخاء والفرج ، بل كثيراً ما يتسى الناس خالقهم في أيام الرغد والرخاء ، فلا عجب من أن ينسى (الساقى المصري) (يوسف العبراني) العبد السجين :

و كثيراً من أن الأولاد لا يذكرون آتائب والديهم عليهم في صغرهم والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى آسدت لهمدتهم عمالة ما ، كما أن كثيراً من الأصحاب الفقراء إذا اغتتوا وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الحشن ، ونرى كثيراً من أهل الأمراض متى صحوا وشقوا ينسون طبيعهم ، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذتهم ، الى آخر ما هنالك من الضروب والأشكال ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٩٦ : ٦) وقال تعالى : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (٨٠ : ١٧) ثم إن أنس لا أنسى ان من الأسباب الأساسية لنسيان (الشرايى) ذكر (يوسف) الملك ، معاطاته شرب الخمر ، فان شربه ، كما يعمل تأثيراً سيئاً في الأخلاق والصحة والاجرام ، وفي المال وفي قوة الاقتاج فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان ، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار ، وكم هالهم أن تكون المسكرات سبباً لاصابات بالجنون .

وهذا وإن الفاء في قوله : (فأنساه) ليست تقريرية بمعنى ان الإنسان كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه ، بل هي عاطفية خلافاً للمفسرين ، إذ المعنى على ما نفهم أنه حصل أن يوسف قال كذا وكذا ، ثم فوراً حصل أن الشرايى نسي ما تكلم به معه ، وهذا هو المعنى اللائق بمقام يوسف عليه السلام ، والمناسب للواقع ، لا أقل ولا أكثر ، فكن لما ذكرناه من الحافظين وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين .

مدة بقاء يوسف في السجن

وعلى هذا النسيان لبث يوسف في سجنه بين أربعة جدران ، صابراً محتسباً ، سنتين وشيء من الثالثة كما ذكره المؤرخون ، إذ يستعمل البعض فيما دون العشرة كما حكاه ابن جرير ، ووجهه إن البضع هو البعض ، لأن الحروف واحدة ، والبعضع الطائفة من الليل ، كما في القاموس ، يعني قلت أو كثرت .
وههنا فوائد لها علاقتها بتفسير الآية الكريمة :

التوسل وأنواعه والجهائز منها شرعاً

الفائدة الأولى — كان هذا الطلب من يوسف « لرئيس السقاة » من باب الأخذ في الأسباب المأمور به شرعاً وعقلاً وعادة وطبعاً ، إذ لولا الواسطة لذهب المتوسط ، والتوسط (وإن شئت قل التوسل) على أربعة أوجه :

(١) توسل الانسان الى الله تعالى بإيمانه به وطاعته له والعمل بما يرضيه تعالى ، وهذا صحيح جائز باتفاق العلماء .

(٢) توسل الانسان الى الله بدعاء إنسان آخر وشفاعته ، بأن يطلب منه الدعاء الى الله تعالى ، وهذا أيضاً صحيح جائز باتفاق الجميع ، وقد قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه حينما ذهب ليعتمر : « أشركنا يا أخي في دعائك » وفي رواية « لا تنسنا يا أخي من دعواتك » .

(٣) التوسل بمعنى الإقسام على الله بذات نبي أو ولي أو مملك ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة تفعله ، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم المأثورة عنهم ، وهذا النوع هو الذي قال « أبو حنيفة » وأصحابه « انه لا يجوز » ونهوا عنه قائلين :

« لا يسأل تعالى بمخلوق » وهذه الأنواع الثلاثة في فيما إذا كان المتوسل (بافتح) إليه هو الله تعالى .

(٤) أما إذا كان المتوسل إليه إنساناً ، فلا مانع من أن يتوسل إليه بإنسان آخر ، كما هو ظاهر ، ظهور الشمس في رابعة النهار ، ولا يخفى أن الذي صدر من يوسف هو من هذا القبيل ، فانه استشجع عند ملك مصر برئيس السقاة ، وهو عمل معقول ومعقول جداً لأن الحامل عليه الكفكة من ظلم « عزيز مصر » وتخطيه حدود العدل في سجنه يوسف ، فعزير مصر جار وظلم في حكمه على يوسف ، ويوسف يريد أن يرفع عنه هذا الجور بشفاعة هذا « الساقى » ولأمانع من ذلك ولا حرج فيه أصلاً ، وما علمنا الرعية في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ، وليس في توسطه « بالشرابي » دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله تعالى ولكنه سعى في كف الظلم عنه بالوسائط المشروعة في كل دين .

الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر - التوكل

هذا وإن من الأسف انه وجد من الناس من انتقد عمل يوسف هذا بما في دماغه ، عكساً للارم ، لأنه يلزم أن نزن ما في أدمعتنا من عقائد بالقرآن وبما ورد عن أنبياء الله تعالى ، لا أن نزن القرآن وأعمال الأنبياء بما في أدمعتنا مما تلقيناه عن المستايخ ، فتجعل الموزون ميزاناً ، واليزان موزوناً ، قلباً وحقيقة ، فنحن همما بدلاً من أن ننتقد ونستشكل عمل يوسف يجب أن نستنتج منه عقائداً ، فنقول : بما صدر من يوسف نحتاج على من يقولون أو يفضلون ترك الأسباب ، اتكلاً على القضاء والقدر ، وهو جهالة صرفة ، لأن هذا ليس من قبيل التوكل ، بل من قبيل العجز والكسل ، إذ التوكل هو الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه واعتقاد أن الأمر منه وإليه ، مع الأخذ بالأسباب ، وهكذا ينبغي لكل عاقل متشرع أن

يدخل لكل أمر من يابه ، ويطلب كل رغبة من أسبابها ، ولا يقدر في التوكل
تعاطي الأسباب ، اتباعاً لسنة الكون وسنة الرسول ﷺ فقد ظاهر الرسول
عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على
فم الشعب ، وخذق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ،
وهاجر هو بنفسه ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم
ينتظر أن ينزل عليه القوت من السماء ، وقد ورد : « أَعْقِلْ نَاقِي أُمِّ أَرْكَهَا
وَأَتَوَكَّلْ ؟ - قال : اعقلها وتوكل » وقال ﷺ : « إِنْ أَلَلَّ اللَّهُ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ
رُحْمِي » مع أنه سيد المتوكلين . وقد روي أنه ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي ،
وكان يطلب من يحرسه ، حتى جاء سعد بن أبي وقاص ، فنام .

وقال في القرآن على لسان المسيح عليه السلام : « مَنْ أَتَصَّارِي إِلَى اللَّهِ ؟ »
(٥٢ : ٣) هذا وأنه لا خلاف في جواز الاستعانة بالكفار في دفع الظلم والغرق
والحرق وما إلى ذلك .

وأنا لرى رجاء يوسف من رئيس السقاة نفعة في الجملة لأنه وإن لم ينفعه في
الحال فقد نفعه في الآل ، إذ حين رأى الملك حلميه وأعوزه من يعبرها له تذكر
رئيس السقاة يوسف . وتذكر اقتداره في عبارة الرؤيا ، وتذكر أنه كان قد رغب
إليه أن يذكره عند الملك فذكره حينذاك ، وعلى كل فيوسف لم يعمل بدعاً .
وليس ما آتاه غلطاً ، فعلى الإنسان الاجتهاد ، وعلى الله قضاء المراد :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

تحقق رجاء يوسف من الشرابي

الفائدة الثانية : كانت فكرة يوسف الأولى وجوب استعمال الأسباب العادية ،
تذرعاً لخروجه من السجن ، ولكن كان عدم وجود واسطة ترفع شكواه للملك

يعترض بجرى هذه الفكرة ، فذلك كان ما كتأسا كنأ ، ولكن «مكره»
أخاك لا يطل» فالآن حيث وجد «الشراي» يريد أن يخرج من السجن الى
البلاط ، فضل نشاطه على جموده ، وسعيه على كسله ، منتزعا الفرصة لاقتداب
هذا الرجل لهذه المهمة ، لاسيما وأنه كان آفاده تعليم دينيا ، وبشره بحرمي رؤياه ،
وانعقدت بينها أخوة السجن وآلامه ، فكلبه أن يصغه عند الملك بصفته ، ويقص
عليه قصته ، لعله يرحمه ويتناشيه من هذه الورطة .

تأمل يوسف أن تنفريج أزمنته بواسطة هذا «الساقى» ومع أن هذا الرجل
نبي يوسف وأمله فيه ، فقد حقق الله رجاء يوسف ، وحمل ظنه في محله ، ولكن
بأعجوبة أعني بسبب الرؤيا التي رآها الملك ، بعد حين من الدهر ، ولم يجد من
يعبرهاله ، وعليه فيصدق على يوسف أنه ما قال رآيه فيما فعل ، وما ضل ظنه فيما
رجا ، فإن هذا «الشراي» الذي نجوا واذكر بعدأمة ، - أخبر الملك بشأن
يوسف ، فأرسله الملك إليه ، وبالنتيجة كان هذا من أكبر أسباب خروج يوسف
من معتقله .

الاستعانة بالاسباب في قضاء الحاجة

الفائدة الثالثة — احتياج الانسان للواسطة والرجاء في قضاء حاجته أو رفع
الظلم عنه عادة قديمة ، وفي الغالب لا تكون إلا إذا كان الحكومات ظالمة مستبدة ،
لا يعمل فيها بموجب الشرائع والأنظمة ، ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة ،
وهذه الحال السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية المكسوسية ، فهي سائدة
في جميع الأمم ، ينسب تفاوت تبعاً للتربية والأخلاق .

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال : «إن التريعة كما حصرت «العبادة» في
الله تعالى فقد حصرت «الاستعانة» فيه أيضاً ، إذ ورد : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نستعين ﴿ (١ : ٤) ﴾ فكما أمرنا تعالى أن لا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فكذلك أمرنا أن لا نستعين بغيره أيضاً) . فأجيبته :

إن كل عمل بعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب ، التي اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مؤداة اليه ، وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكّن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ، ونبذل في اتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ، ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ، ثم نقوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتحمة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواء ، إذ لا يقدر على ما وراء الاسباب المنوحة لكل البشر على السواء ، إلا مسبب الاسباب ورب الأرباب ، فقول يوسف ههنا (اذكرني عند ربك) هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله تعالى ، وجعلها بتوفيقه ذريعة للمقصود ، وهذا الضرب لا مانع منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (٥ : ٢) ، ولنضرب لذلك مثلاً :

الزارع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الارض وريتها ، يفعل ذلك بنفسه ويستعين عليه بغيره ، ثم يستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوانح المساوية أو الأرضية ، وإشراق الشمس وإنزال المطر الكافي ، على سبيل التعاقب بين الشمس والمطر بمقدار اللزوم ، فالاستعانة بالعبء على القسم الأول جائزة طبعاً ، وشرعاً ، وأما الاستعانة على القسم الثاني فانما هي بالله وحده .

هل قالم الشرايى بما طلبه منه يوسف فورخروجه من السجن

الفائدة الرابعة — كان رئيس السقاة رجلاً شريفاً مصرياً من أشرف مصر

(الاصطلاحيين) أي الذين اصطاح الناس على تلقيهم بهذا الملقب ، فنظراً لذلك ونظراً لكون يوسف كان قد أوّل له رؤياه بما يمود عليه بالغبطة والسرور ونظراً لكونها قد اقعقت بينها أخوة السجن والاعتقال ظلاماً ، وأقرب ما تكون النفوس الى النفوس اذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، نعم اقه قد وحد ما بينهما ما صب فوق رؤوسها من الظلم ومازج بين نفسيهما ما كان من الوحدة والعزلة عن العالم ، الى الذكرى المؤلمة ، الى البؤس المشترك ، فيها أخوان في المساء والأحزان ، تجمعها صلة الجرح التي ذكرها الشاعر في قوله :

قد قضى الله أن يؤلّفنا الجر ح وأن نلتقي على أشجانہ
كلّا أن " بالعراق ، جريح لمس " الشرق ، جنبه في «عُمانه»

نظراً لذلك كله حسب يوسف أن مجموعة هذه الأمور تصلح لأن تشكل سبباً يدفع صديقه (رئيس السقاة) لأن يهتم بأمره ، ويرفع مظلمته للملك ، ويأخذ على عاتقه إطراعه والثناء عليه ، متخيلاً ان العظماء في دار الحكومة ، عظماء في المعروف ، عظماء في مقابلة الاحسان بالاحسان ، عظماء في تقدير الرجاء ، يقدرون القصد ويحسبون ان المعروف صيد ، لا ينسون أصدقاءهم ، ولا يخلفون إذا وعدوا ، ولا يبتلون بمجاهمهم — كان قد خيل اليه ذلك كله ، فاذا هو قد خاب قاله ، واستسمن ذا ورم ، وقفخ في غير ضرم ، ولم ينتفع منه على الفور ، ولكن بعدما دقّ العظم ، ورقّ الشحم ، وبلغ السيل الزبي ، ثم حدث ما أوجب أن يتذكره قسراً ، ويطريه بسببه عند الملك قهراً ، وللمفسرين ههنا كلام ، لو شئت أن أقول عنه لقلت إنه أقل من أن ينظر اليه القاطرون ، ويعلق عليه المعلقون .

اسباب عدم اخبار يوسف اباه بسجنه

الفائدة الخامسة — ان قال قائل : « لماذا لم يكتب يوسف لأبيه يعقوب عليها

السلام بطاقة يخبره فيها بهذا الحادث عساه أن يأتي ويسعى في مساعدته وإخراجه من سجنه ، وقد جرت العادة أن الإنسان عند الشدة يقزع لأقاربه ويستنصر بهم ، وإن رجاء يوسف لوالده أفضل من رجاء الأجنبي ؟ « قلنا ، يظهر لنا في جوابه وجوه :

(١) أن خصيمه هو الحاكم ، فشكوى حاله لأبيه لا تجديه شيئاً ، وقد قيل « إذا كان غريمك القاضي . فلمن تشتكي ؟ .. » وقال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شرقاً كنت كالغصان بالماء اعتصاري

(٢) ربما كان يخشى من سوء سمعته في فلسطين . لعدم وقوفهم على براءة ساحته مما اتهم به وحبس لأجله .

(٣) ربما كان لا يزال يخاف من اخوته وكيدهم إياه فيأتون لمصر ويتدخلون لأجل كيدهم مع الحكومة . فيزيدون الطين بلة .

(٤) أن يوسف كان رأى أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سيسجدون له . وهذه الرؤيا تفيد أنه لا بد أن يأتي يوم تسجد له فيه إخوته الأحد عشر وكذا تسجد له الشمس وهي أبوه . والقمر وهو مريته بلة . إن قلنا إن (الواو) في قوله تعالى : (والشمس والقمر) عاطفة . فإن قلنا إن هذه (الواو) واو المعية أفادتنا أن سجدوا الأخوة الأحد عشر ليوسف لا بد أن يكون اجتماع يوسف بالشمس والقمر أمراً مؤكداً عنده ، منتظراً له . كما كان أيضاً منتظراً لأبيه يعقوب . وعلى ذلك فكان يعقوب يترقب اجتماعه بولده يوسف و ينتظر ذلك اليوم المعهود . وكان يوسف يترقب اجتماعه بوالده يعقوب ، و ينتظر ذلك اليوم الموعود أيضاً ، وكان الاثنان على مثل اليقين ، بل على حق اليقين من اجتماعهما فيما بعد ، مهما طال الوقت ، فلذلك لم يسع يوسف في تعريف والده بوجوده ولم يجتهد على

إحاطة والله بأفه في مصر ، لتحقيقه ان الاجتماع سيقع أو سوف يقع بكفالة سماوية ، ووعد رباني لن يتخلف ، هذا أقصى ما أمكنا من الاعتذار عن سيدنا يوسف عليه السلام .

فصول مأساة يوسف (ع)

الفائدة السادسة — كانت مأساة يوسف عليه السلام ذات فصول سبعة :

(١) القاءه في الجب (٢) نقل السيارة له من موطنه لوطن آخر (٣) بيعه لقوطيقار كرقيق ، (٤) اتهامه زوراً بالفحشاء (٥) محنته بالنسوة المصريات (٦) سجنه ظمأً (٧) وأخيراً نسيان صديقه له وقد تشفع به أن يذكره الملك فكانت هذه الحادثة الأخيرة المؤلمة خاتمة هذه الفصول وتتم تلك الذكريات المحزنة .

على من يريد انتقاد امر ان يتمهل حتى تستوفي البيت نصابها

الفائدة السابعة — (وقال للذي ظن . . الح) وهنا يحشر المفسرون أحاديث

تحتوي انتقاد يوسف في هذا وفيما ذكر في آية ٤٧ و ٥٠ و ٥٥ ، وباليتم ترشوا وتمهلوا ونأملوا ، ولم يكونوا سراعاً في ايراد الطعن من قبي في قبي ، كأننا نحن المسلمين لم نكتف بإيقاد نار الفتنة بين رجل ورجل من غمار الناس وغوغائهم ، حتى وسعنا في هذا الباب وفتحناه على مصراعيه ، وجعلنا ننقل ما فيه إيقاد نار الفتنة بين الأنبياء الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، وباليتم المفسر حينما يريد أن ينقل انتقاد نبي على نبي ، واعتراض رسول على رسول ، يصبر حتى تستوفي البيت نصابها ، فقد ورد أن عمر بن الخطاب استشار الناس في دبة الجنين ، فقال المغيرة بن شعبه : (شهدت رسول الله ﷺ قضى فيه بغرة عبد أو أمة) — فقال عمر : (إئتني بمن يشهد معك) فشهد معه محمد بن مسلمة رواء ابن ماجه في سننه ، وفيها أيضاً أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه طلب من راوي الحديث شاهداً آخر ، في حادثة

ميراث الجدة ، فقد روى ابن ماجه : جاءت الجدة الى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها ، فقال لها أبو بكر : (مالك في كتاب الله شيء ، وما علمت لك في سنة رسول الله شيئاً ، فارجعي حتى أسأل الناس) فسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبه : (حضرت رسول الله أعطاهما السدس — فقال أبو بكر : هل معك غيرك ؟ — فقام محمد بن مسلمة الانصاري ، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبه ، فأنفذه لها أبو بكر)

تعليل تعبيره بكلمة (ظن) في الآية

الفائدة الثامنة — إنما قيل (ظن) في قوله (وقال للذي ظن أنه ناج) ، ولم يقل (عَلِمَ أو جَزَمَ) لأن عبارته لرؤيا الشراي ، ليست مبنية على حس أو تواتر أو وحي ، ولكن على ملكة ومقدرة ، وتوضيح المقام يحتاج لشيء من بسط الكلام : للعقل أحكام قاطمة ، وهي ما تستند الى يقينيات كالمشاهدات والمتواترات والأمور الموحى بها من الله ، وللعقل أحكام غير قاطمة ، وهي ما تستند الى ظن ، وقد رفع الله الظنون بعضها فوق بعض درجات ، فمن الظن ما يقوى ، فيوشك أن يكون علماً ، ومن الظن ما يضعف ، فيوشك أن يكون شكاً ، وقوة الظن وضعفه يرجعان الى تفاوت الامارات والدلائل التي توجد وتزويه في النفس ، فهذا ولما كان اعتقاد يوسف بنجاة « رئيس السقاة » ليس مستند على حس أو تواتر أو وحي ، بل على مجرد ملكة في عبارة المرآئي ، ومقدرة وهبها الله له ، ناسب أن يعبر في جانبه « بالظن » هذا هو الصواب في تعليل تعبيره بكلمة « ظن » خلافاً للمفسرين ، فدع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدي

اطهرق لفظ الرب مضافاً للماعقل على غير الله تعالى

الفائدة التاسعة — نتعلم من قوله « عند ربك » ان إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للماعقل على غيره تعالى كان جائزاً عند يوسف وفي عصره ، نظير السجود ، أي

سجود الانسان للانسان على جهة الاحترام والترسم ، فان كان جائزاً في ذلك العصر وما قبله لمهد آدم عليه السلام ، كذا قالوا ، وهو حسن ، ولكننا نريد عليه ما هو أحسن اقتضاء الله تعالى وهو أن هذا النوع من التعبير مبني على اصطلاح عند المصريين والعبرانيين ، وهو اعتبارهم الملك سيداً ، وكل رجل من رجاله عبداً له ، وهم كالعرب يعبرون عن السيد بالرب ، مضافاً للفظ العبد أو لصيغته . فيقولون : رب العبد وربّه ، وهذا ، أي إضافة لفظ الرب للعبد جائز لغة ، كما نص عليه (الاساس).

علاقة الشر بالله تعالى

القائدة العاشرة : — تعلم من قوله : ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أن نسب ما كان من نوع الشرور ، الى غير الله تعالى ، كأنفسنا والشيطان ، ولا ينسب لله عز وجل إلا ما كان من نوع الخير ، قال موسى عليه السلام ، لما قتل القبطي : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٢٨: ٩٥) ، وقال ابن مسعود لما سئل عن الفريضة :

﴿ أقول فيها رأيي ، فإن يكن صواباً ، فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ﴾ ، وكذلك قال أبو بكر في الكلاية ، وقال عمر نحو ذلك ، ومرادهم ان الصواب ، قد أمر الله به وشرعه وأوجبه ورضيه ، والخطأ لم يأمر به ولم يحبه ولم يشرعه ، بل هو ما زينه الشيطان لتفسيه وفعله بأمر الشيطان ، فهو مني ومن الشيطان ، وتوضيح ذلك : أن الله تعالى وإن كان خالقاً لكل شيء ، ولكن لا يضاف اليه الشر مفرداً ، بل إما أن يدخل في المصوم ، وإما أن يضاف الى السبب ، كالشيطان والتفسي الخبيثة مثلاً ، وإما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١٣: ٩٨) والثاني كقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (١١٣: ٢٩١) أي من شيطان ونفس

خبیثة ونحوها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يُنِشِئُكَ الشَّيْطَانُ ، فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦٨:٦) ، وقال فتي موسى :
﴿ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (٦٤:١٨) ، ولما نام النبي وأصحابه
في الوادي عن الصلاة ، قال : (هذا وادي حضرنا فيه الشيطان) ، وقال : (إن
الشيطان أتى بلالاً ، فجعل يهديه ، كما يهدى الصبي ، حتى نام) ، والثالث
كقول الجن : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رَشْدًا ؟ ﴾ (١٠:٧٢) وقد قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١:٥-٧) فذكر انه فاعل
النعمة ، وحذف فاعل الغضب ، وأضاف الضلال اليهم ، وقال الخليل عليه
السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٠:٢٦) وانما يذكر الشر في المفعولات
كقوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠١:٥)
وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦٦:٧) ، وقوله :
﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾
(٤٩:١٥) ، وقوله : حَم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر
الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ﴿ (٣:٤٠) (منهاج السنة).

معنى قوله « ذكر ربه » تذكير ربه

الفائدة الحادية عشرة — معنى قوله : ﴿ ذكر ربه ﴾ تذكير ربه ، فهو من
إضافة المصدر لمفعوله ، فان الذكر مصدر ، نارة يضاف الى الفاعل ، وتارة الى
المفعول ، كما يقال : دق الثوب ، ودق القصار ، ويقال : أكل زيد وأكل
الطعام ، ويقال : ذكر الله : أي ذكر العبد الله ، ويقال ذكر الله : أي
ذكر الله من ذكره ، وكل هذا في إضافة الذكر إضافة المصادر ، وقد

يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة ، كقولك ثوب زيد : أي الثوب المختص بزيد وذكر الله : أي الذكر المختص بالله ، ويحمل المنيين قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ ، لِمَ أَحْشَرْتَنِي أَعْمَى ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ؟ — قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (٢٠ : ٢٤ - ١٩٦) ، نقوله ﴿ذكرى﴾ * إن أضيف إضافة المصادر ، كان المعنى : الذكر الذي ذكرته ، وهو كلامه الذي أنزله ، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله ، وإن أضيف إضافة الأسماء المحضة ، فذكره هو ما اختص به من الذكر ، والقرآن هو ما اختص به من الذكر ، قال تعالى : ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ (٢١ : ٥٠) وقال أيضاً : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦ : ٣٩) (منهاج السنة) .

سبب مكث يوسف في السجن يضع ستين

الفائدة الثانية عشرة — قوله : ﴿فَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ * هو مرتب على قوله : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ * ولا علاقة له بقوله : ﴿قَالَ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ * ، حتى بظن أنه مجازاة ليوسف ، كما توهمه بعض من ليس عنده دقة وإدراك للأمور ، وليس عنده كبير احترام للأنبياء الله الكرام .

التحقيق في معنى «البضع» وفي مدة مكث يوسف في السجن

الفائدة الثالثة عشرة — «البضع» هو من واحد إلى عشرة ، نقله الطبرسي في (جمع البيان) عن ابن عباس ، ونقله الشريشي في شرحه على مقامات الحريري عن الأخفش والغراء ، ونقل صاحب القاموس أن من معاني البضع ما بين الواحد إلى الأربعة ، أو أن البضع ما بين العشرين من واحد إلى عشرة ، ومن أحد عشر إلى عشرين وهكذا ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سِتْرٌ﴾ * في بضع عشرين

سنتين ﴿ ٣٠ : ٣ ﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر « الروم » على « فارس ». لأنهم أهل كتاب ، والمشركون يميلون الى « فارس » لأنهم أهل أوثان ، فلما بشر الله المسلمين بأن « الروم » سيغلبون ، سرّ المسلمون بذلك ، ثم أن أبا بكر رضي الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم ، فقال له « أمية بن خلف » : « خاطرنى على ذلك » فخاطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بخطاره مع « أمية بن خلف » فقال له النبي : « ماحمك على تقريب المدة ؟ » - قال الثقة بالله ورسوله ، - فقال له : عُدْ اليه فزوده في الخطر ، وازدد في الأجل » - فزادهم قلو صين ، وزادوه سنتين ، فظفرت (الروم بفارس) قبل انقضاء الأجل الثاني ، ولكن كان (أُبَيّ بن خلف) قد مات ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية (أُبَيّ) وتصدق به ، وهذه الحكاية تدفع القول بأن (البضع) مابين الثلاثة والعشرة ، وهل كان (أبو بكر) لا يعرف معنى البضع في اللغة العربية ، وهو من صميم العرب ؟ إذ لو كان البضع كما قالوا لم يخاطر في مدة ثلاث سنين بل في مدة بعد الثلاث سنين ، ولما كان النبي ﷺ ينتقده من هذه الجهة ، بل أقره على فهمه ، ولكن أراد النبي الاحتياط بازدياد الأجل ، والخلاصة بالنتيجة يصح لنا أن نقول ان مدة إقامة يوسف في السجن إنما هي سنتان وشيء من السنة الثالثة كما يستفاد من (تك ٤١ : ١) وكل ما يروى في تحديد مدة سجن يوسف بأكثر من ذلك فهو غير حائز على شروط الصحة ، ومبني على حب المبالغة التي هي عادة في الناس .

هذه هي كلمتي في هذا الحل وهي آخر كلمة فأرجو الاغناء اليها ، وآمل من السامعين قبولها .

لا تحقر الرأيَ ياتيك الصغيرُ به فالنحلُ وهو ذبابٌ طائرُ العسل

الفصل السادس

حلم الملك

آية (٣) ﴿...﴾ وقال الملك: إني أرى سبع بقرات
سمان، يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر،
وأخر يابس، يا أيها الملأ، أفتوني في رؤياي، إن كنتم
لرؤيا تعبرون ﴿...﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والأربعون فقام الشيخ ناصر الدين الأفغاني وقال:
لقد تم الكلام في اعتقال يوسف وذيله، ولتركه في سجنه كما قدر الله،
وقد ذهب بالقارئ إلى الملك الريان وحلمه، واليك البيان: (وقال الملك) الريان
بلسان المتفهم المستغني (إني أرى) في المنام (سبع بقرات سمان) جمع سمينة
(يأكلهن سبع) من البقرات (عجاف) جمع عجفاء، والعجف الهزال
الذي ليس بدهن، (و) أرى أيضاً في حلم آخر في ذات الليلة (سبع سنبلات)
سنبلات (حضر) سبعاً (أخر يابس) ، هذا ما رأيت في حلمي هيّا
(يا أيها الملأ) الأعيان من العلماء والحكام والكهان (أفتوني في رؤياي)
علموني تأويلها وبينوه لي، بينوا لي حكم هذه الحادثة (إن) كان عندكم ثروة علمية
و (كنتم للرؤيا) النامية (تعبرون) وتعرفون عاقبتها ومآلها .

(وقال الملك : اني أرى سبع بقرات . . . الخ)

— ١ —

وقال العلامة الروحاني البخاري :

الملك الريان يقص حلميه على الملأ طالباً تعبيرهما له

شاءت العناية الالهية أن يخرج يوسف من سجنه بسبب شريف علمي . .
فقد آن للمظلوم أن ينتصر على الظالمين ، وحق للحق أن يدفع الباطل ، وإذا أراد
الله شيئاً هياً له أسباباً ، لذلك لما أراد الله اخراج يوسف من معتقله ، واسناد
وزارة المالية وحاكمية مصر ثمهده ، أرى ملك مصر رؤيا منامية ذات بال ، إذ بينا
الريان نائم رأى رؤيا أكبرها جداً وأفاق من نومه وهو خائر النفس ، وأصبح
من جرائها في اضطراب لم ير قبله مثله ، ولن يضطرب بعده مثله ، وأوجس منها
خيفة ، وأجفل أيما إجفال ، ولذلك جمع الكهنة والكتبة المقدسين والحكماء ،
وقال لهم بلهفة وهو مضطرب الحواس ، محطم من آثار ما رأى في منامه : إني أرى
حلماً ذا بال ، إني رأيت فيه سبع بقرات سمان وحسنة الصورة ، طلعت من النهر ،
فأرتمت في روضة كثيرة الكلاء ، ثم رأيت سبع بقرات أخرى طالعة وراءها
مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورفيعة اللحم ، لم أنظر في كل أرض مصر مثلاً في
القباحة ، فأكلت البقرات الهزيلة القبيحة البقرات السبع الأولى السمينة ،
فدخلت أجواها ولم تظهر علامات ذلك ، وكانت كأنها لم تأكلها ، وعليه بقي
منظرها قبيحاً كما في الأول ، وههنا استيقظت ، ثم نمت فرأيت في حلمي سبع
سنابل خصر طالعة في ساق واحدة ممتلئة وحسنة ، ثم رأيت سبع سنابل يبض
يابسة رقيقة ملفوحة بالرياح الشرقية نائية وراءها ، فابتلعت السنابل الرقيقة
السنابل الحسنة :

فيا أيها الكهنة ويا أيها العلماء والحكماء والكتبة المقدسين أنيروا ظلمة نفسي ،
وينوأي بفجر أفكاركم ، الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فقد التبس عليّ
أمر هذه الرؤيا ، والتوى عني مآلها ، يا أيها الملأ الذين يملأون بهيئاتهم عيون الناس ،
لله أبوكم ، ينوأي مرمرى مارأيت ، إن كنتم تتدبون لعبارة الرؤيا ، وتعرفون
مآلها ومرجعها

قال ذلك ، ولوائح الاهتمام تلوح على وجهه ، وظواهر النهاية تبدو على لسانه .

وهنا لسرد ثلثي مسائل لها علاقتها بتوضيح معنى الآية :

من هو «الملك» في قوله: وقال الملك ..

المسألة الأولى — إن هذا «الملك» الذي يعنيه القرآن هو «الريان بن الوليد»
كما ذكره مؤرخو العرب ، وكما وجد اسمه منقوشاً على بعض الأحجار الأثرية ،
وهو من العائلة ، وبعبارة أخرى من الأسرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة
لدولة الرعاة العربية بمصر ، أي الهكسوس ، إذ لما كانت السلالة الرابعة عشرة من
الفراعنة المصريين تحكم في وادي النيل سنة (٢٠٠٠ ق.م) ، كانت الأقوام السامية
تنتقل في شرقي مصر (مديرية الشرقية المسماة في التوراة أرض جاسان) ، على
حدود البادية ، وهذه الأقوام هي التي كان المصريون يسمونها «شاسو» أو «هكسوس»
أي البدو ، وهم قوم من البدو يشبهون العرب ، ويتكلمون لغة يظهر أنها كانت
قريبة جداً من العربية ، وكانت هذه الأقوام تترقب ضعف الفراعنة في مصر ،
فتسطو على المصريين في مدنها ، أو يقطعون عليهم السابلة للغزو ، وكانت الفراعنة
تخافهم وكثيراً ما سألته واستعانت بهن في حروبهم ، لقوتهم وشجاعتهم ، شأن
أهل البادية في كل عصر ، ومارالوا كذلك حتى سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على
مصر السفلى ، وامتلكوها ، وكيفية ذلك الله لما حدثت الاضطرابات والفتن ،

منذ السلالة الرابعة عشرة ، اغتتم الهكسوس ضعف دولة النيل ، فوثبوا على مصر السفلى ، وأعملوا فيها يد النهب والسلب ، واستعمروا الوجه البحري ؛ وجزءاً من الوجه القبلي ؛ واستولوا على مدينة « منفيس » وضبطوا « الدلتا » بكاملها ، وولوا عليهم ملوكاً منهم ، فتقهقرت الفراعنة الى الجنوب ، ثم بدأوا ينجون الضرائب من الأهاليين ، ومازالت مصر في حوزتهم حتى أول القرن الثامن عشر ق . م ودامت سيطرة الهالقة (الهكسوس) على مصر نحو أو أكثر من خمسة قرون ثم طردهم المصريون .

دولة الهكسوس في مصر

وكانت دولة الهكسوس عندما انحسر تيارهم وقت ورود يوسف الصديق تقع في المثلث الذي تتألف منه رؤوسه ، من « مينا القمح » و« بوسطه » (القريبة من الزقازيق) وصان الحجر ، وهي المسماة « صوعن » ، ثم لما تقدم ، لما بيع يوسف لم يجد أقل مشقة في محادثة الأهالي ، لأنهم كانوا منه ، وهو منهم ، يتكلمون كلهم لغة سامية ، فيوسف لم يخدم أحداً من فراعنة مصر ، لأن هؤلاء كانوا في « طيبة » في ذلك الوقت ، وكانت لغتهم مصرية لا يفهمها يوسف .

تعبير القرآن بلفظ « ملك » ولفظ « فرعون » نظام مصر الإفرامين

المسألة الثانية – عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذي كان في عهد يوسف بلفظ « ملك » ولم يعبر بلفظ « فرعون » ، لأن هذا الملك « الملك الريان » لم يكن من « القبط » بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين في نظرهم ، وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة « فرعون » إلا على من كانت مستولياً على مصر استيلاءً شرعياً وكان مصرياً قحاً ، وليس دخيلاً أو مستعمراً وعلى هذا جرت عادة كتاب الله تعالى أن يراعي الاصطلاحات المعروفة عند أهلها ،

وهو ما فهمته في توجيه تسمية حاكم مصر في زمن يوسف بـ «ملك» في خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة ، منها ما جاء في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ومنها قوله تعالى ﴿ وقال الملك : أثوني به ﴾ وقوله : ﴿ وقال الملك : اثوني به ﴾ استخلصه لنفسي ﴿ وقوله : ﴿ فقد صولع ﴾ الملك ﴾ وقوله : ﴿ ما كنت ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ فهذه خمسة مواضع اطلق الله فيها على حاكم مصر بصورة متبادلة لقب « ملك » لالقب « فرعون » ، ولكنه في سائر السور سمي ملك مصر الوطنيين « قراعنة » جرياً على اصطلاح « القبط » كما في قوله تعالى في فرعون التسخير « رمسيس الثاني » من السلالة التاسعة عشرة : ﴿ قَالَتْ قَطْلَهُ آلُ فرعون ﴾ (٨: ٢٨) ، وقوله تعالى في فرعون الخروج « منف » ، الا ان الثالث عشر لمسيح الثاني : ﴿ وقال فرعون : يا أيها السلا ما علمت لكم من إله غيري ﴾ (٣٨: ٢٨) ، وقوله تعالى في بعض قراعنة مصر : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ (١٠: ٦٦) وهذا لا تعلم من أي سلالة ، وفي أي عصر هو ؟

غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر »

في زمن يوسف باسم « فرعون »

وبعد كل ذلك قلنا غلط جميع المؤرخين من أهل التاريخ القديم والحديث العرب واليهود والنصارى ، وكذا المفسرين والمحدثين ، في تسميتهم « ملك مصر » في زمن يوسف باسم « فرعون » لانه يخالف الواقع ولاصطلاح أصل ذلك الزمن ، ولكتاب الله تعالى ، وقد تبع التوراة في هذه التسمية ، جمهور المفسرين والمؤرخين ، أو كأت المسلمين أخذوا تسمية الرعاة بالقراعنة ، فمن دخل في الاسلام من أهل الكتاب ، فقلدوهم في ذلك ، حتى اتصل بالمفسرين والناس — كما قال ابن تيمية — اسراب طبع يبيع بعضهم بعضاً ، وليعذرني القارىء

الكريم في مخالفتي لجميع من ذكر ، فاللهدد رد على سليمان ، والمرأة أصابت دون التعمان ، والقاروق يقول : « اخطأ عمر وأصابت امرأة » والسمكة ردت على الشيخ عحي الدين الأكبر .

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت

وعندنا ان هذا من جملة البراهين على أن القرآن وحي بوحى ، وليس من تأليف البشر ، لأنه لو كان كذلك ، لاتبع القرآن ما هو المشهور عند أهل الكتاب ، المتداول على ألسنتهم ، المكتوب في أسفارهم ، من تسمية « ملك مصر » في زمن يوسف باسم (فرعون) كما هو كذلك في توراتهم وغيرها من كتب اليهود المقدسة عندهم ..
(مرحى مرحى)

عدد سبعة في تاريخ يوسف

المسألة الثالثة — كثر عدد « السبع » في تاريخ يوسف ، فالبقرات السمان سبع ، والعجاف سبع ، والسنبلات الخضر سبع ، واليابسات سبع ، وسنثو الخصب سبع ، والسنثو الشداد سبع ، والحفلة النسائية التي تشكلت في قصر العزيز ، لكي تلتف حوله وزراه ، كانت مؤلفة من سبع نسوة ، والأبواب التي غلقتها امرأة العزيز كانت سبعة ، والاخوة الذين تبعوا مشورة شمعون في قتل يوسف أو طرحه أرضاً كانوا سبعة ، ولما ماتت « راحيل » حضرت « بلهة » يوسف سبع سنين ، وكان عمر يوسف حين قام أبوه من حاران سبع سنين .

اصحاب الملوك للعلماء

المسألة الرابعة — نتعلم من قول « الريان » للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكام — ان الملوك مهما كانوا من ذوي الأيد والشدة ، لا يستغنون عن أهل العلم ، يستتيرون بنور علومهم ، في دياجي الحوادث ، فكم من ملك بنى القلاع والحصون ، وقاد

الجيش ، واستكثر من السلاح والكراع ، وأوعد في الفتح ودوخ البلاد ، واستعبد الأمم ، وعاش في الغبطة والسرور ، ومع كل هذا لم يستغن عن سؤال العلماء ، والاستفادة من معارفهم ، فقول «الرباب بن الوليد» ههنا : « يألها الملأ أفقوني في رؤياي » قول يتضمن احتياج الملأ للعلماء وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله !

الملك بصاحبه من رجال البلاط والعلماء

المسألة الخامسة — « الملأ » جماعة يجتمعون على رأي فيملأون الميون ، أو ينظرون فيملأون بهيئتهم الميوت ، كما قالوا ، وعليه يكون « ملأ » بمعنى مالىء ، ويحتمل عندنا أن يكون « ملأ » بمعنى مملوء ، لأنهم مملوؤن من الرأي ، ومملوؤن من الهيئة الجميلة ، فهو فَعْلٌ بمعنى مفعول ، وقد عهد بحى فَعَلَ بمعنى مفعول أكثر من بحيته بمعنى قاعل ، فمن ذلك =

حسب ، تقض ، صمد ، سكنى ، ولد ، حصب ، نفص ، ذهب ، جلب ، سرب ، خرز ، ملك ، نعم ، طرح ، الى غير ذلك .

وربما كان هذا « الملأ » من رجال البلاط ومن العلماء اصحاب المناصب في الديوان الملكي ، الذين ليسوا اخصائيين في عبارة الرائي التامية ، ولذلك قال : * إن كنتم للرؤيا تعبرون * فان هذه الجملة تفيد ان الملك « الريان » لم يكن على بينة من أنهم يعبرون الرؤيا ، وليسوا مشهورين ولا اخصائيين في عبر المنام ، هذا ما فتح به المولى الكريم ، وهو بكل شيء عليم .

بغلب على الحليم أن يرى ولا يسمع

المسألة السادسة — تعليقا على قوله « لاني آرى » قلما يحلم الانسان حُلماً تحتوي مادته على لغة وكلام ، وانما الأكثر أن « يرى » الحلم ولا يسمع ، وهو لذلك يسمى « رؤيا » فتحن في معظم أحلاما حرس لا تتكلم وانما ترى فقط ، كما كان

الانسان في بدء حياته الانسانية عقب خروجه من الطور الحيواني أخرس لا يتكلم، ويوجد في هذه السورة المجيدة خمسة مرائي : الأولى رؤيا يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ، والثانية رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً والثالثة رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، والرابعة والخامسة، رؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل، وكل ذلك رؤيا لم تحتو مادته على لغة وكلام ولكن على شيء منظور، نعم في ذلك أفكار مجسمة، وتجسيم الأفكار هو الاصل في الرموز، ففي الرؤيا الأولى ، علو يوسف وشرفه مجسم في ذاته المسجود لها ، وخضوع اخوته مجسم في ذوات اخوته الساجدين ، وأما في الرؤيا الثانية فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته ، عند الملك هو مجسم في عصر الخمر للملك ، وأما في الرؤيا الثالثة فصلب رئيس الخبازين هو مجسم في الخبز المعلق فوق رأسه ، وأما في رؤيى الملك ، فالخصب مجسم في أشخاص البقرات السمان والسنابل الخضراء ، والجذب مجسم في أشخاص البقرات العجاف والسنابل اليابسات ، فالأفكار والآراء تتجسم للرائي في الحلم أشخاصاً أو أشياء ،

الفتوى

المسألة السابعة — (أفتوني) بمعنى علموني تأويل تلك الرؤيا ، ففي حديث رويناه ، في سنن ابن ماجه : (سيأتىكم أقوام يطلبون العلم ، فاذا رأيتهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ، وأفتوهم) قال محمد ابن الحارث للحكم بن عبيده : (ما أفتوهم قال علموهم) وأفتاه في الأمر أبانه له ، والفتيا والفتوى وتفتح : ما أفتى به الفقيه (قاموس) .

تعبير الرؤيا

المسألة الثامنة — حقيقة (عبرت الرؤيا) ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما

تقول : عبرت النهر إذا قطنته حتى تبلغ آخر عرضة وهو عبده ، ونحوه أولت الرؤيا ، إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها ، وعبر الوادي وعبر النهر ويفتح : شاطئه وناحيته ، وعبرت الرؤيا عبثاً وعبرة فأنا عابر ، أفصح من عبرت بالتشديد ، والتعبير والمعبر ، ثم لفظ (تعبرون) لم تذكر في القرآن إلا مرة واحدة ، في هذا الموضع لا غير . .

امكان رؤية حلمين في نوم واحد

وقبل الختام فعندي كلمة لا يد من التصريح بها ، وهي أن بعضهم سئِلَ : هل يمكن أن يرى الإنسان في منامه حلمين من مراد واحد يتكروان في ليلة واحدة : فأجاب بأن هذا من الممكن ، بل من المرجح ، لأن الإنسان يحلم بما يتغل باله ، فإذا كان هذا الشاعل قوياً تكرر حدوثه بل إذا تذكرنا حلمي مليك مصروهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة ، قلنا إنه واقع وثابت ، هذه هي كلتي الختامية والسلام عليكم .
(مرحي)

بهرل العارُ بتأويل اعرصهم وبهواهرهم

آية (٤) — ﴿ قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل

الاحلام بعالمين

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والأربعون فقام الشيخ أسعد الحواري (١) وقال :

(قالوا) أي المأل بلسان الجهل أو المكر (أضغاث أحلام) أي تخاليطها

(١) نسبة الى منطقة حوران من بلاد الشام (سورية)

وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث
ما جمع من أخلاط النبات وحُزِم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة
بمعنى من ، أي أضغاث من أحلام ، فان قلت : لم قالوا أضغاث أحلام بصيغة الجمع ؟
هو جمع ، لأنها حلمان ، فالسبع بقرات حلم ، والسبع سنابل حلم بعده ، إنما
كلاهما في ليلة واحدة ، وقد قيل أقل الجمع اثنان ، (وما نحن بتأويل الأحلام) .
أي المنامات الباطلة (بعالمين) فليس لهما عندنا تأويل ، فان التأويل إنما هو للمنامات
الصحيحة ، ويحتمل أن المعنى : هي أضغاث أحلام ومع ذلك فلسنا في تأويل
الأحلام الصحيحة بنحارير ، وههنا يظهر الفرق بين العالم والجاهل .

(قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الحق الاخصائي في علم النفس :

طعن الملائ في رؤيا الملك على اعتبار انها غير صحيحة

سبق أن الملك الريان دعى « الملائ » الذين عنده في البلاط وقد حسن فيهم ظنه
واستفهام في أمر حلميه ، وهم كانوا في اثناء استفهام الملك جالسين جلوس الاصنام ،
وقد جمد الدم في عروقهم ، لأنهم رأوا أن جهلهم لا يساعدهم على تأويل رؤياه ،
فلذلك أجابوه وقد علام الاصفرار والحجل واكتشفهم ظلمة الجهالة : أيها الملك ،
علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ، إن هذه الرؤيا التي رأيت ، لا يعول
عليها في تصارييف الايام بل هي تخاليط أحلام وأباطيلها ، اقتضتها هواجس الملك
وشكوكه ؛ أو هي منامات باطلة ليس لها عندنا تأويل ، فان التأويل إنما هو للمنامات
الصحيحة الصالحة .

فترى أنهم طمنوا في الرؤيا بأنها غير صحيحة ، وليست رؤيا رحمانية ، بل هي حلم من الاحلام الشيطانية التي لا تستحق النظر ، أرادوا أنهم وان يكن عتدم علم بتأويل الرؤى ، لكن هذه الرؤيا إنما هي حلم شيطاني ليس له تأويل مطلقاً ، لا عتدم ولا عتدسواهم .

جمل المأ بتأويل رؤيا الملك على اعتبار انها صحيحة

وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون معنى الاحلام في قولهم : (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) الرؤى المنامية الصحيحة ، كقولوا يقولون : ومع ذلك فلسنا هناك ، فاعتنا غير أهل لتأويل الراي المتابعة مطلقاً ، حتى على فرض انها صحيحة صادقة ، فقد نصدق إن قلنا : « خير أ رأيت » ، وقد نصدق إن قلنا « عكس ذلك » لاسمح الله ، فنحن لانعلم إلا أننا لانعلم ، وان من العلم أن نقول : « لانعلم ، بل الله أعلم » . وعلى هذا فيكونون قد اعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا في تأويل الاحلام بنحارير ، ويكون كلامهم هذا اعترافاً بالجهل أو العجز ، وانسحاباً من ميدان المقدرة على التعبير مطلقاً ، واعلانا لافلاسهم من العلم والمعرفة ، وبهذا يكونون قد استراحوا من حيث تعب الكوام ، كما أنهم بهذا قطعوا آخر خيط كان في نفس الملك من خيوط الرجاء بوقوفه على تأويل رؤياه بواسطتهم ، وهذا الاحتمال الثاني قوي جداً ، وقول الملك لهم أولاً : (إن كنتم قلل رؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا في اعتقاده عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذي أخرجهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أو غير عالمين ، وقول الفتى الذي نجا ﴿ أنا أنشكم وتأويله ... الخ الآية ﴾ دليل أيضاً على ذلك .

ولنا هنا خمس فوائد :

كذب الملائكة وصدقهم في جوابهم للملك

الفائدة الاولى — نرى أن هؤلاء « الملائكة » قد كذبوا في جوابهم للملك وصدقوا أما كذبوا ، ففي قولهم : « أضغاث أحلام » ، فإن هذه الرؤيا ليست من قبيل أضغاث الأحلام ، بل هي من الروى المعتبرة ، وأما صدقوا ، ففي قولهم : ﴿ وما نحن ... الخ الآية ﴾ الذي حاصله الاعتراف منهم بالجهل .

جواب الملائكة يدل على جهلهم بتعبير الروى

الفائدة الثانية — يوجد في هذه الآية نكتة ، وهي أن هؤلاء « الملائكة » جمعوا في جوابهم بين قولهم ﴿ أضغاث أحلام ﴾ وقولهم ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ ذهاباً منهم الى إرادة عدم الجواب على كل حال ، فهم يقولون : هذه الرؤيا لا تخلو من أحد أمرين ، فإن كانت أضغاث أحلام فيما نظن ، فليس لها عندنا ولا عند غيرنا تعبیر ، وإن كانت من قبيل الحلم الذي له تأويل فلسنا هناك ، لأننا لسنا من العلماء بتفسير الأحلام ولو صحيحة ، فعلى كل حال لا تكلفنا أيها الملك بتعبير هذه الرؤيا .

معنى الضغث

الفائدة الثالثة — الضغث من العمل ما كان مختلطاً غير خالص ، فهو فعل بمعنى مفعول ، كالذبيح والحمل ، من ضغث الحديث إذا خلط ، وأتانا ضغيثاً من ناس : أي جماعة ملتبسة ، داخل بعضها في بعض ، ومنه قولهم للحزمة من كلاً أو غيره « ضِغْث » والأحلام الملتبسة « أضغاث » .

طاف عمر رضي الله عنه بالبيت فقال : ﴿ اللهم إن كنت كتبت عليّ إثمًا أو ضِغْثًا فامحه عني ، فإني أرى أنك تمحو ما تشاء وعندهك أم الكتاب ﴾ ، وفي حديث أبي

هريرة رضى الله عنه أنه أردف غلامه خلفه ، فقيل له : ﴿ لو أنزلته فيسمى خلقك فقال : لأن يسير معي ضيفان من نار ، يحرقات مني ما أحرقا ، أحب إلي من أن يسمى غلامي خلفي ﴾ ، (الفاق) .

وقد جاء هنا أضغاث أحلام ، يصفة الجمع والمقصود ضمنا أحلام ، لأنها ضمنا اثنان فقط ، ولكن من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أن تجريها بجري الجمع كما تقول عند ذكر الحسين : « كرم الله وجوهها » ، وكما قال عز وجل : ﴿ إن تتوبا إلى الله .. فقد صغت قلوبكما ، وإن تظَاهرا عليه .. فإن الله هو مولاہ . الخ الآية ﴾ (٤:٦٦) ولم يقل « قلبا كما » ، وكما قال عز وجل : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ (٥:٩٠) ، قلم يقل « يديهما » فقه اللغة .

الحِلْمُ والحُلَمُ

الفائدة الرابعة - « الأحلام » جمع حَلَمَ يالحم بمعنى الرؤيا المنامية وهو من الباب الأول ، مثل حكم بحكم حكماً ، واسم الفاعل منه حالم ، ويقال : حَلَمَ يَحْلِمُ كَحَسُنَ يَحْسُنُ من الباب الخامس ومصدره الحِلْمُ بالكسر ومعناه صفح وستر وتأنى وتروى وتعقل ، واسم الفاعل منه حلیم ، وجمع الحِلْمِ بمعنى العقل حلوم وأحلام أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ ﴾ (٣٢:٥٢) وقال حسات :

لا يأس بالقوم من طول ومن قصر
حسم البغاي وأحلام المصافير

اصفاى نجاهل «للملأ» زهير رُوِّى بالملك وسير

الفائدة الخامسة - كل ما تقدم من أن هؤلاء « الملأ » جهلوا تأويل حلم الملك جهلاً حقيقياً ، لانجاهلاً صنيفاً ، هو ما ذهب اليه جميع مفسري القرآن الكريم ، ومفسري التوراة ، وهو حسن ، وعندى أنه يجوز أيضاً أن يكونوا غير جاهلي

تأويل هذه الرؤيا ، ولكنهم تجاهلوه ، تذكروا ما انطوت عليه الصدور ، وانحتت فوقه الصلوع ، من الحقد القديم ، والضعفة السياسية ، بين القبط الوطنيين ، الذين منهم هؤلاء « الملأ » ، وبين أمة الهكسوس الذين منهم هذا الملك ، ولا بدع في كون الوطنيين كانوا يعدون الهكسوس غريبين عنهم ، مفتصبين لبلادهم ، مع حلولهم بمصر نحو مدة (٥٠٠) سنة ، فهذه بلدة سلاطيك ، ظلت في قبضة الترك (٤٨٢) عاماً ، وما فتئ أهلها يعدون الأتراك أجانب ومفتصبين ، وترام عند كل فرصة كانوا يشورون على دولة « آل عثمان » حتى سلمت اليهم .

وغني عن البيان ان تأويل هذه الرؤيا بسيط وبسيط جداً ، ولكن هؤلاء « الملأ » لا يريدون أن يبينوا التأويل لهذا الملك الغريب المفتصب ، ولم يكونوا يريدون نصحه والاخلاص له ، لما كان الاختلاف بينه وبينهم في اللغة والعنصر والوطن والدين ، فلعنتهم وجرتوهم قبطية ، ولكن الملك الريان سامي في لغته وجرتومته ، وأما وطنهم قافريقية وهو من آسية ، وأما معبوداتهم فهي قطعاً غير معبوداته ، وإن كان كل من الفريقين وثنياً .

فهل بعد هذه المخالفات يمكن أن يخلصوا لهذا الملك ، أو لأي واحد من سلالاته ، أو لأي سلالة من سلالات الهكسوس الثلاث ؟ — حاشا —

وعندي أنه بهذا الفهم ينحل إشكال ، صورته مايلي :

كيف ان « الملأ » الذي يجمع بين السحرة والحاذة والمنجمين والمفكرين والمعبرين لم يحییوا عن سوآل الملك ، مع بساطة الجواب لاسيا على المصريين .

فاذا صح هذا يكون المعنى هكذا : سألهم الملك الريان عن رؤياه ، فتفاوضوا فيما

بينهم : ﴿ إن هذا الملك العماليقي الغريب المفتصب قد استبد هو وأجداده بمقدرات الشعب

المصري ، والآن (يستفاد من رؤياه) ، سيحدث بمصر حوادث هامة حيوية

اقتصادية ، ربما أوجبت اضطراباً في مملكته وأنهكت قواه وزلزلت أقدام هؤلاء

الغرباء ، وعليه قالوا فن أن لا تنصح له ، ولا نحييه على سؤاله لئلا يستدرك ويلطف هذه الحادثة التي ستحدث ، ولذلك قالوا له بأبوابهم فقط دون قلوبهم ، لأنهم لا يمتقدون ما يلفظون : (أضغاث أحلام) تجاهلاً منهم ، والافهم أهل لتعبير هذه الرؤيا وغيرها ، وأما قول الملك لهم : (إن كنتم للرؤيا تعبرون) فليس هو من قبيل الشك في مقدرتهم ، ولكنه من قبيل الحث والتحضير لكي يؤولوا هذه الرؤيا بجذ وسرعة ، أو لكون الملك هو قد استصعبها في نفسه ، وإن لم تكن صعبة عليهم في الواقع ، هذا ما نذكره على سبيل الاحتمال ، والله تعالى أعلم .

وقبل الختام ، فلا ندحة لنا من أن نقول : جل الله القدير ، إن هؤلاء الملاء ، أطبقوا وتماثلوا على ما قالوا ، جهلاً منهم بجرامي الرؤى المنامية أو كراهة منهم للملك ، وإذا كان معاوية بن أبي سفيان كان قال في حادثة : (إن لله جنداً من العسل) ، فتحن هنا نقول : (إن ليوسف جنداً من جهل هؤلاء الملاء أو مكرهم بالملك) لأن يوسف انتفع بذلك ، ولو لا جهلهم أو تجاهلهم ، لم يحتج إليه في تفسير رؤيا الملك ، فكان يبقى في معتقله لآخر لحظة من حياته ، ولكن هكذا أراد الاله القدير ، والله تعالى في خلقه شؤون .

مرحي

وعند جبهة « يوسف » الخبر اليقين

أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب إليه ليؤول له حلمي الملك :

آ (٤٥) ﴿ وقال الذي نجا منها ، وأدكرَ بعدَ أمة :

نا أنبيسكم بتأويله ، فأرسلون ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والاربعون فقام الجان عبدالسلام
أتركاني وقال :

سمع الملك الريان جواب (الملاء) فقال : سبحان الله ، ما هذه الحادثة التي.

آ (٤٥) تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الزهاب اليه ليسأله تأويل حلمي الملك ٨٧٠١

هي أعقد من ذنب الضب ، وإن أعجب ، فمجب أنكم تقولون عنها انها أضغات أحلام ، ثم تقولون ما أتم بتأويل الأحلام بعالمين (و) عند ذلك (قال) الفتى ، رئيس السقا (الذى) كان في السجن مع يوسف ثم (نجا منها) من القتين من القتل (وادكر) تذكر يوسف وما شاهد منه ، ولكن مع الأسف انما كان تذكره (بعد أمة) بعد مدة طويلة ، وذلك أنه حين حكي الملك الريان رؤياه واستفتى فيها الملاء ، وأعضل على الملاء تأويلها ، تذكر الناجي يوسف وتأويله . رؤياه ورؤيا صاحبه رئيس الخبارين ، كما تذكر أيضاً طلب يوسف اليه أن يذكره عند الملك ، قال : (أنا أنبئكم) أخبركم (بتأويله) بواسطة من عنده علمه وهو الفتى العبراني خادم فوطيفار رهين السجن (فأرسلون) أي قابضوني اليه لأسأله . ومروني باستعباره .

(وقال الذي نجا منها . . . الخ)

— ١ —

ثم قام الحاج عبد القهار الألباني ^(١) والى المقال التالى :

تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الزهاب اليه ليستعبره ملحمي الملك

سمع رئيس السقا (نبو) سوآل الملك الريان وجواب (الملاء) السلي ، صار يضحك في قلبه على جهلهم ، ويقول بينه وبين نفسه : (إن هؤلاء الملاء ، هؤلاء العلماء الرسميين ، لهم أضعف من أن يقدروا أن يعبروا رؤيا الملك) ، ثم ماعتم أن تذكر يوسف العبراني ، فقام ووقف أمام الملك وركع بين يديه وكفّر وقال : (أيها الملك المعظم ، ماهؤلاء وذاك ؟ . . اعط القوس باريها ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) .

(١) سبة الى بلاد الالان الكائنة بين اليونان وايطاليا .

(أنا) بصفتي كوسيط (أنبئكم بتأويله) بكل تدقيق وتفصيل ، على أهون سبيل ، فإن في معتقل الخاصة كهلاً فاضلاً صالحاً ، كثير العلم كثير الطاعة ، كنت معتقلاً معه أنا ورئيس الخبازين (بجلت)^(١) ، وكان كلانا رأى حلاً ، فقص كل منا حله على هذا الانسان ، فذكر لنا تأويلها بأسرع من لمح البصر ، وليس هذا هو العجيب ، بل العجيب أنه صدق في تأويل كليهما ، وما أخطأ في حرف واحد . فإن رأى جلالة ربي الملك أن يعثني إلى سجن الخاصة ، ويصحبني بمن يسمع وبمي معي ما يقوله ذلك السجين فقلت ورجعت بالجواب الوافي الذي يرد الغلة ، ويشفي من العلة .

وهكذا هتف الشرابي بمدح يوسف وأفاض فيه ، حتى ألبسه ثوباً فضفاضاً من الاعجاب والتقدير ، وكانت تلوح على فمه آيات الصدق والاخلاص ، فلذلك قال له الملك : (ليكن كما تحب ، وليذهب معك من أردت ، دونك ما بدا لك) فسار في كوكبة من رجاله الى يوسف السجين .
وهنا ملحوظات أربع :

ثمرة الاحسان

الملحوظة الأولى - نتعلم من هذه الآية أنه مادلٌ بمليك مصر على يوسف الصديق ، وعرفه بفضله إلا ذلك المصري (رئيس السقاة) ، لما سبق أنه سمع منه الحكمة والفوائد الجليلة ، مع ما عهده إليه يوسف من ذكره اليك ، فأثمر عنده الاحسان ووفى بالوعد ، وإن كان بعد طول العهد .

الحكمة من صرف الله المأوى عن تأويل رؤيا الملك

الملحوظة الثانية - لقد صرف الله المأوى عن تأويل رؤيا الملك ، وجمد أفكارهم

(١) وفي رواية يسمى « ملحب » .

عن فهمها ، وألجم ألسنتهم عن بيانها ، حتى يسمع « الساقى » فيطير بها ليوسف
ويقضى الله أمراً كان مفعولاً .

التدائير الالهية وجهل الملائ

الملحوظة الثالثة — بالبلاهة والسذاجة ! ألمهذه الدركة يكون الجهل في
هؤلاء الملائ ؟ .. أين علماء « صوعن » ؟ .. أين سحرة « تانيس » ؟ .. أين حكماء
« الوجه البحري » ؟ أين فلاسفة « الوجه القبلي » ؟ .. أين حازة « المديرية الشرقية » ؟ ..
أين عافة « بوسطة » ؟ .. أفلا يوجد واحد على الأقل في هؤلاء يقدر أن يعبر حلمي
الملك ؟ .. لكن هي التقادير والتدائير الالهية صرفت هؤلاء عما هو بسيط ،
وجعلتهم يجهلون ماهو غاية في السهولة ، حتى يحتاج الريان لمراجعة ذلك السجين
المبراني ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

الفتى الناجي ينهري الملائ

الملحوظة الرابعة — رأى « رئيس السقاة » أن هؤلاء « الملائ » حوّلوا رؤيا
الملك عن جهة كونها رؤيا معتبرة قيمة تستحق التعبير — الى جهة كونها حلماً
ليس له قيمة ، وليس له اعتبار ولا تعبير ، بل هو تخاليط وخيالات ، ثم رآهم
أيضاً يتصلون من معرفة التعبير مطلقاً — فلذلك قال : (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) .

استيعار رؤيا الملك من يوسف

آ (٤٦) * . . . يوسف ، أيها الصديقُّ ، أَقْتِنَا فِي سَبْعِ
بِقَرَاتِ سِمَانٍ ، يَا كُلَّهِنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ
خُضْرٍ وَأُخْرَى يَابَسَاتٍ ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ . *

انفتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والاربعون فقام مولانا احمد
حسن الهندي الكلكتي^(١) وقال :

وافق الملك وحاشيته على إرسال « رئيس السقاة » الى يوسف ، ولما أتاه ، قال
له : يا (يوسف أيها الصديق) البليغ في الصدق ، لقد تعودنا أن نسمع حديثك اللذيذ
وفنواك الصحيحة ، التي ذقت أحوالها وترفت صدقها في تأويل رؤياي ورؤيا
صاحبي ، حيث قد جاءت كما أولت لنا ، فخرجوك الآن (أفتنا في سبع بقرات .. الخ)
وان أمكنك أن تكون القتيا في هذه الجلسة بذاك هو المطلوب ، حيث الحاجة
ماسة والمسألة مستعجلة ... (لعلني أرجع الى الناس) وهم الملك وحاشيته (لعلهم
يعلمون) التأويل أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك .
(يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان .. الخ)

١ -

وقال السيد حسن السامرائي^(٢) :

الفتى الناجي يقابل يوسف ويمتدحه ويستعبره رؤيا الملك

قام رئيس السقاة يدوق زهابه ، حتى لراه يكاد يخرج من إهابه ، وذهب

(١) نسبة الى كلكتا احدى مدن الهند . (٢) نسبة الى سامراء بلدة في العراق .

الى سجن يوسف ودخل عليه قائلاً :

« يوسف » قبل كل شيء أطلب إليك الصفع ، فقد كنت أدبت حيالك ،
لأنني أنسيت أن أذكرك لربي ، وما أنسايتك إلا الشيطان أن أذكرك ، (أيها
الصديق) لله أبوك ، لك الله من رجل صدق ، رجل حذق ودكاء ، لك الله من
رجل جمع الى الاحسان في عمله ، الصدق في رأيه وقوله ، أريد أن أجتديك ،
وأعتني فضلك ، فقد آتيت لك بمهمة ذات بال : أفتنا وأنز ظلمة نفوسنا ، وبين لنا
المرمى في رؤيا سبع بقرات سمان اللحم وحسنة الصورة ، طلعت من النهر فأرتمت
في روضة فأكلتهن سبع بقرات مهزولة وقييحة الصورة جداً ورقيقة اللحم ، لم
أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة ، طلعت البقرات الرقيقة القبيحة من
النهر وراء تلك السبع الأولى فأكلتها ودخلت أجوافها ، ولم يعلم أنها دخلت أجوافها .
ثم أفتنا في رؤيا نانية أيضاً ، رؤيت بعد الأولى في ليلة واحدة وهي سبع
سنابل خضر طالعة في ساق واحدة مختلئة وحسنة ، وسبع سنابل أخر يابسات
ورقيات نابتة وراء تلك ، ملفوحة بالريح الشرقية الجنوبية ، المعروفة بريح الحسين
تأتي لمصر من صحارى بلاد العرب اليابسة ، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل
السبع الحسنة ؛ هذا هو الحلم الذي استعجب علينا ماله ، والتبكت تفسيره ، فأمدني
من فضلك وخلاك كتمان العلم ، لأنني سأرجع الى الملك « الريان بن الوليد » وهؤلاء
الذين من حوله ، فأطلعهم على علمك وفضلك ، فتصير بالطبع تحت الطلب ، وأنا
لا أكلفك بتوقيع الجواب عن سؤالي اعتباطاً ، بل لداع هام منحصر في دائرة ،
وهي علم الملك وحاشيته بتأويلك ، فعلمهم بفضلك ، فخروجك من السجن ، فهذه
الفتوى ليست مجانية ، بل مأجورة ، وأجرتها ما قد علمت ، فقد عودتنا
الاحسان منذ القديم ، فجدد بفتواك اليوم سالف إحسانك ، وألحق النعمة

٨٧٦ الشراي ينبه يوسف الى سابق محبته له بدعوته لايام باسمه ولقبه آ (٤٦)

الآخيرة بأولها ، وأنت تعلم أن (الساكت بين التائم والاخوس) فترجوك الجواب ،
ولك من الله الثواب .

فلما سمع يوسف ذلك رأى وهو في ظلمات السجن ، دقوا سلامته يشرف عليه
كالقبس في الديجور ، وتفاءل من محبي رئيس السفاة خيراً وفرجاً قريباً .
(يوسف أيها الصديق ، أفتناقي سمع بفوات .. الخ)

— ٢ —

وقال مولاي عبد الحفيظ التونسي :
سوف أقصر كلامي على هذه الآية بالملحوظات التالية :

الشراي ينبه يوسف الى سابق محبته له بدعوت لايام باسمه ولقبه

الملحوظة الاولى — نجد أن « الشراي » قد بفت يوسف بذكر اسمه ولقبه ،
لينبهه الى صحبته له سابقاً ، ومعرفة به وحاله ، وليلفت فكره الى ما كان سبق
من عبارته رؤياه ، وصدقه فيها .

كرم افترق يوسف بدم صلاته الشراي لدم قيام بما كان عليه من

الملحوظة الثانية — كان « الشراي » يتوقع أن يوسف سيذكره بما كان
رغب اليه فيه ، ويعاقبه على عدم قيامه به ، ولكن يوسف عليه السلام لم يفعل ،
إما ترفعاً عنه ، أو كرم أخلاق منه .

القاب يوسف

الملحوظة الثالثة — لقبه « بالصديق » لأنه كان جربه في عبادة حلمه وحلم
رئيس الخبازين ، فوجده صادقاً وصاحقاً ، ولقد حفظ له التاريخ هذا اللقب ،
واعتبره منذ ذلك الوقت إلى اليوم ، فكلمة (صديق) هي الكلمة الوحيدة التي
تأتي دائماً بعد كلمة (يوسف) ، عندما يراد ذكره ، أو ترجمة حياته الشريفة ،

وفي صدد تلقيه (بالصدق) نرى إخوته لقبوه (بالعزيز) حيث قالوا له ، لما دخلوا عليه في السفرة الثالثة (يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر . الخ) (آية ٨٨) ولا بد أن يكون هذا . قد صار لقباً رسمياً له من حين أن جعل في الحكومة المصرية ثاني الملك ، كما كان قبله (فوطيفار) ، ثم هو بجعله على خزائن الأرض طبعاً قد صار (ناظر مالية عام) ، ونرى في بعض كتب التاريخ القديم أن ملك مصر وجه له لقب (صفقات فتيح) حينما رآه قد أحيا أهل مصر ، وخلصهم من عذاب الجوع ، لأن هاتين الكلمتين مصريتان ، معناهما على ما قاله (القانون كوك) : (طعام الحياة) أو (قوت الأحياء) ، وفسرها آخر (بمخلص العالم) والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة إلى زمن القحط ، فهذا هو رابع الألقاب ، ونرى ليوسف عليه السلام في القرآن الكريم لقباً خامساً ، وهو (رسول) ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ ، قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ (٤٠ : ٣٤) وما يستحق الانتفات أن هذه الألقاب الخمسة كانت مؤسسة على أعمال صدرت منه استحقتها بحق ، بدون سعي منه ، أو توسط بمن يلزم ، أو دفع رشوة لأولياء الأمر أو ابتياع الاسماء والألقاب والرتب كما يفعل كثيرون من المتمجدين من أهل اليوم . . . !

اخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف

الملحوظة الرابعة — مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذي رأى هذه الرؤيا ، وتتمياً لهذا التستر ، تجده ذيل استفتاءه بقوله (لعلني أرجع إلى الناس ، لعلهم يعلمون) عبر بهذا بدلاً من أن يقول : (أفئنا في

رؤيا رآها الملك وفي كيت وكيت ، ثم يذبل سؤآله بأن يقول : لعلي أرجع إلى الملك لعله يعلم) ، فها هي النكتة يترى في ذلك . . . وعتدنا أن الداعي لذلك هو أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن ووقوفه أمام الملك ، مشروطاً بذلك ، توصلأ لخروجه من معتقله فلما ظن ذلك ، وهو حريص على تأويل الحلم ، وحريص أيضاً أن يسمع الملك تأويل حلمه ليس من قم يوسف ، بل من فمه ، لينال حظوة عند الملك بذلك ، فلهذا ستر الحالم سترأ ، ودحر تفصيل الواقعة دحراً .

معنى ارفقاء

الملحوظة الخامسة — أفتاء في الأمر : أباقه له ، وأخوات هذه المادة تشير للكشف والظهور ، وذلك مثل فت ، قج ، فر ، فض ، فتق ، فتك ، فتن ، فكل ذلك يرمي لمعنى البيان والوضوح والكشف ، وبعد لم يقل كما قال هو (الخباز) أولاً (قبشاً) لما عاين من سمو رتبة يوسف ، وجرب من علو فضله سابقاً ، لأن هذه المادة تشعر بذلك ، فإن (الفتى) يطلق على السخي الكريم ، (والفتوة) هي الكرم .

معنى الصديق

الملحوظة السادسة — الصديق : من غلب عليه الصدق وعرف به كالسكر لمن غلب عليه السكر ، هذا إذا لوحظ أخذه من الصدق ، كما هنا ، وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التصديق ، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكال الإيمان بهم ، وذلك كما في لقب « الصديق » لأبي بكر رضي الله عنه ، ومن اطلاق « الصديق » بالمعنى الأول ، قوله تعالى : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (١٩ : ٤٦) . وقوله تعالى : ﴿ واذكُرْ فِي الْكِتَابِ

إدريس ، إنّه كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ﴿٥٦:١٩﴾ ومن قبيل إطلاق الصديق بالمعنى الثاني قوله تعالى : ﴿وَأَمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ﴿٧٨:٥﴾ بدليل : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْهُ﴾ ﴿١٢:٦٦﴾

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسول كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ﴿١٩:٥٧﴾ فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمة « صديق » اطلقت في كتاب الله تعالى على إدريس وإبراهيم ويوسف ، بمعنى ، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسول بمعنى آخر .

هذه كلمة ولنا كلمة أخرى ، وهي أن الصديق رتبة من أربع رتب رسمية ، ولقب من ألقاب أربعة سماوية ، وهي نبي ، صديق ، شهيد ، وصالح ، وهؤلاء الأربعة هم المتعم عليهم في قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿٦:١٠١﴾ والدليل على ذلك كله قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٨:٤﴾ .

وجوب التزام الادب عند مخاطبة النبي (ص)

الملحوظة السابعة — قال علماؤنا : يجب الأدب مع النبي ﷺ في حين خطابه ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ ﴿٦٣:٢٤﴾ ، فلا يجوز أن يخاطب بياحمد أو ياأحمد ، ولكن بلقب الرسول والنبي ونحوهما مما فيه احترام له عليه السلام ، ولو قيل : ياحمد خاتم النبيين مثلاً ، جاز ، لأنه وإن يكن نداء باسمه ، لكنه قد أتبع بلقب احترام .

ولقد التزم « الشرايبي » الآن هذا الأدب مع يوسف عليه السلام حيث أتبع لفظ العلم بلفظ اللقب .

٨٨٠ قوله لعلمهم يعلمون بدل اشتغال من قوله لعلي ارجع الى الناس آ (٤٦)

قوله لعلمهم يعلمون بدل اشتغال من قوله لعلي ارجع الى الناس

المحوظة الثامنة — ربما كانت قوله ﴿لعلمهم يعلمون﴾ يدل اشتغال من قوله ﴿لعلي ارجع الى الناس﴾ ، والله أعلم .

الوجاز في القرآن

المحوظة التاسعة — يوجد بين قوله : ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ وقوله : ﴿يوسف ، أيها الصديق .. الخ﴾ إيجاز لطيف مقبول معهود ، والمعنى :

أنا أنبئكم بتأويله ، فإني أتذكر اليوم أن حضرة الملك لا سخط عـ ليّ وعلى «النجار» وجبنا ، رأى كل منة حلماً ، وكان في الحبس غلام عبراني ، عـ «لعز مصر» فقصصنا عليه ما رأينا فبره لنا ، وكما عبر حدث ، إذ ردني الملك الى مقامي ، وأما «النجار» فمئتي ، فلا أعلم أحداً أصدق منه عبارة للعراقي ، فأرسلوني اليه لاستعبده ، فأرسل الى يوسف ، فأناه فقال له : «يوسف أيها الصديق الخ» ، ولهذا نظائر في اللغة العربية وفي القرآن الكريم ، لا تحصى كثرة ، وهي في القرآن نحو الـ ٥٠٠ أو تزيد ، واليك بعض الأمثلة .

١— قوله تعالى : ﴿فسجدوا لإلإبليس آى واستكبر ، وكان من الكافرين﴾ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿(٣: ٣٥ و٣٤)﴾ .

٢— قوله تعالى : ﴿وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذاكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم﴾ ﴿(٢: ٥٤)﴾ ، والمعنى ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم .

٣— قوله تعالى . ﴿وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب به عصاك﴾

الحَجَر ... فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴿٢: ٦٠﴾ والمعنى قُضِرَ فانفجرت.
 ٤ - قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٣ : ١٧٤) والمعنى وأما الذين كفروا بالله واعتصموا بالطاغوت ، فسيدخلهم في نقمة منه وغضب ، ويسلك بهم الصراط الأعوج .

٥ - قوله تعالى : ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم أَنْ تَضَلُّوا﴾ (١٧٥ : ٤) ومعناه . كراهة أن تضلوا .

٦ - قوله تعالى : ﴿لَا يَتُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّفَوِّ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ... فَكَفَّارَتُهُ .. الْخ ..﴾ (٥ : ٩٢) ، والمعنى ولكن . يتوخذكم بما عقدتم الايمان اذا حثتم ، فكفارته الخ .

٧ - قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ ، فَعَلْتُيَ إِجْرَامِي ... وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (١١ : ٣٥) يعني ولم يثبت ذلك ، وأنا بريء من إجرامكم في استناد الافتراء الى .

٨ - قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ ..﴾ (آية ١٥) ، جواب « أَسَا » محذوف ، ومعناه فعلوا به ما فعلوا من الأذى .

٩ - قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ... وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. الْخ ..﴾ (آية ١٨ و ١٩) ، فهنا كلام محذوف تقديره ، وبعد أن ذهب آباء الأسباط . لأبيهم ، ونعوا له أخاهم ، وقال أبوه ماقال ، ومضى مدة من الزمن ويوسف في الجب . « جاءت سياراة الخ » .

١٠ — قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ... فَأَدْنَىٰ دَلْوَهُ ... ﴾ قال
 يابشرى هذا غلام ﴿ (آية ١٩) ، والمعنى أرسلوا واردهم ، فذهب حتى وصل الجب ،
 فأدلى دلوه ، فتعلق يوسف بالرشاء ، فلما خرج إذا هو بقي أحسن ما يكون ، فقال
 يابشرى الخ .

ويوجد في كتاب الله تعالى الشيء الكثير من هذا القبيل الذي لو تتبعناه لخرجنا
 عن الصدق وفيما ذكرنا كفاية للمستبصرين .

تأويل يوسف لرؤيا الملك

آية (٤٧) « قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ، فَمَا
 حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والأربعون فقام السيد صدر الدين
 الدمشقي وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الشرابي : أريد أن آتيك بالتعبير على وجهه (تزرعون)
 أي ازرعوا جميع أراضيكم (سبع سنين دأباً) — بسكون الهجزة وتحريكها وهما
 مصدر دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين إما على تدأبون دأبا ، وإما
 على إيقاع المصدر حالاً بمعنى ذوي دأب فتأتي بزرع أخصب زرع وبريع أحسن
 ربيع حتى أن قطعان الغنم تختفي عن الأبصار بين أعشاب الربيع وحتى أن الجاموسة
 بطولها تمنجب في المراعي بين الأعشاب ذلك لعظمة قوة النباتات وجودة التربة
 وكثرة الإبل في تلك السنين (فما حصدتم فذرروه) اتركوه وأبقوه (في سنبله)
 لئلا يتسوس (الا قليلا مما تأكلون) ، فهذا لا بأس أن تدرسوه وتذرروه وتخرجون

حبه وتميزوه من تبته تهيئونه لأجل أكلكم وقوتكم ، وبما أن هذه المسألة مسألة أساسية ، حيوية ، ينبغي لكم أن تعتوا بها ولا تخالفوا ماقلت لكم .

(قال : تزوعون سبع سنين .. الخ)

— ١ —

ثم ألقى العلامة الديري^(١) البيان التالي :

تعبير يوسف لرؤيا الملك يسط التدبير اللازم

جاء الشرايي بمن معه من الجند ، وقص على يوسف تلك الرؤية ، فلما سمع منه يوسف ذلك ، لم يكن إلا كلع البصر أو هو أقرب ، حتى أمعن في بيانه وجوابه وقال : على الخبير سقطت ، ولا ينبئك مثل خبير ، إن هاتين الرؤيتين مستحدثتان تبدلات خطيرة في الموقف الحاضر ، إذ السماء نظمت برنامجاً جويّاً أرضياً وسوف تطبقه عليكم ، ولا مفر من ذلك ولا محيص غير أنه يمكن تخفيف وطأة مواد هذا البرنامج السماوي ، فإذا كان قدراً قابلاً بقاءه بقدر مثله ، وهو العمل على تلطيفه ما أمكن ، ولذلك أقول لكم تأتي على مصر أولاً سبع سنوات هي سنوٌ جذب وقحط هي موت زعاق ، تفعل في الناس ولا فعل الحروب والأوبئة ، إلا إذا تدورك هذا الخطب الجلل ، وتلطف هذا البلاء العظيم ، بحسن التدبير والحكمة ، والاقتصاد القويم ، فهذه طريقي تضمن لكم الفوز ، وتؤمنكم من الخطر الذي يريد أن يحدق بكم فازرعوا كمادتكم سبع سنين دأباً ، عادة مستمرة ، كما كنتم تزرعون سائر السنوات السابقة قبلها ، بدون أن يتخلل تلك السبع سنة واحدة بغير زراعة يأن تتركوا الأرض بوراً مثلاً فما جززتم وقطعتم بالمنجل فذروه في منبته

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام « سورية » .

لئلا يتسوس إلا قليلا ، أي يسيراً ، فانه لا بد لكم من فصله عن منبله واخراجه منه لأجل أكله ، الأمر الذي يعوزكم لوجود عامل صاحب مهمة عالية ، ينشطكم للامال الزراعية وتمميمها وتقوية أصحاب الأراضي وتفهمهم مايلزم عمله .

سرعة اجابة يوسف بتعبير رؤيا الملك دون قيد ولا شرط

وتابع العلامة الديري قوله : إن لي على ما سبق ذكره ملحوظة واحدة وهي أن يوسف (ع) أجاهم على القور ، ولم يشترط أن يخرجوه لقضاء ذلك ، لأنه كريم ، وشأن الكريم عدم الابطاء والاخلاص في الاعطاء . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما أتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه) ، وعن علي كرم الله وجهه : (ما أخذ الله على الجاهل أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا) ، وقال المسيح عليه السلام للحواريين : (مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا) وبسبارة أخرى : إنما أفناه يوسف مع إنه كان عهد إليه بتوسطه له عتد مليك مصر ولم يفعل ، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي سنحل بالمصريين ، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظالماً ، لأن النصيحة من الايمان ، وكاتم العلم ملعون ، ولأن الذي سجنه إنما هو واحد فقط وهو « فوطيفار » ، وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو أيضاً واحد ، وهو « الشراي » ، فكيف يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير ، بذنب رجل أورجلين ؟ .

(مرحي)

(قال : تزرعون سبع سنين .. الخ)

— ٢ —

ثم قام المحقق الانطاكي (١) وقال ليسمح لي السادة الافاضل بالتحقيقات

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام « سورية » .

التالية لشأن سياسة يوسف في مجاعة مصر وفي بعض الالفاظ التي وردت في هذه الآية الكريمة :

تدبير يوسف الاقتصادي لأهل مصر

١ — وضع يوسف هذا التدبير الاقتصادي لأهل مصر ، في ذلك العصر لقلة طرق المواصلات ، وضعف وسائل النقل البرية والبحرية ، إذ لم يكن أمن مستتب بين مملكة وأخرى ، كما لم يكن هناك سفن بخارية في البحر ولا سكك حديدية في البر ، فلذلك كان إذا حصل قحط في جهة من الجهات أثر عليها تأثيراً كبيراً ، أما لو كانت الحال على ما نحن عليه اليوم من اتصال الممالك بعضها ببعض ، وتسهيل طرق التجارة برّاً وبحراً وجواً وتيسير أسباب النقل بسرعة ، لما كان لذلك القحط تأثير يذكر .

ملكية الحاصلات في مصر

٢ — تنص هذه الآية أن يوسف أمرهم بادخار جميع الحاصلات في مبيع سني الخصب في سنا بلها ، والظاهر أن هذه الحاصلات هي ملك لأربابها الأهالي ، وأما الحكومة فلا سيطرة لها عليها إلا بأن أجبرتهم على هذه الطريقة أو شوقتهم إليها وحببتهم فيها ، وهذا ما تعلمه من كلام الله تعالى ، وللمفسرين ههنا نقول في كيفية خزن الحكومة لهذه الحاصلات ، ثم يبعها للأهالي بالقضة حتى نفدت ، ثم بالمواشي والخيول والحمير حتى نفدت ، ثم يبعث لهم بأرضهم وأنفسهم بأن صارت الأرض ملكاً للحكومة ، وصاروا هم عبيداً للحكومة ، فكتاب الله تعالى لا يشتر لشيء من هذا ، بل ظاهره يناق في ذلك ، وإنما هو شيء نقلوه من (تك ص ٤١ : ٣٤ — ٣٧ و ص ٤٧ : ١٣ — ٢٦) ونحن إذا تعارض كتاب الله مع سواه من التواريخ يجب علينا الرجوع لكتاب الله فقط ، ورفض ما يخالفه ، والله أعلم .

الخبر في معنى الأمر والانشاء في قوله (تزرعون)

٣- قوله (تزرعون) خبر في معنى الأمر والانشاء كقوله : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ لَكُمْ خَيْرٌ لِّمَ أَنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ . . الخ الآية ﴾ (٦١ : ١١ و ١٢) ، فهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيبه بقوله : (يغفر لكم) ، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به ، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله : (قدروه في سنبله) .

وهذا أسلوب عربي قد جرى عليه القرآن كثيراً ، لو لاحظناه المفسرون لما وقعوا في كثير من الآيات في حيض يصح ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَمَنَّى تَنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ (٢ : ٢٧٢) وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٥٦ : ٧٩) وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مَا كُنْ لَكُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ (٢ : ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (٣٣ : ٥٣) وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (٤ : ١٤٠) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ لَوْ كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ ، وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٤ : ٨٩) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (٦١ : ١١) وقول النبي ﷺ : (لا يزال هذا الأمر في قرش ، ما بقي من الناس اثنان) .

ادخار الحنطة

٤ — أشار بقوله (فذروه في منبلة) إلى رأي نافع بحسب طبيعة طعام مصر ونواحيها وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه ، إلا بحيلة إبقائها في السنابل ، فلذلك بقيت فيها . حفظت ويكون قصبه علفاً للدواب .

السنين والاعوام

هـ — أراد (بالسنين) السنين الشمسية ، لأن الموضوع موضوع زراعة ، وهي مركبة على السنة الشمسية ، فالمصريون هم أول من عرف بالسنين الشمسية ، لأنهم أول أمة اهتدت إلى معرفة الزراعة ، فلما مارسوها احتاجوا إلى سنة فلكية : لا تتغير فيها أوقات الفصول ، فعرفوا السنة الشمسية ، وقد كانت الزراعة ولا تزال هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم ، وكان أهم ما زرعوه الشعير ثم القمح ثم الكتان والذرة ، وبعد ذلك صاروا يعتنون بزراعة القطن .

ثم إن لفظ (السنين) يستعمل لسني الجذب والقسط ، ولفظ الأعوام يستعمل في أعوام الخصب والخير ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (٢٩: ١٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَقَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٧: ١٢٩) ، ومنه الحديث في صحيح مسلم : ﴿ إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخَصْبِ ، فَاعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَاسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ ﴾ ، وإنما لم يعبر يوسف بكلمة « أعوام » . ههنا ، بل عبر بكلمة « سنين » ، مع أن هذه السنين هي سنو خصب وخير ، لأن هذه القاعدة إنما يجري عليها في غير مقام العدد والاحصاء ، أو لأن اللغة العبرانية ، لا تعنى بهذا الفرق الدقيق الذي هو من مزايا اللغة العربية ، أو يقال : إن هذه القاعدة غالبية لا مطردة .

اقسام الامور الصالحة

٦- قد علم من تعبير يوسف حلمي « الملك » وحلمي « الشرايبي » و« الخباز » إن الاحلام الصحيحة على ثلاثة اقسام : منها ما يترتب عنها ، نظير حلم رئيس اسفاة السابق ، ومنها ما يسوء صاحبه قطعاً ، وليس له رد ولا فيه حيلة ، ومثاله ما رآه رئيس الخبازين ، ومنها ما لا يدعو الى السرور ، وربما خيف منه إذا لم تستعمل فيه الحكمة ، وبفعل فيه ما يلفظه ، مثل حلمي « الملك » ، المذكورين ، فهو كما قلنا لا يدعو الى الفرح والاطمئنان ، ولا يرتاح له القلب ، لكن إذا وفق فيه الانسان لاستعمال الحكمة وسلوك سبيل الاقتصاد وتدبير هذا الحادث الهام ، تطفن هذه النازلة ، فما رآه « الملك » هو من قيسيل القضاء السهاوي الذي يمكن تخفيفه بالالطاف الالهية ، على يد عبيده الحكماء ، أهل البصيرة والبصيرة ، على حسب ما أشار اليه يوسف عليه السلام .

معنى الدأب

٧- أصل الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه واجتهد ، وعليه فمناه تجدون في هذا الأمر ، وتصرفون فيه عنايتكم ، وتفرون فيه مجهودكم ، وقد يوضع موضع ما عليه الانسان من شأنه وحاله ، فيكون بمعنى العادة واللبدين ، وحيث تقييد المادة الدوام والاستمرار ، أي ترعون سبع ستين ، على حسب عادتك وشأنكم ومما سبق عملكم ، قال تعالى : ﴿ كذأب آل فرعون ﴾ (٣: ١٣) وقال : ﴿ مثل دأب قوم نوح ﴾ (٤٠: ٣١) أي مثل عادتهم الجارية المستمرة الدائمة ، ويجوز أن يكون لفظ « دأباً » هنا ، ظرفاً زمانياً ، بمعنى دائماً لأن « الدائب » هو الدائم والمعنى : دائماً في كل مدة السبع سنين ، كما قال : ﴿ وسخر »

لكم الشمس والقمر دابَّين ﴿ (٣٣:١٤) أي يدأبان في سيرهما ، ويجدان على مدى الأيام .

والحاصل إن لكلمة « دابَّاً » ثلاثة معان في اللغة : المعنى الأول ، الجد والتعب ، والمعنى الثاني « السَّوق الشديد » ، والمعنى الثالث ، الشأن والعادة ، وهذا المعنى الثالث هنا ، يرجع للمعنيين الأولين ، لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة ، هو الجد والتعب فيها والسوق الشديد .

فالمصريون أول من عُني بالزراعة ، كما ذكره المؤرخون ؛ وبالنسبة ، فكل واحد من المعاني الثلاثة للكلمة « دابَّاً » يرمي الى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع ، وهذا أمر لازم وضروري جداً لأن الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي .

(إذا ذكر المحققون خيلاً بالفاضل الانطاكي)

تممة تعبير يوسف لرؤيا الملك

آ (٤٨) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ، يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ، إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾

استمر انعقاد الجلسة وتليت الآية الثامنة والاربعون فقام مولانا ناصر

الدين التونسي وقال :

أضاف يوسف الى قوله السابق قوله : (ثم يأتي من بعد ذلك) سنون (سبع شداد) جمع شديدة (يأكلن) أي يأكل أهلن من الاستناد المجازي أي جعل أكل أهلن مستنداً اليهن - ، (ما) كنتم (قدمت) وادخرتم (لهن) وهو الذي

تركتموه في سنبله سا بقاً (إلا قليلاً مما تحصنون) تحرقوت وتخبثون لأجل
بذر الأراضي في العام الخامس عشر .

ففي هذه الآية تابع يوسف عليه السلام نعيم رؤيا الملك بقوله تأتي ببد
سني الخصب السبع السابقة سنون سبع شداد ما بين حمر ، وبين يبيض ، فيجذب
فيها الأرض ، ويقبل ماؤها ، وتغار عيونها ، ويذوي قبتها ، ويسرس شجرها ، فلا
وابل ولا طل ، ولا رش ولا رذاذ ، سنون سبع شداد تأتي باللازمة ويعم الناس
فيها العدم ، سبع شداد حافة ، حارقة ، تأتي على الزرع والضرع ، ويخمس فيها
القطر ، ويحرق النيل ، ويسوء أثرها في الإنسان والحيوان ، أرض جوزة
وغمام جهام ، سبع سنون شداد ، يحرق فيها الشجر وتهلك الأصواف ، وتقطع السبل
ولا يرى في السماء قزعة ، سبع شداد ، يأتي على الأخضر والبأس ، ويهلك
الحرث والنسل ، ويضعف من الاتساق والحيوان ، حتى كانه يجبل للإنسان أن
مواد الأرض المتبخرة ، اصطعم بعضها ببعض ، فتداعى وقتح فيها فوهات ، فخرج
لهبها ونارها ، من ههنا وههنا ، فحرق كل ما سبلا فيه من نبات وشجر وحيوان .
سبع شداد هي البقرات السبع العجاف والسحاب السبع الباسات ، كما أن السنين
السابقة ، هي البقرات السبع السمان ، والسحاب السبع الخضران ، سبع شداد
﴿ يا كلن ما قدمتم لمن ﴾ وينهب ادراج الرياح كانه ما كان الا قليلاً مما تحضمون .
في الحصن الحصين الذي لا يوصل الى جوفه تمرزون فيه أو تخبثون أو تحرقون
أو تدخرون لبذر الزراعة وللأعالة أيام الشتاء .

وبذلك تكونون قد تخلصتم من كابوس الجوع وبراثن اللحم ، فإن علمتم به
أوضحت لكم ، كفتيم شر هذه السنين الاوادم ، ولا يكون هداً لا بواسطة
مرشد يهديكم مواء السبيل ، وعيقرى يصلح من شؤون حاصلات الأرض .

تكلم يوسف عليه السلام بهذا الكلام والسكوت سائداً في تلك الجلسة لا يبدأ

احدهم بكلام ، ولا ينطق بينت شفة ، ولكنهم كانوا يتناولون باعناقهم لاستماع فتوى يوسف وعبارته رؤيا جلالة الملك ، وارشاده لهم ماذا يعملون ؟. ولقد اعتقدوا ان فتواه هذه ليست مستندة لمراجعة أسفار تعبير الاحلام ، ولا لتعليم أحد من الناس ، ولكنها صوت من أصوات السماء ، فتقبلوه بكل اخلاص ، وعندما أرادوا الذهاب قال له مندوب الملك بورك في بطن حواك ، ووثدي سقاك ، وحجر طواك ، لقد أحسنت سابقاً ولاحقاً ، فلك الشكر مرتين ، كما تفضلت اثنتين.

وحاصل القول ان يوسف عليه السلام علمهم أن يقتصدوا من السنين الاولى ويدخروا الحبوب للسنين الجديدة عملاً بقول الناس : « إخبأ درهمك الابيض ليومك الاسود » ، فيكون يوسف لفت فكرهم للاقتصاد ، وهكذا فنحن نرى ان « للاقتصاد » اليوم شأناً من شؤون بني اسرائيل (أو اليهود) حتى في حال اليسر فضلاً عن العسر.

وبعد فهل كان تدبير يوسف عليه السلام رافعاً للشدة من أصلها ، بحيث لم يلحقهم في هذه السنين جوع أبداً ، أو ياترى انما كان تديره عليه السلام مصلحاً ونخفياً فقط من شدة وطأة الجوع؟

لا بل كان الشق الثاني ، بدليل حديث البخاري : ﴿ اللهم اشدد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف ﴾ ،

يوسف يبشر بانتهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب

آ (٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ، فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ،
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

تابع الرئيس انعقاد الجلسة ثم تليت الآية التاسعة والاربعون فنهض
الشيخ الأرنؤجاني (١) وقال :

قضى يوسف كلامه بقوله : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾ خصيب مريع
﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ الفلاحون — من الغوت أو من الغيث ، والغيث المطر ،
وغاث الغيث الأرض أصابها ، وغاث الله البلاد ، وبابها باع وغيث الأرض
تغاث غيثاً ، فهي أرض مفيضة ومفيوثة — ، ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ العنب والزيتون
والسهم ونحو ذلك . يشرهم يوسف بعد فراغه من تأويل حلمي الملك بأن العام
الثامن يحبي مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي أو من
جهة الفهم والذكاء ، إذ من المعلوم أن السنين المجدية اذا انتهت كان انتهاءها بالخصب
(اشتدي أزمة تنفرحي) ، و (إن مع العسر يسرا) ، ومعلوم أن السماء كانت في
سني الجذب ضنطت بشدة ، على السحاب الذي هو اسفنجة المطر ، لذلك ولكون
شدة الضغط قوله الانفجار ، علم طبعاً أن السنة الخامسة عشرة هي عام خير وخير عام .
(ثم يأتي بعد ذلك عام ..)

— ١ —

ثم قام العلامة الدمشقي وقال : عندي على هذه الآية الكريمة عدة مسائل :

عزواخبار يوسف بحسن عاقبة الأزمة الى رؤيا

المسألة الأولى — لما كانت السنوات المجدية سبعاً ، لكون « العجاف » سبعاً ،

(١) نسبة الى مقاطعة ارنؤجان الواقعة في شمال غرب ايران .

وقطعاً لا تزيد على هذا العدد ، صار من المعلوم بالضرورة أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب ، إذ ما بعد الشدة إلا القرج ، فلذلك فهم يوصف أن العام الخامس عشر هو عام خير وميزر وهصر وعصر . ولكن المفسرين لا يريدون أن يحملوا ذلك من يوصف عليه السلام على مجرد الذكاء ، بل نسبوه الى الوحي السماوي كأنما الانبياء الكرام يحتاجون الى الوحي في أبسط الأشياء التي يفهمها أقل الناس فهماً ، قال الشاعر :

عسى فرج يأتي به الله إنه : له كل يوم في خليقته أمر
عسى ماترى أن لا يدوم وأن ترى له فرجاً مما ألح به الدهر
إذا اشتد عسر فارح يسراً فانه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين

المسألة الثانية — كان المصريون القدماء يعنون بالحدائق والبساتين ، وكانت لها عندهم نظام دقيق ، تكثر به الفواكه وتفر ، وكان العنب والبلح أكرم الثمار التي اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الخالية (عمر الاسكندري) .
وعليه فكانوا يعصرون العنب والبلح ومما يعصر أيضاً الزيتون والسهمس والشمش والرمان والليمون والورد والزهر والخرنوب والقراصيا والتوت والتفاح ، وهكذا الضروع تعصر لتحلب .

بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الروبأ

المسألة الثالثة — وجد يوسف هذه النهضة فأحب أن يفتنمها ، وقدم له هذا السؤال ، فأحب أن يستثمر من جوابه ، فلم يقتصر على تأويل رؤيا الملك ، تأويلاً بسيطاً حسب عادة العابرين للاحلام ، بل علمهم ، بما سبق من الآيتين ، ماذا يصنعون ، ودبر لهم المخرج مما عساه أن يصيبهم ، وأخيراً ، ههنا ، بشرهم بحسن

الخاتمة ، اذ قال لهم : « ثم بعد انتهاء هذه السنين السبع يأتي عام خير وير فيه بقاء
الناس بالامطار ، كما نجا جادت عليهم مياه المحيط ، وبه يعصرون ما يعصر ولا استخراج
عصيره ؛ وعند ذلك يتبدل درهمكم ديناراً ، وتقلب أتراحكم أتراحاً ، وتستحيل
أصوات الاضطراب الى أصوات سرور و طرب ؛ هذا أكبر علمي الذي وهبته
ربي في هذا الموضوع الذي سألتكم عنه ، وهذا الجواب الذي أستنبطه باجتهادي
حسب الأسس والقواعد التي علمتها ربي ، وهذه وصاتي إليكم ، فليكن أن
تأتمروا بها ، وإلا .. فعلى مصر السلام ، فإن هذا أمر قد قدر وقرع منه ، وصار
عند ربكم حتماً مقضياً . »

لطف الله بالمصريين عهد يربس

المسألة الرابعة — كأتي بالمندوب « قيو » لا سمع جواب يوسف عليه السلام
جزاه خيراً ، وقال له : (سأحمل جوابك هذا الى حمالة الملك ، وسيكون ذلك
السبب الوحيد في خروجك من هذا المعتقل) .

نعم إنه سمع جوابه كأنه وحي صادر من أفواه الملائكة ، وبالحمل علم ذلك
يكون الله قد لطف بالمصريين بلطفه فيما جرت به المقادير ، ولكن عن يد يوسف
عليه السلام .

غفال يوسف تأكير ذكره عند الملك في هذه المرة

المسألة الخامسة — لم يقل يوسف في هذه المرة الثانية « لا شرابي » : (اذكر في
عقد ربك) ، ربما لكونه تصور أن سيكون حظه في هذه المرة بقول « لا شرابي » :
(لعلني أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) ، فإن في هذا القول ما يطمئن يوسف أنه
سوف لا ينساه ، ومع ذلك فهو في هذه المرة اعتمد على أنهم بالطبع سيحرمون علمه

وفضله ، ويضطرون لآخرجه من معتقله بدون رجاء ولا شفاعه ، للاستفادة من إرشاده ومشورته لهم .

تدبير يوسف ازمة المصريين بنفسه

المسألة السادسة — هكذا أرشد يوسف المصريين ، وبين لهم المخرج من المصيبة التي ستحل فوق رؤوسهم ، ودبر لهم طريق النور فيما يعملون ، ونصح لهم بكلامه فيما يجرون ، ثم نصحهم بفعله بأن باشر هو بنفسه تدبير شؤونهم وحمل على عاتقه الاتياب ، لأجل راحتهم وسلامتهم ؛ قال هذا ثم فعل هو حسبما قال :

مقابلة بين « الماهر » الجاهل وبين يوسف العالم

المسألة السابعة — هنا يتجلى الفرق بين من يفهم ومن لا يفهم — بين العالم والجاهل — بين النور والظلمة ، فأولئك « الملاء » بعدم فهمهم نزلوا للحضيض الاسفل ، وترك ذكرهم كأنهم أموات ، وهذا العبد العبراني بفهمه وعلمه ترقى الى أعلا الدرجات ، ولا بدع ، فعبارته رؤيا ملك مصر ، أ كسبته حبه إياه ، وحسن اعتقاده فيه ، وسرعة الاتصال به ، واستخدامه في البلاط كوزير مالية ، وكعزيز مصر ، وكوكيل عن جلالة الملك ، فكان في البلاط ثاني الملك .

أبن فوطيفار في هذه الازمة

المسألة الثامنة — يجدر بنا هنا أن نفتقد « فوطيفار » ونسأل عنه أين هو ؟ فان أزمة الملك وحيرته في رؤياه المنامية لم تحل الا على يد عبده العبراني السجين ، وأما ذاته « الشريفة » ! ! فكأنها في هذه الضيقة لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ ويمينا إنه لو جرد من لقبه وثروته ووظيفته ، لم يبق في اليد منه شيء ، قال المعري :

لو يعرف الانسان مقداره	لم يفخر المولى على عبده
لولا سجاياه وأخلاقه	لكان كالمعدوم في وجوده

الرؤيا على ما عبرت أولاً

المسألة التاسعة — قفل الطبرسي في تفسيره (جمع اليبات) عن البلخي أن هذا التأويل الذي وقع من يوسف بدل على بطلان قول الناس: «إن الرؤيا على ما عبرت أولاً» قال: لأن الملاء كانوا قالوا: «أضغاث أحلام»، فلو كان ما قاله هؤلاء الناس صحيحاً، لكان يوسف لا يتأولها، أقول وهو وهم، لأن قول الملاء: «أضغاث أحلام» ليس من قبيل التأويل، ولكنه من قبيل التعلل من التأويل كما هو ظاهر قائله... .

الفصل السابع

القصر بطلب يوسف (ع)

آ (٥) «... وقال الملك: ائتوني به»، فلما جاءه الرسول... قال: ارجع الى ربك، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟، إن ربّي يكيدهنّ عليمٌ.»

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخمسون فقامت السيدة انصاف الدمشقية وقالت:

القصر بطلب يوسف

كان رئيس السقاة قد رجع أدراجه من عند يوسف، حاملاً عبارة الرؤيا، وهو يطوي الطريق طياً، حتى حضر بين يدي الملك، فاقتص الملك منه القصة، وكان ينتظره وهو على آخر من الجمر، يحكاها له كما سمع، فأعجب الملك بذلك،

وأحب يوسف ، « والأذن تمسق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة :
مرحى ! ، اذهبوا حالاً ، و (اثتوني به) فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي
منه خير مشير ، لاسيما في الشؤون الاقتصادية . فأض رئيس السقاة ليوسف (فلما
جاءه الرسول) مندوب الملك المسمى « نبو » أخبره بما كان من الملك ، وطلب
منه أن يخرج من السجن ، فتأنى يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب :
إني سوف لا أخرج إلا بعد النظر في التحقيق عما نسب إليّ ، لذا أرجوك
(ارجع) ثانية (الى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) يا للعجب ! ! (مابال
النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطمن
أيديهن) يوم مادعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إني ربي) الله سبحانه وتعالى
(بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي
أرجو بفضل البحث والتحقيق أن يرتد في نحورهن .

وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا
يتساق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ، أو يجعلوه سلباً إلى حط منزلته
لديه ، ولئلا يقولوا : مامكت في السجن بضع سنين إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير
حق به أن يسجن ويمذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك
والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسها بقولان فيها : هذا الذي كان راود سيدته ،
فأشفق من أن يرى مشكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب
التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في تبي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في
مواقفها ، ففي الحديث : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم) .

٨٩٨ الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته (٥٠)

(وقال الملك : اثبتوني به . . . الانح)

— ١ —

وقال العلامة قمر الدين من علماء بلدة كراشي في الهند (١) :

الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته

بعدما رجع رئيس السقاة (نبو) من عند يوسف الصديق عليه السلام وقص على ملك مصر تأويل حلمه ، كما كان قص عليه حادث اعتقاله ظلماً ، مع بيان ترجمة حالة ، أكبر (الملك الريان) يوسف وأعجبه منه حسن عبارته الرؤيا ، ولا سيما بعدما عبرها له ، عرفه ماذا يصنع ، كما أنه أكرامه اعتقاله قائلاً : يا لظلم ويا للعار ! رجل كهذا يحبس دون تحقيق أو إقامة دعوى ، بل دون إثبات جريمة ، بل بعد براءته من تهمة الجريمة ، وأخيراً دون أن يكون لي علم بحبسه ، ؟ ! ! يظهر أن في الأمر دسيسة ، انهضوا اذهبوا حالا دون توقف ، واثبتوني به ، فإني أراه حسن الرأي ، يستداليه في الأمور ، وتلقى اليه مقاليد الأحوال ، ويؤخذ رأيه في الحوادث والنوازل ، ولا عرو . قال الملك لا يستطيع ضبطه إلا بالوزراء والأعوان ، قوي الرأي الصائب ، والتدبير البائع ، وإت هذا العبراني خليق أن يكون (المستشار الاقتصادي) في البلاط أو في رجال المية ، ليرجع اليه في الشئون وليدا كمر في المهام .

فعاد رسول الملك إلى يوسف ، ووجهه يتهلل فرحاً وبشراً ، فبادره يوسف قائلاً : أهلاً بالمندوب الكريم ، أراك أسرع الرجعة ، قل ماوراءك يا أخا القبط — قال المندوب : أيدشياً أخا العبرانيين قد آن أوان الفرج ، وآن أو ان خروجك من المعتقل ، فإن ربي عاهد الديار المصرية المليك الريان أنفذني اليك لأجل

آ (٥) الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته ٨٩٩

شخوصك اليه ، وانه يريد أن تكون عنده ، وعند ذلك ثارت في يوسف عزة النفس ، وجرى في عروقه دم الشرف والمحافظة على العرض وحسن السمعة ، وأخذ يراجع المضايقات التي مرت به في بيت (العزيز) ويستعرض تلك التهمة التي أتت عليه ، فكادت تهدم شرفه من الأساس ، واستحضر تلك الدعوى المزورة المشؤومة ، بمقابلة اخلاصه لهم ، وافتكر في اعتقاله ظلماً أمام أمانته ومحافظة على شرف (العزيز) وزوجه ، فرآهم قد قابلوا إحساناً بإساءة ، ومعروفاً بمنكر ، وأمانة بخيانة ، فشعر بديب ميله للانتقام للمرة الأولى في حياته ، وقال في نفسه : (إذا كانت الشريعة المصرية ، والقوانين الوضعية ، قد عجزت عن أن تقتصف للناس من الناس ، فليقتصف الناس لأنفسهم بأنفسهم) ، فاعتقد أنه لا بد أن يقتص بشخصه من شخصي العزيز وامراته ، كما اعتقد أنه لا بد من أن يسمى في براءة ذمته ، فلاجل هذين الغرضين لم يشأ أن يخرج من الحبس ، وتوجه بالخطاب الى المندوب قائلاً له أيها المندوب :

« أقول لك بكامل الحرية ، قد آن لي أن أعيش أو أموت ، فللملك أن يلبس التاج ، ويحمل الصولجان ، له أن يجلس على عرش الملك ويسيطر على جميع البلاد والرعيا ، له أن يوجه الرتب والأوسمة والانعامات لمن يشاء ، له أن يستز الأموال ويحكم على الاجسام ، له أن يعزل ويولي ، له أن يقرب ويبعد ، له أن يعتقل المجرمين ، ويجزر الخائنين ، له كل ذلك ، ولكن ليس لعدالته وانصافه أن يكرهني على خروجي من السجن ، وعلى جهتي غيرة الاجرام ، بل أرغب اليه وأستطيع فضله ، أن يصبر علي قليلاً ، حتى تجرى التحقيقات اللازمة عما نسب اليّ ، فان تبين أنني مجرم ، مكثت في معتقلي هذا البقية الباقية من عمري ، والا .. خرجت برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة

٩٠٠ الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته آ (٥٠)

من غبار العار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب الر كس ، بحيث لا آهاب ، ولا أغضي لشيء ، ولا أخجل من شيء ، فمع احتفاظي بالمطالبة بالتحقيق عن الاسباب التي دعت لاعتقالي ، سأمثل أمر الملك ، وأخرج اليه شاكرآ حسن رعايته وعنايته ، غير أنني أرجوك أن ترجع الى ربك ، جلالة الملك الريان ، وقص عليه ماسمعت ومارأيت من حالي ومن أمري ، واسأله ما بال الظعائن ورسل الشيطان ، نساء بمض امراء البلاط ، اللاتي كن منذ بضع سنين جرّحن أيديهن ، يوم ضيافتهن في قصر « العزيز » فأنا أريد أن أنقل الدعوى من محكمة « العزيز » الى محكمة « الملك » إذ أن ربي الذي كان قال سابقآ : (إنه من كيدكن) هو اليوم أيضاً بكيدهن ، المعروفات به « عليم » بل هو أعلم أهل الارض بذلك ، فهو كان عرف كيد امرأته يوم حادثة « قد القيص » وهو إذا أنصف ورجع الى مايلمه حجة لي على سلامة شرقي ومكر سواي ، وإني أطالب بإلحاح الإمعان في البحث عن أسباب ذلك .

وأقول هنا نعم ما فعل يوسف عليه السلام ، وقد أصاب فيما آتى ، لأنه يريد أن يخرج من السجن موسوماً بالبراءة ، لابساً تاج الأمانة ، وهذا هو اللائق بالحازم العاقل ، إذ لو خرج في الحال ، ربما بقي في قلب الملك من تلك التهمة أثر .

هذا وأما ما ذكره المفسرون من « حديث » يشم منه الانتقاد على عمل يوسف ، وعدم تمييزه ، فعلى فرض صحته فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة يوسف عليه السلام ، حتى من الغلط في عدم مبادرته للخروج عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن ، وعلى كل حال فلنا بل علينا أن نقوض الأمر في الحديث الذي يحتوي طعن ني في نبي الله تعالى .

« وقال الملك ، اتتوني به ... الخ »

— ٢ —

وقال السيد المراكشي ليسمح لي السادة المستمعون بالقاء التعليقات التالية على هذه الآية الكريمة :

البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً

اولاً — جعل يوسف « براءته » في المقام الأول « وخروجه » من السجن في المقام الثاني ، فلم يكن طلب الملك له والافراج عنه ليهمة بمقدار ما يهمة براءة ساحته مما الصق به من العار .

تأدب يوسف بهرم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته

ثانياً — لم يقل يوسف « مابال امرأة العزيز » بل قال : « مابال النسوة » تأدباً معها وحفظاً لما رأى منها من معروف واکرام مثوى ، عندما كانت في بيتها وتحت يدها لأنه كريم ابن كريم ابن كريم ، لم يسه عليه السلام إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمرکزها ، قال الشاعر :

أفضل من عقله ومن أدبه	ما وهب الله لامرئ هبة
ففقده للحياة أحسن به	هما كمال الفتى فإن فقدا

سؤال يحفى البراءة

ثالثاً — وقال يوسف المندوب سل الملك : « مابال النسوة » أي ما حالهن ، ولم يقل : « سله ان يفتش عن شأنهن » لأن السؤال مما يبيح الانسان ، ويحركه للبحث عما مثل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة

القصة ، وأراد قصّ الحديث ، حتى يتبين له براعته يا فاعكشوقاً يتميز فيه الحق من الباطل .

هوية الرسول الذي ذهب الى يوسف

رابعاً — عندنا أن هذا الرسول ، هو رئيس السقاة الذي كان قال « فأرسلون » فهذه أول قرينة ، وقرينة أخرى ، وهي قوله : « الصديق » فهو يدل على أنه كان اختبره سابقاً وعرف صدقه في تأويل الأحلام ، « الرسول » بمعنى المرسل أو البريد أو السفير أو المختص أو المتدرب أو المبعوث .

تسمية اهلك رباً

خامساً — جرى اصطلاح الشعوب والممالك القديمة ، مثل مملكة مصر و هوذا واسرائيل وأشور والكلدان حتى العرب في الحريرة — على أن يسموا الملك رباً ، وكل من سواه عبداً ، وقد سبق تفصيل ذلك .

العلماء أعتياء عن الملوك والملك بالملك

سادساً — باحتياج ملك مصر ، وهو على أريكة ملكه ، الى يوسف وهو في معتقله ظهر جلياً أن العلماء أعتياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأعتياء عنهم بل حكمهم . قال الشاعر :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكار نحكم العلماء

حبر اصاب سيدي

سابعاً — رأى يوسف أن « زليخا » غدرته باتهامه إياه ، وأن « قوطيفار » ظلمه بسجنه طيلة بضع سنين ، رأى ذلك ورأى أنه لا يفلح الحديث إلا الحديث ، فلماذا يسكت عن غدره وظلمه ؟ ...

فلا بد من أن يسأل عن سبب سجنه ، ويفتح باب البحث عن تلك الحوادث الأولى على مصراعيه ، ليحيط « البلاط » بها علماً ، ويكون بذلك رمى حجراً قاصب صيدين ، الأول وصوله لظهور براءته مما الصق به ، والثاني اظهار ان « عزيز مصر » و « امرأته » كانا قد غدراه وظلماه ، فاهتبل فرصة توجه « الريان » نحوه وحبه إياه فطلب ما طلب وهذا ما أعتزنا عليه الفتح العليم ، وللمفسرين ههنا كلام أستطيع أن أقول عنه إنه موجب للأسف .

الاجتهاد في نفي التهم واجب

ثامناً — الذي سهل على يوسف عدم المبادرة الى امثال أمر الملك بالخروج اليه ، والذهاب عنده انه تصور في كرم أخلاق الملك أن سيعذره ويغفر له ذلك أمام حرصه على براءة عرضه ، وفي سبيل اجتهاده على حسن سمعته .

وقد ذكرنا أن الاجتهاد في نفي التهم واجب ، فقد أخرج مسلم من رواية أنس : (ان رسول الله ﷺ كان مع إحدى نساؤه فمر به رجل ، فدعاه وقال : هذه زوجتي .) — (فقال يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك) — فقال رسول الله : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) وكأنه لهذا كان الزمخشري رحمه الله — وكان ساقط الرجل — قد أثبت عند القضاة أن رجله لم تقطع في جناية ولا في فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار ، وكان رحمه الله يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفاً من تهمة سوء .

و بموقراطية حكم الملك الريان

تاسعاً — إنه لأمر معلوم أن الملك (الريان) أرسل مندوبه ليوسف ليأتيه به ، ولكن يوسف أبى الخروج إلا بعد إجراء التحقيقات عن سبب سجنه .

فنأخذ من هذا انه قد كان مطلق فرد من أفراد الناس بمصر، حتى البعيد الدخلاء—
كانوا يعيشون بمصر عيشة حرية شخصية تامة بأجلى معانيها وأبعد مراميها، حتى
مع نفس الملك القابض على مملكة مصر، سيدة ممالك العالم إذ ذاك، وإن هذا
الملك كان ديموقراطياً بحتاً، يأمر بشيء في حق عبد خيل، قيأى عليه ذلك
العبد امتثال أمره إلا بعد إجراء التحقيق، مع انه يحكته الجمع بين امتثال إرادة
الملك وبين إجراء التحقيق، فإن يبادر يوسف للخروج ثم يطلب من الملك ذلك،
ولو فعل اليوم نظير هذا الأمر مع «مدير شرطة» لأخذته العزة بالآثم، وقامت
قيامته كبريائه، وعدل عن إخراجه من السجن ولا قلب له عدواً للوداء فلو
قارنت هذا الملك (الريان) بأمر مقاطعة صغيرة، أو أهبط قليلاً فقل بوزير من
وزرائه، أو أهبط قليلاً فقل بوكيل الوزير، أو أهبط قليلاً فقل بالحافظ أو
المتصرف أو المدير، أو أهبط ثم أهبط ثم أهبط فقل بمأمور الانضباط... إذا
حاولت أن تقارن بين هؤلاء وبين ملك مصر الريان، وجملت الكبرياء ومحبة
النفوذ وقوة النفس مقياس التمييز بين الفريقيين لوجب أن يحتل هؤلاء عرش مصر
ووجب على «الريان» الوديع المنصف أن يخل كرسي مأمور الانضباط.

سبب نزول الملك الريان على رغبة يوسف بدم خروجه

من السجن قبل إجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه

عاشراً— ترى أن ملك مصر «الريان» منذ حاسم «يوسف» وخبره
وعلمه، بادر تواتراً لاطلاقه من معتقله، واسترسل في ذلك استرسالاً يفوق عوائد
الملوك في تؤدتهم وترويههم، وهو أمر يستوجب دقة النظر، وما هذا الحب
والاخلاص الذي أظهره ملك مصر ليوسف قبل أن يراه؟! فقابل يوسف ذلك
بالرفض، إلا بعد التحقيق عن التهمة التي وصم بها! هذا الرفض من يوسف

بدلاً من الشكر والامتنان ، كان يجب أن يتجهم عنه حقد «الملك» عليه . وكدره منه ، ولكن الأمر أتى على عكس ذلك ، إذ أمر بالمساعدة اللازمة بإجراء التحقيقات نزولاً على رغبة يوسف !!! فما سبب ذلك ياترى ؟

واعتدنا أن الجواب عن ذلك ، هو أن ملك مصر اسيوى أجني عن القبط الأفريقيين ، ويوسف كذلك ، (وكل غريب للغريب نسيب) فلذلك استرسل في إطلاق يوسف من معتقله استرسالاً ، وتساهل معه إذ رفض امتثال أمره بالاتيان اليه إلا بعد التحقيق وآثر التمشي مع العاطفة الوطنية على التمشي مع نزعة الصلف والكبرياء ، على أننا نظن قوياً أن هذا الملك (الريان) هو من العقلاء الرصحاء الذين ليسوا من ذوي المجرفة فلذلك نزل على إرادة يوسف عليه السلام .

دواعي عدم خروج يوسف من السجن

حادي عشر — إن لعدم خروج يوسف من السجن دواعي عديدة منها (١) أنه لم يرض المثول بين يدي الملك وأمره بين بين ، وحاله غامض ، وعاقبته مجهولة ، ومجال الغضب منه واسع ولذا أبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن يتكشف أمره ، وتزول التهمة عنه بالكلية — (٢) أنه بهذا العمل لا يقدر أحد بعد خروجه من السجن أن يلمطخه بتلك الرذيلة ، وأن يتوصل بها الى الطعن فيه ، (٣) ان الانسان الذي بقي في سجنه بضع سنين ، إذا طلبه الملك وأمر بخروجه ، فالظاهر أن لا بد أن يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج ، عرف منه أنه في نهاية التعقل ، وأعلى درجات الصبر والثبات ، وذلك يصير سبباً لأن يُعتَقَد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يُحَكَم بأن كل ما كان يقال فيه كذب وبهتان . (٤) ان التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من أولئك النسوة يدل أيضاً على شدة طهارته ، ووثوقه بكسب الدعوى ، وبعبارة أصح : وثوقه بالبراءة ، اذ لو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان يخاف من ذكر ماسبق ، ولا يريد أن يخاطر بذلك على بال (٥) كان يوسف يخشى

أن يخرج وينال من الملك حظوة وتقريباً ، ويسكت عن أمر تلويثه ، فيراه الناس بتلك العين ، يقولون « هذا الذي كان راود امرأة العزيز عن نفسها ، انظروا له كيف صار من أهل البلاط » انظروا له كيف صار مقرباً من حضرة الملك .

كيف لم يخش يوسف من النسوة أن يكتمن حقيقة امره

ثاني عشر — لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال (مابال النسوة .. الخ) ، بما لا يجب كما رمته إحداهن من قبل ، لأنه (١) رأى الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع ، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل و (٢) هو قد ظن فيهن خيراً ، واعتمد على شرفهن فأثلا في نفسه : إن لهن ضميراً سوف لا يتصالحن عن ندائهن و (٣) لأنه كان يعتمد على « الشاهد » من أهل امرأة العزيز و (٤) كان يستأقن بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بأذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، وأشد اعتماده على امرأة رئيس السقاة ، التي كانت مدعوة فيهن ، ولا بد أن تكون أفشت لزوجها اعتراف امرأة العزيز و (٥) كان يعتمد أيضاً على شرف (عزيز مصر) الذي كان قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وحصر التهمة في زوجه ، ولذا قال عنه ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ ، وإنما كان حبسه يوسف حبساً إدارياً لأجل إبعاده عن زوجته ، و (٦) اعتمد على توجه نظر ملك مصر عليه ، وتمكنه من محبته ، وثقته بعلمه ودرايته ، ويوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس ، وأعظمته الرعية ، وأكبره الموظفون الذين هم تحت إدارة ذلك السلطان القاهر ، فصار بذلك أميناً من مكر هؤلاء السيدات ، نساء المستخدمين بمعية الملك .

كيف ينسب يوسف الكبير للنسوة ثم يطلب مؤانتهن من قصة المرأودة

ولم يقع منهن شيء من ذلك

ثالث عشر — إن قال قائل : إن هؤلاء النسوة لم يكن من الكيد في غير

آ (٥٠) كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤالهن عن قصة المراودة ٩٠٧

ولا فقير ، ولم يكن من المراودة في ورد ولا صدر ، فكيف ينسب لهن يوسف الكيد ، ويطلب سؤالهن ؟.. وكيف يسألهن مندوب الملك عن مراودتهن ليوسف ؟ ولم يقع منهن شيء من ذلك ؟..

والجواب عن ذلك يعلم بمراجعة ما قيل في الآية ٢٨ والآية ٣٣ فراجعوه إن شئتم.

لم يقصر يوسف الفسح بامرأة العزيز في طلب التحقيق بل ظهور براءته

رابع عشر — لا ريب أن يوسف عليه السلام لا يريد لأحد الرجال ، ولا لأحدى النساء ، أن يفتضح وتشيع فعلته ، ولكن لامندوحة له عن السعي في ظهور براءته مما اتهم به ، وحبس من جرائه ! حتى لا يخرج من السجن ، وهو مخفوض الرأس بين الناس ، فلذلك شرع في طلب التحقيق عن هذه الحادثة ، تدرعاً للحصول على ملاك شرفه ، وقوام حسن سمعته ، وهو ظهور طهارته من كل دنس الصق به زوراً . فلذلك رأى أن خروجه من السجن سابق لأوانه ، إنما أوانه بعد ظهور براءته ، وبهذا يسقط ما عساه أن يقال : كيف سعى يوسف في اشاعة الفاحشة ، وأحب تشهير تلك المرأة ؟

فضل يوسف ذلك على خروجه وشيكاً ، ضناً بشرفه ، وحسن سمعته ، لأنه تصور في نفسه وصمته بإرادة السوء والفحشاء مع أهل « العزيز » وحبسه من جرائ ذلك ، لا يزالان عقبة كؤوداً في طريق خلاصه وحسن سمعته ، وإنهما من أعظم الموانع لو صوله لما تطمح إليه همته .

تنازع يوسف عند طلب الملك له عاملان : عامل النزول على إرادة عاهل مصر ، ومحبة النفس لمبارحة الحبس ، وعامل الشهامة والعزة ومحبة ظهور البراءة من كل لوث ، ففضل المشي مع العامل الثاني ، فقال لارسول (ارجع .. الخ)

سعة صدر الملك الريان

خامس عشر — لم يغضب الملك على يوسف ، لأنه رفض نعمته عليه ، ولم

يطع إرادته السئية التي صدرت من لذه ، لإتحاف يوسف بخروجه من حقله حالاً بل تناسى ذلك لطفاً منه وكرماً ، وليس ذلك فقط ، بل زاد عليه — كما سيلى — أنه نزل على إرادته في اجراء التحقيق عما كان وصم به ، واعتقل من جرائمه ، ولعمري إن هذا من الملك لتضحية كبرى لأقفه وكبريائه يستحق ذلك الملك العمليقي . من أجلها أعظم الثناء .

قذف البريء يعود عليه بالخير عند ما تظهر برأيه

سادس عشر — نسمع الملك يقول هنا (ائتوني به) ، ومنسبته يقول بعد ذلك (ائتوني به أستخلصه لنصي) ، فالطلب الثاني أدنى من الطلب الأول ، وسببه أن الطلب الأول كان مبنياً على علمه بلم يوسف وبهمه فقط ، وأما الطلب الثاني فكان مبنياً على ذلك وعلى يقن الملك بسلامة يوسف من الجريمة ، وبعبارة أخرى كان ظهر للملك أولاً تخلية يوسف فحب ، ولكن بعده ظهر له أيضاً تخليته ، ولا ريب أن التخلية مع التخلية ، أهم من التخلية وحدها ، وهكذا حرت الستة ات في قذف البريء خيراً يعود عليه عندما تظهر برأيه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٢٤ : ١١) .

على الباغي تدور الدوائر

سابع عشر — لا ريب أن « العز » وذويه كانوا أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة « المرأة » بتوجيه التهمة اليه ، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة ، لأن سجنه سبب تعرفه الى « الساقى » فالتقدم اليه بأن يذكروه عند الملك ، ولما رأى الملك رؤياه ، ذكر الساقى يوسف فحمل اليه تلك الرؤيا فأولها يوسف ، فتتج عن ذلك طلب الملك إياه فلم يرد أن يخرج ، لا بعد التحقيق ، فكانت

النتيجة حصر التهمة في « المرأة » وبراءته مما نفي اليه ، فكان « العزيز » بحبس يوسف كمن رمى الوقود في النار ليخمدتها ، أو كمن حول الضرب الى سقف جاره ، فاذا الضرب في سواء داره ، ولا غرابة في ذلك ، ففي المثل السائر :

« على الباغي تدور الدوائر » .

المراد بالكيد

ثامن عشر — أراد انه كيد عظيم لا يعلمه الا الله لبعد غوره ، كما قيل : « وهن شر غالب لمن غلب » ، أو استشهد بعلم الله على أنهم كدنه وأنه بريء مما قرب به ، أو أراد الوعيد لمن ، أي هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه ، أو أراد بربه « عزيز مصر » — كما ذكره احتمالاً كل من ابن جرير والسيد حسن صديق وغيرهما ، على حسب اصطلاح المصريين والعبرانيين وغيرهما من تسمية الملك رباً بمعنى السيد ، وعندنا أن هذا الاحتمال الثاني أحسن ، فهو يشير بذلك الى سابق قول العزيز : « إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم » ، فكان يوسف يقول : « اسألو اسيدي — عزيز مصر — الذي سبق منه انه حكم على زوجته بالكيد ، ووصفها به ، فإنني أقبله شاهداً عليّ وأرضى به حكماً ، بل واحتج به وبعلمه الحقيقة على كيدهن لي » فعلى هذا الاحتمال الثاني يكون قد استشهد على أنهم كواذب « بعزيز مصر » وما يعلمه فيهن ، وهذا ممكن ، وفيه فائدة عاجلة وتقوم به الحاجة ، وأما على الأول الذي جرى عليه جمهور المفسرين فيكون قد استشهد بالله وعلمه بكيدهن ، وهذا لافائدة فيه ليوسف في الدنيا ، ولا يدفع عنه المؤاخذه عند رجال المحكمة وفي نظر الشعب ، ولا يبرئ ساحته من الجزاء الدنيوي بوجه ، لأنه من يعرف علم الله فيهن ؟

(مرحى مرحى ولا فض فوك)

اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥١) [. . . قالَ مَاخَطَبُكُنَّ ، إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ - قُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ - « فَاثْرَأُ الْعَزِيزُ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَمَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ »] .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والخمسون قسامت الانسة أسماء الغوية وقالت :

كان « بو » مندوب الملك « الريان » رجع اليه من عند « يوسف » عليه السلام وقص عليه القصة ، فقال له الملك : « أما قلت لك أن في الأمر دسيسة ، فالآن اذهب واعمل كما أحب هذا السجين ، والتني بنتيجة » فصدع « بو » بأمر الملك ، وقفل راجعاً ، و (قال) للنسوة : ناشدتكُنَّ الله يا سيدات « منفيس » ، (ماخطبكُن) (١) وما شأنكُن ، (إداراودتن يوسف) العبراني السجين (عن نفسه) فيا دولة الجنس اللطيف ، لله دركن ، هل وجدش منه ميلاً اليكن ، هل رأيتن منه عمزة ، هل سمعتن منه رمزة ، هل ضحك لكن وداعبكن ، حتى أقدمتن على مراودته ، وتجراتن على مطالبته بما لاينبغي لأمثالكن أيتها السيدات ؟

وأما السيدات فأجبن و (قلن حاش لله) — تعجباً من عفقه ومن نزاهته عن الريبة — ووالله (ما علمنا عليه) قط ، (من سوء) ، ووالله لو كان في أنفسنا غير ما نطق به لقلناه ، هذا حوائنا عما يساءل عنه جناب المحقق ، وخلات دم .

(١) الخط : الأمر الذي يعظم شأنه ويحاطب الانسان به صاحبه .

هذا ولما كان العاشق يفادي بنفسه وشرفه عن طيب خاطر مرضاة لمشوقه
(قالت) زليخا (امرأة العزيز) فوطيفار ، معترفة بجلية الواقع ، تذود عن يوسف
وتنتصر له على نفسها : أنا أخبرك بواقعة الحال ، وأطلعك على جليلة الواقع (الآن
حصحص الحق) والحق على مضاضته يقال ، واني لإنشاء الله لا اكذبك شيئاً
(أنا راودته عن نفسه) ، وعلى المكشوف ، أنا براقنس التي جنت على نفسها ، أنا
المدنبة ، وله العُتْبَى (١) ، ووالله اني لم أراود قط أحداً قبله ولا بعده ، ولا يمكنني
التنازل لأحد سواه ، وأنا الآن أستغفره على هذا الذنب ، (وانه بن الصادقين)
في قوله منذ سنتين : « هي راودتني عن نفسي » ، فهو لم يلوث لسانه بالكذب والقرية
قط ، وانه لمن الصادقين في العمل ، حيث أبي علي ، وامتنع من النزول على إرادتي ،
وتمسك بدينه ، وثبت على متانته ومروءته ، وكأنها خافت أن تثبت عليها التهمة
ببعض البراهين إذ رأت أن السماء تنذر بتقلب الجو ، فسبقت الى الاعتراف على حد
قول القائل : « بيدي لا بيد عمرو » أو على حد قول الشاعر : « وليس لخضوب
البنان يمين » ، أو كما يقولون في المرأة :

« إن الأمومة عودتها عادات إنكار النفس والتضحية والرغبة في مصلحة
الآخرين ، أكثر من الرجل » .

(قال ما خطبكن إذ راودتن .. الخ)

— ١ —

وقامت السيدة لُبَيّ البغدادية وقالت : يستفاد من هذه الآية الكريمة
عدة فوائد سأتلوها على مسامعكم :

استطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات

ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

الفائدة الأولى — تعليقاً على قوله : (ماخطبكن) ، نسب « ابن كثير »

ود البغوي « هذا القول الى الملك الريان ، وقالوا لانه هو الذي جمع عنده هؤلاء النسوة واستنطقهن ، وقال ما خطبكن ، وهو يريد امرأة العزيز خاصة .
وقال بعضهم : إن الفائز هو مندوب الملك ، ذهب اليهن وجمعهن في محل واحد بما فيهن امرأة العزيز ، وسألهن هذا السؤال ؛ ويجوز أن يكون قد سأل كلاً منهن على انفراد في بيتها ، ثم للاختصار حكى الله ما حدث جملة واحدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ مَقْعَدَ صُمُوكُمْ أُمَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَأَنَّا نَبُكِّمُ فَاتَّخِذُوا ﴾ (٥٣ و ٥٢ : ٢٣) .
فهذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، كيف والرسول إخباراً لسلواتم فرقة ، في أزمته مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه يؤدي لذلك ، وَوَصَّى بِهِ .

نسبة المراءودة الى جميع النسوة والمراد منه واحدة

الفائدة الثانية — قال : (إذ راودتن) بصيغة الجمع ، والمراد منه واحدة ، وهي امرأة العزيز ، وقريب منه ما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ (١٧٣ : ٣) ، فقد قيل لفظ الناس الأول عبارة عن شخص واحد ، هو «تعيم بن مسعود الأشجعي» ، ولفظ الناس الثاني هو عبارة عن «آبي سفيان» ذلك لأنه من جنس الناس ، كما أن امرأة العزيز هي من جنس المراءودات ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وماله إلا فرس واحدة ، وبرد واحد .

شهادة النسوة لبرسب بالنسوة والطهارة

الفائدة الثالثة — مع تسبب يوسف تجريح أبدي هؤلاء النسوة ، وتأثير جماله الباهر ، ومع أنهم لم يرون منه عطلاً فوهن ، حتى ولا ابتسامة واحدة على الأقل ،

دية لتلك الأيدي المجرحة ، وتعويضاً على تلك العقول المذهولة — مع هذا كله فهو لاء السيدات لم يشهدن في يوسف إلا بما يجب له من العفة والطهارة ، ذلك لأنهن كن من النساء الداجنات والمسامات ليوسف ، ومن صواحب الوجدان والشرف ولعمري لا تريد على شهادتهن وشهادة زليخا له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن بأنه لم يتعلق بشيء يشينه ، مع أنهم خصومه ، وإذا اعترف الخصم بأن خصيمه على الحق وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال ، خلافاً لحشوي المفسرين ، الذين قالوا : (نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بد لنا من أن ندق في فروة من ثبنت نزاهته) !! ..

حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه

الفائدة الرابعة — كآني «بامرأة العزيز» قالت وهي تتلعم في كلامها ، وتضطرب مما لحقها من الخجل والخوف ، وترتجف من حراجة الموقف :

« الآن .. حص .. حص .. الح .. ق .. أنا المشدو .. هة .. راود .. ته ... عن نف .. سه .. واحد .. سرقاه ! وانه .. حر .. سه .. الله ... لمن الصا .. دقين .. في .. سابق .. قوله : هي راودتني عن نفسي ، ذلك ليع .. لم .. أني .. لم أخضه .. بالغيب .. ب كما خذ .. ته بالح .. ضور .. واويلاه ! وان الله .. لا يه .. دي .. كيد .. الخا .. ئنين .. وا .. قدماه ! .. وما ابرىء .. نف .. سي إن النف .. سس .. لأم .. سارة .. بالسوء .. واسوأته ! إلا .. مار .. حم .. ري .. إن ري .. غ .. فو .. ر .. رحيم .. واخج .. اه ! » .

وما أكملت هذا النطق إلا وقد زاد صوتها في التقطع ، وصارت رجلاها تصطكان ، فوقفت عند هذا الحد من البيان والاعتراف .

دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها

الفائدة الخامسة — عندي لدواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ثلاث نظريات :

النظرية الأولى: ان النسوة قد أجبن المستنطق بقولهن (ما علمنا عليه من سوء) وسببه أن امرأة العزيز لما أرسلت إليهن، وهيات لهن متكأ، رأيته في جماله الذاتي والنفسي، حيث لم يتظر إليهن نظرة سوء، كأنه ملك كريم، ثم ان امرأة العزيز اعترفت لهن بأنها كانت راودته، ولكن هو استعصم، فمارأته في تلك الجلسة وما سمعنه فيها كان دليلاً على براءة يوسف عليه السلام، فامرأة العزيز، بما دبرت من دعوة النسوة، وبما قالت أمامهن كانت كاليابحث عن حثفه بظلفه، خصوصاً لما سمعت قولهن: « ما علمنا عليه من سوء » فكانت هذه الجملة في الطعنة النجلاء التي أثبتت « زليخا » وقطعت بها جبهة قول كل خطيب، - فعمد ذلك رأت زليخا من الحكمة والتعقل أن تعترف بالواقع، لأنها اذا بقيت مصممة على انكارها، شهد عليها هؤلاء النسوة بأنها كانت قالت: « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (آية ٣٣) فهي بذلك اعتقدت أنها ألقيت في نهم المدفع أو قد وضعت السلسلة في رقبتها وانتهى الأمر، وانه لا ندحة لها من الاعتراف، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار شرعت تكشف السر، كمن يريد الاقرار أمام المستنطق في محكمة، أو « الاعتراف » أمام قسيس في بيعة .

فاهت بتلك المقالة العصماء التي في آيات (٥١ و ٥٢ و ٥٣) والسكوت سائد في تلك الجلسة، جلسة التحقيق السرية، لا واحدة تتكلم بينت شفة، بل كن جميعاً مصفيات لمقالتها، منصتات لخطابها .

النظرية الثانية: هي انه مهما بلغ الحقد بالقلب الانساني، وغلبت الشهوة شعوره

ووجدانه ، فلا بد أن تهبّ عليه من حين الى حين ، نفحة من نفحات الفطرة
الالهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود الى طهره وصلاحه ، وما انطوى
عليه من صدق وأمانة ، فهي في هذه الجلسة ، نسخت ما كانت قائلة سابقاً ،
والنفس الانسانية كما يقول « روسو » مرآة ، تترآى فيها مختلفات الصور والألوان ،
ومن خبّر عقلية المرأة ، لا يستبعد هذا التطور العجيب :

لنما المرأة مرآة بهما كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان اذا أفسدتها واذا صلحتها فهي ملك

وكأنه قد صار الحال بحيث يخيل اليك أن هناك سيدتين ، واحدة
ابتلعتها نار الذنوب والتهتك ، والأخرى ولدتها التوبة والاخلاص ، تلك
كانت كاذبة فاجرة عيابة ، وهذه صادقة مدافعة متواضعة .

النظرية الثالثة : جلست زليخا في مجلس « الاستنطاق » وجعلت تراجع فهرس
حياتها الماضية مع فتاها العبراني ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بدبيب
الخطأ الذي كان صدر منها ، فحكمت بنفسها على نفسها ، انها مجرمة آثمة ، وانها لم
تستفد من كل ما عملت سوى سوء السمعة ، وانحطاط المنزل ، وانها لم تسيء الى
فتاها بمقدار ما أفسدت لنفسها باحباط شرفها ، وكان حياتها الحاضرة — حياة
الشيخوخة — قد أنست حياتها الماضية — حياة الشباب — فلم يبق في قلبها أثر
للبغض والموجدة ، كما لا أثر فيه للعشق والغرام ، فلذلك قررت أن تعترف بالصحيح
فلفظت كلماتها الأخيرة ؛ هذا ما يظهر من حكاية القرآن المجيد توبة زليخا .

وإنما قلنا ان حياتها الحاضرة حياة شيخوخة ، لأننا نظن انها لما تكلمت
بهذا القول ، كانت في سن الاربعين أو تزيد ، ذلك لأن يوسف عليه السلام حينما
وقف بين يدي الملك الريان بعد خروجه من السجن ، كان ابن ثلاثين سنة ، ويظن
انها كانت أكبر منه بعشر سنين أو أكثر ، وعليه تكون دخلت في غرة سن

الشيخوخة ونسيت الحب وآلامه ، والفراغ وأيامه ، ودخلت في سن الوقاء والكمال ،
 من التوبة والالابة الى الله ، فسليلة هذه الأسباب هي التي خلقت هذه الاعجوبة ،
 وأنت بهذه الخارقة ، حتى نفقت زليخا لمتدوب الملك جملة حالها ، وصارحت
 بكشف المعنى .

معنى حصحص

الفائدة السادسة — حصحص ، ظهر ، برز ، ثبت ، استقر ، كلها ألفاظ
 متقاربة ، وهي من حصحص البير : إذا ألقى ثفاته للناحة ؛ وأصل حصحص
 حص ، كما في كفكف ، أصله كف ، وكبكبوا أصله كبثوا ، وردد أصله
 رد ، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الا في هذه السورة .

الاجماع على سلامة شرف يوسف

الفائدة السابعة — تعلمون أن الذين لهم علاقة بحادثة يوسف ثمانية ، وهم :
 الله سبحانه وتعالى ، وإيليس ، والعزير فوطيقار ، وامراته زليخا ، والشاهد من
 أهلها ، والنسوة المصريات ، ويوسف نفسه ، وثامنهم الخادمة ، وكلهم متفقون على
 سلامة شرف يوسف .

فأما « الله » سبحانه وتعالى فإنه يصف يوسف بأنه لما بلغ أشده آتاه حكم
 نفسه بنفسه ، وما نشأ عنه من العلم اللذي ، ويقول : ان زليخا هي التي راودته
 عن نفسه ، وهي التي غلقت الابواب ، وهي التي قالت : « هيت لك » ويقول : ان
 يوسف أجابها جواباً سلبياً فقال لها : « معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه
 لا يفلح الظالمون » ، ويقول : « ولقد همت به وهم بها » ، أي قتلاً ، وعلى الأقل
 لكماً وضرباً ، لولا أن رأي برهان ربه العزيز ، وهو أنه أحسن مثواه ، ويقول :
 « إنه من عبادنا المخلصين » ، وحسبنا هذا وكفى .

وأما «ابليس» ، فإن الله تعالى حكى عنه أنه قال يوم موآمرة «سيلان» :
 «إلا عبادك منهم المخلصين» (١٥ : ٤٠) فأجابه الوكيل المفوض بقوله على حساب
 الله : ﴿ هذا صراطٌ عليّ مستقيمٌ ، إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان ﴾ (١٥ :
 ٤٠ - ٤٢) فحالته مع يوسف كانت سليية تماماً .

وأما «فوطيفار» عزيز مصر ، فقد كان قال لما ظهرت له الأمانة : «إنه من
 كيدكن ، إن كيدكن عظيم» ، وخاطب امرأته بقوله : «استغفري لذنيك إنك
 كنت من الخاطئين» .

وأما «زليخا» امرأة العزيز ، فقد اعترفت أمام النسوة بالحقيقة ، قائلة :
 (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، ثم توعدته إن لم ينزل على إرادتها بقولها :
 ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرین ﴾ ، ثم أقرت في محكمة
 التحقيق بجلية الواقع فقالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن
 الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم آخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما
 أبرئ نفسي ، إن النفس لأماره بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ .
 وأما «الشاهد» من أهلها ، فانه استدل بالامارة قائلاً : ﴿ إن كان قميصه قد
 من قبل ، فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت
 وهو من الصادقين ﴾ ، وأخيراً رؤي قميصه مقدوداً من دبر ، فإذا يوسف في
 نظره من الصادقين في دعواه أن المراودة إنما كانت منها لامنه .

وأما «النسوة» المصريات ، فانهن إنما نسبن المراودة والحب والضلal لامرأة
 العزيز ، إذ قلن : ﴿ امرأة العزيز تراودفتها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنالزراها
 في ضلال مبين ﴾ ، ثم لما رآين يوسف قلن : ﴿ حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا
 إلا ملك كريم ﴾ ، ثم اليوم في جلسة التحقيق قلن : ﴿ حاش لله ! ما علمنا عليه

وأما « يوسف » نفسه ، فانه كان واقفاً مع امرأة العزيز موقفاً سليماً ، إذ قال ﴿ معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالون ﴾ ، حتى انه في الدرجة الثانية تم بها قتلاً أو لكماً وضرباً ، وأخيراً في الدرجة الثالثة هرب من أمامها طالباً الباب ، وقال بحضورها وحضور العزيز : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ ثم قال يوم الضيافة النسائية : ﴿ رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ، ثم لما جاءه رسول الملك ، وطلب اليه الخروج من المعتقل ، آبى ذلك إلا بعد التحقيق والتمحيص قائلاً ﴿ ارجع الى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ .

وأما « الخادومات » في قصر العزيز ، اللاتي لا بد أن يكن قد حضرن ، عندما استبق يوسف وزليخا الياب ، هرباً وطلباً ، ثم سمعن حكم « الشاهد » ثم خطاب « العزيز » لزوجته : ﴿ استنقري لذنبك انك كنت من الخاطئين ﴾ فاتهن حينما نقلن هذه الحادثة لقصور الاميرات المصريات ، لم يتكلمن إلا بأن « المرادة » وقعت من « امرأة العزيز » بدليل كلام السيدات المصريات ، اللاء ما علمن بالحادثة ، إلا من أفواه هؤلاء الخادومات ، ولو كان صدر من يوسف شيء ينافي شرفه ، لنقلنه لهؤلاء النسوة .

هذا خلاصة الكلام ، في تحقيق هذا المقام ، ولعله يكفي لرد ما زعمه (غلطاً) بعض المفسرين ، مصرحين بما تتجاسى عن سماعه آذان المتأدبين ، مع أنبياء الله المخلصين .

تحقيق صرف الكيد عن يوسف

الفائدة الثالثة — نرى « نسوة المدينة » قد قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ﴿ ، ونرى « امرأة العزيز » قالت : ﴿ الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه الخ ﴾ وكل هذا كان مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فصرف عنه كيدهن ، انه هو السميع العليم ﴾ .

الاعتراف بالخطأ فضيلة

الفائدة التاسعة — لقد رأيتُم أيها السادة أن هذه « المرأة » زليخا قد تناست منزلتها ، وتغافلت عن عظمتها ، ونطقت بكلمة الاعتراف ، والاعتراف بالخطأ فضيلة كما تعلمون ، وهو خير من التماهي فيه ، ونظن أن هذه المرأة لو لم تعترف ، ثم أتت بشهود زور ، ممن لهم بها علاقة محسوبة (مثلاً) لطالت ذيول « الحادثة » وتشعبت كثيراً ، لاسيما لو ظهر فيما بعد أنها مبطلة في تقديم أولئك الشهود ، فتكون العاقبة أدهى وأمر ، ولكن الله هداها « للاعتراف » ، فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على ما حكاه القرآن الكريم ، واقتصر في عقاب هذه المرأة إزوجها على مجرد الطرد من الوظيفة الرسمية ، وجعلها نسياً منسياً .

« مرحى ، مرحى »

(قال ما خطبكن اذ راودتن ... الخ)

— ٢ —

ثم قام الامام القلقيلي وقال : نشكر اختنا البغدادية على ما اتحققنا من فوائد قيمة وأرجو أن يسمح لي السادة بسرد الفوائد التالية :

انصاع الرسول ليوسف بمراجعة الملك

الفريدة الأولى — انصاع « نبو » رسول الملك ، لطلب يوسف ورجع بدون اعتراض ولا توقف الى الملك ، فأمره باجراء التحقيقات السرية ، لأنها « دعوى » متعلقة « بالعرض » .

عاطفة المرأة تملك عقل الرجل يملك عاطفته

الفريدة الثانية — قال النسوة : « حاش لله ... الخ » وشهدن في يوسف الطهارة

والعفة ، مع انه في تلك الجلسة القديمة لم يجعأ بهن ، ولم حلفت اليهن ، كما فعل ذلك من أنهن ﴿ لما رأيته أكبر نه ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً ، إن هذا الا ملك كريم ﴾ ، وكذلك كان حال « زليخا » معه ، فقع انه لم ينزل على إرادتها شهدت فيه شهادة طيبة إذ قالت : ﴿ أقارأودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ﴾ . الخ ، فهذا كله نتيجة ان في المرأة عاطفة ليست في الرجال ، قالنساء أشد تأثراً وأرق شعوراً من الرجل ، لأنهن أطوع للفؤآد منهن العقل ، ومن كان يتكلم تحت تأثير الدماغ ، كان أقرب للكذب ممن يتكلم تحت تأثير الفؤآد ، لأن عاطفة المرأة تملك عقلها ، بخلاف الرجل ، فان عقله يملك عاطفته ، فهو الى الكذب واخفاء الحقيقة أقرب ، وأما المرأة ، فهي الى الصدق واظهار الواقع أقرب .

داعي اندفاع زليخا المزعومة بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف

الفريدة الثالثة — إن وجه اندفاع « زليخا » لهذا « الاعتراف » الذي أعلنته بكل وضوح وصراحة ، سبب عن أمور اذا اجتمعت صلحت ان تشكل سبباً قوياً حدا بها أن تعلن اعترافها ، وذلك عداعها سبق ذكره في الفائدة الخامسة من فوائد السيدة لبنى الينغاديه وهي :

(١) — تعلمون ان المندوب « نيو » كان قال : ﴿ أنا أنبئكم نبأ وبله فارسلون ﴾ فلا بد انه إذ ذاك كان يتين « للملك » الريان « ولأهل » البلاط ، ماذا سمع من يوسف من تأويل رؤياه ورؤيا الخباز « ملج » وما دار آي من أعماله وذكائه .

و (٢) — تعلمون أن المندوب « نيو » كان رجع من عند يوسف بعبارة رؤيا الملك ، التي كانت ألقاها على « الملأ » فأظهروا جهلهم بتفسيرها ولكن « يوسف » عبرها تماماً ، وزاد على ذلك انه يتين لهم ماذا يجب أن يعملوه .

و (٣) — لا بد أن يكون الشراي « نيو » أفهم للملك عن يوسف أنه

من « العراق » تولدأ ، ثم من « فلسطين » منشأً ، فهو « آسيوي » صرف ،
يعني من « آسيا » التي منها جلالة الملك ، ومن « العنصر السامي » الذي ينتمي
اليه الملك .

و (ع) - لا بد أن يكون الملك زاد ثقته بيوسف وحسن اعتقاده فيه جداً
حينما أرسل اليه ليخرج من معتقله ويكون عنده فلم يقبل إلا بعد التحقيق عن
سبب اعتقاله .

فلهذه الوجوه ، وماليها ، لا بد أن يكون شاع واشتهر في « البلاط » الملكي
أن « يوسف العبراني » المعتقل ، سيصير مقرباً عند الملك ، وسيكون له شأن ذو
بال ، وبالطبع لا بد أن يكون عزيز مصر « فوطيفار » قد بلغه كل هذه الحوادث
وانه حكى ذلك لزوجته « زليخا » وعليه صار لسان حالها يقول :

سَيَّرَى مَالِكُ رَقِيَّ	مَالِكَا رَقَّ الرِقَابِ
لَمْ يَكُنْ يَا أَحْسَنَ الْعَا	لَمْ هَذَا فِي حَسَابِي

فلذلك كله تغيرت حال امرأة العزيز ، وتبدلت خطتها ، واعتدلت أفكارها
عن ذي قبل ، فاعترفت بجلية الواقع ، لاسيما اذا لاحظنا انها علمت ان هذه المناظرات
والتفحصات ، إنما هي بسببها ، ورأت أن النسوة قد نزهن يوسف ، وان التهمة
انحصرت فيها ، وانها كانت في ذلك التاريخ قد تقدمت نوعاً في السن ، فتقدمت في
العقل والاستقامة ، وانها قد حيل بينها وبين يوسف بضع سنين ، خمدت فيها ثورة
الحب ، وان طبيعة النساء سرعة التحول والتطور ، فمجموع هذه الأشياء يصلح
أن يشكل سبباً كافياً لاندفاع « امرأة العزيز » لهذا « الاعتراف » الصريح ، فعند
ذلك أخذت كلمات الدفاع عن يوسف تتثال من شفيتها ، اثتيال الماء من السماء ،
هذا ما أفهمه في (آ ٥١-٥٣) ، وللمفسرين ههنا كلام رجعي ، لو شئت أن أقول
عنه لقلت إنه لا يستحق أن يلتفت اليه طفل صغير .

عجبا لهذه المرأة ! وقفت هنا يروح جذبة ، موقف الدافع عن شرف يوسف ، وافقت في هذا النطق كل ما تملك من قوة وياخ ، صار هذا بعد تلك الوقفة الطويلة التي حفظها عليها التاريخ ، وقفة الاتهام الحشين ، وهي أمام زوجها بالفتيحة — وبعد تلك الوقفة التي وقعت أمام النسوة ، ترعد وترق « وتعددت لها بالمقاب الأليم ، إن لم ينزل على حكمها ، فهذه « الحسنة » التي صدرت منها الآن ، هي في جانب مضايقاتها ليوسف سابقا ، كالغرة البيضاء في الأديم الأسود ، وهذا « التقريظ » الذي نسمعه منها اليوم ، هو في جانب ما سبق من « الهجاء » كالكرهاء أمام الظلام القائم .

فياله من تطور مدهش ! وفياله من تبحر فريب !

فهي بمقدار ما اجتهدت أولاً أن تلمص به العيب ؛ فالיום اجتهدت أن تبرىء ساحته من العيب ، فسبحان من ألهمها قبورها وحقواها ، وصدق من قال : « إن للباطل صولة » ثم يضمحل ، ولريح الصلالة عصفه ، ثم تحقت « وصدق صاحبنا الأمير شكيب أرسلان إذ قال : « لا تطلب البتات من ثلاثة أشياء : البورصة والتفوق والهواء ، وإن شئت فضم قلوب النساء » .

واليكم سبباً ثانياً قد ألهمته الآن وأما مائل بين أيديكم بين وجهه تنبر فكر « زليخا » :

كانت قد بقيت بقية من مراة الحب في أعماق قلبها حتى بلغت أن حبيب قلبها قد انقلب في السجن من « شاب » إلى « كهيل » ومن « فاتن » إلى « مفتى » يستفتى فيفتى ، ويسأل فيجيب ، بل إلى « واعظ » يجلس على كرسي الوعظ ، يمسلم المسجونين ، عقائد الدين ، كما يلها أنه صار في السجن طويل « الفراع » طويل « اللحية » ، والمصريون في ذلك العصر كانوا يتبرون اللحية علامة « الذل » والدناءة ، فقد شوهده على آثار المصرية ، « الأسرى » والأدنياء مصورين بلحي .

وأما المصريون فكانوا عموماً يرون وجوب حلق لحام ورؤوسهم ، فكانت امرأة العزيز كلما يبلغها عنه شيء من هذا القبيل ، تتضاءل شعلة محبتها له ، شيئاً فشيئاً :
وَمِنْ يَدِهِ يَوْمًا « عارض » وجناته فكبر عليه أربعاً لوفاته
فكان ذلك الزمان آخر عهدها بالحب ، وكان شبج الغرام هامة ' اليوم أو غده ،
فلذلك نسيت أحكام الهيام ، وسبحان من له الدوام .

هذا ما كنا وعدناكم به على لسان السيدة لطيفة المراكشية عند محاضرتها على
(آ ٣٢) (وهذا كلام « المرأة » التي كانت خصيصة يوسف بالأمس ، وانقلبت اليوم
محامية مدافعة عن شرفه ، وانه كان يجب أن يكون لجماعة المفسرين مغزى وعبرة
من قولها : ﴿ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ ، فيتبني لنا نحن أن
لا نتعدى حدودنا ويقل حياءنا ، ونقول فيه كما قال فريق منا ، مما يخالف ما شهدت
به زليخا ، فلا ينبغي أن تكون هي أهدي منا لمعرفة واجبات ذلك
« الصديق الكريم » :

قم فقد قامت الطيور تغني لا يكون الحمام أطرب منا
(مرحى)

تمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف

آ (٥٢) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

استمرت الجلسة في محاضراتها وتليت الآية الاثنتان وخسون فقام العلامة
الغزي وقال :

تقول امرأة العزيز إن (ذلك) القول الذي قلته في تنزيه يوسف ، والاقرار

على نفسي بالارادة من جانبي الذي ضحيت به شرفي وحسن سمعتي في سبيل شرف يوسف وحسن سمعته ، ليس لراعدة أتخوفها منه ، ولا عائدة أرجو أن يقبسنيها ، وليس هو دهاناً ولا ثلقاً ، لا .. لا . . . ولكن (ليعلم) يوسف (أني لم أخنه بالغيب) وإن كنت خنته بحضرته وعند مشاهدته ، ولم أغفل واجبه ، ولم أصنمه بدينئة ولم أعبه بما يشيته ، فلتن كنت منذ بضعة سنين قد أحلت الذنب عليه وهو حاضر ، فلا يسعني الآن أن أحيل الذنب عليه حال غيبته ، احتفاظاً بالأمانة وحقوق الغائبين ، أي ليعلم أي لم أكذب عليه في حال الغيبة ، بل جئت بالصحيح والصدق ، فيما سألت عنه ؛ فعلت ذلك لتطيب نفسه وتقر عينه ، ويعرف أنه يوجد من يحفظ الود ، ويتمسك بالعهد ، ولو على البعد ، ول (أن الله لا يهدي كيد الخائنين) بل يجعله قبض الريح ، فلا ينفذه ولا يسدده ؛ وأنا الحقيرة كنت من هؤلاء الخائنين مع الاسف ، فاني أقدمت على الكيد والمكر لاجرم اني افتضحت ، وانه لما كان بريئاً عن الذنب لاجرم طهره الله تعالى بالثناء عليه .

وبعد ما سبق ذكره فذكر الذبول التالية :

توبة زليخا

أولاً — نرى الآن « امرأة العزب » قد أقلمت عن أفكارها الأولى ، أفكار العار والدنس والكذب ، الى أفكار جديدة ، أفكار الشرف والطهارة والصدق ، وهذا من نعمة الله عليها ، فتاب الله عليها من أفكار الفحشاء ، كما تاب أخيراً على اخوة يوسف من أفكار العدا (آ ٩١ و ٩٧) .

معنى بالغيب ومحله اللغوي

ثانياً — قوله « بالغيب » محله الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى : « وأنا غائبة عنه ، خفية عن عينيه ، لأنني ههنا في قصري وهو في سجنه ، أو وهو غائب

عني ، خفي عن عيني » ، ويجوز أن يكون ظرفاً ، « أي بمكان الغيب وهو الخفاء والاستتار في قصرها » .

الكيد المذموم والكيد المدوح

ثالثاً — خص الخائنين في قوله ﴿ وَأَنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده الخيانة ، فالكيد يكون مذموماً ومدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، فما هو من قبيل المذموم ، ما في هذه الآية ، وكقوله سابقاً « فيكيدوا لك كيداً » (ع ٥) ، وما هو من قبيل المدوح ما في قوله تعالى « كذلك كدنا ليوسف » (ع ٧٦) وقد مر تفصيله في آ ٣٨٩٥ .

نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم الخ الى زليخا وليس الى يوسف »

رابعاً — قوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي .. الْخ .. ﴾ ، قال جمع من المفسرين ، ومنهم مع الأسف العلامة الزنجشيري ، إن هذا القول من كلام يوسف ، وهو في سجنه وإن الضمير في « ليعلم الخ » راجع للعزير ، وقولهم هذا لا يصح ، لأن الضمائر التي قبله ، عائدة الى يوسف ، فلا ضرورة تدعو الى حمل الضمير في « ليعلم » على العزيز ، وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بنسبة القول لزليخا ، فلذلك يجب أن تكون المحكيات كلها من كلام تلك المرأة .

فالحاصل إن امرأة العزيز أتت في استجوابها على ثلاث جمل ، أو ثلاث آيات ، نطقت بها أمام « المستنطق » في قصرها أو في قصر مليك مصر ، في حال وجود يوسف في سجنه ، الذي ربما يكون بعيداً عن قصور الأمراء ، كما يفيد كلمات « فأرسلون » و « لعلي أرجع الى الناس » ، فنسبة بعض القول ليوسف لهُو من أبعد البعيد .

وأما ما نظر به صاحب الكشاف من قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ

فرعون: «إن هذا الساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟» قالوا: أرجه وأخاه، وأرسل في المدائن حاشرين، يأتيوك بكل ساحر عليم» (٧: ١٠٨ - ١١١) فقوله إن هذا الساحر الخ هو مقول قول الملأ، وأما قوله، فماذا تأمرون، فهو كلام فرعون، يخاطبهم ويستشيرهم، كذا قرره صاحب الكشاف، ورد بأنه إنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا ألجأ إليه محوج، ففي الآية المذكورة إذا لم يكن جمل «فماذا تأمرون» من كلام الملأ، فتعين أن يصرف الضير عنه إلى فرعون، وأما في آيتنا التي في سورة يوسف، فلا محوج فيها لمثل ذلك، كذا قرره صاحب الكشاف، ولنا أن نقول: إن جملة «فماذا تأمرون» هي أيضاً من تمة كلام الملأ، أي أن فريقاً من الملأ، قال لفريق آخر منهم: «هذا القوم يستطلع رأيهم، ولما أخذنا هذا الفريق من الملأ، فريقاً آخر منهم، آجاب الفريق المسؤول، موجهين الخطاب لفرعون، وقالوا: أرجه وأخاه، وأرسل الخ، وقال بعض المعاصرين: إن الملأ من قوم فرعون، ما قالوا هذا القول إلا تبعاً لقول فرعون، الذي حكى عنه في سورة الشعراء: ﴿قال للملأ حوله: إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون؟﴾ قالوا: أرجه وأخاه، وابتعث في المدائن حاشرين، يأتيون بكل ساحر عليم» (٢٦: ٣٤ - ٣٧)، أي أنهم ردّدوا كلام فرعون، وصار يلقيه بعضهم إلى بعض، كدأب الناس، في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديد، اظهاراً للموافقة عليه، ونعياً لتبليغه، فهذه ثلاثة وجوه في الآية التي استشهد بها الكشاف، كل وجه منها يطل الاستشهاد بها.

(وما أن نزل الخطيب عن المنبر، حتى وقف السيد رئيس المؤثر، وطلب التكميل إعجاباً بآيته في الخطيب، فكبر المأمرون ثلاثاً)

آ(٥٣) ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران ٩٢٧

ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران

آ (٥٣) ﴿وَمَا أَبرَىٰ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ،
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الجلسة وتليت الآية الثالثة والخمسون فقامت الأنسة خديجة

اللدية وقالت :

استمرت « زليخا » في كلامها قائلة : ومع ذلك يا حضرة « الحق » (وما أبرى نفسي) من الخيانة ، فاني قد خنت يوسف حين قرفته ، وقلت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ واني انحرقت عن طريق الفضيلة ، ففقدت السعادة والاغتباط في معيشتي .

ثم أرادت الاعتذار مما كان منها بقولها : (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي) أي إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف الذي هو تقي الجيب ، صحيح العرض ، (إن ربي غفور رحيم) وعفا الله عما مضى . هذا لفظها الذي دق وشف ، وقد استعجبت في طلب المغفرة والرحمة ، مع أن يوسف لا يزال بمساعيها في سجنه ؛ وما أظلم الجنس اللطيف اذا قلت إنه اذا طلب لم يصبر على التريث في الإجابة ، حتى عند الطلب من السماء ، — وجملة الاستغفار والاسترحام ، جملة خبرية لفظاً ، انشائية معنى — إذ تقول : (إن ربي غفور رحيم) يتعمد الذنوب ، ويصفح عن العيوب ، وإني ممن يرجو مغفرته ورحمته ، فلست فيما حاولت من الخطيئة بأولى النساء ولا واحدهن ، وليست رحمة الله اذا شملتني بأول رحمة شملت الخاطئات .

قال الشاعر :

يأنفس لا تقنطي من زلة عظمت	إن الكبار في الغفران كالهم
لعل رحمة ربي حين يقسمها	تأتي على حسب العصيان في القسم

وبعبارة ثانية يمكن أن نقول :

(وما أبرئ نفسي) ولا أكذب الله، ولا أخلص نفسي من الحياة، عن كل ما فعلت مع يوسف من مراودتي أنا وإياه، ولا من تخليق الأبواب، ولا من قولي « هيت لك »، ولا همي بالايقاع به، ولا من تخافه له حين أراد أن يفر بشرفه، ولا من تلويثي شرفه بنسبته لإرادة السوء، ولا من تشويقي لسيدي أن يسجنه أو يعذبه عقاباً أليماً، وأخيراً : وما أبرئ نفسي من كيدي له مطلقاً، فالآن اعتذر الى الله وإليه ما كان، (إن النفس لأماراة بالسوء)، بحسب صليقتها وغريزتها، وبمقتضى ديدنها وعاداتها، فكل ما عملته ناشئ عن شعور نفسي، لا عن خواطر عقلية، لأنني أعتقد أن كل ما صدر مني، هو ما ينهى عنه العقل، وإن أمرت به النفس فهو خدعة من خدعها، ونزعة طائشة من نزعات الشباب، هذه جليلة الواقع، قد كشفت عنها القناعم، بمراي ومسمع حضرة «المحقق» المحترم، وحضرات أترابي السيدات، وسواء علي أشكرت على هذا الاعتراف، أم اقتصدت، فأنا اليوم لا يهمني سوى براءة هذا البعد الطاهر، بمقتضى ما أوجاه إلي الضمير الحر، ولا خير في حياة يحياها المرء بغير ضمير، ولا خير في ضمير لا يخدم به الإنسان صديقه المظلوم !.. وهكذا تأل « زليخة »، جهداً في نبوثة ساحة يوسف، ونزاهة جنابه، عن كل وصمة تعاب بها الشبهة، وبذلك طارت قضية يوسف قاجحة موفقة، قد استجمعت عناصر القوز والظفر.

(وما أبرئ نفسي، إني للنفس - لئخ)

— ١ —

وقام سيدي جعفر الجيزاوي^(١) يلقي خطاب السيدة زينب الجعبرية^(٢) بالنيابة عنها فقال :

ليس من لزوم الى الاستقاضة في شرح مقررات وتراكيب هذه الآية الكريمة.

(١) نسبة الى الجيزة في مصر . (٢) نسبة الى جعوب من بلاد السودان

فان هذا البحث قد قام به من سبقنا أحسن قيام ، واغا غرضي الآن أن أذكر بعض ملحوظات لها علاقتها بهذه الآية بل والآيتين قبلها واليك البيان :

الملاحظة الأولى — قيل « ما » على العاقل وغيره اذا اريد بها الصفة

الملاحظة الأولى — قيل « ما » في قوله « مارحم » ، ذهاباً الى الصفة ، أي « المرحوم » ، ومتى أريد بها الصفة ، أطلقت على العاقل وغيره ، ومن أمثلته : (لا أعبدُ ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ » (١٠٩ : ٢ و ٣) فلفظ « ما » في هذه الآية ، اريد به الصفة : أي « المعبود » ، أو يقال : إن امرأة العزيز تسكلم في الاناث من العقلاء ، يجري مجرى غير العقلاء ، ويحتمل الوجهين قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (٤ : ٣) وقوله : « أو ما ملكت آيها نكم » (٤ : ٣) ، ألا ترى أنه قد جاءت « من » عند ارادة الذكور من العقلاء ؟ كقوله : « لا عاصمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ » (١١ : ٤٣) ، وقوله : « ولا يزالونَ مُختلفينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » (١١ : ١١٩) وقوله : « يومَ لا يُغني مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم يُنصرونَ ، إلا مَنْ رَحِمَ الله » (٤٤ : ٤١) .

فضائل الرحمة ومزاياها

الملاحظة الثانية — قوله : « إلا مارحم ربك » ، فرحة الله ، تبعد النفس عن أمرها بالسوء ، كما أنها تقرب للانسان العصمة : « لا عاصمَ اليومَ مِن أمرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ » (١١ : ٤٣) ، وتنفى عن الناس الاختلاف : « ولا يزالونَ مُختلفينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » (١١ : ١١٩) ، وتمنع العذاب يوم القيامة عن الانسان : « يومَ لا يُغني مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم يُنصرونَ ، إلا مَنْ رَحِمَ الله » .

(٤٤ : ٤٩) ، « قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْبَاقِي » ، (٦ : ٩٥ و ٩٦) ، « وَمَنْ تَوَلَّى السَّيِّئَاتِ — أَيِ عَفَوَاتِهَا — يَوْمَئِذٍ ، فَقَدْ رَحِمْنَاهُ » ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (٤٠ : ٩) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ الرَّحْمَةِ وَمَزَايِهَا .

رَحْمَةُ اللَّهِ الْخَاصَّةِ وَرَحْمَةُ الْمَاثِرِ

الملاحظة الثالثة — تعليقاً على قوله ﴿إِنْ ربي غفور رحيم﴾ فباعتباره «غفوراً» نرجو أن يكون قد غفر الله لأمراء العزيم ، إذ هي قد اعترفت وندمت ، وغالباً عزمت على عدم العود ، وباعتباره «رحيماً» لم يوح ليوسف بقصاصها وعقابها ، هذا من جهة رحمته الخاصة بها ، وأما من جهة رحمته العامة ، فإنه تعالى أزلها عن سمو درجتها ، ورفع عن رأسها التاج ، بإزالة سيدها «العزيم» عن منصة الحكم ، هذه هي الرحمة الخليفة بتربية أخلاق الأمة ، وهذا هو الجنون الإلهي الذي يخفف من إجرام المجرمين ، وأما الرحمة التي هي مجرد عفوع الظلمة أو القتل أو السرقة مثلاً ، فما هي إلا تكثير للظلم أو سفك الدماء ، أو السرقة ، لأنها تولد الميل لارتكاب أمثال هذه الجرائم .

إننا وإن كنا نشعر بحزت عظيم ، من أجل المجرم ، الذي يماق من جراء جرمه ، إلا أنه يجب علينا أن نناقشه ، لنمنع الآخرين ، ولنمنعه هو أيضاً من العودة ، إنه لمن أفضح الأعمال ، أن ندير له الخد الآخر ، وإن ذلك لم يبع جدياً ، لأنه يشجع الشريرين ، على السير في تيار جرائمهم . (هكذا رأيت في كلام الحضرة اللورد هدي المسلم الانكليزي رحمه الله تعالى) .

أقوال في نور زليفا

الملاحظة الرابعة — (قيل إن «زايخا» اضطرت للاعتراف اضطراباً ،

حيث رأت ان النسوة ، قد شهدت فيه شهادة طيبة ، ورأت أن ملك مصر أحبه ، وأراد أن يقربه من لدنه ، فهي ليست مخلصه في هذه التوبة) وفي هذا القول نظر ، فان العبرة بالظاهر ، وهي ظاهرة قد تابت وحسنت توبتها ، وقد ثبت في الصحيحين عن « أسامة بن زيد » رضي الله عنه أنه قال : (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فصباحنا الحرقات من جبينه ، فأدركت رجلاً فعلوته بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فطعمته فقتلته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ ، — فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ — قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح — قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً من السلاح أم لا ؟ — فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) .

نهاية سيرة العزيز وامرأته

المحوظة الخامسة — آخر كلمة تكلم بها «عزيز مصر» هي قوله: ﴿ واستغفري لذنبيك إنك كنت من الخاطئين ﴾ (ع ٢٩) ، وآخر كلمة تكلمت بها امرأته ، قولها ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ، فكانت أمثلة إرشاد سيدها لها بالتوبة والاستغفار ، لكن بعد حين ، وبعد حوادث وعواصف ، وإلى هنا انتهى تاريخ « العزيز وامرأته » وطويت صحيفة ذكرها ، وتداعى مجدها ، كما تداعى بيت أقسيم من الورق ، أو قصر بني على الرمال ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وبسبب هذه الحوادث ، قد خسر « العزيز وامرأته » خسارة عظيمة ، مادياً وأدبياً ، فأما خسارة العزيز المادية ، فينزوله عن وظيفته ، وأما خسارته الأدبية فيتساهله بالجمع بين امرأته وفتاه ، ثم تساهله في مجازاة امرأته ، بعد ظهور خيانتها ، وأما خسارة « زليخا » المادية فينزول تاج وظيفته سيدها عن رأسها . وأما خسارتها الأدبية فيها حفظ عليها التاريخ ، من سقوطها في هوة محاولة الشهوة البدنية ، وهكذا شأن كل ظالم مستبد ، خارج عن قوانين شريعة الأدب ، فان الله تعالى يمهمل ولا يهمل ، وما ربك بظلام للعبيد .

المرادائم والسبب خالدة

الملحوظة السادسة — كات « امرأة العزيز » ، بما فعلت سابقاً ، كتبت لنفسها بيدها صحيفة سوداء ، في قاريخ حياتها ، ولكها اليوم بما أفرت واعترفت ، وبما ندمت واستغفرت ، قد شغبت من تلك الجريمة شيئاً أو كل شيء ، ثم هي اذا كانت قد تابت الى الله توبة خالصة ، فلاريب أن الله يتوب عليها ، ويفر لها ، فلا يؤاخذها يوم الدين ، ولكن على كل حال فالمرادائم والسبب خالدة ، فليعتبر بذلك المتبرون والمعتبرات ، يأخذوا لأنفسهم كل أنواع الحذر والحيلة .

زليخا نمر بجرمة عزماء وليست بجرمة فساد

الملحوظة السابعة — لم نر في قاريخ الإثبات الشقييات ، أخف شقاء من هذه « المرأة » ، لأنها اعترفت أخيراً أمام مندوب الملك ، وصرحت بجلية الواقع ، وذادت عن غريمها . وانتصرت له على نفسها ، وأعلنت ندمها وتوبتها ، وطحمت في عقران الله ورحمته ، وقليل جداً من الشقييات من يصدر عنهن كل هذا .

تاب لهذه المرأة رشدها ، وحاولت الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ولا ريب أنها اذا كاتت مخلصه — ولا نفاهاً إلا كذلك — إن الله يتوب عليها ، ويفتح أمامها أبواب السماء ، كما هي مفتوحة للقائلين والملاحدين ، متى تابوا ، لاسيما أنها أرادت السوء فقط ، ولم تساعد على الاحوال على حصولها على ما أرادت ، فهي « مجرمة » عزماء ، غير مجرمة فعلاً وبباشرة ، فجرمها أخف من جرم من سقطت بالفعل ، كما أن جرم من تسقط فعلاً وهي مستخرة ، أهون من جرم من تكون في المواخير ، تقف نفسها في سبيل الفحشاء على وجه القحة والمجاهرة .

هذه « المرأة » لاهي شريفة ، بحيث تعد من السيدات الشريفات ، ولا هي متينة القلب غير حساسة ، حتى تعد من النساء الساقطات ، بل هي في منزلة بين

المزلتين ، لأن كل ماصدر منها إنما هو « المراودة » ثم انها أخيراً تابت وثابت ، فوجدت أمامها رباً غفوراً رحيماً .

بهذا الاعتراف المقرون بالتوبة والندم ، نعلم أنه قد وجد في هذه « المرأة » التي تعد نصف ساقطة ، فضيلة من فضائل النفس ومزاياها ، لا توجد إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، فقد ضحت بشرفها في سبيل الدفاع عن يوسف ، ولعمر الحق ان هذا النوع من التضحية ، لهو نادر الوجود في هذا العالم ، المتمدين الحاضر ، الذي يعد نفسه من عالم النور .

مؤثرات الحب في النفس والاضطراب

الملحوظة الثامنة - الحب يخفف الغضب ، ويذل الأسود ، ويستأمد الجبابة ، وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو ، فاذا رأيت انساناً في خلقه جفاء وخشونة ، فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد ، نعم إن حب « امرأة العزيز » ليوسف ، لم يكن خالصاً من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره على القلب نحو ذلك التأثير ، لاسيما وانه لم يفسد بفعل الفاحشة ، فالحب وإن ظهر في الناس ، مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم ، فسيبه واحد ، وهو الجمال الجاذب ، ونتيجة واحدة ، وهي تلطيف الطبع ورقة القلب ، وهذا ما حمل « زليخا » على أن تسمع منها هذا « الاعتراف » الذي هو من قبيل رد القول ، وعلى أن يصدر منها هذا « الندم » الذي هو من قبيل ما يسمى رد الفعل ، فحبذا هذه البقرية التي يسجلها لها « التاريخ » بمداد الاعجاب .

نعم . نعم . قلنا ولا نزال نقول : إن هذا النوع من التعقل والخضوع والإنابة ، والذي صدر من امرأة العزيز ، هو شأن كل من عرف الحب ، وشعر به ، لأن الحب يدمت الأخلاق ، ويلطف الطباع ، وله الأثر البليغ في تهذيب العقول ،

وترويض النفوس ، وهو أبو الشفقة وشقيق الحنان ، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً ، لأن الذي لا يحب ، لا يرحم ولا يشفق ، ولا يكون فيه شيء من عواطف الحبين ، فلذلك استقام طبع « زليخا » وتحولت مجاري أفكارها ، وبدأت تطري يوسف ، وتقرظه بما هو أهله .

زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها

الملحوظة التاسعة — إن « زليخا » ههنا باعترافها سهلت على يوسف الخروج من سجنه شريفاً ، ومهدت له الجراءة أن يطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، ولولا ذلك لقامت دون خروج يوسف من سجنه الحوائل ، ولتعرقلت مساعيه فيما رغب ، إذ كان يمكنها أن ترفض « العلامة » التي أقامها « الشاهد من أهلها » قرينة على انها هي المراودة بأن تقول : « إنما جذبتني من خلفه لأمسكه فأضربه ، لأنه لما راودني غضبت عليه فهرب » كما يمكنها أن ترد تزكية النسوة له بأنهن كنّ لما رأينه عشقنه حتى غبن عن إحساسهن ، وقطعن أيديهن ، فتزكيتن له معلولة ، كما كان يمكنها أن تقول : « لو شهدن — أي النسوة — عليها بأنها أقرت واعترفت بمراودته وأنه استعصم بطنها في شهادتهن لأنهن حسدنها عليه » ، فمع إمكان كل ذلك لها لم تفعل ، بل أحجمت عن كل ما ذكر ، بل أقرت واعترفت ، بأن الجرم إنما كان من جانبها ، وزيادة على ذلك أثبت عليه ثناءً حسناً ، فصدق عليها أنها أحيت يوسف ، مع تمكنها من موته ان لم يكن جسماً نياً فمعنوياً .

صدي جواب النسوة وامرأة العزيز في الاوساط

الملحوظة العاشرة — لاندحة من انه كان لجواب هؤلاء النسوة — لاسيا امرأة العزيز — صدها العظيم في قصور أميرات مصر ، وفي بلاط الملك ، حتى رنت له « صَوَّعَن » رنة استغراب واندعاش ، مع الاعجاب الشديد ، بيوسف وطهارته .

(وما ابرىء نفسي ، إن النفس لأماوة ...) الخ

— ٢ —

وقالت السيدة لطيفة الكشميرية (١) :

عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامرأته

الى هنا انتهت سلسلة ذكريات « امرأة العزيز » و « العزيز » ، وطويت صحيفتهما ، وأتى الدهر على جميع ما كان لهما من ترف ونعيم ، وجاء ونفوذ ، وذكر جميل ، ولم يبق لهما من ذلك كله إلا تلك السيرة التي تتلى في مدارس اليهود والنصارى والمسلمين ، في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ، في حلقات الوعظ ، في المحارب والنوادي والحفلات ، وفي البيوت ، حتى في مراسح التمثيل ودور السينما ، فلتعتبر السيدات والآنسات ، وليحافظن على عفتهم ، التي هي كل ما يملكن من شرف وافتخار ، وليعتبر الامراء والوجهاء وليحتفظوا من الوقوع في مثل هذه الاشراك ، التي تجر عليهم العار والشتار ، فان هذه السيدة ماسجلت في بطون الكتب الدينية إلا للعبرة والذكرى .

إلى هنا ينتهي ذكر زليخا وفوطيفار ، ولم يعد لهما ذكر في كتاب الله تعالى ، وأصبح ذكرها أثراً بعد عين ، أثراً من الآثار الدارسة ، التي يهديها التاريخ الغابر للتاريخ الحاضر ، ولم يبق إلا ذكر يوسف ، فكأن سعادة يوسف وأهله بنيت على اتقاض شقاء فوطيفار وأهله ، وهكذا شأن الدنيا ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

إلى هنا يتم القول في تلك الفتنة التي أضرمت زليخا نارها ، وتم تاريخ عزيز مصر وآذن نجم سعده بالأفول ، ولقد صدق من قال : « ما بينيه الرجل من الآمال

في سنة ، تهدمه المرأة في يوم واحد ، ولو كانت تاريخ النساء مسطراً ، لصح أن يدعى تاريخ العالم بأسره ، لأن النساء أصل كل ثورة في الملك أو في الأسر ، وقد قيل : « المرأة سر عامض » منها يولد الرجل ، ومنها يحيى ، ومنها يموت .
هذا وإن في كتاب الله تعالى ، في سورة النساء ، اللاتي هذه المرأة « رليخا » منهن ، ثمان آيات ، هي خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، كما أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس ، رضي الله عنهما :

الآية الأولى والثانية والثالثة — قوله تعالى : ﴿ يَرْيِدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَيتوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ، يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٢٥ - ٢٧) .

والآية الرابعة — قوله تعالى ﴿ إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَارًا مَاتُمْهُمْ عَنْهُ ، تُكْفَرُ عَنْكُمْ سِئَاتِكُمْ ، وَنُذِرْ خُلُوفَكُمْ مِنْ خَلْفٍ كَرِيمًا ﴾ (٤ = ٣٠) .

والآية الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٤ : ٣٩) .

والآية السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤ : ١٠٩) .

والآية السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤ = ١١٥) .

والآية الثامنة وهي الأخيرة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤ = ١٥١) .

الى هنا يتم خطاب الاعتراف ، الذي صدر من رليخا ، وقد قيل إنه كانت التلك المرأة عذري في مراودتها ليوسف ، وذلك أن زوجها كان خصباً ، ورُدَّ

بأن هذا القول مأخوذ من تعبير سفر التكوين عنه : « بَخَصِيَّ فرعون » ، ولكن هذا الأخذ غلط ، لأن لفظ « بَخَصِيَّ » لا يراد به أصل معناه ، بل يراد به من يكون « ناظرًا في الحرم » ، لأن الذين كانوا يستخدمون في الحرم ، جرت العادة أن يكونوا خصياناً ، ولهذا ترجمت في بعض الترجمات غير العربية « برئيس الحرم » هكذا قاله بعض شراح سفر التكوين ؛ وقيل إن زوجها فوطيفار كان دميماً ، فلما رأت يوسف ، ظهر لها بالمقابلة قبحة أكثر وأكثر .

إن اعتراف زليخا بجلية الواقع ، بعد أن أنكرت قبلاً تمام الإنكار ، وانقلابها الخطير من مهاجمة إلى مدافعة ، ومن ظالمة إلى عادلة ، ومن كاذبة إلى صادقة ، كان كله بحسب النوااميس الطبيعية ، وبحسب الظاهر ، وأما العامل الحقيقي في تغيير فكر زليخا وعدم ثباتها على الكيد ليوسف ، هي ورفيقاتها النسوة المصريات ، هو الله تعالى مقلب القلوب ومصرف الأمور ، تحقيقاً لسابق قوله تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾ (ع ٣٤) .

ختمت امرأة العزيز اعترافها بأن ربها غفور رحيم ، إيداناً بطمعها فيها ، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنْبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٩ : ٦٣) وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٧ : ١٥٥) ، والمغفرة من الغفر وهو الستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه ، لا ينافي بقاء أثر خفي له ، وأما العفو فهو ذهاب الأثر ، فالعفو عن الذنب ، جعله كأن لم يكن بأن لا يبقى له أثر في النفس ، لا ظاهر ولا خفي ، وبناء على هذا ، فالعفو أبلغ من المغفرة ، وإنما عبرت امرأة العزيز بالمغفرة دون العفو مع أنه أبلغ ، لأنها لم تطمع إلا فيه فقط ، وربما يقال : إن الفرق بينهما لغوي ، وأما النتيجة فهي واحدة . (مرحى)

وعند هذا الحد يختم الفصل الأخير من رواية هذه المرأة وزوجها فلا يذكرا أبداً ، وكأنهما ما كانا :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمسكة سامر

الباب الرابع

الفصل الأول

من ظلمة السجن الى نور الحرية وخروج يوسف من السجن برثا

آ (٥٤) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ: «اَتُرِنِي بِهِ اُسْتَخْلِمُهُ لِتَفْسِي» .
فَلَمَّا كَلَّمَهُ ، قَالَ : «إِنَّكَ أَلْيَوْمَ لَتَيْتَامَكِينٌ أَمِينٌ .»﴾

افتتحت الجلسة وقلت الآبة الرابعة والخمسون ، فقام الجان عبد السلام
التتري (١) وقال :

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبقن إلا حالي الباك
ما بين رمشه عينه واقتباهتها
يغير الله من حال الى حال
لندع أيها السادة امرأة العزيز والنسوة المصريات لتغير أجل ، فإن قصصهم
قد انقضى ، ولتعد ليوسف الصديق وخروجه من السجن ، فالآن تنتهي سلسلة
آلامه ، ويتبدى أن يدخل في دور جديد .
لقد تقدم آن «الرسول» أجرى التحقيقات اللازمة وما هي الا جولة في هذا
المعترك السري ، حتى عاد من بعدهما منبأ بطلاً في حقيقته نتيجة التحقيق ، أو أنه
حكى شفاهياً ما رأى وسمع في غرفة «الاستنطاق» من وقت دخوله بها الى وقت
خروجه منها ، ولا نسل عن سرور الملك ، وشدة محبته ليوسف ، غيباً بلغة
نتيجة التحقيق ، (و) لذلك (قال الملك) الريان ، والاهتمام ظاهر في كلامه ،

(١) نسبة الى قوم التتروهم اصول الا تراك القدماء

مزوجاً بالشوق (ائتوني به) سراعاً ، لأنني أتصور أن هذا الشخص هو المرساة
التيينة التي تمنع سفينة مصر من أن يجرفها تيار الجذب والقحط (أستخلصه لنفسه)
وأستخلصه وأصطنعه لشخصي ، وأصطفيه ، وأتخبه لذاتي وأزلقه اليّ ، بحيث
أرجع اليه في تدبير مملكتي ، وأعمل على اشارته في مهمات أموري ، يكون عندي
كاستشار أو ناموس ؛ فذهب الرسول الى يوسف ، وأنبأه بقوله : « لقد جرت
التحقيقات السرية ، حسبما رغبت ، فكانت النتيجة براءة ساحتك من كل وصمة ،
فالسيدات نساء الأمراء قد شهدن فيك بالطهارة ، بل إن نفس « امرأة العزيز »
قامت كمدافع عنك ، واعترفت بأن المراودة كانت منها فقط ، وانك صادق ، وهي
المبطلّة ، ودافعت عنك دفاعاً مجيداً ، ولم تأل جهداً في بيان طهارتك وعفتك ، وعليه
« فالملك الريان » يكرر طلبك ، ويأمر بتشخيصك اليه » فلما سمع ذلك قال : « الحمد
للإبلى ، والشكر للإلهي ، غب الصباح بحمد القوم السرى » ثم خرج من السجن ،
بعد ما ودع رفاقه فيه ، ومع أنهم سرّوا بالأفراج عن صديقهم الصديق ، فقد أحسوا
في أنفسهم بشيء أقلق راحتهم ، لا يدرون ماهو ؟ وقد قالتهم انه سهم مفارقة يوسف
اليهم ، الذي كان في السجن تعزية لهم ، لما هي الا جولة أو جولتان حتى وصل الى
حيث يجلس الملك فدخل عليه ، وقال له : أيت اللعن أيها الملك ، (فلما) وقف
بين يديه ، رآه فلمس قلبه قلبه ، و (كله) يوسف ، فعجب الملك من فصاحته
وقال : حقاً إن في الزوايا خبايا ، حقاً إن الرجال تحت طي لسانهم ، لا تحت طيلسانهم ،
حقاً إن الحديث أدل على الرجل من لباسه ، حقاً إن يوسف هذا هو ملء الاذن ،
كما هو ملء العين ، وعند ذلك قال له الملك بلسان الوعد والتطمين : لله أبوك ! ،
(إنك) عندنا يا أخا العبرانيين (مكين) ذو مكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل
شيء ، أو آمن من كل ما ترهب ما بقيت وبقيت ، فأنت المضطرب الخائف سابقاً ،
والثابت الآمن لاحقاً ، أفت اللذيل المتهم براء ، وذو المكافاة والمأمون أخيراً ، أنت

٥٤٠ طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المتدوب من التحقيق آ (٥٤)

العظم واللحم ، ونحن الجنة والرداء » ويحصل ان مناه مكين في ملكي ، أمين على تدبيره .

« وقال الملك اثوني به . » الخ

— ١ —

وقال الاستاذ عبد الغفار الجركسي :

طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المتدوب من التحقيق

كان عني للملك تأويل يوسف لرؤياه ، كما علمت ، برآه من أهل الفضل والحنكة والسياسة ، ثم ظهرت له من نتيجة التحقيقات برأقه ، ورآى أنه يوجد بينهما صلة وثيقة ، وفي الاتحاد في الوطن الآسيوي ولذلك ، ولكون الملك الريان آسيوياً أولاً وملاكاً على مصر ثانياً ، قال : « إن هذا السجين كريم الشيمه ، مرضي الأخلاق ، اعتوني به أستخلصه لنفسي ، وأجعل له في مجلسي المقام الأول فقد بلوح لي أن هذا الفتى فيه روح ، روح الأمانة ، روح الحكمة ، روح الاقتصاد روح الفهم ، اثوني به أستخلصه لنفسي ، وعلى باقي النبلاء السلام ، أسرعوا بالفيئة اليه ، فلم يبق مني أكثر من صبر ساعة » وإن لهذا اليوم مابده — هذا كلام « الريان » وهذه مساعيه الجميلة ليوسف ، فهو مع كونه وثنياً ، أحب يوسف وأخرجه من سجنه ، ولكن إخوته « جنود » ، وفي عيابة الحب قذوبه ، ولقد صدق من قال : « إذا ضيعك الأقرب ، أتيح لك الأبعد » .

فآب اليه « الرسول » ، وأنبياءه بما كان من أمر برأته ووقعه من نفس الملك الموقع الأول ، وجهه له حباً لا ينقصه إلا الموت ، ثم أراد على الخروج من السجن بأمر الملك القريات ، فعندئذ آسر يوسف أنه لا مانع من خروجه ، وأنه قد استحصل على البراءة تماماً ، وعلى حسن السمعة وطيب السيرة ، وإن الملك قد وثق به وأحبه ،

فأبرقت أسارى وجهه ، فقام وقال للسجناء : أستودعكم الله ، ثم خرج من السجن باسم بريء ، بعد أن كان دخلاً باسم متهم ، فحضر بين يدي الملك ، وعمل له « الريان » حفلة تكريم ، جمع له فيها الوزراء وجميع كبار البلاط ، وعزاه بما أتى عليه سابقاً ، وطمأنه وهناه بما سيلاقيه من الحفاوة ، فشرع يوسف يكلم الملك ، فتال حظوة في عينيه ، وتبادل معه الحديث ، وأحبه أكثر من ذي قبل ، واحتفى به بنوع خاص ، واقتص منه تأويل رؤياه ، لكي يسمعه منه بأذنيه ، قائلاً له : أعد عليّ تمبير الرؤيا كله . ولا تدع منه حرفاً إلا جئت به ، فيجعل يوسف يثر كلامه والملك مصغ اليه ، ولم يمض فواق حتى عرف الملك تأويل حلمه ، فدهش منه أيما اندهاش وأنشد :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر
وقال له عند ذلك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ومن معلقة زهير
ابن أبي سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نفسه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(وقال الملك اتتوني به ...) الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الاله الياني مستأذناً ورئيس المؤتمر في بيان ما يراه من فوائد في هذه الآية الكريمة وبعد أن أذن له قال :

عدد جيئات الرسول السجين

(١) — جملة جيئات الرسول « نبو » للسجن أربع مرات ، فالمرّة الأولى

كان متهماً بجريمة المؤامرة على الملك ، والمرة الثانية لا ذهب إلى يوسف ليستفتيه عن رؤيا الملك ، والرتان الأخيرتان لأجل إخراجهم من السجن إلى الملك ، فافهم .

دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه اياه لنفسه

(٢) — أصبح يوسف كائن جيل مغناطيسي ، وأصبح قلب الملك كائنه قطعة حديدية تحاول أن تنفصل من جسم الملك وتترامى لجهة يوسف ، فلما أحس الملك بهذا التداعي المدهش ، قال اثتوني به .. الخ وبعبارة أخرى : وقف الملك على صحة براعة يوسف وعفته ، فازداد شعوراً بالانعطاف اليه ، وردد في ذاكرته ما آتته فيه قبلاً من الذكاء والفهم حين أول رؤياه ، فناداه ضميره باستخلاصه لنفسه ، فلي نداء الضمير ، وقال : السَّبَقُ السَّبَقُ ؛ والسَّرْعُ السَّرْعُ ، صيروا اليه وأسرعوا الكرة ، واثتوني به أستخلصه لنفسي . فاني إذا منيت به ، قوي ساعدي ، واشتد عضدي .

ثم تعبّر يوسف سابقاً رؤيا الملك ، وتديره الذي ذكره للخروج من ذلك المأزق الحرج ، ثم ظهور الظلم القادح في سجنه ، وانه بريء مما نسب اليه ، مع ظهور أنه سامي فلسطيني ، وليس من الأمة المصرية ، — كل ذلك ترك أثراً قوياً في نفس الملك ، حبيه فيه حباً حمماً ، فرغب في استخلاصه لنفسه .

هدام يوسف حينما استمر لقاء الملك

(٣) — لما أراد يوسف الخروج من السجن ؛ خلق وأبدل ثيابه (تك ٤١: ١٤) وإنما خلق لأن المصريين ما كانوا يطلقون برؤسهم ولحامهم إلا في أوقات الحزن ، وكان خلق الرأس عادة في كهان العرس ، خلافاً للفلسطينيين يومئذ ، فقد كانوا يعدون اللحي فريسة الرحولية ، وشوهد على الآثار المصرية الأسرى والأدنياء

آ (٥٤) اكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريبه منه ٩٤٣

مصورين بلحي^(١) ، ولذلك كان يوسف في السجن طويل الفرع واللحية ، رمزاً لحزنه ، أو تقليداً لأهله ، فلما دعي الى المثول في حضرة ملك مصر حلقها ، لأن حزنه زال ، ولأن المصريين يكرهون فرع الرأس واللحية ..

اكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريبه منه

(٤) — سمع الملك الريان كلام يوسف فوق في نفسه وأكبره ، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة ، تختلف صورتها عن صورة الأسماك الحفيرة التي عليه ، وانه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يسجن بضعة أيام ، فضلاً عن بضع سنين ..

وقد جرت عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة أنهم يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحلام ، ثم باسمائهم وأنسابهم وما يحملون من رتب وأوسمة ، فاذا اختبروهم قدرتهم ومواهبهم وقواهم ، وزى ملك مصر ههنا انها قدر يوسف وأجله يا ررقه الله من مواهبه السامية ، وأفكاره الثاقبة ، كما قال أفلاطون لجلس له :

« تكلم لأعرفك » ، فلذلك ولما كلمه يوسف قال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين ».

عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك

(٥) — كان يوسف عليه السلام لما وقف بين يدي الملك ابن ثلاثين سنة ، ولكن يوسف لا يعتبر من تلك الأعوام الطوال التي عاشها في ذلك العالم المنكود سوى (١٧) سنة ، وهي السنوات التي مضت عليه وهو في حضن والده .

(١) كما قاله هيرودوتس ،

تفاهم يوسف مع الملك في اللغة

(٦) - كلم يوسف الريان ، وكانا يتفاهمان تماماً ، لأن لغة الريان عمليكية ، وهي قريبة جداً من العربية ، أو هي عربية ، ومعلوم أن العربية والعبرانية متقاربتان ، وكذلك كان يوسف يتفاهم مع القبط المصريين الأصليين ، لأن القبطية قريبة أيضاً للغة ، والحاصل أن اللغة المصرية القبطية واللغة العبرانية واللغة العمليكية واللغة السرياقية واللغة المدايقية ، قريب بعضها لبعض ، فكأنها من أمهات مختلفة لأب واحد ، ولذلك كان بإمكان الجميع أن يفهموا .

دعاء يوسف لأهل السجى الذى أحرقه

(٧) - قيل إن يوسف دعا لأهل السجى حين خروجه منه ، فقال :
(اللهم اعطف عليهم قلوب الأحياء ، ولا تنهم عنهم الأجساد ، فهم أعلم الناس بالحوادث والواقعات) وقبل كتب على باب السجى : (هذه منازل الأبتلاء ، وقبور الأحياء ، وشحاتة الأعداء ، ونجيرة الأصدقاء) .

البصرة في هذه الآية وما بعدها

(٨) هذه الآية والاقتتان بعدما تعلم الإنسان عدم الحسد ، لأنه بقراءتها يعلم أنه يوجد في التاريخ من كان عبداً اشترى بثمن نخس ثم ترقى إلى درجة عالية في دار الحكومة ، حتى صار من الوزراء العظام .

يوسف وزير مالية

آ (٥٥) * قال اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي
حَفِيظٌ عَلِيمٌ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والخمسون فقام السيد عبد القهار
الألباني^(١) وقال :

(قال) يوسف مخاطباً الملك الريان : ياذا الجلالة (اجعلني) وَلْتَنِي (على
خزائن الأرض) حاصلات الأرض المصرية عموماً المخزونة في حقول القرى
والمدن والحصون (إني حفيظ) أحفظ ما تستحقظنيه (عليم) عالم بوجوه التصرف بها .
ونرى هنا ان يوسف قد وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه الملوك
ممن يولونه ، فقال له الملك : « أنت لها ، أنت لها ، قد فعلت » فأوقف يوسف حياته
وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمة مصر والمصريين ، بل وما إليها مما جاورها
من فلسطين وغيرها .

(اجعلني على خزائن الارض .. الخ)

— ١ —

وقال السيد الحضرمي^(٢) :

مؤهلات يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر

آلس يوسف من نفسه من النشاط والذكاء وعلو الهمة مايؤهله لإدارة .

(١) سبة الى بلاد الألبان الاسلامية .

(٢) نسبة الى حضرموت إحدى مقاطعات جنوب الجزيرة العربية .

وزارة مالية مصر ، فاقترح هذه الطلبة ، ولسان حاله يقول :

ذريعي أنل مالا ينال من العلا
فصب العلاقي الصعب والسهل في السهل
تريدن إدراك المالي رخصة
ولا بد دون الشهد من إبر التحل

أو يقول :

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله ومعلقة
أو يقول :

أين بضلي إذا قننت من القد هر يعيش مجمل التأكيد
عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طمن القنا وخفق البنود

وهو عليه السلام وإن لم تسيق له خدمة في الحكومة وإدارة شؤون ماليته
إلا أنه كان على مقدب من يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتنظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

على أن الله عرشاً له قال في شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً ﴾

(ع ٢٢) وليس بعد هذا بيان لمستبين .

لذلك قال للملك الريان : (يا صاحب الجلالة ، عيني على حاصلات أرضك أرض
البلاد المصرية عموماً ، التي تختزن الحاصلات والغلال في حقولها ومزارعها وحصونها
— وكانت تلك الحاصلات عبارة عن القمح والشعير والذرة الصفراء والبرسيم
والكروم والتين والزيتون والجوز والقصب والبلح والتمر وما أشبه ذلك من
غلات مصر » كما يعلم ذلك من التواريخ القديمة — ثم أردف يوسف قائلاً : إني

خلقت اقتصادياً وعشت اقتصادياً ، ودم العلم والخبرة جار في عروقي ، وملكة المعرفة سارية في جوارحي ، حفيظ للأموال ممن لا يستحقها ، حفيظ لها في خزائنها ، خير بالوجوه التي يمكن تحصيل الدخل والمال منها ، خير بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها ، عليم بمصالح الناس وبمواقع حاجاتهم ، عليم بوجوه التصرف دخلاً وخرجاً ، وهذا هو سلاحي الذي أتسلح به وهذه هي حلتي التي أتحملي بها ، وهذه هي وسيلتي التي أتوسل بها إلى ملك الديار المصرية ، ليس لي سلاح ولا حلية ولا وسيلة بعد الله تعالى سوى الخبرة والحفظ والأمانة . هذا ولا نشك بأن الريان قال له : (ذلك الظن بك أيها العبراني الاقتصادي الحيسوب القدير) ، ثم التفت إلى وزرائه وقال لهم : (هل نجد رجلاً ينهض بالعمل في بلاطنا ويستقل به استقلالاً أحسن من هذا الفتى ، هل نرى انساناً أجزأ للعمل وأمضى من هذا الإنسان ؟ ... كلا ...) ثم أمر فجعله كما طلب في مهرجان عظيم ، وقد هاج المصريون وماجوا من هذا المهرجان والموكب الذي عمل لأجله ، وكان هذا الحادث يعد من الحوادث التاريخية الباهرة في تاريخ يوسف . وبهذه الحادثة يكون انتهاء فصل المأساة التاريخية ، وبدء لعصر جديد وتعلم من هذا الذي حكاه الله تعالى عن (الريان) — وهو وثني — أن ننظر عند إسناد الوظائف للكفآت ، لأنه إذا كانت الحكومة الوثنية — حكومة مصر — قد جرت على هذه الطريقة المثلى ، فأولى أن تجري على ذلك الحكومات ذات الأديان السماوية .

لقد ادعى يوسف دعواه السالفة الذكر وأتى من العمل بما يصدقها وحفظه له التاريخ ، إذ قام بما أصاره إليه الريان ملك مصر من الأمر ، أحسن قيام وأتى بكل ما عصبه به ، وعوّل عليه فيه ، فسكان هاماً أحوذياً ماهراً ، لا يقوته

شيء، ولا يعجزه أمر، مشمراً للأعمال، بسوقها أحسن مساق، لا يشذ منها عنه شيء ما.

وتعلم من كلام ومثل يوسف عليه السلام، أنه يتبني للعاقل — إن كان عاقلاً — أن يسعى في طلب الدنيا، ليعيش بشرف، وغني عن الناس، ولا يتكل على ما تأتي به الأيام، ورحم الله من قال :

لعمرك إن المال قد جعل الفنى
نسيباً وإن الفقر بالحر قد يزري
وقال آخر :

ولا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
وفي الحديث الشريف : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل) .

« اجعلني على خزائن الأرض . . . الخ »

وقال الاقتصادى الكبير الأستاذ الدمشقى :

عمل يوسف في سني الخصب والجذب في مصر

لقد طلب يوسف عليه السلام أن يكون جانياً للحاصلات في سني الخصب. السبع وخازناً لها، ثم بائعاً لتلك الحاصلات في سني الجذب السبع الأخيرة .

ويظهر أن هذه الوظيفة التي هي عبارة عن الجباية وتخزين فالبيع وظيفته جديدة لم تكن من قبل، لأنه لم يكن لها داع، وقد جاء في سفر التكوين وشرحه أنه يظن أن أهل مصر كانوا يعطون الملك، عشر الفلال، ولكن يوسف أشار على الملك أن يأخذ خمس الحاصلات، وكان إعطاؤهم للملك ضعف ما كان يأخذه سابقاً، ليس ثقيلًا عليهم في سني الخصب، لكثرة غلالها كثرة لم تعهد،

ويرجح أنهم علموا ما كان من حلم الملك ، فكان ذلك مما خفف عليهم دفع الخمس .
وقد جمع يوسف (ع) جميع الفضة التي في أرض مصر ، وفي أرض
كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها وأدخلها بيت ملك مصر ، فيوسف لم يكتف
بأن تلافى مزار المجاعة بل عني كرجل خير بالسياسة والاقتصاد ، أن يقوي
سلطة مولاة ، ويزيد غنى دولته ، بادخال فضة الأهلين خزائن الملك ، ثم بتعليكه
ما شيتهم ، إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام : (إذا كانت فضتكم قد نفدت
فهاثوا ماشيتكم ، أبعكم بها ، فجاءوا يوسف بماشيتهم فأعطاهم طعاماً بالخيل والماشية
من الغنم والبقر والحمير ، ثم إن المصريين عادوا في السنة الثانية إلى يوسف يشكون
اليه سوء مصيرهم ، لأنه لم يبق بين يديه إلا أبدانهم وأراضيهم ، ويسألونه أن
يشترهم وأراضيهم للملك ، فاشتري يوسف جميع أراضي المصريين للملك ،
لأنهم باعوا كل واحد حقله ، فصارت الأرض للملك ، إلا أن أرض كهنتهم
لم يشتريها ، لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاقاً من قبل الملك يأكلونها ،
ولذلك لم يبيعوا أراضيهم (كذا في التوراة وشروحا والله أعلم بصحة ذلك) .

إني حفيظ علم

— ٣ —

وقال الاديب العدني (١) :

السرائر علمت يوسف ادارة شؤون مصر المالية والاقتصادية

كان يوسف ذاق نكبة المنكوبين ، وجرب ذل الأعزاء ، واختبر مهانة
الأشراف ، وعالج مرارة العيش ، وشاهد بؤس البؤساء — وسمع أنين
أهل البلواء .

(١) نسبة الى عدن احدى بلاد الجنوب العربي .

ذاق نكبة المنكوبين ، حين أُلقي في (غيابة الجب) وحرب ذل الأعزاء حين جلس في « سوق الرهيق » لبيع لمن يرغب فيه ، واختبر بنفسه مهافة الأشراف ، حين كان عبداً في بيت « يوطيفار » ، وعالج مرارة العيش ، حين اعتقل في « السجن » كمجرم ، وهناك شاهد يؤس البؤساء وسمع أنين أهل البلواء .

كان يوسف (ع) صرّ بجميع الطبقات ، وخالط جميع الناس ، خالط (طبياً) اخوته ، فرأى حسد القريب للقريب ، خالط « السيرة » ، فسرف كيف يكون تمدي القوي على الضعيف ، خالط « الترنوج » ، في سوق الرقيق ، فأدرك شدة السادة على العبيد ، خالط « الكبراء » في بيت العزيز ، فحرب ظلم الأميرة والأمير ، خالط « المعتقلين » في السجن ، فشاهد كم فيه مظلّمين ، وسمع أنات النّالين وزفرات المتوجعين .

تصور كل ماجرى عليه قدامه ، ثم تصور كل ما سيجري على الناس المصريين ، في سنيّ القحط فيما يأتي ، يخاف أن يندروا كما عذروها قوا كما آهين ، ويصب من فوقهم الظلم كما صب بوقه ، فأحب أن يتولى شؤونهم المستقبل بنفسه ، وأن يكون هو القائم بخدمتهم ، ليعطي كل ذي حق حقه ، ويقوم واجب العدل والادّصاف ، ولتتمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطى على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم ، ولذلك اقترح على الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

لله درّ الألم ما أنفعه ! لله درّ اليؤس ما أنفعه ! فالألم هو البنيوع الذي تنفجر منه جميع عواطف الخير والاحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين المجتمع الانساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه .

لم يرد يوسف أن يعيش عيشة فردية ، لا يخدم بالأسا ، ولا يعطى على متكوب ، ولا يرتي لامة ، ولا يبكي على وطن ، لم يرد يوسف أن يكون كـ بعض هؤلاء النفر من

العلماء الذين لا يشتركون في شأن من الشؤون العامة ، ولا يعنيهـم ماداموا راضين عن أنفسهم ، مغتبطين بحظوظهم ، قابضين رواتبهم ، أسقطت على الأرض السماء ، أم صرقت الدهماء في الدأماء !!!

لم يرد يوسف أن يعيش دنيئاً قميناً لأن هذا من سفالة الهمة ، بل أراد أن يعيش عظيم الهمة ، وعظم الهمة هو استصغار مادون النهاية من معالي الامور وطلب المراتب السامية ، كما أراد يوسف عليه السلام .

هذا ما ينبغي أن يكتب في هذا المقام ، وما يليق أن يقوله القائلون ، وما يناسب أن يسمعه السامعون ، وان لم يقع موقع الاستحسان من أشياخ الكسل ، وأساتذة العجز ، وأئمة التثاؤب والتملل ، الذين يحتقرون نعمة العقل والقوة ، بتعطيلها عن العمل ، وربما كان الواحد منهم في نفسه أطمع من « أشعب » تذهب نفسه حشرات على « الذهب » ، لو استطاع أن يهدم بيتاً ، ليربح حجراً لفعل ، يظهر الزهد ، وهو احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

إن الرجل ذا النبل والمروءة يكون خامل الذكر ، فتأبى نفسه الا أن تشب وترتفع ، كالشعلة من النار يضرها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً ، فلذلك اشرأبت نفس يوسف عليه السلام ، الرفة ، والمجد ، لكي يقوم بخدمة مصلحة عمومية ، وفي ضمنها مصلحة الشخصية ، لأن حب الذات فطرة في الناس ، لا يمكن أن يخلو منها أحد ، حتى الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ لم يقل أحد ما ان الانبياء معصومون من ذلك .

خرج يوسف من سجنه ، فطلب الجلوس على أريكة « وزارة المالية » ، فاستحق بذلك قول أبي فراس الحمداني :

ونحسن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

طموح الانسان الى الرياسة، من ملك ووزارة وقيادة جيش ونحوها، هو
لا شك مما يبعث على التنافس، وبذلك المستطاع في سبيل الوصول اليها، وهو أمر
حسن، قال عليه السلام :

﴿ لا يزال الناس بخير ما تناضلوا، فاذا تساوا هلكوا ﴾، معناه انهم لما
يتساوون إذا رضوا بالنقص، وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودورك العالي
(ابن الأثير في نهايته).

(قال أجبني على خوائن الأرض ...) النخ الآية

— ٤ —

وقال الاستاذ الزبيدي (١)

عزيز مصر وفريديها

نتعلم من هذا القول أن يوسف عليه السلام كان « وزير مالية » ثم تتعلم
من تسمية اخوته له « بالعزيز »، إذ قالوا له في سفرهم الثالثة :
﴿ يا أيها العزيز ﴾ أنه كان « عزيزاً لمصر »، وعزيز مصر بحسب اصطلاح
المصريين القديم والحديث هو حاكمها الكبير، والمتصرف العظيم فيها، بعد ملكها
الأ كبير، وفرعونها الأعظم، فليس يوق « عزيز مصر » سوى الملك فرعون،
ووظيفة عزيز مصر هي النظر في جميع أمورها بلا استثناء، فهو المرجع في كل
حادث مهم لجميع المصريين، ويكون في حكومة هذا العزيز وزراء، ورئيس
وزارة، ويكون العزيز كأمير مطلق اليد ضمن الشروط المشروطة له، وفي
دائرة الحدود المحدودة، ويكون تحت نفوذ ملكها الأعلى، الذي إذا أراد عزله
عزله، وعين له خلفاً، وعلى هذا الاصطلاح المصري القديم جرى الاصطلاح

(١) نسبة الى زبيدة بلدة في الحجاز

الجديد ، منذ عهد مؤسس العائلة الخديوية « محمد علي باشا ، لأواخر الحرب العالمية ، فقد كانت مصر « أيلة ، من أيلات الدولة العثمانية ، وكان ملكها هو الخليفة العثماني ، الذي كان يدعى له على منابرها ، وكان « الخديوي ، فيها يسمى « عزيز مصر » وللخديوي حكومة مؤلفة من وزراء ورئيس وزارة .

إذا تقرر هذا نجم عنه سؤال صورته : كيف يكون يوسف في وقت واحد « وزير مالية » بحكم قول الكتاب العزيز ﴿ اجعلني على خزائن الارض ﴾ (ع ٥٥) و « عزيزاً لمصر » بحكم قوله أيضاً : ﴿ يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ﴾ ؟ (ع ٨٨) ، وجوابنا عنه من وجهين ، الأول يحتمل أنه صار أولاً وزير مالية ثم ترقى فصار عزيزاً لمصر مع احتفاظه بوزارة المال ، كما كان آخر خديوي بمصر وهو « عباس حلمي الثاني » عزيزاً لمصر وناظر أوقافها في آن واحد ، ويحتمل أنه كان من يجعل على (خزائن الارض) يكون (بالطبع) هو « عزيز مصر » فتأملوه عسى أن تنفذوا ببصيرتكم لأحسن منه والسلام عليكم .

(اجعلني على خزائن الارض .. الخ)

- ٥ -

وقال ميرزا حسين الكاشاني^(١) :

نظير مائدة يوسف في التاريخ

تقدم أن يوسف عليه السلام ، استسلم « للسيارة » وسلم بأن يذهب معهم لمصر ، بدون أدنى مقاومة ، وإن من مهنات هذا الاستسلام ومسهلاته ، بل من دواعيه وبواعثه ، خوف يوسف على نفسه من اخوته « بني العلات » لو حاول الرجوع لأبيه ، وبناء عليه فهو قد بقي صابراً يقتصر الفرص ، حتى منحت له ،

(١) نسبة الى بلدة كاشان في ايران .

هذه الحادثة النادرة المثل ، وهي وقوفه أمام ملك مصر محقوفاً بمحنة منه له هي نادرة المثال ، فتعرض لهذه النقحة . وطلب أن يكون من أهل البلاط ، وما هي إلا لفظة الجيد ، حتى صار وزير مالية مصر العام ، فقام بهذا المنصب أحسن قيام ، وأسس لنفسه ولأهله مجداً بمصر ، له عزه وجلاله .

ولعمري إن هذه الحادثة تشبه من بعض وجوها حادثة (عبد الرحمن الداخل) الأموي الذي فرّ من وجه بني عمه العباسيين ، إلى الغرب خوفاً من قتلهم إياه ، ولحق بالأندلس ، وأسس ملكاً ودولة مستقلةً بها عن بني العباس وإذا كان « المنصور » العباسي قد لقب « عبد الرحمن » هذا « بصقر قریش » فما أحق « يوسف » أن يلقب « بصقراسرائيل » ؟ ! وههنا (والشيء بالشيء يذكر) تذكرت حكاية رأيها في بعض التواريخ وهي مشهورة وخلاصتها أن « عبد الرحمن الداخل » هذا دخل ذات يوم وهو صبي على جده « هشام » ، وعنده أخوه « مسلمة » ، وكان مسلمة شديد الفراسة ، بعيد النظر ، فأمر « هشام » أن ينحى عنه ، فقال له مسلمة : (دعه يأمر المؤمنين ، هذا صاحب بني أمية ، ووزرهم عند زوال ملكهم ، فاستوص به خيراً) ، قال عبد الرحمن : (فلم أزل أعرف من جدي مزية من ذلك الوقت) فهذه البشرى من مسلمة لعبد الرحمن تشبه بشرى « يعقوب » لولده « يوسف » حينما قال له : ﴿ وكذلك يحببك ربك . . الخ ﴾ ، سواء كان كلام يعقوب لابنه من قبيل الفراسة ، أو مبنياً على الوحي السماوي ، فهذا وجه ثان من وجوه المشابهة بين عبد الرحمن الداخل ويوسف عليه السلام ، واليك وجهاً ثالثاً ، وهو اني رأيت في بعض الدفاتر قصيدة تصف عبد الرحمن الداخل فكان منها :

دبرٌ ملكاً وشادَ عزا	ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى	ومصر المصر حين أخلا

ثم دعا أهله اليه حيث اقتأوا أن هلم أهلاً
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلاً
فتال أمتاً وتال شعباً وتال مالاً وتال أهلاً

وغني عن البيان أن انطباق هذه الآيات على يوسف حيث دبر الملك وشاد المعز وجند الجند ومصر الأمصار ودعا أهله اليه أجمعين .

« قال اجعلني على خزائن الأرض . . . الخ »

— ٦ —

وقال السيد العماني :

الدين الاسلامي والسعي في الدنيا

السعي في الدنيا وطرق الشرف والمجد ، هو من تعاليم الأديان الحقبة . . . ،
المطابقة لروح المدنية الحقيقية . . . ، وفي مقدمة هذه الأديان « الاسلام » نعم
إن دين الإسلام هو دين علم وعمل ، دين جهاد ونشاط ، دين روحي ومادي معاً ،
وبعبارة أخرى دين ايجابي ، بعكس بعض الأديان الأخرى ، كالدين الهندوسي
مثلاً ، الذي هو سلبي محض ، يأمر بانكار الذات التام ، ويحض على الابتعاد
عن كل مافي هذه الدنيا من رزق ومتاع وأسباب شرف ومجد ، بحيث أت
من أراد العمل بأوامر ذلك الدين — بالحرف الواحد — ترمه ترك الدنيا والتنسك
في صومعة ؛ ولكن دين الإسلام يمكننا العمل بأوامره تماماً ، دون أن يحوجنا
ذلك إلى الابتعاد عن العالم ، وما فيه مباح اللذة والتمتع بكل ماتحت الكلمة من
أكل وشرب ولباس وأثاث ورياش ومجد وشرف .

وأما تعليم الزهد والرهبانية وترك الدنيا ، فانما هو من الزوائد التي أدخلها
بعض رجال الدين من العجم ، ومن متمشيخة العرب الذين لم يفقهوا حقيقة الدين

فأدخلوا عليه ما ليس فيه فمسخوه مسخاً ، وشوهوه تشويهاً ، وأما الطريقة التي كان عليها الفاروق الأكبر ، رضي الله عنه ، فانما هي حالة نفسية ، رضيها لنفسه بنفسه ، وألزم فيها نفسه ، ولم يلزم بها غيره ، ومع ذلك فهو رضي الله عنه إغما زهد في الملبس والمأكل ، ولكنه فيها يتعلق بالمجد والشرف وبعد الصيت ، فقد وصل لغاية لا غاية بعدها ، بحيث قهر كسرى قارس ، وقصر الروم . ووضع رجله فوق رؤوس كل الغداة المتجبرين ، وهو الذي كان إذا رأى رجلاً جالساً في المسجد بعد أداء الفريضة بضربه بالدرة ، ليخرج لمعاظرة أسباب المعاش ، وكان يقول : (إني ليعجبني الرجل ، حتى إذا علمت انه ليس له عمل سقط من عيني) .

إذا كان الإنسان خلقاً قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته ، فانه عليه أن لا يني في ذلك ، لأن به ترتبط رفاهيته وراحته ، وإذا كان ينبغي للقادر على الشغل أن يحمل الفأس ويقطع بها الصخور ، أو يقلب بها الارض — أفلا ينبغي لمن فيه أهلية للوظيفة أن يرشح نفسه لها ، ليقوم بواجبات نفسه وأهل وطنه ؟ وإذا كان الله يقول : ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (٤٥ : ١٢) فهل يجوز أن ينكر على يوسف الصديق أن يتطلب بعض منافع مافي الارض ؟ .. حاشا ...

وهل من العبث تسمية الله تعالى المال خيراً في قوله تعالى :

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ، الْوَصِيَّةُ ﴾ (٢ : ١٨٠) وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (١٠٠ : ٨) .. ؟

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥١ : ٥٦) فالعبادة فيه هي طاعة الله في كل ما أمر ، والانتفاء عما عنه نهى وزجر ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ، ويقول ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (٦٢ : ٩) ،

آ(٥٥) دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال ٩٥٧

ويقول : ﴿ هو الذي جعل لكم الارض ذلولا ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ (٦٧ : ١٥) والإنسان مكلف أن يعمل بكل أوامر الله تعالى ، سواء كانت أوامر دنيوية ، أو أوامر أخروية ، ذلك لاجل خدمة الجسم والروح ، وكل من اتبع شقاً من ذلك وترك شقاً ، يكون محشوراً في زمرة الذين يكتون بقول الله : ﴿ أَتَوْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ ﴾ (٢ : ٨٥) أحسنت

« قال اجعلني على خزائن الارض . . . الخ »

— ٧ —

وقال العلامة الدمشقي الصالحاني (١) :

دحض اعتراض بعض رجال الدين على طلب يوسف وزارة المال

لم يزل بعض علماء الدين يتشددون في الدين ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبتة الشياء ، صخوراً صماء ، يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة ، حتى صيروا عبئاً ثقيلاً ، على كواهل الناس وعواقبهم ، فقلته الكثير منهم وبرموا به ، ولو أن علماء الدين لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره وفواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنياهم .

هذا « داود » نبي الله عليه الصلاة والسلام ، كان ملكاً ، وامتن الله عليه بذلك ، حيث يقول له : ﴿ ياداوُدُ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (٣٨ : ٢٦) خلفاً عن « شاول » ، فهل يمتن الله عليه بشيء لاقيمة له ، أو شيء يزهد هو فيه ، ولا يأبه له ؟ . . . حاشا . . .

وهذا ابنه «سليمان» نبي الله، عليه الصلاة والسلام، كان ملكاً، حتى أنه قال: «وَهَبْ لِي مِثْلَكَ»، لابنني لأحدٍ مِن بُعْدِي، (٣٨ = ٣٥) أي لا يتطلبه غيري من العائلة المالكة، ولا ينافيني فيه، من بعد جلوسى على كرسيه، كما جربت من أخي «أدونيا» فيما مضى، فهذا الطلب، وطلب يوسف، يخرجان من مشكاة واحدة، فهل كان سليمان أقل تقوى من هؤلاء المتعالمين المداجين، الذين يقولون للناس في دروسهم ولا يحفلون فيما بينهم وبين أنفسهم وفي داخل بيوتهم؟ ... حاشا ...

وهذا أبو بكر الصديق، وبه «عمر الفاروق»، تقبلاً لخلافة، وربما كان لها في الحصول عليها نصيب من السعي، فهل كان هؤلاء المتشددون المتطعون، أكثر من الشيخين زهداً وورعاً؟ ... حاشا ...

وهذا «عثمان ذو النورين»، و«علي المرتضى»، و«الحسين» و«محمد صاحب النفس»، وزيد بن علي، رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا في سبيل المحافظة على الخلافة، أو طلبها، فهل أولئك المعترضون - على طلب يوسف الدجالون أكثر منهم تقوى وإخلاصاً وزهداً؟ ... حاشا ...

أليس إن الدنيا مطية المؤمنين؟ .. أليس إن الدنيا مزرعة للآخرة؟ .. ألم يقل الكتاب ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ النَّاسِ فَنَاصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (٣٨: ٧٧) ألم يرد «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» ..

لعمرك إننا للأسف أنه مع تربي العقول وتطور الأذهان في هذه العصور المستنيرة، لم يزل جماعة من المتشددین عِمَدَةَ الْأَرْبَاءِ يُغْفَاكُون في الدين ويدون أن يفهموه ويحيطوا به علماً، ويقفوا على حكمه ومراحله، ويأبون على الناس إلا أن يجحدوا معهم حيث جحدوا، وينزلوا على حكمهم بما أرادوا، ويقيمون المناحات السوداء على كل عالم يريد أن يجمع بين أطراف الدين ونصوصه، في مواضع المعاش والمعاد،

حتى ملتهم الناس ، وملتوا الدين منهم ، فتمردوا عليهم ، وخلصوا طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية الدينية المطلقة ، فسقطوا في هوة الضلال ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ودينها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق المستنير ، من العلماء الواقفين على حكمة التشريع ، والفضلاء الذين أدركوا كنه الدين ، وهم ما بين مؤلف يكتب للأمة الرسائل الدينية ، التي توافق روح القرآن والسنة وطريقة السلف ، وما بين خطيب يخطب لهم الخطب المنبرية التي تحثهم على النظر لآخرتهم ، بالعين الواحدة ، ولدنياهم بالعين الأخرى ، وما بين مدرس يوقفهم في دروسهم على الحقائق الراهنة من الدين ، وينهض بهمته إلى معالي الأمور ، ولولا هؤلاء ، لبقى الدين في أيدي الجاحدين ، فمات أو غلب عليه الجهل فاخفى .

يمتألو نشر اليوم أبو بكر وعمر الفاروق وعلي المرتضى وعمر بن عبدالعزيز ، وأحمد بن حنبل والحسن ، وأشباههم ، لما كان لهم بد من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي تعيش فيه ، فترى منهم صاحب العمل الصناعي ، وصاحب المستودع التجاري ، وصاحب المستعمرة الزراعية ، والأمير السياسي ، والحاكم الشرعي ، والملك المهيمن ، ووزير المالية ، وناظر العدلية ، وشيخ الاسلام ، ووزير الحرية والبحرية ، وقائد الجيوش ، ووزير المعارف والاعراف ، كما ترى منهم زعيم قوافل التجارة البرية والبحرية والجوية ، ومدير الشرطة ، وأمر الضبط والربط ، حتى يستتب الأمن العام في الأمة .

فإن هم لم يريدوا أن يكونوا كذلك ، رأوا أن من الواجب عليهم أن يعودوا إلى مرانهم من حيث جاؤوا .

إن الكثيرين من أسلافنا لم يكونوا بالصورة التي يصورها لنا بعض الواعظين ، بل كانوا في رغد من العيش ، فقد أثبت لنا التاريخ أنه في أيام خلافة عمر بن الخطاب

كان يدفع من الرواتب لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ ، كل ستة اثنا عشر ألف درهم (فرنك) ، والعماس رضي الله عنه كذلك ، ولكل من الحسن والحسين خمسة آلاف درهم (فرقك) (١) ، فهل كان أصحاب هذه الرواتب أقل زهداً من المتشددین من أهل اليوم ؟ .. حاشا ..

وجد عند خازن عثمان رضي الله عنه ، لعله الخاص بعد استشهاده دنانير ودرهم تساوي (٥٧٥ ٠٠٠) جنياً ، ووجدت قيمة صياحه بوادي القرى وخين وغيرها ما يساوي (٥ ٠٠٠ ٠٠٠) جنياً ، وذلك بعد وفاته ستة ٣٥ هـ (٢) .

أنا لا ألوم على الأخذ بطرق من الدين ، وزك الطرف الآخر — الأعياء الذين أظلمت آذانهم ، فأظلمت دروس وعظمهم ، وظلمة المدرس أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يعرفوا الدبابة الإسلامية ، ولم يحارسوا حكمها ، ولم يتشبعوا بروح نصوصها ، ولا الوعظ القاصدين الذين لم يقفوا من الدين المحمدي إلا على بعض قشوره القتالة لروحه ، قهولاً جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم العلماء الحقيقيين ، الماديين ، الذين عرفوا الدين ، واطلموا على حكمه ، وفهموا مرامي نصوصه ، ومنفاري شريعته ، وأنقم منهم عدولهم عن بيان ذلك للناس ، وآثروا عليهم قصص القادريين على الستام .

يجب على العالم الإسلامي أن لا يألو جهداً في الحصول على أسباب الثروة ، فلا دين إلا بملك ، ولا ملك إلا برجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالسي والجِد والنشاط ، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

حكى المؤرخون أن بعض الشعراء مدح « المأمون » بكان من قوله :
أضحى إمام الهدى المأمون مستغلاً بالدين ، واقفاً بالدنيا مشاغلاً

فلم يتحرك له ، لأنه مازاد على أن جعله عجوزاً في عمرها ، في يدها مسبحتها ،
ولذلك قالوا ، أحسن منه قول بعضهم :

فلا هو في الدين - مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
ولا عبرة بتزهد بعض المشايخ الكسالى ، وربما كانوا كاذبين في زهادتهم ،
فإن أكثر ما نرى من الزهاد ، إما يتجلى لنا زهدهم في ألبستهم أو ألسنتهم ، أو
الغرف التي يستقبلون فيها زائريهم ، فهذه هي مظاهر زهدهم ، ولو أتيح لنا أن
نطلع على داخل بيوتهم ، وما فيها من أثاث ورياش ، أو لو بحث عن حال نسائهم ،
وكم في خزائنها من أنواع الالبسة المزركشة وكم في صناديقهن من ضروب الحلي
والجواهر ، لرأينا أمراً عجيباً ، يدهش الابصار ، ويأخذ القلوب !! !

(مرحى)

« اجعلني على خزائن الارض .. الخ »

— ٨ —

وقال الهمام البحراني (١) :

حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي والتصوف في الاسلام

هذا الطلب — طلب يوسف — هو من روح الدين الاسلامي ، يوم كان الدين
ديناً والاسلام إسلاماً ، إذ لم يكن فيه شيء مما يسمونه قطع العلائق مع الناس ،
وزهداً في الحياة الدنيا ، لأن هذا بعيد عن روح الدين الاسلامي ، إذ الاسلام
دين فتح ورفعة ، دين عز وشرف ، دين نشاط وعمل . دين سعي وجد ، دين ابتغاء
من فضل الله بالتجارة والصناعة والزراعة ونحوها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَنْتَ

(١) نسبة الى قطر البحرين احد الامارات العربية على الخليج العربي .

ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يُخْزاهُ الجزاءُ الأوفى ﴿ (٥٣ : ٣٩ - ٤١) ﴾ وهل هذا لا ينافي ما يسمونه « تصوفاً » ، إذ التصوف بالمعنى الصحيح ، هو طهارة الباطن وحب الخير ، وبغض الشر وما الى ذلك ، مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات ، وهو بهذا المعنى يرجع في جوهره الى روح الاسلام ، وأما « التصوف » بالمعنى المشهور عند الجمهور ، فليس هو ما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب ، هندية وقارسية ويونانية ويهودية ، قال الدكتور « وليم ادي » الأميركاني في شرحه على الانجيل : (قد كان في اليهود جماعة « الأسينيين » ، كانوا بين اليهود بمثابة الباطنيين أو المتصوفين ، مارسوا التطهيرات اليهودية ، واعتنقوا الفلسفة اليونانية ، وكثيراً ما اعتبروا التقشفات الجسدية ، وتجنبوا مخالطة الناس) ، فهذه التعاليم المزيجة ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم ، فوسحوها باسم الدين ، ووضعوا لها حسابه من القواعد والأصول . وحقيقة الاسلام أنه يُعَمِّدُ معتنقيه لأن يكونوا سادة ، وإن التصوف بالمعنى المشهور عند الهنود واليونان والفرس — يلبس أصحابه أرواح البعيد ، وإلا فلماذا ساد المسلمون وأفلحوا في الحياة يوم كانت مبادئ الاسلام الخالصة رائد دم ، وتعاليمه البريئة هاديهم ؟ ولماذا فقدوا مكانتهم ، وأضاعوا عزمهم ومجدهم وضلوا في الحياة سواء السبيل ، حتى صاروا طعمة سائغة لكل طاعم ، ونهبة هتئة لكل ناهب ، يوم شابوا تلك المبادئ السامية بشوائب التصوف ، وخلطوها بتعاليم المتصوفين .

دين الاسلام ، الذي هو دين ابراهيم وأولاده اسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف — هو دين السعادتين ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، دين يقول في هدايته : ﴿ وَلَا تَمْسَسْكُمْ نَصِيبُكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (٢٨ : ٧٧) ويقول : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (٢ : ٢٠١) ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ

لكم الأرضَ ذلولاً ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴿٦٧ : ١٥﴾ ويقول : لعلمكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴿٢ : ٢١٩﴾ ويقول : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ ﴿٢ : ١٩٨﴾ أي في مواسم الحج كما قاله ابن عباس ، ويقول : ﴿فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله﴾ ﴿٦٢ : ١٠﴾ أي بالتجارة والسعي كما روي عن ابن عباس ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس) ويقول ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) ويقول ﷺ : (يعمل يده ، فيتفق نفسه ويتصدق) ويقول ﷺ : (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه) ويقول ﷺ : (كان أصحاب رسول الله عمال أنفسهم) ويقول ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو القائم الليل الصائم النهار) ويقول ﷺ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ، وأخيراً يقول : (في كل ذات كبد رطبة أجر) (١).

وكيف يستطيع الانسان أن يسعى على الأرملة والمسكين ، ويكفل اليتيم ، وينصدق على ذي الكبد الرطبة إذا لم يكن ضارباً في الأرض أو عاملاً من عمال الحكومة ، أو صانعاً أو زارعاً أو تاجراً أو محامياً أو طبيباً أو مهندساً أو حائكاً أو نحو ذلك ؟؟؟؟

دين الاسلام ، الذي هو دين يوسف أيضاً — متصل بشؤون المسلمين الدنيوية ، كما هو متصل بشؤونهم الآخروية .

من هنا كان « الاسلام » دين عقيدة وعبادة وحكم ، دين قضاء وإمامة

(١) هذه الاحاديث الثمانية كلها رواها البخاري في صحيحه .

وجهاد دفاعي ، دين سياسة شرعية ، دين علم وفنون ، دين أعمال أخروية وأعمال دنيوية ، أعمال روحية ، وأعمال جثمانية ، أعمال شخصية ، وأعمال اجتماعية ، دين ضبط وربط ، وأمر ونهي ، وإقامة حدود وتعايير ، دين معاملات مع الخالق ، ومعاملات مع المخلوق ، دين يشمل بتدبيره جميع ماعلى وجه الأرض ، ويشمل بعقائده ما فوق السموات وتحت الأرضين ، دين ينظم شؤون القلوب ، بما فيه من « علم أخلاق » ، وينظم شؤون الجوارح ، بما فيه من « علم أعمال » ، وينظم الجماعات بما فيه من « علم اجتماع » ، وبالجمله : يعلم الانسان كل مايلزم له في ديناه وأخراه ، ويحض على السعادة المآلية ، كما يحض على السعادة المآلية ، ولأن يترك الانسان المال لألد أعدائه بعد مماته ، خير من أن يحتاج لأعز أصدقائه في حياته .

قال الحجاج بن يوسف ، لحريم الناعم : « ما النعمة ؟ » — قال : « الأمن ، قاني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالصحة ، قاني رأيت المريض لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال « فالنبي ، قاني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش » — قال له : « زدني » — قال : « فالشباب ، قاني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش » — قال له « زدني » — قال : « ما أجد مزيداً » :

هذا هو دين الاسلام ، الذي هو دين جميع الانبياء من لدن آدم الى فخر الوجود ، عليه وعليهم الصلاة والسلام ، خلافاً لما يوجد عند متصوفة الهندوس ، ومتصوفة التصاري ، ومتصوفة الاسلام ، أقول : « متصوفة الاسلام » ولا أعني المتصوفة الحقيقيين الذي بتطبق تصوفهم على الشرع ، ولكني أعني جهلهم فقط .

التزهد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية

إن كل من يقرأ في « البشائر الأربع » من التزهد والبراءة من الدنيا ، ليس هو الشريعة المسيحية ، وإنما هو تتميم لشريعة « الناموس العتيق » ، وتلطيف لها ،

وتشذيب لأطماع اليهود وتكالبهم على الدنيا ، ولذلك روي عن المسيح انه قال : « إنما جئت لأتمم » ، فالناموس العتيق لم يذكر الآخرة — على ذمة أسقاره المطبوعة — بل اقتصر على ثواب الدنيا ، ولم يذكر ملكوت الأخيار ، ولا جهنم الاشرار ، بل إنما خوف الناس ، إذا خالفوا الأوامر بمصائب الدنيا وعاهاتها ، وكذا لم يذكر شيئاً من قواعد الزهد والقناعة والرفائق القلبية ، واللطائف الروحية ، فجاء المسيح ذا كراً لكل ذلك ، ومتمماً لمواضيع التوراة بذكر مقابله ، وملطفاً لحرص وطمع وشراهة اليهود ، وبذلك كان مجموع « العهدين » — التوراة والانجيل — كتاباً واحداً ، كما نطق القرآن الكريم (٢ : ١٠٥ و ٤ : ١٣٥ و ٦ : ١٥٦) الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة في القرآن الشريف .

انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية

وأخيراً وبالنتيجة ، كل من أبدى ههنا انتقاداً على يوسف الصديق في طلبه وزارة المالية ، فليعلم أن انتقاده ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية وسماحتها ، ولكن على تلك التعاليم الاخرى المبتدعة ، التي لا يعترف بها القرآن ولا السنة ولا الاجماع ولا عمل السلف الصالح ، الذين كانوا « عمال أنفسهم » .

كل حرفة مهملها كانت منحطة في أعين الناس ، لا يمكن أن تكون أحط من عيشة المتكسل على غيره ، فكيف لو كانت خدمة في « البلاط » ؟ ولهذا فإننا نجد طلب يوسف من ملك الديار المصرية أن يجعله على خزائن الأرض .

حبذا الطموح الشريف إلى العلا ، حبذا سمي الإنسان في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل مايزيد بعد ذلك عن حاجاته العادية ، فيما يعود على هيئة المجتمع بالفائدة .

ليس المانع من اهتمام الشرقي اليوم قناعة في النفس وزهد في الأموال ،

ورغبة عن زخارف الدنيا ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لما وجد أحد حامداً غيره على قعته ، ولا ناظراً إلى غني نظراً شذراً ، والشرقيون كلهم بين شك ومشكو من هذه الحال ، فالشرقي إذن طماع كثيره ، وليس عنده من الترهّد ما ليس لغیره ، ولكنه مع ذلك لا يجب الشغل ، ولا ينشط لعمل فيه رزقه ، فهو إذن يحب أن تمطره السماء ذهباً ، وأن تثبت له الأرض فضة ، يجب أن يكون أغنى الناس على شرط أن لا يتعب جسمه ، ولا يجهد فكره .

حب المال ليس مقبوماً لذاته ، ولكن لكونه يشغل عن الآخرة ، وكيف يكون مذموماً لذاته ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان ، وهو تعالى ينهى عن الاسراف والتبذير في إنفاقه ، كما ينهى عن البخل به ، وقد امتن على قبيه بأنه وجده عاثلاً ، أي فقيراً فأغناه ، وجعل المال قواماً للام ، ومعزراً للمدين ، ووسيلة لاقامة ركنتين من أركانها « ومن أعظم أسباب التقرب إليه تعالى وفي الحديث الشريف : (إن الله يحب البذل التي الغني الخفي) رواه مسلم في صحيحه ، فليس المال مقبوماً لذاته في دين الله ، ولا ميفضاً عنده تعالى على الاطلاق ، كيف وقد شرع لنا الكسب الحلال ، وهدانا إلى حفظ المال ، وعدم تضييعه ، وناهيك بآية المدين التي ذكر الله فيها تسع مؤكّدات ، وفيها خمسة عشر نهياً وأمرأ ، وقد أرشدنا تعالى إلى اختيار الطرف النافعة في إنفاقه ، أن نستعمل عقولنا في تعرقها ، ونوجه إرادتنا إلى العمل بخير مانعونه منها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَوَحُّتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (٤ : ٥) أي تقوم وتثبت بها منافعكم ومصلحكم ، وفي الحديث الشريف : (نعيم المال الصالح للرجاء الصالح) ، رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح .

فماذا جرى لتأخّر المسلمين بعد هزقه الوصايا والحكم ، حتى صرنا أفقر

الأمم ؟ وماذا جرى لتلك الأمم التي يقول كتابها الديني : (الحق أقول لكم : إنه يعسر دخول غني إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله) (مت ١٩ : ٢٣ و ٢٤) ويقول : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويجب الآخر ، أو يلزم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون) (مت ٦ : ٢٤ و ٢٥) ، ويقول : (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً ، لأن الفاعل مستحق طعامه) (مت ١٠ : ٩ و ١٠) ، ويقول : (تأملوا الغربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد ، وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يقيتها ، كم أنتم بالحري أفضل من الطيور ؟ . . فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا . . . بل اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزداد لكم) (لو ١٢ : ٢٢-٣١) .

فماذا جرى للامة ذات هذه الأقوال ؟ . ماذا جرى لها في دينها ؟ حتى صارت أبرع الخلق في فتون جمع الثروة ، وسادت بالغنى جميع أمم الأرض ؟ وكيف جاز أن يسمى مانحن عليه (مدنية إسلامية) مع مخالفتنا للقرآن والحديث في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية ؟ وكيف جاز أن تسمى مدنيته (مدنية مسيحية) مع مخالفتها لتعاليم دينهم من المبالغة في الزهد وبغض المال ؟

والجواب عن ذلك واضح ، وهو انهم نبذوا تعاليم كتابهم وأخذوا بما في كتابنا ، كما أننا بالعكس تركنا تعاليم كتابنا وأخذنا بما في كتابهم ، وقد أثرت علينا تأثيراً سيئاً أقوال الجاهلين ، الذين لبسوا علينا بلباس الصالحين ، فنفتوا في الامة سموم المبالغة في التزهيد والاتكال ، والحث على إنفاق كسب الكاسيين عليهم ، وهم كسالى لا يكسبون ، لزعمهم أنهم يحب الله مشغولون !!

وذموا لتسا الدنيا وهم يرضعونها أفأويق حتى ماتدر لها ثمل

صار هذا ، حتى صار من المعروف المقرر ، عند جميع شعوب المسلمين ،
إدارة المال والرزق على علماء الدين ، وشيوخ الطريق الصالحين ، فهم يأكلون
مال الأمة يدينهم ، وإن ورد في حديث الصحيحين : « اليد العليا خير من اليد
السفلى !! » .

هذا هو الذي تيسر لنا في هذه الوقفة والله تعالى أعلم .
(لافض فوك)

« قال اجعلني على خزائن الارض ... »

— ٩ —

واختتم البحث في تفسير هذه الآية الشيخ الصنعاني بالتعليقات التالية :

(أولاً - حدود تعاون المسلم مع غير المسلم)

تعلم من طلب يوسف عليه السلام من الملك الريان الوثني ، أن يجمعه على
خزائن ، ليخدم المصريين ومن جاورهم ، جواز التعاون على دفع الشر أو فعل
الخير مع غير المسلم ، أي يجوز للمسلم أن يطلب المساعدة من غير المسلم ويجوز للمسلم
أن يساعد غير المسلم ، وهل يوجد مجال للخلاف في الاستعانة بالكتابي أو الوثني أو
الملحد ، على إنقاذ الغريق وإطفاء الحريق وإقامة الحمل في الطريق ؟ كما أنه لا مجال
للخلاف في جواز إعانة المسلم لغير المسلم وصلى الله على من قال : « في كل كبس
حرا صدقة » .

(ثانياً - خضوع المسلم لغير المسلم)

لا يبيح دين الاسلام للمسلم أن يكون تحت رعاية غير المسلم في غير ضرورة ،

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٥٨:٤) ، فهذه الآية تفيد أنه لا يجوز لنا الخضوع لغير المسلم ، وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١٤٠:٤) ، والمراد كما هو مقتضى الآية وروح سبكها أن الله تعالى لن يجعل من أحكامه الشرعية السبوية ما يبيح للمؤمنين أن يخضعوا لأحكام الكافرين ، ويستكينوا لسلطانهم وسيطرتهم ، فإن قبلوا أحكامهم ، ورضوا بسلطانهم ، فإنهم إذن هم الذين جعلوا للكافرين سبيلاً على أنفسهم ، خلافاً لشريعة الله تعالى : هذا هو الحكم عندنا في دين القرآن وسياسته ، ولكنه مقيد بحالة الاختيار ، وأما في حالة الاضطرار فهو جائز .

إذا علمت هذا فلعل يوسف الصديق عليه السلام رأي نفسه مضطراً أن يكون تحت سيطرة غير المؤمنين ، لأنه كيفما مكث في مصر ، سواء كواحد من الرعية ، أو على خزائن الأرض ، فهو على كل حال تحت سيطرة مليك مصر الوثني ، ثم لو أراد الرجوع لفلسطين ، فسيكون أيضاً تحت حكومة « أبيالك » ملك فلسطين الوثني ، وإذا أراد الرحلة لدمشق ، لزم كذلك أن يكون خاضعاً لحاكمها الوثني ، وهكذا الحال في العراق ، بلاد الصابئة ، فيوسف الصديق على كل حال وفي أي بلد لا بد له أن يخضع لحكومة وثنية ، كل الجالسين على كراسيها وثنيون ، لكنه إن تغلب باقتداره أن يكون حائزاً على كرسي فيها يكون قد خفف شيئاً من وطأة المشركين ، وشغل كرسيّاً من كراسيها برجل مسلم موحد ، هذا هو الجواب عن خدمة يوسف عليه السلام لتلك الحكومة الوثنية ، ثم ربما كان هذا جائزاً في شريعة العبرانيين الإبراهيمية ، وكفى بإقدامه على ذلك برهاناً على جوازه ، والله أعلم .

(جيد)

(ثالثاً - مقالة المؤمن لغير المؤمن)

لو سأل سائل : كيف يجوز ليوسف المؤمن أن يكون تحت سلطة « الريان »

بحيث يكون موالياً له ، وهو وثني ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (٣ : ٣٨) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ (٥ : ٥٠) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ، أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ .. ﴾ الخ (٦٠ : ٩) ، فان هذه الآيات ، تشترك في النهي عن موالاة الكافرين ، وتدل على أنه لا يجوز للمسلمين أن يتفقوا مع غيرهم ، ولا يوادوهم ، ولا يوالوهم ، وقال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ (٥٨ : ٢٢) .

فمنجيبه عن ذلك : أما عن الآية الأولى ، فإن الاتفاق إذا كان لمصلحة المسلم فهو جائز ؛ فقد كان النبي ﷺ حالف « خزاعة » وهم على شركهم ، كما أنه عليه الصلاة والسلام ، لما رجع من الطائف لم تمكنه قريش من دخول مكة ، لما علموه من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم ، فأرسل عليه السلام الى « المطعم بن عدي » يخبره انه سيدخل مكة في جواره ، فأجابه الى ذلك ، ودخل مكة في جوار « المطعم » وهو مشرك ، فاذا جاز هذا للنبي ﷺ ، جاز بالأولى ليوسف عليه السلام أن يكون من وزراء « الريان » المشرك ، وعن « قتادة » هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الانسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البعثة ويرونه ، واذا علم نبي أو عالم انه لا سبيل الى الحكم بأمر الله ورفع الظلم الا بتسكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به ، وقد صح في الحديث أن كعب بن بجرّة (ض) كان يخدم عند يهودي مستقيماً كل دلو بتمرة ، وكان ذلك باطلاع النبي ﷺ واققراره .

وعلى ذلك يكون معنى الآية الأولى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء تقدم فيه مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين ، « والاتخاذ » يفيد معنى الاصطناع ، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين ؛ وبعبارة أخرى : هذا « اتخاذ » لا يحرم الا إذا كان ضد المؤمنين ، كما قال : « من دون المؤمنين » .

وأما عن الآية الثانية ، فالمحرم إنما هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من حيث هم يهود ونصارى ، أي ولاية دينية ، وأما صحبتهم لأموال دنيوية معاشية ، فلا مانع منها .

وأما عن الآية الثالثة ، فالموادة مشاركة في الاعمال ، فان كانت في شأن من شؤون الدين ، فيه خذلان له ولاهله ، أو إضاعة لمصالحهم ، فهو حرام ، وليس هذا المعنى موجوداً ههنا ، وأما إن كان في شأن من شؤون التجارة والمناسب وغيرها من المعاملات الدنيوية ، فلا تدخل في ذلك النفي ، لأنها ليست معاملة في محادة الله ورسوله ، وأيضاً فهذه الآية ، إنما تفيد النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله ، وإلقاء المودة إليهم بكونهم كفروا كفراً حليماً على إخراج الرسول والمؤمنين من وطنهم ، لأنهم مؤمنون بالله ، وأما هنا ، فالأمر بالعكس ، فإن الريان بدلاً من أن يخرج يوسف من مصر ، فقد قرب به إليه ، ثم سمح بمجيء أهله جميعاً من فلسطين وسكناهم في مصر في الشرقية .

وحجبتنا على صحة هذا التأويل ، ورائدنا في هذا الموضوع ، قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً ، والله قديرٌ ، والله غفورٌ رحيمٌ ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المتقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على

إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿٦٠: ٧-٩﴾
فالقرآن الكريم يرجو تجديد المودة بين المؤمنين والمشركين ، ولا ينهي عن البر
والقسط إلى المشركين الذين لم يقاتلوا المؤمنين ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ونراه
أخيراً يؤكد حصر النهي في الذين حاربوهم حرباً دينية ، وأبعدوهم من ديارهم ،
وساعدوا على إبعادهم عنها ، ومع كل ذلك نراه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم ،
لأبجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل !! فماذا على يوسف عليه
السلام من اتفاه مع الريان للمصلحة ؟ وماذا عليه من صحبته له لامور دنيوية
معاشية ؟ وماذا عليه من موادته له إذا أخرجه من سجنه وقربه لديه ؟ وماذا عليه
في بره وإقساطه اليه ؟ اللهم إن هذا كله جائز لآخرج فيه .

(رابعاً - ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته)

الفريدة الثانية — إنه لامر معلوم أن يوسف عليه السلام لم يكن له سابقة
خدمة في دار الحكومة ، وإنه لامر معلوم أن يوسف غريب الدار ليس وطنياً ،
وقد كان عبداً مملوكاً عند « فوطيفار » ، وقد اعتقل لآتهامه بجريرة سافلة ،
فارتقاؤه لمنصب « وزارة المال » و « عزيزاً » لمصر ، مع هذه الاحوال التي أحاطت
به يعد من المدهشات ، وقد يسمون هذا النوع فلتة من فلتات الطبيعة . أو أعجوبة
من أعاجيب الأيام ، أو شاذة من شواذ القاعدة ، ولكننا نحن لانسميه بشيء من
هذا القبيل ، بل ندعوه قضاء وقدر ، أو نتيجة إرادة سماوية قاهرة ، وقدره
الهيبة باهرة ، تغليبان كل الازادات والقدر ، ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ،
لأننا أمره لشيء إذا أراد أن يقول له « كن » فيكون ، فالله الذي أَسجد له
كواكب السماء ، وأوحى اليه في أخرج الاحوال انه سينبئ إخوته بها فعلموه معه
والله الذي سخر له التجارة ليخرجوه من الحب ، والله الغالب على أمره ، والله

الذي لا بلغ أشده آتاه حكماً وعلماً ، والله الذي خلق له من عدوه « زليخا ، ولياً
مزكياً مدافعاً ، والله الذي سخر له قلب ملك مصر ، فطلب الإتيان به من
محبته ليستخلصه لنفسه ، هو الذي منّ عليه بهذا المنصب الكبير ، وأقدره أن
يدبره بأحسن تدبير .

هذا ما ينبغي أن يذكر عند الكلام على هذه الآية ، ويذكر فريق من
المفسرين ههنا ما يعد هو وأمثاله من أسباب الجود في الاسلام ، وموطن الضعف
والخمول في معظم الشرقيين .
(لافض فوك ياأستاذ)

تمكين يوسف عليه السلام

آ (٥٦) ﴿... وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ،
يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يُشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والخمسون فقام الاستاذ السلفي
البريدي^(١) وقال :

يقول الله تعالى في حق يوسف (م) : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين
الظاهر ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ﴾ جميع ﴿ الْأَرْضِ ﴾ التي كانت مستعمرة ومملوكة
للحكوس ، من أصل المملكة المصرية ، وذلك هو « الوجه البحري » وجزء من
« الوجه القبلي » الى منتهى بلاد « الشرقية » ، فيوسف تمكن في هذه الارض ،

(١) نسية الى بلدة بريدة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية .

وكان النجاح في أعماله ألصق به من ظله ، وأسرع اليه من الماء الى منحدره ، وكان هذا التمكين عاماً بحيث ﴿ يقبوا منها ﴾ بعد الحبس والضيق والإسار ، أو بعد أن كان لا يتصرف إلا في أرض سيده بوطيقار خاصة ﴿ حيث يشاء ﴾ ، أي كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبوءاً لم يمنع منه ، لاستيلائه على جميعها، ودخوله تحت نفوذه وقهره ، فكان هو الكل في الكل ، وهو الأمر الناهي ، في كافة مرافق الحياة ، وكان هذا هو عصره الذهبي الذي دام له لآخر حياته ، وعند ذلك نسي يوسف فلسطين وأخوته ، ﴿ نصيب رحمتنا ﴾ بعطائنا في الدنيا من الملاك والوزارات والغنى وغير ذلك من النعم ﴿ من نشاء ﴾ جرياً على سنة (تنازع البقاء واختيار الأحسن) ، فدائرة رحمتنا مرنة ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، تسمع كل خلق بها ﴿ ولا نضيع ﴾ في الدنيا ﴿ أجر المحسنين ﴾ كيوسف ، فهو خليف بالأجر العظيم ، فتمكينا إياه ، وإصابتنا له بهذا النوع من الرحمة الخاصة ، هو بسبب إحسانه السابق ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية ، و (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ..) ، فنحن قطعياً لانضيع أجر أي محسن كان ، من السابقين الأولين ، واللاحقين الآخرين ، موقفنا واحد ، ووضعيتنا واحدة ، مع يوسف وغيره ، برناميج ثابت لحجزة كل محسن لا يتبدل ، ولن يتبدل .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ...)

— ٢ —

وقال الشيخ احمد من علماء الرياض (١):

نستخلص من هذه الآية الكريمة الجواهر التالية .

تمكين يوسف النخاس والعام

(١) — كان تمكين يوسف في الأرض ، ينمو شيئاً فشيئاً على حسب

(١) الرياض بلدة في مقاطعة نجد من المملكة العربية السعودية .

الطبيعة ، فكان أولاً تمكيناً خاصاً ، بزمن محدود وأمكنة محدودة ، وبالوكالة عن « العزيز » وهذا هو المذكور في قوله تعالى سابقاً : ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه ، عسى أن ينقنا أو نتخذة ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ولكن هذا التمكن عقبه اضطراب وتقلقل عندما حبس يوسف ، فلم يدم ، ثم لم يكن عاماً وواسعاً ، كما أنه لم يكن إلا مستعاراً من جاء العزيز ، لأن العوام يقولون : (نفَس العبد من نفَس سيده) وهذا كله بخلاف التمكين الثاني المذكور هنا في هذه الآية ، فإنه تمكين عام مطلق في جميع الأزمنة والأمكنة وبالاصالة ، فأما عمومه لجميع الأمكنة فلقوله تعالى : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ وأما كونه بالاصالة ، فلأن يوسف صار عزيزاً بمصر ووزير مالية فيها ، عوضاً عن فوطيفار ، وبهذا تعلمون أن لفظ « الارض » مرث كالمطاط يقبل التضيق والتوسعة ، فكلمة « الارض » في سابق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ (ع ٢١) ربما كان معناها أرض عزيز مصر ، وكلمة « الارض » في لاحق قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ (ع ٥٦) معناها عموم الارض الداخلة في المملكة الهكسوسية .

تقدير الملوك الاقدمين للناس بحسب مواهبهم

(٢) — تتعلم من هذه الآية ، أن الملوك الاقدمين — ومنهم الريان — كانوا يقدررون الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم ، لا بحسب أنسابهم وأموالهم ، وإلا فيوسف عليه السلام لا يزيد في نظرهم عن أنه عبد لفوطيفار ، اشتراه بديرام معدودة ، وأنه فتى غريب عامض النسب ، ليس وطنياً ، وأنه من بلاد تعد في نظرهم بادية ، وأنه ليس له سابقة في خدمة الحكومة ، ولكن رغباً عن ذلك كله ، عين وزير مالية بمصر وعزيزاً لها ووكيلاً عن مليكها .

تزكية انتصار يوسف

٣ - نحن نعلم أن يوسف عليه السلام بخروجه من السجن كان قد انتصراقتصاراً باهرأً ، واليوم جاء جلوسه على كرسي الوزارة تزكية لهذا الانتصار ومنتأ له .

كيف ان افبار يوسف لم نصل لآيه

٤ - إن قال قائل ، أو سأل سائل : لاريب أن يعقوب عليه السلام كان من الأنبياء المشهورين ، وكذلك كان أبوه إسحاق ، وجده إبراهيم ، وعم أبيه إسماعيل ، وابن عم جده لوط ، وعليه فيعقوب عليه السلام ، من أصحاب الصور البارزة ، وحائز على الشهرة الشخصية والعائلية ، ولا بد أن هذه الشهرة لما تجلت في « العراق » و « سورية » و « فلسطين » ، كانت أيضاً فيما جاور فلسطين من الديار المصرية ، كما أنه قد اشتهر في أهل مصر ، وجميع مملكتها أن « الريان » ابن الوليد أسند مأمورية « خزائن الأرض » لعبد عبراني فلسطيني من سلالة يعقوب ابن اسحاق بن إبراهيم المشهورين بمصر كسواها ، وأن ذلك العبد صار « عزيز مصر » و « وكيلاً » عن مليكها ، وقد فوض اليه أمور الخاصة والعامة ، فهذه الحقيقة الواقعة أصبحت أمراً مشهوراً معروفاً عند الخاص والعام . لا يقبل الخفاء والكتمان ، ولم يعرفه المصريون فقط ، بل والممالك المجاورة والبلاد المحاذية لمصر ، لاسيما فلسطين التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده وأنساله ، وإذا لم يكن هذا الحادث قد اشتهر وعرف عند أهل فلسطين قبل سنيّ الجوع ، فلا بد أن يكون قد عرف أيام سنيّ الجوع بسبب رود القوافل المتتارة ذهاباً وإياباً ، من فلسطين لمصر ، بل قد أثبت لنا التاريخ ، ان القوافل كانت تسير من فلسطين لمصر ، وأنه كانت التجارة مشهورة ومتبادلة بين البِلادين ، فاذا تقرر

هذا ، فكيف أن هذه الأخبار الشهيرة لم تصل ليعقوب عليه السلام وهو وعشيرته مشهورون بمصر ، وهم جيران مصر وعلى حدودها ؟ ؟ ؟ ! ! ! . . . قلنا : إن هذا السرّ آل عظيم ، وله شأنه عند المفكرين المستقلين ، ولكن يوجد قاعدة كونية عجيبة جداً ، ومسألة عند العموم ، وهي أن الخبر يصل إلى ظاهر أذن صاحبه ويقف ، ولا يدخل فيها ، وهذا مجرب ومعهود ، فكثيراً ما تحدث حوادث تكون معروفة عند الجمهور ، ولكن عند من لهم مساس وعلاقة بها هي غير معروفة ولا مسموعة ، بناء على هذه القاعدة الكونية المذكورة ، التي لم يوقف لليوم على علتها ، ولله تعالى في خلقه شؤون .

الانتصارات التي فاز بها يوسف

٥ - كان ما حصل ليوسف عليه السلام من قبيل انتصار العلم على الجهل - لأن يوسف بعلمه رقي للعلا ، خلافاً « للئلا » الذين بجهلهم سقطوا في هاوية الخذلان ومن قبيل انتصار الحياة على الموت - لان يوسف كان بذلك هو السبب الوحيد في استخلاص المصريين من الهلاك ، ومن قبيل انتصار التوحيد على التوثن - لان يوسف بواسطه ذلك حصل على قوة بها بلغ دينه ودين آبائه ، ومن قبيل انتصار العبد على السادة ، وانتصار الذكاء على البلادة ، وأخيراً من قبيل انتصار التدابير السماوية على التدابير الارضية .

الظهور به يوسف في مصر

٦ - قوله : ﴿ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ ، حيث فوض الامر اليه ، وأطلقت يده في مصر ، لان ملك مصر إذ ذاك - كباقي ملوكها - كان قليل الظهور للعامة ، إلا عند الاقتضاء ، إظهاراً لعظمة الملك ورهبة السلطان ، كما يزعمون .

أن « هرون الرشيد ، كان يجلس في الإيوان ، وفي وسطه ستر من الحرير الصيني معلق عرضاً بين الحائطين ، يحجب الخليفة عن يجالسه ، على العادة في مجالسة الملوك يومئذ ، إلا من اختار الملك تقديمه ورفع الستار بينه وبينه ، من أهله وخاصته (١) .

تمكين يوسف في مصر سبعين عاماً

٧- مكن الله ليوسف في الأرض بغير سلاح ولا كراع ، بحيث صار صاحب الحل والعقد ، والتقضى والإيرام ، لانه أصبح أعلى وزراء الملك رتبة ، وآثرهم عنده ، وأنفذهم في البلاط ، وأشدّهم سلطة في الديار المصرية ، كان هذا طيلة سبعين عاماً ، عاشها بعد الأربعين سنة التي أقت عليه مابقاً ، واجتاز فيها أزمان ، ومع هذا فقد كانت هذه الاتحاد وتلك الافراح ممزوجة بما يدعو له للأسف والقلق ، وهو براقه لايه وأخيه ووطنه ودويه ، فكان ذلك يعترض مابه من غبطة وسرور ، فالسعادة في الدنيا لا تتم لاحد ما ، ولا سعادة حقيقية تامة إلا في النشأة الآخرة .

حصن في أيام يوسف وبهره

(٨) — هذا التمكن وهذا التبوء العام في أرض مصر ، ودورها وقصورها — كان في ذلك العصر ، مما يليق أن يمتن به ، لاسيما على رجل كان بالامس في السجن ، وكان قبله من رعاة الغنم ومن سكان البوادي ، ولكن مصر فيما بعد صارت جزءاً من أملاك الخلافة الفاروقية ، ثم صارت جزءاً أصغر جداً من مملكة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ، وعن « الرشيد » أنه لما قرأ قوله تعالى : ﴿ ونادى فرعون ﴾

في قومه : قال يا قوم : أليس لي مُلكٌ مصرَ ، وهذه الأنهارُ تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ؟ ﴿ ٤٣ : ٥١ ﴾ قال — أي الرشيد — : « لأُؤَلِّينَهَا أَحْسَنَ عبيدي » ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر ، أنه وليها فخرج اليها ، فلما شارفها وقع عليها بصره ، قال : « أهى القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أليس لي ملك مصر ؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها » ، فثنى عنانه ورجع (كشف) .

رحمة الله واحسانه نصيان جميع من يستحقهما

(٩) — نصيب برحمتنا من نشاء ، ولو كان من الدهريين والماديين ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولو كانوا من الجاحدين والوثنيين ، لأن هذا إنما يكون في الدنيا فكل من أتقن عمله وأحسنه ، أصيب برحمة الله ، من الأرباح العظيمة ، وكل من أحسن عمله ، أخذ الأجرة من إقبال الناس على مصنوعاته ، وتوجههم على ما يصدر من معمله ، وكلما زاد إتقاناً وإحساناً ، زادت الناس فيه ثقة ، وزاد ربحه وشاع صيته ، وجُمِّلَ ذكره ؛ وإنا لنأسف إذا غض الجمهور من الشرقيين عن احسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم ومعاملهم ، حتى لو شرعوا في إحسان شيء في البدء ، لم يثبتوا على ذلك دواماً ، وتراهم بعد قليل من الزمن يغيرون مصنوعاتهم ويدخلون فيها العش ، فتتغير قلوب المشتريين عنهم وينفرون منهم ويعاملون سواهم ، ومع الأسف إنا نرى الذين فازوا بذلك هم الغربيون ، وفى الله بعدله للشرقيين حظهم من التأخر ، وفى الله بفضله للغربيين حظهم من التقدم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم ، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

ملاحظة : هنا قال الرئيس الفلسطيني : « قد سمعتم أيها السادة ما فاه به أخونا

الشيخ الرياضي ، وأما الحقير فليست أريد أن اعلق عليه شيئاً ، لأتقن لم أكون حتى هذه الساعة رأيي الشخصي في هذا الموضوع .

ثم تابع الشيخ الرياضي كلامه في انعام الجواهر :

أجر المحسنين في الدنيا

(١٠) — لانضيق في الدنيا أجر المحسنين ، الذين يقصدون بعملهم وجه الله والذمة والضير ، لأن الذي ينتهي الآخرة لا بقوته حظ الدنيا ، وان مثله مثل الزارع الذي يئذر جبه في الأرض ، ويمررها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثم هي لاحالة ثابت فيها ألوان العشب مع ناضر الزرع .

امسان يوسف الذي استحق له التمكين والنبوة في الارض

(١١) — إن قال قائل : ماهذا الإحسان الذي عمله يوسف حتى استحق أن يمكن في الأرض بحيث بتيوا منها حيث يشاء ، قلنا إنما نعلم منه إباءه عن موالة تلك المرأة الساقطة ، وحفظه لمروء سيدة معه ، وقيامه بالدعوة إلى التوحيد ، وهو في سجنه ، إلى غير ذلك من أنواع إحساناته التي بعلمها الله تعالى ، وسيثيبه عليها في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

مبدأ نيارل الارسان

(١٢) — نتعلم من هذه الكلمة الفاظة الجامعة (لانضيق أجر المحسنين) أن مبدأ التبادل مرعي شرعاً ، فقد أمرنا الله بالصلاة والصوم والزكاة ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة ، وقال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

ونتعلم من هذه الآية الشريفة أيضاً أن الله تعالى يثيب العبد على صالح عمله في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأنه تعالى جعل تمكينه ليوسف في الأرض من ثوابه إياه

في الدنيا على إحسانه ، ثم الثواب التام يكون في الدار الخالدة كما قال تعالى :
﴿ ولأجر الآخرة خير ... ﴾ الخ

اجر المحسنين في الدنيا والآخرة

(١٣) — ولانضيق أجر المحسنين ، لافي الدنيا ولا في الآخرة ، لأن كلام الله تعالى ههنا مطلق ، ولكن الأجر في الدنيا إضافي مطرد في الاعم ، إضافي غير مطرد في الافراد ، وأما في الآخرة فالأجر حقيقي مطرد للجميع ، ؛ ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل ، أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ (٤٧:٢١) و ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٨٩:٩٩) وهذا هو الدستور وكل ما أومخ خلفه مؤول .

صد الملك الريان يوسف

(١٤) — لابد أنه كان بين يوسف وبين الملك الريان ، مالم يكن بين مليك ووزير ، كان ذلك على تفاوت بينهما في المذهب ، فقد كان الريان وثنيّاً ، وكان يوسف بالطبع موحداً ، كما أن بينهما اختلافاً في الشعب ، فقد كان الريان عملياً عربياً ، وكان يوسف عبرانياً إسرائيلياً ، وليس هذا بنادر في نوعه ، فإننا نتذكر من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، منها صحبة الكُعميت للطّرّاح ، وإخلاص أحدهما للآخر ، مع أن الكُعميت كان متشيعاً لبني هاشم ومضرباً ، وأما الطرماح فكان خارجياً متعصباً لاهل الشام وقحطانياً ، ولكن ذلك لم يمنع صداقة كل الآخر ، وربما كان الجامع بينهما صنعة الشعر ، كما أن الوظيفة هي التي جمعت بين الريان ويوسف ، زد علي ذلك أنها ساميان ، بخلاف المصريين فحاميون ولا تنس إحسان الريان ليوسف بتخليته من الحبس وتخليته بالمنصب العظيم ، ولذلك

ممكن يوسف مصر وهو مطمئن الخاطر ، قريب العين ، متشداً بلسان الحال :
وكل امرئ بولي الجميل حبيب وكل مكان يقين العز طيب

اجر الدنيا واجر الآخرة

آ (٥٧) ﴿ وَلَا يُجْرُ إِلَّا خِرَةٌ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

ت الجلسة وتليت الآية السابعة والخمسون فقام الامتاذ السلفي العنيزي (١) وقال : يقوله الله تعالى عز وجل :

﴿ وَلَا يُجْرُ إِلَّا خِرَةٌ خَيْرٌ ﴾ بكثير جداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾
كيوسف وأشباهه ، فيوسف مأجور قطعاً في الدنيا والآخرة ، والمؤمن يثاب
على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يعجل له الحـير في الدنيا ، وماله في
الآخرة من خلاق ، فقوله بيا مر : ﴿ قَصِيبٌ يَرْجَمُ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أي في الدنيا —
هو حكم عام ، يشمل المؤمن وغيره ، ويم التقي والتقي ، بدليل التخصيص بقوله :
﴿ وَلَا يُجْرُ إِلَّا خِرَةٌ ﴾ . الخ قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا
مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ، وَمَنْ أَرَادَ
الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَأُولَئِكَ كَانَ مَعَهُمُ
مَشْكُوراً ، كَلَّا نَعِدُّ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ
مَحْظُوراً ، افظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللاخرة أكبر درجاتٍ
وأكبر تفضيلاً ﴾ (١٧ : ١٨ — ٢١) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ

(١) قسمة الى عنبرة بلدة في مقاطعة نخد من المملكة العربية السعودية .

الدنيا ثَوْرَتُهُ منها ، وَمِنْ 'يُرَدُّ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ثَوْرَتُهُ مِنْهَا ، وَسَتَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿ (٣ : ١٤٥) ، أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا ، وَلَوْ كَانَتْ كَنْزُورٌ «قَارُونَ» ^(١) وَصَنَادِيقُ «رُوكْفَلَر» ^(٢) وَخَزَائِنُ «رُوتَشْلِيد» ^(٣) ، وَالْآنَ لَنَا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ التَّعْلِيلَاتُ الْآتِيَةُ :

الآخرة لغة واصطلاحاً

التعليق الأول — الآخرة آخرتان ، الآخرة المعروفة المقابلة للدنيا ، وهي المعبّر عنها باسم «يوم القيامة» و«يوم الدين» ونحوهما ، والآخرة بمعنى المدة الأخيرة من عمر الإنسان في الدنيا ، وهي التي ربما يعبر عنها بلفظ «العاقبة» ونحوه ، وعلى كل حال ، فالآخرة بقسميها خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ، ومن المحتمل للمعنيين ما في مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَسَّتْ ؟ فَهُوَ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ (٥٣ : ٢٥) وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (٩٣ : ٤) ، قال «علي وفا» : (معناها وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة) ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ (٢٨ : ٧٠) وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (٧٩ : ٢٥) ، فهذه أمثلة يحتمل استعمال لفظ «الآخرة» فيها في المعنى اللغوي وفي المعنى الاصطلاحي ، وأما لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ (١٧ : ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ (٣٨ : ٧) فهو مستعمل في المعنى اللغوي قطعاً ، كما أن لفظ الآخرة في مثل قوله تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣ : ٢) ، هو مستعمل في المعنى الاصطلاحي قطعاً ، فتدبر ، فإن لكل مقام مقالاً .

(١) هو قورح التوراة (٢) اميركي اغني اغنياء العالم قاطبة (٣) من اغنياء اليهود .

ثواب الجنة جسماني وروحي

التعليق الثاني — دار الآخرة هي دار المثوبة والعقوبة ، فدار المثوبة الجنة ، ودار العقوبة النار ، وقد جعل في الجنة نوعان من الثواب ، نوع من اللذائذ الجسمانية كما قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ، قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢ : ٢٥) وقوع روعي ، وهو رضا الله والقرب منه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦ : ١٢٧) ويجمع النوعين قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣ : ١٥) وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٩ : ٧٣) .

مَنْزِلَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ

التعليق الثالث — هذه الآية جارية على قاعدة «تتازع البقاء واختيار الأحسن» في الآخرة ، كما في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فالؤمن التقي في الآخرة ، هو أسعد حظاً وأرقى نعيماً من حاله في الدنيا ، فمثلاً : يوسف الذي هو موضوع الحديث ، لئن كان قد تبوأ من خريطة مصر حيث شاء ، فلمعمرى سوف يتبوأ من خريطة الجنة أعظم وأعظم .

اجر الآخرة مادي وروحي

التعليق الرابع — تعليقاً على قوله ﴿ولا اجر الآخرة﴾ ، اجر الآخرة قسمان : مادي وروحي ، فأما المادي ، فهو معلوم وهو للعوام ، وأما الروحي فهو للخواص وسبحان من أشار اليه بقوله : ﴿وقال لهم خَزَنَتُنَا : سلامٌ عليكم ، طِبُّكُمْ ، فادخلوها خالدين﴾ (٧٣:٣٩) ، فالسلام ، أي الامن ، هو في نظر كل عاقل ، أقصى أمان المرء ، وأعظم الملاذ قاطبة ، وجل من قال : ﴿وَنَزَعْنَاهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إخواناً ، على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧:١٥) ، وأي رذيلة أخبث من الغل ، مصدر المحن والمصائب ، والتقم والآفات ؟ وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي ؟ وأي دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل الى الملاذ ، من شهر رمضان الذي تلجهم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقذع عن مأربها ، وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذلل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الاوطار والرغبات ، وسبحان من قال : ﴿وأما الذين ائبضت وجوههم ، ففي رحمة الله ، هم فيها خالدون﴾ (١٠٧:٣) .

اجر يوسف في الآخرة أجل مما كان له في الدنيا

التعليق الخامس — يخبر تعالى في هذه الآية ﴿ولا اجر الآخرة﴾ الخ أن ما ادخره لنبية يوسف عليه السلام في الدار الآخرة ، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، وهذا كقوله تعالى في شأن سليمان : ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإنَّ له عندنا لزُلْفَىٰ وحسناً مآباً﴾ (٤٠:٣٨) ، وكقوله تعالى في شأن المهاجرين الذين يصح أن يعد منهم يوسف : ﴿والذين هاجروا في الله مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي

الدنيا حسنة ، وَلَا تَجْرُ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ ، لو كانوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦ : ٤١﴾ .

الخلاص يكون بالإيمان والعمل الصالح

التعليق السادس — جمع في هذه الآية بين الإيمان والتقوى ، كما جمع في آيات كثيرة ، بين الإيمان وعمل الصالحات ، إشارة الى أن الانسان لا يخلص إلا بالإيمان والتقوى ، وبعبارة أخرى ، بالإيمان والعمل الصالح ، خلافاً لكتب النصارى ، ليس للأعمال فيها قيمة ، ولا أجرة مطلقاً ، قال بولس في رسالته الى أهل رومية : (أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة ، بل على سبيل دين ، وأما الذي لا يعمل ، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر ، فإيمانه يحسب له برّاً) (روم ١٤ : ٤ و ٥) ، والله يقول في القرآن المجيد : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ (على حُبِّهِ) ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُتَوَفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ (٢ : ١٧٧) .

واجتهد بولس في احباط الاعمال ، حيث ذكر أن أعمال الناموس تحت لعنة ، وأنه لا يتبرر أحد عند الله بالناموس ، وأن الناموس لا لزوم له ، بعد مجيء المسيح (غلاطية ٣ : ١٠ - ١٣) ، مع أن المسيح نفسه يقول : (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الانبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل) (مت ٥ : ١٧) ولكن المسيحيين عملوا بكلام بولس ، فتركوا التوراة وأحكامها بالمرة ، وقد أباح لهم الرسل جميع المحرمات ، ماعدا أربعة : الزنا والدم المسفوح والمخنوق والمذبوح للأصنام (أع ١٥ : ٢٨ و ٢٩) .

يوسف النبي والرسول

التعليق السابع — كان يوسف بمصر نبياً ورسولاً ، وكان أهل مصر كفاراً وثنيين ، ولكنه لم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الاسلام ، فإنه دعاهم الى التوحيد والایمان ، فلم يحييوه ، قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتكم ، لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، فيوسف بلغ الرسالة ، ولكن المصريين لم يؤمنوا به ، بل كانوا في شك مما جاءهم به ، ولكنه هو أدّى الامانة ، ونصح لله واتفق الله ما استطاع .

الجزاء يكون على الايمان والعمل معاً

التعليق الثامن — نعلم من قوله : ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ومن أمثاله مما لا يحصى قاعدة مهمة في الدين ، وهي أن الجزاء إنما يكون على الايمان والعمل معاً ، لأن الدين إيمان وعمل ، ومن الغرور أن يظن المنتهي لدين نبي من الانبياء أن يكون ناجياً بمجرد الاتماء ، ومما يشهد لذلك ما حكاه الله لنا عن بني اسرائيل من غرورهم بدينهم ، ومارد به عليهم ، حتى لا تتبع سنتهم فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : لن نتمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ ، — قل : اتخذتم عند الله عهداً ، فلن يخلف الله وعده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون ﴾ (٨٠-٨٢) ، وما حكاه عن اليهود والنصارى جميعاً وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ، — تلك أمانيتهم — قل : « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، بلى من أسلم وجهه لله — وهو محسن —

فله أجره عتد ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٢: ١١١ و ١١٢﴾ ، من هذه التصوص نلمح أن العجاة في الآخرة والسعادة الابدية فيها . إنما تكون بالإيمان والتقوى ، لا بالإيمان وحده ، خلافاً « للمرجئة » ، في قولهم بكفاية الإيمان ، بدون أعمال ، سمو بذلك ، لانهم أرجأوا العمل ، أي آخروه قالوا : لا يضر مع الإيها معصية ، وخلافاً للنصارى ، في اكتفائهم بالإيمان بالآب والفداء .

استطواد :

وعقيدة الصلب والفداء وثنية محضة سرت للنصارى من الوثنيين ، كما بينه علماء أوروبا الأحرار ، بل ومؤرخوهم ، بل وعلماء الآثار والماديات منهم في كتبهم .

قال « دوان » : « إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم » وذكر الشواهد على ذلك ، منها قوله : « يعتقد الهنود أن « كرشنا » المولود البكر الذي هو نفس الإله « فشنو » ، الذي لا يعتد له ولا انتهاء — على رأيهم — تحرك حنواً ، كي يخلص الأرض من ثقل حملها ، فأثاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه .. »

وقال « هوك » : « يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة ، وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس عن الخطيئة » .

وقال القس « جورج كوكس » في سياق الكلام عن الهنود : « ويصفون « كرشنا » باليطل الوديع المملوء لاهوتاً ، لانه قدم شخصه ذبيحة » . وقال « هيجن » عن « أقدر » الذي يعبده سكان التيبال والتيت : « انه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير ، لكي يخلص البشر من ذنوبهم » ، والبوذيون يقولون في « بوذا » إنه مخلص

العالم ، وإنه إنسان كامل وإله كامل ، تجسد بالناسوت ، وقدم نفسه ذبيحة ، ليكفر ذنوب البشر ، ويخلصهم من ذنوبهم ، فلا يعاقبوا عليها .

بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم « ميل » في كتابه (تاريخ بوذا) ومنهم « هوك » في رحلته ، ومنهم « بولر » في كتابه (تاريخ الآداب السنسكريتية) ، والخلاصة إننا لا نعتقد أن خلاصنا يكون بواسطة إنسان ، ولكن بالإيمان والتقوى .

رد دعوى زواج يوسف بـزليخا بعد موت زوجها فوطيفار

التعليق التاسع — ذكر فريق حشوي من المفسرين أن « عزيز مصر » فوطيفار مات في تلك الليالي ، وأن ملك مصر « الريان » زوج « يوسف » « زليخا » امرأة ذلك العزيز فوطيفار ، وشاع عند القصاص أن « زليخا » عادت شابة بكرأ ، بعد ما كانت ثيباً غير شابة ، وهذا كما قال الآلوسي في تفسيره مما لا أصل له ، قال : (وخبر تزوجها أيضاً مما لا يعول عليه عند المحدثين) ، ونحن نزيد على ذلك أن نسبة يوسف عليه السلام للتزوج بهذه المرأة لا يليق ، لأنها وإن تكن ثابت وحسنت قوتها ، فقد كانت عزمت على السقوط ، وصحمت عليه ، ومعلوم أن زوجة كل رسول هي أم لافراد أمته ، كما قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ (٦: ٣٣) ، ولا يليق أن تكون هذه المرأة نصف الساقطة أما المصريين إذ ذاك ، والصحيح أن ملك مصر الريان كان قد زوج يوسف « أسنات » بنت « فوطي » فارع « كاهن « أون » ، ومعنى « أون » الشمس ، ولذلك سميت البلدة عند العبرانيين « بيت شمس » ، واليونانيون يدعونها « هليو بوليس » ، وأما « أسنات » لفظة مصرية معناها محبوبة « نات » ، ونات هذه إلهة الحكمة عند المصريين .

استطراد :

فان سأل سائل : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتزوج بامرأة وثنية

بنت كاهن وثني؛ فالجواب أنه يجوز أن تكون صارت من الموحدين إما قبل الزواج أو بعده بقليل، ويكون ذلك جائزاً عندهم. وذلك كما أن مسلمي الصين اليوم يتزوجون بالصينيات الوثنيات فلا يلبثن أن يسلمن عند أزواجهن، حتى أن ذلك صار أحد أسباب انتشار الإسلام في الصين، وقريب من هذا ما وقع قديماً أن إبراهيم عليه السلام كان تزوج بساراي وهي ابنة أبيه «تارح» المسمى في كتابنا الكريم «آزر»، فهي أخته من أبيه فقط، وليست أخته من أمه، ونارح أو آزر كان وثنياً فلا بد أن تكون بنته كانت في البدء كذلك، ولكن لما تزوجها إبراهيم صارت من أهل التوحيد كزوجها؛ ولنا أمثلة على ذلك كثيرة منها تزوج «لوط» عليه السلام بامرأة كافرة، وكذلك قبله نوح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوْحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ، كَاتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ، خَفَا مَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (٦٦ : ١٠)، ومنها تزوج إسحاق عليه السلام «برفقة» وهي بنت «يويثيل» الوثني، وتزوج يعقوب عليه السلام «ليئة» و«راحيل» وهما بنتا «لابان» وهو وثني، وكذا تزوج إسماعيل عليه السلام بامرأة من أرض مصر على ما في التوراة، أو بامرأة من جرم على ما في التاريخ العربي، وعلى كل فهي وثنية، والأمثلة من هذا القبيل كثيرة، فما جاز لهؤلاء فعله في شريعتهم يجوز ليوسف عليه السلام في شريعته.

وجواباً ثانياً — وهو أن المشركات اللاحقة حرم الله نكاحهن في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ (٢ : ٢٢١)، هن مشركات العرب فقط، وإن المصريين كالصابئين ووثنيي الهندوس والصين وأمثالهم كاليابانيين هم أهل كتب مشتملة على التوحيد، وأن كتبهم طراً عليها التحريف كما طراً على كتب اليهود والنصارى التي هي أحدث عهداً في التاريخ، وإن قوله

تعالى بعد بيان محرمات النكاح ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ (٢٤ : ٤) يفيد حل نكاح نسائهم ، فليس لاحد أن يجرمه الا بنص .

الفصل الثاني

سفرة اخوة يوسف الاولى لمصر

آ (٥٨) ﴿... وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ،
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والخمسون ، فقام الشيخ الزبيدي الصنعاني وقال :

تحقق تعبير يوسف لرؤيا الملك الريان ، بمجيء السنين السبع الخصبة ، ثم السنين السبع الأخرى المجذبة ، فحصل جوع وقحط لاميا في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين ، لعدم استعداد أهلها لمثل هذا اليوم ، وقد أصاب يعقوب وأولاده كما أصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود قمح في مصر ، فطلب من أولاده أن يذهبوا اليها للامتيار ، فبيأوا وراحلهم قاصدينها ، (وجاء إخوة يوسف) العشرة الى مصر ، فرأتهم العيون المرصدة من قبل يوسف بشكل وعدد يلقت النظر ، فأخذوهم الى يوسف في بلاطه (فدخلوا عليه) وهو جالس على عرشه ، فسلموا عليه ، (فعرفهم) بملاحمهم وكلامهم وأزيائهم (و) أما (هم) فلم يعرفوه إلا انه « العزيز » ، وأما من هو وما اسمه ومن أي عنصر فبقوا (له منكرون) .

(وجاء إخوة يوسف . . . الخ)

— ١ —

وقام الاستاذ بن نصيف أحد علماء بلدة جدة الأفاضل وقال :

عجيء اخوة يوسف لمصر للاختيار

جاءت سنو الخصب ، ثم تلتها سنو الجوع ، فأصاب أهل مصر وما جاورها من البلاد وخاصة فلسطين شظف وضيق ، وخشونة عيش ، وأنهم الجذب كوحش هائل ، فاغر فاه ، يتلقف ما قرب منه وما يعد ، فقال يعقوب لأولاده : « أبقوا على عيالكم وأولادكم ، ولا تحملوهم الى الفتاء ، فانه ليس من المروءة أن يرمي الإنسان بأهله في مهاوي الجوع ، بل يقيهم بسعيه ، ويدفع عنهم بجمده ، وإن السعي على العيال واجب ، فقوموا اسمعوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه التشور ، قوموا اضربوا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله »

وما طلب الميشة بالتمني	ولكن ألقِ دلوك في الدلاء
تجيء بلبثها طوراً وطوراً	تجيء بجمأة وقليل ماء
ولا تقعد كذي كسل وجبن	تحيّل على المقدر والقضاء
تعودك عن طلاب الرزق عجز	وعجز المرء أسباب البلاء

علم يعقوب عليه السلام أنه يوجد قمح في مصر ، فقال لبنيه : (لماذا تنظرون بعضهم الى بعض ؟ إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر ، انزلوا الى هناك ، واشتروا لنا ، لنحيا ولا نموت ، وإن ما عندنا من بقايا القوت يوشك أن يفنى ويبقى معدمين ، حتى ولو اقتصدنا ، بل ولو قترنا في تناوله ، فإن قلة الانفاق ، لا يمنع من سرعة التفاد ، فإن الكحل الذي لا يؤخذ منه إلا عيار الميل سريع فناؤه ، فكيف ونحن عشيرة كبيرة ، نحتاج كل يوم نحن ودوابنا الى قوت ليس بالقليل) .

وقد كان يعقوب عليه السلام ، وأولاده أفسسهم في حاجة الى الطعام ، في تلك الايام ، وقد ضعفت مواشيسهم من قلة المرعى ، وربما مات كثير منها ، وأخذ الموت يحرف كثيراً من الناس .

سمع أبناء يعقوب كلام آبسهم ، فقاموا وشرعوا في الرحلة ، ماعدا بنيامين ، فقد تخلف عنهم إذ لم يرسله أبوه معهم ، لأنه قال في نفسه : (أخشى أن يصيبه أذى) ثم ساروا ميممين الديار المصرية ، وقبيل ما وصلوا لمصر ، رأوا في ضواحيها من جهة طريقهم ، مضارب وخياماً منصوبة للمشارين القادرين ، وإيلاً وحيراً ، ما بين مربوطة وذاهبة لمصر فارغة ، وآية منها مثقلة بالميرة ، وصادفوا جلبية وازدحاماً ، ولم يزالوا كذلك حتى دخلوا مصر ، ما بين نهيق الحمير ، وجمير الابل ، يتخلل ذلك ضوضاء وصلصلة وقمقة ، إذ كان في مصر اجتماعات مدهشة من صنوف المتارين ، تعيد للاذهان ذكرى برج بابل ، أو تثل للانسان يوم المحشر .

وكان أبناء يعقوب حينما دخلوا مصر معمرين في جمهور كبير من المتارين ، لكن العيون المرصدة من قبل يوسف اقتحمت ذلك الجمع وتخطت الجمهور ، ولم تتناول إلا هؤلاء الاخوة ، فأخذوهم اليه في بلاطه ، فدخلوا عليه ، وهو في قصره يتأطح السحاب . جالس على عرشه ، وسلموا عليه سلام الامانة ، وتراموا بين قدميه ، وقد استوسق له كل ما أراد من سلطان ومراس ونفوذ كبير ، ومهابة عظيمة ، دخلوا عليه ، وهو في عنفوان دولته وشمخها ، وعزة ملكه وقبسا ، فتفرس فيهم ، فلم يكن إلا كالمح البصر ، حتى بصر بهم ، فعرفهم من بعد العهد ، عرفهم بلحاظهم ومشعور رؤوسهم حسب عوائد الفلسطينيين وخاصة العبرانيين ، عرفهم بملاحمهم وتكلمهم بالعبرانية ، عرفهم بلباس من نوع أزياء أهل فلسطين يمازجه شيء من هندام العراقيين ، عرفهم بحيث يقدر أن

يناديهم بأسمائهم ، ويخبرهم بأحوالهم ، التي غادرهم عليها منذ صغره ، عرفهم لأن صورهم كانت قد ارتسمت في « فِلْسَمِ » دماغه وهم كبار ، فلم يطرأ عليها تغير كثير ؛ وأماهم ، فلم يعرفوه إلا بأنه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » ، وأما من أي عنصر هو ، ومن أي عشيرة ، فلم ...

(وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ... الخ)

— ٢ —

وقال العلامة العَدَنِي ^(١) : نستفيد من هذه الآية الكريمة الفوائد التالية :

وصف منظر المتارين من الناس في مصر في زمن يوسف

الفائدة الأولى — جاء إخوة يوسف فإذا الناس من خواص العالم ، ورجالاتهم وعاشتهم في هرج ومرج ، يموج بعضهم في بعض كموج البحر ، قد تسربوا أزواجاً وأثلاثاً ، بين راكب وماش ، هذا يكال له ، وهذا يحمل الميرة ، يهرعون نحو الكياليين ، تتزاحم أقدامهم ، وتتراص صفوفهم ، ويندمج بعضهم في بعض ، الرجل يدفع الرجل ، والمرأة تدفع المرأة ، وهم أنواع شتى ، وأشكال متباينة ، ولغات مختلطة ، وأزياء مختلفة ، كار وفار ، داخل وخارج ، باك وضاحك ، منهم الشيوخ والمرمى ، ومنهم الشبية والفتيان ، وقد علا الضجيج حتي استكثت المسامع ، وتصاعد الغبار ، حتي حجب السماء ، يتواردون كوكبة بعد كوكبة ، وزرافة بعد زرافة ، ولا غرو فمصر بعناية يوسف وتدايره ، أصبحت الحرم الوحيد الذي تقصده أهالي البلاد المجاورة لها ، وهي القلب الذي تتدفق منه مادة الحياة الى جميع الأطراف ، وهي الموئل الذي يرجع اليه عند الشدة ، وأما إخوة

(١) سبة الى عدن ، فاعده شبه جزيرة عدن .

يوسف ، فدهشوا لهذا المنظر الرهيب ، فوقفوا هنيهة في وسط الساحة ، ريثما يقل المتزاحمون ، وهناك أخذوا فأدخلوا على يوسف ليشرح لهم على وثيقة الامتياز .

ترقب يوسف مجيء أخوته

الفائدة الثانية — لم يعجب يوسف لهذا المجيء ، لأنه كان يعرف أن هذا المجيء سيكون طبعاً ، وكان يعد له الأيام عدداً ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب ، إذ متى حصل الجذب والقحط في مصر حصل فيها يجاورها من البلاد ، التي منها بالأقرب فلسطين ، فتضطر إخوة يوسف للامتياز ، وقد وقع .

يوسف يشرع في تحقيق هدفه

الفائدة الثالثة — جاء إخوة يوسف فأشرح صدره ، وشعر أنه تقدم خطوة نحو الغرض الذي كان يتوخاه ويتوقعه ، وهو مجيء بنيامين لمصر ، وحظوته ببقاءه ، وقال في نفسه : « قد دنا وقت العمل » ، فلذلك سيأتي إنه عمل معهم الحيلة الأولى لرجوعهم بأخيه ، قائلاً في ضميره : متى رجعوا به ، أحتال لإبقائه عندي بحيلة أخرى ، أشدب بها شيئاً من كبريائهم ، ثم أسعى في مجيء والدي لمصر ، وهكذا سيتم له ما أراد .

ابتداء يوم يوسف

الفائدة الرابعة — من هنا يتبدى اليوم الذي ليوسف ، وينتهي بنهاية (ع ١٠١) بعد ما صبر على اليوم الذي عليه المذكور في (ع ١٥) ، فهو في هذه الحوادث كغيره ، يوم له ، ويوم عليه ، يوم له كان في بكرته ممزوجاً بشيء من الرحمة (ع ٥٨ — ٦٣) ، وكان وقت الظهيرة شديداً جداً (ع ٧٠ — ٧٩) ثم صار حين

الآصيل رحمة مطلقة (ع ٨٩ — ٩٣) ، وأما اليوم الذي عليه فكان لونا واحداً ، وهو لون القسوة .

حال اخوة يوسف بعد ما شردوه

الفائدة الخامسة — كان حصل ما حصل من إخوة يوسف مع يوسف منذ ٢٢ سنة ، فأما هم فبقوا ساكتين ساكتين بفلسطين عند أبيهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطانهم ، وأما يوسف عليه السلام فأقام بمصر ، في بيت العزيز ، ثم في السجن ، ثم في بلاط الملك ، ونامت تلك القضية ، التي كانت بين هؤلاء الاخوة ، نعم نامت ولكن بدون أن تنام تلك الاحقاد ، التي نشأت في الصدور ، بين الظالمين والمظلومين .

مجيء اخوة يوسف لمصر لان من أكبر المساعدات لتحقيق آماله

الفائدة السادسة — مجيء إخوة يوسف لمصر ، ومشولهم بين يديه وتمكنه منهم — يعد من أعظم متمات مجد يوسف وسروره ، ويعد من أكبر المساعدات لآماله ، جاء هذا الأمر عفواً صفوياً ، لم يعد اليه يدأ ، ولا تجشم فيه مشقة ، ولا خاض فيه غمرة .

الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين

الفائدة السابعة — تتعلم من هذه الآية ، ومن سابق قوله ﴿ وجاءت سيارة الخ ﴾ ومن لاحق قوله : ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أنه كان يوجد اتصال اقتصادي بين فلسطين ومصر .

اسباب عزم معرفة اخوة يوسف له عندما قابلوه

الفائدة الثامنة — لم يعرفوه لأسباب منها أولاً : بسد الشقة ، وطول مدة

الفرقة ، ومما دعا لعدم معرفتهم إياه بنوع خاص وجوده في البلاط ، في دست الوزارة المالية ، وانه عزيز مصر ، ووكيل مليكها .

ثانياً : الشوار الذي كان على لباسه ، وتكلمه معهم بالقبطية ، لأنها هي اللغة الرسمية ، وانه كان حليق الرأس والفرع واللحية ، لأن تلك الهيئة هي هيئة المصريين ، وهي عندهم هيئة العز والشرف ، وأما الذين يوفرون فروعهم ولحاهم فهم في نظر المصريين واصطلاحهم الأدنياء والأذلاء ، كما ثبت ذلك في التاريخ ، -وعلم من الرسوم المصرية .

ثالثاً : قد تغير اسمه في دار الحكومة وعند الاهالي بموجب إرادة سنية ، صدرت من البلاط ، لأن مليك مصر دعا يوسف « صفقات معني » ، وهما كلمتان مصريتان ، قال القانون كوك : معناهما « طعام الحياة » ، أو « قوت الاحياء » ، وفسرهما آخر « بمخلص العالم » ، والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علة قوت الاحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة الى زمن القحط .

رابعاً : كان قد تغيرت صورته ، لأن صورة الانسان وهو في سن الأربعين ، تبين صورته تمام المباينة وهو في سن ١٧ سنة ، إذ تكون قد تغيرت تقاطيعه ، واختلفت أوضاعه ، وتبدل فيه كل شيء ، حتى ملاحه وشمائله .

معنى نكر وأنكر

الفائدة التاسعة — نَكَرَ بالقلب وأنكَرَ بالعين (أساس) ، فاخوة يوسف لم يخافوا منه بقلوبهم ، ولم ينفروا منه حين رأوه ، ولكنهم لم يروه في الشكل المعروف لهم ، أو رأوا له حالاً وشكلاً خلاف حال السوقة من المصريين ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَاماً — قَالَ : سَلَامٌ ، قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (٥١ : ٢٤ و ٢٥) ،

وكما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ، قَالَ : إِنَّكُمْ قومٌ مُنْكَرُونَ ﴾ (١٥ : ٦١ و ٦٢) ، فمعنى قول ابراهيم وابن أخيه لوط « منكرون » لأنها لم يرفقا الملائكة في اول دخولهم عليها ، فمعنى « منكرون » مجهولون غير معروفين ، وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رُسُلُنَا اِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى ، قَالُوا : سَلَاماً — قَالَ : سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ... فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ فَنَكِرَهُمْ ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ (١١ : ٦٩ و ٧٠) ، فمعناه أن ابراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لم تأكل من طعامه ففر منهم بقلبه ، وخاف انهم يريدون به مكروهاً ، لأن عادة الشرقيين هكذا ، إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ، وإلاّ خافوه ، ولذلك حسن التعبير بكلمة « نكر » هذا ما تقرره بناء على ما ذكره الزحخشري في أساسه ، من التفرقة بين نكر وأنكر ولكنه في كشفه لم يفرق بينهما ، وأنشد قول الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي فكرت من الحوادث إلا الشئب والصلما

وما قاله في الأساس أدق ، وهو اصطلاح القرآن الكريم ، الذي أنزله الله حكماً عربياً ، وحكماً لغوياً .

سبب عدم اظهار يوسف نفسه لآخوته

القائدة العاشرة — لم يظهر يوسف نفسه لآخوته ، في هذه المرة من اللقاء ، خوفاً من حسدهم وإلحاقهم به الأضرار ، وأن يتقلبوا عثرة في سبيل تمكنه من منصبه الذي هو فيه لأنهم اذا كانوا قد حسدوه على مجرد حب أبيه له أكثر منهم ، فأخلق بهم أن يحسدوه ويضروه إذا رأوه قد تربح فوق دست وزارة المال بمصر ، وأنه قد صار عزيزها ووكيلاً مفوضاً عن مليكها ، وبما أنهم إخوانه ، فهم قديرون على ذلك ، إذ من ذا الذي يظن ان الاخوة العشرة من أبناء نبي الله وصفيه يعقوب ، من سلالة اسحق وذرية ابراهيم — يتألبون بالزور والبهتان على أخ منهم

وفيهم ... فلعمري إن طعنهم فيه قريب التصديق . فلذلك كان يوسف يخاف منهم ويتقي شرهم ، ويحسب لهم ألف حساب ، وهذا مادفعه الى التكتّم عنهم ، والعاقل لا يجد له أماناً من حاسديه ، أوثق من الذعر والتحفظ ، واتقاء قريتهم ، والتعرف اليهم ، والتحكك بهم ، ويحتمل انه لذلك العهد كان لا يزال متناظراً منهم وحاقداً عليهم .

داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً

الفائدة الحادية عشرة — لاريب أن يوسف عليه السلام كان قد أقام أناساً لبيع الحنطة يبيعون كما يأمرهم ، فكيف أتى إخوته رأساً إليه ؟ والجواب : إن علة ذلك كثرتهم ، لأنهم عشرة ، ومعهم عبيد وخدم ، فكانوا ممن ينظر اليهم بريية ، فلما دخلوا مصر ، رفع أمرهم الى حاكمها يوسف عليه السلام ، لينظر في أمرهم ، وقد كان المصريون يأتون من كل جماعة غريبة تدخل أرضهم ، ولا سيما الجماعات التي تدخلها من الحدود المصرية .

يوسف يجهرز اخوته بالميرة وبطلب منهم الوثبان بينياصين

آ (٥٩) * ... وَلَمَّا جَهَزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، وَقَالَ : أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . *

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والخمسون فقام الشيخ الحديدي

اليسني وقال :

أعطى إخوة يوسف ما يديهم من الفضة ، وكال لهم يوسف القمح ، كيلاً

طافاً زاحداً عن الحق الذي لهم ، ثم تجهيزاً لهم في إياهم أعطوا زاداً للطريق ، وأعطاهم كل ما يصلحهم ، من كل ما يحتاج اليه المسافرون ، قائلاً في نفسه : بعله الزرع يسقى القرع ، (ولما جهزهم بجهازهم) أي هياً لهم جهازهم ، وهو ما يحتاجون اليه في قطع المسافة ، من دقيق وسويق ، وسقاء وماء ، وعلف للدواب ، وكل ما يلزم لهم في الإياب ، (قال) خاة وبقتة ، بلا سابق مذاكرة : يا أبناء فلسطين لله أتم ، إني أقترح عليكم شيئاً واحداً (ائتوني) مرجعكم الي (بأخ لكم من أيكم) ، سمعتُ به ولم أره معكم في هذه الزيارة — قال ذلك جهرأ بحيث يسمعونهم ثم قال بعينه وبين نفسه : لأن « الشكلى تحب الشكلى » ، ثم رجع وقال مرغبا : [(ألا ترون) ناشدكم الله ، (أني أوفي الكيل) أي أكثره وأزيد به بحيث يطف الحب عن المكيال (وأنا خير المنزلين) من الباعة الكياليين ، الذين ينزلون الممتارين عندهم ، فهم لما يطونهم الحق فقط ، ثم لا يجهزونهم بشيء من لوازم السفر ، ولكني قمت بالفريضة والنافلة ، قمت بالواجب والمستحب ، قمت بما يلزم وما لا يلزم] ، وربما كان معنى (المنزلين) بمعنى المضيفين ، لأنه يقال : أنزله بمعنى أضافه ، والتزيل الضيف .

ألا ترون اني اوفي الكيل .. الخ

— ١ —

وقال قتي الدين العريشي (١) :

جود يوسف على اخوته وبعض الامثلة المشابهة في التاريخ

إذا لاحظنا أن الوقت في مصر وما حولها من البلدان كان وقت جذب وغلاء وأن يوسف عليه السلام جهز إخوته بجهازهم جوداً منه وكرماً ، وأوفى لهم

(١) نسبة الى بلدة العريش من فلسطين .

الكيل وزاده عن الواجب ، ثم جعل بضاعتهم في رحلهم ، فلا ريب أن يكون خير الباعة الذين ينزلون المتارين عندهم ، فيبيعونهم بالثمن ، مقتصرين على حقهم فقط ، لا يزيدونهم عليه شيئاً ، لاسيما إذا لاحظنا أنه عمل هذا العمل مع قوم كرهوه وحسدوه وشردوه ، وإن هذا الجود الذي جاد به يوسف على إخوته ، أقصى ما يمكن أن يجريه « وزير مالية أمين » مع من أراد أن يحاييه من المتارين .
ويجمل بنا بهذه المناسبة أن نسوق للقرآن بعض الأمثلة التي وقعت من الأجواد فنقول :

١ — وقع قحط في عهد « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه ، فقيل له : « إن الناس في شدة » — فقال : « إنكم لاتمسون حتى يفرج الله عنكم » ، فلما كان آخر النهار ، جاءت عير محملة « لعثان ابن عفان » رضي الله عنه ، من الشام ، فخاء التجار وقالوا : « إن الناس في شدة قحط ، وقد قدم عليك مائة راحلة من البر ، فبعنا إياها » — قال : « كم تربحوني ؟ » — قالوا : « تجعل ربح العشرة درهمين » — قال « زادوني أكثر من ذلك » — قالوا : « تربحك أربعة » — قال : « زادوني أكثر من ذلك » — قالوا : « نحن تجار المدينة ، فمن زادك ؟ » — قال « إن الله زادني بكل درهم عشرة » قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (٦ : ١٦٠) ، أشهدكم إنها صدقة للمسلمين !!! .

٢ — في غزوة اليرموك ، عند المزيب ، في خلافة عمر رضي الله عنه ، قصد بعض الصحابة ابن عم له جريح طريح بشربة ماء ، فلما وصل إليه ، سمع شخصاً جريحاً يشكو عطشاً ، فأشار إليه : أن اسقه ، فجاء فسمع آخر يشكو عطشاً ، فأشار إليه : أن اسقه ، فجاء فوجده قدمات ، فرجع الى الثاني فراه كذلك ثم أتى ابن عمه ، فراه كذلك قدمات !!!

٣ — كان « لطلحة الخير ، رضي الله عنه مال ، أربعائة الف ، فتصدق به على المسلمين .

(٤) — وردت قافلة بتجارة من الشام « لبيد الرحمن بن عوف » رضي الله عنه فحملها وقال : « من كان من أصحاب بدر ، فله علي أربعائة دينار » ، واتفق أن أعتق ثلاثين ألف رقبة ، وأوصى بمديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعائة الف .

(٥) — أنفق « أبو بكر » رضي الله عنه ، أربعين ألف دينار ، كما رواه ابن عساكر في تاريخه ، وقيل : كانت ثروته أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً ، معونة لرسول الله ﷺ .

(٦) — « زيدة » امرأة هرون الرشيد ، أنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والفتاطر ما لم يتفق أحد من قبلها ، فمن ذلك ما أنفقت في حفرها للعين المعروفة « بعين زيدة » بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لها في كل ربع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً ، فأحصي ما أنفقت فيها ، فوجد الف الف وسبعائة الف دينار . وفي كتب التاريخ عدا ما ذكرنا أمثلة كثيرة من أخيار أهل الجود .

(ولما جهزهم بجهازهم . قال التوفي .. الخ الآية)

— ١ —

وقام نوو الهدى الصيداوي^(١) : لنا ههنا تلمات لشرح هذه الآية :

معنى الجہاز

١ — قوله ﴿ ولما جهزهم الخ الآية ﴾ ، لا بد له من مقدمة قولية تقديرها :

(١) نسبة الى صيدا من بلاد الشام (لبنان)

إنه كال لهم فأوفى ، وأنزلهم خير منزل ، وجيزهم بكل معدات السفر ، ولما
جهزهم .. الخ ، وجهاز الميت والعروس والمسافر بالفتح على الأفصح ما يحتاجون
اليه ، وقد جهزه تجهيزاً فتجّهز ، والجمع أجهزة ، وتجهزت للأمر تهيأت له ، قال
عمر بن عبد العزيز :

تجهزي بجهاز تبلغين به يا نفس قبل الردى ، لم تخلقي عبثاً

اشارة رمزية من يوسف لايه يعقوب عليها السلام

٢- قوله : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ هذا النوع من التعبير يفيد
أنه لم يسبق « لبنيامين » ذكر بين يوسف وبين إخوته مطلقاً ، وإلا لقال :
« ائتوني بأخيكم من أبيكم » كما أن جملة : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » متى نقلت
لأبيهم ، أوقعته في استغراب ، وأذهبت نفسه كل مذهب ممكن ، وجعلته يظن أنه
لهذا الرجل المصري المحمول على خزائن أرض مصر مغزى في هذا الطلب ، وإلا
فمن عرفه أن لهم أحاً من أبيهم ؟ وماهي علاقته به ؟ وألا يكفي انه عرف عشرة
من أولاد يعقوب ؟ فهل من الضروري أن يتعرف للحادي عشر ؟ وماهي الأسباب
التي تدفعه لهذا الطلب ، وماهي هذه الأهمية ياترى ؟ وماالمناسبة بين « عزيز مصر »
وبين « بنيامين » ؟ ومافائدة العزيز من محبي بنيامين ؟!

كل هذه الأسئلة لابد أن ترد على ذهن يعقوب ، ولابد أن يستنتج منها احتمال
أن هذا الرجل صاحب هذا الطلب ، هو على الأقل يعرف يعقوب ، ويعرف أن
له ولداً غير هؤلاء العشرة ، وأنه أخوهم من أبيهم . ويستنتج أن هذا الرجل
صاحب هذا الطلب ، ذو علاقة خصوصية ببنيامين دون سواه ، وعليه فلا بد أن
يعقوب يقول في نفسه حينئذ : « إن في الأمر لسراً » ، وبالنتيجة ، كأنني يعقوب
عليه السلام قد قام عنده احتمال ان هذا المتكلم بهذا الكلام ، الطالب هذا الطلب ،
إما أن يكون يوسف ، أو رجلاً يعرف يوسف وله به علاقة ، ولذلك سيأتي له

أن يقول لأولاده : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ ، فلكأنى به أنه ظن أن يوسف بمصر ، وعلى هذا فما كان هذه الجملة ، إلا برقية شفرة من يوسف لأبيه ، أو لغز لا يحله إلا يعقوب ، أو إشارة رمزية ، وكل ليب بالاشارة يفهم ،

هذا ما يجب أن تحمل عليه الآية الكريمة ، وأما من حملها من المفسرين على غير ما ذكرنا فهو كمن يقول بأن الأتف مجعول لمضغ الطعام ، والأذن للشم ، والعين للسمع .

ويمكننا أن نقول أيضاً أن تجهيز يوسف إخوته بما يلزم لهم في سفرهم ، وطلبه منهم الإتيان بأخ لهم من أبيهم ، هو لسمع يعقوب بما عمل ابنه يوسف وما قال ، فيتحرك ذهنه ، ويدرك أن في الأمر سرّاً ، وإلا فما هو السبب الذي يدعو « عزير مصر » لتجهيزهم بلوازم سفرهم ، وإيفائه لهم الكيل ، أي زيادته ، ولطلب بنيامين ، ثم جعل بضاعتهم في رحالهم ؟؟

حقاً إن هذه الأعمال والأقوال لتقتضي الدهشة ، وتوجب التفكير والبحث الذهني العميق ، وتستدعي التدبر في مرمى ذلك ، وما هو المقصود منه ؟ لاريب أن يوسف رجي أن يفهم أبوه أن في الأمر سرّاً ، فيتحرك ذهنه ، ويشرع في التفكير والبحث عن ذلك السر ، لعله يحوم حول ولده المفقود ، فكأن يوسف بما عمل وماقال ، اعتبر إخوته كآلة المسجلة التي تنقل الكلام من غير فهم لسره ومرماه ، ولا ندحة من أنه قد اختلج في صدر أبيه شيء من هذا القبيل ، فنحن نرى أن يعقوب عليه السلام حام حول ما أراد يوسف .

لقد كانت يعقوب سابقاً يتحقق أن ابنه حي يرزق ، استناداً على ما رأى ولده يوسف من الرؤيا الحيدة ، إنما أين هو ، فسؤال كان لا يعلم له جواباً ، وأما الآن ، فإنه فهم من هذه الرموز ، أن ابنه يوسف بمصر ، بدليل أنه قال لأولاده

عند زيارتهم مصر للمرة الثالثة : ﴿ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ (آ: ٨٧) ولما لم يكن معنى للتحسس عن يوسف في مصر خاصة ، فما ذاك إلا لكون يعقوب ظن أن يوسف بمصر ، الأمر الذي هو سر تلك الاعمال ، وبهذا يمكننا الاعتذار عن يوسف في أخذه بنيامين واسترقاقه عنده ، حيث ربما يعترض معترض على يوسف بأن هذا العمل يسيء أباه ، فكيف أقدم عليه ؟ فيكون الجواب عن هذا الاعتراض أن يوسف قبلما يأخذ أخاه ، أفهم أباه بلطف بما عمل من تجهيزهم بمجازهم وإزالتهم خير منزل ، ووضع بضاعتهم في رحالهم ، وما قال من قوله : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » — أفهمه بهذا العمل وهذا القول أنه بمصر ، وكل ليبب بالإشارة يفهم ، هذا ما يلوح لي ، تبعاً للأخ الأستاذ الحديدي حفظه الله ، والله تعالى أعلم .

وجه قبول اخوة يوسف منة اخيهم

٣ — قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ ، إن قال قائل : كيف قبلوا منه هذه المنة وسكتوا عليها ، والشاعر التميمي يقول :
 إن الذين يسوغ في أعناقهم زاد يمن عليهم للأمام
 قلنا : إنه لا ثوم في قبول الرعايا منة الأمراء والملوك ، كقبولها من نحو الوالدين والمؤدبين .

وجواباً ثانياً — وهو أن من رضي لنفسه بقطيعة الرحم والكذب والعقوق ، والحق الضرر بأبيه وأخيه ، هو أقل من أن يربأ بنفسه عن قبول منة الناس ، كيف وهم رضوا لأنفسهم هذه المنزلة إذ قالوا : « وتصدق علينا » كما سيأتي :

سلسلة كرم يوسف مع اخوته

٤ — يوسف هنا جهزهم بمجازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وأنزلهم خير

منزل ، فهذا من رجل مشرد فعله مع مشردين ، مظهر من مظاهر الكرم ، واكبر منه قوله فيما يأتي : ﴿ وائتوني باهلكم أجمعين ﴾ (ع ٩٣) واكبر من هذا وهذا ، كرمه المتوي الذي غير عنه بقوله : ﴿ لا تشرّب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ (ع ٩٤) . (مرحى)

دواعي طلب يوسف لبنيامين

٥ — رأى يوسف اخوته العشرة ، فهاجت فيه ذكرى أخيه بنيامين ، وتنبت أشجانه وقامت نفسه لرؤيته ، وجهده الشوق اليه ، فلذلك ولأجل أن ينقذه من براثن إخوته النازرة في جسمه ، رغب اليهم أن يرجعوا به في السفارة الثانية ، من قبيل من رمى حجراً لكي يصيد به صيدين .

كما أنه نظراً لأن يوسف كان يتوسم من وراء حجب شقيقه نوراً يهتدي به استطلاع أحوال أبيه ، والاسرة اليعقوبية بصورة مفصلة ، تكفل وقوفه على أحوال إخوته ، ماظهر منها وما بطن ، حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ونظراً لأن بنيامين هو أخوه الشقيق الأصغر ، فكان بالأشواق الكلية اليه — نظراً لذلك كله ، حسن في عين يوسف ، أن يطلب منهم « بنيامين » فقال لهم : اسمحوا لي أن أقترح أمراً ، ربما لا يكون فيه صعوبة عليكم ، أمراً تتوخون به مسرتي ، وتتحدرون به رضاي ، « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » الخ .

مناسبة زيارة حبة يوسف لبنيامين

٦ — قوله : « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » : تعلمون أن يوسف عليه السلام كان يحب « بنيامين » حباً جماً ، ولماذا ياترى ؟ . لأنها نشأت في خيمة واحدة كما نشأت الزهرتان المتناقضتان في مغرس واحد ، فهو نام معه وليداً ، ولعب معه طملاً وتسار معه قتي ، وذاق معه حلاوة السمر ، وذاق معه مرارة موت الأم

وشرب معه كائس كره الأخوة إياهما ، زد على ذلك أن يوسف كان لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، إلا في قلب بنيامين ، كما أن بنيامين كان كذلك ، لا يعرف له وجوداً في قلب أخ من إخوته ، سوى قلب يوسف ، فبنيامين شارك أخاه يوسف ، في كل هذه الأدوار والمعاني ، فهذا — مع كونها شقيقتين — هو منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ، تلك المحبة الفائقة .

شيئاً لو بكت الدماء عليها عيتاي حتى تؤذنا بذهاب
لم أبلغ المعشار على حقها فقد الشباب ورؤية الأجباب

لماذا لم يذكر يوسف أباه بشيء

٧ — لسائل أن يسأل قائلاً : يقول الشاعر جرير في إحدى قصائده التي يعتدح بها بعض الأمويين :

هذي الأرملة قد قضيت حاجتها : فمن حاجة هذا الأرملة الذكر ؟

ونحن نقول هنا لسيدنا يوسف عليه السلام : قد قضيت حاجة إخوتك بني الملأ بإيفائك لهم الكيل ، وإنزالك إليهم منزلاً حسناً ، بل وبجعلك بضاعتهم في رحالهم ، حتى صاروا آخذين القمح مجاناً ، وقضيت حاجة أخيك بنيامين بطلبك إياه للترفيه عنه ولرؤيتك إياه ، ولكن من حاجة ذاك الأرملة الذكر ، أعني والدك الشيخ الباكي الحزين ، فأننا لم نسمعك ذكرته بكلمة ؟ !

ولنا على هذا جوابان :

الجواب الأول — ان يوسف يعرف أن أخاه بنيامين لم يشر بشيء من الله في مستقبل أخيه يوسف ، فهو لا يعرف عنه من هذا القبيل شيئاً ، وإذاً فليس له فيه رجاء ، فعيشته إذاً هي عيشة نصب وشقاء ، ولذلك أراد يوسف سعادته بإحضاره إليه ، وهذا بخلاف أبيه يعقوب عليه السلام ، فهو يعرف مستقبل ولده

١٠٠٨ ملوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب آ (٥٩)

ويتأكد تلك البشائر الربانية عنه ، فعيشته إذاً ليست عيشة شقية ، باعتبار ماله من الأمل والرجاء ، وإن الذين يعيشون بالأمل . ويحيون بالرجاء . لهم بعيدون عن الشقاء والتصب .

الجواب الثاني — لا يحكى إلا من فم لأذن .

ملوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب فاخلب

٨ — بقولون في المثل : « إذا لم تغلب فاخلب » ، فيوسف عليه السلام لما لم يستحسن قهر اخوته على إتيانهم بينامين سلك مسلك المصايدة والزلفى ، تدرعاً منه لمحيثهم به في السفرة الثانية .

كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم

٩ — قوله : ﴿ أَلَا ترون أني أوفي الكيل ، وأنا خير المنزلين ﴾ ، خطب « معاوية » ، خطبة ، أعجب بها كثيراً ، وفاخر ببلاغتها ، وحسن صياغتها ، فقال : « أيها الناس ، هل ترون في خطابتي من خلل ؟ » فأجابه رجل : « نعم خلل كخلل المنخل » — فقال معاوية : « وما يكون هذا الخلل ؟ » — فأجابه الرجل : « ذلك الخلل هو اعجابك بها ومدحك لإياها » .

هذا شيء ، وشيء آخر أهم منه وهو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أموالهم في سبيل الله ، ثم لا يتَّبِعُونَ ما أنفقوا مناً ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾ ؛ قوله معروف ومغفيرة ، خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنيٌ حلیمٌ ، يا أيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ﴿ البخ (٢ : ٢٦٢ — ٢٦٤) وفي حديث علي رضي الله عنه ، « آفة الساحة المن » ، وعلى ما ذكرنا فلو قال قائل : كيف يعجب يوسف بعمله ، وكيف يمن على نزلائه بما جادت به سرؤته عليهم ؟ فإننا نجيب بثلاثة أجوبة :

آ (٥٩) محاولة يوسف اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم ٩٠٠٩

الجواب الأول — إن يوسف عليه السلام إنما تكلم معهم ، لا باسم أنه يوسف ابن يعقوب ، ولكن باسم أنه « عزيز مصر » و« عزيز مصر » أجنبي عنهم في المذهب والجنسية ، فهذا القول هو على حساب « عزيز مصر » لا على حساب « يوسف » .
الجواب الثاني — ان هذا من يوسف عليه السلام ، شروع في تشذيب نفوسهم العاتية ، وبدء في تخضيد شوكتهم الصلبة ، وفائدته تعود عليهم بالتهذيب والخضوع .

الجواب الثالث — يوسف لم يقصد الاعجاب ولا المن ، ولكنه قصد بما قال ترغيبهم وتشويقهم للرجوع بأخيه من أبيهم ، فهذا كل ما أراد من كلامه ، لا أقل ولا أكثر .

محاولة يوسف اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم

١٠ — شوقهم يوسف بالآية الحاضرة « ألا ترون .. الخ » وهددهم بالآية الآتية « فإن لم تأتوني به .. الخ » (ع ٦٠) فسلط معهم بهذا القول وذاك القول ، مسلك من يكلم بيد ، ويأسو بأخرى ، وبعبارة ثانية — أحاط يوسف هذا الطلب الذي طلبه ، بالورود والراحين أولاً ، ثم بالقنابل والمداببات ثانياً ، وبعبارة ثالثة — هذه الآية والتي بعدها ، يمثلان لنا بابي « الاغراء والتحذير » الذين يدكران في علم العربية ، ثم إن الغرض الذي أراده يوسف من ذلك ، يمثل لنا « باب الاختصاص » الذي يذكره النحاة أيضاً ، لأنه أراد بهذا العمل وهذا التدبير ، أن يستحوذ على « الاختصاص » بشقيقه بنيامين .

محاولة يوسف رجوع اخوته ببنيامين عن طريق الترغيب والترهيب

١١ — ويقوم من ظاهر قوله « ألا ترون .. الخ » مع الآيات الثلاث التي بعده ،

آن يوسف عليه السلام ، إنما حاول رجوعهم بينيامين عن طريق الترغيب والتجيب والإغراء والتحذير ، فلم يهر في وجوههم ولم يتهمم بجاسوسية ، وقيل إنه حاول الحصول على ذلك عن طريق القوة والإرهاب ، والقهر والإزعاج ، حيث اتهمهم بالتجسس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم وارتحن عنده أخاهم شمعون وقيده لبينا يرجعون بينيامين ، كما حكاه أكثر المفسرين الذين لم يأتوا عليه بسلطان مبين ، وليس له مصدر سوى سفر التكوين (تك ٤٢ : ٩ - ٢٤) ، وهو يخالف ظاهر الايات الأربعة (ع ٥٩ - ٦٢) ، فحشر ما ذكرته التوراة مع كلام الله تعالى هنا هو من قبيل حشر الأروى مع التعام ، أو الجمع بين الفواصات والطيارات .

نعم نعم ، إن يوسف إنما جاءهم من باب التشويق والترغيب ، وأرادهم على الإتيان بأخيه من طريق الاقتناع ، دون طريقة القسر ، لأن طريقة الاقتناع هي التي تولد الميل في الانسان ، ليجهتد في تحصيل مايراد منه ، وأما طريقة الإكراه والإجبار ، فلا تجعل إخوته يميلون لإقناع نفوسهم ، فلا يجهتدون لإقناع والدهم ، فلا يحصل الغرض المروم ، وأما قوله : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » فهو غير مجبر لهم الإتيان بأخيه ، إذ يمكنهم - بكل سهولة - أن يرسلوا عبيدهم وخدمهم بدلاً منهم ، ويوسف عليه السلام يعرف كل هذا الذي ذكرنا ، لأنه حكيم وذو مدارك عالية ، فلا يمكنه أن يزعمهم ، ولا تساعد الحكومة المصرية على حبس أو تقييد أخيه شمعون ، لأنه كان مطلق اليد ، فلا بد أن يكون إطلاقاً نسبياً ، فلا ندحة من أن يكون مقيداً بنظمات الحكومة المصرية وقوانينها ، ولهذا كان مسلكه مع إخوته مسلك حيلة وترغيب كما تتعلمه من (ع ٥٩ - ٦٢) ، هذا ما عثرنا الله عليه من الفهم في كتابه ، والله سبحانه اعلم .

معنى الايقاء ووجه امتتان يوسف على اخوته

١٢٠ - آو في الشيء كثر ، وأوقاه : كثره ، فالمادة في بعض المواضع

كما هنا ، تدل على الكثرة والزيادة ، كما يقال : أوفى على المائة : اذا زاد عليها ، ويقولون في المدح : « هو أشعر أهل زمانه ، والموفى على أقرانه » ، وفي سنن ابن ماجه : « جاء اعرابي الى النبي ﷺ يتقاضى ديناً له عليه ، نقضى الأعرابي وأطعمه ، أي أعطاه زائداً عن حقه طعمة له ، فقال : أوفيتني ، أوفى الله اليك » ، والكثرة في الكيل إنما تحقق بالزيادة على الحق ، بحيث يصير الكيل أعلى من حرف الصواع لاسيما وان هذه المادة أيضاً تدل على العلو ، فانه يقال : « أوفى عليه : أشرف » ، فالمعنى الذي أراده يوسف ههنا ، انه كال لهم وزاد عن استحقاقهم في الكيل ، بحيث جعل القمح يعلو طرف الصواع ، هذا ما يظهر لنا ههنا ، وبه يظهر وجه امتنان يوسف عليهم بذلك ، وإلا فالبايع لا يصح له أن يمتن على المشتري إذا كان اقتصر على إعطائه حقه فقط ، قلنا — والشيء بالشيء يذكر — وبهذا يظهر وجه اللزم في قوله تعالى : ﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (٨٣ : ١ - ٣) ، فهذا الاستيفاء هو زيادة عن الحق ، في الكيل لأنفسهم ، ولذلك قابله بقوله : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرُونَ » ، فالاستيفاء والإخسار ضدان ، والوسط هو وصول الحب المكيل الى طرف الصواع من فوق ، من غير أن يزيد عنه أو ينقص ، وبهذا التحقيق أيضاً يظهر وجه قول إخوة يوسف ، في السفرة الثالثة : « يا أيها العزيزُ مستأنا وأهلنا الضُّرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن اللهَ يجزي المتصدقين » (آ : ٨٨) ، قدموا له الرجاء أن يزيدهم وأن يكون بذلك متصداً عليهم ، وإلا لما كان وجه لقولهم : « فأوف لنا الكيل ، لأن حقهم سيصلهم قطعاً ، كما جربوا ذلك منه في السفرتين الأولىين ، هذا ما فتح الله به ، وفوق كل ذي علم عليم ، والحمد لله رب العالمين .

يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ (٦٠) ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ، وَلَا تَقْرَبُونِ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السنون ، فقام الشيخ الرشيدى (١) وقال :
سبق أن يوسف قال لإخوته بلهجة السرور والترغيب ﴿أَلَا تَرُونَ أَنِّي
أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَتَأَخِّرُ الْمَزْلِينَ﴾ ، والآت يقول لهم بلهجة النفور والإرهاب :
﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي بنيامين وتستقدموه معكم ، (ف) لا أخفي عليكم أنه
(لا كيل لكم عندي) فضلاً عن إيفائه (ولا تقربون) بدخول بلادي ، فضلاً
عن الإحسان في الإزالة ، فاقظروا الآن مصيبتكم ، فأنتم من أهل الحجى والنهي
أقول قولي هذا صدقاً وإعذاراً وإنذاراً ، والله يتولى هداي وهداكم .

فَإِنْ تَدْنِ مِنِّي تَدْنِ مِنْكَ مَوْدِنِي وَإِنْ تَنْأَ عَنِّي تَلْقَنِي عَنْكَ نَائِيًا
كَلَانَا عَنِّي عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ وَنَحْنُ إِذَا مَتْنَا أَشَدَّ تَغَانِيًا

لم يأل يوسف جهداً في تهديد المقدمات ، وتذليل العقبات التي تقف في طريق
حظوته بأخيه بنيامين ، فاستعمل مرة اللين ، ومرة بعض الشدة ، رغمًا عن
كونه لا يريد إزعاجهم بحرف واحد ، ولكن ضرورة الحال أخرجته فأحوجته
لما قال :

بين لهم بما سبق من قوله وبهذا القول الحاضر أن إليه الرتق والفتق وييده
البسط والقبض ، وأنه قد ير على النفع والضر ، متمكن من القبول والرد ، سياسة

(١) نسية الى لادة رشيد من البلاد المصرية.

حكيمة ، وخطة معتدلة ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، يُطعم ويؤيس ، يوحش ويؤنس ، رسم لهم الطريقين وهداهم النجدين ، ليختاروا لأنفسهم ما يحلو ، وقول يوسف « فإن لم تأتوني به .. الخ » هو أول رصاصة رماها في أول هذه المعركة ، وقوله الآتي لفتيانه : « اجعلوا بضاعتهم في رحالهم .. الخ » هو ثاني رصاصة ، وأما (القنبلة) فهي جعله السقاية في رحل بنيامين كما سيأتي في (ع ٧٠) .

(فان لم تأتوني به .. الخ)

— ١ —

وقال الامام سعيد المنتفكي (١)

يوسف ينذر اخوته اذا لم يأتوه بنيامين

يقول يوسف عليه السلام : إن لم تأتوني بأخيكم فسوف أعرقل مساعيك ، بأنه لا كيل لكم عندي حينما تنقلبون لمصر ثانية ، كما ولا تقربون بلادي ، ما كرت الجديدان ، وتماقب الملوآن ، فإن لم تفعلوا ما أشير عليكم ، فدون بلوغ مناكم عندي شرح القناد ، فعلى إتيانكم ببنيامين يتوقف كيلى لكم ، بل دخولكم بلادي ، وإن حصواكم على المسيرة للمرة الثانية معقود بمجيء أخيك معكم ، أفهمتم ؟ ... لا تنسوا شرطي ، فالشرط أملك ، عليك أم لك ، أتم خيرون بين شهد الحياة وصاب الموت ، مجيئكم بأخيكم هو أشبه بورقة الجواز التي يحملها المسافر ، فإن أبرزها حين وصوله للحدود دخل المملكة الأخرى ، وإلا .. فلا .. وهكذا أتم إن أتيتم بأخيكم سمح لكم بدخول بلادي ، وإلا .. أرجعتم على أعقابكم ، ونفوسكم الملومة ، ها أنا ذا قد أنذرتكم ، قبل أن تقررعوا السن ، ومن أنذر فقد أعذر ، هذه وصاتي إليكم ، فإن عملتم بها ، حمدتم غب رأيكم ، وخير الأعمال

(١) نسبة الى المنتفك وهو اسم احد الالوية العراقية الجنوبية.

أحدها عاقبة ، وإلا فلا آمن عليكم ما أكره وتكرهون ، وبالجملة والاختصار ،
إن أتيتموني به أدنيتكم ، وإلا دنتكم ، ولا يمكنني أن أكيل لكم ولا أراكم
في بلادي .

هذا مرمى كلام يوسف عليه السلام مع إخوته العشرة . ومن هنا عول على
أن يجمع قواته وينازل بها إخوته في موقعة فاصلة ، هي حرب ولكنها حرب تحت
طي الخفاء ، حرب تدبير وتفكير .

(والشيء بالشيء يذكر) أتذكر أنه كان دفع رجلان الى امرأة مائة دينار
وديعة ، وقالوا لها : « لا تدفعيها الى واحد منا دون صاحبه » فلبثا ماشاء الله أن
يلبثا ، ثم جاء أحدهما فقال : « ان صاحبي قد مات ، فادفعي اليّ الدنانير » فأبت
وقالت : « إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه ، فلست بدافعتها اليك » ،
فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها اليه ، ثم لبث ماشاء الله أن تلبث ، فجاء
الآخر فقال : « ادفعي اليّ الدنانير » — فقالت : « إن صاحبك جاءني فزعم أنك
قد ميت » ، فدفعتها اليه — فقال « إنه لعب عليك وذهب هارباً » فاختصم الى
القاضي ، فعرف أنها قد مكرأ بها ، فقال : « أليس قلتما : لا تدفعيها إلى واحد منا
دون صاحبه ؟ » — قال : « بلى » — قال : « إن مالكما موجود عندها » فذهب
فجيء بصاحبك حسب شرطكما ، حتى تدفعه إليكما ، فإن الشرط أملك » ،
وهكذا يوسف عليه السلام إذا رجع إخوته اليه بدون بينامين وأرادوا الميرة
يقول لهم : « قد اشترطت عليكم أن تأتوني بأخ لكم من أبيكم ، ولم تفعلوا ، فليس
لكم عندي ميرة حتى تأتوني به » .

(مرحى)

وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر

آ (٦١) (قالوا :... سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ، وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والستون ، فقام الشيخ راشد البيسانى (١) وقال :

(قالوا) أي إخوة يوسف بلسان الوعد والمواقفة ، لبيك ، نحن أطوع لك من ظلك ، وبالله إننا لنبتهج جدا لا نحتاج عما نلناه من التفاتك ، — وأنت عزيز مصر — لسوقة غرباء مثلنا ، ونفتخر بما أصبناه من الحظوة في عينيك ، وعليه فسنصدع بأمرك ، رغماً عن انه لا قبل لنا بهذا المطلوب ، ولا يدان لنا بمحصوله ، لأن أمر أخينا من آيينا ليس بيدنا ، بل (سنراود عنه أباه) ، ولسوف لانألوا جهداً في إقناعه (وإنا لفاعلون) معه جهد الاستطاعة أن يرسله معنا ، متى رجعنا المرة الثانية .

(قالوا .. سنراود عنه أباه .. الخ)

— ١ —

وقال شمس الدين الدمياطي (٢) :

وعد الاخوة باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة ابيهم

حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة ، وهي ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر للمرة الثانية ، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به ، خاطبوه .

(١) نسبة الى بيسان من فلسطين .

(٢) نسبة الى بلدة دمياط من البلاد المصرية .

تقائلين له باعتباره انه عزيز مصر : أيها العزيز - لقد رغبت في أمر كؤود المطلب
وعر الملتبس ، فإن أخانا هذا الذي ترغب في مجيئه ، أصغر أولاد أيينا الشيخ
وابن شيخوخته ، وقد اتخذه أكبر مُعزٍّ له بعد أخ له مفقود ، فالإتيان به إن لم
يكن متعذراً ، فهو متعسر ، فلو قلنا لك : لسنا هناك ، لأن الأمر ليس بيدنا ، بل
بيد أييه الشيخ كنا صادقين ، وإن قلنا لك : « إذا أردت أن تطاع ، فمر بما
يستطاع » وإن هذا الأمر ليس إلينا كنا معذورين ، ومع ذلك فقد أذنا لك
وسمعنا وأطعنا .

تأكد أيها العزيز انه لقد مضى علينا مدة تنيف عن العشرين سنة ، ونحن
في أمر أخينا من أيينا هذا على « الحياء الدقيق » لانكلف أباه شيئاً مما يتعلق به ،
وذلك من جراء حادثة لشقيق له كان خرج معنا فهلك ، فلذلك من الصعب أن
نكلم فيه أباه بشيء ، ولا نستطيع أن نغتصب منه اختياره أو نصادر حرية الشخصية
ولكننا سنلتطف معه برقيق العبارة ، ورشيق الحيلة ، فلعله ينزل على رغبتنا ،
رغمًا عن أنه سيكون في هذه المرة صعب المراس جداً .

أيها العزيز - إن المراودة هي في ذاتها هينة ، أهون علينا من قطع الخيط ،
ولكن الصعوبة والإشكال ، في قبول أييه مشورتنا فإن نجحنا فذاك ، والافمذرة
منا اليك سلفاً ، وماتلك الممذرة سوى كلمة واحدة هي « العجز » فانا لاندري
ماذا سيكون جواب أييه ، أيرسله معنا أم لا ؟ فقد نُصَدِّقُ إن قلنا : لا ، وقد
نُصَدِّقُ إن قلنا : نعم ، فنحن سنبدأ والتمام على الله .

وكأني بيوسف قد ثنى على كلامهم بقوله : ها أنذا انتظر رجعتكم ، وأتنبز
بوعدمكم ، فلنفترق على هذا الاتفاق ، أودعتكم الله ، سافروا بسلام .

آ(٦٢) يوسف يأمر بإعادة ثمن الميرة لاختوته لضمان مجيء بنيامين ١٠١٧

يوسف يأمر بإعادة ثمن الميرة لاختوته لضمان مجيء بنيامين

آ (٦٢) ﴿ وَقَالَ لِفَتَيَانِهِ : اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والستون فقام العلامة التدمري^(١) وقال :

أشفق يوسف أن لا ترجع إخوته ، فانتدب بعضاً من غلمانه الكياليين ، أحضرهم (وقال لفتيانه) هؤلاء ، وثبّأ أيها الغلمان أغفلوا هؤلاء القوم الكنعانيين ، و (اجعلوا) ضعوا (بضاعتهم) فضتهم (في رحالهم) عدالهم ، بحيث تخفونها عن عيونهم ، (لعلهم يعرفونها) يطلعون عليها (إذا انقلبوا) منصرفين (إلى أهلهم) في فلسطين متى فرغوا ظروفهم ، (لعلهم يرجعون) إلينا ثانية .

ففعل غلمانه ما أمرهم به ، إذ كانوا أطوع إليه من ظله ، وكأني بيوسف قد أخذ يردد في نفسه قول القائل : « ليس من رسول كالدرهم » :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على غيره يُستغن عنه ويذمم

ثم قال : لعلهم يرجعون إلينا بينيامين لأنه حجر الزاوية ، وهو المقصود من هذه الأعمال ، ولعلنا بذلك نفتح باب الحركة وندير المعركة في فلسطين ، ونحن جالسون ههنا في « صوعن » فنخضد شوكتهم ، وينزلون شيئاً من شكيمتهم ونزقهم لعلهم يرجعون — فانهم بواسطة ذلك يحبوننا ويثنون علينا عند أبيهم فنصل إلى غرضنا :

(١) تدمر إحدى المدن السورية .

والناس أكبر من أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان
نعم لعلهم يرجعون — فسيكون لي ولهم شأن ، فإن هذا حادث له مابعده ،
وإن مع اليوم غداً ، فإن لم يرجعوا فعلى بضاعتهم السلام .
ثم صار يوسف ينتظرهم بكل فروغ صبر ، ويردد في نفسه معنى قول الشاعر :
عسى الملك المحيب لمن دعاه يساعدي ويعلم كيف شكري ؟
فأجزي بالكرامة أهل ودي وأجزي بالعداوة أهل وتري
وهنا لا بد من التنبيه على المسائل التالية :

سعي يوسف بمجيء بنيامين بالقول والفعل

١ — ترى من هذا أن أمر رجوع اخوة يوسف بينيامين قد أصبح شغله
الشاغل ، حتى أنه لم يكتف بما فاه به أمامهم من الوعد والوعيد ، بل أتبعه بالعمل
الجدي ، والفعل الفوري ، الذي يرجو أن يكون الدافع الوحيد لرجوعهم
بينيامين ، والكفيل لنجاح مساعيه ، وإن هذه المنفعة المادية ، ستكون كجاذب
مغناطيسي لهؤلاء القوم « أبناء العم المحترمين ! ! تقودهم إلى الرجوع فوراً ، بلا
أدنى تردد ، لا سيما في أيام كهذه ، فإن « أبناء العم » هم الأمة الوحيدة ، في محبة
المنافع المادية ! ! كما هو معروف ومشاهد لهذا العهد ! !

المراد من كلمة « الفتيان »

٢ — الفتيان هنا بحسب اصطلاح المصريين ، الخول والخدم والجند والتبعة
والمستخدمون والكيالون .

ماذا اراد يوسف برد بضاعة اخوته البرهم

٣ — أراد يوسف عليه السلام بهذا العمل أن يحمل إخوته — متى رجعوا إلى

فلسطين وعرفوا ما فعل ببضاعتهم — على حسن الظن به ، وإنه قد بلغ من الكرم والسماحة والجود حداً لم يبال معه أن يعطيهم ما طلبوا من الميرة بلا عوض ولا ثمن فيوسف أتى ذلك العمل ليجريء إخوته على الرجوع وليعرفوا أنه محسن لا عدو وأنه يتوقع منه مالا يعلمون من الخير .

كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية

٤ — سألت سائل قائلاً : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يتصرف بأموال الخزينة المصرية مع أنه لم يكن سوى موظف يجب عليه أن يشتغل في مأموريته بأمانة ؟

فاجبته بقولي أولاً — لناظر بيت المال أن يصرف شيئاً من الخراج في سبيل المصالح العامة التي منها مساعدة الغرباء المحتاجين ، ولعل إخوة يوسف منهم .
وثانياً — كانت المساعدات التي أداها يوسف لمصر ، والخدمات التي خدم بها أهلها ، بمثابة خمرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد ، فانه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات مني الخصب .

ثالثاً — يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (٩ : ١٦) وربما كان إخوة يوسف فقراء أو مساكين ، ولا ينافية أنهم أتوا للميرة على دواب لهم ، لأنهم كانوا يحتاجون للدواب للركوب عليها في روحاتهم وجيئاتهم ، لأنهم من الرحل ساكني الخيام ، فهي لهم نظير آلة الجهاد للمجاهد ، وكتب العلم للعالم ، وآلة الصناعة للصانع ، ودواب السفر لمن يعيش بالمسكارة ، والضرب في الأرض ، وكالسفينة للملاح ، قال تعالى على لسان العبد الصالح :

﴿ أما السفينة ﴾ فكانت لمساكين يعمَلون في البحر ﴿ (١٨ : ٨٠) ﴾ فهذه السفينة كانت ملكاً لهم ، وملكهم لها لم يخرجهم عن المسكنة ، لما عرفت من أن الآلات التي تقوم بها المعيشة مستثناة ، وربما يكون يوسف عليه السلام ، قد أعطاهم فضتهم وميرتهم لأنه اعتبرهم من « المؤلفين قلوبهم » أعني بذلك تأليف قلوبهم للرجوع بأخيه بنيامين ، كما قال « لعلمهم يعرقونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلمهم يرجعون » هذا مذهب له واجتهاد منه ، لا يجوز لنا أن نعترض عليه فيه ، لاسيما وأن له شرعة ومنهاجاً غير شرعتنا ومنهاجنا ، والله أعلم . وههنا شيء دقيق ، وهو أنه يظهر من قرائن الأحوال أن يوسف عليه السلام كان متمتعاً بما يشبه الاستقلال الإداري ، فكان يتصرف فيما عهد به إليه تصرفاً مطلقاً ، زيادة عن بقية مأموري الدولة ، فكان يوسف متفوقاً على باقي وكلاء الملك ، لأنه كان هو « العزيز » ، القابض على ناصية المال ، وهو الوكيل الأعظم والصدر الأعلى .

وأما ما أجاب به فريق من المفسرين بما مرماه : (أن يوسف عليه السلام موحد يشتغل في أموال قوم وثنين ، فيجوز له أن يأخذ منها ما وصلت إليه يده) فهو جواب غير صحيح ، لأنه إنما يجوز أكل مال الحربي في داره فالحقود الفاسدة التي لا تحل في دار الاسلام ، كالربا والبيع الفاسد ، والحادثة التي ههنا لم تتوفر فيها هذه القيود ، أولاً - لأن « الريان » ليس حربياً ليوسف ، ثانياً - ليس من عقد فاسد جرى بين يوسف والريان ، ثالثاً - إن يوسف عليه السلام ، وكيـل عن الملك الريان « والوكيل مؤتمن » لاسيما وقد وضع فيه الريان ثقته وقال له : (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فيجب أن يكون الريان أميناً لدى يوسف كما كان يوسف أميناً لديه ، كما هو مقتضى الشهامة والمروءة ، فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين ..

معنى الرحال

هـ - كلمة « رحال » هنا هي التي سميت « متاعاً » في قوله تعالى ﴿ ولما فتحو ﴾

متآعهم ﴿ (ع ١٥) و «أوعية» في قوله بعد ﴿ فبدأ بأوعيتهم ﴾ (ع ٧٦) فالجميع بمعنى لفظ «العدال» الذي عبرت به التوراة ، ويقال أيضاً «غرارة» و «جوالق» و «كيس» جمعه أكياس ، وهو ما عبرت به التوراة أيضاً في موضع آخر .

مقصد يوسف مما قاله لآخوته ومما فعله معهم

٦ — قال يوسف ما قال (ع ٥٩ و ٦٠) وفعل ما فعل (ع ٦٢) لكي يستعين بإرادة إخوته على إرادة أبيه ، لأنه يعلم أنه يصعب على أبيه السماح لأخيه «بنيامين» السفر لمصر ، ويوسف عليه السلام كان يأكرامه لهم ، وجعله بضاعتهم في رحالهم كصائد رأى طيوراً لا يريد اصطيادها ، لأنه لا يهواها ، ولكنه رمى لها الحب على أمل أنها بعدما تأكله تطير وترجع بطير يريد ذلك الصائد اصطياده ، لأنه يهواه ، وما قال رأيه فيما فعل ، فإنهم لما وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، أكدوا على أبيهم بأخذ أخيه ، فرضي بعدما كان قد امتنع ، ورجعوا لمصر بذلك المصفور الجميل ؛

إن العظيم عظيم في كل شيء ، حتى في حيلته التي يجريها توصلًا لرامه ، فيوسف أراد أن يحضر إليه أخوه بنيامين ، فتذرع بكل ما يقدر عليه من الذرائع ، فذكره ، وبشّر ، وأنذر ، وحذر ، ومؤخرًا أرجع إليهم بضاعتهم ، تشويقاً لهم في رجوعهم به إليه .

لماذا لم يخبر يوسف أخوته بجلية الواقع في سفرهم الأولى

٧ — سألتني سائل : لماذا لم يخبر يوسف عليه السلام أخوته بجلية الواقع ويرغب إليهم أن يذهبوا بقميصه في هذه السفرة الأولى ، ليلقوه على وجه أبيه ، تعجيلاً لارتداده بصيراً ؟ ولم آخر يوسف عليه السلام هذا التوضيح والبيان

للسفرة الثالثة بعد اللّتيّ والتي ، وبعد ما بلغت الروح التراق ، وقيل من راق ؟ وغما بلغت القلوب الحناجر ، وبلغ السيل الزبي ؟ وهل يجوز للطبيب أن يؤخر عن المريض علاجه النافع ، لمدة يعاني فيها المريض أشد المشقة ، خصوصاً وهو يعلم أن هذا العلاج طب ساعة ، وهو الترياق المفيد توأ ؟

فأجبتة بقولي : لعله خاف لو أخبر إخوته منذ الآن ، ولم تكن قد تشذبت أخلاقهم ، ولم تخضد شوكتهم بعد ، أن يعملوا مكيدة يكيدون له بها ، فيحقد به الخطر ، ويتزعزع مركزه بمصر ، خصوصاً وهو كان متهاً بتلك الجريرة السيئة ، فلذلك أخر إظهار نفسه للسفرة الثالثة ، حتى تكون قد سكنت ثورتهم ، وهيض جناحهم ، وتشذبت أخلاقهم .

ثم قلت للسائل : وعندي جواب آخر ، وهو أن صاع قصاص ... لم يمتلىء بعد ، لأن العشرين ... في مقابلة العشرين ... الأولى ، لم تكمل بعد ، فيوسف عليه السلام ، لما افكر أن يخبرهم بجلية الواقع ، ويكشف نفسه لهم ، ويريد أن ... ، كان يسمع صوتاً من السماء يقول له : « لم يحن الوقت بعد يا يوسف » ، فيسكت ، ففي الحقيقة نحن نرى يوسف بعمله هذا مسخراً للقدر العدل ، وآلة تديرها يد القدرة السماوية ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

هذا ما ألهمنيه الله وفتح به علي ، فتدبره فلعلك أصغى ذهناً ، وأخلص قلباً ، وأنور معرفة ، ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (٢ : ٣٢) .

كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم

٨ — قوله « جعلوا بضاعتهم في رحالهم » ، اختلف المفسرون في كنه هذه البضاعة ، ومنسلط « الأشعة » على هذه البضاعة ، بحيث يستطيع القارئ أن

يكشف حقيقتها : يظهر من كلمة « بضاعة » أن الذي كان معهم هو من غير النقود المضروبة — ويدخل فيه الفضة غير المضروبة — لأن النقد المضروب لا يعبر عنه « ببضاعة » ، بل يعبر عنه بدينار أو بدرهم ، كما سبق في قوله : ﴿ وشروه بثمان بجس دراهم معدودة ﴾ والغالب على البلاد غير المتمدنية ، أن تكون المقايضة فيها بغير الدراهم المضروبة ، كبلاد فلسطين ، « وجاء بكم من البدو » (ع ١٠٠) ، كما أن الغالب على البلاد المتمدنية أن تكون المعاوضة فيها بالدراهم أو الدنانير المضروبة ، كما في البلاد المصرية ، ولذلك اشترى يوسف في مصر بدراهم ، وأما إخوته ، فلكونهم من فلسطين غير المتمدنية ، فقد جاءوا لمصر يمترون ، لا بدراهم مضروبة ولكن بنوع من البضاعة ، ربما كان فضة غير مسكوكة أو نحوها مما قد يخفى وقد يظهر ، كما يشير إليه قول يوسف عليه السلام « لعلهم يعرفونها » ، فإن هذا التعبير ينم عن أن هذه البضاعة ليست من قبيل النعال والأدم ، كما ظنه أكثر المفسرين ، لأن هذا مما يعرف قطعاً ، فإذاً هذه البضاعة هي مما قد لا يعرف إذا وضع في الحال ، فلذلك قلنا إن هذه « البضاعة » كانت من قبيل الفضة غير المضروبة ، والله تعالى أعلم .

٩ — يجوز أن يكون قوله « لعلهم يرجعون » بدل اشتغال من قوله : « لعلهم يعرفونها » ، كما سبق لمولاي عبد الحفيظ التونسي في قول المندوب « لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » (ع ٤٦) والله تعالى أعلم . (مرحى)

الاخوة يطلبون بنيامين من ابيه

آ (٦٣) ﴿... فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ . . . فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ، نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والستون فقام الشيخ غانم الاربدي^(١) وقال :

قام إخوة يوسف ، من مصر ، وركبوا رحلهم يطوون البيداء ، الى كنعان بلادهم ، (فلما رجعوا آيين من وجه الغرب الى وجه الشرق ثم الى وجه الشمال ، أعني من « صوعن » عاصمة المملكة المصرية الهكسوسية ، الى « ميلون » قاولين (الى أبيهم) الشيخ الجليل وكان في انتظارهم على مثل الجمر ، فتحفر للملاقاتهم ، فترجلوا ومشوا اليه ، وساموا عليه فباركهم وسر بقدمهم غير أنه تأملهم فرآهم على غير حالة سرور ، قال : مالكم ومالي أراكم مضطربين قلقين ؟ — (قالوا) وعليهم إمارات الحيرة والضيق : « (ياأبانا) لانكذب الله ، لقد رأينا في عزيز مصر رجلاً شهماً كريماً ، أنزلنا خير منزل ، وأوفى لنا الكيل ، وجهزنا خير جهاز ، فصرنا بفضلته مجهزين بالدقيق والسويق ، وبالسقاء والماء ، وبعلف الدواب ، وبكل مايلزم لنا في الاياب ، وما رأينا منه إلا كل مانحب وتحب ، غير أنه قال لنا : (اثثوني بأخ لكم من أبيكم) فكما دهشنا من إكرامه لنا على غير معرفة ، فقد دهشنا بنوع خاص حينما كلفنا بذلك واشترط في امتيارنا من مصر للمرة الثانية

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرقي الاردن)

بحيئه معنا ، وتوعدنا إن لم نحضره معنا ، بعدم الكيل ، بل بعدم رؤية وجهه ، وأنذرنا بالمقاطعة التامة ، الأمر المدهش الغريب الذي لم نقف له على سبب ، ولذلك وبناء على إنذاره ، ربما رجعنا اليك في المرة الثانية وقد (منع منا الكيل) لأن هذا الرجل يقول ويفعل ، ذا إرادة سنية ، ونفوذ لا يعارض ، ولا نظن أن هذا الرجل يتزع عن مقالته (وَ) نتقدم اليك بهذا الرجاء الحار (أرسل معنا) في المرة الثانية (أخانا) المحبوب « بنيامين » حسب اقتراحه ، فإنك إن أرسلته (نكتل) من القمح كما في الاول ، وإن لم ترسله خشينا أن تلفظنا مصر ، وخشينا من هذا الرجل أن يصدق القول بالفعل ، فإنه ذو سطوة ومراس ، ولا ندحة لنا عما يدعونا اليه من طاعته ، والإذعان لدولته ، وأنت في هذه المرة لاتخف على بنيامين ، وإنا عليه ساهرون (وإنا له لحافظون) من كل مايضيمه ، من أن يستطار ، أو يغتال ، أو يفترس ، أو يتيه ، الى غير ذلك ، والوعد على الحر دين . هكذا نقضوا لأبيهم جملة ماوقع لهم بمصر وجملة ما في ذهنهم . ويمكننا أن نستنج من ذلك النتائج التالية :

افوة يوسف بين مطرقتين

١ - أصبح إخوة يوسف كآلة بين مطرقتين ، لا يدرون أيقومون بعهدهم « لعزير مصر » ويطلبون بنيامين من أبيه ، أم يسكتون عن طلب بنيامين لئلا يتكدر والدهم من طلبه ولئلا يتذكر يوسف فيتجدد همه عليه بعد أن كان خامداً؟.. ثم إنهم رجحوا الشق الأول، وهو طلب بنيامين أن يسافر معهم ، لأنهم لا يستغنون عن الرجوع لمصر ليمتاروا لأهلهم ، ولذلك قالوا : يا أبانا الخ .

فكرة سفر بنيامين

٢ - من ههنا ابتدأت فكرة سفر بنيامين تتمشى خطوة خطوة الى أن استقر.

الامر على سفره فاسافر ، وهذا ينتهي بانتهاء (ع ٦٨) والذي وضع أساس هذه الفكرة هو يوسف عليه السلام بما عمله وبما قاله لإخوته (ع ٥٩ - ٦٢)

يعقوب يفكر فيما عمله « العزيز » مع اولاده

٣ — لا بد أن يعقوب عليه السلام ابتداء يفكر فيما عمل « عزيز مصر » مع اولاده من تجهيزهم بجهازهم ، ومن إيفائه لهم الكيل ، ومن إنزالهم خير منزل ، ثم صار يفكر في هذا الطلب على غير معرفة ، وبدون سابقة داعية اليه ولا مناسبة ، فأوغل في تفكره ، وقال في نفسه : « لأمر ماجد عظيم أنفه » والمستقبل كشف.

الشك بخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) « قَالَ : هَلْ آمُنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ ! ؟ ! فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

تليت الآية الرابعة والستون فقام الشيخ الكرملی وقال :

سمع يعقوب كلام اولاده فخامره فيه الشك ، ووقعت في نفسه من ذلك الطلب رهبة ، فأطرق برهة ، ثم رفع رأسه و (قال) مستهزأً : مثلکم من یوثق بوعدہ !!! (هل آمنکم علیه إلا کما آمنتم علی أخیه) یوسف (من قبل) إذ كنتم منذ ٢٢ سنة قلتم فی یوسف (وإنا له لحافظون) کما تقولونه الآن فی بنیامین ، ثم ختم بضمائکم ، فما یؤمننی الیوم من مثل ذلك ؟ . . . وبعبارة أخرى : لا آمنکم علی بنیامین فی الذهاب إلا کأمني إیاکم علی یوسف الذی ضمنتم لی حفظه ثم ضیعتموه ، وهكذا حالکم الیوم ، تضمنون لی حفظ بنیامین ثم تضیعونه ، والزامر يموت وأصابه تلعب ، وللعادة حکم لا یقوی المرء علی مغالبتہ ، « فالله یرضی علیکم

خطوا بغير هذه المسئلة ، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ومن جرب
المجرب حلت به الندامة ، وقد قيل : ويل أهون من ويلين ، وقالوا : ما وعظ
امرءاً كتجاربه ، وقالوا : ومن نهشته الحية خاف من الرش ، حقاً إني أخاف أن
تعيدوا الكرة ، أخاف أن يكون ذئب أخيه موجوداً بعد ، فترسلوه له أيضاً
ليأكله ، وما أسرع بحيثكم لي عندئذ على قميص بنيامين بدم كذب ، وأظنها تكون
القاضية عليّ ، فبالله عليكم دعونا من هذه الوعود التي جربناها ، وخبرنا نوعها
ودرجتها وعرفنا نصيبها من الصحة ، وبالله عليكم دعونا من ترداد جملة (وإنّا له
لحافظون) ، فإن هذه الجملة لا تزال ترن في أذني يوم نطقم بها يوم أخذكم يوسف ،
وما رأيتم من حفظكم شيئاً ، فإن كنت أريد إرساله معكم (فالله خير حافظاً) (وهو
أرحم الراحمين) وكفى ، فأرجو أن لا يجمع عليّ مصيبتين ، ولكني لا أريد
ذلك أبداً . هذا مرمى الجواب السلي الذي وجهه يعقوب لأولاده ، وما أتم هذا
الجواب إلاّ وقد شرق بالدموع السخينة .

وجملة (فالله خير حافظاً) تميز كقولك هو خيرهم رجلاً ، والله درّه فارساً .

(قال هل آمنكم عليه)

— ٢ —

وقال شيخنا الكركي (١) :

جواب يعقوب لأولاده جواباً سلبياً مندداً بهم وبوعودهم

سمع يعقوب اقتراح أولاده ، وقد تذكر حادثهم مع يوسف التي تركت أثراً
سيئاً في نفسه ، فتمعر وجهه واقشعر بدنه ، وخفق قلبه ، ونأى بجانبه ، ونظر

(١) سبة الى الكرك من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

إليهم شرراً ، وابتدروهم بالدهشة والاستغراب ، وجابوهم جواباً سلبياً قائلاً :
لا يكون ذلك ، ولن يكون ، هل تريدون مني أن آمنكم على بنيامين إلا مثل
ما أمتكم على أخيه يوسف سابقاً وكانت النتيجة التي تعرفونها ، ألا يحق لي أن
أحسب لإرساله معكم ألف حساب وحساب ، فها أنا ذا شيخ ، قد حنكتني التجارب ،
وعر كني الدهر وعركته ، فعرفت أن ليس لوعودكم قيمة ، ولا أراكم إلا جماعة
متألبين عليّ لتفقدوني بنيامين ، كما أفقدتموني قبله يوسف ، أنتم الآن تعدوني
وتطمئنونني ، ولكن حقاً إن صوت أعمالكم سابقاً ، يصم أذني عن سماع أقوالكم
وتصديق وعودكم ، ومن جرب المحرب حلت به الندامة ، يا أولادي كذبتكم
نفوسكم ، إن تاريخكم الماضي محفوظ عندي ، لم أنسه ، ولا أريد أن أنساه ، بل
ولا أقدر على تناسيه ، راجعوا جريدة أعمالكم وانظروا ماذا كنتم عملتم في
يوسف ؟ ... فهل تريدون اليوم أن تضيفوا إلى تاريخ أعمالكم الماضية صفحة
أخرى ، من صفحات الأعمال المحزنة ؟ .. أما أنا فذلك ما لا أريد أن يكون ،
كفى ما كان حصل سابقاً ، يا أولادي ، إن الثقة لا تتولد في النفس لمجرد صدور
الوعد ، لا سيما وإن التجربة الماضية التي جرت في حادثة يوسف ، لم تترك في نفسي
أثراً من الثقة والاعتقاد ، لذلك ليس من الأمر الهين في هذه المرة قناعة نفسي
بصدق وعدكم ، وطمأننة قلبي بإرسال بنيامين لمصر معكم ، أنتم أخذتم يوسف
قبلاً ، لرعى غنمنا ، وفي بلد قريب منا ، صمن بلاد فلسطين ، التي أنا ساكن فيها ،
فلم يرجع إليّ ، فكيف اليوم أرضى بأخذكم أخاه لمصر ، لمملكة أخرى ، بيننا
وبينها مراحل ؟ .. تقولون لي (وانا له لحافظون) ؟ .. قسم ضائع لا قيمة له ، ووعد
مكذوب ، فقد كنتم « وقعتم المعاهدة » على حفظ أخيه ، وسجلتم الخسار على
أنفسكم ان لم تسهروا على صيانته ، ولكنكم هتكم حرمة تلك المعاهدة ، ورجعتم
عليها بالنقض ، فإذا هي لم تخرج عن حدود الكلام !! أوآاه ! لشدة ما ينقبض

لمذلك صدري ، ويلتاع له فؤادي ، فما هذه الخطة العسراء التي تريدون أن تحملوني عليها ؟ ..

تريدون أن تأخذوا بنيامين ؟

لا يتسنى لي أن أنعمكم عينا بهذه الطلبة ؛

تقولون لي (إننا له لحافظون) ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، فقد رأيت جمجمة ، ولم أر طحناً ؛ بالله عليكم ، عرفوني ، هل أكون هذه المرة أسعد حظاً ، وأرقى حالاً ، وأهنأ بالاً ، وأحمد عاقبة ؟ دعونا بالله من هذا الاقتراح ، المزهق للأرواح ؛

هَيْهَاهُ هَيْهَاهُ ، دعونا من هذا الطلب الخطر ، فإن شراً واحداً أهون من شرين ، حقاً إن وعدكم بحفظ بنيامين هو كوعدكم سابقاً بحفظ يوسف ، وعدان خلابان يخرجان من مصدر واحد ، هو المكر ، ومن ينبوع واحد هو الختل ؛ هذا ما يظن أن يعقوب عليه السلام أجاب به أولاده جهرأ ؛ ثم لكأنني به جعل يقول بينه وبين نفسه :

لئن أرسلته معهم لا يكونن رجل في فلسطين أعظم مني لوعة ، أنا كلما ذكرت يوسف وجدت في وجه أخيه العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنها إن فقدت وجهها معاً ؟ .. بنيامين هو صورة يوسف الباقية عندي ، هو رسمه التذكاري ، هو رائحة تلك الوردة الذابلة ، هو الممثل الوحيد لذلك الولد الفقيد ، هو البقية الباقية من آثار « راحيل » ، هو المعزي عن أمه وأخيه ، فمن لي بجزء سواه إن فقدته ؟ ..

قال هل آمنكم عليه

— ٣ —

وقال الشيخ الطفيلي (١) : لي ههنا ذيول :

موقف يعقوب مع ابنائه في طلبهم بنيامين

للذيل الأول — هذا الموقف الذي وقفه يعقوب ههنا مع أولاده موقف سلمي

(١) نسبة الى الطفيلة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

خلافًا للزخخشري ومن تبعه من المفسرين ، فهو بقي مقيماً على المخالفة ، مصرأ على الإباء ، غير واقف معهم موقف إيجابي ، إلا بعد مذكروا عدة محسنات ، وبعد ما أتوه موثقاً (ع ٦٥ و ٦٦) ، وأما قول يعقوب (فآله خير حافظاً الخ) فمعناه إن أردت أن أرسله معكم ، فلا أعتد على حفظكم له ، فآله خير حافظاً الخ ، ولكني لا أريد .

عمر بنيامين عند ما طلبه اخوته من ابيهم

الذيل الثاني — ربما يتوهم بعض القارئ من قول إخوة يوسف (وإنا له لحافظون) وقول أبيهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم . . الخ) ثم قولهم (ونحفظ أخانا) وقول أبيهم (لن أرسله معكم حتى . . الخ) — ربما يتوهم متوهم من مجموع هذه الأقوال المتبادلة أن بنيامين كان صغير السن ، بحيث يخاف عليه إذا سافر ، وليس هذا التوهم في محله ، والآيات الكريمة لا توهم شيئاً من ذلك ، كيف وقد كان عمر بنيامين حينما فارقه يوسف سبع سنين ، ثم مضى على يوسف بمصر ٢٣ سنة ، ثم افترى يوسف في طلبه عنده ، وعند ذلك دارت هذه المحاورات والمقاولات بين يعقوب وأبنائه .

نعلم من التاريخ أن بنيامين كان وقتما ذهب لمصر ابن نحو ثلاثين سنة ، كما في السنن القويم « وقد ورد أنه كان له حينما دخل مصر خمسة بنين صلبية ، على رواية سفر العدد (٢٦ : ٣ — ٤٠) ، أو كان إذ ذاك عشرة بنين على رواية سفر التكوين (تك ٢٠) ، وعليه فلم يكن « بنيامين » حين هبوطه لمصر صغيراً وبالتالي لم يكن خوف أبيه عليه لذلك ، وإنا أبوه كان يخاف عليه من مجموع إخوته العشرة أن يتواطأوا عليه ، كما سبق أنهم تواطأوا على أخيه ، فآلخوف عليه ليس من واحد أو اثنين مثلاً ، وليس من ذئب أو نحوه ، حتى يصح هذا التوهم ، ولكن آلخوف من رجال عشرة يعدون « عصابة » ورهطاً ، قد عهد منهم سابقاً ،

ما يحمل على الخوف الآن ، وإن السبب الذي دفعهم للإيقاع بيوسف — وهو زيادة حب والده له أكثر من حبه لهم — متحقق في بنيامين ، كما كانوا قالوا منذ ٢٣ سنة : (ليوسف وأخوه ، أحب الى أئتنا منا) ، لاسيما وقد صاروا بعملهم السابق من أهل الضراوة والعادة تثبت بجرة ، ولكل امرء من دهره ماتعود ، ومما ربه يجرئهم (بنوع خاص) ان أبيهم لم يعاقبهم ، ولم يجازهم على إيقاعهم بيوسف شيئاً ما فلهذا أو جس منهم خيفة وأجابهم بذلك الجواب السلي .

هذا ما تيسر لنا الآن تحقيقه ، قد ألقينا عفواً بين يديك فاحفظه والا فالسلام عليك .

الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب وأولاده

الذيل الثالث — قص الله علينا ما دارهنا من المقاولات بين يعقوب عليه السلام وأولاده ، لكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل ، كيف لم يأتهم أبوهم على أخيه الأصغر ، حيث سبق أنهم خانوا الأمانة لما ذهبوا بأخيه الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربا تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلا ، وقص الله علينا ذلك ، لنقيس نحن حاضر أحوال سلائهم (أبناء العم المكرمين !!) ، على ماضيه ، ولنكون على حذر تام من يهود اليوم ، وإذا كان النبي ﷺ قال : « احترسوا من الناس بسوء الظن » كما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي والعسكري من حديث أنس ، فينبغي أن تكون اليهود من أول هؤلاء الناس ، خصوصاً الصهيونيين منهم ، عافانا الله تعالى من شرورهم .

أولى الأمور بالنجاح التكرار والالحاح أو

اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم اليهم حجة للحجاج في طلب اخبرهم بنيامين

آ (٦٥) * ... وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ . وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ
رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا ، مَا نَبْغِي ؟ ! هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا ... وَنَعِيرُ أَهْلَنَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَا ، وَنَزْدَادُ كَيْلَ
بَعْرِ ، ذَلِكَ كَيْلُ يَسْرٍ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والستون فقام الشيخ العقبي^(١) وقال :

كان يعقوب عليه السلام أجاب أولاده بجوابه السلبي السابق ، فاتخذوه تعنيفاً
لهم ، ومن قبيل التكذيب لإخبارهم ، وعلموا أن أباهم لا يزال مقيماً على المخالفة ،
مصرّاً على الإباء ، فانتشر عليهم رأيهم ، ولما لم يعرفوا ماذا يجيبون ، وضاعت عليهم
أرض فلسطين بما رحبت ، وما هي إلا غمضة وانتباهة ، ان قاموا لفتح جواتهم
(ولما فتحوا متاعهم) عيدالهم (وجدوا بضاعتهم) وهي الفضة غير المسكوكة
(ردت اليهم) فما وقفوا على تلك البضاعة حتى فرحوا بها ، واعتنقوها باليمين
والشمال ، لأنهم وجدوها تساعدهم على مطلوبهم ، وتصديق كلامهم ، فتقووا وتشجعوا
في طلب أخيهام كرة أخرى ، وظنوا أنهم بهذا السبب يستطيعون أن يتسلطوا على
أفكار أيهم ويقنعوه (قالوا) بنعمة المحتج الظافر بما يبرهن صحة كلامه : (يا أبانا)
المعظم لسنا اليوم كما تظن فينا ، لقد رأينا ما يصدق قولنا ، فنحن (مانبي) أي

(١) نسبة الى بلدة العقبة من بلاد الشام (شرق الاردن)

لسنا نتزید فیما وصفنا لك من إحسان « العزيز » ولا نكذب فیما حکیناه من إكرامه لنا ، فإننا نحمل شهادة الصدق فیما نخبر ، نحن قلنا لك الصدق فلا تستغشنا ، هاأن الغامض قد انكشف ، وأبدت الرغبة عن الصريح (هذه بضاعتنا ردت إلینا) كما ترى بعینك ، الأمر الذي لم تتحرك به خواطرننا ، ولا علق بأوهامنا ، وهذا مصداق ماقلنا : إننا رأینا فی « عزیز مصر » شهياً هاماً جواداً رحب الصدر عالی الجناب ، والآآن برد تلك البضاعة إلینا ، یصیر لنا دالة عظيمة علی هذا الرجل ، فهذه فرصة یجب أن تفرص ، ونفحة من النفحات ینبغي أن نتعرض لها ، فلا یجوز لنا أن نضیع الفرصة عبثاً ، ونحن علینا الحركة ، وعلى الله البركة ، ولانظن الرجل ردها فی عدالنا إلا قصداً ، بداعي الكرم والجود الذي طبع علیه ، فكأنه لم یبعنا الميرة بیعاً ، بل وهبنا إیها هبة ، أحسن الله إلیه ، كما أحسن إلینا ، فلا ریب أن هذا عزیز فیاض معطاء ، رحب الذراع ، واسع الفناء ، فنستظهر بها عند رجوعنا إلیه ، (غیر أهلنا) الذين هم فی لولاء ولأواء ، وأزمة وبأساء ، أي نجلب لهم الميرة والطعام ، لأن امتیارنا بدون وجود بنیامین معنا ، سیکون أعقد من ذنب الضب (ونحفظ أخانا) بنیامین ، ومن آداء منا یكون دمه علی رأسه ، نحفظه من کل ید تتقدم إلیه ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، ولا تمسه ید صالحة أو أثیمة ، وأما حادثة یوسف « المرحوم » فهي « بیضة الدیک » أي من الشواذ والنوادر ، فلا یقاس علیها غیرها (ونزداد کیل بعیر) أي جمل لأن الرجل لا یعطى أكثر من حمل جمل للتقسیط ، فأرسل أخینا معنا أربع لنا وأجدی علینا ، ولسنا فی غنیة عن السعی فی هذه الزیادة ، ولماذا یقعد أخونا عن السعی ، وقد أمر الله به ؟ وإن کل فم واحد یخلق فی هذا العالم ، یخلق معه یدان اثنتان ، فان لم ینتج الإنسان بیديه الاثنتین ضعف ما یستهلكه فمه ، فعلى الأقل یجب أن ینتج مقدار ما یأکله ، لاسیما وأخونا ذو أهل وأولاد (ذلك کیل یسیر)

أي أن مايكال لنا قليل لا يقوم بأودنا ، فتريد أن نضم اليه مايكال لأختنا ، والتمرة الى التمرة تمر ، ومع ذلك فالأمر راجع اليك ، فأنت خير ، فإذا وافقتنا شكرناك ، وإذا خالفتنا أطعناك وعذرناك ، هذا هو الرأي الحازم الذي نراه الآن ، فما قولك ؟ .. قالوا ذلك وهم يتضرعون الى الله أن يغير قلب أبيهم ، ويلهمه السماح لهم بطلبتهم ، وهكذا لم يزالوا يجادلون أباهم جدال طلب ، وهو يجادلهم جدال امتناع ، ولكنهم أظهروا من ضعفهم مع أبيهم قوة ، أثروا عليه بها ، وأولى الامور بالنجاح التكرار والالاحاح ، كما كانوا أثروا عليه حينما أرادوا أخذ يوسف منذ ٢٣ سنة ، لكن نيتهم في هذه المرة كانت صالحة ، وبالنتيجة وأخيراً : اجتهد إخوة بنيامين حتى أخرجوا أباهم وأغارهم أذنًا صاعية ، واستنم لكلامهم ، وركن اليهم ، وغلب على أمره ، وسمح بإنفاذ بنيامين معهم ، لكن بشروط سلك فيها معهم سبيل الاحتياط .

(ولما فتحوا متاعهم . الخ)

— ١ —

وقال الأديب الزحلي (١) :

« ما » استفهامية في قوله ما نبغي

لاني أضمت صوتي لصوت أخي الشيخ العقبّي وأصادق على كل ما قال ، إلا أني أخالفه في كون « ما » في قوله (ما نبغي) نافية ؛ بل أقول إنها استفهامية ، بمعنى أي شيء نطلب وراء هذا الإحسان ؟ أي ماذا نطلب ونزوم ؟ وما هو الأمر الذي نحاوله وتتوخاه فوق ذلك ؟ ... وإنما رجحنا أنها للاستفهام لقراءة ابن مسعود : ما نبغي ؟ بالتاء على مخاطبة يعقوب عليه السلام ، بمعنى أي شيء نطلب وتريد فوق هذا الجود والعطف .

(١) نسبة الى بلدة زحلة في لبنان .

وبعد ، فعندي عدا عما ذكرت عدة فوائد على هذه الآية الكريمة :

اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء

الفائدة الأولى — يريدون بقولهم لأبيهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » ان هذه أمور أربعة استفدناها ونستفيدها بعودتنا الى مصر مع أخينا بنيامين وهي : رد العزيز بضاعتنا اليها في المرة السابقة وربما ردها في المرة اللاحقة والامتيار ثانية وحفظ أخينا إذا أخذناه ثم أخذ ميرة بغير اسمه ، وكلها ذات بال ، تهون عليك النزول على مانرجوه منك ، ونعرضه عليك من إرسال أخينا معنا ، فأخبرنا بالنسي اجتمع عليه رأيك.

نجاح حيلة يوسف في طلبه بنيامين

الفائدة الثانية — قولهم : « هذه بضاعتنا .. الخ » وبذلك تمت حيلة يوسف على إخوته ، بل وعلى أبيه ، فقد كان لهم فيما أتاه معهم من الجميل والمكرمة حجة بالغة على أبيهم حينما طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم في سبيل الميرة بعد تلك الكرة .

معنى الميرة

الفائدة الثالثة يقال : مار يمر من الميرة ، وهي الطعام ، وفي معناه ماد يمد ومنه المائدة ، أي المطعم ، وكما يقال لها « ميرة » يقال لها « غيرة » كما في القاموس ..

معنى البعير

الفائدة الرابعة — كما يطلق « البعير » على الجمل وهو المشهور ، يطلق أيضاً على الحمار ، وقد نقل ابن جرير عن مجاهد أن البعير هنا هو الحمار ، وسيأتي لهنا البحث تمة عند تفسير (آ ٧٠) .

معنى المتاع

الفائدة الخامسة — « المتاع » الأوعية بما فيها الميرة والطعام ، ومطلق إناء يقال له « متاع » قال تعالى : ﴿ وما يوقدون عليه في النار ، ابتغاء حلية أو متاع ﴾ (١٣ : ١٩) ، والمتاع ما يتمتع به ، أي يتتفع به زمناً ممتداً في الجملة ، لأنه من « المتوع » وهو الامتداد ، يقال : تمتع النهار ، ومتع النبات ، إذا ارتفع وامتد « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٣ : ١٨٥) .

قلب المؤمن ربه أو

استراط يعقوب على اولاده لرسال بنيامين معهم أن يعاهدوه على ارجاء

آ (٦٦) ﴿ ... قال لن أرسله معكم حتى تؤثون موثقاً من الله كتأثنتي به ، إلا أن يحاط بكم ... ، فلما آثوه موثقهم ، قال : الله على مائيقول وكيل . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والستون فقام جمال بك العكاري (١)

وقال :

أيها السادة تلك المقولة التي دارت بين يعقوب عليه السلام وأولاده العشرة ، بين جزر ومد ، ورعبة ورهبة ، وطلب وإباء ، وأخيراً : كأني بيعقوب قال لهم : « لا تطلبوا مني بنيامين ، فما أنا بشقي مارأيت ولدي بجاني ، وما أنتم بأشقياء ماقتنم بها يحمله كل واحد منكم من « الغيرة » ، لا يزيد زيادة على ما تمارون بحسب عددكم »

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

— سمعوا منه ذلك ، وكأني بهم قالوا : « لم نسألك إرسال أخينا معنا ، إلا ونحن نتوقع أن نسمع منك عين هذا الجواب السلي ، ولكننا لانرى ندحة عن إرسال بنيامين إذا كان لك ولنا فكر في الرجوع »

وبما ذكر من المقاولات والمحاورات قدروا على أن يقنعوا والدهم بلزوم أو باستحسان إرسال بنيامين معهم ، ولا ريب أن الإقناع يولد الميل في نفس السامع ، ولهذا تطور فكر أبيهم تطوراً جديداً ، وافكر بإرساله بشرط ؛

نعم نعم ، إن يعقوب عليه السلام رأى المناقشة حامية ، ودرجة حرارة الجدل مرتفعة ، فمضى مع ذلك محتفظاً باشتراطه عليهم أن يحلفوا له ويأهدوه بارجاعه له سالماً ففعلوا .

هذا ما ذكره دخولاً على قوله تعالى (قال) لهم أبوهم : قد أوليتكم ما توليتهم ، لكنني أنا اليوم قد صرت ممن يطلبون إيضاح الخطة قبل الدخول في المعركة ، فقد كنت تساهلت نوعاً عند إرسال يوسف معهم ، منذ ٢٣ سنة ، والآن لا أريد أن أعيد كرة هذا التساهل ، ولذلك ولكوني أرى الخطر يهددني (لن أرسله معكم) ولا فواقاً (حتى) تضعوا أيديكم في يدي (تؤتون موثقاً) أي تعطوني ميثاقاً^(١) أتوثق به (من) جهة (الله) عز وجل ، وهو الحلف به بأن تتحملوا مسؤوليته : لتَحْمُنَّهُ ولتَدْفَعُنَّ عنه و (لتأتني به) فإن رجعتم بأخيكم سالماً ، كنت راضياً عنكم ، وإن كانت الأخرى - لاسمح الله - سخطت عليكم ، وقوله « لتأتني » جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتني به ، أي لا تمتنعون عن الإتيان به في حال من الأحوال العارضة ولعله من العلل - (إلا) لعله واحدة ، وهي (أن يحاط بكم) أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، أو إلا أن تهلكوا ، فهل تفوا لي هذه المرة بما تقولون ، ولي عليكم بذلك العهد والميثاق ، ماذا

(١) اصل الميثاق في اللغة عقد يتأكد بيمين .

ترون ؟ — فقالوا له : تأمر وتطاع ، حسناً ، ليكن كما تريد ، فلك علينا العهد والميثاق أن نَفِيَّ لك ، وأن نرد إليك ابنك ، فوالذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لنأتينك به ، إلا أن يمنعنا قدر واقع ، ماله من دافع ، وإنا غوت بموته ونحيا بحياته ، لك ذمة الأُلوه يَهُوَهْ ، وذمة أبراهام وإسحاق وذمتنا على ما أحببت ، نحلف بآءِهْ ، لا يعترض أحد بيننا وبين احتفاظنا بأخينا بنيامين ، إلا أهرقنا دمه ، ومشينا على جثته ، ما كان لنا به قوة ، ولن يصل إليه أحد ، إلا بعد أن نكون جثثاً باردة هامة بين يديه ، ولسوف نرجع به إليك ، وهو على أحسن ما يكون من العافية ، اللهم إلا إذا قاومنا ما يجعل قوتنا ضعفاً وقدرتنا عجزاً ، فمعدرة عندئذ منا إلى الله وإليك .

وهكذا أقسموا لأبيهم بالله جهد أيمانهم ، وحلفوا له بكل مُحَرَّجَةٍ (١) من الايمان أن يرجعوه له ، وأن يحتفظوا به كما يحتفظون بأنفسهم ، ويذبوا عنه كما يذبون عن حياتهم ، وأعدوا لذلك الموثق 'عدته من شجاعة النفس ، وقوة العزيمة والإخلاص القلبي ، وهكذا أرهقهم أبوه صعوداً بما حملهم من الشرط الثقيل ، والميثاق الشديد (فلما أتوه موثقهم) ، وآنس منهم صدقاً لم يعهده قبل منهم (قال الله) وأشار بأصبعه ونظره إلى السماء (على ما نقول) من طلبي الموثق منكم ، واعطائكم لي هذا الذي طلبت (وكيل) مطلع رقيب ، لا تخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده ، وفجر في الحلف به ، أو موكل اليه القيام بما شهد عليه منا ، فيسجل التاريخ عليكم ذلك ، وتحفظه عليكم الملائكة ، ومستكون هذه المعاهدة والمواثقة تحت مراقبة الإله الحق ، سبحانه وتعالى .

وبهذا الذي حصل ، حصل السماح من يعقوب عليه السلام بسفر ولده بنيامين ،

(١) الايمان المحرجة : التي تصيق مجال الحلف وهي بتشديد الراء من حرج وبدون تشديد

فكأنما هذا « الموثق » هو « جواز سفرهم » لمصر بأخيهم بنيامين والله تعالى أعلم

(قال : لن ارسله معكم . . الخ)

— ٢ —

وقال السيد احمد الصفدي^(١) : يمكننا ايها المستمعون الكرام ان نعلق على هذه الآية بالتعليقات الآتية :

الاحتياط والتحفظ لزمانه بجانب المقدر

١- كان يعقوب عليه السلام ، استرسل استرسالاً في شأن يوسف وإنقاذه معهم سابقاً ، وسمح بذهابه للمرعى دون شرط ولا قيد ، فرآى من سوء المغبة ، فهاهنا لما شعر بذلك التساهل احتاط في أمر بنيامين ، ومع ذلك ما أغنى عنه ذلك شيئاً فتعلم من هذا أن المقدر كائن لا محالة ، كما نتعلم أنه على كل حال ينبغي لنا الاحتياط والتحفظ ، أخذاً بأسباب السلامة ما أمكن .

وجوه سماح يعقوب بإفقاد بنيامين مع اخوته

٢- سمح يعقوب بإفقاد بنيامين معهم وقد شاهد ما شاهد ، وجرب ما جرب لوجوه : أولها استيشاقه باليمين المخرجة التي حلفوها له ، وعلى الأخص لما شخص بيصره نحوهم وجعل ينظر الى سحنهم ويتأمل في أقوالهم ويتفرس في حركاتهم . ومسكناتهم ، فرآى الاخلاص ظاهراً متجلياً في كل كلمة من كلامهم ، ورآهم يومئذ للصدق أقرب ، فجنح لموافقهم إنما بتعديل .

ثانيها إنهم كانوا تقدموا في السن ، وذهب عنهم نزع الشباب ، ثالثها أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والعداء مثل ما كان بينهم وبين يوسف .

(١) نسبة الى صفد من بلاد الشام (فلسطين)

رابعها ضرورة القحط أحوجته وسهلت عليه ذلك .

الحالف بالله حالف على حساب الله

(٣) — قوله : ﴿ موثقاً من الله ﴾ جعله منه تعالى لأن من حلف بالله ، كان كأنه قد كفى الله على نفسه ، كما قال جل من قائل : ﴿ ولا تنقضوا الإيمان بعداً توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (١٦ : ٩١) « ولما كان الكفيل كالأصيل ، صار المتعهد كأنه هو الله ، فالحالف بالله فهو حالف على حساب الله ، ومتعهد باسم الله ، فكان الحالف يقول : « إني أتعهد ليس باسمي ، بل باسم إلهي » وعلى الأقل كأنه يقول : « إني أتعهد وأجعل الله كفيلاً لي على هذا التعهد » ، والدليل على ذلك أنني أتقدم وأحلف باسمه تعالى ، « هذا هو وجه قول يعقوب عليه السلام ، إن الموثق الذي تترابط عليه الناس هو عند الحالف باسم الله — من الله ، هذا ما ألهمنيه المولى الكريم ، فتح الله على من تلقاه بقلب سليم .

مضى يعقوب بما سيبري ولؤوده قبل أوانه

(٤) يقول يعقوب عليه السلام « إلا أن يحاط بكم » ، فسبحان الملهم ، وجل المنطق ، كان يعقوب يرى ويحدثه قلبه بشيء سيلاقونه ، ويحقق بهم ، ولكنه يحمل عنده لم يتمين في نظره ، فكان يتخوف منه كثيراً ، وكأني به أنه كان يتخيل كرباً شديداً يحقق بأولاده ، وربما يكون ذلك جيشاً يحيط بهم في سفرتهم هذه ، يرون منه يوماً عصيباً ومن الغريب أن هذا الخيال ، قد فسره الحادث الذي وقع ، فقد أحاط بهم عزيز مصر وفتياناه الذين عملوا عليهم الحيلة ، وأرهقوهم بها ، وبواسطتها كان إمساك بنيامين بمصر ، وقلما نرى حادثاً مهماً لم تتقدمه الهواجس .

وهو - التعلم من دروس الماضي

(٥) — للماضي دروس تعلم الإنسان أموراً لم يكن في البال أن يتمسك بها ،

هو بهذه الدروس يدرس مافي جمعة الدهر من خفايا وأسرار ، فيحرص على اجتناب كل مضر منها ، وتقديم كل نافع مفيد ، وترانا لانذهب بعيداً للاستدلال على صحة ما نقول ، فهذا صفي الله إسرائيل (١) هو اليوم غيره ، قبل ٢٢ سنة . ومن ينكر أن هذا الصفي الكريم كان قبل ٢٢ سنة ، قد استرسل مع أولاده ، لحسن ظنه فيهم ، حتى جاؤوه وأثروا عليه ذلك التأثير المغناطيسي ، وسحبوا ولده المحبوب — يوسف — من حضنه ، وأسلموه لحضن الحب ... لا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، كان أبوهم أمس هكذا ، ولكنه اليوم يخافهم ، كما يخاف الثعالب والثعالي ، فهو بين أمس واليوم قد تغير فكره في أولاده ، وشرع يسلك معهم سبيل الحيلة ، فلذلك لم يرد أن يلي طلبتهم ، بأخذهم بنيامين لمصر ، إلا بعد اللتيا والتي ، وبعد استيثاقه منهم بالايمان المخرجة ، فهكذا ينبغي لنا نحن أن نكون مع الناس المشتبه فيهم ، لاسيما سلائل هؤلاء الآباء ، أعني يهود اليوم . « أبناء العم المحترمين » ...!!

معنى الاطاعة بالشئ

(٦) — قوله ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ .. يحتمل أن معناه إلا أن يحاط بكم من من أولي الصهيل والصليل ، وتلتف حولكم أهل السلاح والكراع ، وتلتقي حلقتا البطان ، فتغلبكم أعداؤكم ، ولا تقدرّون على الدفاع عنه ، فيصادر منكم مصادرة . فلا تقدرّون على الإتيان به ، ومنه قوله تعالى : ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾ (٢٩: ١٨) وقوله تعالى : ﴿وأخرى لم تقدرّوا عليها قد أحاط الله بها﴾ (٣١: ٤٨) ، ويحتمل أن معنى «إلا أن يحاط بكم» .. إلا أن تهلكوا في سبيل الدفاع عنه ، وتنشب بكم أظفار العدو ، وتعلق بكم مخالبه ، وتقتلون في

(١) كناية عن سيدنا يعقوب عليه السلام .

الذب عن حياته ، وترتطموا في مهاوي المتالف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ، وظننوا أنهم أحيط بهم ﴾ (٢٢:١٠) أي أهلكوا ، جعل إحاطة العدو بالحى مثلاً في الهلاك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وأحيط بشمره فاصبح يُقلب كفيته على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ﴾ (٤٣:١٨) فالإحاطة هنا عبارة عن الإهلاك ، وقوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ (٦٠:١٧) أي أهلكهم وهم المشركون من قريش في غزوة بدر ، كان أخبره بذلك سلفاً قبل وقوعه ، وقوله تعالى : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٨١:٢) أي أهلكته .

وعد رأويين ويهوذا لأبيهما باعادة بنيامين اليه

(٧) — ورد في سفر التكوين ، أن « رأويين » كلم أباه وقال له : « اقتل ابني إن لم أجيء به اليك ، سلمه ليدي وأنا أردده ليدك » (تك ٣٧:٤٢) ولم يكن « رأويين » يعتقد أن يعقوب يقتل حفيديه حاشا ، بل قال ذلك توكيداً له انه لا يكون على بنيامين أدنى خطر ، وأن « يهوذا » قال لأبيه « أرسل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحميا ولاغوت نحن وأنت وأولادنا جميعاً ، أنا أضمنه ، من يدي تطلبه ، أنا إن لم أجيء به اليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً اليك كل الأيام ، (تك ٤٣:٩٨) .

نصح يعقوب لاولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ (٦٧) * ... وقال : يَا بَنِيَّ ، لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ،
وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ . وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والستون فقام الشيخ اسماعيل
الصيداوي (١) وقال :

أعد أبناء يعقوب بما فيهم بنيامين معدات السفر وتجهزوا للرحيل فأخذ
أبوهم في نصيحهم (وقال) لهم بلمهجة المشفق : (يَا بَنِيَّ) الأحاد عشر ، لا تنسوا أن
« العين حق » واني أخاف عليكم عين الحاسد ، إذا عمل بمقتضى حسده ، وعين
الظالم ، متى جرى على طبيعة ظلمه ، وعين السارق والمفسد والواشي ، ولا تغفلوا عن
« ان العين لتدخل القبر ، والجمل القدر » ، ولا أظنكم نسيتم ماجرى لكم
عند دخولكم مصر في سفرتكم الأولى ، من لفت نظر الناس ورجال العزيز عليكم
لدخولكم مجتمعين ، لذا حينما تصلون في هذه السفرة الى مصر أوصيكم أن (لا تدخلوا)
كوكبة واحدة (من باب واحد) من أبوابها الأربع ، لئلا تكونوا موضع التفات
الناس ، كما كنتم في السفرة الأولى ، مظنة لطموح الأبصار اليكم من بين الوفود
(و) لكن (ادخلوا) « الفرما » التي هي أول حصن في طريقكم لمصر (من أبواب)
« كانت لها أربعة أو أكثر » (متفرقة) ومتباعدة عن بعضها البعض ، وذلك

احوط لكم ، تحاشياً من ضرر شرطة مصر ، وتفادياً من اعين كل اهل سوء (و) مع ذلك ، فانا (ما) لست (اغني) ادفع (عنكم من) امر (الله) تعالى (من شيء) .. حاشا .. فإنه تعالى يجري الأمور بنظام ، تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب ، (إن) ليس (الحكم) والقضاء الفعلي (إلا لله) الذي بيده المستقبل (عليه توكلت) بعد مراعاتي سننه (وعليه فليتوكل المتوكلون) وليس احد في سعة عن الاتكال عليه ، وخاصة اتم فإنكم غرباء ، والغريب اعمى ، ولو كان بصيراً .

ملحوظة — لا بد انكم ايها السادة تنبهتم لتفسير الآثار الواردة في « العنّين » وضررها ، الذي حشوته في كلامي حشو اللوز في الفالوج ، وقريب من هذا تأويل فريق من العلماء لقول : « إن يكن الشؤم ففي ثلاث : في المرأة والدار والفرس » وبعضهم يزيد : « والخادم » فقد اولوا ذلك بأن شؤم المرأة سلاطة لسانها وتعرضها للريب ونشوزها وعقمها وتبرجها ، وشؤم الدار ضيقها وعدم جريان الهواء فيها ، ورطوبتها ، وشؤم الفرس حرانها وغلاء ثمنها ، وشؤم الخادم سوء خلقه وخيائته وكسله وقلة تعهده لما فوض اليه وجهله بما يشتريه وجهله بتدبير المنزل .

(وقال : يا بني لاتدخلوا .. النخ)

— ٢ —

وقالت الشيخة فاطمة الصيداوية :

استعدادا أبناء يعقوب الاصر عشر للسفر ونصح ابيهم لهم

لما سمح يعقوب عليه السلام بإنفاذ بنيامين مع إخوته الى مصر فرحوا فرحاً شديداً واخذوا يعدون العدة للسفر وقبل الرحيل بقليل قصدوا خيمة ابيهم

لوداعه ، فلما مثلوا بين يديه وقف بينهم مرشداً وناصحاً إذ قال لهم يا بني إن الوصية لو تركت لفضل ادب ، تركت لذلك منكم ، ولكنها تذكرة للغافل ومعوثة للعاقل وعليه فأوصيكم متى تجاوزتم « العريش » ووصلتم « القرما » قرب « قطية » وهي اول حصن لمصر في طريقكم فإياكم ان تدخلوا اليها من باب واحد من ابوابها ، ولا تضعوا امركم في موضع الغرر ، ولا تخاطروا بأنفسكم ، فإني لا آمن من ان تلتفت اليكم رجال الدولة المصرية ، كالشرطة والعيون الراصدة والعسس ، وإني اخاف عليكم من العين ، عين الشرطي وعين « الجاسوس » وعين الحسدة والمكررة ، فيكون في ذلك ما اكره وتكرهون ، لاسيما انكم ذوو بهاء وشارة حسنة ، وانكم من اهل فلسطين اعداء مصر والمصريين ، ولذا تلافياً لكل محذور ادخلوا من ابواب لها متفرقة لتتعدد متوجهاتكم ولتتفرق مداخلكم لأنكم إذا تفرقتم كنتم مغمورين مجهولين بين الناس ، فلا تلتفت الأفكار نحوكم ، فليس التجمع مفيداً في كل شيء ، بل قد يكون مضرراً في بعض الحالات ، فحفظوا عورتكم واحترسوا من غفلتكم ، ولا تلقوا بأيديكم الى ماعسى ان يكون فيه تهلكة . هذا هو الرأي الصليب الذي اراه الان ، وعلى كل حال فليس باستطاعتي ان ادفع عنكم بما قدر الله عليكم من شيء ، إذ لو اراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما اشترت به عليكم من التفرق ، بل هو مصيبيكم لا محالة ، بالرغم عن السدود التي اقيمتها في سبيل ما اخشى ان يصيب اخاكم ويصيبكم ، لأنني لا اعلم شيئاً من الغير التي ستكون ، ولا اعلم ما يأتي به الغد في طياته من الحوادث ، لست ادري ولا المنجم يدري :

قال الشاعر :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقال آخر :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

هذا هو « القَدَر » الذي لا محيص عنه ، فهل أنا أقدر أن أمتعه عنكم بوصاتي إليكم ؟ أستغفر الله فيها أنا أنتظر ما سيجيء به القدر ، واني عالم بأنه إذا كان الداء من السماء بطل الدواء ، كما أعلم أن يد الله فوق كل الأيدي ، وأنه المسيطر الوحيد الفعال لما يريد ، ولكن اليقين بالقدر لا يمنع الحازم من توفي الممالك ، وليس على أحد النظر في القدر المغيب ، ولكن عليه العمل بالحزم ، ونحن نجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالحزم ، وأخيراً فليس الحكم والقضاء الفعلي على سبيل الحقيقة إلا لله غصباً عن الفلك ، فاذا أسند الحكم والقضاء لغيره فهو على سبيل الصورة والإضافة المؤقتة (انظر تفسير ع ٤٠) نعم نعم ، ليس الحكم إلا لله وحده ، رغماً عن معاطسنا ، فهو الإله الذي تتبخر أمامه أحكام جميع الخلق فتصبح دخاناً منشوراً ، ومع كل هذا فلا ينبغي أن أبذل كل ما أستطيع من أخذ الحياطة ، لئلا أكون اسير الحسرة والندامة إذا — لا سمح الله — صار ما أكره عليه توكلت لا على سواه ، وعليه لا على أنفسهم ولا على قوتهم وعددهم ولا على أولادهم فليتوكل المتوكلون .

ولما سمع أولاد يعقوب تحذير أبيهم وتعليمه ونصحه قالوا له : لبيك ليكن كما تريد ، ثم تقدموا منه وودعوه وركبوا وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، فرحاً بقدمهم على « عزيز مصر » ، الذي لم يجربوا منه بعد سوى الإكرام ...!!! وكأني بيعقوب عليه السلام حين ودعه أولاده قال لهم بلسان حاله : الى الملتقى يا أبنائي ، على الطائر الميمون يا أولادي ، ثم لكأنه حين وداعه « لبنيامين » قال بينه وبين نفسه : في عهد الله أيها الابن المشكول ، وفي حراسة الله يا ولداه ، في ذمة الله وكنفه ، أنت سلوى أبيك الشيخ ، أنت التعزية الوحيدة عن أخيك الفقيد ، أنت الأثر الباقي بعد « راحيل » خال الله لك في مفرتك ، الى الملتقى ، الى الملتقى .. الوداع الوداع ، الى يوم الاجتماع :

خف إذا أصبحت ترجو وارح إن أصبحت خائف
رب مكروه مخوف فيه لله لطائف
(مرحى مرحى)

(وقال : يا بني ، لا تدخلوا ..)

— ٣ —

وقال السيد الإسكندري : عندي على هذه الآية المسائل التالية :

سر التوكيل

١ — إن سر التوكيل وحقيقته ، هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفع الإنسان قوله : « توكلت على الله » مع اعتماده على غيره ، وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء ، فقول العبد : « توكلت على الله » مع اعتماد قلبه على غيره ، هو مثل قوله : « تبت إلى الله » وهو مصر على معصيته مرتكب لها ، كذلك توكل العبد على الله مع عدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلاً .

وجوب الوضوء بأسباب التحرز والحيلة مع التوكل

٢ — نعلم من قوله : لا تدخلوا .. وادخلوا ... عليه توكلت ... ان يعقوب عليه السلام فضل التحرز والحيلة ، ومع ذلك فقد القى حبل اتكاله على الله ، فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، وكلام يعقوب يشير إلى أنه لا منافاة بين الأخذ بالأسباب والتوكل ، لأن التوكل ليس هو إلا الثقة بالله تعالى .

والاعتماد عليه والاعتقاد ان الأمر منه واليه ، ولو مع الآخذ في الأسباب ، وما قاله يعقوب عليه السلام هو على حد قول خفر الكائنات : « اعقلها وتوكل » ، أشار الى أن عقل الناقة لا ينافي التوكل ، وقوله عليه الصلاة والسلام روي له الفداء : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » ، فأثبت للطير توكلًا مع ذكره انها تغدو وتروح .

المؤمن بأسباب الحيلة والسلامة فرضي ديني

وبعد فترانا في هذا المقام ، لا نقف عند هذا الكلام ، فنقول : غني عن البيان ان يعقوب عليه السلام هو نبي كريم ، وطبعاً يعلم كما يعلم كل مؤمن أن لا شيء يجري في هذه الحياة بدون قضاء الله وسماحه ، ولكنه يدرك مع ذلك ان سعيه في أسباب الحيلة والسلامة من الوقوع فيما يكره ، هو فرض من فروض الدين ، فنفسية يعقوب أرقى جداً من نفسية كل من يستسلم للقضاء والقدر ، ولا يأخذ في أسباب السلامة على قدر الإمكان ، وماذا عسى أن يكون مبلغ علم الناس ، عند علم يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ إيمان الناس ، عند إيمان يعقوب ؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ ثقة الناس بالله ، عند ثقة يعقوب ؟ ولكنه هو الآخذ بالأسباب المفروض على كل مسلم ومسلمة .

أسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل

منهم من القضاء والقدر

إن الغربيين هم أتباع ديانات ، يعلم فيها بالقضاء والقدر ، كما يعرف ذلك تماماً من توراتهم وزبورهم وإنجيلهم ، وسائر أسفار الأنبياء التي بأيديهم ، ولكنهم مع ذلك يدركون أن نشاطهم وابتعادهم عن طرق الشر ، وتعاونهم ومشايرتهم — كل

ذلك عندهم فرض من فروض النجاح، حتى ولو كان الأمر الذي يزاوونه بسطاً، لا يحتاج لتحفظات جدية، ولا الى أيدي كثيرة .

قد يجوز أن يكون هذا الموقف المختلف، الذي يقفه كل فريق منا ومنهم بازاء ما ندعوه « قضاء وقدرًا » هو من أسباب نجاح الغرب، وتأخرنا نحن أهل الشرق، وقد يجوز أيضاً أن يكون سبب خذلان مشروعاتنا الاقتصادية، وشركاتنا التجارية، وفقدان المؤسسات النافعة، من بين ظهرانينا هو نتيجة هذا الاتكال على « القضاء والقدر »، ليقدم لنا ما نطلب، ويتحفظنا بما نحتاج اليه، والأمر لو وقف عند هذا الحد، لمان الخطر، وقلنا: إن الشرقيين شعب له ثقة بالله، واتكال على قضائه وقدره، والله سبحانه وتعالى لا يخيب من يقصده، ولا من يتكل عليه، ولكن المصيبة في أن هذا الشيء تأصل في عقولنا، وتوسعت فيه نفوسنا، وتشبعت منه أفكارنا، فتيسرنا وجمدنا، وضرب علينا الكسل قبا به، ونصب حولنا الفشل خيامه، حتى ان الإكثار من ذكر « القضاء والقدر » أصبح عادة متمكنة من نفوسنا، وغدا ذلك شعاراً لنا عند كل عمل أردنا مزاويلته، فصار لنا ذلك بمثابة طابع لنا نحن الشرقيين، نطبع به كل عمل، من صنع أيدينا، أو هو العلامة المسجلة لكل عمل أردنا أن نعمله، أو هو العقبة الكؤود التي إن لم تمنعنا من الاقدام على جلائل الاعمال، منعتنا من المثابة والإتمام .

انواع الناس بالنسبة الى عقيدة القضاء والقدر

(٣) — أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر، ثم أشار الى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة، ولا مغنية عن حكم الله شيئاً.. والناس في هذا الباب ثلاثة أنواع :

النوع الأول — متسبب صرف، قد قصر نظره على السبب وقوته وضعفه،

وهؤلاء هم المنكرون لوجود الصانع المختار، من قبيل الماديين والطبيين والدهريين، وظاهر أنهم من أهل الإلحاد، الذي ليس وراءه الحاد .

النوع الثاني — اتكاليّ صرف معرض عن الأسباب والوسائط، والآلات والأعمال، لا يريد أن يفكر ولا يتحرك، ولا يعمل عملاً ما، اتكالاً منه على القضاء والقدر، واعتماداً على ما سبق في العلم أزلاً، وإن شيئاً من هذا لا يتحول ولا يتحور، ولا يزيد ولا ينقص، وإن العمل وعدمه سيان، والحركة والسكون أخوان، وظاهر أن هؤلاء أهل جمود وكسل وجهالة، غاطون في تصوراتهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون، وهم بهذا مخالفون لشرائع الله وأوامره جميعاً، يُحتجّ عليهم ويثربون، ويحكم عليهم بأنهم عصاة ضالون، وهم للجنون أقرب منهم للعقل، ولو كان الناس كلهم على شاكلتهم، لما أتى قرن واحد، وعلى وجه الأرض إنسان، وأشرف منهم الطير والحيوان .

النوع الثالث — من يثق بالله تعالى، ويعتمد عليه، ويعتقد أن الأمر منه واليه، مع أخذه بالأسباب، ودأبه على العمل بجِد ونشاط؛ وظاهر أن هؤلاء أتقياء أهل الايمان، وهم أهل التوكل المشروع، وهذا ما جرى عليه يعقوب عليه السلام في وصيته لأولاده كما ترى .

التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي والاخروي

(ع) لينظر القاريء اللبيب قول هذا النبي الكريم : « لا تدخلوا . . الخ » ، مع قوله : « عليه توكلت » ، مع مدح الله له بقوله : « وإنه لذو علم لما علمناه » يجد أن الاحتراس من الأمور الضارة بمدح الله عليه من فعله ، ويسلم له دعواه التوكل ، فليسمع هذا جهلة المتصور لحين ، الذين لا يفهمون التوكل إلا بأنه معاداة الأسباب وإهمالها ، وليعلموا أن الله ورسله يكذبونهم ، وأكبر رد على من يستهين بالأسباب قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، ﴾

آ (٦٧) التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي والاخروي ١٠٥١

فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ (١١٢:٢) ﴾ ، قال الله تعالى لم يقل ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ إلا بعد قوله ﴿ وهو محسن ﴾ منضياً الى إسلام الوجه لله ، وكذا قوله تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقها ﴾ (١٥:٦٧) وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم ﴾ (٧٠:٤) وقال تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ (٦١:٨) وقال تعالى ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (١٩٧:٢) وقال تعالى خطاباً لنبيه لوط عليه السلام : ﴿ فأسر باهلك بقطيع من الليل ﴾ (٨١:١١) وقال تعالى : خطاباً لنبيه موسى عليه السلام : ﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾ (٢٣:٤٤) وقال تعالى : ﴿ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (١٠:٢) وقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ (١٩٨:٢) ، وقال تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١٠٦:٩) ، الى غير ذلك من الآيات التي تحض على مطلق عمل دنيوي وأخروي .

التوكل محله القلب ، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح ، والانسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وكل من خالف ذلك فهو فاسد الفطرة مبدل خلق الله .

إذا الإنسان توكل فقط ، ولم يستعد للأمر ، ويأخذ له أهيته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه ، فيكون ملوماً شرعاً ، وعقلاً ، كما قال تعالى في الإسراف في المال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ (٢٩:١٧) وقال تعالى خطاباً لفخر الوجود ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ،

وَدَعْ أَذَانَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ (٣٣: ٤٨) قرن أمره بالتوكل بنهيه عن إطاعة من لا يوثق بقوله ، لأنه يغش ولا ينصح ، وقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٣: ١٥٩) ، قرن الأمر بالتوكل بالمشاورة ، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلباً وإيجاباً .

وبالمجمل ، ضل اثنان خير منها ثالثها ، الأول لا يريد أن يعرف النواميس ، والثاني يريد أن لا يعرف سواها ، فيقاتل الله الإفراط والتفريط .

العين الشريرة وعادات الامم في دفع اذائها

(٥٠) — قوله : « لا تدخلوا .. الخ » : يعتقد فريق من الناس خصوصاً النساء أن للعين الشريرة (كما يدعونها) تأثيراً على الاشخاص والاجرام والاشجار التي تنظر اليها هذه العين نظرة استحسان وإعجاب ، ولما كانت كل امرأة تنظر الى طفلها مثل هذه النظرة ، فهي تعتقد أن هذه « العين الشريرة » واقعة عليه لاحالة ، ولذلك قد جرت العادة أن تسليح النساء أطفالهن بسلاح يرد هذا الضرر ، فالمرأة السورية لترد العين عن طفلها تلبسه خرزة من الخرز الأزرق . والمرأة الفلسطينية ، تضع ضمن قلادة خرزة بيضاء وخرزة زرقاء ، وصورة شخص من ذهب ، تسميه « مُشَخَّص » .

والمرأة الإيرلندية ، تمنطقه بخصلة شعر من امرأة عجوز ؛

والمرأة الرومانية ، تربط كاحليه بشريطة حمراء ؛

والمرأة الإسوجية ، تضع في مهبه كتاباً من كتب الطب ،

والمرأة البلجيكية ، تعلق على صدره قطعة من النقود ؛

والمرأة الاسبانيولية ، تعلق على قبعته غصن صنوبر ؛

والمرأة الانكليزية ، تعلق فوق باب غرفته نعل حصان ، وفي عنقه زهرة من نبات يدعى « ميسيلتو » ، يوجد في غابات إنكلترا ؛

والمرأة الفرنسية ، تعلق فوق مهده غصناً من أغصان شجرة « الدرويد » المقدسة في نظرهم ؛

وبعد كل هذا فيعقوب عليه السلام إنمّا أراد لأولاده التحفظ من عيون الناس الأشقياء أهل الفساد ، ومن عيون مستخدمي الحكومة.

ابواب الدخول الى مصر

(٦) — ﴿ وادخلوا من أبواب ﴾ قيل هي أبواب « الفرما » وكان لها أربعة أبواب ، قيل : هي في محل « بورسعيد » اليوم ، أو هي في محل البحر جهة « بورسعيد » ، وقال بعضهم : « الفرما » بالتحريك والقصر مدينة على الساحل من ناحية مصر ، وبعبارة أخرى : حصن على ضفة البحر ، وهي بعد « العريش » ، وقيل إنها مدينة قديمة بين « العريش » و « الفسطاط » قرب « قطية » وشرقي « تَمَنِّيس » على ساحل البحر ، على يمين القاصد لمصر ، بينها وبين بحر القلزم ، وكان « احمد بن المدبر » قد أراد هدم أبواب الفرما ، وكانت من حجارة شرقي حصن الفرما ، فخرج أهل الفرما ومنعوه من ذلك ، وقالوا ان هذه الأبواب هي التي ذكرت في كتاب الله ، حين قال يعقوب لبنيه : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ فتركها ، قالوا : وكان « عمرو بن العاص » فتحها عنوة سنة ١٨ هـ في خلافة عمر رضي الله عنه (١) اذ سار عمرو بن العاص بالمسلمين لفتح مصر ، فوصل « رفح » ثم « العريش » ثم « الفرما ».

الحذر لا يغني عن القدر

(٦٧) — تعليقاً على قوله ﴿وما اغني عنكم من الله من شيء﴾ *

أولاً — تذكر ههنا فائدة ، هي انه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دار خربة ، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، فأصبح الجميع في عافية ، وحمّلوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، اذ دخل الرجل الى الدار للحاجة ، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً — يحكى أن عضد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر

ثم أصيب بعد شيء من الخبل والوسواس وفساد المزاج ، فكان لا ينطق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ما أغني عني ماليه* ، هلك عني سلطانيه*﴾ (٢٩: ٢٨ و ٢٩) .

هل للعبد ارادة واختيار

(٨) — وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لانه سبحانه وتعالى

الفعال لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحك ، وما أراده تعالى كائن لا محالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه ليس للعبد كسب واختيار — كلا — لأن هذا المعنى مناف للعدل الالهي ، ومناقض لحكمة التشريع السماوي ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذه ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك

النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولكنه إنغا يختار لنفسه ماوافق استعدادة ، وجرته اليه ملته وارادته وتربيته ومزاجه وورائته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيدة والعادة والحكم والاسرة والمدرسة والمجتمع والمناخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة او الشقاء .

واما قضاء الله وقدره فينا ، فيها خفيان عنا معشر البشر ، وانغا يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سنته الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بشا في هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، وهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها الى أبصارنا مافي اللوح السماوي من حكم الله وارادته ومشيتته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدراً بقدر ، حسبما هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة ، وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يعتقد انه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاء الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت الى هنا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلهي للقضاء والقدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ... ﴾ فتأمله ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

(مرحى)

قول الخوارج لا حكم الا لله

٩ — سألتني طالب علم صغير : إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكم إلا لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه ، فكيف كانوا على باطل ، وهذه الجملة شعارهم ؟ ... فتبسمت لسؤاله وشكرته عليه لحداثة سنه ، وقلت له : يا ولدي ، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل ، أريد بها الخروج

الحذر لا يغني عن القدر

(٦٧) — تعليقاً على قوله ﴿وما اغني عنكم من الله من شيء﴾ .

أولاً — تذكر ههنا فائدة ، هي انه نزلت قافلة بقرية ، فأووا الى دار خربة ، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل من منهم : يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب ذلك المكان ، فأصبح الجميع في عافية ، وحملوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك ، اذ دخل الرجل الى الدار للحاجة ، فخر عليه الحائط ، فمات لوقته ، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء !!

ثانياً — يحكى أن عضد الدولة بن بويه ، نظم شعراً ، جاء فيه قوله في صفة نفسه .

عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر

ثم أصيب بمرض من الخبل والوسواس وفساد المزاج ، فكان لا ينطق لسانه إلا بقوله تعالى : ﴿ما أغنى عني ماليه* هلك عني سلطانيه﴾ (٢٩:٢٨) .

هل للعبد ارادة واختيار

(٨) — وهو من قبيل تكميل البحوث السابقة : لانه سبحانه وتعالى الفعال لما يريد ، والمدبر يدبر والقضاء يضحك ، وما أرادته تعالى كائن لا محالة ، ولكن ليس معنى ذلكم أنه ليس للعبد كسب واختيار — كلا — لأن هذا المعنى مناف للعدل الالهي ، ومناقض لحكمة التشريع السهاوي ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها ، من أن العبد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذه ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك

النصوص ، فالعبد مختار ، حر ، مريد ، ولكنه إنما يختار لنفسه ماوافق استعدادة ، وجرته اليه ملته وارادته وتربيته ومزاجه ووراثته ، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، كالعقيدة والعادة والحكم والاسرة والمدرسة والمجتمع والمناخ ، والتعامل مع الناس ، والى غير ذلك من العوامل التي تجره الى السعادة او الشقاء .

واما قضاء الله وقدره فينا ، فيها خفيان عنا معشر البشر ، وانما يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سنته الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بثها في هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، وهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها الى أبصارنا مافي اللوح السماوي من حكم الله وارادته ومشيئته ، في تدبير هذه الكائنات ، وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام ، أراد أن يحارب قضاء بقضاء ، ويقاوم قدراً بقدر ، حسبما هو مأمور بالتمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة ، وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك ، وهو عليه السلام يعتقد انه في كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاء الله وقدره عليه وعليهم ؛ وبعد فإذا وصلت الى هنا ، وكنت من الأذكياء ، فلا بد أنك فهمت ما هو المظهر الإلهي للقضاء والقدر في قول يعقوب عليه السلام ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ... ﴾ فتأمله ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

(مرحى)

قول الخوارج لا حكم الا لله

٩ — سألني طالب علم صغير : إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب « إن الحكم إلا لله » هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه ، فكيف كانوا على باطل ، وهذه الجملة شعارهم ؟ ... فتبسمت لسؤاله وشكرته عليه لحداثة سنه ، وقلت له : يا ولدي ، هذه الجملة كلمة حق أريد بها باطل ، أريد بها الخروج

على عليّ كرم الله وجهه ، حيث حَكَمَ وهو على حق ، فكان الخوارج يقولون « لا حكم إلا لله » .

نظام الطبيعة واحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر

١٠ — إن ما قيل في آية (وما أغني عنكم من الله من شيء) فيه كفاية للمستبصرين ، ولكن تذييلاً للمقام أقول :

إن للطبيعة نظاماً ، وإن لله في سيرها أحكاماً ، فينبغي لنا أن نخضع لأحكام الله ولا نخل النظام ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (٢:٢٥) وقال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٥٤ : ٤٩) ، وعندي ان في هاتين الآيتين ونحوهما ما يوقظ الأفكار لحل مشكلة القدر ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث

سفرة اخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) ﴿ ... وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ، مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ ، وَلَكِنَّ كَثْرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

اقتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والستون فقام الشيخ آدم الرمتي (١) وقال :

قام أبناء يعقوب وأبوهم واضع يده على قلبه ، وركبوا دوابهم ورحلوا من

(١) نسبة الى الرمتا من بلاد الشام (شرقي الأردن) .

سيلون الى غزة الى رفح الى العريش الى الفَـرَما وهي أول حصن حصين من بلاد مصر (و) لا أخفي عن القارئ والسامعين أنهم (لما دخلوا) الفَـرَما (من حيث أمرهم أبوهم) وكما رسم لهم ، وعلى حسب الخطة التي اختطها لهم ، متفرقين لأبوابها الأربعة — لما دخلوا هكذا ما عتموا أن وقعوا فيما قدر عليهم وخاصة على أخيه بنيامين ، و (ما كان) ذلك الرأي ودخولهم متفرقين (يعني) يدفع (عنهم من) قدر (الله من شيء) ، لأن الإنسان وديعة غيب ، لا يعلم ما يطرأ عليه ، بل ذهب ذلك التحفظ أدراج الرياح ، وغلب التقدير التديير ، حيث أصابهم ما ساءهم من إضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيه بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم ، ولكن عدم إغناؤه من الله من شيء ، لا يقلل شيئاً من قيمة الأخذ في الأسباب ، وسلك سبيل الاحتياط والتحفظ ، (إلا حاجة) غاية (في نفس يعقوب قضاها) وهي على ما فهمه العلامة الزمخشري شفقتة عليهم وإظهارهم بما قاله لهم ووصاهم به ؛ أو هي على ما يفهمه هذا الحقير أن لا تبقى في نفسه حسرة ، إذا حدث لولده « بنيامين » شيء مما يخشاه ، كما بقيت في نفسه حسرة في حادثة يوسف ، حينما وحيثما استرسل مع أولاده استرسالاً ، وسلمه لهم دون قيد ولا شرط ، دون عهد وميثاق ، دون وصية وارشاد ؛

فهو كان رأى نفسه في حادثة تسليم ولده يوسف أنه استسلم لأولاده على العمياء دون كفالة ولا توث ، حال كونه كان يخاف منهم عليه ، لأنهم يكرهونه ، وهم له حسدة ، وأبوهم يعرف ذلك كله ، حتى انه قال له : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » (ع ٥) ، فمع كل ذلك قد زج به الى إخوته ، وتعذيبهم إياه ، حتى صار فريسة الإثم وطعمة الغرور ، وألوبة في يد المكره ، وقد قيل : « من استرعى الذئب ندم » ، ويعقوب

استرعى الذئب على ولده بدون أن يكون معه حراس ، كان كل هذا في حادثة يوسف ، وأما اليوم في حادثة بنيامين ، فلم يرد أن يترك أخذ العهد المغلظ عليهم ، ولم يشأ أن يغفل إرشادهم ووصيته اليهم ، لئلا يتوهم انه ضيع ولده بيده ، وانه سلمه الى المهالك باختياره ، فيحزن عليه حينئذ حزن النادم المتفجع ، الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى ، ويتحسر انه ترك نوعاً مما يقدر عليه ، من أنواع التحفظ ، بل يريد هنا أن يحتفظ لبنيامين ما وجد لذلك سبيلاً ، وأن يأخذ حذره ما أمكن ، فيعقوب عليه السلام بما أجراه هذه المرة مع أولاده في شأن بنيامين لا يتحسر كثيراً ، ولا يتأسف أسفاً جليلاً ، لو طرأ على ولده صدمة من صدمات القدر ، أو نزل عليه نازلة من نوازل القضاء ، لأنه حينئذ لا قصور منه ولا تقصير ابتداء ، ولا حول ولا حيلة انتهاء ، فهو إذ عمل بالواجب قد يهون عليه الأمر ، ويسهل في نظره المصائب ، فلا يصدر منه كبير أسف ، ولا كثير تحسر ، ولا يقدر أحد أن ينسب اليه الاسترسال مع الأولاد ، أو الإهمال لشيء من الحذر ؛ هذا ما أفهمه فيما هي هذه « الحاجة » ولا أعلم هل أنا مصيب أو مخطيء ولكن أعلم أنني كتبت ما اعتقد .

(وإنه ل ذو علم) أي فهم ومعرفة (لما علمناه) أي يفهم الذي علمناه إياه ، ومنه أمره لأولاده بالحذر وأن لا يدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لا بدفع القدر ، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظ من التأثير ، فنعما ذلك الصفي الكريم ، أو معنى قوله « ذو علم » ذو عمل ، لأن العلم التصديقي الإذعائي المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل ، ونقل البخاري عن قتادة أن العلم هنا العمل ، ولذلك فسر به بقوله « عامل بما علم » ، ووجهه أن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشعر بته روحه ، وخالط لحه ودمه ، ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بداً من العمل

به ، رضي أم أبى ، فاذأ أصبح العلم هو العمل ، لأن أثره اللازم له ، لزوم الظل
للشخص ، أو لزوم حركة الخاتم لحركة الاصبع ، ولذلك قالوا : آية فهم المعلوم
تأثر العالم به وظهوره في حركاته ومسكناته وترقرقه في شمائله ، ترقرق الابن السائع
في جسم الرضيع .

العلم علمان : نظريات وعمليات ، والعلم لا يتحقق أو لا يتأكد إلا بالعمليات ،
فلا يقال : فلان نجار ، إلا بعد أن يكون — عقب النظريات — قد عمل صندوقاً
أو خزانة مثلاً ، وكذا لا يقال : فلان حداد ، إلا بعد أن يكون قد عمل مفتاحاً
أو مسكيناً مثلاً ، وهكذا لا يقال : فلان طبيب ، بمجرد نواله الشهادة ، ما لم يكن
قد ابتدأ في تطبيب المرضى بالفعل ؛ وعندنا أن جملة « لئو علم لما علمناه » تحتل
تخريجاً ثالثاً ، وهو أن اللام في قوله « لما » للتعليل و « ما » موصول حرفي ، والمعنى
لأجل تعليمنا إياه ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ما علمه يعقوب من الجمع بين
الآخذ بالأسباب والتوكل ، فالقبض منهم في غفلة عن ذلك ، وجهرة الناس هم
من ذوي الغبن والنوك .

اجتماع شمل الشقيقين

آ (٦٩) « ولما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أخاه ، قال :
إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون »

وتليت الآية التاسعة والستون في نفس الجلسة فقام الحافظ الترماني^(١)
وقال :

(ولما) وصلوا صوعن « صان الحجر » عاصمة المملكة الهكسوسية ، و (دخلوا

(١) سبة الى ترمانيين من بلاد الشام (سورية)

على) عزيز مصر (يوسف) ووقفوا وجاهه ، شعر بتعزية داخلية بمجيئهم عنده ، و (آوى اليه أخاه) بنيامين ، وأدناه منه ، وأنزله تحت ظله ، وجمعه اليه ، ورقله وعطف عليه ، و (قال) له (إني أنا أخوك) — قال بنيامين : « أخي في الحب والصدقة أم ماذا ؟ » — قال : « أخوك المفقود يوسف بن إسرائيل ، من زوجة راحيل ، أنا أخوك وأنت أخي ، أنت لي وأنا لك ، وكلانا على الدهر (فلا تبتئس) لا تحزن ولا تتذمر (يا كانوا يعملون) ويمرون به معيشتنا ، فإنه لا يقلل من قيمتنا التاريخية شيئاً ، هكذا قدر عليهم أن يعملوا ما عملوه ، فلا تذهب نفسك حشرات عليهم ، واجعل قرة عينك اليوم برؤية أخيك ، ناسخة لأحزان الثلاث والعشرين سنة الماضية : افرح وتهلل اعتباراً من هذه الساعة .

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد الكلبي

اخوة يوسف الاحد عشر بين يدي يوسف

ولما وصل إخوة يوسف مصر ساروا تَوّاً الى حيث يقسم العزيز « يوسف » ومعهم بنيامين الذي طلبه منهم ، وعند دخولهم عليه سُري عنه بذلك كل هم وغم إذ كان ينتظرهم بفارغ الصبر ، وهو على أحر من الجمر ، ووقفوا أمامه وسلموا عليه تسليم الإمارة وركعوا وكفروا ، مترامين بين قدميه ، فلما رأى يوسف بنيامين معهم ، قال لهم : (أنجز حرتي ما وعد) ثم قال المذي على بيته : (أدخل الرجال الى البيت واذهب ذبيحة وهيء ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون معي عند الظهر) ففعل الرجل كما قال له يوسف ، وأدخل الرجال الى بيت يوسف ، وأعطاهم ماء

ليغسلوا أرجلهم ، وأعطى عليقاً لدوابهم ، فلما جاء يوسف الى البيت سجدوا له الى الأرض ، فسأل عن سلامتهم ، وقال : (أسالم أبوكم الشيخ الذي قلم عنه ، أحيّ هو بعد) فقالوا : عبدك أبونا سالم ، وهو حيّ بعد ، وخروا وسجدوا ، وكان هذا السجود تمام الحلم الاول ، وهو أن حزمهم الإحدى عشرة سجدة لحزمته ، وكانت الحزم في الحلم مناسبة لطلبهم القمح منه ، فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه ، وقال : (أهذا أخوكم الصغير الذي سمعت به وطلبتة منكم ؟) وهذا الاستفهام للتكتم أو للتعجب ، لأنه رآه ابن نحو ثلاثين سنة ، وكان يوم بيع يوسف ابن نحو من ثماني سنين ، ثم خاطبه يوسف بقوله : (الله ينعم عليك يا بني) واستعجل يوسف لأن أحشاه حنت الى أخيه ، وطلب مكاناً ليبيكي ، فدخل الخدع وبكى هناك ، ثم غسل وجهه ليزيل آثار الدموع وخرج وتجلد ، وقال للخدامين : قدموا الطعام ، فقدموه له وحده ، ولهم وخدمهم ، والمصريين الآكلين وحدهم ، لأن المصريين كانوا لا يقدرّون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين ، وهذا التمييز بين الآكلين كان عاماً في الأزمنة القديمة ، ولا يزال في الهند ، ولكنه عند المصريين كان بمقتضى أمر ديني ، أن لا يأكلوا مع الغرباء ، ففي تاريخ هيرودوتس أن المصريين كانوا يأبون الأكل مع اليونانيين وأن مس الطعام بسكين يونانية ينجسه .

ورفع يوسف حصصاً من قدامه اليهم ، ولكن كانت حصّة بنيامين أكثر من حصص جميعهم ، وهذه العادة كانت تعود من الرئيس في بلاد الشرق إلى كراماً عظيماً ، فأكلوا وشربوا ورووا ، وكانوا آمنين مبتهجين ، وأما يوسف فكان يفعل ذلك معهم وهو يقول في نفسه : اليوم تمر وغداً أمر ، ثم بعد انتهاء حفلة الطعام ضم يوسف اليه بنيامين في عزلة عن باقي اخوته ، وهش له وبش ، وقد ترقرقت الدموع في عينيه ، ثم قال له أتعرفني وتعرف اسمي ومن أنا ؟ — قال :

ما أنكرك لسوء — قال يا ابن راحيل انظر إليّ جيداً وتفرس فيّ ملياً إني ابن أمك وأبيك ، أنا أخوك يوسف — وأما بنيامين فسمع ما لم تضطرب به حاسته ، ولا هيجس في الضمائر ، فقال : ما تقول يا حضرة «صفنات فعنيح المحترم» — قال هذا هو الواقع ، أنا يوسف ابن أمك راحيل ، من رجلها يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، أنا أصح نسبة ليعقوب من المطر الى السحاب ، وأصح نسبة لراحيل من النور الى الشمس — فظن بنيامين نفسه في منام ، لأنه فارقه منذ ٢٣ سنة ، فلم يعرفه ، ولكن يوسف ذكر له من السياما كد به أنه أخوه الفقيد ، وعند ذلك برح الخفاء وتقشعت الغمامة ، وظهر البدر التام ، وأما بنيامين فطار فرحاً ، وقام اليه وتحاضنا ، وسلم عليه بالقبلة الاخوية ، وجاوبه أخوه بقبلة حارة ، وأمسك كل بيد الآخر إمساكاً شديداً ، ثم قال له يوسف والآن يا أخي ، لا تحزن ولا تنذر بما يفعله إخوتنا ، مما سجله عليهم التاريخ ، بمداد من نار . إن الله قد أحسن اليكنا وجمعنا على خير مانرجو ، وقد أبدلك مرارة صابهم ، وغضاضة علقمهم بحلاوة اللقاء ، وجمع شمل الأحباء ، ومع ذلك فإن مع اليوم غداً . (مرحى)

(ولما دخلوا على يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال حمدي باشا الانطاكي (١) :

يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه إليه

لما دخل إخوة يوسف على يوسف ، حيوه تحية الأمراء ، وقالوا له : (هانحن أولاء قد سعينا السمي الحثيث مع أبينا حتى أتينا بأخيها بنيامين حسب رغبتك) ، وأما يوسف فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين ، فقد فرح بمجيئ إخوته بني

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام .

العلات ، فرح المنتصر الظافر ، وفرح بمجيء شقيقه ، فرح الحبيب بالحبيب ، ولما رفع نظره لبنيامين لمس القلب ، لاسيما وقد لاحت له في صورته صورة المرحومة أمه « راحيل » ، فمطف عليه وآواه اليه ، وكأنه سبحانه وتعالى ، يشير بهذه الكلمة إلى إنقاذه من ظلم إخوته إياه ، واستبدادهم به ، فقد تكاد هذه الكلمة أن لا تستعمل إلا في مقام النصر والانتقام من الذل والتهلكة ونحو ذلك ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَأَوْيْنَاْهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ (٢٣ : ٥١) وقوله تعالى : ﴿ وَفَصَّلْتَهُ الَّتِي تَأْوِيهِ ﴾ (٧٠ : ١٣) وقوله تعالى في النبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمًا فَآوَى ﴾ (٩٣ : ٦) وقول لوط عليه السلام : ﴿ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١١ : ٨٠) وقول ابن نوح : ﴿ سَاوَى إِلَى جِبَلٍ يَـمُـصِّمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ (١١ : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهَ ﴾ (ع ٩٩) ، ويدلنا على أن بنيامين كان محوطاً بظلم إخوته واستبدادهم ، قول يوسف له : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الذي يرمي إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه ، ثم هو لما رأى بنيامين وضمه اليه - تتخيل أنه قال في نفسه :

كأنك لم توتر من الدهر مرة إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

وقال لبنيامين مقدماً نفسه اليه معرفه بشخصه الكريم ، إني أنا أخوك يوسف ، فكن مطمئن البال ، حيث ظفرت بأعز ماترجو ، وعلى الدنيا السلام ، فلا تحزن ولا تتذمر بما كانوا يعملون معنا ، فقد أصبح منذ اليوم خيراً ليس له أثر ، أصبح ليس له وجود إلا في بطون الدفاتر ، وأنا لا أريد أن أثير المعركة عليهم من جديد ساعهم الله ، فلنتناس ما فات ، وننظر فيما هو آت ، وإن لم شملك بأخيك اليوم يشفع في كل ما أصابك من الأسواء ، ويجب أن ينسيك كل بلواء .

بدء المعركة بين يوسف واخوته — التفسيريق

آ (٧٠) ... ﴿ فلما جهّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ... ثُمَّ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ : أَيُّهَا الْعِيرُ ، إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ . ﴾

افتتحت الجلسة ونليت الآية السبعون فقام السيد مطيع الادلي^(١) وقال:
كان يوسف عليه السلام عقد النية بالاتفاق مع « بنيامين » على عمل الحيلة بنسبة السرقة اليه ، توصلاً لبقائه عنده قهراً كرقيق لمدة سنة أو أكثر ، فأمر خادمه الخصوصي الذي على بيته قائلاً : « املاً عدال الرجال طعاماً حسبما يطيقون حملة ، وضع فضة كل واحد في قم عدله ، وطاسي طاس الفضة تضعه في قم عدل الصغير مع ثمن قمحه » (فلما جهّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) من قمح وزاد للطريق من خبز ودقيق وسويق وعليق ، وسائر لوازم السفر ومعداته (جعل) وضع (السقاية) أي طاس الفضة (في رحل) في عدل (أخيه) بنيامين ، بيد خادمه الخاص الذي على بيته ، فلما أضاء الصبح انصرف إخوته ، هم ودوابهم ، وعندما قاربوا الخروج من المدينة « صوعن » ولم يبتعدوا ، قال يوسف لخادمه الخاص « قم واسع وراء الرجال ، ومتى أدركتهم ققل لهم : لماذا جاريتم شراً عوضاً عن خير ؟ اليس هذا هو الذي يشرب سيدي منه ؟ اليس هذا هو الذي يكيل أيضاً به ؟ » فقام الخادم يسعى وراءهم (ثم أذن مؤذن) أي نادى مناد : (أَيُّهَا الْعِير) القافلة الفلسطينية رويداً ، على رسلكم ، إن « العزيز » أرسلني ، والرسول غير ملوم فيما يبلغ ، وإن أغلظ في القول ، — قالوا : « فما الرسالة ؟ » — قال : (إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وسيكون لنا معكم شأن من الشؤون ، فأنتم لستم قافلة تجارة ، ولا رواد ميرة ، بل عصابة

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام .

آ (٧٠) المحادثة التي يظن انها جرت بين يوسف وبنيامين قبل تسريقه ١٠٦٥

لصوص ، أو حملة عداوية نحو « العزيز » فما هذا الشرك الذي نصبتموه لنا ، ذريعة للاختلاس ؟ وما هذا المركب الخشن الذي ركبتموه ؟ . .

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية . . الخ

— ١ —

وقال السيد عبد الكريم العجلوني (١) :

المحادثة التي يظن انها جرت بين يوسف ورافيه بنيامين قبل تسريقه

لو كنت من المحدثين في هذه الأمة المحمدية لقلت إنني «حدثت» بما يلي :

قال يوسف لأخيه « بنيامين » : « يا ابن الأعيان ، لي معك كلمة ، أصخ إليها ، فإن اجتويتها فاضرب بها عرض الحائط ، وإن وقعت عندك الموقع الحسن ، فتنازل بمساعدتي على ما أريد ، أنا أريد الآن بقاءك عندي ، لتؤنس من وحشتي ، وتخفف من آلامي وفرقتي ، وتعينني على احتمال أعباء الحياة وهمومها ، وها أنا ذا هنا أقلب طرفي حولي ، فلا أرى أخي الذي أحبه وأوثره ، وأرى فيه شخص يعقوب وصورة راحيل ، إنني ههنا لا أرى إلا أناساً آخرين أجانب ، لا شأن لي معهم ، ولا صلة بيني وبينهم ، فلذلك يخيل إليّ ، وأنا مجتمع بالجمهور من المصريين المحكومين ومحفوف بالجمهرة من العالقة الحاكين ، كأني خال بنفسي ، منقطع عن العالم وما فيه ، ولقد كنت سمعت في أسباب حضورك ، وكنت أترقب ذلك ترقب المقرور أشعة الشمس ، وكنت أنتظرك انتظار الظامىء ديمة القطر ، فالآن أريد أن تبقى عندي لا سواك ، تبقى عندي مدة طويلة لا قصيرة ، لأننا مشتاقان كل إلى أخيه ، كما أريد ذلك بالآخرى لأبيننا الشيخ الجليل ، ولكن الأمر بالنسبة لأبيننا صعب الآن جداً ، لأن الظروف والأحوال لا تمكثنا اليوم من الحصول على لذة الاجتماع

(١) نسبة الى عجلون من اعمال بلاد الشام (شرقي الاردن)

به ، لأن هذا لا يمكن إلا إذا أظهرت نفسي له ولإخوتي ، وبأن لجميعهم من أنا ، وهذا لم يحن حينه بعد ، وأما تمتي بحصولك عندي فممكن ، بشرط أن تضحى شيئاً من شرفك مؤقتاً ولأجل محدود ، وبحيث يكون ذلك ضمن دائرة الخفاء إلا عن اخوتك ، تضحى ذلك من أجلك وأجل تمتعك برؤيتي ، بل وأيضاً من أجلي وأجل تمتي برؤيتك — فأجاب بنيامين قائلاً : « وما الذي اجتمع عليه رأيك حتى تتوصل لذلك ؟ » — قال : « أنسب اليك أنك أخذت صواعي ، وجعلته في رحلك ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه من عار السرقة أمام إخوتك أنك ستكون عندي مدة طويلة ، تتبادل فيها الأحاديث والسرور ، ويتمتع بعضنا بمشاهدة بعض ، كما انه ليكن عزاء أئبنا الشيخ عما سيلقيه من الحزن والكمد بتسريقتك وبعدك عنه — أنه سيمكن له ولنا بعمل هذه الطريقة ، بحيث لمصر ، ويتمتع كل برؤية الآخر ، ذلك لأتقي أريد فيما بعد إظهار نفسي لإخوتي ، توصلاً لذلك ، ولكن بعد تنزيل شيء من كبريائهم وتمردهم ، فإني لا أنسى انهم كادوا لي كيداً ، وأنا اليوم أيضاً أخوف ما أخاف منهم : ولو خبرتهم الجوزاء خبري ، لما طلعت مخافة أن تكاداء ، على اني أعتقد أن والدي سيتخذ حبسك عندي إشارة رمزية يفهم منها أن لا بد للأمر من سر ، ويشم رائحة يوسف من ناحية مصر ، نعم ، إنه من الشديد عليّ أن أسرقك أيها الأخ ، ولكن أشد منه عليّ مفارقتك إياي ، فتحمل أنت هذه الحملة اليوم ، لما قلت لك ، والنتيجة تبرر الوسطة ، نعم إن الحادثة التي ستستقبلها شديدة ، شديدة عليك وعلى أئبنا الشيخ ، ولكن أبونا سيتحملها بما لديه من صبر وسكون ، وعلمه بتأويل ما يكون ، وفهمه تلك الرموز والإشارات ، وكل لبیب بالإشارة يفهم ، هذا ما أراه في هذا الموضوع ، والله أعلم بإخلاصي فيما انتويت أن أجريه ، وهو سبحانه من وراء القصد ، وأنا والله إنما أريد هذا لأسرك لا لأضرك ، فمسل تطيعني يا بنيامين في ذلك ؟ .. » — فقال بنيامين : « ماعصيت لك

أمراً قبل اليوم ، ولكن هبك فعلت كل هذا ، وتوفقت له ، فأنى لقوانين
أن تحكم ببقائي عندك سنة ، وهي إغنا تغرم السارق بثلي ماأخذ ، دون أن يستعبد؟»
— قال يوسف : « سوف نستفتيهم ونطلب منهم الفتيا ، وهم طبعاً إغنا يفتونا بشريعة
جدنا إبراهيم ، وهي استعباد السارق سنة عند المسروق منه » — فقال بنيامين :
« افعل ما بدا لك ، مرني بما تريد ، فأنا في كل حين أطوع لك من بنائك » —
قال يوسف « اسكت عليها ، لا تعرض بذكرها بين شفة ولسان » وبناء عليه
فلما جهزهم بجهازهم ، بيده اليمنى ، جعل السقاية في رحل أخيه بنيامين بيده
اليسرى ، قائلاً في نفسه : « شأن عساه أن يجر شؤوناً » ولم يأخذه مصادرة ،
لئلا يقيموا عليه بذلك دعوى ، ويشتكوه للملك الريان ، فيكون قد غرر بنفسه ،
وكان هذا بمعرفة ورضى من بنيامين ، نزولاً على إرادة يوسف ، وهذا الأمر يعد
أكبر توضحية من بنيامين ، وإنما ارتآى يوسف هذا الرأي وأقدم عليه ليرد من
شأوم ، ويثنى من عنانهم ، ويقلم أظفارهم ، ويكف من عرامهم ، ويحسب
من شيرتهم :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمتسيم

قال قيس بن زهير :

إذا أنت أقررت الظلامة لامرئٍ رماك بأخرى خطبها متفاقم
فلا تبد للأعداء إلا خشونة فما لك منهم إن تمكن راحم

فكانت هذه «السقاية» كفخ نصبه يوسف ليصطاد به أخاه ليكون عنده ،
فلما أضاء الصبح ، ثاروا إلى أحمالهم ووضعوها على ظهور الأبعرة ، وانصرفوا
ومشوا أدراجهم ، في غمار الممتارين ، الآيين الى بلادهم ، يطوون الأرض طياً ،
من فرحهم بميرتهم ، وإيابهم بسلامتهم وسلامة أخيههم ، ثم لما كانوا قد خرجوا من
المدينة ولم يبعدوا ، أذن مؤذن ، أي صرخ صارخ أو نادى مناد ، أو صاح صائح ،

أو أعلم مُعلم ، وهو الخادم الخاص ليوسف ، بملاء صوته والاهتمام ظاهر على وجهه ، حيث خف وراءهم في كوكبة من رجاله ، وشخصوا خلفهم وصمدوهم ، وصرخوا عليهم : أيتها العير ، أصلحك الله ، أنتم تحت الطلب ، فعلى رسلكم ، وقفوا مكانكم ، لأنه ظهر أنكم سارقون ، — وفيه تعريض باختلاس يوسف من أبيه ، أو بسرقة المسرة والجبور الذي كان في قلب يعقوب ويوسف وبنيامين ، وما كانوا يشعرون به من الغبطة في نفوسهم بلمّ شملهم ، وأنس بعضهم ببعض ، والسرقة كما تكون في الماديات تكون في المعنويات ، كما يسرق الشاعر معنى لشاعر قبله ، وكما يسرق الفرح أو الحزن النوم من الأجفان ، وكما يسرق فتقبض النفس بانقباضه ، صفاء جليسه وانثراحه ، ويحتمل أن المراد بقوله « لسارقون » أن حالهم تشبه حال السرقة ، بما أن الصواع مخبوء في رحلهم — .

(فلما جهزهم بجهازهم .. الخ)

— ٣ —

وقال الاستاذ المقدسي : لي على هذه الآية الملحوظات التالية :

هل كانت العير حميراً أم إبلاً

الملحوظة الاولى : — العير ، جماعة الإبل التي عليها الأحمال ، والمراد بها في الآية أصحابها ، ونحوه « يا خيل الله اركبي » ، ويقال لها « عيس » ، وإذا كانت خراسانية قيل لها « بُخت » ، وتطلق كلمة العير على القافلة أو الإبل تحمل الميرة أو كل ما امتير عليه ، إبلاً كانت أو حميراً أو بغالاً ، وقال بعضهم ، العير هي القافلة إذا كانت فيها جمال ، قد تخللتها حمير تحمل الميرة ، وقد نقل ابن جرير في تفسيره عن مجاهد ان العير هنا كانت حميراً ، وأما كلمة بعير المتقدمة في قولهم (ونزداد كيل بعير) ففيها خلاف أيضاً عند اللغويين ففي القاموس : « البعير وقد

تكسر الباء الجمل البازل أو الجتدع ، وقد يكون للأثنى ، وهو أيضاً الجمار
وكـل ما يحمل ، قاله ابن خالويه « وقال في تاج العروس : قال ابن بري : « وفي
البعير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان ، وكان السائل ابن خالويه ،
والمستول المتنبى ، بين يدي سيف الدولة ، وكانت فيه خنزوانة وعنجبية ،
فاضطرب ، فقلت المراد بالبعير في قوله : (ولما جاء به حمل بعير) الجمار ، وذلك
أن يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف ، كانوا بأرض كنعان ، وليس هناك إبل ،
ولمّا كانوا يمتارون على الحمير ، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره « اهـ .
ويقول الحقيّر إن القول بأن دوابهم كانت حميراً ، مأخوذ من التوراة ،
وأما قوله إنّه لم يكن إذ ذاك بأرض كنعان إبل ، فهو وهم مخالف للواقع
والتاريخ ، بل وللتوراة التي هي المستند في أن دوابهم كانت حميراً ، فقد ذكر في
التوراة : أن « رفقة » لما جاءت من العراق لكنعان كانت راكبة على جمل (تك
٢٤ : ٦٤) وذكر فيها أن راحيل وقت براحها العراق لكنعان أخذت الأصنام
ووضعتها في حداجة الجمل (تك ٣١ ٣٤) وفيها أنه صار لإبراهيم لما كان بمصر
غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال (تك ١٢ : ١٦) ، فهذان نصّان تاريخيان
منها نعلم أنه كان يوجد بشرقي كنعان (أي العراق) جمال ، وكان يوجد بغربي
كنعان (أي مصر) جمال ، فلماذا حينئذ لا توجد الجمال في نفس كنعان المتوسطة
بينها ؟ على أنه ورد في التوراة أن اليعازر الدمشقي ، عبد إبراهيم ، أخذ عشرة
جمال من جمال مولاه ومضى إلى العراق (تك ٢٤ : ١٠) فهذا النص التاريخي
يفيد أن الإبل كانت موجودة في نفس كنعان من أيام إبراهيم ، وفيها أن الجمل
لا يؤكل (لا ١١ : ٤) فهذا النص الثاني يفيد أن الجمل كان موجوداً أيضاً في
كنعان التي هي أرض إسرائيل لأيام موسى عليه السلام ، فالقول بأن الجمل لم يكن
موجوداً في كنعان أيام يعقوب وأولاده غلط تاريخي .

المراد بالمؤذن

الملحوظة الثانية — كلمة « اذن » في قوله « اذن مؤذن » بالتشديد تفيد كثرة الاعلام ، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه ، واما « آذن » فاعلم تفيد الاعلام ولو مرة واحدة .

بدء المعركة بينهم يوسف واخوته بابقاعهم في مأزق حرج مع ابيهم

الملحوظة الثالثة — من ههنا ، اي من قوله : « فلما جهزهم » تبتدىء المعركة بين يوسف واخوته وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله : ﴿ فلما استياسوا منه .. الخ ﴾ (ع ٨٠) ، فلكتاني به قد سمع من شقيقه بنيامين تلك التعهدات القوية التي صدرت من رأوبين ويهوذا لأبيهما ، فلذلك ولكون يوسف يعتب عليهما اكثر من باقي إخوته ، لأنه كان يركن اليهما اكثر من غيرهما ، فقد عول على ان يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع ابيهم ، وان يعمل معهم عملاً يقابل عملهم ، بحيث يدخل على جميعهم الكرب والهم ، لأنهم كانوا أنزلوه في جب الماء ، فأراد ان ينزلوا في اتون من نار الهم والغم ، وهم كانوا قالوا له حينما ألقوه في الجب : « خذ يا صاحب الأحلام » فقال لهم الآن : « خذوها ايها الظلام » كانوا عملوا معه عملاً يريدون به ان يخلو وجه ابيهم لهم ، فأراد ان يعمل معهم عملاً ، يلفت عنهم وجه ابيهم جزاءً وفاقاً ، فذر الرماد في العيون ، وهياً لهم ضربة اليمه ، كما كانوا ذروا الرماد في عيون ابيهم وآلموا يوسف ، جزاءً وفاقاً ، فكأن يوسف يقول : احصدوا أشواك اعمالكم السابقة .

ويقول الشاعر :

إذا قيل رفقا قلت للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

أو يقول

وقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن اقحّم حتى لات مقتحّم

هو عمل معهم هذه الحيلة المسيئة لهم التي سيضيقون منها ذرعاً ، لأنهم سبق
انهم عملوا عليه تلك الحيلة المسيئة ايضاً ، وهي اخذه من ابيه بحجة انه « يرتع
ويلعب » فما كان منهم إلا انهم انزلوه في غيابة الجب وقد قيل : « الهزيمة
تعلم الظفر » .

اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه

الملحوظة الرابعة — إن قال قائل ما الدليل على أن يوسف اتفق مع أخيه بنيامين
على تسريقه ليقيم عنده ، فهل ورد بذلك حديث عن المعصوم ، أو هل يوجد في
القرآن ما يشير لذلك ؟ قلت لا هذا ولا هذا ، إنما دليلنا على ذلك كون يوسف
شقيقاً ومحباً مخلصاً لبنيامين ، وبنيامين كان عنده كضيف نزيل كريم ، وهذه
الضيافة كانت بدعوة سابقة من يوسف ، فمع هذه الأحوال لا نقدر أن نتصور أن
يوسف دبر هذه المكيدة لبنيامين بدون أن يشعره ويتفق معه عليها ، وإلا كان
ذلك قطعاً للرحم ، وأذىً كبيراً للضيف الكريم البريء ، وقد قال تعالى « والذين
يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً »
(٥٨ : ٣٣) .

مبررات قبول بنيامين

الملحوظة الخامسة — إن قال قائل « كيف رضي بنيامين بهذه الاهانة ووافق
عليها ووقف بازاء أخيه موقف السامع المطيع ، موقفاً إيجابياً محضاً ، مع أنه يوجد
له ثلاثة موانع ، تمنعه من موافقة أخيه : أولها المحافظة على شرفه ومروءته أمام
المصريين والحكومة وخوفه من الوقوع في الخجالة معهم ، وثانيها ، تسبب بنيامين

بقبوله هذا الأمر في إدخال الكدر على إخوته الذين جاؤا به من عند أبيه بعد اللثيما والتي ، وبعد ما أعطوه الأيمان المخرجة ، واليهود الوثيقة ، وثالثها ، إدخال زيادة الهم والنهم على قلب أبيه يعقوب ؟ .

فإننا نجيب عن الاول بأن المتهمين له خادم بيت يوسف ، الخاص وأتباعه الخصوصيين ، وهم في الباطن يعرفون انه غير سارق ، لأنهم ، على قول ، هم الذين جعلوا السقاية في رحله بيدهم ، فالمسألة كانت ضمن دائرة الخفاء بين يوسف وخدمة بيته لا غير ، وهم لما رجعوا إنما رجعوا لبيت يوسف ، لالدار الحكومة في البلاط ، وهو ما نعلمه من التاريخ ، ويعلم أيضاً من التوراة (تك ٤٤ : ١ - ١٤) ونجيب عن الثاني بأن بنيامين عمل ذلك لأن إخوته كانوا أوغروا صدره عليهم بما سبق انهم عملوه مع شقيقه يوسف ، وبما كانوا يعملون معه نفسه ، حسبما يفهم من قوله « فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ثم قوله لهم « هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه » ، ونجيب عن الثالث بأنه كما لا يمكننا إنكار احتمال أن هذا العمل يدخل على أبيه غماً وهماً ، فلا يمكننا إنكار احتمال ان هذا العمل يدخل على أبيه ارتياحاً وسروراً ، فإننا نعتقد أن يعقوب اتخذ من هذا العمل بشرى عن ولده يوسف بأنه - في الجملة - في مصر ، لاسيما اذا انضم اليه ماسبق في السفرة الأولى من أنه جهزهم بجهازهم ، وأوفى لهم الكيل ، وكان لهم خير المنزلين ، وجعل بضاعتهم في رحالهم ، وكان قال لهم بغتة : « اثثوني بأخ لكم من أبيكم » ثم انه في السفرة الثانية أنزلهم ضيوفاً في بيته ، وجهزهم بجهازهم ، وأرجع لهم فضتهم أيضاً وأخذ بنيامين عنده بحجة عمل لم يعهد عليه قبله انه عمله - فكل هذه الاشارات والرموز ، هي برقيات لاسلكية ، وأحاجي لا يفهمها ولا يحلها إلا ذو فہم دقيق ، وشعور رقيق كيعقوب عليه السلام ، ولذلك نراه بعد ذلك قال :

« عسى أن يأتيني بهم جميعاً » ثم قال : « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » ، ثم قال

آ (٧٠) الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين انا اخوك اخوة صداقة وحب ١٠٧٣

« يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » وكل هذا إنما بناء يعقوب على تلك الاشارات التي دارت بينه وبين ولده يوسف ، وإلا إذا كان يعقوب يعرف أن ولده يوسف حي ، فمن أين عرف أنه بمصر ، حتى قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ، لولا تلك الاشارات الخفية ، التي كان يرسلها يوسف لأبيه مع إخوته ، دون أن يحوموا حول فهمها خوفاً من إيذائهم وإضرارهم إياه ، فيوسف كان ساكناً ، ولكن أفعاله تتكلم ، وإخوته تحمل هذا الكلام الرمزي ، دون أن يفهموه ، الى من يفهمه وهو أبوهم عليه السلام ، كساعي البريد يحمل الأخبار السرية والرسائل دون أن يطلع عليها ؛

الرد على من قال ان يوسف قال لبنيامين انا اخوك اخوة صداقة وحب

وإن قال قائل : نقل المفسرون عن وهب بن منبه انه قال : « إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود أي أنا صديق لك ومحب لك ، وعاضدك عوضاً عن أخيك الفقيد يوسف ، فهي أخوة صداقة وحب ومساعدة ، لأخوة نسب ، وعليه فبنيامين لم يفهم قط ان المتكلم معه هو يوسف أخوه النسبي ، ولم يصر بينه وبينه اتفاق على تسريقه ، بل بنيامين سُرّق دون أن يكون له شعور بذلك » قلنا في جوابه إن وهباً استند في هذا على ما في تورااة اليهود ، فانها تفيد أن بنيامين لم يكن له شعور بذلك (تك ٤٤) وبرّدّه انه خلاف الظاهر من قوله : (أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) والا ولذي معنى مضى ، فلا يمكن تداركه وتلطيفه ، لأن أخوة « فوطيفار » التي هي أخوة صداقة ومساعدة ، لا تقع لبنيامين فيما مضى من الايام ، بل فيما يأتي فقط ، وإنما بصح تفسير وهب لو قال : « أنا أخوك ، فلا تبتئس بما سيعملون » .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يعمل على اخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها

الملحوظة السادسة — إن سأل سائل : كيف جوز يوسف عليه السلام لنفسه أن يعمل على إخوته العشرة هذه الحيلة المسيئة التي أزعجتهم أيما إزعاج ؟ فالجواب أنه أراد أن يعرفهم انه كما هو قوي بسلطانه وشوكته وجنده ، فكذلك هو غير غبي عن طرق الحيل التي هم يتقنونها ، ويرتكزون عليها ، قائلين : « رب حيلة أنفع من قبيلة » فكما جربوا و عملوا عليه الحيلة حتى أخذوه من أبيه ، وأوقعوه في الحب وغربوه ، وكما عملوا الحيلة ثانياً على أبيه حينما جاؤوا بدموعهم ودم معزاهم ، فكذلك هو قد ير على هذا النوع من الحيل ، وبعبارة أخرى : أراد أن يعرفهم من هو ؟ حتى في ضروب الحيلة التي يعرفونها فكما أنه لا يعرف الشجاع إلا الشجاع ، فكذا لا يعرف المحتال سوى المحتالين .

وإليك جواباً ثانياً ، وهو أن يوسف عليه السلام كان يعرف أنهم أصحاب عَرامة ، وذوو شراسة ، فأراد أن يخضع من شوكتهم ويفت في عضدهم ، تنزيلاً لنفوسهم المتكبرة ، وإضعافاً لقوتهم المتحكمة ، فأتى هذه الحيلة المزعجة لأفكارهم ؛ وبعبارة أخرى : يوسف كان لا يزال في خوف من شر إخوته وحماستهم ونزقهم ، فرأى أن يعمل معهم عملاً يخفف جانباً من قوتهم ، ويشذب بعضاً من حماسهم ونزقهم ، ويطامن من نخوتهم ، ويكسر من زهوهم ، ويقمع من طغيانهم ، تأديباً وترويضاً ، وعليه ولأنه من جهة ثانية يريد بقاء شقيقه عنده دونهم ، رأى أنه قد يسوغ له — خصوصاً في شرعه — أن يجري هذه الحيلة ، ليصيد بها صيدين : الأول أن يبقى بنيامين عنده والثاني أن يؤدبهم ويهذبهم ويكسر من حدتهم وكبريائهم وشكيمتهم ، فعل ذلك اضطراراً ، لا تشبهاً ولا اختياراً ، وكأنه في ذلك كالعبد في اصطلاح الجبرية ، مجبور باطناً ، مختار ظاهراً ، فإن كان يوجد عبيدٌ هم كذلك ، فمنهم بل أمثلهم في هذا المقام خاصة يوسف ، أمّا انه مجبور باطناً ، فلأنه أراد

تشذيب شرهم ليسلم منهم وأما أنه مختار ظاهراً ، فلأن خادمه الذي فعل ذلك بأمره يرى أن يوسف اختار ذلك من تلقاء نفسه بطواعيته ، وبحسب تشبیهه ، دون أن يكون له دافع مجبر ؛

وجواباً ثالثاً ، وهو لعل يوسف أراد أن يكون رسول « الارادة الالهية » فيجازى مكرراً بمكر ، فهو إذ مكروا عليه وعلى والده ، واخذوه منه بالختل والدهاء ، أراد أن يظهر بمظهر آلة قصاص لهم ، وأن يجازي مكرراً بمكر ، فكان في ذلك العمل مظهراً من مظاهر اسمه تعالى « المنتقم » قصاصاً من المعتدين ، فنصب هذه الأحبولة ، وأما ما لحق أباه من جراء هذا العمل ، فهو أمر طبيعي حاصل عرَضاً وبالتبع ، ولم يكن مقصوداً ، لأن شأن البلاء أن يعم ، أو هو من طبائع حوادث القصاص في الكون ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (٢٥ : ٨) ، ومن حديث ابن عمر : « إذا أراد الله بقوم عذاباً ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم » ، يوسف أراد أن يرميهم بحجر نظير حجرهم الذي كانوا رموه به سابقاً ، أراد أن يربطهم بوتر نظير وترهم الذي كانوا ربطوه به قديماً ، أراد أن يكيد لهم كما كادوا له ، قال تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (١٩٤ : ٢) ، فكل ما يجب احترامه ، يجوز انتهاك حرمة قصاصاً ، فكما جاز للمسلمين مقاتلة مناوئهم في الشهر الحرام من أشهر الحج ، لأنهم كانوا قاتلوا المسلمين عام الحديبية رمياً بالسهم والحجارة ، وصدوهم عن دخول مكة ، وكان ذلك في ذي القعدة من الأشهر الحرم ، فكذا جوز يوسف لنفسه إجراء هذه الحيلة ، وإن كانت تحزنهم ، لأنهم كانوا أحزنوه سابقاً بالحيلة التي أجروها عليه ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٣٩ : ٤٢) ، فالتهم يكره أن يذلّ لئلا يجترأ عليه ثانياً ، والمنتصر لنفسه محمود

على انتصاره ، إذ لا حرج على الانسان أن يأخذ حقه قصاصاً غير متعد حد الله تعالى ، وإن كان العفو أفضل ، والعافي ممدوحاً أكثر ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢٣٧:٢) ، ﴿ وَلَسْتَ مِنْ صَبْرْتُمْ لَهَوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (١٢٦:١٦) ، ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ مَّعْزَمِ الْأُمُور ﴾ (٤٣:٤٢) ونظيره ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لحسان بن ثابت أن يهجو قريشاً بعدما طفقوا يهجون مقامه الشريف ، لكي يجازي هجواً بهجو : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (٤٠:٤٢) ، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ﴾ (١٢٦:١٦) ، ﴿ وَلَمَنْ اِنْتَصَرَ بَعْدَ ظِلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعْلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤١:٤٢) ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٥١:٢) ، قال الشاعر :

لست ذا ذلة إذا عضني الدهر	ولا شاخاً إذا واتاني
أنا نار في قلب من يظلموني	أنا ماء جار مع الخلان
وقال مريبط العبدي :	

لو كنت من «مارن» لم تستبح إلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا

فيوسف كان في مقاصته لآخوته على مذهب « المازنيين » لآعلى مذهب « العنبريين » ، وكان على المذهب الذي تمذهب به أبو الطيب حيث بقول :

وإني لمن قوم كائن نفوسهم	بها أنف أن تسكن اللحم والعظام
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني	ولا صحبتي مهجة تقبل الظاما

أو على مذهب « الفند الزماني » في قوله :

وبعض الحليم عند الجهل للذلة إذعان	وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان
-----------------------------------	----------------------------------

وجواباً رابعاً — « قد لا يقاوم الشر إلا بالشر ، وقد لا يدفع الظلم إلا بالظلم ، وقد لا يبرأ العليل إلا بتجربعه الدواء المر ، وقد لا يشفى الجريح إلا بقطع شيء من جسمه ، وحامل السيف لا يغمده في غمده ، إلا أمام حامل سيف مثله ، والسيول الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتمل لا يمتثل إلا إذا وجد أمامه غيباً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد » (١)

كان المعبود من طبع اخوة يوسف انهم يكفرون صفو الحياة ، فخشي أن يمسكوه اليوم كما أمسكوه سابقاً — من موضع الضعف منه ، وما هذا الموضع إلا أنهم يعلمون أنه لا يعرف شيئاً من الحيل ، التي يعرفونها ، ولذلك رأى أن لا بد أن يعمل معهم عملاً يوقعهم في حيص بيص ، يلبسه على خشوته ، ويسیغه على كدورته ، ليعرفوه من هو ، وليعلموا أنه يعرف ما يعرفون ، فمثل كمثل السائر ، يعترضه الجبل ، فلا يجد بداً من اجتيازه ، نعم لا ريب أن الطريق بغير الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه صادف أنه كان في طريقه ولا بد من اختراقه ..

وجواباً خامساً « ثبت في الصحيح أنه إذا عبر أهل الجنة الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أدن لهم في دخول الجنة » فلا يدخلون الجنة إلا بعد التهذيب والتنقية ، كما قال تعالى : ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٧٣: ٣٩) ، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، وبناء عليه فكأن يوسف عليه السلام ، اعتبر أن مصر جنة ، وأن فلسطين

بالنسبة اليها كأنها نار ، وأن إخوته قد وصلوا للصراط الذي بين الجنة والنار ،
فأراد أن يقتص منهم وهم على الصراط ، حتى إذا ما هذبوا ونقوا ، قال لهم :
« طبتم فادخلوها خالدين » .
هذا ما ظهر للعبد الحقير ، والله تعالى أعلم .

شبه حادثة يوسف هذه بحادثتي العبد الصالح الذي خرم السفينة وقتل الغلام
الملحوظة السابعة — حادثة يوسف هذه تشبه حادثتي العبد الصالح الذي
آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، إذ خرق السفينة ، ثم قتل الغلام ،
فما كان جواباً عنها ، فهو الجواب عن حادثة يوسف هذه عليه السلام .

استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم

آ (٧١) ﴿ قَالُوا : - وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ - مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى والسبعون فقام برهات الدين
الدرعاوي^(١) وقال :

سمع إخوة يوسف صرخة الصارخين وراءهم ، فأجفلوا ، و (قالوا) بلهفة
وامارات البغته تبدو من أسارير وجوههم ، و (قد) (أقبلوا عليهم) أي على
المؤذن ومن معه ، محولين عنان دوابهم اليهم ، (ماذا تفقدون ؟) بلهجة الاستفهام
الذي يمازجه استغراب ، وفيه شيء من استهجان نسبتهم للسرقة .

الصواع المفقود

آ (٧٢) ﴿ قالوا : نَفَقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ ، وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حَمْلٌ
بَعِيرٌ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ۖ ﴾

ثم تليت الآية الاثنتان وسبعون فقام تاج الدين العكي وقال :

(قالوا) أي المؤذن ومن معه من الصارخين (نفقد صواع الملك) الريان ،
— وكل ما يشرب به فهو صواع ، ويقال له أيضاً صاع ، وقيل هو إناء الشرب إذا
كان من فضة أو ذهب ، وأما « القدح » فهو ما كان من زجاج ، و« العُسر » من
الخشب ، و« العلبة » من الأدم ، و« الطَّرْجَهارة » من الصفر ، و« والمير » كن
من الخزف (١) ، ولم ترد كلمة صواع في القرآن الا في هذا المحل ، وكان هذا
الصواع من فضة ، وتقدم تسميته بالسقاية وسماه في التوراة « طامساً » — وهو
ليوسف عليه السلام ، وانما نسبه هنا للملك ، لأن كل ما كان ليوسف وغيره من
المأمورين فهو من الملك وللملك ، أو يقال أراد « بالملك » من له شيء من الملك ،
كما سيأتي ليوسف ان يقول : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ ، فالملك إذن يوسف
نفسه ، وآثروا التعبير به تهويلاً على السامعين ، (ولمن جاء به حمل بعير) لأقل
من خالص الحب وجيده ، يَعْتَامُهُ من القمح الصافي ، فإن جاء به من رحله ،
أخذ حمل البعير مقدمة او هدية ، بعد العفو عنه ، لأن الاعتراف يهدم الاقتراف ،
وان جاء به من رحل غيره اخذه على انه جُعالة او عمالة (٢) او اجر او حلوان ،

(١) فقه اللغة ، ومنه يعلم ان كلمة صواع لم تحدث لهذا الائناء جديداً حينما صار يكال به .
بل هي اسم له عتيق قبل ان يكال به .

(٢) الجعالة ما يجعل للانسان من الرشا والمصانعات والعمالة ما يسمى للعامل لقاء عمله .

مع شكره ، فنحن مستعدون ان نجمع له بين الماديات والمعنويات ، وهو في اي قالب وضع ذلك فهو حر ، على كل حال نحن مستعدون لمجازاته بالحسنى ، فارشدونا لذلك ، ارشدكم الله تعالى ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون والبعير بمنزلة الانسان ، والجمل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة (سيرا في) — كان حمل البعير في ذلك الحين العصيب ، حين الأزمة وساعة العسرة يساوي مبلغاً لا يستهان به ، مبلغاً له قيمته ، فالوعد به اذ ذاك كالوعد بسعادة مستقبلية ، او بضمانة الحياة ، ومن هنا اقتضى الحال ضرورة وجود كفيل ، يتعهد بتحقيق هذا الوعد الهام ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ وانزعيم غارم ، وانا له ضمين ، والضمين مسئول ، وانا به كفيل ، والكفيل كالأصيل ، وانا له حميل ، والحميل مطالب ، وسأكون اول مصفق له ولروءته ، إن اراحنا من عناء التفطيش ، وقد جاءت هذه اللفظة في قوله تعالى : ﴿ سَأَلْتُهُمْ أَتَيْتُكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ (٤٠ : ٦٨) ولم يقع هذا اللفظ في كتاب الله في غير هذين الموضعين ، وهما بمعنى واحد وهو الضامن للشيء المتكفل به ، هذا هو معناه عند العرب ، واما اهل اليوم فيكثر استعمالهم له في الذي يتكلم عن القوم ويحتج لهم ويحامي عن حقوقهم ومصالحهم ، ضامناً لهم النجاح والعلبة ، فهو بحسب استعمالهم هذا يفيد معنى الضمان والرأسية .

اخوة يوسف يرددون التهمة

آ (٧٣) ﴿ قَالُوا : تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ، وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

ثم تليت الآية الثالثة والسبعون فقام الشهاب الحيفاوي^(١) وقال :

سبق أن مندوبي « العزيز » سألوا إخوة يوسف عن الصواع ، وقالوا لهم ،

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

هانحن أولاء سألناكم ، فما رأيكم وما علمكم ؟ ها قد سمعتم صوتنا ، فأسمعونا صوتكم ، وأطلعونا على جلية الأمر ، وأما إخوة يوسف فلما سمعوا كلام المؤذن ورفقائه ، تعجبوا جداً وأحفظهم هذا السؤال ، وأغضبهم وعاظمهم ، وتقززت منه نفوسهم ، لأول وهلة ، و (قالوا) لسنا هناكم ، ما أبعد وهمكم ! ! هي والله الفحشاء واللؤم (تالله لقد علمتم) أننا (ماجئنا) مصر (لنفسد في الارض) ونعيث في مملكتم تعجب إخوة يوسف من نسبة السرقة اليهم ، ونفهم هذا من التاء ، لأنها وإن تكن حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كما ذكره الزمخشري في تفسير سورة الأنبياء .

وإنما قالوا « لقد علمتم » فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي بحيتهم ، وورد أنهم قالوا لهم : هذه الفضة التي وجدناها في أفواه عدالتنا رددناها إليكم من أرض كنعان ، فكيف نسرق اليوم الصواع ؟ ! . . .
والفساد ضد الصلاح ، فكل ما يخرج عن وصفه الذي يكون به صالحاً ونافعاً يقال فيه أنه فسد ، ومن عمل عملاً كان سبباً لفساد شيء من الأشياء يقال إنه أفسده ، فإزالة الأمن عن الأنفس أو الأموال أو الأعراض إفساد في الأرض ، وإخلال لنظام الاجتماع وأسباب المعاش ، (وما كنا) قط (سارقين) أي نوصف بالسرقة .

سمعوا هذه التهمة التي ألصقت بهم ، فأكبروها وأعظموها ، وظهرت الأنفة على وجوههم ، ممزوجة بشيء من اضطراب ورعدة في الحواس ، وملامح الغضب تلوح على جباههم وصاروا ينظرون إلى مندوبي العزيز شزراً ، وقالوا بنعمة جافة وقد عقدوا بين حواجبهم : تبا علينا ، ماهذه الظنونات التي تظنونها فينا ؟ بعد ما عرفتمونا وجربتمونا ، فلقد عرفتم تاريخ حياتنا ومسواق أعمالنا ، وتبينتم حقيقتنا ، وإن انطباق هذه على هذه هو أيسر من إثبات السرقة علينا ، « وأين الرقمتان من وادي الفضا » ، هل نحن متلصصون ؟ . . هل نحن متشردون ؟ . . لا بد أن يكون

ذهنكم عالقاً حتى الآن بما كنا فعلنا من إرجاع بضاعتكم اليكم ، فكيف تقدم على هذه العظيمة التي هي زيادة عن كونها سرقة ، ففيها جرأة على « العزيز » وحكومته ، ونكران لجميله الذي أجراه معنا ، فهل نحن مائتو الضمير لهذه الدركة ؟ . . أف وتف من هذه النسبة التي لطختمونا بها ! ! . .

ج اخوة للحكم على أنفسهم بأنفسهم بجزاء سارق الصواع

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جزاؤه ؟ إن كنتم كاذبين ؟ ﴾

ثم تليت الآية الرابعة وسبعون فتابع الشهاب الحيفاوي كلامه قائلاً :

قال مندوبو « العزيز » الى اخوة يوسف ، وقد نظروا اليهم شزراً : لا أف ولا تف ، أظنون اننا تلقى القول جزافاً ، ولا نفكر فيما يثبتته ويحققه ؟ طـاش سهمكم ، ، إن البحث هو الذي يظهر صدقكم من كذبكم ، (فما جزاؤه) — الضمير للصواع — أي فما جزاء سرقة ، (إن كنتم كاذبين) في جحودكم وادعائكم البراءة منه ؟ هذا سؤال تقدمه لكم ، أفوتونا مأجورين أو مشكورين ، وأفيدونا بالحكم القضائي في هذه الحادثة ، وخلاكم ذم ، فأجيبوا فأنتم أعلى رأيكم عيناً . ويمكن أن نقول بعبارة أخرى :

قال رجال العزيز لإخوة يوسف : أخفضوا أصواتكم ، واعرفوا مع من تتكلمون ، ومن هم الذين تخاطبون ، إنكم لستم تخاطبون جماعة من السوق ولكنكم تخاطبون جمعاً من خدمة الحكومة المكسوسية ، وليست المسألة مسألة أيمان ، ولا اعتماد على وجدان ، بالله عليكم دعونا من الدعاوى العريضة ، فنحن لانتعبر الأقوال ، لكن الأعمال ، وإن أحسن حكم بيننا وبينكم هو القرائن الراهنة ، والدلائل الساطعة ، ولا نعلم هذا إلا من نتيجة التفتيش ، وعند الامتحان ، يكرم

المرء أو يهان ، ونحن نريد أن نتحاكم معكم إليكم ، وننزل على حكمكم ، فمع أننا قد اعتبرناكم خصوماً ، تقبل أن تكونوا علينا قضاة ، فاحكموا بيننا بالقسط والنصفة .

ماقولكم دام فضلكم ، فيما لو تبين كذبكم ؟ وانه كذب خبريت (١) وان الصواع معكم ، فما تقولون حينئذ وبأي حكم تحكمون ؟ نرجوكم الجواب ، ولكم من الله الثواب .

وقبل الختام نقول : تبارك الله القدير ! ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم ! يعقوب جاء إليه أولاده ، ينعون له يوسف وينبئونه بافتراس الذئب إياه ، فلم يصرح لهم بأنهم كاذبون ، مع أنهم كانوا كذلك ، وهو يعتقدهم كذلك ، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة « كاذبين » وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفهم وواجهوهم بكلمة « كاذبين » مع أنهم ما كانوا كاذبين ، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين ، فما أكبر الفرق ؟..

الجزاء من جنس العمل

آ (٧٥) ﴿ قَالُوا : جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ ،

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة وسبعون فقام الشيخ الجولاني (٢) وقال :

(قالوا) أي اخوة يوسف ، والشر باد في عيونهم (جزاؤه) أي جزاء سرقة في شريعتنا نحن آل يعقوب أن يؤخذ (من وجد في رحله) وليكن من كان (فهو جزاؤه) ولا كرامة ، — وهذه الجملة تقرير للحكم — أي فأخذ السارق

(١) كذب خبريت : خالص مجرد لا يستره شيء

(٢) نسبة الى الجولان من بلاد الشام

نفسه هو جزاؤه لا غير كقولك : « حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فهو حقه » ، لتقرر ما ذكرته من استحقاقه (كذلك) بدون أسف طبعاً (نجزي الظالمين) فوقتنا واحد ، مع القريب والغريب ، برنامج ثابت لمجازاة كل ظالم ، لن نجد له تبديلاً ولا تحويلاً ، وإن سكوتنا عن هذا الظالم السارق يعد جريمة ومشاركة له في ظلمه وسرقته ، فلا بد لنا من مجازاته ، إحقاقاً للحق ، وانتصاراً للشريعة العبرانية ، وتأيداً للقوانين السماوية العادلة .

(قالوا : جزاؤه من وجد .. الخ)

— ٢ —

وقال العلامة الشويكي (١) :

جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه كعبد

سمع إخوة يوسف كلام مندوبي « عزيز مصر » فاشتروا منه جفاء ، واستروحوا منه شدة ، فكادوا يتميزون من الغيظ ، وصار الشرر يتطاير من عيونهم وتلكهم التهيج العصبي ، ولكن الأمر كما يقال : « العاين بصيرة واليد قصيرة » فهؤلاء المتكلمون هم أصحاب البلاد المسيطرون ، وإخوة يوسف ضيوف غرباء ، لذا قالوا بصوت يرتعش ، نحن لا نعبأ بهذا التهديد ، بل نقول لكم إن جزاء سارق الصواع هو أخذ صاحب الرحل الذي تجدونه في رحله ، لأن كل غادر مأخوذ ، وإننا نجزي الظالمين في شريعتنا بهذا الجزاء ، ولا نجزيهم بسوى ذلك ، بحيث لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها فدية ، ولا تنفعها عندنا شفاعاة ، ولا أحد يقوم بنصر هؤلاء الظالمين ، هذي هي فتوانا ، والبحث والتحري هو الحكم بيننا وبينكم ،

(١) نسبة الى الشويكة احد احياء دمشق .

هذا وقد حمى وطيس الشجار ، واشتدت بينهم نار الحوار ، الى أن كانت النتيجة أن مندوبي « العزيز » سمعوا هذه الفتوى من اخوة يوسف قاطمات قلوبهم عندما تلقفوا هذا الجواب المنتظر ، واعتقدوا انهم وصلوا لطلوبهم لأنهم لم يسألوا إخوة يوسف السؤال السابق إلاّ وهم يرجون أن يسمعوا منهم هذا الحكم العبراني .
وأخيراً أختتم كلامي بالملاحظات الآتية :

إقامة الظاهر مقام المضمّر في قوله جزاؤه

أولاً — كلمة « جزاؤه » في الآية مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها إقامة المضمّر ، والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو ، فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : « مَنْ أخو زيد ؟ » فيقول لك : « أخوه من يقعد الى جنبه فهو أخوه » أي فهو هو ، ولكنه أقام الظاهر مقام المضمّر .

جزاء السارق في سنى السرائع

ثانياً — إن ما ذكر في الآية الكريمة من الحكم هو حكم السارق في الشريعة العبرانية الإبراهيمية ، الذي خلاصته ان جزاء الشيء المسروق هو نفس السارق ، فيؤخذ كعبد ، ولا أعلم مقدار مدة عبوديته في الشريعة الإبراهيمية ، غير ما قاله المفسرون (والعهد عليهم) ، أنها سنة ، وأما جزاؤه في الشريعة الموسوية ، فهو انه إن كان عنده مال أخذ منه بقدر ما سرق مضاعفاً ، والاّ أخذ عبداً ست سنوات ، قال في التوراة في السارق : « إنه يُعَوّض ، فإن لم يكن له ، يُبَاع بسرقة » (خر ٢٢ : ٣) قال في السنن القويم : « ذهب أكثر المفسرين للتوراة الى أن مقدار العِوص مضاعف قيمة الخسارة ، وفسروا بيعه بسرقة ، أنه يكون عبداً لرب البيت ست سنوات ، فيكون قد أوفى بذلك ما عليه » .

وأما شريعة المصريين ، فهي انه يجب على السارق أن يدفع ضعفي قيمة المسروق لا غير ، وليس فيها استرقاق .

وأما حكمه في شريعتنا المحمدية فهو كما قال الله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما ، جزاءً بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيزٌ حكيم ﴾ (٥ : ٤١) وقد اختلف علماء الاسلام في القدر الذي يوجب الحد من السرقة ، فذهب جمهور السلف والخلف ، ومنهم الخلفاء الأربعة الى أن القطع لا يكون إلا في سرقة ربع دينار ، أي ربع مثقال من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، وعلى هذا الأئمة الثلاثة ، وأما مذهب الحنفية فهو أن النصاب الموجب للقطع عشرة دراهم فاكثر ، ولا قطع في أقل منها .

الاسترقاق في شتى الشرائع

ثالثاً — نتعلم من هذه الآية أن الاسترقاق كان موجوداً في الشريعة الابراهيمية ثم نتعلم من التوراة أنه كان موجوداً في الشريعة الموسوية ، والواقع أن الرق كان فاشياً قبل البعثة المحمدية في العرب واليهود واليونان والرومان . على أبشع صورة وأنكرها ، وههنا يجب أن لا تنسى استرقاق يوسف ييـد « السيادة » التي نسلته من الجب وباعته بمصر ، فلما جاء الاسلام ضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب ، وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرته ، فقال ﷺ : (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكافوهم من العمل ما لا يطيقون) الى غير ذلك من الاحاديث .

كيف جوز يوسف لنفسه ان يجازي اخوته بشريعتهم

رابعاً — نعلم إذا عمل إنسان جريمة في مملكة غير مملكته ، وجب استفتاء

قانون تلك المملكة التي وقع فيها الجرم ، وذلك احتفاظاً بشرف وسلطان تلك المملكة ، ولا يجوز الرجوع في الاستفتاء والحكم لقانون مملكة المجرم ، اللهم إلا ما استثنى من هذه القاعدة القضائية ، وذلك مثل « الملك » إذا وجد في غير مملكته ، وعمل هناك جريمة ، فانه إنما يعامل بقانون مملكته احتراماً لمقامه ، ومثل « سفراء الدول » في الممالك الأخرى ، فانهم إنما يعاملون بقانون دولهم ، وذلك لأجل حريتهم تماماً ، وتوسيع نطاق عملهم في البلاد الأخرى ، واخوة يوسف ههنا ليسوا بملوك ولا سفراء ملوك ، حتى يعاملوا بأحكام مملكتهم ، فما الذي جوز ليوسف عليه السلام أن يوصي عبده ، أن يستفتوا إخوته توصلاً للحكم عليهم بشريعتهم في مملكتهم ، دون الحكم عليهم بشريعة المملكة المصرية ، وأليس في هذا تحقير لمملكة مصر وقوانينها ؟.. ثم أليس في هذا ظلم لإخوته ، لأن في حكمهم في هذه الحادثة صرامة أشد وأغلظ من حكم المصريين ؟ ..

وجوابنا عن هذا: لعل يوسف عليه السلام اعتبر « الجاني » من إخوته « مملك » عمل جنائية في غير مملكته ، فانه لا يعامل إلا بقانون مملكته ، أو كان يوسف اعتبر إخوته كأجانب أصحاب امتيازات فلذلك أراد أن يحاكمهم بقوانينهم ، وعلى كل حال ، فكأن يوسف من جهة عمل لهم شيئاً من الاحترام ، ومن جهة أراد أن يستعبد أخاه ليحظى ببقائه عنده ، فيكون كمن رمى حجراً ليصيد صيدين ، ويحتمل أن هذه التدقيقات لم يكن معمولاً بها في تلك العصور بمصر ، بل كان يجوز أن يعامل الغريب الأجنبي بقوانينه في بلاده ، ولو وقعت منه الجريمة في مملكة أخرى لها قوانين أخرى .

ويحضرني الآن جواب ثالث ، وهو أن القوانين المصرية كانت في ذلك العصر وضعية ، أي من وضع البشر ، ولكن قانون العبرانيين كان شريعة من وضع

السماء ، ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون ، هذا ما قيسر لنا من الجواب ، والله تعالى أعلم .

الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة

آ (٧٦) * ... فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ، ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ ، - كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، تَرَفَعَ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * -

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة وسبعون فقام الاستاذ الحلبي (١) وقال :

قال لأبناء يعقوب الأحد عشر من وُكِّلَ بهم من المؤذن وجماعته : زريد أن نفتش أوعيتكم ، ما من ذلك بد (فبدأ بأوعيتهم) أي بدأ بتفتيش رحلهم (قبل وعاء) رحل (أخيه) بنيامين ، لنفي التهمة ، على حد قول الشاعر :

وطرفك إما جئتنا فاحبسناه كما يحسوا أن الهوى حيث تنظر

(ثم) لما وصل المفتش الى رحل بنيامين ، أصاب السقاة فيه و (استخرجها من وعاء) من رحل (أخيه) أخي يوسف (كذلك) أي مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) بأن ألهمناه أن يوصي معتمده باستفتائه من إخوته عن حكم السارق ، ثم وفقا لإخوته أن يوقعوا الجواب على السؤال حسبما ظن وأراد (ما كان) يوسف (ليأخذ أخاه) بنيامين (في دين الملك) في جزاء ملك الديار المصرية ، أي

(١) نسبة الى حلبيون من قرى دمشق (سورية) .

آ (٧٦) كيد يوسف لاختوته كان بوحى من الله عقاباً لهم في الدنيا ١٠٨٩.

في المحكمة الجزائية بالديار المصرية — وهو تفسير للكيد وبيان له — لأن الذي كان يحكم به في دين ملك مصر ان يغرم السارق مثلي ما سرق ، لا أن يستعبد ، فالدين ههنا بالمعنى اللغوي هو الجزاء ، كما في « ما لك يوم الدين » ، (١ : ٣) ، ﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَماً أَلَمْ نَكُنْ مِنْ دُونِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣٧ : ٣٥) ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤَفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ (٢٤ : ٢٥) ، ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٥١ : ٦) ، ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ (١٦ : ٥٢) قال الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا ت دناهم كما دانوا

وورد « كما تدين تدان » أي كما تكافأ وتجازى ، ويحتمل أن يكون المراد بالدين الشريعة ، أي شريعة الجنايات والقصاص والعقوبات ، فيكون لفظ الدين محمولاً على المعنى الشرعي أو العرفي (إلا أن يشاء الله) أي ما كان يأخذه لإبمشيئة الله ، بأن يجعل له عذراً فيما فعل ، وقد شاء الله ذلك (نرفع درجات من نشاء) في العلم ، كما رفعنا درجة يوسف فيه سابقاً ولاحقاً (وفوق كل ذي علم عليم) أي فوق كل صاحب علم أو كل ذي معرفة عليم عارف ، بحيث يكون فوقه بطبقات ، إلى أن ينتهي الإنسان إلى درجة في العلم ليس بعدها أوسع منها إلا علم الله تعالى ، وعندها يقف علم ذلك الانسان .

(فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه .. الخ)

- ٢ -

وقال مولانا عمر البيلائي :

كبير يوسف لاختوته كان بوحى من الله عقاباً لهم في الدنيا

بدأ المفتش يفتش اوعيتهم قبل وعاء بنيامين فتناولت أعناقهم ليروا ما يبرر كلامهم أمام من اتهمهم ، ثم مشى مشياً متثاقلاً نحو رحل بنيامين ، وما كاد يفتحه .

٢٠٩٠ كيد يوسف لآخوته كان بوحى من الله عقاباً لهم في الدنيا آ (٧٦)

حتى استخرج الصواع منه ، وعندئذ قطعت جبهة قول كل خطيب ، فاقشعرت أبدانهم ووقفت شعور رؤوسهم ، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير ؛ وأواذل فأجفلوا وبهتوا جميعاً لما نظروه ، مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين ؛ أما بنيامين فقد انصب عليه سوط لوم وطعن من إخوته ، فتظاهر بالخجل وتصنع بالاضطراب تصنعاً لم يغير شيئاً من مظاهر عزته وأنفته ، وكأنه لم يعمل شيئاً يذكر ؛ صبر ولم يرد أن يكشفهم بالحقيقة ، خوفاً من ظهور الأمر قبل أوانه ، فتبطل الحيلة التي دبرها شقيقه يوسف ، فأبقى الأمر مكتوماً الى حينه ، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به ، لاعتقاده انه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين ، وانه بذلك رفع من حضيض الأسر ، الى أوج النسر ، وهكذا تمت الحيلة ليوسف ، ورب حيلة أنفع من قبيلة ، وبسعيه هذا فاز بطريدته وأخذ أخاه بنيامين .

وأما إخوته فاحسوا بنيران هبت في أبدانهم ، وودوا لو تسوى بهم الأرض ، ولا كانوا يشهدون هذا المشهد الخجل أمام « عزيز مصر » وعبيده .

كذلك الكيد العجيب كاد الله ، أي دبر وأراد وصنع ويسر ليوسف المكائد لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها ، يكيد بها من سبق أنهم كادوه ، ويصيد بها من كانوا صادوه « جزاء وفاقاً » ، « وواحدة بواحدة جزاء » ، « بالصاع الذى تكيل يكال لك » .

روى البخاري في تاريخه من حديث أبي بكرة : « اثنان يمجلهما الله في الدنيا ، البني وعقوق الوالدين » ، فلمل الله تعالى أراد تعجيل عقاب أولاد يعقوب في الدنيا لبعيهم على أخيه ، وعقوقهم لأبيهم ، بأن ألهم يوسف عليه السلام أن يدبر هذه المكيدة ، ليدوقوا وبال أمرهم . وفي الحقيقة إن هذا كله يرجع لقدرة الله تعالى التي لا تقاوم وإرادته التي لا تغالب ، فلهذا ولما كان الله هو المرجع لكل حادث ، والمعول عليه في كل الأمور ، نسب هذا الكيد له سبحانه وتعالى .

آ (٧٦) كيد يوسف يجوز أن يكون كيد تكويني راجع للقضاء والقدر ١٠٩١

أو يقال : لما كان هذا الكيد محموداً ومأذوناً فيه شرعاً ، لما فيه من فائدة يوسف وأخيه ، نسب لله ، فقال : « كذلك كدنا ليوسف » ، بخلاف كيد الإخوة ، فإنه شر ليوسف ، ولهذا نسب لهم وللشيطان في قول أبيه له : ﴿ فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ فيوسف ما قصد إلا خير أخيه ، والإخوة لم يقصدوا إلا شر أخيه ، قال الشاعر :

ويصبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذا كا

كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر

ويجوز أن يكون كيد يوسف لإخوته كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر ، أي راجعاً للظروف التي احتاطت بيوسف ، فإن هذه هي مظهر القضاء والقدر ، وتوضيحه أن يقال : إن الظروف والأحوال التي كانت أحاطت بيوسف أخيراً سهلت له أن يكيد لإخوته ، تلك الأحوال هي كونه قد صار من رجال البلاط المتسلطين ، وربما كان قد تعلمه من تأويل الأحاديث ، ومصائر الكلام ، وبما عرف من شريعتي إسرائيل ثم القبط ، حتى صار فيه أهلية للتصرف في الحوادث ، وكيفية الخروج منها والدخول فيها ، ومقدرة تامة على عمل ما يريد .

كيد يوسف لا هوته بل من حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم او حيث اختاره لنفسه

ويمكن أن يقال : إنه كان ليوسف عليه السلام وصفان : وصف كونه نبياً ورسولاً ، ووصف كونه وزير مالية وعزيراً لمصر في البلاط الملوكي ، وسياسياً محنكاً ، فهو باعتبار حاله الأولى ، كان له مساع وأعمال روحية يوفقه الله لها ويساعده عليها ، وباعتبار حاله الثانية ، كان له مساع وأعمال زمنية ، يوفق لها ويساعد عليها من الله ، الذي هو خالق كل شيء ، ولا نشاء إلا ما يشاءه ، قال

تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ، نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٥ : ٣) ، فيوسف نبيّ ، ولكن لم يكن على منهج إدريس وهرون وركريا ويحيى وعيسى ونحوهم ممن كان نبياً محضاً ، بل كان على منهج إبراهيم وموسى وداود وسليمان ونحوهم . ممن هو نبيّ وأمير وملك ذو سلطة وبأس ، ومعلوم ان الحالة التي كانت بين يوسف وبين إخوته ، كانت حالة حرب ، لا حالة سلم و « الحرب خدعة » كما في الحديث الشريف ، وقد كان له على إخوته ترة ، فأراد أن يثار لنفسه منهم ، لأنه كره أن يذل نفسه ، فيجتراً عليه ، فاخترت الاقتصاص لنفسه ، ردعاً للتعدي ثانياً ، وهذه طريقة محمودة لمن أرادها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ، هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٤٢ : ٣٩) وان كانت طريقة الغفران أفضل ، كما قال تعالى في نفس هذه الآية : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، لكن الغفران له أهله ، كما أن القصاص له أهله ، فتبين من هذا أن كيد الله ليوسف من مناوئيه - حيث اختاره لنفسه أو ث اقتضاه الحال - نعمة يمتن بها عليه ، فلهذا قال : « كذلك كدنا ليوسف » .

لَمْ يَسْرِقْ يُوسُفُ أَحَدَ إِخْوَتِهِ غَيْرَ بَنِيَامِينَ

فان قال قائل : كان الأصرح في الكيد أن يسرق يوسف أحد إخوته العشرة بني العلات خصوصاً « شمعون » ، فهو أفعل من تسريق شقيقه بنيامين ، وأشدّ بامساً وأشدّ تنكيلاً ، فلم عدل عن ذلك وسرق شقيقه المخلص له في الحب ؟ قلنا ليس مقصد يوسف مما عمل إذلال إخوته والكيد لهم فقط ، بل كان هذا حاصلًا ثانياً وبالعرض ، إنما كان مقصوده أولاً بالذات أخذ شقيقه عنده ، فان قال آخر : لماذا كان تسريق بنيامين كيداً ليوسف وانتصاراً على إخوته ؟

فالجواب هو لأنهم كانوا في البدء سعوا بكل جهدهم في سفر بنيامين معهم ، ولما امتنع أبوم شوقوه ورغبوه ، ولكنه لم ينزل على مرغوبهم إلاّ بعد أن أخذ

عليهم الأيمان المحرجة والعهود المغلظة ، ولهذا كان أخذ بنيامين منهم فشلاً عظيماً لهم ،
ونخبة مخجلة أمام أبيهم ، فهذا وجه اعتبار ذلك انتصاراً لأخيه يوسف عليهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد رشيد الرصافي^(١) لي على هذه الآية الملحوظات والتعليقات التالية :

يوسف يحتال على اخوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم

الملحوظة الأولى — تعلمون أيها السادة الأفاضل أن يوسف عليه السلام وإن كان قد صار « عزيزاً » بمصر ، وصار « وزير مالىتها » ووكيلاً عن مليكها الريان ، فهو رغمًا عن ذلك كله ، كان لا يزال ضعيفاً أمام إخوته العشرة ، يخاف شرهم ، ويخشى بأسهم ، لأنه مقروض بمخالبهم سابقاً ، ومعضوض بأنيابهم ، فهو كما تقول العامة من الناس « مضبوع » ولذلك احتاج في وصوله لغرضه أن يحتال عليهم بالحسنى ، فقدّر الشقاء عليهم وهم لا يعلمون ، وأرصد لهم الانتقام من حيث لا يشعرون ، أظهر لهم الرفق واللين ، وهو ينصب لهم مصائد الخدعة ، حيث يقعون فيها ، حيث هو لا يقدر على التظاهر بالبطش ، ولا المصارحة بالانتقام ، ذلك لكثرتهم وقوتهم وجراتهم وسرعة تصديق الناس لهم بطعنهم فيه لو أرادوا ، لأنهم إخوته وأقرب الناس إليه وأعرفهم فيه ؛ هذا منخول ما سمعته من بعض معاصريّ والعهدة عليه .

ابن جرير تفتيش الأوعية

الملحوظة الثانية — لو قال قائل : هل كان تفتيش الأوعية خارج المدينة في المكان الذى وصل المفتشون الى إخوة يوسف فيه ، أو أن المفتشين انصرفوا بهم

(١) نسبة الى الرصافة احدى المدن العراقية .

إلى يوسف وهناك صار تفتيشهم ؟ قلنا إن المفسرين (ومنهم العلامة الزمخشري مع الأسف) على الرأي الثاني . ولكن الحقيقة ان التفتيش حصل خارج المدينة في المكان الذي وصلوا اليهم فيه والدليل على ذلك ١ — قوله : « فبدأ » عبر بالفاء ليفيد ما قلنا ٢ — العقل والعادة ، إذ المعقول والمعتاد انه إذا اتهم جماعة بالسرقة فأدركوا خارج البلد أن لا يكلفوا بالرجوع للبلد لأنهم ينكرون تلك التهمة ويقولون : ها نحن أولاء وهذه رحالنا فتشونا ، فان رأيتم معنا المسروق مضى علينا الحكم الشرعي ، ورجعنا معكم للاحكام ليفعل ما يريد ، وإلا سرنا لحال سبيلنا مع جماعة המתارين من كنعان .

هذا هو المعقول المعتاد ، وأما ان الجند قالوا لهم : « لا نفتشكم في هذه الطريق ، ولكن ارجعوا للاحكام معنا قضاكم بقضيتكم حتى نصل الى المدينة وهناك عند الحاكم يصير تفتيشكم » فهذا مخالف للعقل والعادة ، ٣ — الواقع ، فان التاريخ ينص بصراحة ان التفتيش حصل خارج البلدة ، ٤ — قولهم فيما سيأتي « واسأل القرية التي كنا فيها والعر التي اقبلنا فيها » (ع ٨٢) ، فهذه « العير » التي استشهدوا بها كانت معهم في الطريق وهم مقبلون من الديار المصرية الى الديار الشامية آيين الى أبيهم ، وهذه العير هي التي وقفت على هذه الحادثة ورأتها رأي العين ، ويمجوز لنا أن نقول أيضاً إن هذه « القرية » كانت دسكرة في الطريق ، وهي التي وقع فيها التفتيش ، وليست هي العاصمة التي كان فيها يوسف ، فقد جرت سنة القرآن الحكيم في هذه السورة الكريمة ، أن لا يعبر عن المحل الذي فيه يوسف « بالقرية » بل تارة « بمصر » كما في سابق قوله تعالى : « وقال الذي اشتراه من مصر » (ع ٢١) ولاحق قوله تعالى : « وقال ادخلوا مصر » (ع ٩٩) ، وتارة بالمدينة كما مر في قوله تعالى : « وقال نسوة في المدينة » (ع ٣٠) ، وكلمة « قرية » لم تطلق في القرآن على مصر المعروفة ولا في موضع واحد ، فنأخذ من مجموع هذا الذي ذكرناه أن

هذه القرية كانت دسكرة في الطريق خارج العاصمة التي فيها يوسف ، فإذا صح ما قلنا يكون معنا أربعة أدلة تؤيد ان التفتيش وقع في دسكرة في الطريق وليس بالعاصمة التي فيها يوسف خلافاً للمفسرين .

تذكير ضمير الصواع وتأنيته

الملحوظة الثالثة : — ذكر ضمير الصواع مرات باعتبار اسم الصواع ثم أنه باعتبار أنه يسمى سقاية ، وهكذا في كل شيء له اسمان مذكر ومؤنث ، مثل : خوان ومائدة ، قتال وحرب ، رمح وقناة ، سنان الرمح وعاليتة ، والـخ .

كيف جاز ليوسف ان يعمل هذه الحيلة على اخوته

الملحوظة الرابعة — ان قال قائل: كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة ، وهي كذب حنبريت ، وفيها إهانة لإخوته ، وكسر خاطر لهم ، وإلحاق عار ، بدون تسبب منهم ؟ وكيف قبل بنيامين هذه الإهانة ، وقبل أن يظهر بمظهر مارق في نظر اخوته ونظر عبيد يوسف ، ثم في نظر أبيه وأولاده ، وأولاد اخوته متى بلغهم الخبر ؟ وبالتالي كيف جاز ليوسف أن يدخل على أبيه هذا الحزن والقلق بسبب هذا الحادث المصنوع ؟!؟!!..

فجوابنا عن هذه الأسئلة أن يوسف ، عليه السلام فعل ذلك بحسب الرأي وما تقتضيه المصلحة ، وتوضيح ذلك يحتاج الى بسط في الكلام ، واليكم البيان :

الرأي واتباع المصلحة مصدر مهم مصادر الشريعة

تعلمون أن مصدر كل شريعة الكتاب وأقوال الرسل وفتاواهم ، وهناك أصل ثالث وهو الرأي واتباع المصلحة ، وهو كما فسر « ابن القيم » ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أظهر الصحابة في هذا النوع وهو استعمال الرأي فقد روي عنه الشيء الكثير ، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه ، وهو أقرب شيء الى ما يعبر عنه اليوم بروح القانون لاجحرفيته . ونذكر من هذا القبيل أمثلة منها : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (الأنعام : ١٦) فالآية جعلت المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعطي بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام ، كما أعطى جماعة منهم « عيينة بن حصن » و « الاقرع بن حابس » ، ثم في زمن أبي بكر رضي الله عنه جاء عيينة والاقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب وقال : (إن الله أعز الاسلام ، وأعنى عنكم ، فان ثبتم عليه ، وإلا فبيننا وبينكم السيف ؟) ، فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعلّة هي المصلحة ، فلما ارتفعت هذه العلة بعزة الاسلام وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم ، لم يستمر في إجراء الحكم . كذلك روي أن عمر رضي الله عنه لم يقطع يد السارق في عام الحجة ، ويوجد من هذا القبيل أمثلة كثيرة ، وأشهر من سار على طريقة عمر تلميذه عبد الله بن مسعود في العراق . وعلم أهل العراق ابتداءً بابن مسعود وختم بأبي حنيفة ثم بأبي يوسف ، ولذلك اشتهرت العراق « بالرأي » ، حتى صار اذا قيل « عراقي » فمعناه صاحب « رأي » كما يعقابه اذا قيل « حجازي » فمعناه تابع « نصوص » . وأما التعليقات التي لنا على هذه الآية فهي :

علم الله فوق كل علم في الكيف والحكم

التعليق الأول — على قوله (وفوق كل ذي علم عليم) أي فوق كيف ما يعلمه ، وفوقه في كم ما يعلمه ، فكل ذي علم ، لو علم الشيء علماً مبهماً مجملاً ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلمه موضحاً مفصلاً ، وكل ذي علم ، لو علم بشيء دون

شيء ، فالله العليم فوقه ، لأنه يعلم كل شيء ، وهذا هو الفرق بين علم المخلوقين وعلم الخالق ، فمثلاً : الانسان يعلم أنه يوجد غداً شمس ، ولكنه لا يعلم درجة حرارتها وإضاءتها ، والانسان يعلم أشياء كثيرة ، ولكنه مثلاً لا يعلم في أي وقت تقوم القيامة ، حتى ولو كان نبياً مرسلًا ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعةِ أيَّانَ مُرْسَاها ؟ فيمَ أنتَ مِن ذِكرِها ؟ الى ربِّك مُنتَهاها ، إنما أنتَ مُنذِرٌ مِّن يَخْشَها ﴾ (٧٩ : ٤٢ - ٤٥) ، وكما نقل عن السيد المسيح عليه السلام : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بها احد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب) (مر ١٣ : ٣٢) .

علم الله فوق كل علم توصل ويتوصل اليه الانسان

التعليق الثاني — يقول تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ولا يزال العلم آخذاً في الترقى ولا يزال الانسان آخذاً في التقدم ، ولا سيما في هذه الأيام ، فالانسان اليوم بلغ الثريا بجمارفه ، واكتشف الكواكب بعقله وعلمه ، وقاس الارض شبراً شبراً بحسابه ، وغاص البحار وطار في الهواء ، وابتنى القصور فوق الماء ، واكتشف الكهرباء واستخدم البخار . واخترع البرق والهاتف وأتى بالمعجزات العلمية كالحاكي والسماعة ، والراديو والنظارات المكبرة وموازين الارتفاع والانخفاض والحرارة والبرودة ، وأشعة رونتغن ، وقدر الانسان أن يعرف بعلمه وذكائه أسرار الطبيعة وقوانينها ونواميسها وتحولاتها واختلاف عناصرها ، ثم عرف مصدر الأرض وتركيبها وما تحتويه ، وعرف مصدر الماء وتركيبه ، ومصدر الهواء وتركيبه ، وعرف أن الغمام هو مصدر الأمطار ، وأن احتكاك الغيوم ببعضها هو مصدر الرعد والبرق ، وأن الشمس هي مبعث الحياة للأرض وسكانها ، وقدر البعد الشاسع الذي بينها وبين الكواكب والارض ، وفهم أن

هذا الكون سائر بدقة ونظام تام ، وفهم أن مبدع هذه الاشياء هو خالق عظيم ، ورب قدير ، هذا بعض ما أدركه الانسان بعقله وعلمه ، وما هو ياترى هذا الانسان ؟ هو ذرة صغيرة في هذا العالم الواسع ، هو جرثوم ضئيل بين مخلوقات الله العظيمة ، هو لاشيء وكل شيء في آن واحد ، هو جزء من جزء وفي ذات الوقت هو الكل في الكل ، فسبحان المبدع القدير ، والخالق العظيم .

كيف رضى بنيامين بتطبيق حيلة اخيه يوسف عليه

التعليق الثالث — هذه الحيلة التي اجراها يوسف ، وان كان يقصد منها أولاً وبالذات أخذ بنيامين ، ويقصد منها ثانياً وبالعرض إيقاع إخوته في مشكل ، لكننا لا نقدر أن نجعل أن بنيامين كان من جملة ضحايا هذه الحيلة ، بل هي ما صبت إلّا فوق رأسه بالأكثر ، ولكن لما كان ذلك كله بحسب الظاهر ، ولما كان سيظهر للناس أن بنيامين بريء ، ولما كانت العبرة بالعواقب ، ولما كانت النتيجة تبرر الوسيلة رضى بها بنيامين كفدائي ، حتى يرضى أخوه .

ماهية الكيد في هذه الحادثة وانواعه

التعليق الرابع — على قوله ﴿ كذالك كدنا ليوسف ﴾ ، ففي مقابلة كيدهم ليوسف ، كادهم الله تعالى له ، والله يكيد من يكيد ، ويكيد من يكيد مظاهر أمره ، من أنبيائه ورسله ، ومصدر الكيد الرباني في هذه الحادثة هو نفس المكيد له وهو يوسف ، والكيد من الخلق الحيلة ، ومن الخالق التدبير بالحق .

فقوله كدنا ليوسف هو على حد ﴿ وَمَكْرُوا وَمَكْرَ الله ، والله خير الماكرين ﴾ (٥٤ : ٣) ، ﴿ وَمَكْرُوا وَمَكْرُوا وَمَكْرُنا مَكْرُوا هم لا يشعرون ﴾ (٥٠ : ٢٧) ومعلوم أن الأنبياء هم مظاهر أمر الله ، والأمراء هم مظاهر انتقام الله ، ولما كان يوسف مع نبوته معدوداً من الأمراء ، ظهر لآخوته مجتهد اسم « المنتقم »

فكادهم كما كادوه ، وجزاء المعصية قد يتجزأ فيكون بعضه معجلاً في الدنيا ، وبعضه مؤجلاً الآخرة ، فما كان مؤجلاً للآخرة فهو موكول الى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقب عليه ، وأما ما كان معجلاً في الدنيا ، فهو مرتب على المعصية ، ترتب المسبب على السبب ، أو المعلوم على العلة ، ترتباً طبيعياً لا يمكن أن يتأخر عنه ، فضلاً عن أنه يمكن عدمه ، وأقل ذلك الجزاء الدنيوي ما يحصل لفاعل الجرم من توبيخ الضمير ، وتأنيب النفس اللوامة ، وما يدخل عليه من الحزن وانكسار النفس ، وما يحوم حول ذلك من سوء السمعة وسقوط الجرم من أعين الناس ، وهوانه عليهم .

وقد وقع الكيد في هذه السورة اليوسفية ١ — منسوباً لاختوة يوسف ، بناءً عن وسوسة شيطانية ﴿ فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ (ع ٥) ، وعليه فهذا الكيد في الحقيقة من الشيطان ، ونظيره في نسبة الكيد للشيطان ما في قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (٧٥: ٤) ، ٢ — منسوباً للنسوة اللاتي تقع من بعضهن الحيل الشائنة ، وذلك في مثل قوله : ﴿ إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم ﴾ (٢٨٤) ٣ — منسوباً للخائنين ، وذلك كما في : ﴿ وإن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ (ع ٥٢) ، والكيد في هذه المواضع الثلاث مذموم ٤ — منسوباً لله تعالى ، وذلك في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ (ع ٧٦) ، وهذا الكيد ممدوح ، لأنه بسبب تعديهم القديم على أخيه ، فهو من قبيل اقتصاص ومجازاة من الله على ما فرط منهم سابقاً ، ومما نسب فيه الكيد لله ، قوله تعالى ﴿ إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ﴾ (١٥: ٨٦) ، وقوله تعالى ﴿ وأُمنلي لهم إن كيدي متين ﴾ (١٨٢: ٧) وهذا الكيد أيضاً ممدوح ، لأنه واقع من الله على الكافرين بسبب كفرهم .

معاني الدين

التعليق الخامس — على قوله تعالى ﴿دين الملك﴾ : يطلق الدين على معان منها :
أولاً — بمعنى الأحكام القضائية أو الجزائية ، كهذه الآية .

ثانياً — الدين بمعنى الشريعة الفروعية ، ومن هذا القبيل كلمة الدين الثانية في قوله تعالى : ﴿حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أكل السبع إلا ما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ، اليوم ينأس الدين كفروا من دينكم ، فلا تخشونهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ، فمن اضطر في مخبئة غير متجانف لإثم ، فإن الله غفور رحيم﴾ (٤:٥) ، وقوله تعالى : ﴿أم لهم شركاء ، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟﴾ (٢١:٤٢) .

ثالثاً — الدين بمعنى ما يشمل العقيدة والشريعة ، فمن ذلك ما في قوله تعالى : ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (٤:٥) وقوله تعالى : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (١٩:٣) وقوله تعالى : ﴿ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ (١٦٢:٦) . وقوله تعالى : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم﴾ (٧٨:٢٢) .

وبهذا علم أن الدين قد يطلق على العقائد وأحكام الشريعة ، من معاملات وعقوبات وغيرها ، وأما تخصيص « الدين » بالعقيدة ، وتخصيص الشريعة بالأحكام القضائية والجزائية ، فهو اصطلاح مستحدث ، جرى عليه علماء أوربا ، وشاعره عليه كثير من علماء أهل اليوم في الشرق .

رابعاً — الدين بمعنى الأصول العبادية أو حصر العبادة في الله ، فمن ذلك قوله

تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ ، أَمَرَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ (٤٠:١٢) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنْفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٥:٩٨) وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢٨:٧).

خامساً — الدين بمعنى المقائد فقط ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُ لَكُمْ حَتَّى يَرُدَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، إِنْ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمُتَّ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢١٧:٢) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ الْإِلَهَ الْحَقُّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلَّمْتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا « ثَلَاثَةٌ » انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (١٧٠:٤) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٦:٤٩).

جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم

التعليق السادس — كان الملك « الريان » في زمن يوسف وثنياً ، وكانت شريعته أرضية لاسماوية ، وأما يوسف عليه السلام ، فهو وإن كان وزير مالية وعزيزاً بمصر ، فلم يكن له دخل في محاكم مصر الجزائية ، ولا الحاكم القضائية ، وهو في غير حادثة إخوته ، لم نعلم له مداخل في حكم جزائي ولا قضائي ، ومع ذلك فهو لما تداخل في هذه الحادثة ، اجتهد أن يكون الحكم بحسب شريعة جده ابراهيم عليه السلام.

الدرجات وانواعها واطلاقها

التعليق السابع — على قوله ﴿ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ فالدرجات في الأصل هي مرافق السلم ، ثم توسع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق ، فالعلم بشريعة إبراهيم درجة ، والعلم بشريعة المصريين درجة ، والعلم بالرأي والمصلحة درجة ، وسياسة القوم حتى يصل من يسوسهم الى مطلوبه منهم درجة ، والسيادة والحكم بالحق درجة ، والنبوة درجة ، وايتاء الانسان شيئاً من الملك درجة ، وتعليمه تأويل الأحاديث درجة ، الى غير ذلك مما أنعم الله به على يوسف ، « والدرجات » المقصودة هنا هي في العلم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٣:٦) وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ : « تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ » فَافْسَحُوا ، يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ : « انشُزُوا » فَانْشُزُوا ، يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١:٥٨) .

وقد تكون « الدرجات » في الولاية العامة والخاصة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ ﴾ (٢٢٨:٢) .

وقد تكون « الدرجات » في الثواب والمنازل بحسب درجات الأعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ — غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ — وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكَذَٰلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٩٥و٩٤:٤) ، وقد نكرن « الدرجات » في الدنيا ، كما في قوله

تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم خلائف في الأرض ورفّع بعضكم فوق بعض درجات ، لينبئواكم فيما أتاكم ﴾ (١٦٧ : ٦) .

وقد تكون « الدرجات » في الدنيا والآخرة معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ انظروا كيف فضّلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلاً ﴾ (١٧ : ٢١) .

ويقال في الصعود « درجات » وفي النزول « دركات » لا فرق في ذلك بين الصعود والنزول الحسيين والمعنويين ، قال تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ (٤٠ : ١٥) وقال : ﴿ ورفّع بعضهم درجات ﴾ (٢ : ٢٥٣) وقال تعالى : ﴿ إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ (٤ : ٤٥) :

وقد تكون « الدرجات » متفاوتة جسد متفاوتة ، كدرجات الحرارة في مقياسها ، إذ ما كل درجة فيه يغلي بها الماء ، ولا كل درجة فيه ، يتبخّر فيصعد بخاراً ؛ وكدرجات الامتحان في المدارس ، أو الأعمال في الحكومة ، لا ينال الفوز فيها إلا بالدرجات العليا ، المحدد أدناها وأعلاها بالحكمة .

ومقابل رفع الدرجات نزولها ، فهو قد يتفاوت تفاوتاً كبيراً ، كنزول درجات الرطوبة في مقياسها ، ونزول حرارة الجو ، ونزول حرارة الماء ، إذ ما كل درجة في نزول حرارة الجو يسبب نزول المطر ، ولا كل نزول درجة حرارة الماء يكون بها جليداً .

رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم

من الاختيار والاستقلال

وبناء على ما تقدم فقوله تعالى : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ أي نرفع من

شئنا من عبادنا درجات ، وهذا لا ينافي ما وهبه الله للإنسان من الاختيار والاستقلال ، فإن الله خلق الإنسان وأعطاه نوعاً من الاستقلال في أعماله الاختيارية على حسب علمه ووجدانه ، وما تكون التربية والمادة في نفسه من الصفات ، وبذلك يكون مصدراً لسعادتها أو لشقائها بعمله ، وهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداءً بأعداده وبتوقيه من يشاء للكسي منها ، واختصاصه من يشاء بالوحي منها ، ثم هو يرفع درجات من يؤتيهم ذلك ، بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما ترقى به درجته ، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه ، وبايتاء ذي الدرجة الوهبية كالنبوة مالم يؤت غيره من أهلها من المناقب والآيات :

— وجملته « نرفع » استثنائية مبينة أن ما آتى الله يوسف من أخذه أخاه ، كان باختصاصه أعلى درجات معرفة الشرائع واتقائه حسن التوصل المطلوب — .
وأخيراً أختتم كلامي بكلمتين :

الكلمة الأولى — سوغ يوسف لنفسه أن يعمل هذا العمل مع إخوته العشرة وأخيه بنيامين توصلًا لسهولة مجيء أبيه والعائلة جميعاً لمصر ، فالعمل الذي كان أجراه مع إخوته في سفرتهم الأولى كان هو « النواة » ثم هذا العمل الحاضر الذي أجراه معهم وأخيه كان هو « شجرة » ، ثم مجيء أبيه والأهل أجمعين لمصر كان هو « الثمرة » .

الكلمة الثانية — بعد ختام هذا العمل واحتطاء يوسف بينيامين ، لكأنى به التفت إلى أخيه وقال :

يا أخي الحامل ضيمي	دون إخواني وقومي
إن يكن ساءك أمسي	فلقد سرك يومي
فاعتفر ذاك لهذا	واطرح شكري ولومي

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . . الخ

— ٤ —

ثم قام السيد الهمام الغزي وقال :

جواز كون ما عمل يوسف عقاباً لآخوته في الدنيا لأن موسى به من الله تعالى
أيها السادة :

كنت تأملت برهة في هذا العمل الذي دبره سيدنا يوسف لآخوته ، ولم
ألبث أن رأيت مقالة منقولة عن الجاحظ ، فيها شفي غليلي ، ومنها تعلمت الجواب
عن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، قال تحت عنوان « سياسة الحزم » :
« من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا
في موضع الأحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة
المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء — خالف الرب في تدييره ، وظن أن رحمته فوق
رحمة ربه ، وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما
أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشره منه من كان شره
صرفاً ، ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم
بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطعام
والإخافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم ينجز وعُرف
بذلك ، ومن عرف بذلك ، دخل عليه بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ، ما كان
ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده
لكان الله عز وجل ، أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة
في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على

أن الصواب فيه دون غيره ، وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر — عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً — وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع ، وفيما هو أدوم ، ومن الاتقطاع أبعد « آه ،

هذا هو كلام الجاحظ ، ومنه نتعلم الجواب عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، ومنه نعلم أن قوله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ أن هذا الكيد الذي نسبته المولى لنفسه ، قد يكون جرى عليه يوسف بوحى الطبيعة ، لأن الله تعالى كتب ما يلزم عمله من الأدبيات على ضمائر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقد يكون جرى عليه يوسف بوحى الشريعة ، فيكون ما أجراه يوسف عقاباً لآخوته في الدنيا موحى به من الله تعالى وحي شريعة ، فلهذا نسب تعالى ذلك « الكيد » لذاته جل جلاله .

أحسن

الطعن بيوسف وشقيقه

١ (٧٧) ﴿ ... قالوا « إن يسرق ... فقد سرق أخ له من قبل » فأسرّها يوسف في نفسه ، ولم يُبْدِهَا لَهُمْ ، قال : « أنتم شرّ مكاناً ، والله أعلم بما تصفون » ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية للسابعة وسبعون فقام السيد العاملي وقال :

لما رجع أخوة يوسف ، وصاروا بين يديه في بيته ، (قالوا) متملصين من بنيامين ﴿ إن يسرق ﴾ هذا الفتى الغرّ ، فلا عجب ، ﴿ فقد سرق ﴾ سابقاً ﴿ أخ له من قبل ﴾ ويعنون به يوسف ، — وقد اختلف فيما أضافوا له من السرقة ،

ف قيل : (كان أخذ في صباه صنماً لجده أبي أمه فكسره) ، وقيل : (أخذ تمثالاً صغيراً من ذهب فدفته) ، وكل ذلك لم يكن - (ف) لما سمع يوسف هذه التهمة تأثر كثيراً ، وجرى اللطم العقبوني في عروقه ، ووقف شعر رأسه ، ولكنه كظم غيظه ، وصبر ، وقال كلمة لم تتجاوز شفتيه بحيث (أسرها يوسف في نفسه) ، شفى بها بعض غليله ﴿ ولم يدها لهم ﴾ ، بل جعلها بينه وبين ضميره ، - وهذا إضمار على شريطة التفسير ، وتفسيره قوله : ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ ، وقد جاء التعبير في قوله « أسرها » وفي قوله « لم يدها » ، بصيغة المؤنث لأن قوله (أنتم شر مكاناً) هي جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة ، كأنه قيل : فأمر الجملة أو الكلمة التي هي قوله (أنتم شر مكاناً) والمعنى قال في نفسه : أنتم شر مكاناً ، وهذه الجملة بدل من أسرها ، فمع أنهم وقعوا فيه ، وبالوا منه ونطقوا بهذه الجملة القاسية ، لم يصارحهم ولم يده لهم كلمة ما في مقابلتها ، بل طوى غيظه عنهم ، وأكن الحزازة الحاصلة مما قالوا ، ولكنه لشفاء غليله نوعاً ، (قال) في ضميره (أنتم شر مكاناً) أي أنتم أضرت منزلة في الشرِّ ، أو أنتم الذين خلقت هذا الضيق وهذا الموقف الحرج ، من أنفسكم لأنفسكم (والله) عز وجل ﴿ أعلم بما تصفون ﴾ من تسريق أخي وتسريقي ، كذباً وزوراً .

(قالون)

(قالوا : إن يسرق فقد سرق .. النخ)

— ٢ —

وقال ولي الدين الشهرستاني^(١) :

اتهام يوسف بالسرقة وحقيقة هذه السرقة

رأت اخوة يوسف أنه قد وضعت السلسلة في رقابهم وانتهى الأمر ، وكانت ذلك بسبب « بنيامين » ، فلبجؤوا الى شفاء بعض عليهم بالطعن فيه وفي شقيقه

(١) نسبة الى شهرستان في البلاد الايرانية .

يوسف ، فقالوا : (إن بنيامين يتلو تلو شقيقه ، وَيَسْتَسِينُ بَسْتَه ، فهو أشبهه بأخيه ، من الغراب بالغراب ، فيها قد قدا من أديم واحد ، وشقا من نعمة واحدة ، هو قد أخذ هذا الدرس من أخيه قبلاً ، فأراد اليوم أن يجرب هل يلحق شأو أخيه ؟ فيا بُس الخلف ، لبُس السلف ، وإنّا براء منها ومن عملها) .

واختلف فيما أضافوا الى يوسف من السرقة ، والصحيح عندي أنها أيقونة ذهبية من أيقونات الترافيم ، وذلك أن يعقوب لما قام من وجه حميه وخاله (لابان) الذي كان ساكناً فيما بين النهرين ، وأخذ معه زوجته ليثة وراحيل ، كانت راحيل أخذت معها تمثالاً صغيراً من ذهب هو خاص بآبائها « لابان » فافتقده أبوها لابان ، وفتش فلم يجده معها ولا مع غيرها ، لأنها كانت خبأته في كُور الجمل الذي كانت راكبة عليه (تك ٣١ : ٣٥) ، ثم لما وصل يعقوب بأهله الى فلسطين ، كانت تلك الايقونة أي الصورة الصغيرة في يد يوسف يلعب بها ، لأنها أشبهه ما يسمى « بلعبة الصبيان » ففعل إنه سرقها من بيت جده لأمه ، فهم تذكروا هذه الحادثة ، وذكريات الصبا عميقة الأثر في النفوس ، فلذلك ذكروا مذكروا ، ولكن الحقيقة والحال ، أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، على أن سن يوسف في ذلك الوقت نحو عشر سنين ، ولكن سن بنيامين حين وقوع هذه الحادثة الحاضرة كان نحو ثلاثين سنة ، فأَيَّ شاهد قدموا ؟ وعلى أيَّ قياس قاسوا ؟

رأى اخوة يوسف ما حدث ، فانتشر عليهم رأيهم ، وضاع صوابهم ولم يعرفوا ماذا يقولون ؟ ولا ماذا يهون عليهم هذا المصائب . ولا ماهو الشيء الذي يضعف الصلة - نوعاً ما - بينهم وبين بنيامين ، فتصوروا أنه من غير أمهم ، فنفضوا منه أيديهم ، نفص المودع يده من تراب الميت ، فقالوا : إن يسرق بنيامين فلا غرابة ، فقد سرق أخوه يوسف الفقيد من قبله ، فيها شقيقان ، ورضيعا لبسان ، فالدم

واحد ، والعواطف واحده ، وقد تنقتهما أم واحده ، والنفس التي كانت بين جنبي يوسف ، هي اليوم بين جنبي بنيامين ، وإن اختلفت المظاهر .

وأما يوسف فلما سمع قائلهم لم يطلق لنفسه العنان في الرد عليهم علناً ، بل أغض على القذى ، وتجرع كأس الضيم ، وكظم الغيظ ، وأبدى من الحلم ما يصغر عنده حلم « معن » بن زائدة ، و « قيس » بن عاصم ، و « الوليد » بن عتبة ، و « معاوية » ابن أبي سفيان ، غايته أنه أضر في نفسه كلمة واحده ، هي قوله : (أتم شر مكاناً) قالها بينه وبين ضميره ، ولم يبد لها لهم بحيث يسمعونها ، وإنما لم يقل (فقال أو قال) لأنه جواب لسؤال اقتضاه الحال ، كأنه قيل : ما الكلمة التي أسرها في نفسه ؟ فقيل : . قال أتم شر مكاناً .. الخ أو لأن هذه الجملة تفسير للضمير في قوله « أسرها » ووقوع الجملة تفسيراً ، كثير في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

١ — مافي ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ ﴾ (تثير الأرض) ، ولا تَسْقِي الْحَرْثَ ، مُسَلَّمَةً ﴾ (لا شية فيها) ﴿ (٢ : ٧١) ﴾ فقوله (تثير الأرض) تفسير لقوله (ذلول) ، وقوله (لا شية فيها) تفسير لقوله (مسلمة) ولهذا فُصِّل ولم يُعطف .

٢ — مافي ﴿ وَقَالَ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ، فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ﴾ (تحمله الملائكة) ﴿ (٢ : ٢٤٨) ﴾ ، فقوله (تحمله الملائكة) تفسير لقوله (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) .

٣ — مافي ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (كذبوا بآياتنا) ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣ : ١١) ، فقوله (كذبوا) (بآياتنا) تفسير لقوله (دأب) ، ولذلك لم يعطفه .

٤ — مافي ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، ﴾ (تأمرون بالمعروفِ

وتَشْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿ ٣ : ١١٠ ﴾ فقولهُ (تأْمرون.. الخ) تفسير لقولهُ (خير) .

٥ — ما في ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، ﴾ (يقولون : لو كان لنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَذَا) ﴿ ٣ : ١٥٤ ﴾ ، فقولهُ (يقولون .. الخ) تفسير لقولهُ (يخفون .. الخ) ولهذا فصله ولم يعطقه ، الى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله تعالى .

وكلمة « شَرٌّ » أفعل تفضيل ، وليس هو هنا على بابهِ ، نظير ﴿ قال : يا قوم ، هؤلاءِ بناتي ، هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (١١ : ٧٨) ، فإنه لا طهارة في الملوحة بهم البتة .

ثم لكأنك يوسف قد قال في نفسه : « والله إنكم لم تقولوا صدقاً ، ولا ذكرتم أمراً واقعاً ، والله إنني أقدر الآن أن أكذبكم وأفققاً في عيونكم الحصرم ، فانكم تلصقون بي ما لا علم لي به ، ولا وثيقة بيدكم تبرهنه ، ولكن ليس هذا وقت الجدل ، ولا هو وقت إظهار نفسي لكم » .
والآن نهى قولنا بالتعليقات الآتية :

اعراض يوسف عن اللغو

١ — تعليقاً على قولهُ « فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم » لأن يوسف عليه السلام كان ممن إذا مروا باللغو مروا كراماً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ؛

شتم « هشام » بن عبد الملك رجلاً من أشرف الناس ، فقال له : « أما تستحي تسبني وأنت خليفة ؟ » — فقال هشام : « اقتص مني » — قال : « لا أريد أن أكون سفيهاً » — قال : « تعوض مني بمال » — قال : « ما كنت لأبيع شرفي

بالدرهم والدينار ، — قال : « اجعلها لله » — قال : « هي لله ولك » ، ففجل هشام ونكتس رأسه ، وعاهد الله على انه لا يشتم أحداً بعدها أبداً (١) :

تذكر الاخوة ليوسف بالسوء

٢ — تعليقا على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » لم يكتفوا بما كانوا صباه من المصائب على رأس أخيهم المظلوم يوسف ، حتى وثبوا عليه الآن ، ووصموه في هذه المرة بجريرة السرقة ؛

وا أسفاه ! تذكروه في غيابه بالسوء ، بدلاً من أن يتذكروه بالشوق لرآه ، والحزن على بعد عهدهم به ، والندم على ما فرط منهم في شأنه ، ولعمر الحق إن هذا الشيء لا يكون إلا بمن جفت طباعهم ، وسقمت ضمائرهم ، والأمر لله ؛ وهذه المسبة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة إغاثاتهم ليوسف ، وأما الحلقة الأولى فهي صدمه إياه وهو في حضن أبيه في فلسطين ، وأما واسطة عقد هذه السلسلة ، فهي إلقاءهم له في غيابة الحب .

ظن الاخوة بان بنيامين بريء من السرقة

٣ — تعليقا على قولهم « إن يسرق » إنما عبروا « بإن » التي تقتضي مرجوحية مدخولها ، لأنهم كانوا يغلب على ظنهم ان « بنيامين » كان بريئاً من أخذ الطاس ، لأنهم رأوا أن الحاكم قد أكرمه كثيراً ، وكان قبله طلبه ، فلا بد من أنهم استنتجوا من ذلك أن الحاكم أتى ذلك رغبة في إبقاء بنيامين في خدمته لأمر لم يعلموه (٢) .

نبات الاخوة على كره يوسف

٤ — تعليقا على قولهم « أخ له » هذه الكلمة تشف عن ثباتهم على كرهه .

(١) محاصرات عصرنا الاستاذ الحضري . (٢) السنن القويم

يوسف ، حتى يوم ما فاهوا بذلك ، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم ، والحفيظة ملأت صدورهم !!! والمجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف ، وبما عملوه معه ، حتى أردفوا عملهم السيء بالقول السيء ، مخالفين قول بعض الحكماء : « لا تتب مع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه ، فتسد عليه طريق عفو عنك » ، وأما هو عليه السلام فلم يحفل بطعنهم ، بل هضمه ، قائلاً : « إنه كلام لا يسر ولا يضر ، فلنمر عليه من الكرام » .

ويمكن أن نقول إنهم أرادوا بقولهم « أخ له » أخاه الذي يمت إليه من طرفين . طرف الأبوة وطرف الأمومة ، وأما نحن فلا نمت له إلا من جانب الأبوة فقط ، فاتصالنا به ضعيف ، ومشابھتنا له قليلة ، بخلافه هو ، فهو المشارك له في أخلاقه وأعماله ، فهو على وتيرته وشاكلته ، خريجه ، الذي أخذ عنه هذه الثقافة .

اختصار ارفوة الطعن بيوسف

٥ - تعليقاً على قولهم « فقد سرق أخ له من قبل » ، اختصروا القول في الطعن بيوسف اختصاراً ما كان مأمولاً فيهم ولا مرجواً منهم ، وإلا فبعضهم الشديد ليوسف كان يقتضي الإسهاب والبسط في النيل منه ، وكأن السبب في ذلك أمور :
 ١ - إن المقام ليس مقام الطعن في يوسف ، ولكنه ذكر على وجه الاستطراد ،
 ٢ - إن يوسف كان قد غاب عنهم مدة طويلة هي نحو ٢٢ سنة ، وربما كانوا متصورين موته ، فلذلك خفت وطأة حقدهم عليه ٣ - المقام مقام « سرقة » لا غير ، فلذلك إنما ذكروا من طعونهم بيوسف « السرقة » فقط ، ٤ - إنهم لم يجدوا في « عزيز مصر » - الذي هو بالحقيقة يوسف - ميلاً لما يقولون ، ولا ارتياحاً لما يفترون ، فلما أحسوا بذلك لم يسترسلوا في اللم ، ٥ - هم إنما تكلموا فيما بينهم بلغتهم العبرانية ، ففاه بعضهم لبعض بهذه الكلمة ، من قبيل نفثة مصدر يريد أن يروح نفسه ، وهم

لا يعلمون أن « عزيز مصر » (يوسف) يفهم كلامهم ، ولو كان مرادهم الاعتذار عند عزيز مصر ، لتوسعوا في القول بعض التوسع ، من قبيل التنصل من هذا « الإنسان وأخيه » ، وأن تربيتها وأخلاقها ليستا كترينتنا وأخلاقنا ، لأنها ولدا الزوجة المحبوبة « فلذلك ترك أبوها حبيلها على غاربها ».

اوجه احتمال قوله فأسرها ... الخ

٦ — تعليقا على قوله « فأسرها ... الخ » عندنا ان هذا القول يحتمل وجوها ثلاثة :

الوجه الاول — انه أجال ذلك في ضميره فقط، فهذا القول قول نفسي ليس إلا :
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا
أي أنه تحدث بكلمة لم تتعد النفس والضمير، ولم تتعرف عليها الشفة والسمير، وهذا هو الغاية القصوى في الحشمة والأدب، وفي المثل : « الشاتم من أسمع والضارب من أوجع » .

الوجه الثاني — انه رطن باللغة المصرية التي لا تفهمها إخوته .
الوجه الثالث — أنه حرك بها شفثيه فقط اتهاجا لطريقة الخرس ، بحيث لا يفهم كلامه إلا من يعرف طريقة المكاملة بحركات الشفاه .

مثال لحلم يوسف

٧ — وكما أن يوسف عليه السلام قد حلم على إخوته ، فقد وجد في هذه الأمة المحمدية كثير من العلماء ، واليك مثال من كثير من الأمثلة من هذا القبيل في حلم « معن » بن زائدة :

قدم أعرابي ذات يوم على « معن » بن زائدة يمتحن حلمه ، فلما وقف ببابه قال : أتذكُرُ إذ لحافك جلدُ شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير ؟

— فقال « معن » « أذكر ذلك ولا أنساه » — فقال الأعرجي :

فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

— قال « معن » « سبحانه وتعالى » — فقال الأعرجي :

فلست مُسَلِّماً ما عشت يوماً على « معن » بتسليم الأمير

— قال « معن » : « يا أخا العرب ، السلام سنة ، وشأنك في الأمير »

— فقال الأعرجي :

سأرحل عن بلاد أنت فيها ولو جار الزمان على الفقير

— قال « معن » : « يا أخا العرب ، إن جاورت فمرحباً بك ، وإن رحلت

فمصحوب بالسلامة » — فقال الأعرجي :

خذ لي يا ابن ناقصة بشيء فإني قد عزمت على المسير

— قال « معن » : « أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره » ، فأخذها وقال :

قليل ما أتيت به وإني لأطمع منك بالمال الكثير

— قال « معن » : « أعطوه ألفاً آخر » ، فأخذها وقال :

سألت الله أن يبقيك ذخراً فمالك في البرية من نظير

— فقال « معن » « أعطوه ألفاً آخر » فقال الأعرجي : « يا أمير المؤمنين ،

ما جئت إلا مختبراً لحلمك ، لما بلغني عنه ، فقد سمع الله فيك من الحلم ، مالو قسم

على أهل الأرض لكفاهم » — فقال « معن » : « يا غلام ، كم أعطيته على نظمه ؟ »

— قال : « ثلاثة آلاف دينار » — فقال « معن » : « أعطه على نثره مثلها » فأخذها

ومضى في طريقه شاكراً .

استعطاف الاخوة

آ (٧٨) * . . . قالوا : يا أيُّها العزيزُ ، إنَّ له أباً شيخاً كبيراً
نُحِذُّ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة وسبعون فقام الشيخ خالد
البيتلحمي وقال :

سكت عن اخوة يوسف الغضب نوعاً ورأوا أنفسهم أنهم صاروا في موقف
حرج ، لا بد لهم فيه من الحكمة والتدبير ، والعمل على الخروج منه بلباقة ،
نشاطوا العزيز بنعمة المتوسل المستعطف و (قالوا) بصوت حزين (يا أيُّها العزيز)
ملكنا فأسفجج^(١) ، قدرت علينا فافرق بنا ، وتساهل معنا ، ولا تأخذنا
بالتسدة (إن له) أي لهذا السارق (أبا شيخاً كبيراً) طاعناً في السن ، وقد علمت
أنه هو أصغر أولاده ، كما أنك تعلم أن الأب الكبير مها كان له أولاد ، فإن نفسه
تكون متعلقة بأصغرهم ، فهو طبعاً يحبه أكثر من غيره ، لأنه ابن شيخوخته
(نُحِذُّ) أي إنا نتقدم إليك أن تأخذ (أحداً) أي واحد منا أردت ، مستعبداً
(مكانه) وكل منا راض بذلك ، (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) إلينا ، فأتمم إحسانك ،
أو من عادتكَ الإحسان ، فاجر على عادتك .

(١) جرى مجرى المثل ، يضرب لمن قدر على خصمه ، فاراد المبالغة في قهره ، والسجاجة
السهولة ، ومنه كلمة « سجاج » .

قالوا : ياأيها العزيز . . الخ

— ٢ —

وقال السيد سعد الدين البيرودي (١) :

استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه
تذاكر أولاد يعقوب فيما بينهم ، فرأوا أن الأوفق الخضوع لأمر
الحكومة والنزول على إرادتها ، قائلين في أنفسهم : وماذا عسى نعمل مع حكومة
مصر الجبارة :

ومن بعض أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهزم
ثم علموا بسبب ما صار عليهم أنهم قد استهدفوا للوم الشديد من أبيهم ، وأنه
سيظن بهم الظنون ، فوطنوا أنفسهم على إبقاء أحدهم بدلاً من بنيامين بدلاً شخصياً
فمثلوا بين يدي يوسف ، وهم يتعترون من الحجالة والهوان وقالوا له : ياعزيز مصر
المحترم ، مكرمة أتيناك لها ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها (٢) نحن لا نريد عدالة فقط
بل رحمة ، والرحمة فوق العدالة وفوق القانون ، وماذا لك إلا أن لاخينا هذا أباً
كبيراً في المقام وفي السن ، قد ظهرت عليه علامات الشيخوخة ، فإن عمره الآن
١٣٠ سنة ، وقد ذوى عوده ، وخوى عموده ، وضعف نظره ، وتجبرت منه
الغضارف ، وضعفت عضلاته ، وبرى عظمه ، وقد كان له ابن يحبه ففقده ، وهذا
الابن المحبوب المفقود كان من أبيه بمنزلة الشعار ، وقد اتخذ هذا الولد الحاضر من
نفسه بمنزلة الدثار ، فاليوم كيف تكون حالة الشيخ الكبير إذا فقد شعاره ودثاره
كليهما معاً ؟ ؟ ! فإن رأيت أن تهبه لآبيه الشيخ فأنت لذلك أهل ، ومع ذلك

(١) نسبة الى بيروود من ضواحي دمشق (سورية)

(٢) اي حزتها وصنعتها .

فليس مجاناً ، ولكنها هبة بثواب ، نخذ أيّ واحد منا مكانه ، وخله يظعن لوالده الشيخ الهرم ، لاسيما وأن أباه أبي أن يرسله معنا ، حتى نؤتيه موثقاً من الله لنأتينه به ، وقد تعهدنا له بذلك : وأقسمنا بالايان المحرّجة ، وأعطيناه الميثاق الاكيد وإنا نقرأ آية الإحسان على وجهك ، نراك كريم الطبائع ، كثير الصنائع ، أحسنت إلينا أولاً وآخرأ ، سالفأ وحادثأ ، فافعل معنا ماتبينه على قديم أياديك ، وسوابق إحساناتك ، أحسن إلينا ، أحسن الله إليك ، أسعدنا أسعدك الله ، واتخذها عندنا يداً ، لانتساها لك مدى الدهر ، وأنت إذا كنت لا تريد أن ترحم دموعنا السخينة فارحم ذلك الشيخ الهرم ، ذا المقام العالي في فلسطين وكنعان والعراق ، المشار إليه بالبنان من عموم السكان والقطان فيما بين البحر الابيض المتوسط الى نهر الفرات .
وههنا تعليقات :

اي اخوة قام بالاستعطاف

١ - يقال إن الذي ناب عن إخوته في الكلام مع العزيز هو «يهودا» وقد عرض نفسه للعبودية مكان أخيه بنيامين .

طلب اخوة ترك الجاني وأخذ البري

٢ - من العجيب أن تخرج كلمة «خذ أحدنا مكانه» من فم هؤلاء الاخوة بعد صدور الفتوى الشرعية منهم ، بأن جزاء من سرق الصواع هو من وجد في رحله ، ولم يصدروا الفتوى بأن جزاءه أخذ أخ له لاعلم له بالسرقه ، ولايد له فيها .

ومن العجيب أيضاً أنهم تذرعوا لترك الجاني وأخذ البري ، بقولهم «انا نراك من المحسنين» ، كأن من احسان المحسن أن يفك الآثم ويسترق العفيف الشريف ...!!!

يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على اخذ سارق الصواع

آ (٧٩) ﴿ قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة وسبعون فقام الشيخ الجيرودي^(١) وقال :

ما كاد يوسف يسمع كلام اخوته الا وقد سفة فكرة الاستبدال ، وفيل رأيهم تقيلاً ، و(قال) بنفس عزيزة وصوت جهوري ، مجيئاً لهم جواباً سلبياً ، ما هذا الإبرام ؟ .. وما هذه الشفاعة الملتوية ؟ .. (معاذ الله أن) أي نعوذ بالله معاذاً من أن (نأخذ) نستبدل واحداً بريئاً بواحد آثم ، وقد أضيف المصدر الى المفعول به وحذف لفظ « من » (الا من وجدنا متاعنا) سلعتنا ، (عنده) في رحله ، ولم يقل « من سرق » تفادياً من تلويث لسانه بالكذب ، ولبيان مستند الجريمة ، فهو ليس بتصريح بالسرقة ، ولكنه تعريض بها ، وان في المعارض لمدوحة عن الكذب ، (إنا إذا لظالمون) لشرعية ولأنفسنا ولهذا البذل الشخصي عن بنيامين .

(١) نسبة الى جيرود من ضواحي دمشق (سورية)

هذا هو موجز تفسير مفردات هذه الآية ايها السادة واما تفسير الآية
المفصل فكما يلي :

(قال : معاذ الله ... الخ)

— ١ —

رفض يوسف ترك بنيامين او اخذ غيره من الاخوة

كان اخوة يوسف قد عرضوا عليه رجاءهم ، وهم في شيء من القلق ، وضعف
الآمل ، كأن قلوبهم حدثتهم بما سيلاقونه من الفشل عند « عزيز مصر » ، لأنهم
كانوا يحسون بضعف مستندهم في طلبهم ، أمام قوة الحكم الصارم ، الذي صدر
من ألسنتهم ، فلذلك لما سمع طلبتهم زمهر في وجوههم ، وكشر لهم عن مثل ناب
الليث ، ونأى بجانبه ، وقال قول مصر على مخالفتهم ، مقيم على محاربتهم ، ما هذا
الذي تقولون ؟.. ما هذا المركب الخشن الذي تريدون أن تحملونا عليه ؟..
هل يجوز لنا أن نكرم أهل الشقاوة ، ونهين أهل السعادة ؟.. إياها (١) يا قوم ،
هل يجوز أن نأخذ البريء ونطلق المجرم ؟.. لعمرى دون ما تطلبون شرخ القتاد ،
حاشا لي من أن أقبل هذا الظلم الغير جائز ، لاسيما أني أمثل الوطن والتاج ،
فاعذروني إذا لم أقبل توسلاتكم ، أتم أنفسكم قد حكتم بأفواهكم ، إذ قلتم :
« جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه » ، كذلك نجزي الظالمين » ، فهل قلتم :
« جزاؤه من وجد في رحله فأخوه جزاؤه » ، كذلك نجزي إخوة الظالمين » ؟..
كلا .. لم تنطقوا بذلك ، ولا يكاد أن ينطق به عاقل ، وإن هذه الشفاعة منكم ، هي
من قبيل : ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾ (٨٤ : ٤) ،
وإن الشفاعة لا تجوز في الحدود ، وإن هذا الاقتراح لا يقبله منكم أحد من

(١) كلمة استكفاف أي كفوا أو كلمة يراد بها التباعد والاستغراب .

المشرعين ، إلا من بلغ من الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه الأطفال ، ولا سكان
المارستانات ، ولعمري لولا إنكم غرباء نزلنا علينا ، لقرعت لكم العصا وعاملتكم
بما تستحقون ، فلاتخرجونا باسترحاماتكم ، فتخرجونا عن شريعة آبائكم ، فظلم
الظالم يكون عليه ، والنفس التي تخطيء موتاً تموت ، وكما بالراعي تملك الرعيّة ،
فبالعدل تملك البرية ؛ « وأما ما كان من جهة أبيكم ، فعزير علي والله أن أشق
عليه ، ولكن الضرورة لها أحكام ، والشئ قد وقع ، ولاخيرة في الواقع ، ولكن
إذا أتيتموه فأقرئوه السلام ، وقولوا له : « إن عزيز مصر يدعوك أن لاتموت حتى
ترى ابنك يوسف ، وحتى تعلم أن في أرض مصر صديقين مثله ، هكذا بلغوه عني ،
وخلاكم ذم » (١) .

وهنا نرى ان موقف يوسف في حالي استرحامهم وعدمه واحد ، برنامج ثابت،
وضعه لأخذ شقيقه ، لن يتغير أو يتبدل ، ولا بد أن يكون جوابه السلي وقع
عليهم كالصاعقة ، فلبيل لأول وهلة خواطرهم ، وجالت في ذهنهم بل جرت كمجرى
البرق ، صور كلها سوداء تنذر بالبلاء ، والعياذ بالله تعالى . (قالون)

وأخيراً أنهى كلامي بالمواد التالية :

يوسف بين عاملي فرح و كدر

مادة ١ — كآني يوسف عليه السلام صار يتردد بين عاملين ، عامل الفرحة
بمحصوله على أخيه وأخذه عنده ، وعامل كدر أبيه متى بلغه ذلك الحادث ، لكنه
آثر الجري مع العامل الأول ، توصلاً لتشذيب شكيمة إخوته ، وتخفيف شوكتهم ،
وقد دلت التجارب على أن إظهار شيء من قوة الحاكم أو الأمر كفيصل بتقويم
شيء من الاعوجاج ، فيوسف أراد بهذه الشدة أن يعمل على تحسين حال إخوته ،

ثم ان تصويره قرب انكشاف الواقع ودنو مجيء آييه وأهليه جميعاً اليه ، خفف تأثير العامل الثاني عليه .

لا محابة في أمطام الشرع

مادة ٢ — يريد بقوله ﴿ معاذ الله .. الخ ﴾ إن الحكم الشرعي الذي لفظتموه . عام ، فهو لا ينظر في كون المجرم له اب شيخ كبير ام لا ، ولا فرق فيه بين ولد . وولد ، ولا يحتمل شيئاً من المحابة ومراعاة الوجوه .

لا تجزي نفس عن نفس شيئاً

مادة ٣ — تعليقاً على قوله : « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون » ، فكما انه في الآخرة ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعه ﴾ ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون ﴾ (٤٨:٢) فكذا في الدنيا ، لا نسيغ البدل الشخصي ، ولا نقبل الشفاعه ، التي تعود على العدالة بالنقص والبطلان ، ولا نأخذ فدية من المحكوم عليه ، وليس أحد من عشيرته وذويه ، يقدر أن يخلصه منا قهراً ، لأن فتح هذا الباب يزيد الناس ميلاً الى الشر ، وضراوة بالإثم ، وان تعطيل العدل ، والوقوف في وجه الشرائع والقوانين ان تأخذ مأخذها ، وتنفذ نفاذها — ضار بالأهم ، مفسد للعممران ، ولذلك فحكتنا في مصر ، لا ترضاه ، بل هي تباهي بأنها لا تروج لديها « المحسوبيات » ، ولا تميل الى « المحابة » ، وليس فيها متسع « للمداخلات » ، حقاً إن شيئاً من هذا القبيل لهو مما يضر بالأهم ويفسد حالهم ، ويؤخر عمرانهم ، ويوهن عزائمهم عن الوقوف عند حدود الشرائع والقوانين .

يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به افوته

مادة ٤ — ربما ان يوسف لما سمع تعطفهم إياه ، واستنزالهم رحمته وإحسانه ،

وذكرهم شيخوخة أبيه وطعنه في السن ، وانه يحبه لكونه أصغر أولاده — ربما انه لما سمع ذلك حدثته نفسه بإطلاق بنيامين ، وفصم عُرَى التداير التي كانت رتبها ، ولكنه رأى وجوب إمضاء العزيمة ، لأن تقضها ضعف في النفس ، وزلزال في الأخلاق ، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل ، فإذا كان ناقض العزيمة عامل حكومة أو قائد جيش ، كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضاً للثقة بحكومته وبجيده ، ولا سيما إذا كان بعد الشروع في العمل ، وبعد الفكر والروية ، ولذلك لم يصغ النبي ﷺ الى قول الذين أشاروا عليه بالرجوع عن غزوة أحد ، بعدما كانوا أشاروا عليه بالخروج إليها ، وبعدما كان قد افكر فيها ملياً ، وعزم عليها ، ولبس لامته وخرج ، فإنه بذلك صدق عليه انه شرع في العمل بعد الروية ، ويمكن ارجاع ذلك الى قاعدة « ارتكاب أخف الضررين » ، وأي ضرر أشد على الحاكم من فسخ عزمته ، وما فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة .

تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن

مادة ٥ — كلمة « معاذ الله » لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين ، حكاية عن نعم يوسف عليه السلام ، فالمرّة الأولى تقدمت عندما قالت له امرأة العزيز ، « هيت لك » فأجابها بقوله : « معاذ الله » ، والمرّة الثانية ههنا ، حينما قال له إخوته : (خذ أحدنا مكانه) ، فيوسف أظهر لامرأة العزيز أن هذا الامر وهو الفحشاء منكر يستعاذ بالله من الوقوع فيه ، كما أنه هنا أظهر لآخوته ان استبدال بنيامين بغيره ، منكر أيضاً ، لأن فيه استرقاق البريء وفك المجرم .

ظاهر قوله « انا ارا اظالمون » وباطنه

مادة ٦ — تعليقاً على قوله : « انا إذا اظالمون » لأن الجاني هو بنيامين ، فكيف نجازي غيره بجنايته ، قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ﴾ (٢٨٦ : ٢) ، ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾

وهم لا يظلمون ﴿ (٢ : ٢٨١) ﴾ ، وأن لا تزرر وازرة ١ وزرر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .. الخ ﴿ (٥٣ : ٣٨) ﴾ ، ولا تسبب كل نفس إلا عليها ، ولا تزرر وازرة ٢ وزرر أخرى ﴿ (٦ : ١٦٤) ﴾ ، فالقاعدة ان عمل كل انسان له أو عليه ، لا يجزى به سواء ، فطلبكم استبدال المجرم بالبريء لا أقبله ولن أقبله ، ولا يستطيع أحد من علماء الشريعة أو الحقوق ، بل ولا من أخط الجهلة إدراكاً ، وأسخفهم ذهنًا ، وأبعدهم عن الحق ، أن يفتكر هذا الفكر .

هذا بالنظر لظاهر اللفظ ، وأما بالنظر لباطنه فكأنني به يقول : (أعوذ بالله ان آخذ إلا شقيقي المحبوب ، الذي كنت بالاشواق الكلية لرؤيته ، والذي عملت هذا الكيد المتسلسل حتى توصلت للحصول عليه ، وإني لو أخذت أحد إخوتي الكبار الذين كادوا لي كيداً ، وعملوا على إيذائي وإبعادي ، في حين أنني غير مشتاق لواحد منهم — لكنت ظالماً بتركي شقيقي المحبوب ، واستبدالي به مكروه من أولاد العلات ، ولحق عليّ أن أنشد قول الشاعر :

لك الحمد أمّا مانح فلا نرى ونبصر مالا نشتهي فلك الحمد

التورية في قوله « متاعنا »

مادة ٧ — تعليقاً على قوله : « متاعنا » فالمتاع كما يطلق اسماً للسلعة كالطاس هنا فانه يطلق مصدراً بمعنى المنفعة واللذة ، فهذه الكلمة هنا من قبيل ما يدعى « تورية » أو « تعريضاً » (وفي السنة كثير من المعارض ، التي هي جائزة ، اذا لم تبطل حقاً ، ولا تحقق باطلاً ، كقوله ﷺ لمن سأله « ممن أنتم ؟ » قال : « نحن من ماء » ، وكان اذا أراد غزوة ورى غيرها ، وكان الصديق رضي الله عنه يقول في سفرة الهجرة لمن يسأله عن النبي ﷺ : (من هذا الذي بين يديك ؟ فيقول : هاد ، يدلني على الطريق) (١) .

(١) الطرق الحكيمة .

برقيتا شفرة من يوسف لأبيه

مادة ٨ — أراد يوسف عليه السلام بتلك الأعمال والاقوال ، التي عملها وقالها بشأن بنيامين ، أن تبلغ لأبيه ، فيبي منها حل اللغز ، وفك التلسم ، وان لم تفهم اخوته منه شيئاً ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، وطبعاً ان المرسل اليه الرسالة يفهم منها ما لم يفهمه ساعي البريد ، كما قيل : « فنحن سكوت والهوى يتكلم » ، ونحن نرى أنه أرسل لأبيه برقيتي « شفرة » الأولى تفهم من (ع ٦٩ - ع ٧٩) وقرأ الأب هاتين البرقيتين وفهم رموزهما ، وبناء عليه قال كما مياتي : ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. ﴾ (ع ٨٧) .

وهنا تنتهي « المعركة » بين يوسف واخوته
(أحسنت ولا فض فوك)

اليأس والمفاوضة والمناجاة

آ (٨٠) ﴿ فلما استنأسوا منه خلصوا نجياً ... قال كبيرهم : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ، وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ، أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الثانون فقام السيد الحلبي (١) وقال :

سمع الاخوة العشرة جواب « عزيز » مصر السليبي ، وردهم بلا ج

(١) نسبة الى بلدة حلب في سورية .

وتغليطهم في طلبهم ورأوه انه غير مهتم بما قالوا ويقولون ، يئسوا وكانت إحدى الحشرات ، وتقهرروا من أمامه منكسي الرؤوس (فلما استيأسوا) وظنوا أنهم قد وقعوا في مخابل الشقاء ، كالقايض على الماء ، وعقدوا فيما بينهم مجلس مؤامرة و (خلصوا) أي اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نحيباً) ذوي نجوى — وهو مصدر بمعنى التناجي — أو فوجاً نحيباً ، أي مناجياً ، لمناجاة بعضهم بعضاً ، كالعشير والسمير ، بمعنى المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقرَّبْنَاهُ نَحِيْباً ﴾ (٥٢: ١٩) ، وأحسن منه يمكن أن يقال : إنهم تمخضوا تناجياً لاستجتماعهم لذلك واقاضتهم فيه ، بجسد واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، فعلوا ذلك لكي يتفاوضوا في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيه ، كقوم تعاىوا بما دهمهم من الخطب ، وصاروا ينظرون الى أفق المستقبل بمنظار حالك ، لا يملكون مادبر لهم القدر ، من رحمة أو من نقمة ، فاحتاجوا الى التشاور المطلوب شرعاً وعقلاً ، ثم (قال كبيرهم) في السن وهو رأوبين ، وقد استشاط غيظه ، وتلظتى تلظياً ، وتضرّم تضرماً ولاحت له صورة ذلك التشديد والاحتياط الذي عمله أبوه معهم ، كما لاحت له صورة يوسف « المظلوم » : إن الأمر للجلد ، وهو أعظم مما تتصورون : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) وعاهدتموه وواعدتموه ، والوعد على الحر دين — فقالوا : اللهم نعم — قال (ومن قبل ما فرطتم) أي تفريطكم (في) شأن (يوسف ؟) وتهاونتم في أمره ، وقصرتم في الاحتفاظ به ، ولم يرم واحد منكم من ورائه ، ويناضل كما يجب ، ومما يؤلمني انه قد شملني عقاب عملكم ، لأنه قد يؤخذ الجار بظلم الجار ، ولعمري لقد تفاقم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع ، وبلغ السيل الزبى ، وان ماسوف يكون ، أشد هولاً مما كان ، وان في طيات المستقبل ماتتضاءل أمامه حوادث الماضي ، وان الغد سيجيئنا بأروع مما جاءنا به

منذ ٢٢ سنة — قالوا : وما الذي نصنع ؟ وشمعون هو الذي اضطرنا لأخذ يوسف من حضن أبيه ، ويهوذا هو الذي حسن لنا اللقاء في غيابة الجب ، ثم أنت بالأشد ، ويهوذا بالأكثر ، بطالا رواية أخذنا بنيامين من أبيه ، لازلتما تلحان عليه ، ولا برحما تتعهدان له حتى واثا كما ، فيصبح أن نقول لك كما ليهوذا : « يداك أوكتا وفوك نفخ » — قال : وما علمي بما سيكون ؟ اعمرى لقد سبق السيف العزل — قالوا : وماذا تريد الآن ؟ — قال : أما أنا ، فوالذي بإذنه تقوم الخضراء والغبراء (لن أبرح) لن أفارق (الأرض) الداخلة في مملكة الرعاة ولا فواقاً (حتى يأذن لي أبي) بالبراح ، أو الانصراف إليه ، بشرط أن يحلني من يميني ، الذي أقسمت له ، ويتنازل عن الوعد الذي وعدته إياه — وذلك أن رأوبين كان قال لأبيه : « اقتل ابني » إن لم أجيء به إليك ، سلمه بيدي وأنا أردده إليك » (تك ٤٢ : ٣٧) ، (أو يحكم الله لي) بمفارقتها والخروج منها ، أو بتتمة مدة أسر أخي ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ، أو بموتي في مصر ، فلتئن مت غريباً في هذه الديار بلا خجالة ولا ذل ، خير لي من أن أرجع لفلسطين بالخجل والهوان ، (وهو) سبحانه — وتعالى (خير الحاكمين) لانه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق ، هذا كل ما أملكه اليوم في مصر ، وكل ما أستطيع أن أقدمه ، أملاً في تخفيف ويسلات والذي ، وتخفيف هذا المصاب الذي لي منه حظ وافر ، سمع أخوته منه هذا الخطاب ، فأظلمت الدنيا في عيونهم ، وخيل اليهم كأن المحيط الذي يحيط بهم ، قد صبغ بصبغة الظلام الدامس ، ووقعوا في حيص بيص ، ووقعوا في قريب مما كان وقع فيه يوسف أيام الجب ، منذ ٢٢ سنة ، وكما تدين تدان :

عما قليل كأن الحكم لم يكن
عليهم الدهر بالأحزان والحن
هذا بذاك ولا عتب على الزمن

تحكموا ما استطاعوا في تحكمهم
لو أنصفوا أنصفوا ، لكن بغوا فبغى
فاصبحوا ولسان الحال ينشدهم

(فلما استيأسوا منه : خلصوا نجياً ... الخ) .

— ٢ —

وقال سيدي علي المسمي^(١) :

بأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم واقوال اخبرهم اليكبر

فرغنا مما كان من أمر الجدل بين يوسف واخوته ، وتوسلهم اليه ، وعدم اجابته إياهم ، فلنترك ذلك كله ، ولنترك يوسف وعو محظي^٢ بأخيه في فرح وجدل ، ولنذهب بالقارىء الى هؤلاء الاخوة العشرة ، وحيرتهم ووقوعهم في الضيق ، الى أن التجأوا الى المفاوضة .

رأوا أنه قد حمى الوطيس من جانب « عزيز مصر » فرجعوا الى أفاحيصهم متسللين متلاوذين ، وما رجعوا الا بنحي حنين ، فتلبدت عليهم غيوم الحادثة ، وضاق صدرهم ، وضائق عليهم الأرض بما رحبت ، ووقعوا في أزمة شديدة ، ورأوا أن هذا الحاكم لا يراغم ، وعلموا أن بقاء أخيهام أمر حتم ، لا بد منه طوعاً أو كرهاً ، فمثلت لهم حراجة الموقف بأجلى مظاهرها ، ورأوا أنهم وقعوا في حيرة ، تتقاذفهم العوامل ، بين رجوعهم لفلسطين بدون بنيامين ، وبين بقائهم بمصر ، حياء من أبيهم ، وكلا الأمرين شاق ، وصاروا كلما تصوروا مسيرهم لفلسطين هالهم موقفهم أمام أبيهم ، وعظم عليهم الاعتذار ، ولم يكن ذلك الحادث ليهولهم أو يكبر عليهم ، لو لا ماسبق من حادثة يوسف ، فيها قد أصبحوا متهمين في نظر أبيهم ، فهذه المسألة هي بمكان من الدقة والخطر ، فلذلك رأوا أنفسهم في حاجة الى التفكير والمفاوضة ، لعلهم يصلون الى رأي أو مشورة ، يكون فيها حل لهذا المشكل ، ومخرج لهم جميعاً ، وتخفيف على أبيهم الذي هو الآن في قلق واضطراب .

(١) نسبة الى المسمية من قرى قضاء غزة (فلسطين)

ينتظر بفارغ الصبر عودة ابنه بنيامين ، وعودتهم جميعاً سالمين ممتارين ، فلذلك انتبذوا جميعاً في ناحية بعيدة عن مجتمع الدهماء وضوضائهم ، متناجين ، وأعمالوا فكرتهم ، وفزعوا الى الموامرة ، فقال أخوهم الأكبر رأوين كما روي عن قتادة وهو في الواقع ونفس الأمر كبيرهم على الاطلاق ، لأنه بكر اسرائيل ، وهو ذو البلاء الحسن واليد المشكورة (نوعاً) في آرائه في يوسف ، فقد كان له معه ضلع لا ينكر ، وإن كانت المقادير لم تساعد — قال وقد شعر بعضهم التبعة التي تحملوها بالأقسام التي أقسموها لأبيهم : « يا أخوتي ، ألم تعلموا أن أباكم اسرائيل قد كان يخوف منكم على ولده بنيامين حتى أخذ عليكم موثقاً من الله في شأنه ، وشأن محافظته ، والرجوع به سالماً ؟ . . فقد أصبحتم مقيدين بهذا الموثق ، وصرتم مرتبطين بذلك (والشرط أملك ، عليك أم لك) ، ومن قبل ما فرطتم في أمر المحافظة على « يوسف » رحمه الله منذ ٢٢ سنة ؟ . . أنا لا أريد أن أزيدكم علماً بذلك ، لأنكم تعرفونه تماماً ، اليس هكذا ؟ » — قالوا : « اللهم نعم ، ولكن إن لم يكن لنا في الواقع اعتذار عن حادث يوسف ، فانا نعتذر عن حادث بنيامين بأن أبانا قال : « إلا أن يحاط بكم » وقد أحيط بنا ، إذ لا يد لنا مع الحكومة المصرية ، ذات الحول والطول ، ولا طاقة لعشرة أنفار أن يعصوا دولة ، ويخرجوا عليها ، خصوصاً ونحن غرباء ، وفي داخل حدود مملكتهم ، لا سيما وقد أخذوه بوجه مشروع ، بعد استفتائهم منا ، وأنت تعلم أننا جميعاً لم نأل جهداً في استبداله بواحد منا ، وان « عزيز مصر » لم يقبل رجاءنا من هذا القبيل ، وكيف يقال أننا قصرنا ، وكل واحد منا فادى بنفسه ، وقبل التضحية بذاته ، ولكن مساعينا لم تكن الا قبض الريح » — فقال رأوين : « أنتم وذاكم ، وأما أنا فقد وطنت نفسي على أن لا أزال مرابطاً في مصر ، بدون أن أتبرم أو أتذمر ، ولن أفارق هذه الأرض ولو جلست على الحكومة بخيلها ورجلها ، وسأبذل كل مرتخص وغال ، وأجود

بالنفس والنفيس ، وأنسى أهلي وأولادي ، في سبيل إقامتي في « صوعن » ، وعدم رجوعي لکنعان ، حياء من أبي ، ولأجل مشاركة أخي بنيامين وملاحظته ، وأملًا أن يجد في شأنه مافيه بارقة أمل ، حتى يأذن لي أبي بالانصراف إليه ، بشرط أن يحلني من اليمين التي كنت أقسمت لها عندما أخذنا بنيامين منه بأن أردده له بيدي وأن يتنازل عن الوعد الذي كنت وعدته إياه بأن يقتل ابني إن لم أجيء بنيامين إليه ، أو يحكم الله لي بما لا يعلمه سواه ، لأن المستقبل بيده سبحانه وتعالى .

(جيد)

فاما استيأسوا منه ، خلصوا نجياً . . الخ

— ٣ —

وقال تقي الدين الدهشوري (١) :

نشكر المحاضر الكريم الأخ المسمي على تفسيره لهذه الآية الكريمة وأرجو أن تعيروني سمعكم للتعليقات التالية عليها :

معنى النجى

١ — النجى والنجوى والتناجى مصادر بمعنى المسارة بالحديث وأصله من من النجوى ، وهي المكان المرتفع عما حوله ، بحيث ينفرد من فيه عن دونه ، أو من النجاة ، كأنه نجا بصره ممن يحذر اطلاعهم عليهم :

والغالب في التناجى أن يكون خيراً للمتناجين ، وشرّاً لغيرهم ، أو مؤذياً لهم ولو من بعض الوجوه ، كإسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بها أهلها نفع أنفسهم ، وضرر غيرهم ، فيكتمون أخبارها ، ويجعلونها نجياً بينهم ، لئلا تصل إلى خصومهم ، وعدوهم الذي يضره ما ينفعهم ، وينفعه ما يحبط عملهم ، ويبطل كيدهم

(١) نسبة الى دهشور من بلاد السودان المحري .

ويشبه ذلك ما يكون بين التجار وغيرهم من طلاب الكسب ، من التناجي فيما يخافون أن يطلع عليه غيرهم ، فيسبقهم اليه أو يشاركهم فيه ؛

فالنجوى تكون في الخير كما علم ، ولكن الأكثر أن تكون في الشر ، أو أنها فيما يعود بالشر على غير المتناجين ، ولذلك كانت النجوى مظنة الإثم والشر ، والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر ، هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب اظهار الخير والتحدث به في الملأ ، وإن الشر والإثم هو الذي يخفى ، ويذكر في السر والنجوى ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ، إلا من أمر بصدقة ، أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ﴾ (٤ : ١١٣) ، والنجوى ههنا هي من قبيل هذا النوع الثالث ، وهو الإصلاح ، لأنهم يتناجون لما فيه صالح أخيه بنيامين ، أو فيه صالحهم جميعاً فيما بينهم وبين « عزيز مصر » ، أو فيما بينهم وبين أبيهم إذا رجعوا اليه ماذا يقولون له في شأن أخيه .

مجلس شورى الاخوة

٢ — لما وقعوا في الأزمة الشديدة عقدوا « مجلس شورى » ، وقد أصابوا لأن « يد الله مع الجماعة » ، و « المرء قليل بنفسه كثير باخوانه » و « ماخاب من استخار ، ولا ندم من استشار » وقد أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بالشورى ، فقال : وشاورهم في الأمر (٣ : ١٥٩) ومدح الصحابة بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (٢ : ٣٨) ، وقال أبو الطيب المتنبى :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فإن الخوافي رافدات القوادم
وماخير كف أمسك الغل أختها ؟	وماخير سيف لم يؤيد بقائم ؟

٦ (٨٠) تعريض راويين باخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف ١١٣١

تعريض راويين باخوته بعدم اشتراكه في التفريط بيوسف سابقاً

٣ — نفهم من قول راويين : « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » شيئاً مهماً ، وهو أن راويين لم يقع منه تفريط في الاحتفاظ بيوسف ، وهو حقيقة راهنة ، أيدها النقل الصريح ، فقد روى لنا التاريخ أن « راويين » لما سمع كلام إخوته وموآمرتهم الأولى في شأن يوسف ، منذ ٢٢ سنة . قال : « لا تقتله ، لا تسفكوا دماً ، لا تمدوا إليه يداً » وصادف أنهم بعد أن القوه في الجب أن راويين غاب عن الجب وعن اخوته في بعض شؤونهم ، ثم رجع الى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه فزق ثيابه ، لانه لم يكن يعلم أن « السيارة » جاءت فسحبته ، وأصعدته من الجب وسافرت به لمصر ، وكان بعد القائه في الجب عازماً على إخراجه منه بحيلة ، ليرده الى أبيه ، فرجع الى اخوته وقال : « الولد ليس موجوداً في الجب ، وأنا الى أين أذهب ؟ » « فرأويين » كان يعمل في الخفاء ويريد أن يرد يوسف لآبيه فيما بعد ، — هذا ما ذكره التاريخ ، وهو يؤيد ما فهمناه من الكتاب الكريم من أن « راويين » لم يكن مفرطاً بالاحتفاظ على يوسف ، وإلا لجاز أن يقول له كل واحد من اخوته ، ما قاله « أبو العيلاء » لصاحبه ، حينما سأله عن سبب بكوره ، فقال : « أراك تشاركني في الفعل ، وتضروني بالعجب » أو كما قال بعضهم لآخر : « ما جاء بك في هذا المحل المريب » ؟ فأجابه : « الذي جاء بك » .

اقرار الاخوة على التفريط بيوسف سابقاً

٤ — وأخيراً فقد لاحظت هنا ملاحظة ، ولا أعلم إذا كان اتيح لغيري أنه لاحظها أم لا ، وهي أن قول راويين : « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحد منهم وسكت عليه الباقيون ، فيكون الكل قد اعترف صراحة بأنهم فرطوا في يوسف ، وكان هذا نتيجة شيء من

الخلاف بين الاخوة ، وبعبارة أصح بين رأويين وسواه ، وبذلك صدق قول بعض الحكماء : « إذا تخاصم اللسان ظهر المسروق » (مرحى)

نتيجة المفاوضة

آ (٨١) * ارجعوا الى أبيكم ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب

٠ ١٠ ٠١

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثانون فقام الملا محمود السليمانى (١) وقال :

يقول « رأويين » : هذا ماصحت عزيمتي عليه بالنسبة اليّ ، وأما بالنسبة اليكم يا اخوتي ، فليست أرى الا عودتكم ، فذلكم أخلص وأوفق لكم (ارجعوا) سراعاً ، واستحثوا غيركم جهد طاقتكم (الى أبيكم) ، ونهاها ، سيروا لفلسطين وإن يكن هذا الرجوع رجوعاً بشرياً وعراً (٢) ، رجوعاً بصفقة المغبون ، ولكن ما العمل ؟ ارجعوا اليه (فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك) بنيامين اصلحه الله ، (سرق) سقاية الملاك ، التي يكيل بها للممتارين ، وجدت في عدله ، فأخذ عبداً ، حسب شريعتنا ، وها هو الآن عند « عزب مصر » (وماشهدنا) عليه أمامك بالسرقه (إلا بما علمنا) ظننا بمقتضى ظاهر الحال ، وبمقتضى شريعتنا أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد انكاره يوجب له أحكام السارق ظناً (وما كنا للغيب

(١) سبة الى السلطنة بلدة في العراق .

(٢) العر : المكروه

حافظين) أي وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ؛

نحن اليوم وقعنا في مشكلة لم تكن في حسابنا ، وما كنا لتعلم ما يأتي به الغد .

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

ما كنا نعلم أن حادثاً كهذا ينزل فوق رؤوسنا ، وبنوع أخص فوق رأس أخينا بنيامين ، أنت قلت ، وكأنك حفظت لنا خط الرجعة : إلا أن يحاط بكم ، وقد أحيط بنا ، فلقد غلبنا على أمرنا ، ولسنا أكفاء لحكومة مصر أن نقاومها ، وما عسى أن نصنع مع حكومة القاهرة غنية ؟ وقد قيل « إذا تكلم الجاه مسكت الصواب ، وإذا نطق المال خرس الحق » على أننا نعتزف بأننا رأينا الصواع في عدل أخينا رأي العين ، ونحن لو كنا نعلم الغيب لاستكثرنا من الخير ، وما مسنا السوء ، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

جهل البشر وفهم الانبياء بالغيب — إقامة الحجّة على النصارى بهدم الوهية المسيح

ملاحظة — لقد صدقوا في قولهم : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ، لانهم بشر مخلوقون ، وليس هم فقط ، بل كل بشر مخلوق لا يعلم الغيب ، حتى ولو كان نبياً مرسلًا ، قال نوح عليه السلام : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ (٣١ : ١١) وكذلك قال خاتم الانبياء : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ (٥٠ : ٦) وقال أيضاً :

﴿ ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير ، وما مسني السوء ﴾ (١٨٧ : ٧) وقال المسيح عيسى : ﴿ تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك ﴾ (١١٩ : ٥) وقال في الانجيل ﴿ وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ، فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن ، إلا الآب ﴾ (مر ١٣ : ٣٢)

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر ، تقول اذا كان المسيح بمقتضى هذه العبارة لا يعلم متى تقوم الساعة — سواء أكانت الصغرى أم الكبرى — باعتباره هذا ، فكيف يكون هو ديان الخلائق يوم القيامة ؟ وقوله فيها : إن الابن لا يعلمها ، نص على أنه ليس بإله ، فان قيل : لعله يريد « الانسان يسوع » — قلت : ولم لم يعبر بذلك ، ليكون قوله خالياً من اللبس والتضليل ؟ ، واذا كان افنوم الابن متحداً بناسوته كما يقولون . فكيف لم يعلم الناسوت ما يعلمه اللاهوت ، والا فـما معنى هذا الاتحاد ؟؟ وجاء أيضاً في انجيل يوحنا ، ان المسيح عيسى لما أشار عليه إخوته بالذهاب الى اورشليم ، لأجل العيد ، قال لهم : « أنا لست أصعد بعد الى هذا العيد » (يو ٧ : ٨) ولكن لما مضى اخوته الى العيد ، مضى هو ايضاً بعدهم متخفياً (يو ٧ : ١٠) ، فعبارة هذه إما انها كذب وغش ، ولذلك ذهب بعدها متخفياً ، واما انه ما كان يعلم أنه سيذهب الى العيد (أي جهل وتردد) ، وكلاهما مما يجب أن ينزه الله تعالى عنه ، وان كان قلما باعتبار الناسوت — وهو الجواب الذي صدّعوا آذاننا به — قلت وكيف لم يهده اللاهوت المتحد به ، الى البت في عمل صغير كهذا ، وتركه يبدي كل تردد وجهل ؟ وما فائدة اللاهوت إداً ؟ وفي أي شيء أفاده ؟ ولم اتحد به الله ، وهو لم يصلب معه ؟ بل تركه ، ولذلك قال : « إلهي إلهي ، لماذا تركتني ؟ » ولم يعبد النصارى هذا الناسوت العاجز الجاهل مع اللاهوت ، ولم يفرقوا بينها ؟؟؟!!

شهود الحال على جريمة التسريق

آ (٨٢) ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

تابع الخطيب السابق كلامه على الآية الثانية والثانين قائلاً :

استمر « راويين » في مخاطبة اخوته مبيناً لهم ما يجدر بهم أن يقولوه لأبيهم ، (و) إذا أردت يا أبانا أن تتبين حقيقة ما نقول ، وتعلم صحة ما ننقل ، (اسأل) بنفسك أو بواسطة أحد عبيدك سكان (القرية التي كنا فيها) حيث جرى حديث التسريق والتفتيش - وهي الدسكرة التي لحقهم فيها فتیان العزيز و جرت فيها تلك المحاورة - (و) أيضاً اسأل (العير) أي اصحاب العير والعير هي القافلة من الإبل - (التي أقبلنا) التي رافقناها وكنا مقبلين (فيها) لجهة كنعان ، فذلك يوم مجموع به الناس ، وذلك يوم مشهود ، وهذه « القرية » لقربها لا تحتاج لقطع أعناق الإبل ، إنه ليس بينك وبينها سوى ثلاث مراحل ، وهذه « العيرة » من فلسطين من جيرانك ليسوا بعيدين عنك ، وهم كثر ، لا يأخذهم عدو ، ولا يتهم واحد منهم بأنه يشهد عن عاطفة أو محابة لنا ، بل كلهم شهود عدول ، وبراہین ساطعة ، وعند السوآل يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتظهر لك صحة ما ندعي ، فان هذه الحادثة أصبحت من الاخبار المستفيضة المستطيرة المعلومة عند هؤلاء الناس أجمعين ، (و) والله الذي بإدنه تقوم السماء والأرض ، (إنا لصادقون) وإلا فكل واحد منا نفي من أورمة إسرائيل ، وقد قيل : « لسان أخرس خير من لسان ناطق بالكذب » ، فهذه شهادتنا بأنفسنا ، وهذا استشهادنا بالناس المرافقين

لنا ، وهذه ايماننا ، وذلك الآن هو كل ما غلك من الدلائل التي تقدر أن تقدمها أمامك ، وما بعدها زيادة لمستزيد .
وأختم كلامي بالمواد التالية :

التحقق من القرية والعير

مادة ١ — طلبوا الى أبيهم إنَّ أَحَبَّ ، أن يسأل القرية والعير ، والغالب أن تلك القرية كهؤلاء العير ليسوا من المؤمنين ، ومع ذلك فإنَّ أخبارهم مقبول ، لأنَّه من قبيل البينة ، لا من قبيل الشهادة ، وقد قال العلماء : « البينة في الشرع أعم من الشهادة » ، فكل ما يتبين به الحق بينة ، وذلك كالقرائن القطعية ، وعليه فشهادة غير المسلم تدخل في البينة بهذا المعنى ، إذا تبين للانسان بها الحق ، ومع ذلك فهم يقولون لأبيهم إن هذا الحادث مستفيض ، وعند الاستفاضة لا فرق بين المسلم وغيره ، وربما كانت أخبار غير المسلم مقبولة أيضاً والله أعلم .

المراد من القرية ١

مادة ٢ — المراد من « القرية » أهلها كما ذكرنا ، فإن العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه ، ومثاله : « والى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » (٧ : ٨٤) ، أي الى أهل مدين ، وكما قال حميد بن ثور :

قصائد تستحلي الرواة نشيدها ويلهو بها من لاعب الحي سامر

يَعَضُّ عليها الشيخ لبهام كفه وتجري بها أحياءكم والمقابر

أي أهل المقابر ، والعرب تقول : « أكلت قدرأ طيبة » أي أكلت ما فيها ، وكذلك قول الخواصة : « شربت كأساً » (١) .

حال يعقوب واسرته آتشد

مادة ٣ — قضوا في هذه الموأمره ساعة وبعض الساعة ، وأخيراً وعلى حسب ما قال « كبيرهم » قام الاخوة التسعة ، وأعدوا معدات السفر ، ورحلوا قافلين لفلسطين .

فوا أسفاه لهذه الحال المحزنة التي صارت اليها أسرة يعقوب عليه السلام : بلاء اكتنفهم ، وشروور تظاهرت عليهم ، ومحن قد أحاطت بهم ، وتفرق بعد اجتماع ، وانتشار بعد انتظام ، فأبوهم هو وأحفاده في فلسطين ويوسف — في رأيهم — مفقود ، وبنيامين ، مستعبد عند « عزيز مصر » ، ورأوين بقي في مصر في إحدى فنادقها ، غريباً وحيداً ، ينتظر الفرج من الله ، وأما التسعة الباقون ، فهم سائرون الآن في الطريق الى أبيهم ، بين مصر وفلسطين ، في تلك الصحراء القاحلة ، وكلهم في فكرة وقلق ؛ سبحان الله ؛ قضى يعقوب عليه السلام زمناً غير قليل من حياته بفلسطين ، تعباً من أخيه « عيسو » الجبار ، ثم خوفاً منه أن يقتله قام للعراق وقضى فيها عشرين سنة وهو يرعى غنم خاله « لابان » ، ثم قضى برهة من أيام حياته مسروراً مغتبطاً بابن هو الزهرة اليانعة في روض أبناؤه ، ثم نكبه الدهر فيه نكبة عظمت ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ثم جعل حزنه يخف تدريجياً ، كما تخف أحزان جميع الناس بطول المدة ، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنه بنيامين أصغر أبناؤه ، ليتولى تربيته واسعاده وأصبح بنيامين تعزيتة الكبرى بعد شقيقه المفقود ، وهو كذلك ، فما شعر إلا وقد فقدته اليوم أيضاً ، وصار عبداً لحاكم مصر :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي وسروره يأتيك كالأعياد

تكذيب فصبر فترجي

آ (٨٣) * قال: بل سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثمانون فقام الشيخ خليل من علماء الطائف (١) وقال :

رجع اخوة يوسف الى ابيهم فقالوا له ما قاله له اخوهم « رأوبين » ، فلما سمعه أبوهم ، ألمّ به من الحزن ما كادت تتقد منه أضالعه ، فقال لهم : « ثم ماذا ؟ أتموا حديثكم — قالوا : هذا كل حديثنا ، وليس عندنا حديث غيره » فما عدا أن يسمع هذا الكلام حتى (قال) « لم اصدق ، ولا أريد أن اصدق ، (بل سولت) زينت وسهلت (لكم أنفسكم امراً) أردتموه ودبرتموه ، وإلاّ فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم له بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوكم » — قالوا : « ما أخبرناك إلا بالحق » — قال قلت لكم : « ان ابني لا يسرق ، ولن يسرق ، وان حاكم مصر لا يعرف هذا الحكم العبراني الا من فكم ، ولأمر ما دُبّر من قبلكم ، وقبّل حاكم مصر أن يحكم على رجل عمل جنايه في بلاده بغير شريعة مملكته ، والا فشرّف مصر يتطلب الحكم على الجاني فيها بقوانينها لا غير » (فصبر جميل) على هذا النأي المقدور ، فان الصابر كالرجل القوي ، لا بنوء به الحمل الثقيل .

— وهنا نرى ان يعقوب عليه السلام نَزَعَ الى الصبر ربنا يتكرم عليه ربه بليقيا أولاده الثلاثة ، فيفرح فرحاً مثلثاً :

(١) الطائف من مدن الحجاز .

كن حليماً إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أئتتك مصيبة
قالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدت فيه عجيبة
(عسى الله أن يأتيني بهم) بالثلاثة (جميعاً) عاجلاً أو آجلاً ، فاني أرى ذلك
بعين القلب ، ولا أزال أسمع صوت الوعد السماوي رنّ في اذني ، (إنه هو العليم)
بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلني بذلك الا لحكمة ومصلحة .
(قال : بل سولت لكم أنفسكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الأسيوطي (١) :

حال يعقوب عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين

انصاع أولاد يعقوب لرأي أخيهم الا كبررأوين ورجعوا أدراجهم الى أبيهم،
وقصوا عليه القصة ، وقد كان ينتظر عودة بنيه بكل فروغ صبر ، مع علمه بطول
المسافة التي بين « سيلون » محل اقامته في فلسطين و « صوعن » محل اقامة العزيز
بمصر ، ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت ، وكان بمدة
الانتظار مملوءاً من الرجاء والأمل ، وهو كذلك إذ جاءه أبنائوه يحملون
له نبأ تلصص بنيامين واستعباده ، فتمعّر وجهه ، وقال في نفسه : كنت في مصيبة
فصرت في اثنتين ، ويحكم ! انه لحوب كبير ، ما هذا الذي تقولون ؟
... لا.. لا.. لم يكن شيء من هذا القبيل ، أنا اليوم مثلي بالأمس وبالغد ، أرتاب
في صحة كلامكم ، ولا اصدق ما تخبرون به ، لا أحميد عن ذلك قيد شبر ، بل
سولت وزينت لكم أنفسكم أمراً ذا بال ، أمراً ضل عني فهمه ، وعمت علي حقيقته
واغمي علي واستبهم ، وان سابق عملكم مع يوسف الفقيد ، يجعلني أقف تجاه
أخباركم هذه موقف المرتاب ، أنا لست الآن في معرض التحقيق والبحث ،

ولا اتفرغ له ، إنما لا أظن أن « بنيامين » يجرأ على هذا ، إذ يحتمل انكم أتم الذين جعلتم « السقاية » في رحله ، كما يحتمل ان حكومة مصر لها في ذلك الحادث شأن من الشؤون ، لا يعلمه الا الله تعالى ، نواحرناه ... يا بنياميناه ... آه من اهل الظلم ! أواه من الحكام الظلمة ، هل انت لص خائن يا بنيامين ؟!؟! هل أنت متسول ؟!؟! حاشا .. ولكن هي اغراض الظالمين ، تسلك الأبرياء في سلك المجرمين ، فصبر جميل على هذا الحادث الذي يفتت له الصخر ، صبر جميل وإن اكن قد ذقت العذاب الوافاً ، صبر جميل وإن يكن عنائي وهمي بفراق ثلاثة أولاد سيكون أضعاف عنائي وهمي بفراق ولد واحد :

نصيبك في حياتك من حبيب	نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى	فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابني سهم	تكسرت النصال على النصال
وهان فما ابالي بالوزايا	لأنني ما انتفعت بأن ابالي

آه ... أرسلت ابني بنيامين لازداد حمل بعير ، فنقصت ولداً بل ولدين ، أرسلت ابني بنيامين لكي اخفف ويأتي التي أصابني بالقحط والأزمة مع من أصابت ، فكانت النتيجة انه استرق ، فكنت بحسب العاقبة كناقش الشوكة بالشوكة ، أو كغاسل الدم بالدم ، أو كمقرور هرب من الديمة ، فصار تحت الميزاب ، أو هرب من الرمضاء فتدهور في النار ، ولكن :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني	صبرت على شيء أمر من الصبر
فما مثل مر الصبر صبري وانما	صبرت على شيء أحر من الجمر
فما أحسن (الصبر الجميل) مع الرضا	وما قدر المولى على عبده يجري

وان بطل الدهر هو من كافح المصائب بشجاعة ، وتغلب عليها بالثبات ، والحازم من صبر عن مضض الحياة :

كم ساعة أزعجني وقعها
فتشت فيها جاهداً لم أجِد
وكم سقتني المر أخت لها
فأسلمتني هذه عنوة
يا صاحب الساعات انصت عسى
تنجيك منها الساعة القاضية

ولكن عسى الله ان يأتيني بأولادي الثلاثة ، فان في ذلك لي رهبةً قوية
واملاً كبيراً :

ولربها فثر الجمان تعمداً ليعاد احسن في النظام واكتملا

وان الشمس تغرب ، فلا تلبث أن تطلع من شرقها ؛ ونرى تراكم السحاب
فوقها ، فلا تلبث أن تنفجر عنها ، حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وان الاشجار
تعري ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسبات الريح . ولأن
الأحياء ينامون في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري بقرنه ، قاموا
من مراقدهم ، وهكذا أولادي ، سيؤوبون — ان شاء الله — الى وطنهم وحضن
أبيهم ، وما ذلك على الله بعزیز .

(مرحى)

(قال بل سولت لكم انفسكم .. الخ)

— ٣ —

وقال العلامة القزويني ^(١) لي على هذه الآية الكريمة التذييلات التالية :

هاتف من يعقوب

١ — رأيتني في مسقط رأسي « قزوين » في ذلك الحين ، حين أن سمع يعقوب

(١) نسبة الى قزوين بلد على بحر قزوين شمال ايران

من أولاده نبأ بنيامين ، وكان لدي « الهاتف اللاسلكي » فأدركت لولب أمواجه الى « سيلون » ثم أصغيت في صوانه ، فسمعت يعقوب عليه السلام يقول :

« ما هذه الكرب التي لا تزال تتعبدني ، كما تتعبد المحموم نوباته ، حيناً بعد حين ؟!.. موت راحيل ، ففقدان يوسف ، فموت اسحاق ، فاسترقاق أصغر الأولاد ، فاحتباس كبيرهم ، فما لحواض الأيام قد التفت حولي ، التفاف المقطرة بالمقطور ؟!.. ومالعاديات الدهر قد أحاطت بي ، إحاطة الجامعة باليد ، والقيد بالرجل ؟!.. »

خليلي لا والله ما الدهر منصف	وليس له يوماً علي جميل
يقرب مني كل شخص يسوءني	ويبعد عني من اليه أميل
« آه .. أواه .. وا أسفاه .. »	

سمعت هذا من ثم هذا الصفي الكريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف به من الملائ الأعلى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٤٧ : ٣١) ، صار كل هذا ، فعجبت في نفسي كيف تسنى لي أن اسمع كلام يعقوب عليه السلام ، وبينني وبينه نحو (٣٧٠٠) سنة شمسية ؟ ثم استغربت من وجود اللاسلكي في ذلك الزمن ، وفيما أنا كذلك ، تمللت وفتحت عيني فاذا أنا في حلم ، فذهب عني كل ما كان عندي من تعجب واستغراب .

الايجاز والحذف في القرآن

٢ — تقدمت الإشارة الى ان في صدر الكلام حذفاً ، تقديره : فرجعوا الى ابيهم فقالوا له ما قال لهم كبيرهم ، ولهذا نظرنا في القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « يوسف ، أيها الصديق الخ » وفيه ايجاز ، والمعنى فأرسلوه الى يوسف ، فأتاه ، فقال يوسف الخ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَفَقُولَا : إِنَّا رَسُولُ

رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل ، قال ، ألم نربك فينا وليداً ؟ ﴿ ٢٦ : ١٦ - ١٨ ﴾ معناه فأتاه فقال له ما أمره الله ، فقال فرعون : ألم نربك الخ ،

استغشاش يعقوب لأولاده في بنيامين

٣ — لم يصدقهم أبوهم هذه المرة ، مع انهم — فيما يعتقدون — صادقون فيها ، لأن من عبد عليه الكذب ، لا يصدق ولو تكلم بالصدق ، كما ان من عرف بالصدق يصدق في كل شيء ولو كان كاذباً ، فابوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم ، ولم يكن في هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشاً لهم في المرة الاولى . كانوا استشهدوا بسوآل القرية والعر ، فلم يأبه لاستشهادهم ، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك لانه تعود منهم الغدر والكذب واليمين الخمس ، فما صدقهم في هذه الحادثة ، مع أنهم كانوا — في تصورهم — صادقين . فما مثلهم الا كمثل حكاية الذئب وراعي الغنم المشهورة .

يعقوب بين الابتسام والانسجام

٤ — لو رأيت يعقوب عليه السلام حينما سمع هذا الخبر المقعد المقيم ، لرأيت منظرأ عجيباً ، وخلقاً غريباً ، نعم لو رأيت في وجه واحد ، ثغراً يتسم ، ودمعاً ينسجم ، أما الانسجام فلاجل مصيبة ولده بنيامين ، وأما الابتسام فلانه علم ان الله قد آذن بالفرج ، فان الكرب اذا اشتد هان .

تسلك يعقوب في حادثتي يوسف وبنيامين

٥ — تقدم انه نطق بعين الجملة الشريفة (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) حينما أخبر بأن « الذئب » أكل يوسف ، فهو وان يكن قد ذهبت به الظنون

في شأن ولديه كل مذهب ، إلا أنه كان لا يعتقد أكل الذئب ليوسف ، ولا يصدق بسرقة بنيامين على الحقيقة .

صبر يعقوب

٦ - صبر يعقوب عليه السلام في هذه المرة الثانية ، مع انها مصيبة ملوثة بالعار والدناءة ، فلا تقل عن المصيبة الأولى ، بل ربما كانت أعظم ، وعلى كل فان أسباب الكرب والكدر فيها ترحي الصبر بالمنجنيق - صبر لأنه من أصحاب المبادئ الثابتة ، ومن ذوي الأخلاق المتينة ، هذا عدا أنه من الأنبياء المرسلين الذين هم سادة المتأديين ، بما أدبهم به رب العالمين.

موقف يعقوب واحد في حالي كذب وصرق اولاده

٧ - نرى أن موقف يعقوب مع اخبارات أولاده واحد ، في حالي كذبهم (١٧ع) وصدقهم (٨٣ع) برنامج ثابت ، وضعه لعدم ثقته بهم ، لن تجد له تحويلاً ، ولن تجد له تبديلاً .

خوف يعقوب من اولاده

٨ - نقرأ في كتاب الله آية ، فنجدها كأنها فصلت ثوباً سابغاً ليعقوب عليه السلام ، وتلك الآية هي قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٥:٢) ، فانه عليه السلام كان في شيء من الخوف من أولاده ، بدليل أنه - لاسيما في المرة الاولى - لم يعاقبهم ولم يشدد عليهم ، ولم يجمل طويلاً في البحث معهم عن يوسف ، وقد كان قبل هذا النوع من الخوف خاف خوفاً شديداً من شقيقه « عيسو » حتى انه خاف أن يقتله ، وهذا ما كان دعاء للهجرة من الشام للعراق .

عند خاله « لابان » ، تم قد وقع هو واسرته في شيء من الجوع وتقص الأموال والثمرات في سني الجذب ، وتقص من أولاده يوسف وبنيامين ورأوبين ، ومع ذلك كله فقد صبر صبراً جميلاً .

دمعة على يو.

آ (٨٤) * وتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ
وَايْبَضْتُ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ ، فَهُوَ كَظِيمٌ *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثمانون فقام حيدر افندي
الازميري (١) وقال :

كره يعقوب ماجاء به أولاده ، فأعرض (وتولى عنهم) وهو يتعثر في اذياله
من شدة الهم ، وقد احتدم احتداماً ، وصفق كفاً بكف ، وقد تفتحت جروحه
(وقال) بصوت شجي مؤثر (ياأسفا على يوسف) — والأسف أشد الحزن
والحسرة ، يقال أَسِفَ كَتَبَ : حزن وتلف ، فهو أَسْفٌ مثل تعب ، والألف
بدل من ياء الاضافة ، — وانما أسف هنا على يوسف ، مع أن المقام مقام أسف
على بنيامين ورأوبين ، والرزء الأحدت أشد على النفس وأظهر أثراً ، لأن أسفه
على يوسف كان متادياً لم ينقطع قط ، فكأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً
طرياً ، ولأنه لم يقع حادث عنده موقعه ، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة
مصيباته التي ترنت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق
به (و) لزال يبكي حتى (ابيضت عيناه) أي مقلتا عينيه (من) كثرة البكاء
الناجم عن (الحزن) ، لأن الاستعبار إذا كثر محقت المبرة سواد العين وقلبت

الى بياض كدر ، ولا بد انه عليه السلام كان يدرك رؤية الأشياء ادراكاً ضعيفاً ،
لأن العمى لا يجوز على أنبياء الله ، لأنه من الداآت المنفرة للطبيعة؛

وجاز له أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الانسان مجبول على أن لا يملك
نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره (فهو كظيم) مملوء من الغيظ
لأجل أولاده ، ولا يظهر مايسوءهم ، — وفعل بمعنى مفعول بدليل قوله ﴿ وهو
مكظوم ﴾ من كظم السقاء : اذا شده على ملئه ، والكظم (بفتح الظاء) مخرج
النفس ، يقال : أخذ بأكظامه .

(وتولى عنهم ، وقال يا أسفا .. الخ)

— ٢ —

ثم تابع المحاضر كلامه قائلاً :

تجدد حزن يعقوب

كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته ، ومرجع آماله ، وزهرة
أعماله وتعزيتة في شيخوخته ، ووارث علمه ، ومجدد مجده ، وانه هو الذي تمثلت
فيه ملامحه ، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه ، ولذلك لم ينسه ولن ينساه ،
فعندما سمع نبأ بنيامين ، تذكر ولده يوسف فتولى عن أولاده وخلا بنفسه ،
فصارت الهواجس تتقاذفه ، والأفكار تخنقه ، وقد جرت عادته أن يتعزى عن
يوسف ببنيامين ، ولكن اليوم لم يجد مايتعزى به عنه ، فاندفع الى ذكره ، وقال :
« يا أسفا على يوسف ! فقد كان تعزيتي عن كل شيء ، وكان زينة أولادي ، وبيت
قصيدهم » فصعد الزفرات ، وأسأل العبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق
المينين فانسكب دمعها قطرات ، يسابق بعضها بعضاً ، وبالنتيجة ابيضت عيناه من
الحزن الصامت ، ولكن بدون أن يحني ذلك البياض على نظره ، وأشد الحزن

ما يبكي الرجال ، وكان حينما يبكي لا يدري ، أي يبي يوسف .. أم يبي بنيامين ، أم يبي رأوبين .. أم يبي شخصه الذي أصيب بهذه المصائب .. أم يبي تشويش حال أسرته وتشتتها .. أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر .. الى آخر الأحوال المحزنة الأليمة التي صبت فوق رأسه ، عليه الصلاة والسلام !!؟

وهنا رب سائل يسأل ويقول : كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبراً جميلاً ؟.. والذي يفهم من كلام بعض الشعراء أن البكاء ينافي الصبر الجميل ، قال البحري :

إن الفراق كما علمت فخلني ومداماً تَسَعُ الفراق وتفضلُ
إن لا يكن صبر جميل فالهوى نشوان يجمل فيه مالا يجملُ
وقال كثير :

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت : البكا أشفى إداً لغليلي
وقال أبو فراس الحمداني :

إذا مادعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
وقال المتنبي :

يأبى الشجاع وصبره متواتر : يبكي ومن شر السلاح الأدمع
وإذا حصلت من السلاح على البكا : فحشاك رعت به وخدع تفرع

قلت في جوابه : ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيات الصبر الجميل ، كما تشير اليه هذه الأشعار ، ولكن الذي نص عليه علماء التفسير ، وفي مقدمتهم ابن جرير ان الصبر الجميل هو الذي ليس فيه جزع ولا شكوى ، أو كما جاء في الحديث المرفوع هو الذي لا شكوى فيه ، ومعناه لا شكوى فيه الى الخلق ، الا ترى الى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، وعلى كل فهذا المعنى يصدق بما اذا كان فيه بكاء ولو كثيراً ، ومجرد البكاء ولو كثيراً ، لا يسمى جزعاً ،

إنما الجزع ما يقع من الصياح والنياحة ولطم الحدود وشق الجيوب ، فهذا النبي ﷺ ، كان سيد الصابرين الصبر الجميل ، مع أنه بكى يوم وفاة ولده ابراهيم وقال : ﴿ إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ، وإننا بفراقك لمحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ﴾ وعنه ﷺ : « انه بكى على ولد بعض بنيه وهو يجود بنفسه ، ف قيل يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ، فقال : ما نهيتكم عن البكاء ، وإنما نهيتكم عن صوتين أحقرين ، صوت عند الفرح وصوت عند السرح » ، وعن الحسن : « انه بكى على ولد أو غيره ، ف قيل له في ذلك ، فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب » قال الشاعر :

إن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

وأما ما يفهمه شعر هؤلاء الادباء من المنافاة بين الصبر ومطلق البكاء ، فهو من باب المبالغات الشعرية ، وأيضاً فليس كلام الادباء بحجة في اللغة ، وإنما الحجة الحديث الشريف الذي فسر الصبر الجميل بأنه الذي لا شكوى فيه الى الخلق (فهو كظيم) حيث صار ذا حرقة كامنة تعتلج في صدره ، ولا تجد لها متنفساً ، وقد احتفظ بسكوته وهدوئه ، فلزم خيمته يقاسي من داء قلبه وداء عينيه مالا يطيق مثله الا مثله ، وفي اختتام نعلم من هذه السورة الشريفة ان حياة يعقوب عليه السلام كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة المثل في التاريخ .

(جيد جيد)

وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف . . الخ

— ٣ —

وقال الطبيب هبة الله الدمشقي :

افترق يعقوب والنبين عليهم السلام

كره يعقوب ما جاء به أولاده ، فبرم بهم وتركهم ، أو أنه تغفلهم فأعرض

عنهم وابتعد منهم ، لأنه يريد أن يطلق عنانه في التأسف والتحسر ، ويوغل في البكاء بحرارة ، لأنه جرب فرآى أنه إذا أراد أن يذكر يوسف أمامهم ، فسرعان ما يسمع منهم الانتقاد ، أو لأنه أحب أن يخفي عنهم ألمه ، الذي عجزت مُنته عن احتماله ، وأن يحمل ثقل ذلك على عاتقه ، دون أن يكدر صفاء من حوله ، ولو أنهم هم لا يهمهم أن يكدروه ، فلم يظهر لهم شيئاً من ذلك ، ولم يظهر مايسوؤهم ، رغمًا عن أنهم أساؤوه ، شأن كل كريم ، لاسيما النبيين ، لا يظهرون انقباض نفوسهم ، ولا يحملون الناس شيئاً من اكنثآبهم ، ولا يفرقون على الناس همومهم لئلا يحزنوا بذلك قلوبهم ، لأنهم هم الذين يأمرّون الناس بأن يقدموا للناس ما فيه مسرات الحياة ، وترويح النفوس ، وينهونهم عن انقباض النفس وابتسار (١) الوجه أمام غيرهم ، لئلا يكدروا صفاءهم ، لأنه أما يكفي أن لا يستطيع الإنسان أن يسعد أخاه ، فإذا لم يفعل ، فعلى الأقل يجب أن لا يشقيه ، وهذا خلق عظيم من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي لنا التخلق بها ، فحبذا لو كان كل منا يحافظ على أن لا يقطع على أخيه مسرته ، بل يزيد سعادته وغبطته ، ولا يظهر له عبوسه وبسوره (٢) بل بشره وفرحه ، وذلك إنمّا يكون إذا تلقى نحن الدهر بصدر واسع ، وخلق وادع ، وصبر جميل ، كما هو حال يعقوب عليه السلام .

لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن

بحادثة بنيامين ذكر يوسف الفقيد النائي عنه ، فحنن اليه ، حنين الناقة الى فصيلها ، وأحزنه أنه لم يسمع له بخبر ، ولم يقف له على أثر ، منذ سنة ، فلم يجد له بداً — إذ هاجه الوجد — أن يلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد ، الذي يفرع اليه جميع البائسين والمحزونين ، وهو الأسف والشكوى الى الله بالجنان ، ولكن في خلوته بعيداً عن كل إنسان ، واختص يوسف بالأسف ، لأنه تصور في نفسه أن

(١) الابتسار العبوس . (٢) البسور الكلوح .

« رأوين » حين حبس نفسه في مصر كان عمره نحو ٦٠ سنة تقريباً ، وهما على كل حال كبيران في السن ، ومكان وجودهما معلوم متعين ، بخلاف يوسف في ذلك كله ، فانه كان حين فقد صغيراً ابن ١٧ سنة ، ولا يعلم أين مأواه ، فهو الحقيق بالأسف .

وأخيراً نقول : ماذا تظن يعقوب عليه السلام في ذلك اليوم العصيب ، يوم ماسمع بأن ولده « بنيامين » سَرَقَ واستترِقَ عبداً في بلاد غريبة ، وعند ذلك تذكر ابنه يوسف ، وزاد على هذا وهذا انجاس ابنه « رأوين » ؟ . . هل تظن أنه كان ساكن القلب مطمئن البال ؟ . . وهل ذاق جفناه الكرى بعد هذه الحوادث الاليمة ؟ . . كلا . . لانخاله قضى يومه ذلك ، وليلته تلك ، الا مضطرباً قد هاجه الأسف ، وأطلق لنفسه عنان البكاء . . وذرف الدموع السخينة لهول ماعراه ، ليس من مصاب واحد ، بل من تلك المصائب الثلاث . قال أبو العلاء المعري :

قضى الله أن الآدمي معذب الى أن يقول العالمون به قضى
فهيء ولاية الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً واستراح الذي مضى
أصبت

وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف . . الخ

— ٤ —

وقال الفضيل الشبراوي (١) :

اعلق على هذه الآية الكريمة بالتعليقات التالية :

تكرار اسف يعقوب على ابنه يوسف

١ — كائنني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، عندما ثارت عواطف نفسه ثورة

(١) نسبة الى شبرا في مصر

عظيمة ، وتولى عن بنيه وهو خائر النفس ، وقد تراحت المصوم في مخيلته ، وأكثرها
بروزاً غياب يوسف — كما نفي به قال : « يا أسفا على ذلك الشباب الغض ، على غصنه
الباسق النضير ، وا أسفا على تلك النبتة الرقيقة التي كانت تعيش بجانب دوحها ،
ينفي عليها ظلها ، ويفيض عليها نسيمها ، فقصرت وقطعت ، فإذا النبتة ذابلة ، وإذا
الدوحة تكلى حزينة !

أواه . . هاه . . هاه . .

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
لقد انحطت عليّ المصائب ، تعمل مطارقها على رأسي ، وسهامها في قلبي ، فلي
الله ، من آسف حزين ، لي الله ، من فاقد فلذة كبده ، لي الله ، من فاقد أولاده
الثلاثة ، أكبرهم وأصغرهم وأحبهم :

متى يستريح القلب والقلب متعب بين علي بين وهجر على هجر ؟
وهكذا تكدر وتمرر في داخله ، حتى قهره الأسف ، وأنهكه البؤس ،
وانقلب شوقه حزناً « وابيضت عيناه من الحزن » :

الحاجة التي في نفس يعقوب

٣ — سمعت من عالم من علماء « دمنهور » عاصمة البحيرة في الديار المصرية أنه رأى
مناماً سمع فيه يعقوب يقول : « يا أسفا على يوسف ، وكيف لا أتأسف عليه وقد
خرج من عندي بارادتي لا قهراً ، وأسلمته لأعدائه برضا مني لا جبراً ، وقد كان
بوسعي ملافاة ذلك الأمر قبل وقوعه ، بمنع ارساله مع اخوته ، مع أنني أنا كنت
أحذره منهم ، فكان يجب أن أحذر نفسي أيضاً ، وعلى الأقل كان يجب أخذ
الحيلة باتخاذ اليهود والمواثيق على اخوته ، حتى إذا غدروا به ، لم أحسب نفسي
قد قصرت في أسباب سلامته » — قال : فقلت له : « ياسيدي هل هذا هو

« الحاجة » التي كنت قضيتها لبنيامين دون يوسف ؟ — فأشار برأيه :
« أي نعم » ، فادركت عندئذ الحاجة الواردة في قوله : « الحاجة في نفس
يعقوب قضاه » .

إنما الصبر عند الصدمة الأولى

٣ — إذا قلت لم ذكرت يوسف في مقام ذكر بنيامين قلت : جرت العادة
ان المصيبة تظهر عند وقوعها عظيمة في عيني صاحبها ، وعلى ذلك جاء الحديث
الشريف : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فإذا طال صبره عليها ، وطال أمدها
تصاغرت ، حتى ربما تكاد تزول ، ولكن متى تجدد له مصيبة أخرى ، تجددت
ذكرى المصيبة الأولى ، وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام ، فانه كان استعظم
اشجائه بالنسبة ليوسف ، ثم سكت ماشاء الله أن يسكت ، ثم لما نزلت به المصيبة
الجديدة ، تجددت ذكرى مصيبته الأولى ، فهاجت بلابله ، وقولى عنهم ، لكي
يخلو بنفسه ، ويطلق لها العنان ، في البكاء والتصورات ، ولأنه رآهم كالحشوية
يقولون مالا يعقل ، وينقلون مالا يصح أن ينقل .

وكأنني به عندما انعزل عنهم جانباً لاحت له صورة يوسف حبيبه الأول ،
فأخذ منه الذهبول مأخذه ، وارتفعت حرارة شوقه الى درجة عظيمة فقال :
يا أسفا على يوسف . . .

جرع على جرع

٤ — أخذ المقيم المقعد عندما أخبروه بنبأ سرقة ولده الاصغر « بنيامين »
واسترقاقه ، واحتباس ابنه الكبير « رأوبين » بمصر ، فتولى عنهم ، وكأنني به قال
« زعموا منذ ٢١ سنة أن يوسف أكله الذئب ، واليوم يقولون : « إن ابنك سرق »
وهذا هو الجرح الثاني ، مع إن الاول لم يندمل بعد ، وكما ليس للأيام بدل ، فليس .

للنفس خلف ، ولا للدين عوض ، فإننا لله وإنا اليه راجعون ، ومع هذا فإن لي .
أملًا بحياة الاول ، ورجاء بقوة دين الثاني وكل ما قالوه لي سابقاً ولاحقاً لم يكن .

وجوه اسف وعزله يعقوب على يوسف

هـ — قال : « يأسفا على يوسف » مع انه كان يثق بحياته ، وانه سيكون له
شأن ذوبال ، ولكنه أسف وحزن عليه لوجوه أولها : لانه خرج من عنده بإرادته
ولم يأخذ الحيلة باتخاذ الموائيق والعهود على اخوته لحفظه ، حتى إذا ما أخلفوا لم
يجد نفسه قد قصر في أسباب سلامته . وثانيها لفرقته له وطول العهد به ، وثالثها
لانه تذكره بسبب حادثة اخيه ، والاسى يبعث الاسى ، رابعها لما كان سمعه قديماً
عنه من أولاده أن الذئب افترسه ، لانه وان كان لم يصدق ولن يصدق بصحة
هذا الخبر ، لكن جرت العادة ان أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون ترك لها أثراً
في النفس ، حتى ولو كانت كاذبة ، بل ولو كان السامع لا يعتقد صحتها .

المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه »

٦ — تعليقاً على قوله : « وابيضت عيناه » نعلم من فن الطب ان القسم الظاهر
من مقلة العين مؤلف في الامام والمركز من طبقة شفافة تسمى « القرنية » وفي
وسطها دائرة مفرغة تسمى « الحدقة » ومن وراء الطبقة القرنية والحدقة ، طبقة
اخرى تحيط بالحدقة ذات لون أسمر أو بني أو رمادي أو أزرق أو عسلي أو أخضر ،
تسمى « بالقزحية » وهي التي تعطي العين الصفة المميزة لها ، ومن حول القرنية
يأتي بياض العين الذي يؤلف القسم الاكبر من مقلة العين ويسمى « بالصلبة » .
وعلى ذلك فيكون المراد من العين في قوله « وابيضت عيناه » هو القسم المركزي

الملون من العين ، أي أنه عبر بلفظ الكل وأراد به الجزء وامثال هذا التعبير كثير في اللغة .

معنى الكظيم

٧ — تعليقاً على قوله: « فهو كظيم » يقال : كظمه الغيظ والغم : أخذ بنفسه ، فهو مكظوم وكظيم ، ومنه : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (٦٨ : ٤٨) أي مملوء غيظاً ، ومن كظم السقاء اذا ملأه ، و ﴿ ظِلٌّ وَجْهُهُ مُسْوَدٌّ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٥٨ : ١٦) أي مملوء حقاً على المرأة ، والكظيم المكروب ، والكظيمة المزادة أي الراوية ؛ فالمكظوم والكظيم : المملوء من الاحزان الساكت عليها لا يظهرها لأحد ، كالاناء المملوء ماء الذي لا مُتَنَفَّسَ له ، ويقال كظمت الغيظ وعلى الغيظ فأنا كاظم اذا أمسكت على ما في نفسك على صفح أو غيظ ، ومنه : ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (٣ : ١٣٤) ، وكظم القربة اذا ملأها وشد فاهها ، وكظم البعير : اذا لم يجتر . ومنه كظم الغيظ وهو أن يسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثراً وكَظَمَ الباب : سده ، وعلى هذا فيجوز تفسير « كظيم » بكظم ، مثل « حصير » في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (١٧ : ٨) أي حاصرة لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (٥٥ : ٢٥) أي مظاهراً ، وكظام القربة هو الخيط الذي يشد به فيها ، والغيظ يحمل الانسان على أفعال وأقوال لا تليق به ، فشبه مانع نفسه منها بمن كظم القربة أي منعها أن يخرج منها الماء ، وفي الحديث : « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً » ، وعن عائشة ان خادماً لها غاظها ، فقالت : « لله در التقوى » ، ما تركت لذي غيظ شفاء .

مقابلة بين حزن يعقوب وحزن ارميا

٨ — هذه هي الكلمة الفذة « يا أسفا » التي نفّس بها يعقوب عن نفسه ،

ولم ينطق قط بسواها ، ولعمري لو كان « ارميا » النبي صاحب المراثي الشجية محل يعقوب ، لملأ الأرض صراخاً وعويلًا، ونثر من الأشعار ما يفتت الأكباد ، ولكن سيحان من رفع بعض النبيين على بعض درجات ، وجعل لكل واحد منهم منزلة امتاز بها دون من عداه ، ومع ذلك فربما يقال إن يعقوب كان يندب شخصاً واحداً ويسكى خيمة واحدة خلت من صاحبها، ولكن « ارميا » كان يندب شعباً ، ويسكى اقلياً خلا من ساكنيه .

سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف

٩ — أسف يعقوب على يوسف ، لان كل انسان يحب أن يحيا حياة طويلة طيبة ، ولا يتسنى له ذلك الا بواسطة أولاده وأحفاده الطيبين ، وأن الخوف من الموت غريزة في كل منا ، وذلك الخوف ليس هو من الموت الطبيعي بقدر الخوف من انطفاء الذكر بعد الموت ، فالرجل الذي لا يكون له أولاد ، خيائه تنتهي بانطفاء شعلته ، أما صاحب الأولاد فانه يعيش عيشة ثانية بأولاده ، ثم بأولاد أولاده ، وهكذا يظل مشعاله موقداً ، ينتقل من جيل الى جيل ؛ والرجل الصالح « كيعقوب » يجب أن يكون ذكره بعد موت شخصه حسناً ، ويجب أن يحيا في نسله حياة حسنة ، وهذا لا يكون الا بواسطة نسل صالح ، وذلك الصلاح مأمول له أن يكون في يوسف ، كما كان قال له : « وكذلك يحببك ربك .. الخ » فلذلك نادى بأسفه على موضع آماله ومرمى رجائه .

الرسول بشر يعترهم ما يعترى البئر

١٠ — نتعلم مما حدث ليعقوب بسبب حادثتي ولديه ، ان الرسول بشر ، يعترهم ما يعترى سواهم من الناس ، وليس لهم من تدبير الكون شيء ، وانما هم معلّمون ، وأسوة حسنة فيما يُعلّمون ، قال تعالى خطاباً لنبيه الأعظم : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنْ

الأمر شيء ﴿ (٣ : ١٢٨) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لَهِ ﴾ (٣ : ١٥٤) فهذا يعقوب أصيب في ولديه بما نعلم ، وهذا النبي ﷺ كُسِرَتْ رِباعيته في غزوة أُحُد ، وشج وجهه ووقع في الحفرة ، حتى وقعت الهزيمة على أتباعه المسلمين ، في هذه الغزوة ، وهو قائدها ، فأَيُّ نصيب من الدين الاسلامي للذين يجعلون أمر العباد ، وتدير شؤون الكون لطائف من أصحاب القبور أو الأحياء الذين يلقبون بالمشايخ والأولياء ، فيزعمون أن ييدهم النصر والخذلان ، والإسعاد والإشقاء ، والغنى والفقر ، وانهم يفعلون كل ما يشاؤون ؟؟ فهل يعد هؤلاء من أهل السنة والجماعة ، هل يعدون من أتباع طريقة القرآن ، حقاً إن تلك المزايم هي من النزعات الوثنية ؛ نجانا الله وإياكم منها .

لفظة « يا أسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن

١١ — كلمة « يا أسفا » لم تنزل في القرآن الكريم الا في هذا الموضع ، فكأن الله تعالى جعل هذه اللفظة في كتابه مسجلة على اسم يعقوب ، وانه لولا يعقوب وأسفه ، لم تنزل هذه الكلمة من السماء في كتاب الله تعالى .

التجانس بين لفظي الأسف ويوسف

١٢ — التجانس بين لفظي « الأسف » و « يوسف » مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيه فيملح ويبدع ، ونحوه : ﴿ إِثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ ﴾ . (٣٩ : ٩) ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ (٢٦ : ٦) ، ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ ﴾ (١٨ : ١٠٥) ، ﴿ مِنْ سِبَاءٍ بِنَبَاءٍ ﴾ (٢٧ : ٢٢) ، (كشف) .

الرد على من يقول ان حب يعقوب لابنه يوسف

لا يليق إلا بمن كان غافراً عن الله

١٣ — ههنا يتساءل بعض المغفلين المتفلسفين ويقول : « إن عناية يعقوب بيوسف ، وجهه اياه لهذه الدرجة ، لا يليق إلا بمن كان غافلاً عن الله ، وجهه لمولاه ، الذي يملأ القلب ، فلا يكون فيه متسع لسواه ، فان من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء عداه » ؛

وعندنا ان هذا الكلام مدخول ، مزين الظاهر ، فاسد الباطن ، غير منطبق على عقل أو شريعة ، وهو مخالف لروح الاجتماع وطبيعة الكون ؛ كيف لا .. وقد أرشد الله عباده المؤمنين الى العناية بكل شيء ، حتى بالدريهمات ، فانزل فيها في آية الدَّيْنِ نحو مائتي كلمة (٢ : ٢٨٢ - ٢٨٣) وانا نجد في الكتاب الكريم أن الله تعالى عُنِيََ بكل شيء ، حتى بالزيتون ، فامتَنَّ به في كتابه ثلاث مرات ، وبالرمان ، فامتَنَّ به ثلاثاً أيضاً ، وبالنخيل ، فذكره في كتابه محتماً به على عباده ، اثنتي عشرة مرة ، وبالعنب ، فذكره في كتابه عشر مرات ، وبالحل ، فامتَنَّ به على عباده حيث قال : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ﴾ (١٦ : ٦٧) على أنا نجد في كتاب الله الكريم عناية الله وامتثانه على عباده بالحير (١٦ : ٨) ، وبالقضب ، وهو الكلأ اليابس (٨٠ : ٢٨) ، وبالأب ، وهو الكلأ الأخضر ، (٨٠ : ٣١) وقد أقسم الله تعالى بجميع ما في هذا الكون من مخلوقاته ، أي بجميع مواليد العالم كله ، فقال : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ (٩٠ : ٢) ، فاذا كان الله العظيم ، وهو الله العظيم ، يُعْنِي بهذه الأشياء ، ويهتم لها ، ويمتن على عباده بها ، أفلا يحق ليعقوب عليه السلام ، أن يُعْنِي بفائدة كبده ، ويهتم لمخط آماله ، ويحب ولده يوسف حباً جماً ؟ ..

(مرعى)

(وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف .. الخ)

— ٥

وقال ابن الدقيق الهندي :

ابيضاض العينين امتلائها بالدمع من اثر الحزن

السلام عليكم : ايها السادة :

ما تركت اخواتي الاربعة الاوائل ، كلمة لهذا الحقير القائل :

جزى الله خيراً قومنا وجدودنا فقد مهدوا مبللاً لنا ومسالكا

سلكتنا بها عفواً بدون مشقة ولولا هم السارى لأصبح هالكا

غير اني استمحيكم ان أتكلم على قوله تعالى ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ ،

فبعد إذنكم اقول :

يخيل لي ان معنى « ابيضت عيناه من الحزن » : امتلأت عيناه من اثر الحزن

وهو الدمع ، أو امتلأت عيناه دمعاً من أجل الحزن ،

وبيان ذلك ان الابيضاض يطلق على الامتلاء والتفريغ ، ضد ، قال في الأساس :

« ويبيض الاناء : ملأه وفرغته ، وعن بعض العرب : ما بقي لهم صميل إلا بيض :

أي سقاء يابس إلا ملى » ، وقال في القاموس : « يبيضه : ملأه وفرغته ، ضد » ،

والأبيض الماء ، وعليه فعندنا ان المعنى ههنا : ان عينيه امتلأتا من اثر الحزن ، حيث

فاض حزنه ، من قلبه لعينيه ، أو ان عينيه صارتا تمتلآن من أجل الحزن دموعاً

وترسلانها على خديه ، فعبارة الأساس تصحح المعنى الذي قلناه ، فما بقي علينا إلا أن

نستدل على انه المراد ، دون غيره مما قالوه ، ولنا على ذلك دليلان : تقلي ، وعملي ،

فأما التقلي : فيعقوب نبي ورسول ، والأنبياء معصومون من الأمراض المنفرة

للطبيعة ، ولا ريب ان المعنى نوع من تلك الأنواع المنفرة ، وأيضاً فحملة على

العمى أو على مرض بياض العين ، لنا فيه قول أولاده له : « تالله تفتأ تذكري يوسف حتى تكون حرضاً » : أي مريضاً أو فاسد الجسم ، فظاهره انه وقت ما كلوه بهذا القول ، لم يكن فيه نوع من أنواع المرض ، وليس فيه شيء من الفساد ، في بدنه - أو عينيه ، فكلمة أولاده هذه ، تؤيد المعنى الذي حملنا عليه الايضاض ، وتدفع المعنى الذي قاله المفسرون .

وأما الدليل العلمي : فان الفن يمنع أن يكون الحزن أو البكاء ، سبباً في بياض العين ، بالمعنى المشهور ، الذي مثنى عليه الجمهور .

وبهذه المناسبة — والحديث ذو شجون — أتذكر حادثتين حدثتا لي مع بعض الطلبة : الأولى : قال لي بعض طلاب العلم : لماذا لا نقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ (٢ : ٩٣) ، أن المعنى : انهم أشربوا نفْسَ العجل ، الذي حرّقه موسى وذراه ونسفه في اليم ، وهو النيل ، وهم كانوا يشربون من النيل ، فصدق عليهم انهم اشربوه ؟ — فقلت له : وماذا تفعل في كلمة « قلوبهم » فان الشرب انها يكون في البطون دون القلوب !!

الثانية — وهي اكثر مناسبة لموضوعنا ، اني سمعت من بعض الطلبة ينقل عن المفسرين أن يعقوب عمي أو حصل له مرض في عينيه ، يسمى « بياض العين » فقلت له : وماذا نصنع في كلمة « من الحزن » فإنه لا شيء من العمى ومن بياض العين ينشأ عن الحزن ، فما وسعه الا السكوت .

فابيضاض العين يأسادة هنا ، هو من قبيل ما يسميه علماء البلاغة « التورية » وهي أن يطلق لفظ له معنيان ، قريب وبعيد ، ويراد البعيد لقريظة ، والقريظة ههنا على ارادة المعنى البعيد ، كونه فيما سبق قد أخذ على عاتقه « الصبر الجميل » الذي لا ينافي امتلاء العين بالدمع ، فانه سبحانه « أضحك وأبكى » ، (٥٣ : ٤٣)

قالعبرة لا يملكها ابن آدم ، ولا تسبب له فيها ، فلا يؤاخذ عليها ، فلاتنافي « الصبر الجميل » ، ولكن ينافيه البكاء الكثير جداً ، بحيث ينشأ عنه العمى .

تفسير ابيضاض العينين بمعناه المجازي

وأخيراً يأسادتي يمكن أن يقال أن ابيضاض العينين ههنا ليس بالمعنى الحقيقي ، بل بمعناه المجازي ، وهذا نظير ابيضاض الوجوه واسودادها ، المذكور في نحو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (١٠٦: ٣) وقوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (٦٠: ٣٩) وعلى هذا النحو ماروي ﴿ أن المؤمنين يحشرون عراً محجلين ، من آثار الوضوء ﴾ . فهل تحمل هذه الأقوال على المعنى الحقيقي ، بحيث يكون المؤمنون يوم القيامة ، في وجوههم بياض ، وفي سوقهم بياض ، بخالفاً لباقي أجسامهم !... كلا .. فإنهم يكونون هزواً وضحكة للعالمين ، وهل يكون أهل النار ، يبيض الأجسام ماعدا وجوههم ، فإنها ستكون سوداء ؟... كلا .. ولكن البياض والسواد ، في أمثال هذه النقول ، من باب الكناية عن المسرة والغم ؛ حتى قال العرب لمن لم يتدنس بمعاب : « هو أبيض الوجه » وقال شاعرهم فتعجبوا لسواد وجهه الكاذب ، والعرب لليوم يقولون : « ببيض الله وجه فلان ، وسود الله وجه فلان » وبالله عليكم ، ماذا يقول هؤلاء الناس الجامدون ، في قوله تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ، ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ (٥٨: ١٦) ، فهل يحملونه على الحقيقة . ويقولون : إن الرجل العربي ، كان إذا بشر بولادة امرأته بنتاً ، ينصبغ وجهه بلون السواد ، كأغما انقلب زنجياً بعد ما كان أبيض ؟.. حاشا أن أحداً يفهم هذا المعنى ، فاحمل اللفظ في كل موضع على المعنى المناسب ، ولا تكن من الجامدين .

كاتب سر المؤتمر : نشرنا هذه الكلمة التي القاها الاستاذ ابن الدقيق الهندي على مسؤولية قائلها وحده .

اشفاق ونصح

آ (٨٥) ﴿ قَالُوا : تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ ، حَتّٰى
تَكُونَ حَرَضًا اَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والثانون ، فقام سعد الدين
البرقاوي (١) وقال :

سبق أن يعقوب عليه السلام كان انسحب من ميدان المناقشة مع أولاده ،
وتركهم وانحاز وحده وما أن انقضت مدة إلا وقد رجعوا لمناقشته والملاحظة عليه ،
(قالوا) مؤنيين له : قد مات الميت فليحي الحي ، ونحن لم يبق لنا صبر على السكوت
عن هذا البكاء وهذه التأسفات ، قد أصبح يوسف شغلك الشاغل ، (وتالله)
رب ابراهيم واسحق — وهذه التاء في تالله حرف قسم كالباء والواو ، ولكن
فيها زيادة معنى اتعجب ، كأنهم تعجبوا من قوله : « يأسفا على يوسف » —
لا (تفتأ) لاتزال — وحذف حرف النفي ، لأنه لا يلتبس بالاثبات ، لأنه لو كان
اثباتاً ، لم يكن خالياً من اللام والتون ، ونحوه : « فقلت يمين الله أبرح قاعداً » —
(تذكر يوسف) بياض نهارك وسواد ليلك ، في اضطراب وهياج وحزن
وبكاء ، ولا تبرح تضرب على هذا الوتر المحزن (حتى تكون حرَضاً) مشفياً على
الهلاك مرضاً ، — وأحرضه المرض ، ويستوى فيه الواحد والجمع والمذكر
والمؤنث لأنه مصدر ، والصفة حَرَضٌ « بكسر الراء » ، ونحوها دَنَفٌ
ودَنِفٌ ، وجاءت القراءة بهما جميعاً ، قال في فقه اللغة : « الحَرَضُ بالكسر هو
الذي لا حيّ فيرجى ولا ميت فينسى » (أو) أي بل واكثر من الحَرَضُ بأن

(١) نسبة الى برقة من بلاد المغرب العربي .

(تكون من الهالكين) فإن ذلك عاقبة الأحزان ، والحال الذي أنت عليه يذيب الشحم ، ويعرّق العظم فإلى متى تذكر من مات ، ومات حظه من الدنيا ، هذا كلامهم لأبيهم ، وهو نصيحة منهم له واشفاق عليه ، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف .
(أصبت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٢ —

وقال السيد عبد العظيم الاشموني (١)

أبناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على أبيهم وتسرية
همومهم وأحزانهم مع شيء من اللوم

أراد أبناء يعقوب تهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانهم ، فدلّفوا إليه وحملّوا فيه ، وقالوا له وقد رأوه انتقع لونه ، وتولاه الهزال : اضبط زمام نفسك ، واملِكْ تذكاراتك لولدك ، ان في الوجود عزاء عن المفقود ، وان في الحاضر خلفاً من الغائب ، ان لك في أولادك وأحفادك لشغلاً شاغلاً ، ولك في النظر لصحتك وعافيتك ما ينسيك كل شيء ، انك تخدع نفسك بهذه الأفكار ، وتسوقها الى المرض فالهلاك ، عن رضا وطواعية ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجعنا فيك ، فانه يعز علينا جداً أن نراك بعد قليل في يد البثور ، مرتحلاً من بين أيدينا الى أعماق القبور ، وتالله لا تفتأ تذكر يوسف بهذا الاعمان والتعمق والأطناب مرة بالشكل واللوعة ، وحيناً بالهتف والضراعة ، وطوراً بالأسف والحزن ، ونارة بالأنين والتباكى ، وآونة بالثناء ، وأوقاتاً بالدعاء ، نعم لا تزال تذكر يوسف الذي أصبح من روايات التاريخ ، والذي هو في عالم الأموات منذ

زمن بعيد ، حتى تكون حراً ، فليس لطبيب ، ولا لجمع من الأطباء مقدرة باستئصال هذا المرض من جسمك ، ولا يرون لك فيه إبلاً ، بل وأكثر من ذلك تكون من الهالكين ، لذوبان قلبك ، وطيرانه شعاعاً على هذا الفقيد ، فهل سمعت بأن ميتاً رجع في هذه الدنيا الى الحياة الجديدة ؟ أو هل تظن أن يوم البعث هو بعد يوم أو يومين ؟... والله ما ندري ما نقول لك ، أنعظك وأنت واءظنا في جميع الأوقات ، ونجم هدايا الذي نستشير به في وسط الظلمات ، أم نرشدك الى ما ينبغي أن تلاحظه في نفسك ، ولا نعرف شيئاً أنت تجهله ، إن هذه الحياة التي تحياها انما يلجأ اليها من يريد أن يمشى في طريق القبر ، إن من رآك رأى همّاً أوفى على المئة والستين ، مع أنك لم تسليخ المئة والثلاثة والأربعين ، استرخى حاجباك ، ثقلت أجفانك ، جمدت نظراتك تهتّل عارضاك ، تجعد جبينك ، انهض عاتقك ، هوى بينها رأسك ، فلعمرنا لقد تغير فيك كل شيء ، ولم يثبت فيك إلا تلك الذكرى المؤلمة ، فخفض عليك قليلاً ، وروه نفسك بنسيان الماضي ، لا تأس على ماضى ، اصبر قليلاً أيها الشيخ الجليل « فها هو ذا الموت يمشي اليك ، بأسرع مما تمشي اليه ، اصبر فان هذه الذكرى سبب في الهلاك ، فلا تهلك نفسك بيدك ، ولا تستسلم لهذا التذكار .

وكأنني بسيدنا يعقوب قد قال لهم وهو يشرق بدموعه : « أفبهذا الكلام تعزوني يا أولادي ؟.. دعوني أذكر ابناً سليم القلب ، ذا مستقبل باهر ، ولا أدري أين هو اليوم ، ولا ماهو حاله ، وادا كنتم تشفقون علي فابكوا معي وشاطروني في أحزاني . »

(أحسنت)

(قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف .. الخ)

— ٣ —

وقال لسان الحق الامباري (١) :

« تالله » كلمة صحيحة أريد بها باطل

قولهم « تالله ... الخ » كلمة صحيحة ، أريد بها باطل ، لأنهم قصدوا أن أباهم ينبغي أن ينسى أو يتناسى يوسف . نفاسةً منهم عليه وحسدًا له .

الحرَضُ ومرادفاته

وقولهم « حرَضاً » من فعل حَرَضَ وَبَابُهُ تَعَيَّبَ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ ، فهو حَرَضٌ ، وسميته بالمصدر مبالغة ، أو يقال الحرَضُ والمرص والعلة والسقم والوجع والوعك والوصَب والضمي والتَّهْنُك والدَّهْنَف والداء تقريباً واحد ، أي دا حرص .

استعمال كلمة « الهلاك » للمسلم والظافر سوا

وأما كلمة « الهالكين » فيتنصور الجمهور من الناس اليوم أنها لا تستعمل إلا في الكافر عند موته ، فيقال هلك « ماير » اليهودي ، ولا يقال هلك « محمود » المسلم إذا مات ، بل توفي مثلاً ، وهو وهم مبني على العرف الحاضر ، لا على اللغة العربية ، ولذلك نرى أولاد يعقوب ههنا ، لقد لفظوا بهذه الكلمة ، أو مايرادفها في لغتهم العبرية ، وجهين الخطاب بها لأبيهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ

(١) نسبة الى امبابة من البلاد المصرية .

قلتم : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿ (٤٠: ٣٤) (مرحي)

أين الشجي من الخلي

آ (٨٦) ﴿ قال : إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ،
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثمانون فقام المدقق

الحوي (١) وقال :

دهور يعقوب دموعه في اشداقه و (قال) لأولاده متأففاً : مالكم تتذمرون عليّ ؟ .. لا بد للمصدر أن ينفث ، فلا تخرجوني ، ومع ذلك فما أنتم وهذا الاتقاد ؟ فهل اليكم أقدم شكواي ، أو لغيركم من الخلق ؟ .. حاشالي من ذلكم كله ، أنا لم أشك لأحد ، ولا أريد أن أشكو اليكم أو لغيركم (إنما أشكو بثي) هي العظيم — والبث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيبثه للناس ، أي ينشره ، ومنه بآته أمره ، وأبثه إياه — (وحزني) غمي (الى الله) وكفى ! وأما هؤلاء الناس فلست بشاك اليهم شيئاً ، بل ولا أسألهم ديناً ، ولا أستفتيهم عن دين ، بل اليه تعالى أكل أمري (وأعلم من) أسرار غيب (الله ما لا تعلمون) ، إذ أعلم بمستقبل يوسف ، ولكأنني أراه رأي العين ، إنما أنا أحزن وأبكي وأنأسف لكوني أرى أن شقة البعد طالت ، ونور اللقاء يسير يبطء ، فهذا الذي قضى بحزني وبكائي وتأسفي ، بحكم الطبع البشري .

(قال إنا أشكو بثي وحزني .. الخ)

— ٢ —

وقال الشهاب الخليلجي (١) :

يعقوب يرد لابنائيه نصيحتهم له ولومهم اياه على حزنه على يوسف

كأنى يعقوب عليه السلام حقد في وجوه أولاده تحديقاً شديداً والدمع
يترقق في عينيه ، ثم قال :

واحر قلباه ممن قلبه شبح ، رويداً رويداً أيها اللاتئون ، فشديد جداً على
والد شيخ مثلي أن لا يذكر ولداً له ، فارقه الى ما لا يعلم ، لاسيما وقد امتدت
شقة الفراق ، بحيث صار بيني وبينه هوة مسحيقة ، لا قرار لها ، فهل من العجب
مع هذا أن يطير قلبي خوفاً وهلعاً ، أو شوقاً وتوقاً ؟ .. على أن غرضي من ذلكم
أن أرويه عن نفسي همومها وآلامها ، بالمناجاة والشكوى الى عالم السر والبلوى ؛
كما يرفه المريض عن نفسه أسقامه وأوجاعه ، بترديد الأتات ، وتصعيد الزفرات ،
ولا علي إن أبثثتُ همي لربي ، ورفعت عقيرتي لخالقي :

تموت النفوس بأوصالها ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشكي أذاة الى غير أحبابها
وأن الشكوى الى الله لهي من ثمار الايمان ، وليس أفضل منها وسيلة
لتعزية الانسان :

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنيَّ آدم حين يُسأل يغضب
سأحك الله يا أولادي ، ماهذه الظنون التي تظنون ؟ .. وما هذا التثريب الذي

تضايقوني به ؟... وكيف تحولون بيني وبين البكاء على أولادي الثلاثة ، ولا سيما « العزيز » يوسف ؟..

وقع الشوائب شيب^١ والدهر بالناس قلب^٢
إن دان يوماً لشخصي ففي غد يتقلب
فلا تشق بوميض من برقه فهو خلب^٣
واصبر إذا هو أضرى بك الخطوب وألب^٤
فما على البتر عار^٥ في النار حين يقلب^٦
سأحكم الله يا أولادي ، أراكم كلما زادت كروبي زدت في التأنيب ، على حد ما يقول القائل :

كلما أنبت الزمان قناة^٧ ركب المرء في القناة سينان^٨
أنا لي رجاء في يوسف ، وأنتم تقولون ، إنه صار من صيد أمس .
وما صباغة مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل
يا أولادي : الدمع دمعي والعيون عيوني ، فدعوني أبكي ، والقلب قلبي والفؤاد
فؤادي ، فدعوني أحزن ، واللسان لساني والأسف أسفي ، فدعوني أرفع عقيرتي
إلى ربي بالأسف ، دعوني فانكم لم تصابوا بمصيتي ، ومصيتي هذه انما هي فوق
رأسي ، سبحانه الله ! أنا على أحر من الجمر . وقلوبكم أبرد من الثلج ، أنا أتأسف
وأنتم تصفقون ، أنتم تشتغلون بمجادلتي .

القلب أعلم يا عدول بدائه وأحق منك بحجفته وبمائه
فومن أحب لأعصينك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه
أأحبه وأحب فيه ملامه ؟ إن الملامة فيه من أعدائه
لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه
إن القتل مضر جاً بدموعه مثل القتل مضر جاً بدمائه

ياأبنائي — إنا أشكو همي العظيم وغمي على ماضي الى الله عز وجل ، وهذا أمر أحلته لي الشريعة ، ودعيتي اليه الطبيعة ، واعلم من اسرار غيب الله ما لا تعلمون ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟.. والأيام بيننا . والمستقبل كشاف .

ياأبنائي : انالست احب يوسف لسواد عينيه ، وليس حالي معه كمحب لشخص ، ومغرم بذات ، بل انا محب لآمالي فيه ، محب لرجائي في مستقبله ، فلست اذكر اسمه الا مشفوعاً بتلك الآمال ، وذلك الرجاء ، ولذلك فأنا حتى اليوم وغدٍ أقول : آه ، ياترى ، يوسف الذي ستسجد له الكواكب أين هو ؟.. أو اه .. ياعجباً ، يوسف الذي سيحبتيه ربه أين « راح » ؟.. واحسرتاه .. يوسف الذي سيعلمه ربه من تأويل الأحاديث أين ذهب ؟.. يوسف الذي سيتم ربه نعمته عليه ، ماذا حل به ؟..

لذلك أنا لا اضن بيكائي واسني على يوسف ، بل ولا بصحتي ، بل ولا بحياتي ، فكيف انتم تضنون بشيء لا يضمن به صاحبه ؟.. الدموع دموعي ، والزفرات زفراتي ، والصحة صحتي ، والحياة حياتي ، فدعوني أجود بذلك كله في سبيل حبة يوسف ، مهما كلفني الأمر .

فصلاحي الذي زعمتم فسادي وفسادي الذي زعمتم صلاحي وبعد ذلك أقول لكم : اما كان يجمل بكم ان تشاطروني احزاني ، وتخففوا عني وطأة همومي ، عوضاً عن هذا التعنيف ، وبدلاً من هذا التأنيب ؟.. سبحان الله ! لو ترك القطار لنا ، يأيها الناس ، من لم يستطع البكاء فليرحم الباكين ، ومن لم يحس بالألم ، فليشفق على المتألمين .

ياأولادي ، اني اعلم من غيب الله ما لا تعلمون ، اعلم سلامة يوسف وحياته ، وذلك مما أُوحي الي في شأنه ، ان ربه سيحبتيه ويعلمه من تأويل الأحاديث

ويتم نعمته عليه ، فمن هذه الأمور التي لم تحجب بعد ، ومن الرؤيا التي رآها ، ولم يأت تأويلها ، اعلم ان يوسف حي يرزق ، وانه يعيش الى ان يبلغ مبلغ الرجال ، واننا سوف نجتمع به ونراه على احسن حال ، كما يحب ونحب ، وعندئذ يقع تأويل رؤياه . يا بني — انا اعلم اكثر مما تعلمون ، بل اعلم ما لا تعلمون ، فكأنما في فؤادي الأشعة المجهولة التي تكشف عما وراء الحجب والموانع ، وعلى عيني منظار الرصد المقرب للجسم ايضا ، ولذلك فأنا لا آخذ عليكم .

يا أولادي ، قد سمعت مقالتيكم ، وتبين لي نصيحتكم ، والإشفاق عليّ من جهتكم ، غير أنني — يرحمكم الله — لا أجهل أمراً تعلمونه ، وأما أنتم فأنكم تجهلون أموراً كثيرة أعلمها ، إن الذي يرى ببصيرته ، غير الذين يرون بأبصارهم ، أنا أطالع صحيفة من صحائف الغيب ، لم يقرأ واحد منكم منها حرفاً واحداً ، بناء عليه اتركوني وشأني .

هذا آخر جواب يعقوب عليه السلام لأولاده وترى أنهم سكتوا ، ولم يعودوا يحاورون أباهم ، ولا نعلم هل كان سكوتهم عن احترام ، أو عن اقتناع ؟ . . . (جيد)

تذييلات :

جواز ابتلاء صايب الحق بالمصائب والرزايا وصايب الباطل بالنعم والعطايا

١ — نقرأ في هذه السورة مصيبة يعقوب بأخذ ابنه منه ، بحيلة أجراها عليه أبناؤه الصلييون ، لا أناس بعداء عنه ، فهي مصيبة ذات وجهين ، ثم إنه ياليت شدد في الاحتياط ، إذ كان يعلم حسدهم وكرههم لأخيه (ع ٥) ، بل استرسل معهم استرسالاً ، كانه لا يعرف شيئاً من مكائدهم ومصائدهم ، ثم بعد (٢٠) سنة أخذوا

١١٧٠ الحكمة من منع علم الغيب عن الناس وإطلاع الأنبياء على شيء منه آ (٨٦)

من عنده ولده الأصغر بنيامين وأخيراً جاؤوه بالخبر السيئ ، خبر انه سرق ، وأسرق في مقابلة ذلك ، الأمر بل الأمور التي أزعجته ، وأقلقت راحته ، والحكمة في ذلك الإشارة الى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق ، فإن من الجائز عقلاً والواقع فعلاً ، أن يبتلى صاحب الحق ، بالمصائب والرزايا ، وأن يبتلى صاحب الباطل بالنعيم والعطايا ، كما أن عكس ذلك جائز وواقع ، قال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (١٨٦ : ٣) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ (١٢٤ : ٢) وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ (١٠٦-١٠٣ : ٣٧) وقال تعالى : ﴿ وَلِيُمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣ : ١٤١ و ١٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِيَّاتِلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣ : ١٥٤) وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ : مَسَّيْتُمُ الْبُأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا ، حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصُرُ اللَّهَ ؟ !! أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢ : ٢١٤) نزلت في غزوة أحد حين غلب المشركون المؤمنين ، وشجوا رأس النبي ﷺ ، وكسروا ربايعته ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ لِيَبْلُغُنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (٢٧ : ٤٠) .

الحكمة من منع علم الغيب عن الناس وإطلاع الأنبياء على شيء منه

٢ — تعليقاً على قول يعقوب (وأعلم من الله ما لا تعلمون) غني عن البيان

ان الله جلّ جلاله حجب علم الغيب عن الناس ، ذلك لأجل رحمتهم واسعادهم ،

إذ لو علم الناس الغيب لنزلوا الى الحضيض ، ولكانوا أخس المخلوقين : وأتعب الخلق أجمعين ، ذلك ان المرء لو اطلع على الغيب بعد عشر سنين مثلاً سيكون رئيس حكومة أو مثيراً أو طبيباً أو استاذاً جليلاً في العلم — لو صار هذا له لم يفكر يوماً مافي علم السياسة ، ولا في جلب المال ، ولا في قراءة الكتب ، ولا في تحصيل العلم ولا في دخول المدارس العالية ، واذن تضيع الحكمة ، وتذهب الحياة سدى ، وتكدر معيشة كل إنسان ؛ أما جهل الناس بالمستقبل ، فهو الذي يكفل سعادة الناس ، وصفاء عيشهم ، لانهم يجدون ويدأبون على السعي ، وذلك داع حثيث الى اتقان العمل .

علم الناس بالغيب ، قد بسبب أضراراً كثيرة ، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على مافي قلوب الآخرين ، من حسد وبغض وكراهة ، فكيف يعيش الناس في صفاء ، وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء ؟ ، لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع علم الغيب عن الناس .

ولكن نظراً لأن سد باب الغيب مرة واحدة . وبصورة مطردة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ، ويوقع في النفوس أنه لا روح خالدة « ولا حياة بعد هذه الحياة ، ولا ملائكة ولا وحي ، ونظراً لأنه يلزم أن يكون لله تعالى وسطاء بينه وبين عامة عبادده ، وهؤلاء الوسطاء هم الأنبياء ، سمح باطلاع أنبيائه على شيء من علم الغيب ، من طريق الوحي والإلهام ، في اليقظة أو في المنام .

ومن أدلة حصر علم الغيب في الله تعالى على الوجه الذي قلناه ، قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ ، فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَن ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ؛ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ؛ لِيَعْلَمَ أَن قَدَأْتَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ (٧٢ : ٢٦ و ٢٧) ، وقال تعالى حكاية عن نوح (ع) : ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إني

مَلَكٌ ﴿١١ : ٣١﴾ وقال تعالى خطاباً لخاتم رسله ، أمره أن يبلغه خلقه : ﴿قُلْ : لَا أَقُولُ لَكُمْ : عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ ، قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟﴾ (٥٠ : ٦) .

وقد أمر الله نبيه أن يستدل على عدم معرفته الغيب بقوله : ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ؛ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٧ : ٧) وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَّشَاءُ﴾ (١٦٩ : ٣) ، وقال تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٥٩ : ٦) .

وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب

ومما تقدم يعلم أن الله يظهر من ارتضى من رسله على الغيب ، الذي يتعلق به تبليغ الرسالة ، وذلك مشروح في القرآن ، ومنه الملائكة والجنة والنار والحساب وغير ذلك ، والواجب في هذا المقام الوقوف عند النص ، لا تعداه بزيادة ولا نقصان ، لأنه ليس للعقل مجال في عالم الغيب ، فيقيس ويستنبط ، فما كان من النصوص قطعياً ، كآيات الكريمة المصروفة بالأخبار عن الأنبياء السابقين وأممهم ، وعن الآخرة وما فيها ، وعن الملائكة والجن ، وعما وعد الله به هذه الأمة من الاستخلاف في الأرض ، فإننا نؤمن به ونقول بكفر من أنكره ، وما كان منها مروياً في أخبار الآحاد ، فلا يكلف كل مؤمن بعلمه والایمان به ، وأحاديث الآحاد الواردة بإخبار النبي ﷺ بالغيب كثيرة ، وقد ظهر تأويل المشهور منها ، كالإخبار بأن الله يفتح على المسلمين مصر والشام وغيرها من الأقطار ، والإخبار بأن «عمّاراً» تقتله الفئة الباغية ، وأن «الحسن» يصلح الله به بين فئتين من المسلمين ، وأن «فاطمة» رضي الله عنها أول أهله لاحقاً به بعد موته .

وأما ما ورد من أن الجنة والنار مثلتا له في عرض الحائط، أو قبلة الجدار، ومن أنه رويت له الأرض، فرآى ما يصل إليه مثلك أمته منها فلا يدل على أن الله تعالى أطلعه على ما كان وما يكون، مما ليس في استعداد البشر الاطلاع عليه، اذ لا نهاية له، ولا هو مما يتعلق به تبليغ الرسالة وهداية الخلق، وإيضاً فالنصوص تنافيه، والنبي يقول: «إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (١٨٧: ٧) فهو ينفي أن يكون له خصوصية غير التبليغ بالإيذار والتبشير، كأنه يقول: إن الله تعالى أمرني أن ابلغكم بأنني لا أمتاز عليكم بصفات الالوهية، كالقدرة على النفع والضرر وعلم الغيب، و ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (١٨: ١١١).

طرق نقل العلم

٣ — كان طريق علم يعقوب هو الوحي السماوي، ويوجد اليوم طرق أخرى لعلم الأنبياء البعيدة كالبرق والبريد والهاتف والراديو واللاسلكي والطائرة والمنطاد ثم قراءة الافكار والتنويم المغناطيسي وغير ذلك من المخترعات العصرية، ولكن هذه الطرق مرتكزة على أسباب علمية، وأما الوحي فليس مرتكزاً على شيء، سوى نزول الملك والالهام.

العودة الى مصر للتحسس

آ (٨٧) ﴿ يَا بَنِيَّ ، اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ ،
وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ
إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة والثلاثون ، فقام وليّ الدين
البهنسي (١) وقال :

سبق ان يعقوب قال لأولاده : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، فهو لما قال
لهم هذه الجملة ، وأفاض في شرحها ومراميها ، اتخذ ذلك فرصة لتصريحه باعتقاده
بحياة يوسف ، وبراءة بنيامين من السرقة ، فلذلك ولكون الحب مبنياً على الرجاء
قال : « يَا بَنِيَّ » دعونا من المزاعم والأوهام ، والأخبار الموضوعة ، والادعاء الباطل ،
فلا اخفي عنكم أنني لليوم وللغد أتوقع خلاف ما تظنون في اخويكما ، لذا (اذهبوا)
لمصر للمرة الثالثة (فتحسسوا) فيها (من يوسف وأخيه) بنيامين ، وتعرفوا
منها ، وتطلبوا خبرها (ولا تياسوا) ولا تقنطوا (من روح الله) من فرجه
وتنفيسه ، ولا تنفضوا أيديكم منها ، بالرغم عن قدم العهد بيوسف ، وعن أن
خصيمكم في بنيامين هو الحكومة المصرية ، فلا تجملوا لليأس سبيلاً الى قلوبكم ،
(انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون) ولذلك فاني لا أياس من حياة
يوسف وبراءة بنيامين واطلاق سراحه ، ولن أياس من ذلك ما تردد لي نفس على
وجه الأرض ، وان طول شقة فراق يوسف وكل ما جرى على بنيامين ، لم يقللا
شيئاً من أملي من هذا القبيل .

(١) نسبة الى بلدة بهنس في انقطر المصري .

(يا بني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه .. الخ)

— ٢ —

وقال جمال الدين الانطاكي (١) :

يعقوب يطلب من اولاده العودة لمصر للاختيار ظاهراً

والتمسعي منه يوسف واخيه باطناً

ما زالت حال يعقوب عليه السلام تضطرب بين فرح وهم ، وسرور وغم ،
ومابرحت آماله تتراوح بين مد وجزر ، وبسط وقبض ، يذكر حلمي يوسف ،
وما اوحى الله اليه في شأنه ، فيشرق له في خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ،
ويلوح له جمال العيش الساطع ، ثم يذكر غيبة يوسف ، وانقطاع اخباره ، وطول
المدة وما طراً بعد ذلك من حادثة بنيامين ، واحتباس رأوين بمصر ، وما اعدت
له الأيام في طياتها ، فيلمس صدره بيده ، ليعلم اين مكان قلبه من اضالعه ، فلا تراه
إلا متأسفاً قائلاً : ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل ، ولذلك قال لهم مامرماه :

يا ابنائي — إن للأمور ظواهر وبواطن ، فلا تقفوا عند ظواهرها ، دون
البحث والتنقيب عن بواطنها ، فربما لا يكون الذئب قد افترس يوسف افتراساً ،
ولكنه حاول افتراسه ، فتجاذبا ، فأمسك الذئب بقميصه . وجرحه فقط ، واملأ
يوسف فتملص من القميص ونجا باعجوبة سالماً فائزاً بحياته ، فلقية اشقياء من
كنعان او الكلدان او الإفريقيين ، فاسترقوه ، حسب العوائد الشائعة بين
اولئك الأقوام ، وكذلك ربما لا يكون اخوه « بنيامين » سارقاً ، بل دبرت له
مكيدة من عدو له ، او من بعض عمال الحكومة لأمر ارادوه ، او وضع الصواع

(١) نسبة الى بلدة انطاكية في سورية.

في رحله سهواً ثم نسي فيه ، فعسى ان تقفوا على شيء من هذا القبيل ، فيخلص اخوكم من هذه الاحبولة ، لأن الحق فوق القوة ، لذا فها واذهبوا الى مصر ، واستقصوا خبرها ، واسألوا عنها ، لعلمكم تهتدون على ضالتكم ، يا اولادي ها هو صوت يرن في اذني ، ثم يخترق اعماق قلبي ، يقول لي : « يوسف حي » و« بنيامين امين » فقوموا اذهبوا وكونوا كلكم آذاناً ، حتى تسمعوا عنها خبراً ، كونوا كلكم عيوناً تتطلع الى روايتهم ، كونوا كلكم السنة تسأل عنها اهل الآفاق ، كونوا كلكم انوفاً ، تستنشق اريجها ، كونوا كلكم ادمغة ، تفكر في اسباب لقيائها ، وبالجملة كونوا كلكم ارواحاً تحلق في الاجواء حتى تقع عليها وعلى حقيقة امرها

يا بني — إن الإنسان إذا اقتقد شاة بث عليها العيون والأرصاد ، ونشر السعاة والرواد ، ولا يهدأ له بال ، حتى ترجع اليه تلك الشاة ، فكيف والمفقود منا إنسان بل إنسانان ؟ . . . فاذهبوا وتخبروا من يوسف وأخيه ، وأبدلوا في ذلكم وسعكم وطاقتكم ، ولا تننوا ، اذهبوا وتبينوا حقيقة الحال ، فأنتم عيوني وأرصادي لهذا الأمر كما لغيره ، فلا تألوا جهداً في اكتناه جليلة الواقع ، ولا أظنكم إلا عائدنين لي ، مزودين بالخبر اليقين ، حاملين اليّ البشارة السارة عنها .

يا بني — افكروا في طريقة مثلى تقفون بها عليها ، عساكم تجدونها سالمين ، فما على الله أمر عسير وان عزائم الرجال تذلل الصعاب ، وقد تكون أرهف حداً من الصوارم ، إذا اقترنت بالاخلاص ومساعدة الباري جل جلاله ، فعسى أن نصير على بينة من أمرها ، فلا بد أن يكون في الأمر سر عميق ، أنتم رسلي ، ففتي وقفتم لها على خبر ، فانفذوه الى تواء ، أمعنوا في الفحص ، وتقروا عنها تنقيراً ، ولا تقنطوا من فرج الله ، ولا تقطعوا من نفوسكم جبل الرجاء ، ولا تبكتوا خيوط الأمل ، إنه لا يأس من فرج الله الا كل كافر بنعمة الرجاء والأمل ، هذه بكلامي ، وأقول لكم كلمة جدي ابراهيم الخليل : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ﴾

آ(٨٧) نعقوب يطلب من اولاده التحسس من يوسف وبنيامين ١١٧٧

إلا الضالون ﴿١٥ : ٥٦﴾ فلا يتولاكم اليأس ، ولا يستحوذ عليكم القنوط .
(جيد)

يابني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه . . الخ

— ٣ —

وقال ضاء الدين المرعشي^(١) : اعلق على الاية الكريمة بالمواد التالية :

يعقوب يطلب من اولاده التحسس من يوسف وبنيامين ثم جلب الميرة

١ — تعليقا على قوله (اذهبوا فتحسسوا) : الحقيقة ان أباهم دفعهم لمصر
لأمرين ، الأول التحسس عن يوسف وأخيه ، والثاني جلب الميرة ، وانما لم يذكر
هذا الثاني ، لأنه طبيعي ومعلوم ، ولان الامر الاول هو الاقوى ، والاهم في
نظره ، فكأنه قال : اذهبوا ليس لاجل قوت الاجسام فقط ، بل أيضاً لاجل
قوت الارواح .

معنى التحسس

٢ — التحسس طلب الشيء بالحاسة ، وهو قريب من التجسس ، وهو تعرف
الشيء بواسطة الجس ، أو التحسس في الخير ، ومنه الجاسوس ، والتجسس في
الشر ، ومنه الجاسوس ، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس ، وكذلك
الجؤس ، وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف ، ومنه ﴿ جاسؤا
خِلالَ الدِّيار ﴾ (١٧ : ٥) ويقال : التحسس ، الاستماع لحديث القوم ،
والتجسس التفتيش عن بواطن الامور ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والناموس
صاحب سر الخير ، وأحس يستعمل في ادراك الحسي والمعنوي ، يقال أحسست

(١) نسبة الى مرعش في بلاد الترك

بالحرارة والبرودة مثلاً ، وأحسست منه مكرراً ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسست منه خبراً ، وهل 'تحس من فلان بخبر .

روح الله وان اليأس منها كفر

٣ — « روح الله » هو فرجه وتنفيسه ، أو هو فضيلة الرجاء ونعمة الامل وانه لا ييأس ، من تلك الفضيلة إلا الكافرون بها ، نعم إن اليأس كفر بتلك النعمة ، اليأس يقتل فضيلة كبيرة ، هي حياة الانسان في هذه الدنيا ، هي تعزيبه وملجأه الحريز ، ألا وهي فضيلة الرجاء ، فضيلة الامل ، فضيلة الامنية ، إذ لولا بارقة الامل ، لعاش الإنسان في حياة مظلمة ظلاماً دامساً ، فكان كافراً بتور الحياة الذي هو الرجاء والامل ، كل العالم إنما يعيش بالامل ، لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، فالامل فضيلة ، لا حياة الانسان بدونها ، فهي نعمة من الله تعالى ، لولاها لمتنا ، فمن يش من هذه الفضيلة فقد كفر بها ، وصار في حياته من ذوي الاتعاب .

وقول يعقوب لاولاده : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ ﴾ (١١ : ٩) ؛ فيعقوب يقول لابنائيه : إن الله كان أذاقنا رحمة وجود يوسف بيننا ، ثم نزعها منا على يد بعض خلقه ، ولكن لا يجوز أن نياس من عود هذه الرحمة ، لان اليأس من رحمة الله كفر بها .

معنى الكفر والطافين والطافه على غمط النعمه

٤ — تعليقاً على قوله « الكافرون » : معنى الكفر في أصل اللغة ، الستر والتغطية ، وكانوا يسمون الليل « كافراً » لانه يغطي بظلامه الاشياء ، وأطلقوا لفظ « الكافر » على طلع النخل ، واكمام التور (الزهر) لما ذكر ، وعلى البحر

لان الشمس تغيب فيه — بحسب الظاهر — وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدرع يقولون له كافر الدروع، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ (٢٠:٥٧) هم الزراع ، وأمثال هذا كثير في اللغة .

ويظهر من ذلك ان حقيقة « الكفر » تغطية المحسوس بالمحسوس ، ثم اطلاق على من لم يدعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزاً ، فاذا تقرر هذا فلعل الكفر ههنا بالمعنى اللغوي ، الذي هو السر ، لان اليأس من رحمة الله ، ستر لفضله وحسن الظن به سبحانه وتعالى ، وقد اطلق لفظ الكفر في بعض أحاديث مسلم على ترك الصلاة ، ولهذا شواهد كثيرة ، فمن اطلاق الكفر على غمط النعم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (٦٦:٢٢) أي جحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ، فَفَرِحَ بِهَا ، وَإِنَّا نَتَّبِعُهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٤٢: ٤٨) أي انه يذكر البلاء وينسى النعم وينمطها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣٤: ١٤) أي شديد الكفران للنعمة ، ومنه حديث البخاري : (اطلعت على النار فوجدت أكثر أهلها النساء يكفرن — قيل : وما يكفرن ؟ — قال العشير) ، والكفر به — هذا المعنى مقابل للشكر ، قال سليمان (ع) : ﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَآتَا بِشُكْرِ نَفْسِهِ . وَمَنْ كَفَرَ فَأْتَتْ ربي غني كريم ﴾ (٤٠: ٢٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ (١٥٢: ٢) ويقول « منفتح » فرعون مصر : ﴿ وَفَعَلْتُ فِعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتُ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩: ٢٦) أي تحريرت كفران نعمتي بقتلك خبازي ، وعلى الأقل بقتلك رجلاً هو من شيعتي الأقباط ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : لَسْتُ شَاكِرُكُمْ لِأَزِيدَ نَكْمَ ، وَإِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

(٧:١٤) فالكفر هنا مقابل الشكر ، بأن استعملنا نعمه فيما يغضبه ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٥٤:٢) فالمراد « بالكافرين ، ههنا من يكفرون النعم بقرينة السياق والسباق وهم الذين لا ينفقون في سبيل البر والخير ، ولا يراد به ههنا منكرو الألوهية أو النبوة أو الجاحدون لشيء مما جاء به الأنبياء وعلم علماً ضرورياً ، لأن هذا اصطلاح لم يلتزمه القرآن الكريم .

اطلاق الكفر على المعصية الكبيرة

وقد يطلق الكفر على المعصية الكبيرة ومنه فيما أرى قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَمَا نُزِّلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ ، هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ وَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (١٠٢:٢) فقد تعلمون ان سليمان نبي ، والأنبياء معصومون من الكفر — المقابل للإيمان — إجماعاً مامن ذلك بد ، وعليه فينبغي حمل الكفر المنفي عنه على الكفر بمعنى فعل معصية السحر ، وقوله : « ولكن الشياطين » يراد بهم شياطين الإنس كما في : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (١٤:٢) وقوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ تفسير لكفر هؤلاء الشياطين ، وقوله : « فلا تكفر » أي بتعلم حنعة السحر .

ومن أمثلة هذا النوع ما في حديث البخاري (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وقوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ (١٥٥:٤) ، فكفرهم ههنا هو قولهم على مريم البهتان العظيم ، فالعطف للتفسير ، وأما الكفر المعلوم فقد ذكره في الآية قبلها مرتين حيث قال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيٍ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ « قُلُوبُنَا

« غُثِّفَ » ، بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴿ (١٥٤:٤) ﴾ وفي الحديث : « كفر بأمريء ادعاء نسب لا يعرفه » رواه ابن ماجه في سننه وفي أحاديث الجامع الصغير : « أخذ الأمير الهمدية سحت ، وقبول القاضي الرشوة كفر » .

اطلاق الكفر على الضلّال

وفي صحيح البخاري « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وفي رواية « ضلّالاً » فالضلال في هذه الرواية تفسير للكفر في الرواية الأولى ، كما أن الضلال في آية الحجر وهي قول إبراهيم : ﴿ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (٥٦:١٥) تفسير للكفر في آية يوسف ، وهي قول يعقوب : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (ع ٨٧) كما أن « روح الله » هي « رحمة الله » واليأس هو القنوط ، وفي صحيح مسلم : « اثنان في الناس هما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » وفيه : « أيما عبد أبقي من مواليه فقد كفر حتى يرجع اليهم » وفي سنن ابن ماجه : « من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه بما يقول - فقد كفر بما نزل على محمد » ، وفي البخاري : « ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وفيه : « لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر » جعل التحاق الانسان بنسب غير نسبه كفراً وكل هذا وغيره مبني على التغليظ والتشديد .

اطلاق الكفر على ترك بعض ارکان الاسلام

وقد أطلق لفظ الكافر على مانع الزكاة كما في سابق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » ، والكافرون هم الظالمون ﴿ (٢٥٤:٢) ﴾ ، أي والمانعون للزكاة أو

النفقة في سبيل البر هم الظالمون ، فوضع « الكافرون » موضعه تغليظاً وتهديداً وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ زَكَاةً ﴾ (٦:٤١) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩٧:٣) وقال « ومن كفر » مكان « ومن لم يحج » تغليظاً وإيذاناً بأن ترك الحج من سمات الكافرين ، وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ : أ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٠٦:٣) ، جعل تفرقهم واختلافهم كفراً ، تغليظاً ، لأن هذا العمل لا يصدر إلا من الكافرين ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (٥٩:٦) وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٧:٥) ، قال ابن عباس في هذه الآية : « كفرٌ دون كفرٍ » ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ — فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٨:٥) ثم قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ — فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٥٠:٥) ، فهذا الكفر هو الظلم والفسق المذكوران بعده ،

وكما يطلق الكفر على ترك بعض أركان الاسلام ، فيالمقابلة قد يطلق الايمان على فعل بعض أركان الاسلام ، ونجد ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (١٤٣:٢) ، أي صلاتكم ، وقد عقد البخاري باباً عنوانه : « وكفر دون كفر » .

الكفر في عرف القرآن الكريم

فمن الشواهد السابقة وما إليها مما لم نذكره نعلم أن القرآن الكريم قد يطلق لفظ « الكفر » على غير المعنى الاصطلاحي المتكلمين والفقهاء لأن القرآن هو

فوق هذه الاصطلاحات الجديدة ، وإن هذا النوع من « الكفر » مما يتهاون فيه المسلمون في هذه الأزمنة وفي أزمنة قبلها ، لظنهم ان كل كلمة « كافرين » في القرآن انها يراد بها الكافرون بالمعنى الخاص في اصطلاح المتكلمين والفقهاء ، وهذه الشواهد ونحوها تبطل ظنهم .

فالكفر في عرف القرآن الكريم ليس خاصاً بها يعده الفقهاء والمتكلمون كفراً ، فمن عرفه ان المتفرقين في الدين يعدون من الكفار ، وان اتحاد الكلمة والاعتصام بالوحدة ايمان ، والخروج عن ذلك كفر ، وقد فهم السلف الصالح من الكتاب والسنة أن الايمان اعتقاد وقول وعمل ، وللعمل شعب كثيرة أعظمها الاتحاد وعدم التفرقة والاختلاف ، كما أن الاعتقاد شعباً كثيرة من أعظمها الثقة بالله والرجاء في تفريج الكرب ، فاليأس إذن كفر ، وهذا تحقيق المقام في معنى كلمة « الكافرون » هذا ولم أجد أحداً من المفسرين تكلم عليها بينت شفة ، والله تعالى يهدي من يشاء الى سواء السبيل . (مرحى)

الفصل الرابع

سفرة اخوة يوسف الثالثة لمصر

آ (٨٨) ﴿ ... فلما دخلوا عليه ، قالوا : يا أبا العزیز ، مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والثمانون فقام شوكة افندي الجرکسي وقال :

سمع أبناء يعقوب كلام أبيهم ، فأنسوا منه قوة عقيدة بحياة يوسف ، وسلامة

بنيامين من التسول ، وتصميمه على رجوعهم ثلاثة لمصر ، للتنقيب عنها ، فواصلوا سيرهم حتى أتوا مصر ، وعرجوا على البلاط الذي فيه عزيز مصر الجديد ، (فلما دخلوا عليه) أي على العزيز (قالوا : يا أيها العزيز) عزيز مصر المحترم (مسنا وأهلنا الضر) الجوع والهزال وسوء الحال (وجئنا) إليك مع الخجل (ببضاعة مزجاة) رديئة ، من متاع الأعراب ، صوف وسمن ، أو علك وإقط ، أو نحو ذلك (فأوف لنا الكيل) أي أعطنا شيئاً فوق حقنا بحيث يكون طافاً زائداً عن الحق الذي لنا (وتصدق علينا) بالمساحة والاعماض من رداءة البضاعة (ان الله) له المجد (يجزي المتصدقين) في الدنيا وكذا في الآخرة فيما نعتقد نحن وفيما تعتقدون أنتم ، إذ لافرق في ذلك بين دين ابراهيم ودين المصريين والعماقة .

(فلما دخلوا عليه قالوا ... الخ)

— ١ —

وتابع شوكة افندي الجركسي كلامه قائلاً : لقد بينت لكم أيها السادة مجمل تفسير الآية وهاأنذا أبين لكم مفصلها :

دخول أبناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة الثالثة وتزللهم له في طلب الميرة

ضاق أبناء يعقوب من بكاء أبيهم وتأسفاته ، واشفقوا على دمه الصبيب فسمعوا لما طلبه منهم وقاموا ليفتشوا عن يوسف وبنيامين ، فتأهبوا بالرحيل واعدوا معدات السفر وركبوا وفصلوا عن « سيلون » وحولوا عنان دوابهم شطر الديار المصرية ، وهمزوها وأما أبوه فكان يشيعهم بالنظر ، ولما بعدوا عنه صار يشيعهم بالقلب ، وأخذوا يطوون الأرض طياً ، في غمار المسافرين من التجار والمهتارين ، حتى وصلوا « صوعن » حاضرة مملكة الهكسوس بمصر ، فنفضوا عن وجوههم وثيابهم غبار السفر ويمموا شطر بلاط العزيز ثم دخلوا على العزيز « يوسف » وهو لابس قميص

البوص الملكي ، وقالوا له بصوت مختنق : يا أيها العزيز في هذه الديار المصرية الهكسوسية ، نحن مدينون لك سابقاً بما أوفيت لنا الكيل ، وكنت لنا خير المنزلين ، ورددت لنا بضاعتنا في رحالنا ، فكانك كلت لنا الميرة مجاناً ، فتحن لا يسمنا إلا شكري والثناء عليك ، وإن هذه المعاملة الجميلة لتحملنا على التجاسر والطمع وعرض حالتنا المحزنة على مسامحك الشريفة ، يا أيها العزيز المحترم ، اجتزنا التخوم ، وتخطينا البلدان ، وطوينا الغبراء ، لاغبين من الضرب في الأرض ، وجوب الصحراء ، يقودنا الأمل ويسوقنا الرجاء ، تارة نمشي في سحابة القيظ وحينئذ نسير في زلف من الليل ، يا أيها العزيز الكريم ، الرحمة الرحمة ، لقد مسنا وأهانا الضر ، مسنا الآن والبين ومس أهلنا الجوع والهزال وسوء الحال ، فوقعوا في شبكة السغب ، وحاط بهم جيش الهزال من كل جانب ، مسنا وأهلنا الضر ، — كلمة تترجع في بيان الواقع ، وبيان التذلل للمخاطب — وصغرت بيوتنا من الحب ، فأملقنا وتربنا ، ولحقنا النصب والأغوب ، وجئنا اليك بعد التي واللتيا ومع الحجل ، ببضاعة مزجاة ، رديئة يدفعها من تعطى له ، وقد صغرت أيدينا مما سواها ، وهي ليست من عقيلة المال ، ولا حر المتاع ، وحبذا لو كانت عندنا دنائير صفراء ، لكما قد منها ، أو لو كان معنا دراهم بيضاء ، لكنت نفعتنا في هذه الأيام السود ، فارحمنا وتعطف علينا ، وأوف لنا الكيل ، بحيث يكون طاماً زائداً عن الحق الذي لنا ، كما هي عادتك الحميدة ، منذ القدم الأولى ، وتصدق علينا بغض النظر عن رداءة بضاعتنا ، وإنها مدفوعة مردودة ، فإن للصدقة مراتب. هذا منها ، وقد قيل :

عن حديث المكارم
عُدَّ في جود حاتم

عدّيا في زماننا
من كفى الناس شره

أو أنهم تمسكنوا له وطلبوا اليه أن يتصدق عليهم بأن يعطيهم ما تسمح به يده
بلا مقابل منهم ، وهذا هو ظاهر اللفظ الذي نطقوا به .
فلما دخلوا عليه قالوا . . الخ

— ٣ —

ثم قام أبو الوفاء الكركوكي ^(١) وقال :
لي هنا الملاحظات التالية :

مراحل الخطاب أو « الاستدعاء »

١ — تأنقوا في خطابهم ماشاءوا وشاء لهم انكسار قلوبهم ، فافتحوه
باحترام مخاطبهم ، وتلوه بشكاية الحال اليه ، فالاستجداء ، ثم ختموه بالترغيب فيه
إن قلنا إن الجملة الأخيرة خبرية محضة ، أو ختموه بالدعاء إن قلنا إنها جملة خبرية
لفظاً إنشائية معنى ، فهذه الآية التي نطقوا بها ، هي من قبيل ما يسمى اليوم
« استدعاء » يصدر بترويسة تحتوي على اللقب الرسمي للمعروض اليه ، ثم على بث
الشكوى ، ثم الطلب ، ثم الترغيب في فعل الخير أو الدعاء للمعروض اليه .

مقايمة بين العبرانيين والعرب في الرحمة

٢ — كلامهم هذا هو « عرض حال » شخصي ، أعني لأجل شخصية واحدة ،
لا لأجل عموم أهل بلد مثلاً ، ولكن تحضرنا الآن حكاية ذكرها صاحب الأعاني
وقعت من بعض العرب ، ننقلها ليعمل القارئ مقايمة بين همة هؤلاء الناس
العبرانيين ، وبين همة ذلك العربي الصميم ، واليسكم تلك الحادثة المدهشة :

دخل أعرابي على « هشام بن عبد الملك » فقال : « يا أمير المؤمنين ، أتت علينا

(١) نسبة الى بلدة كركوك في العراق .

ثلاثة أعوام ، فعام آداب الشحم ، وعام أكل اللحم ، وعام ألقى العظم ، وعندكم أموال ، فإن تكن لله ، فبثوها في عباد الله ، وإن تكن للناس ، فلم تحجب عنهم ؟ وإن تكن لكم فتصدقوا ، إن الله يجزي المتصدقين » — قال هشام : « هل من حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ » — قال : ما ضربت اليك أكباد الإبل ، أدترغ المهجير ، وأخوض الدحى لخاص دون عام !!! ، فأمر هشام بأموال فرقت في الناس ، وأمر للأعرابي بمال فرقته في قومه ! . هذا هو طلب الأعرابي ، ولكن هؤلاء الإخوة جاءوا يطلبون لأنفسهم دون أنفس سواهم ، وعلى الأقل ، ماسمنا عنهم أنهم أوصوا بسواهم من أهل فلسطين وجارتها آرام ، فلم يتشفعوا لأحد ماقط ، بل قصروا همتهم على أشخاصهم ، تأمل يارعاك الله المرمى الذي رمى إليه ذلك العربي الصميم ، والمرمى الذي رمى إليه هؤلاء الاخوة ؟ تأمل كم يوجد بين العرب واليهود فرق في الشمم ، وعلو الجناح وبعد الهمة ؟ وماذا بين العرب واليهود من البعد الشاسع في الشفاعات الذاتية الشخصية ، كما هي حالة اليهود ، والشفاعات العمومية ؟ كما هي حالة العرب ؟

ولا ريب ان هذه الشيمة في هؤلاء وهؤلاء موروثه لسلاثلهم ، فعرب فلسطين اليوم إذا طلبوا أمراً ، طلبوه لعامتهم ، ولكن الصهيونيين إذا سعوا في تحصيل شيء ، فانما سعيهم لأنفسهم ، ولا فائدة منهم لسواهم .

البضاعة وطرق المبادلة بها

٣ — تعليقا على قولهم : « وحننا ببضاعة » البضاعة لغة القطعة من المبيعات التي يتجر فيها ، كأنهم أرادوا أن يجروا مع « عزيز مصر » صورة مبادلة ، وصور المبادلة تختلف ، فبعضها يحصل على سبيل مبادلة الشيء بالشيء ، ويسمى المقايضة ، والمقايضة بالنقد هو النوع المتبع في البلاد المتمدينة كمصر ، ولذلك كانوا « شروه بثمن بخس دراهم معدودة » (ع ٢٠) ، والمقايضة عروض بعروض هو النوع

المتبع في البلاد غير المتمدينة ، كفلسطين في ذلك العصر ، لأنها كانت بدوياً ، كما سيأتي ليوسف أن يقول : « وجاء بكم من البدو » (ع ١٠٠) ، وقد كانت المبادلة والمقايضة شائعة منذ القديم ، من أول أيام خلقه البشر ، وان المزايا التي منحها الله للبلاد والممالك المختلفة ، وان المواهب التي اختص الله بها اناساً دون آخرين - جعلت المبادلة أمراً اضطرارياً ، فهذه أراضي السودان أكثرها خالية من الملح الذي هو أهم حاجات البشر ، ولذلك يضطر السودانيون لاستجلاب الملح من الممالك الكائنة خارج بلادهم ، يستبدلون به الحبوب والحيوان ، وان أصحاب المواشي كيعقوب وأولاده لا يشتغلون بالزراعة ولا بالبضاعة ، وانما يكون عندهم الجلود والنعال والإقط والجبجب والسمن والزبدة ، ونحو ذلك مما كان سهل وجوده بطبيعة الحال عند أولاد يعقوب ، عليه السلام ، فلذلك ، ولكونهم كانوا من أهل فلسطين المتبدية غير المتمدنية ، فنحن نرى على أغلب الفكر ان هزم « البضاعة » التي جاءوا بها هي من هذا القبيل مما يسهل نقله من فلسطين لمصر ، وانما قالوا « مزجة » لأنهم ربما كانوا قد جربوا عرضها على التجار عندهم في فلسطين فلم يقبلوها ، وربما أرادوا إنها مزجة اليوم في مصر ، لرداءتها أو لكونها غير لازمة لأسواق مصر ، لأن العروض قد تكون مقبولة في بلد دون بلد ، وفي وقت دون وقت ، بخلاف النقود فانها مقبولة في كل مكان وزمان ، فما ذكرنا من حال فلسطين وحال أولاد يعقوب الذي كانوا عليه ، وبيان معنى البضاعة لغة ، يرجع عندكم ان تفسير هذه « البضاعة » بالنقود ضعيف جداً ، فافهموا .

٤ - ربما كانت عبارة « فأوف لنا الكيل » راجعة لقولهم « مسنا واهلنا الضر » وعبرة « وتصدق علينا » مرتبطة بقولهم : « وجئنا ببضاعة مزجة » ، ففيه لف ونشر مرتب .

اخوة يوسف يشتون له جزاء على صدقته

٥ - قالوا : « وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » وهم في ظنهم انما

يخاطبون رجلاً وثنياً من وثني الماليق الهكسوس ، أو من وثني المصريين ، ومع ذلك فقد أثبتوا ليوسف ، جزاءً على صدقته ، وهذا منهم صحيح ، سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة ، : ﴿ كَفَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧) ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢١ : ٤٧) ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦ ع) ، وأما ما يوم خلاف ذلك فمأول :

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى فوآدي ولكن للعتاب مواضع

جزاء المتصدقين في الدنيا والآخرة

٦ — تعليقاً أيضاً على قولهم « إن الله يجزي المتصدقين » أي يجزيهم في الآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ ويجزيهم في الدنيا بالصحة والعافية ورفع درجات الاحترام . والثناء عليهم من الناس . كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي قال علي بن الجهم :

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعبد
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأكمل أخلاق الرجال التفضل
وما المال إلا حسرة إن تركته وغنم إذا قدمته متعجل

، وقال غيره :

قدم لنفسك زاداً وأنت مالك مالك
من قبل أن تتفاني ولون حالك حالك
ولست تعلم يوماً أئى المسالك سالك
إمّا لجنة عدن أو في المهالك هالك

وقال آخر :

يا غافلاً عن حركات الفلك نبهك الله فما أغفلك
لغيرك ما أنت ورثته وما أنت أنفقته فهو لك

ذلة الاخوة مع الاجنبي « العزيز » وعظمتهم مع ابيهم واخيه

٧ — تعليقاً على قولهم : « مسنا واهلنا الضر » و « تصدق علينا » كلام يشف عن الذلة والمسكنة للأجنبي ، وأين هذا الصغار والتنازل مع الأجنبي من تلك الدبدبة والعظمة مع أبيهم وأخيه ، حينما كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » ، « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، « نال الله تفتاً تذكرو يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » ، حتى أن أولادهم ساروا سيرة آبائهم ، وعلى العروق ينبت الشجر فقالوا : « نال الله إنك لفي ضلالك القديم » لعمرى انت الذي حملهم على ما هو المذكور هنا من عبارات الاستكانة والخضوع إنما هو الاحتياج وحب المنفعة ، قيل إن « كُثَيِّر عَزَّة » و « الكميت » كانا شيعيين ، غاليين في التشيع ، وكانت مدائحهم في « بني أمية » أشرف وأجود منها في « بني هاشم » ، وما لذلك علة سوى الحاجة والانتفاع ، وإن هؤلاء الأشبال !! ، اصول اليهود ، قد ورثوا هذه الطبيعة التي عاشوا عليها — ملائمتهم يهود اليوم لا سيما الصهيونيين منهم ، فتراهم عند الطلب من « الانكليز » أو غيرهم من الأجني عنهم ، في غاية الذلة والضراعة ، لكنك تراهم في معاملة أبناء عمهم ! « العرب » ! في نهاية الخشونة والبربرية !!... شنشنة أعرفها من أخزم .

خضوع البسر لحكم الغريب

٨ — توسلوا اليه بصوت مازجه دل السؤال ومسكنة التشكي ، لأنهم لم يكونوا يعرفونه انه أخوهم ، ولو كانوا يعرفونه انه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم

أن يخضعوا له هذا الخضوع وذلك لما في فطرة البشر من قلة الاحترام بين الاقرباء فالانسان اذا ترك لفطرته ، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه ، أو لأحد الغرباء فضل الخضوع للغريب ، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء - أسهل قياداً ، وأقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم اناس من أبناء جلدتهم ، وبهذه القاعدة يستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها، كأصل الفراعنة الأولين مثلاً ، فالمؤرخون مختلفون في هل هم مصريون أو دخلاء؟ ونظراً لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجح أنهم غرباء فاتحون، للسبب الذي تقدم .

(قالون)

عتاب وتذكير

آ (٨٩) . . . * قال : هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه
إذ أنتم جاهلون ؟

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والثمانون فقام حيدر افندي
المرعشي (١) وقال : ان التفسير المجمل لهذه الآية هو كما يلي :

تقدم أن اخوة يوسف وقفوا بين يدي يوسف « العزيز » وقالوا له ما قالوا في
الآية الكريمة السابقة ، وأما هو ، فلما سمع تذللهم وضراعتهم ، (قال) لهم ، بلهجة
المذكر المعاتب : (هل علمتم) أي هل تتذكرون وتعرفون قبح (ما) كنتم
(فعلتم) منذ ثلاث وعشرين سنة (يوسف وأخيه) ابن أمه وأبيه بنيامين ،
(إذ أنتم جاهلون) من أهل الجهالة والسفه ، أو جاهلون سوء منبة عملكم .

(١) نسة الى مرعش احدى المدن التركية .

قال هل علمتم . . الخ

- ١ -

ثم تابع حيدر افندي المرعشي كلامه قائلاً: واما تفسير الاية المفصل فهو :

عتاب يوسف لاختوته وتذكيرهم بالتوبة

رأى يوسف أن اختوته قد اشتكوا اليه شكاة تنم عن رقة الحال ، وشظف العيش ، ولحوق المحمصه ، رآهم قد ودعوا جميع أقوال الشدة ، وأعمال التزق وخواطر ثورة الشباب ، وأنه قد استحوالت نفوسهم الصلبة الى نفوس أخرى غيرها ، لاصلة لها بها ، نفوس مطمئنة وديعة رقيقة ، رآهم قد غلبت فيهم نزعة الخير على نزعة الشر ، سمع منهم كلمة ملؤها الوداعة والذل ، فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفسه ، وحزن لاجلهم ، وتأثر من بؤسهم ، واعتزم على اظهار نفسه لهم ، حتى يضمهم وأهلهم بمعيتة ، ليعيشوا عيشة الرعد والسعة ، سمع يوسف تذللهم ، فأطرق بنفسه هنية ثم قال لهم : أيها الذالون (١) المستعدون (٢) ، يا أبناء « ليئة » و « بلهة » و « زلفة » أتذكرون ما حفظه التاريخ بين طياته ؟ فما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وأخيه ؟ وما أقبح ما أقدمتم عليه ؟ فهل تدرون ذلك وتعرفونه وتذكرونه وأتم في حالة التمرين على أعمال الجهالة (٣) ؟ إذ جهلتم عليها بل وعلى أبيكم ، بل وعلى الاخلاق الفاضلة والطريقة المثلى ، بل وعلى أنفسكم لان من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها .

أنا الان لا أريد استعراض تلك الحوادث الممضه ، التي أدمت القلوب وفحمت المنكوبين ، أنا الآن لا أريد أن أحاسبكم حساب الملائكة للميت في قبره ، ولكني أعتب على الاختوة ، أعتب على ذوي الرحم أن يفعلوا ما يدنس سمعتهم .

(١) ذل : خضع (٢) استعداد استغاثه (٣) اي السفه .

هل علمتم أنكم كدتم لهما ربحاً من الزمن ؟ هل علمتم أنكم شرأحصدتم لهما ؟ لا إخالكم إلا تعلمون ذلك وتذكرونه ، ولا أظن أنكم تجهلون ولا أنه عزب عن أفكاركم ، راجعوا تاريخكم القتيق تجدونه قد طوى بين صفحاته الكثير المدهش من أعمال القساوة راجعوا أعمال ما قبل ٢٣ سنة تقفوا على تفاصيل ما اشير اليه .

هل تذكرون انكم شردتم يوسف عن أبيه وأخيه ومواطنيه ، وانكم قدناوأتموه ، ولم تهادنوه ، ولم تؤاتوه ، ولم تهدأوا عن الكيد له ، والقيتموه في دامس الحب ، وأما أخوه بنيامين ، فقد أحزنتم قلبه ، أفقدتموه شقيقه ، أعدتموه لذة الحياة ، حتى صار شريكه في هذا المصاب ، بل وشريك أبيه في أحزانه ، فتجرع من الحزن كأسين كأس حزنه على شقيقه وكأس حزنه على أبيه يعقوب .

إنكم بعملكم ذلك أصبح يوسف بتشريدكم إياه عبداً مملوكاً يباع في سوق الرقيق ، ثم خادماً في بيوت الأمراء ، ثم ملوثاً بالجريمة زوراً ، ثم سجيناً مع الأثمة !! ..

وأما بنيامين فأصبح بفضل اجراءاتكم غريباً منفرداً ، لا يجد بين القلوب الخافقه حوله قلباً يحزن لحزنه ، ولا بين العيون الناظرة اليه — عيناً تبكي لبكائه ، وانه ليخيل الي أنكم كنتم تهينونه ، لأنكم ترون فيه ذنب الأفعى .

سبحان الله ، شرارة واحدة حرقت الأخضر واليابس ، فعلتم ما فعلتم ، وكأنه لا شيء في أعينكم ، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (١٥: ٢٤) أنا لا أريد بكلامي هذا أن أقوم بتنظيم خطط الهجوم ، ولا أكلفكم في مقابلة ذلك نصب آلات الدفاع ، ولا أريد أن أصني حسابي معكم ، لا.. لا.. لا.. ولكنها زفرة نفس ، وحسرة قلب ، ونفثة مصدور ، أعالج بها بعض كلوم الفؤاد ، وذكري وكلمة مختصرة للسامع ، عساه أن يفيق بعدها من جهالته .

قال هل علمتم .. الخ

٢ -

وقام الشيخ الكواكبي (١) وقال:

يوسف يشفق على اخوته ويتنصح لهم

سمع يوسف كلامهم المتواضع ، ونظر في سحنهم ، فرأى في لحن كلامهم وملاحظهم ما يدل على ذلمهم وخضوعهم ، وأنهم قد ذهبت منهم الجرأة ؟ وانفثأت تلك الحمية الاولى ، فشعر للحال برحمة في قلبه ، وعطف جديد نحو اخوته ، فلم يتالك عن إظهار نفسه لهم ، ومما استدعى حنانه عليهم بنوع خاص قولهم : « مسنا وأهلنا الضر » ، إذ تصور أن والده من أهلهم ، وكذا قولهم « وتصدق علينا » فانه لما سمعه حرقف أسنانه ، فاذا دمة رقراقة ترجح في عينيه ، وقد خامره حنو وانعطاف نحوهم ، ففضل أن ينفذ لهم جملة حاله ، ويعرفهم بنفسه ، فأثاهم من جهة الدين ، وكان حليماً موقفاً ، وقال لهم هل أتى حين علمتم فيه قبح ما كنتم فعلتم بيوسف وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ؟ أنا أنا كد إنكم كنتم لاتعلمون قبحه تمام العلم ، ولماذا سينجم عنه من المفسد ، فلذلك كنتم منذ ٢٣ سنة أقدمتم عليه ، ولكن اليوم هل علمتم قبحه فبتتم الى الله منه ؟ أرجو من الله أن تكونوا كذلك ، فاني على استعداد لم يد المصافحة والمحبة ونسيان الماضي المؤلم

العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجبر الى التوبة

استفهم يوسف عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، لأن علم القبح يدعو الى الاستقباح ، والاستقباح يجبر الى التوبة ، فهذا من قبيل

(١) نسبة الى آل الكواكبي في مدينة حلب (سورية)

سياسة « جس النبض » عن توبتهم ، لعله يجدهم قد تابوا ، فيجد منفذاً للعيشة معهم بسلام ، فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصيحاً لهم في الدين ، لامعاتبة وثريراً ، إيثاراً لحق الله على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي ينفث فيه المصدور ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك فيه الموتور تأره ، وينفس فيه المكروب عن كربه ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسججها (١) ؟ ولله حصا (٢) عقولهم ما أرزنها وأرججها ؟

(قال هل علمتم ..)

— ٣ —

وقام الشيخ عبد الحميد الدوماني (١) وقال :

لي على هذه الآية الكريمة المواد التالية :

درجات المعاتبة وموقع كلام يوسف منها

المادة ١ — قيل إن كلام يوسف مع اخوته كان من قبيل المعاتبة التي هي أقل من « التثريب » بدرجات ؛ فهي المعاتبة ، ثم اللوم ، ثم التقريع ، ثم التوبيخ ، ثم التأنيب ، ثم التثريب ،

قال بعض العلماء : المعاتبة احتكاك بين القلوب ، تزيدها حرارة وتجاذباً ، والعتاب فاتحة حديث المحبين ، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد ، وأكثر الناس لؤماً ، أقلهم لؤماً ، قال الناظم :

لعل عتبك محمود عواقبه فرجما صحت الأجسام بالعلل

صَرَ قَ الْخَبَرَ الْخَبَرَ

المادة ٢ — هذا القول الذي صدر من يوسف لآخوته هو مصداق قوله تعالى :

(١) سحح الحذ كقرح : سهل . (٢) الحسا العقول والحصاة العقل . (٣) نسبة الى دوما من ضواحي دمشق (سورية)

﴿ وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ (ع ١٥) .

أدب الاخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم حقده عليهم

المادة ٣ — كان يوسف سمع كلام اخوته ، فرآي عليه صبغة الأدب والخنوع ، فرق لهم وابتدأ يكشف لهم عن حاله ، ويبين شخصه من هو . . توصلاً لمنفعتهم وجلبهم وأهليهم عنده ، ولم يكن ليحقق عليهم لما فعلوه معه من قبل .

وقد جرت وروى لنا التاريخ أن أدب الطالب ، قد يحمل الانسان على الجود ومكارم الأخلاق ، كما قيل انه وفد رجل من بني ضبة ، على عبد الملك بن مروان ، فقال :

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلب اليك — من الذي نتطلب ؟

فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك الى المكارم ينسب

فاصبر لعادتنا التي عودتنا أو ، لا ، فأرشدنا الى من نذهب ؟

فقال عبد الملك : « اليّ اليّ » وأمر له بألف دينار .

ويحكى انه جيء الى « الرشيد » « بعبد الملك بن صالح » في قيوده ، فقال له

« يحيى بن خالد » البرمكي وأراد أن يبيته : « إنك حقود » — فقال : « إنما صدري

خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شر » — فقال الرشيد : « والله ما رأيت

أحداً احتج بمثل ما احتج به عبد الملك » ،

قال بعض العلماء : إن عبد الملك بهذا الاحتجاج فتح الباب « لابن الرومي »

حيث قال :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض

فحيث ترى حقداً على ذي إساءة ثم ترى شكراً على حسن العوض

هذا ولكن الطريقة المحمدية تعلمنا تناسي الحقد وأسبابه بته ، ولذلك لم يرد أن النبي ﷺ عاتب أحداً بما سبق أن صنعه معه ، فكان يعفو ويغفر من الابتداء ، وقد ورد أنه قال يوم فتح مكة : « ما ترون أني فاعل بكم ؟ » - قالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » - فقال : (أقول كما قال أخي يوسف) : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

اسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام

المادة ٤ - قال « يوسف وأخيه » ولم يذكر أباه ، مع إن المصيبة كانت وقعت على رؤوس الثلاثة ، بل ربما يظن الظان أن حصة أبيه من هذه المصيبة هي أكثر من حصتها ، وجوابنا عن ذلك من وجوه :

أ - إن يوسف يعلم أن أباه مزوّد بالبشائر الإلهية في شأن ابنه الحبيب ، وأنه على مثل اليقين من حياة ابنه ، وأنه سيجتمع به ، وأنه سيقع كل ما بُشِّر به ولده في المنام ، وكل ما وحي به إليه في شأن ولده ، فيعقوب في الواقع مطمئن الخاطر من هذا القبيل ، بخلاف بنيامين الذي كان لا يعلم من مستقبل أخيه يوسف شيئاً ، فلا ريب أن كربه يكون شديداً .

ب - إن يوسف يعلم أن أباه نبي من أنبياء الله ، ورسول من الرسل الكرام والأنبياء والرسل أهل صبر وتحمل : ﴿ قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣٥:٤٦) فلا تؤثر عليهم النوازل تأثيراً كثيراً ، ولذلك نرى أن سيدنا يعقوب حينما أخبر بأن ذنباً افترس ولده يوسف قال : « فصبر جميل » ، ثم لما أنبئ بأن ابنه بنيامين سرق ، قال أيضاً : « فصبر جميل » ، وأما ما نزل عليه من الحزن الذي نتج عنه ابيضاض عينيه ، فهو أمر وجداني يطرأ على الإنسان بغير اختياره ، كما يطرأ عليه الجوع والعطش والسرور - إلى غير ذلك من الوجدانيات .

ج — ان الانسان مها عمر في هذه الدنيا ، فاما عمره اللذيذ هو أيام شبابه وكهولته ، أعني العقود الثلاث ، التي هي الثاني والثالث والرابع ، أي من العام الحادي عشر ، الى عام الأربعين ، فهذه الأعوام هي ربيع العمر ، الحاوية لبتداء الشبيبة ونهايتها ، حين تكون القوتان البدنية والنفسية قد ابتدأتا ، ثم كملتا ، حين تكون الصدور مشروحة ، والقلوب مفتوحة ، لمسرات الحياة ، وملذات العيش ، فهذه المدة هي زهرة عمر الانسان وتاج حياته ، واكليل وجوده ، فيها تكون الروح فرحة مغتبطة ، والنفس صافية مسرورة ، وأما ما قبل ذلك ، وهو العقد الأول ، فهو حلم من الأحلام ، كما ان ما بعد الأربعين ، وهو العقد الخامس فما بعده ، فهو عيشة الوقار والتقيد ، فتلك العقود الثلاث هي « الثروة » التي إن ذهبت لن تعود ، وهي أيام « الصفا » التي بتكديرها يضيع العمر كله ، فالقصور بالذات من العمر — بالنسبة للملذات الدنيوية — هو هذه العقود الثلاثة ، وأما ما قبلها من العقد الأول ، فهو كالتقدمة لها ، كما ان ما بعدها من العقود هو كالتيمات والخوايم ، وما أصدق قول من قال : العقد الأول من العمر هو حلم محض ، لا هو للدنيا ولا هو للآخرة...

إذا كنت قد فهمت ما قلناه حق فهمه ، وكنت قد علمت أن « يوسف » قد آسفه اخوته وأحزنوه في أيام شرح شبابه ، وعنفوان قدرته ، ومبدأ زهرة عمره إذ فرقوا بينه وبين شقيقه وأبيه ووطنه ، من حين أن كان عمره ١٧ سنة ، الى أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، وان « بنيامين » قد آسفه اخوته وأحزنوه ، في مثل تلك الأيام الزاهرة ، أيام الملذات والمسرات ، إذ فرقوا بينه وبين شقيقه من حين أن كان عمره نحو ٧ سنين ، الى أن بلغ من العمر نحو ٣٠ سنة .

إذا احطت علماً بمجموع ذلك كله ، تعلم علة كون يوسف جعل مفاعله به — اخوته مصيبة نازلة عليه وعلى أخيه ، دون أبيهما فهذه المصيبة نزلت بيوسف وأخيه

في أيام الشباب ، ومقبل العمر ، أيام الملذات والمسررات والأفراح ، التي إنذهبت
لا يمكن أن تعوض ، فيها بدلاً من أن يجدا في زهرة عمرهما الفرح والغبطة
والملذة ، فقد وجدا الحزن والألم والمصائب ؛

وأما أبوهما سيدنا يعقوب عليه السلام ، فهو إنها أصيب بفراق يوسف حينما
كان عمره ١١٠ سنوات ، فصييته بآبته وان تكن في ذاتها عظيمة ، لكنها صادفت
أيام شيخوخته وكبره ، بعدما كان أخذ سهمه من الغبطة أيام شبابه ، فكم وكم
مضت له إبان شبابه أيام صفاء وسرور ، وليالي أنس وحبور ، حينما كان في حضن
أبيه « اسحاق » وأمه « رفقة » بفلسطين ، الى أن صار له من العمر نحو ٥٢ سنة ،
ثم بعدما هاجر الى « العراق » عند خاله « لابان » مكث هناك عشرين سنة ،
قضاها مسروراً بزوجتيه « ليثة » و « راحيل » ، وسُريتيه « بلهة » و « زلفة » ، ثم
كان أولاده الأحد عشر وبناته حوالية ، لا يكدر صفاء عيشه شيء ؛

فهل حصل ليوسف وبنيامين ، أيام شبابه من الصفاء والغبطة عشر معشار
ما حصل لأبيهما أيام شبابه وكهولته ؟ .. كلا.. بل بالعكس قضى يوسف أيام شبابه
في غيابة الحب ، الى كونه سلعة تباع وتشترى ، الى سوق الرقيق بمصر ، الى
العبودية والخدمة ، الى تلك الفتنة المدهشة ، الى أعماق السجون المظلمة ..
وكل هذه الكوارث كانت موزعة على بساط مدة ، هي من سن ١٧ حتى ٣١ ،
وتلك هي زهرة الشبية ، ولب العمر ، وكذا قضى بنيامين لب شببته من وقت
أن كان عمره سبع سنين ، الى أن صار ابن ٣٠ ، وهو في أشد الألم والذل ،
بفقدان أخيه ، فقداناً لم يكن فيه مُعزٍ ولا مخفف ، بخلاف أبيه يعقوب ، فكان
له مما أوحاه الله ليوسف في المنام ، وله في اليقظة — بشأن ولده — أعظم تعزية
وأكبر سلوات .

د — كان بنيامين ويوسف من أم واحدة ، هي « راحيل » ، وقد ماتت ،

سلك في أعماله وأقواله مسلماً وسطاً ، سلك ذلك مع اخوته ومع سواهم ، وخير الأمور الوسط ، وهذا يظهر لنا في مواضع عدة منها :

١ — انه لما راودته زليخا لم يخضع لها ، ولم يغلظ لها القول ، بل أجابها بالمعقول والأدب ، متمنعاً عن مؤاتاتها (ع ٢٣) .

٢ — انها همت به ضرباً أو قتلاً ، وهو بالمقابلة هم بها كذلك ضرباً أو قتلاً ، ولكنه رأى برهان الله القائم عليه وعلى سائر المكلفين ، « ادفع بالتي هي أحسن » فرجع لحالة التوسط ولجأ الى الفرار من بين يديها ، وبذلك صدق عليه انه سلك مسلماً وسطاً ، لاهو واتاها ، ولاهو تعدى عليها (ع ٢٤ و ٢٥) .

٣ — لما بهتته واختاتته صريحاً لم يسكت ولم يرد عليها رداً عنيفاً ، بل اقتصر على أقل عبارة يدافع بها عن شرفه ، وتؤدي مطلوبه (ع ٢٥ و ٢٦) .

٤ — لما رغبت اليه زليخا أن يخرج على النسوة المصريات أضيفها ، لم يمتنع ، ولكنه لم يوافقهن على رغبتهن منه ، بل سلك في ذلك مسلماً وسطاً (ع ٣١ — ٣٣) .

٥ — لما استفتاه الفتيان اللذان سجنوا معه ، لم يطلب منها اجرة على الفتوى ، ولم يرد أن يفتيها مجاناً ، بلا مقابل معنوي ، بل توسط واستقضى منها اجرة أدبية ، وهي اصغائهما لإرشاده الديني وتبشيريه بالتوحيد (ع ٣٦ — ٤٠) .

٦ — لما أراد « الساقى » أن يخرج من سجنه ، لم يهم — بل يوسف تعاطي الأسباب بتهافت على ذلك « الساقى » بالرجاء والاسترحام ، بل سلك معه مسلماً وسطاً ، مقتصراً على أقل عبارة تؤدي المقصود وتكفل له الشرف (ع ٤٢) .

٧ — لما رجع « الساقى » ايوسف في سجنه ، ليستفتيه في حلمي الملك ، فمن جهة لم يعاتبه على نسيانه وصيته سابقاً ، ومن جهة أخرى لم يصد عنه ويتجاهل ، كما صنع « الملك » مع الملك ، بل سلك مسلماً وسطاً باقتصاره على اعطاء الجواب ، بدون رجائه ثانية (ع ٤٦ — ٤٩) .

٨ — لما جاءه « الساقى » في سجنه ثانياً ليخرج منه بأمر الملك ، لم يرد أن يسكت بته عن زليخا التي بهتته وظلمته ، ولم يرد أن يصرح باسمها ، ولكنه أشار اليها بسؤال النسوة اللاتي قطعن أيديهن (ع ٥٠).

٩ — لما جاءه اخوته لأول سفرة ، لم يطردهم ، ولم يكرهم اكراماً هائلاً ، من قبيل ما نسمع بأمثلته مما وقع على يد جماعة كثيرين من الأجواد « كحاتم ، الطائي ، و « عبد الله بن جردعان » و « معن بن زائدة » و « آل برمك » في عهد الرشيد ، وغيرهم ممن كانوا يجودون بإسراف لا يوافق روح الشريعة ، بل توسط معهم ، فقبلهم و كال لهم كيلاً وافياً ، وأنزلهم منزلاً كريماً ، ولم يأخذ منهم ثمن الحب الذي كال لهم ، ولا أعطاهم هدية أو نحوها (ع ٥٩ — ٦٢).

١٠ — لما بهتته اخوته بالسرقة ، لم يسكت ولم يصدع بالرد ، بل توسط ، وزفر سرّاً زفرة المصدور ، قائلاً في نفسه : ﴿ أنتم شرّ مكاناً ﴾ ، حتى يرتاح نوعاً من ألم ماسم (ع ٧٧).

١١ — لما طلب اخوته اليه أن يستبدل « بنيامين » بأحدهم ، فمع انه لم يقبل منهم نراه لم يؤنبهم بأن هذا خلاف فتواكم السابقة ، وكيف تحالفون شريعة الله ؟ وكيف تقولون مالا تفعلون ؟ وعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر :

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

فهو لم يأت شيئاً من ذلك ، بل اعتدل وردهم رداً لطيفاً (ع ٧٨ و ٧٩).

١٢ — لما جاءوا اليه في السفرة الثالثة وشكوا اليه حالهم ، وأراد أن يظهر لهم نفسه ، لم يوبخهم ويحقرهم ، ولم يترك عتابهم ، بل توسط وعاتبهم عتاباً لطيفاً (ع ٨٩).

١٣ — لما سأله : أأنت لأنت يوسف ، أجابهم بجواب معتدل ، فلم يتقرب اليهم بأن يقول : « أنا أخوكم يوسف » ولم يتجافهم بأن يقول : « أنا المحسود ، أنا

١٢٠٤ عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف آ (١٩)

المشرد المطرود ، أنا موضوع المؤامرة الشريرة ، أنا الملقى في البئر بلا هوادة ،
بل اعتدل وقال : « أنا يوسف ، وهذا أخي » (ع ٩٠) .

١٤ - اعتدل في ذيل جوابه لهم فلم يقل : « أنا أهل التقوى وأهل الصبر
والاحسان ، وأنتم أهل العدا والحرب والانتقام » بل إنما قال : « إنه من يتق
ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (ع ٩٠) .

١٥ - تسمعه يقول : لا تثريب عليكم اليوم ، « أي أنا اليوم لا أريد أن
أثربكم ، وأنتم ماثلون بين يدي » ؛ مثول المالك ، بين يدي الملك ، والأذلاء ،
أمام العزيز « ففي هذا القول ، مع قوله « يغفر الله لكم » توسط واعتدال بين
التعنيف والتكريم .

عمل الاخوة مع بنيامين لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف

المادة ٨ - هم لم يعملوا بأخيه بنيامين عملاً مباشراً ، إلا أنه نظراً لقوة
الاتحاد بين هذين الأخوين الشقيقين - كانت فعلتهم بيوسف كسراً لذراع
بنيامين ، فالجناية على يوسف ، هي جناية على بنيامين بصورة خاصة ، كما أن جناية
الانسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم بصورة عامة ، قال تعالى : ﴿ مَنْ قَتَلَ
قَتْلَ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (٣٥:٥) .

معنى الجهل والجاهل

المادة ٩ - للجهل معنيان ، أحدهما ، أنهم فاعلون فعل الجهالة المرادف للسفه ،
وهو ضد « الحلم » لأن من عمل ما يؤدي الى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك
أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لا من أهل الحكمة ، والجهل بهذا المعنى يذم به
الانسان مطلقاً .

وثانيهما أنهم جاهلون ، أي غير عالمين ، بما يتعلق بعملهم من المكروه والمضرة ،

فتارة يذم به الانسان ، اذا جهل ما يجب عليه او ما ينبغي له ويمد كمالاً في حقه ،
وتارة لا يذم به اذا جهل ما لم يقدر على فهمه الا بالوحي مثلاً .

وقد قال : « إذ أنتم جاهلون » لأنه لا يقدم على طلب ما يضر بالناس وما يسوءهم
إلا أهل الجهالة والسفه ، سيئو النظر في العواقب من أمور الدنيا والآخرة ،
قليلو العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النعمة ، وبما يلزمهم من تبعات ما اجتروا
من العداة والجفاء ، قال أبو العلاء المعري .

والجهل داء قد تقادم عهده في العالمين ولا يزال عضالاً
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم إلا خلائق أخوة أمثالاً
والعلم لا يتم الا بالعمل ، وانا صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، فان لم
يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً ، ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ، ثم سلكه
على علم به ، سمي جاهلاً والله تعالى اعلم . (لا يفضض الله فاك)

اظهار يوسف نفسه لآخوته

آ (٩٠) * — قالوا : أأنتك لآنت يوسف ؟ — قال : أنا
يوسف ، وهذا أخي ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر
فإن الله لا يضيع أجر المحسنين *

افتتحت الجلسة وتليت الآية التسعون فقام الشيخ سعد الدين البيرودي (١)

وقال :

سمع أخوة يوسف كلام أخيه يوسف ، فأنعموا فكرمهم في مغزى سؤاله ،

(١) نسبة الى بيروذ من ضواحي دمشق (سورية)

ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنه صوته ، وتأملوا في عينيه — والعينان أظهر ملامح الوجه ، وأدل على صاحبهما من سائر الاعضاء — فانتقلوا من دور « الانكار » أي انكارهم له وعدم معرفتهم به ، الى دور « الشك » أي شكهم في أن الذي يكلمهم هو ياترى يوسف أم لا ؟ فـ (قالوا) وهم مضطربو الحواس (أأنك لانت يوسف ؟) — بن يعقوب — (قال) بصوت برن رنين النحاس ، ما أبعدتم في التفرس ، ولا تجاوزتم الواقع ، لا أخفى عليكم أني (أنا يوسف) بن « يعقوب » من زوجه « راحيل » بنت « الالبان » ، (و) لا أريدكم علماً بأن (هذا) الشخص الذي ترونه بجاني ، هو (أخي) بنيامين ، الذي هو وأنا ، من دم واحد ، وبطن واحد ، (قد من الله علينا) بما نحب وكما نحب ، بالخلاص مما أبتلينا به ، بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعلم بعد الذل ، وبالأنس بعد الوحشة (انه من يتق) يخف الله وعقابه (ويصبر) عن المعاصي وعلى الطاعات ، يحزن ثمار تقواه وصبره ، (فان الله) من فضله وعدله (لا يضيع أجر المحسنين) وما ترونه هو ثمرة التقوى ، ونتيجة الصبر : وعاقبة الاحسان ، لأن المستقبل نتيجة الماضي ، وثمرته الطبيعية .

قالوا : أأنك لانت يوسف . . الخ

— ٢ —

وقام الشيخ عبد الغني الجيروودي ^(١) وقال :

استعراف يوسف لاختوته بنفسه وبأخيه وتعريضه بهم

فكروا فيما سمعوا ، ثم فكروا ، ثم قالوا بصوت يرتجف ويتقطع ، ولسان يتلعثم : أأنك لانت يوسف ؟ !!! — قال بلسان فصيح ملؤه البلاغة والبيان : قد رأيتموه وسمع كلامكم ، وبعبارة صريحة : يسرني أن أقدم نفسي اليكم ، أنا

(١) نسبة الى جيروود من ضواحي دمشق (سورية)

آ(٩٠) استعراف يوسف لآخوته بنفسه وبآخيه وتعريضه لهم ١٣٠٧

يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا الشخص الكريم الذي ترونه كنفى وجواري ، هو أخي بكل معنى الكلمة :

أخي — الذي قام بواجبات الاخوة ، منذ دب الى أن شب .

أخي — الذي لم يقطع صلة الاخوة بيني وبينه ، ولن يقطعها الى آخر نسمة من حياته .

أخي — الذي 'يمت' اليّ بالاخوة الصادقة المخلصة التي لم تشب بشيء من كدر الحياة .

أخي — الذي كان — على البعد — شاطرنى في حزني وضيقتي فهو اليوم — على القرب — يجني ثمار ذلك ، ويشاركني في صفائي وبسطتي :

أولى البرية طراً أن تراعيه عند السرور الذي راعاك في الحزن
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولا ريب أن الله سبحانه قد منّ ويمنّ وسيعن علينا بلم الشمل ، وبهذا الرقي العظيم ، فان هذا المعنى أمر مشترك بيني وبينه ، كما أن من الأمور المقررة أن من يتق ظلم اخوته وأقاربه ، ويتق التعدي على الأعراض ، ويتق كل ما يضر الإنسان في نفسه وفي جنسه القريب والبعيد ، ويتق جميع الذنوب والمعاصي ، وان من يصبر على أذى الناس ، ويصبر على غيابة الحب ، ويصبر على الخدمة بأمانه ، ويصبر عن الفحشاء والمنكر ، ويصبر على أعماق السجون ظمأً ، ويصبر على كل مرّ وضرّ ، فلا ريب أنه لا يخشى دركاً ، ولو قامت عليه الأرض ، بالطول والعرض ، ومتى كان الله مع العبد ، نجاً من كل سوء ، وترك الناس تضرب في حديد بارد ، ذلك ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا العبد الضعيف منهم ولاخفر ، فمن زرع التقوى والصبر ، حصد الأجر كما أن — بالمقابلة — من زرع الريح ، حصد الزوابع .

وأما اخوته ، فانهم لما سمعوا هذا الجواب ، دخل بعضهم في بعض ، وسقط

في أيديهم ، واضطربت فرائصهم ، ورهبت نفوسهم ، وغشيتهم من الفرق ما غشيتهم ، وعلا وجوههم الاصرار ، وصاروا بحالة أحبوا معها الموت ، لا سيما وقد فهموا ان في قوله « إن من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ، تعريضاً بهم انهم ليسوا من هذا النوع .

التعريض في الكلام

والتعريض هو الإشارة الى معنى ، لم توضع له الجملة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، كقوله ﷺ في مزاحه مع احدى عماته : « إن الجنة لا تدخلها عجوز » ، فلما جزعت ، قال لها : « إن الله تعالى يخلقهن يوم القيامة ، شواباً أبركاراً » ، وقال لامرأة : « ما فعل زوجك الذي في عينيه بياض ؟ » ، ومن ذلك ان بعض العرب أدخل على « الواثق » ، وكان الواثق يقول بخلق القرآن ، ويعاقب من خالفه ، فقال له : « ما تقول في القرآن ؟ » ، فتصامم عليه ، فأعاد السؤال ، فقال : « من تعني يا أمير المؤمنين ؟ » - قال : « إياك أعني » - فقال : « مخلوق » ، يعني نفسه ، وتخلص منه بذلك . وقال لآخر : « ما تقول في القرآن ؟ » ، فاخرج يده وجعل يعد أصابعه ويقول : « التوراة والزبور والانجيل والقرآن ، هذه الأربعة مخلوقة . » وعني بذلك أصابعه ، وتخلص منه .

التعريض في سورة يوسف

هذا ومما لا بد أن ننبه اليه ، ان التعريض في هذه السورة ، ليس مختصاً بهذا الموضع فقط ، بل أرى أنه وقع منها في عدة مواضع ، فمن ذلك :
 أولاً — ما في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ (ع ٣) فان فيه تعريضاً بقصص التوراة ، التي حوت أقبح القصص .

ثانياً — قول يوسف « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » (ع ٣٨) ، فيه تعريض بالفتين الساقى والحجاز ، أنها ليسا من أهل الشكر .
ثالثاً — وكذا قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (ع ٤٠) ، فان فيه أيضاً تعريضاً بهما .

رابعاً — قوله تعالى : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (ع ٥٦ و ٥٧) ، فيه تعريض بأن يوسف من المرحومين المحسنين المتقين .

خامساً — قول المؤذن : « ولما جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم » (ع ٧٢) فيه تعريض بأنهم هم الذي سرقوه .

سادساً — وأخيراً قول يوسف « هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً » (ع ١٠٠) ، فيه تعريض بما كان اخوته يقولونه له على سبيل الإنكار والتهكم : « هذا صاحب الأحلام ، هذا الذي يحلم أننا سنسجد له » . ولنا هنا الملاحظات الآتية :

المحسن

الملحوظة الاولى — كلمة « المحسنين » تشمل كل محسن ، بمن كان ويكون ، من أي نحلة ومن أي ملة ، ﴿ كَفَنَ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٩٩ : ٧ و ٨) ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ، فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢١ : ٤٧) .

احسان يوسف

الملحوظة الثانية — كان يوسف عليه السلام أحسن طريقته مع الله ومع والديه ،

أحسن الخدمة في بيت سيده « فوطيفار » بكل أمانة و إخلاص ، أحسن للعزیز وامرأة العزیز بحفظ عرضها وشرفها ، أحسن للفتيين بوعظها وارشادها وتأويل رؤييهما ، أحسن المصريين بالعطف عليهم ، وتنظيم ثروتهم ، وترتيب ثمرات نيلهم ، أحسن لاختوته يوم وفدوا عليه لأول مرة ، وبالجملة فالفتيان اللذان كانا معه في السجن ، هما أعرف منا بتفاصيل إحسانه ، حينما قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » ، واختوته حينما صار بينه وبينهم تماس ، هم أعرف بوجوه إحسانه ، حينما قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » وهو نفسه أعرف بطرق إحسانه حينما قال : « فان الله لا يضيع أجر المحسنين » ، بل الله تعالى هو أعلم من الجميع بمرامي إحسان يوسف عليه السلام وقد قال في تقریظه : « ولما بلغ أشده آتیناه حکماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » ، ثم قال : « نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ».

نتیجة کید اخوة یوسف له

الملحوظة الثالثة — سمعوا ما سمعوا الآن ، وكانوا رأوا ما رأوا سابقاً ، فظهر لهم ان ذلك « الكيد » الذي كانوا دبروه ليوسف منذ ٢٢ سنة ، كان له نتيجة ذات وجهين ، فهي بالنسبة لهم من أسوأ النتائج ، وبالنسبة ليوسف عليه السلام هي من أحسن النتائج ، وبيان ذلك أنهم هم لم يخل لهم وجه أبيهم ، لأنه كان شغل بحب بنيامين الحاضر ، وبذكرى يوسف الغائب ، ولم يكونوا قوماً قد صلحت لهم أمور معيشتهم ، بل بالعكس كانوا منفورين من أبيهم ، واليوم صاروا تحت رحمة يوسف الطريد المشرّد ، وانه مهما أراد أن يجري عليهم أمكنه ، حتى انه ليتمكن أن ينقص بهم عدد الأحياء ويزيد بهم عدد الأموات .

وأما يوسف عليه السلام فقد صار من رجال « البلاط » في الدولة المصرية ، ثرياً ، سرياً ، بأمر فيطاع ، عزيزاً في مصر ، وكيلاً عن مليكها . . فلهوة التي

آ(٩٠) سبب ذكر يوسف اخاه بنيامين مقرونا باسمه دون سؤال منهم ١٢١١

بينه وبينهم عميقة جداً وهم بعيدون عنه ، وهو بعيد عنهم بعد الثريا عن الثرى ،
وبعد الابريز الوهاج عن البرا (١) .

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

سبب ذكر يوسف اخاه بنيامين مقرونا باسمه دون سؤال منهم

الملحوظة الرابعة — أجابهم عن نفسه وعن أخيه ، مع انهم لم يسألوه عنه ،
لأنه كان معلوماً لهم ، لأن في ذكر أخيه بياناً لما سألوه عنه ، أو يقال : أتى بذلك
لأن بنيامين كان — طبعاً — مخلصاً في حبه له ، كما أنشد إسحاق الموصلي :

وليس أخي الا الصحيح وداده ومن هو في وصلي وقربي راغب
تقرب مني في ميولي ومذهبي وان باعدتنا في الولاء المناسب
وكما قال أبو تمام :

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة واخوة اسوة عندي وخلافي
عصابة جاورت آدابهم أدبي فهم وان فرقوا في الأرض جيرانني
أرواحنا في مكان واحد وغدت أجسامنا في عراق أو خراسان
وكما قال أبو تمام أيضاً :

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم وبلوت ما وصفوا من الأسباب
فاذا القرابة لا تقرب قاطعاً واذا المودة أقرب الأنساب

الملحوظة الخامسة — إن الذي جرّ ذكر « بنيامين » ما في اسم يوسف من
الإشارة للزيادة ، وهو رمز لتحقيق أمل والدته المرحومة الذي صدقه الواقع ،
فيكون قريباً مما يسميه علماء البلاغة « استطراداً » وهو ذكر الشيء في غير
محلّه لمناسبة .

العبر المستنبطة من هذه الآية

الملحوظة السادسة — نتعلم من هذه الآية الفائزة الجامعة — أن التقوى هي البقوى ، وهي السبب الأقوى ، وإن الصبر عواقبه الجبر والنبر ، وتتعلم منها أيضاً أن الانسان يجازى على تقواه في الدنيا والآخرة ، حيث جعل منّة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر .

يوسف نال الخطوة بأخيه بحواسه الخمس

الملحوظة السابعة — لعل يوسف قال : « وهذا أخي » ليلتذّ سمعه ولسانه — برنين لفظة « أخي » التي مضى عليها نحو ٢٢ سنة ، وهو لم يلتذ بها ، وعلى ذلك فقد كملت ليوسف الخطوة بأخيه بحواسه الخمس ، إذ رأى شخصه بعينه وشم ريحه بأنفه ، وذكر اسمه بلسانه ، ولمس جسمه بيده ، وسمع صوته بأذنه . ويمكن ان نقول ان يوسف ذكر اسم اخيه بنيامين وان لم يدخل في سؤالهم مع أنه معلوم لهم ومفهوم — لأجل أن يرتب على ذكر الاثنين التي تعمها ، وهي : « قد منّ الله علينا » معاً ، بالجمع بعد الفرقة ، والفرح بعد الحزن ، والعز بعد الذل ، والرفق بعد السقوط ، لأن كل ما حصل لأحدنا فهو للآخر ، فنحن متكافلان متضامنان في كل ما يعرض لنا .

(قالوا : أئنك لأنت يوسف .. الخ)

— ٣ —

وصعد المنبر الشيخ اليرموكي وقال :

التكليف للتصريح بكلمة « وهذا أخي »

لقد تكلم السادة الاخوان على الآية بما لم يدعوا فيه مقالاً لقائل : فأنا الفقير

الآن لا أريد أن أتكلم إلا على التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » ، إضافة لما ذكره من النكت :

أولاً — الإشارة به الى قولهم « ليوسف وأخوه أحب الى أيينا منا ونحن عصابة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ثم قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ، فيشبه أن يكون قوله : (أنا يوسف وهذا أخي) من نوع التلميح لشيء آخر ، تذكيراً لآخوته بما كان سمع منهم ، كانه يقول : (وهذا أخي) الذي كنتم قلتم عنه : (كيت كيت) ، ولم تتذكروه وتذكروه بعنوان أخوتي له الا في موضعي الحسد والانتقاد ، ولكن في مقابلة ذلك ، ها أنا ذا أذكره باسم الاخوة في موضع الافتخار به والمباهاة ، فأنا اباهي وأفاخر به ، صارخاً بين الملا : « هذا أخي » .

ثانياً — لما لم يقولوا له : (أئناك لأنك أخونا يوسف) ، بل تعارفوا عليه باسم فقط ، غير مقرون بالنسبة الاخوية المشتركة بين الطرفين — أجابهم بجواب من نوعه ، أي أنه لم يقل : (نعم ، أنا أخوكم يوسف) ، بل قال مامعناه : أنا يوسف الذي تسمونه بهذا الاسم كانه أجني عنكم ، وهذا أخي الذي انتسب اليه ، حيث هو لم يصدر منه ما يشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للآخر ، فحيث أنتم لم تذكروني باسم الاخوة ، فلا أعدم من أذكره بهذا الاسم .

ثالثاً — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) الإشارة إلى أنه إذا كان يوجد لي أخ حقيقي ، فهذا هو الأخ الحقيقي ، الذي يقوم بحقوق الاخوة ، ولم يمسي بأذى مطلقاً ، « هذا هو أخي الذي شاركني في سرائي وضرائي ، هذا هو أخي ، الذي اجتمعت نفسي ونفسي في صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها ، كما اجتمعت نفسي ونفسي في صعيد واحد من الغبطة والسرور :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك
بخلافكم في كل ذلك ، فاخوتكم لي ، اخوة اسمية فقط ، لا فائدة منها ، بل هي
مصدر ضرري ومبعث ايدائي .

وما أكثر الاخوان حين تعدم ولكنهم في النائبات قليل

رابعا — لعله أراد بقوله : (وهذا أخي) إنه الأخ الذي حرصتم على التفريق
بيني وبينه ، وعملت على بعدي عنه ، ها هو جالس بجاني ، ها هو لصيقي ، ها هو
لا يفصل بيني وبينه إلاّ مرّ النسيم ، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفتي ، ها هو
ذا يشار اليه بإشارة القريب ، ها هو بين بصرى وسمعي ، ضد ما كنتم سعيتم سابقاً
من التفريق والتباعد ، وهذا على حد ما قيل :

« أزجر المسيء بثواب المحسن » . (جيد)

قالوا : ائتك لانت يوسف

— ٤ —

ثم قام تقي الدين الدهشوري وصعد المنبر ثم قال :

الجزء يكون في الدنيا والآخرة

لي ههنا كلمة فذة : يقول يوسف عليه السلام : (فان الله لا يضيع أجر المحسنين)
وهو يريد بذلك أنه تعالى لا يضيع أجرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فنتعلم منه
أن الإنسان يجازي على أعماله في الدنيا كما في الآخرة ، وهذا يظهر لنا من آيات
كثيرة في كتاب الله تعالى :

١ — قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى من أعمال الدنيا والآخرة
﴿ مِنْ دَكْرٍ وَأُنْثَى — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وعلى الأقل
بلرضى بما قسمنا له جزاء على عمله الصالح الدنيوي ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾

في الآخرة ﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أعمالها (١٦ : ٩٧).
 ٢ — وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا﴾ من أعمال الدنيا والآخرة ،
 ﴿فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ﴾ أعماله الدنيوية والآخروية (فعلها) وهذا الجزاء
 الذي لنفسه وعلى نفسه هو في الدنيا ، وأما جزاؤه عليها في الآخرة فهو الرموز
 في قوله ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ (٤٥ : ٤٤) ، أي فيجازيكم هنا على الخير
 وعلى الشر بمثله .

٣ — وقال تعالى : ﴿قال : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فسوف نُعَذِّبُهُ ، ثم يُرَدُّ إلى ربه
 فيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فلهُ جزاءٌ الحُسنى ،
 وسنقول له مِنْ أَمْرنا يُسْرًا﴾ (١٨ : ٨٨ و ٨٩) أي فمن ظلم بتركه الواجبات
 الدنيوية والآخروية ، فسوف يعذبه ذوالقرنين في الدنيا على تركه واجباته الدنيوية ،
 ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً على تركه واجباته الآخروية ، وأما من آمن
 وعمل صالحاً من أعمال الدارين فله جزاء الجنة على أعماله الآخروية ، وسنقول له
 في الدنيا من أَمْرنا يسراً على عمله الصالح الدنيوي .

٤ — وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، في
 الدنيا والآخرة ، وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
 فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ (٣ : ٥٦ و ٥٧) ، فقوله : وعملوا الصالحات ، أي صالحات
 الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله : فيوفيهم أجورهم ، أي في الدنيا بالنسبة للأعمال
 الصالحة ، الدنيوية ، وفي الآخرة بالنسبة للأعمال الصالحة ، الآخروية ، والدليل
 على هذا المعنى ، قوله في الفريق الأول : (فأعذبه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة)
 فانه بحسب المقابلة يدل على أن معنى قوله في الفريق الثاني (فيوفيهم أجورهم) أي
 في الدنيا والآخرة .

٥ — وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كونوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ،

ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، إَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ،
 واتقوا الله ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥ : ٩ و ١٠﴾ ، فقولهُ (وعملوا الصالحات) ، أي
 مثل القيام لله ، والشهادة بالقسط ، والعدل في الحكم ، ولو مع شَنَاَنُ المحكوم له أو
 عليه ، فالصالحات تشمل صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (أجر عظيم)
 أي في الدنيا على أعمالها ، وفي الآخرة على أعمالها .

٦ — وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
 الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (١٩ : ٩٧) ، فالصالحات هي دينوية وأخروية ، والوُدُّ هُوَ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فيحدث لهم في الدنيا مودة في القلوب ، يزرعها لهم فيها من غير
 تودد منهم ، ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ، ويكتسب بها الناس مودات
 القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة ، أو غير ذلك ، وانما هو اختراع
 منه تعالى ابتداءً ، اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة ، وكذلك يجعلهم مودودين
 فِي الْآخِرَةِ ، يحببهم إلى خلقه ، بما يعرض من حسناتهم ، وينشر من ديوان أعمالهم
 ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (١٥ : ٤٧)
 والسين في « سيجعل » بالنسبة للدنيا ، لأن السورة مكية ، وكان المؤمنون حينئذٍ
 محقوتين بين الكفرة ، فوعدهم الله تعالى ذلك « الود » متى انتشر الإسلام وقوي ،
 وأما بالنسبة للآخرة ، فلأن كل آت قريب عند الله .

٧ — وقوله تعالى : ﴿ قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعِيجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ،
 وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ (٣٨ : ٢٤) فقولهُ : (وعملوا الصالحات) أي التي
 هي من قبيل الأعمال الدنيوية ، أعني عدم الظلم والتعدي ، والتباعد عن البغي
 والغصب ، فهي أعمال سلبية ، وهؤلاء هم الذين يُسْتَثْنَوْنَ مِنَ الْخُلَطَاءِ الَّذِينَ يَبْغِي

بعضهم على بعض ، وهم أيضاً الذين يوصفون بالقلّة ، وأما من يعملون الصالحات من صلاة وصوم واعتكاف وتسبيح وتهليل وإقامة أذكار وقراءة أذكار ، مع الطم والتعدي والنصب ونحوه ، فلانراهم مُسْتَثْنَيْنَ من هؤلاء الخلقاء الذين ينبغي بعضهم على بعض ، ولا نقول في شأنهم : إنهم قليلون ، بل هم كثيرون ، أكثر من الهم على القلب ! .

٨ — وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٣٨ : ٣٨) ، فقلوه : (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا ، بدليل مقابلته بقوله : (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ٩ — وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ — وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ — كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٤٧ : ٤٧) فقلوه (وعملوا الصالحات) أي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة ، وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) هو جزاء صالحات الآخرة ، وقوله (وأصلح بالهم) هو جزاء صالحات الدنيا في الدنيا ، لأن إصلاح الحال إنما يحتاج إليه في الدنيا ولا حاجة له في الجنة .

١٠ — وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفِيْ خَسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (١٠٣ : ٣) فهذا « الخسر » هو الخسران في الماديات والروحيات وهذه « الأعمال الصالحة » هي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة .

١١ — قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (٢٤ : ٥٥) فقلوه (وعملوا الصالحات) هي الأعمال الروحية والمادية ، ومنها أعداد ما استطعنا

من قوة ومن رباط الخيل ، ومنها عدم التنازع المؤدي للفشل ، وذهاب الريح ، ومنها أن نرى المؤمنين بالله يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، الى غير ذلك مما أمر الله به المسلمين ، ومما يقتضيه فن الحرب ، بحيث تُعَدّ في كل عصر ما يناسبه ، فاذا قاموا بذلك وما اليه ، صدق عليهم أنهم قد عملوا الصالحات ، التي يترتب عليها ، ترتب العلول على العلة - استخلافهم في الارض ، وتمكين دينهم لهم ، وابدالهم من بعد خوفهم أمنا .

وأما الصلاة والصوم والتهجد والتهليل والتسبيح واقامة الاذكار وقراءة الأوراد مع ترك ما تقدم من مأمورات الله تعالى ، فلا ينجم عنه شيء من هذا الذي وعدنا الله به في هذه الآية الكريمة .

١٢ - وقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ ﴾ (٣٤ : ١٣) ، قاله جل شأنه عقب ذكر الأعمال المادية الدنيوية ، كما يظهر بمراجعة سابقة .

١٣ - وقال تعالى : ﴿ إِذْنَا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴾ (١٨ : ٧) فالعمل ههنا مادي وروحي

سألني سائل : ما هي الأعمال الصالحة الدنيوية التي تدخل في هذه الآيات ؟ - فقلت له : هي كثيرة جداً : الفنون ، العلوم ، الصنائع ، معامل الدباغة ، معامل الصابون ، معامل الحرير ، معامل الأجواخ ، تشييد المدارس ، تأليف الجمعيات ، السياحة ، الهجرة في طلب العلم ، إقامة الربط في الثغور ، صنع الأساطيل الحربية ، الطيارات ، المدافع ، الدبابات ، الغواصات ، تنظيم وتعليم الجيوش ، العناية بالزراعة والغرس والتجارة ، طرق المواصلات ، ايجاد فرق استخبارات في بلاد الأجانب ، إيفاد البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون ... الخ الخ .

نقرأ القرآن الكريم فنسمع الله تعالى يقول في اهل الكتاب موعظة لنا :

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ، وما أنزل اليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ (٥ : ٦٩) ، فما هذه الاقامة للتوراة والانجيل؟ هل هي مجرد الركوع والسجود والتسبيح والتهليل ، وما الى ذلك ؟ .. كلا .. فان هذه الامور بمجرد لا يترتب عليها كثرة الزروع وغو الأشجار والثمار، وانصباب الخيرات والأرزاق ، ولكن المقصود بهذه الاقامة مع ما ذكر الاشتغال بالأعمال المادية التي تعود على امتهم بالنفع المادي الدنيوي .

نقرأ القرآن الكريم ، فنسمع الله تعالى يقول تعليماً لنا : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذّٰى كثر - أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (١١ : ١٠٥) فهل هذا « الصلاح » هو مجرد العبادات الروحية ؟ ... كلا ... ولكنه مع ما ذكر التأهل للملك الأرض ، وعمارتها ، وخدمتها ؛ واستغلالها ، واستخراج كنوزها ، ومعادنها وثمراتها ، وخيراتها ، وأخيراً القيام على حراستها وحمايتها والدفاع عنها ، هذا ما حضرني من الجواب ، والله تعالى هو العليم بالصواب .

(مرحى)

اعتراف الاخوة بالخطيئة

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثرَكَ اللهُ علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الاحدى وتسعون ، فقام جلال الدين المصري واعتلى منصة المنبر ، ونحن ننشر نص خطابه القيم الذي القاه على مجمل تفسير هذه الآية ، قال :

أيها السادة :

سبق ان دار الحديث بين يوسف واخوته ، فعرفوه - في هذه السفرة الثالثة،

كما هو قد عرفهم في السفرة الاولى - فبغتوا وأجفلوا وارتج عليهم ، وأرادوا أن ينتحلوا عذراً يتخلصون به من عقاب أخيه ، وعلى الأقل من تربيته عليهم ، فلم يجدوا ما يعتذرون به ، ولا ما يبررون به عملهم ، فلم يسعهم الا الاعتراف الصحيح والإقرار الصريح ، فتقدموا اليه والخجل ظاهر على وجوههم ، يمازجـه الذل والانكسار ، و (قالوا) بلسان واحد ، ياالخجلة . . . (تالله لقد آثرك) فضلك (الله علينا) بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ، فانت أثير الله ، وصاحب السعادة لديه من دوننا ، (وان كنا لخاطئين) ، فشأنا وحالنا أنا كنا متعمدين للآثم ، لم نتق ولم نصبر - أو يقال وان كنا لخاطئين في تصوراتنا وأفكارنا، خاطئين في أقوالنا ومفادنا ، خاطئين في أعمالنا ومشاريعنا ، خاطئين في تهوراتنا ونزقنا .

(قالوا : تالله لقد آثرك .. الخ)

— ٢ —

ثم قام مولانا عبد الحى الديماطي (١) وقال :

اعتراف اخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم

ما كاد يوسف يتم كلامه ، حتى تحققوه انه اخوهم ، وحتى تذكروا سوء فعلتهم التي فعلوا ، وحتى وفوا على ما فرط منهم ، ولعنوا تلك الفكرة التي كانوا افكروها ، والحيلة التي كانوا احتالوها ، ثم تبين لهم أن الذي أمامهم ليس هو « فوطيفار » عزيز مصر الخليع ، ولكنه أخوهم « يوسف » بن راحيل ، فسقط في أيديهم ، واستولى عليهم السكوت ، فصغرت نفوسهم ، وتزاحمت على وجوههم صفرة الوجع وحمرة الخجل فما وسعهم إلا أن يتقهقروا من أمامه قليلا قليلا ، وقد نكسوا رؤوسهم ، ثم استنصروا جلدتهم وقوتهم ، بعدما خارت قواهم وقالوا مقرظين له :

(١) دياط من البلاد المصرية .

بخ بخ ، تالله لقد قدمك الله علينا نحن العصابة ، فصار المأموم إماماً ، والتابع متبوعاً ، والمأمور آمراً ، والأول أخيراً ، والأخير أولاً ، والسيد مسوداً ، والمسود سيداً ، اجتباك الله علينا بتعليم الأحاديث ، بإتمام النعمة ، بتمكينك في الأرض ، تتبوا منها حيث تشاء ، باصابة الله إياك برحمته بإتيانك منه علماً وحكماً ، بجعله إياك من عباده الخالصين ، باسناد وزارة المالية المصرية لعهدتك ، بجعله إياك عزيز الديار المصرية ، بالتقوى والصبر ، بسجود الكواكب ، وأخيراً بالنبوة والرسالة . وأما نحن ، وإن كنا لخاطئين ، فمثلنا من يهفو ، ومثلك من يعفو ، ها نحن أولاً قد أقررنا بذنوبنا ، وشفيع المذنب اقراره ، ونحن لا بد لنا من أن نعتزف لك بالخطأ حتى لا نكون قد خطئنا إليك خطأ آخر ، نحن علاظ أكباد ، قساة قلوب ، فمعدرة إلى الله واليك ، وإن لكل صارم نبوة ، ولكل عالم هفوة ، فأغض عن خطائنا ، وأذن لحلمك أن يسع جهلنا :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلاق

ولعمرنا إن نهايتنا لمحزنة أليمة ، إلا أن وجدنا لنا في بعض زوايا قلبك مكاناً للرحمة بنا ، والإشفاق علينا ، ملكت فأستجرح ، قدرت علينا فأرفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدة ، وإن الذي جرأنا على ما صنعتنا ، هو الذي أخرج أبويننا من الجنة ، وأنساها العهد ، وهذا مقام العائذين بك ، أيها الأخ ، فاغسل عنا الحوبة (١) بالتوبة ، واعفر ما فرط منا في تلك النبوة :

وهبنا أسأنا نحو شخصك عامداً فغفواً جميلاً كي يكون لك الفضل
فإن لم تكن للعفو عندك بالذي آتينا به — أهلاً ، فأنت له أهل

هذا مرمى كلامهم ، وأما نحن فنقول : « صح النوم يا أسيادي ! . . » وصدق من قال : « أول الغضب جنون ، وآخره ندامة » ، ولكن « بعد خراب البصرة » .

ولو تراه إذ تمثلوا بين يدي أخيه . . . ولو تراه إذ خفضوا رؤوسهم خائفين . . . ولو تراه إذ تصيبوا عرقاً . . . ولو تراه إذ غشيت وجوههم غمامة من الاستكانة . . . ولو تراه واقفين على مثل نار القضا . . . ولو تراه تنتابهم الأفكار المتضاربة . . . وتتقاذفهم الهواجس المتناقضة . . . يترأخون بين خوف ورجاء . . . ويترجحون بين معاقبة وغفران — نعم لو تراه بهذه الأحوال ، لترى مشهداً رهيباً ، وأمرأً عصيباً ، كيف لا . . . وإذ ذلك اليوم الذي دخلوا فيه على « يوسف » ، يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، يتمجد اسم الله !!! ! ! يتبارك اسم الله !!! ! ! ، كانوا ائتمروا على قتل أخيه ، فصاروا اليوم بين يديه ، ﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ : ٢١) . (جيد)

قالوا : تالله ، لقد آثرك . . . الخ

— ٣ —

وقال نجم الدين الشرقاوي (١)

عندي على هذه الآية المواد التالية :

وجوب الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران

المادة ١ — نتعلم من هذه الآية ، أنه ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته ، ويطلب المغفرة ممن أساءه ، ولو أصغر منه سنأً ، كما وقع من اخوة يوسف عليه السلام ، وحينئذ ينبغي للمساء إليه أن يغفر للمسيء ، كما وقع من يوسف معهم ، حسبما نتعلمه من (ع ٩٢) .

المادة ٢ — أقروا بذنوبهم ، ورجعوا الى صوابهم ، واستقبحوا عملهم ، ومسخطوا على أنفسهم ، وأعلنوا فظاعة ما أجروه ، ونحن لانرتاب في أن يوسف

(١) نسبة الى منطقة الشرقية بمصر .

عليه السلام قبل منهم هذا كله ، لأن العبد إنما يحاسب الناس بحسب ظواهرهم ، ولكن هل يعتبر هذا القول منهم توبة نصوحاً بالنسبة لله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، بحيث ينالون بها من الله الغفران ؟ . .

ورب قائل يقول : (إنهم أرادوا بذلك التوصل الى استئصال عفو أخيه عنهم ، والتعرض لغفرته لهم) .

وربما يقول آخر : (إن القوم ندموا وأسفوا على ما فرط منهم ظاهراً وباطناً وأخلصوا لله التوبة) وهذا هو الأقرب ، بدليل تسميتهم «كواكب» ، لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بعد هذه التوبة والآوبة ، ففي أي وقت يكونون كذلك ؟ نعم نعم ، انهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة ، وصار كل واحد منهم كُسَعِيًّا يصرخ :

ندمت ندامة لو أن نفسي	تطاوعني إذا لقطعت خمسي
تبين لي سَفَاهَ الرأي مني	لعمري أنك حين كسرت قوسي

مقابلة بين خاتمة اخوة يوسف وبين ما ذكره الانجيل من خاتمة بطرس لتلميذ المسيح

المادة ٣ — قولهم . « تالله لقد اترك .. الخ » ، من هذا ومن دعاء أخيه يوسف لهم بقوله : ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ، ومن قولهم لأبيهم . « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » ، وقول أبيهم لهم : « سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم » — من مجموع هذه المكالمات المتبادلة ، بين يوسف واخوته وبينهم وبين أبيهم ، نعلم إن خاتمة أمرهم كانت حسنة ، لأن هذه المخاطبات جاءت أخيراً ، ومتأخرة عن أعمال اخوته الفاسدة وأقوالهم الكاذبة ، ومواعيدهم الخلفة ، فكل هذه نسخت بتوبتهم الأخيرة ، وحسن حالهم مع الله وأبيهم وأخيهم ولا شك أن المدار على الخواتيم ؛

وهذا (والشيء بالشيء يذكر) ضد ما حصل لبطرس الذي طرده المسيح (ع) ومماه شيطاناً ، ثم بطرس أنكر المسيح ثلاث مرات ، وهذا هو كذب صريح وبمثابة ردة ، وكان كل هذا في آخر أمره ، بعدما كان معتمده ورأس تلاميذه ، وفي الانجيل أنه قال له : « وأنا أقول لك أيضاً ، أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة إبنى كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض ، يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحمله على الأرض ، يكون محلولاً في السموات » (مت ١٦ : ١٨) قال متى : « حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد : انه يسوع المسيح ، من ذلك الوقت ابتداء يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغي أن يذهب إلى اورشليم ويتألم كثير آمن الشيوخ ورؤساء الكهنة والكهنة ويقتل ، وفي اليوم الثالث يقوم ، فأخذه بطرس اليه وابتداء ينتهره قائلاً : ﴿ حشاك يارب ، لا يكون لك هذا ﴾ — فالتفت وقال لبطرس : ﴿ اذهب عني يا شيطان ، أنت معثرة لي ، لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس ﴾ (مت ١٦ : ٢٠ — ٢٣) ، ثم قال « متى » : ﴿ أما بطرس فكان جالساً خارجاً في الدار ، فجاءت اليه جارية قائلة : ﴿ وأنت كنت مع يسوع الجليلي — فأنكر قدام الجميع ، قائلاً : « لست أدري ما تقولين » ، ثم إذ خرج الى الدهليز ، رآته أخرى فقالت للذين هناك : « وهذا كان مع يسوع الناصري » — فأنكر أيضاً بقسم « إني لست أعرف الرجل » ، وبعد قليل جاء القيامة وقالوا لبطرس : « حقاً أنت منهم فان لغتك تظهرك » — فابتداء حينئذ يلعن ويحلف اني لا أعرف الرجل » (مت ٢٦ : ٦٩ — ٧٤) فهذا اللقب الذي لقب به المسيح بطرس ، وهذه الشهادة بانه معثرة وانه لا يهتم بما لله ، لكن بما للناس ، وهذا الكذب والانكار الذي صدر من بطرس لإلهه المسيح ، مع اللعن — كل هذه الامور كان على رواية « متى » بعد تلك المنحة والخصوصية التي خصه بها ، فهو ما صار لبطرس في آخرة

آ (٩١) الفرق بين لفظي الخاطي والمخطي ، واخوة يوسف كانوا خاطئين ١٢٢٥

أمره ، مخالفه لحال اخوة يوسف ، والعبرة بالخواتيم ، هذا على رواية « متى » ، ولكن نحن نجل حوارى المسيح عن ذلك وعن أقل منه ، ولا نؤمن بهذه الرواية التي تحط من قدر بطرس القديس .

الفرق بين لفظي الخاطي والمخطي ، واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين

المادة ٤ — من الناس من يقدم على الفعل السيئة ، تارة « باجتهاد » وتأويل ، بحيث يكون غير خاشع بما عمل عقاباً من الله ، ولا توبيخاً من الضمير ، وتارة « بالغلط » وعدم معرفة أن هذا الفعل حرام ، فصاحب هذا العمل — في الحالين — لا يعاقب ، وعلامة هذا النوع ، انه يفعل الفعل ، وهو راض عن نفسه ، مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « مخطي » ، ومن الناس من يعمل عمل السوء ، وهو عالم انه سوء ، وان الاقدام عليه غير جائز ، لافي حكم الله ، ولا في حكم الضمير ، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ما عمل ، مامن ذلك بد ، إن لم يعقبه بتوبة ، وعلامة هذا النوع انه يعمل العمل ، وهو غير راض عن نفسه ، ولا مستريح لعمله ، ويقال لصاحب هذا العمل « خاطي » .

فاذا تقرر هذا فأولاد يعقوب عليه السلام كانوا من قبيل هذا النوع ، ولذلك تراهم أقروا واعترفوا أمام أخيههم ، ثم أمام أبيهم بانهم كانوا « خاطئين » ، وهذا يدلنا على أن العلة التي كانوا توسلوا بها لقتل يوسف أو طرحه أرضاً ، أو القائه في غيابة الحب ، وهي كونه أحب لأبيهم منهم — كانت علة غير حقيقية ، حتى في نظرهم ، وانهم كانوا غير مقتنعين بها ، لأنها صورية فقط ، إذ العلة الحقيقية هي الحسد والغيرة والغيظ والآثرة .

آيتا الاستغفار

المادة ٥ — قال عبد الله بن مسعود : في كتاب الله ، آيتان ، مأصاب عبد ذنباً

فققرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له :

الاولى — قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، ذَكَرُوا اللَّهَ ، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ — وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٥ : ٣) ،
والثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٠٩ : ٤) .

عدم تماذي الاخوة في انكار المحسوس

المادة ٦ — لم يتادوا في إنكار المحسوس ، ولم يشابروا على رد الحقائق ، ولم يحوجوا من يخاطبهم بهذا الخطاب أن يثبت أنه « يوسف » ! ! ! ، وأنه حتى اليوم « حيّ يرزق » ، لم يأكله الذئب ، ولم يفترسه الوحش .!!!

فنحن في مقابلة تساهلهم هذا ، لا يسعنا إلاّ تقديم واجبات الشكر لما أبدوه من هذا اللطف مع أخيه ، والتسامح والتساهل ، وإلاّ كان لهم أن ينكروا على هذا الذي يخاطبهم — دعواه أنه « يوسف » ويكلفوه أن يثبت تلك الدعوى في محكمة مصر العليا .!!!... إذ يمكنهم أن يقولوا له : نحن أثبتنا موت « يوسف » بنه يعقوب قديماً من ٢١ سنة ، فان بعضنا ادعى ذلك ، والبعض الآخر شهد عليه ، ببلده شهادة « القميص » ، ونحن والقميص أصدق منك أيها المتكلم المدعي النسب فينا ، فان كنت تريد إثبات انك يوسف بن يعقوب ، فعليك بنقض الحكم الصادر عليك بالموت ، وإثبات انك حتى اليوم « حيّ يرزق » ..!!

الحي الميت

الشيء بالشيء يذكر — قرأت في بعض الصحف انه ما زال يوجد « قانون » قديم في المانيا ، يقضي بأن الشخص اذا اعتبر خطأ ميتاً في ورقة رسمية ، وهو

لا يزال على قيد الحياة ، فعليه أن يراجع السلطات ، في مدة ستة أسابيع ، من وقوع ذلك الخطأ ، فاذا انقضت المدة ولم يفعل ، يبقى في نظر « القانون » ميتاً الى الأبد . وقد حدث أن بحاراً المانيا يسمى « فوتكا » اعتبرته السلطة ميتاً وهو ما يزال حياً ، ولكنه لم يطلب تصحيح هذا الخطأ في المهلة المعينة ، ومن أجل ذلك ما يزال حتى اليوم يطالب بتركته التي وزعت على ورثته ، وقد بذل بعد انتهاء « الحرب العالمية » جهداً عظيماً ، لكي يعود الى الحياة في نظر القانون ، ولكنه لم ينجح ، قال بعض الظرفاء : إن « فوتكا » لم تبق أمامه وسيلة لاثبات حياته سوى أن يقتل انساناً آخر ، ومن الطبيعي ان الميت لا يقتل حياً ، غير أنه يخشى في هذه الحالة أن لا يتمتع طويلاً بحياته الجديدة .

هذا ولكن « يوسف » الصديق رأى أمامه وسيلة لاثبات حياته في نظر إخوته ، وأنه هو يوسف العبراني بن يعقوب - هي الإتيان بهم وأهلهم أجمعين ، ليعيشوا عنده بمصر ، فبدلاً من أن يقتل واحداً منهم ، أراد أن يحييهم جميعاً .

توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز

المادة ٧ — نعلم من هذه السورة انه كان ليوسف « أعداء » في فلسطين هم « اخوته » ، كانوا أذنبوا اليه ، وتعدوا عليه ، ثم تابوا بين يديه ، ولكن بعد خراب البصرة ، أو كما قال الشاعر :

« ولكن جئت في الزمن الأخير »

كما نعلم أيضاً مما سبق أنه كان ليوسف « عدوة » لدودة « بمصر » هي « زليخا » كانت اتهمته وتعدت عليه ، وأرادت تدنيسه ، ثم بعده تابت ، ولكن في آخر نفس من أنفاسها ، فتوبة هؤلاء وتوبه هذه ، ان كانت معتبرة ، لكنها منحطة ، وفي آخر درجات التوبة ، كيف لا .. وانما كانت توبة زليخا بعد ما تخلص يوسف منها وخرج من قصرها ، وتخلص من نفوذها ، وأصبح في بلاط الحكومة ، وهي قد كبرت ،

وهو قارب سن الشيخوخة ، وذبل ورد وجتته ، وجف ماء شبابه ، وكذلك اخوة يوسف إنما كانت توبتهم بعد أن رأوا أنفسهم عبيداً بين يدي أخيهم واقفين ناكسي رؤوسهم ، وهو صاحب الحول والطول ، وذو العمل والصول ، وهم عزل من أقل من ذلك .

مقابلة بين اقوال اخوة يوسف السابقة واقوالهم الحالية

المادة ٨ — هم « قالوا : تالله لقد آثر الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » ، وهذا حقيقة راهنة ، فإني لم أسمع لهؤلاء الاخوة « قولاً » لا أقدر أن أتنقده سوى هذا القول ، إنهم أولاً كانوا قالوا : « ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » (ع ٨) ، وللسماع أن ينتقد فكرهم هذا من وجوه ، منها ان « يوسف » كان عمره في ذلك الوقت (على اطول الروايات) ١٧ سنة ، وكان عمر « بنيامين » إذ ذاك ٧ سنين ، وأما هؤلاء الاخوة ، فكان أكبرهم وهو « رأوين » لا يقل في داء التاريخ عن ٣٠ سنة ، وكان أصغرهم وهو « زبولون » لا يقل في ذلك التاريخ عن ١٨ سنة ، ولعمري إن حسد الكبير للصغير وغيرته منه لهما من الغرابة بمكان .

وانهم ثانياً — قالوا : « ونحن عصبة » أصلحهم الله ، أما كان الأولى بهم أن يعملوا بأنهم أطوع لأبيهم أو أنهم أحسن حالاً من أخيهم ؟

وانهم ثالثاً — كانوا قالوا : « إن أبانا لفي ضلال مبين » ، ونحن نقول : إن من يضلون أباهم هم لا غيرهم في الضلال المبين .

وانهم رابعاً — كانوا قالوا : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ، ينخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » (ع ٩) ، أصلحهم الله ! كان الخروج من هذا الكرب والمأزق الحرج الذي تصوره ليس منه مناص بسوى « القتل » ؟!

سبحان الله ! أما كان يكفي أن يتكلموا في هذا الشأن مع والدم بلطف ، ويتفاهموا معه بالحسنى ؟ وأيضاً أما كان الأخرى بهم أن يحسنوا حالهم في أنفسهم ومع أبيهم ، حتى يصير محباً لهم كأخيه ؟ ثم كيف ساع لهم أن يتصوروا أن « قتل » يوسف ينشأ عنه خلو وجه أبيهم لهم ، مع ان العقل يقتضي ضد ذلك ؟ ثم ما هذا الصلاح الذي سيصرون اليه ؟ مع ان كل انسان ذي احساس ، متى تذكر انه فعل فعلاً سيئاً مع اخيه ، لا سيما بدون ذنب منه ، فلا ريب أن عيشته تكون غير صالحة ، لأن ضميره دائماً يوبخه على ما فعل .

وخامساً — سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ؟ ﴾ (ع ١١) ولعمري ان هذا القول لما يوجب الخوف ، وبوقظ الغافل عن كراحتهم لأخيه .
وسادساً — سمعناهم يقولون ﴿ لئن أكله الذئب ، ونحن عصبية ، إنا إذا لخاسرون ﴾ (ع ١٤) سبحان الله ! أما كان الأولى بهم أل يضعوا ثقتهم بالله ، ويحصرُوا اتكالهم على الله ، ويعتصموا بحمايته تعالى ؟! ..

وسابعاً — سمعناهم يقولون ﴿ إنا ذهبنا لتبقي ، وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ (ع ١٧) سبحان الله ! أرادوا أن يعتذروا فصرحوا بقصورهم في حفظهم لأخيه ، لأنهم لم يأخذوه ليكون حارساً لأمتعتهم ، ولكن ايكون معهم حين الاستباق ، وبذلك يتوجه عليهم اللوم ، وتقوم عليهم الحجة .

وثامناً — رأيناهم جاءوا بقميصه ملوناً بالدم ، ما شاء الله ، ما أعمق هذه الاستدلالات القيمة ؟! كأن « الدم » في هذا الكون لا يكون إلا من جسد يوسف عليه السلام ؟! ..

تاسعاً — سمعناهم يقولون : ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ (ع ٦٣) براعة استهلاك لطيفة ابتدأوها بلفظ « المنع » ، مع ان المقام مقام طلب ، أما كان يجدر

بهم أن يستهلوا كلامهم مع أبيهم ببشرائه بملاطفة « عزيز مصر » لهم ، ثم يذكرون له حرص « العزيز » على رؤية أخيه والآن فلا كيل لهم !!

وعاشراً — سمعناهم يقولون : ﴿ جزأوه من وجد في رحله فهو جزأوه ﴾ (ع ٧٥) ، وكان الأوفق بحال أخيه بنيامين أن يحيلوا الحكم فيه للقانون المصري ، لأنه أخف عليه ، ولأنه كان يمكن لهم أن يقولوا : إن الجريمة وقعت في المملكة المصرية فلنرجع للقانون المصري ، محافظة على شرف وسلطان مصر .

والحادي عشر — سمعناهم يقولون : ﴿ نخذ أحداً مكانه ﴾ (ع ٧٨) وفي هذا رجوع منهم عن الشريعتين ، الشريعة الابراهيمية ، والشريعة المصرية ، فلم يحترموا الأولى لأنها شريعة جدتهم ، ولم يحترموا شريعة مصر ، مع أن الجريمة وقعت فيها .

والثاني عشر — سمعناهم يقولون : ﴿ وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ (ع ٨٨) والاستجداء لا يليق بأولاد الأنبياء ، لاسيما إذا كانوا فتياناً وكهولاً ، زعماء ثورات ورجال حركات .

مقابلة بين تفكير الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن

المادة ٩ — رأوا انفسهم اليوم في ضيق من « يوسف » أعظم من ضيقهم منه منذ ٢٢ سنة ، فقد كانوا حسدوه رغماً عن انه كان غلاماً ، ولكن لماذا ياترى حسدوه ؟ حسدوه لعله صبيانية ، هي زيادة محبة أبيه له ، حسدوه فأرادوا ازالته من الطريق ، ايجلو لهم وجه أبيهم ، هذه حادثتهم قبل ٢٢ سنة ، ولكن اليوم ما عساهم ان يصنعوا ياترى ؟ وقد توفرت اسباب الحسد الجوهرية ، توفرت دواعي الحسد الذي عهد أن يكون بين الرجال على امور ذات شأن ، فما هي المكيدة التي عساهم اليوم ان يكيدوا له بها كيدا ... هل في وسعهم هذه المرة ، أن يزيلوا

« يوسف » من الطريق ليخلوا لهم وجه مليك مصر « الريان » ؟ ... هذا أمر يصير عليهم اليوم ، لأن مليك مصر لا يعرفهم ، ولأن يوسف اليوم ليس غلاماً ابن ١٧ سنة ، حتى يستولوا عليه ، بل هو اليوم رجل ابن ٣٩ سنة ، ومن أين لهم اليوم « مرتع وملعب وميدان استباق ؟ » ومن أين لهم وحش وقميص ملون ، ودم تيس من المعزى ؟ ومن أين لهم جب ؟ حتى يقدرُوا أن يمدوا شبكة حيلهم ، كما مدوها بالأمس ، فالיום غير الأمس ، و « العزيز » غير الذليل ، ووزير المالية غير السوقة وابن الشارع ، فمن هذا كله نرى أنهم وقعوا في « حيص بيص » ، وأنهم قد أخذوا بحلاقيمتهم ، ولم يجدوا أمامهم سوى تغيير أفكارهم العتيقة بالمرّة ، والاعتراف بخطئهم ، والاستسلام لأخيهم ، والالتجاء لرحمته ، فلذلك طرأ لهم هذا « التغيير الفجائي » ، وسبحان من يغير ولا يتغير ... !

كان لهم في حياة يوسف الجديدة ، موت جديد ، وفي عزه ذلهم ، وفي ارتقائه سقوطهم !!! ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتَعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٦: ٣) (قالون)

شفيع المذنب اقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) ﴿ قَالَ : لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والتسعون فقام نور الدين الانبائي^(١) واعتلى منصة المنبر وقال محاضرته القيمة التي ننقلها اليكم بقسميها الجمل والمفصل : (قال) يوسف لاخوته : (لا تثرىب عليكم اليوم) ولا تأنيب ولا عتب ، بل

(١) نسبة الى انبابة من البلاد المصرية

أطلب لكم المغفرة صارخاً الى السماء (يغفر الله لكم) ما فرط منكم ويحتمل أن قوله (يغفر الله لكم) دعاء ، و«رب اشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره» (وهو) سبحانه وتعالى (أرحم الراحمين) ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ، فانها وسعت كل شيء .

(قال : لا تثريب عليكم اليوم ... الخ)

— ٢ —

وتابع السيد نور الدين الانبائي كلامه قائلاً :

يوسف يعفو عن اخوته ويطلب لهم المغفرة

إن يوسف عليه السلام تأمل في الحالة السابقة بينه وبين إخوته فقال في نفسه :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المذهب ؟
ففضل العفو عنهم ، وقال لهم : لا موجدة منذ اليوم في قلبي نحوكم ولا ورة بيني وبينكم ، ومن حق الصديق والقريب أن يتحملاً ثلاثاً ، ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة ، وأنتم ما خرجتم عن انكم سكان بيوت من طين ، تماسكت أجزاءها بالماء ولعل الله قد أتى بي ههنا لأجل أن تحيوا ، وتحيا عائلة اسرائيل وأنتم إن كنتم أخطأتم فما أخطأ القدر :

والناس يلحون الطيب وإنما غلط الطيب إصابة الأقدار
وحيث حملتم شهادة التوبة بيدكم ، وبما ان شفيع المذنب اقراره فلا تثريب عليكم اليوم ، فالإنسان يصيب ويخطيء ، ويسرع ويبطيء الإنسان من ماء وطين ، وليس من الملائكة العليين ، وان لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، والكمال لله والعصمة لانبياؤه ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ،

لا تثريب عليكم اليوم ، فبعد اعترافكم بالخطأ ، وانا بكم الى الله ، لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم ، وعواطف مائتة .

يا من عدى ثم اعتدى ثم اعترف ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته « إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف »

لا تثريب عليكم اليوم ، إني قد وهبتكم لأبيكم وعيالكم ، وإني مستعد لمسامحتكم ألف مرة ، لو قدر أن يحني على ألف جنائية .

لا تثريب عليكم اليوم ، فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها ، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرها ، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال ، ونتحامى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم .

لا تثريب عليكم اليوم ، فأنا لست عدو اخوتي ، ولكني عدو تقطيع الأرحام ، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطأ ، أرى أن من واجبي عدم لومكم وتأنيبكم ، فلا تفذكروا فيما كان بيني وبينكم من الإلحاح ، فقد جعلتها دبر اذني وتحت قدمي ، فلا آخذ بها عليكم اليوم ، لان خطيئكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم .

لا تثريب عليكم ، لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التي ساعدت على ارتقائي لهذا المنصب العالي وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة ، لكن حركتكم معي أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري ، حادثة ارتقائي على عرش الملك .

لا تثريب عليكم اليوم ، بل عفوت عنكم عفواً لا يخلطه تثريب ، ولا يكدر صفوه تأنيب ، لي ولكم رب اسمه « الغفار » واسمه « الرحمن الرحيم » .

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، ورحمة الله أوسع من أن تضيق بكم ،
فإنها وسعت كل شيء ، غفرت لكم قولكم : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً »
غفرت لكم قولكم : « القوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة » ، غفرت لكم
قولكم : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، غفرت لكم كل مالقيته بسبب
كيدكم لي ..

يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فالفو من شيم الكرام ، بل هو من
أصول الدين الأساسية ، ومن الأخلاق الفاضلة ، واني لحري بالتمشي عليه مع
كل الناس ، لاسيما معكم أنتم أيها الاخوة :
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

أ أكبر الأوزار في أصغر عفو الله أصغر (١)

أما هم فلما سمعوا ذلك ، لاحظك الله محلهم ، فانهم خجلوا خجلاً عظيماً ،
ولا بدع فان يوم العدل على الظالم ، شر من يوم الجور على المظلوم ، ولكنهم فيما بعد
امتنارت ظلمة قلوبهم ، وأنست وحشة نفوسهم ، وسكتوا كأن على رؤوسهم
الطير ، ولم يبدوا حراكاً ، ولعمري إن يوسف لم يبعد في الاحسان ، ولا تجاوز
مزاياه الحميدة ، فهو منبع الكرم ، ومصدر معاني الشيم .

(قال : لا تثريب عليكم اليوم ... الخ)

— ٣ —

وقال شمس الدين الجيزاوي:

عندي على هذه الآية المواد الآتية :

معنى التثريب

المادة ١ — معنى « لا تثريب عليكم » لا تأنيب ولا عتب عليكم ، وأصل التثريب

من الثرب ، وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب ، كما ان التجليد إزالة الجلد ، والتأثيم إزالة الإثم ، سمع من بعضهم : « اللهم أثنني » أي أبعاد عني الإثم ، فالتشديد للسلب « فاذا ذهب الثرب كان ذلك غاية الهزال والعجز الذي ليس بعده ، ويقال للتثريب تقريع ، وأصله إزالة القرع من الرأس باستعمال دواءه ، فضرب مثلاً للتقريع أي التثريب والتأنيب الذي يمزق الأعراض ، ويذهب بماء الوجوه ، والتعير والتعنيف درجات ، أقواها التثريب فالتأنيب فالتوبيخ فالتقريع فاللوم فالمعاقبة (١).

وثرَبَ وَثَرْدَ قريبان ، لأن أصل التثريب إضعاف الشيء ، أي جعله ضعيفاً ، وتثريد الخبز : تكسيه ، وفي صحيح البخاري : ﴿ إِذَا زَانَتْ الْأُمَةُ فُتِين زَنَاهَا ، فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يَثْرِبْ ﴾ وفسره الشراح بالتعير والاستقصاء في اللوم .

متعلق كلمة « اليوم »

المادة ٢ — كلمة « اليوم » متعلقة بالتثريب أو بالمقدر في « عليكم » من معنى الاستقرار ، أو متعلقة « يغفر » ، والمعنى على الأول : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الايام ، ثم ابتداء فقال « يغفر الله لكم » فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم ، يقال : غفر الله لك ويغفر الله لك ، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً ، ومنه قول المشيت : « يرحمكم الله » وقول العاطس : « يصلح الله بالكم ».

والمعنى على الثاني : ان « يغفر الله لكم » بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم ، وعلى هذا الثاني فمعنى قول يوسف « يغفر الله لكم » مغفرة ما يرجع الى حقه وحق ربه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركاً

بين الثلاثة ، ومعنى قولهم فيما يأتي : « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا » مغفرة ما يتعلق بحقه وحق ربه دون حق ولده ، لانه تنازل عنه سابقاً ، أو مقصودهم تكرار طلب المغفرة من الله بلسان أبيهم ، كما حصل بلسان أخيه .

المشابهون ليوسف في عهد الاخير مع اخوته

المادة ٣ — كما عامل يوسف اخوته عامل النبي ﷺ قريشاً وأهل مكة ، فانه يوم أن فتحها وقف على باب الكعبة ، والناس وقوف صامتون ، كأن على رؤوسهم الطير ، خبط فيهم خطبة طويلة ، ثم قال : « ماذا تقولون ، وماذا تظنون أني فاعل بكم ؟ » — قالوا : « خيراً . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت » فقال : أقول كما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فقد مشى كل من هذين النبيين الكريمين على قاعدة « قد ملكت فأستجيب » .

وثبت في التاريخ أن « المأمون » قال هذه الكلمة اليوسفية « لابراهيم بن المهدي » فان ابراهيم بن المهدي كان خرج على المأمون طالباً للخلافة فطلبه المأمون وأحضر بين يديه ، فقال له ابراهيم : « ياأمير المؤمنين ، العفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك » — قال : « بل أعفو يا ابراهيم ، وأقول ما قال يوسف لـ اخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

قال « المُقَنَّن » الكندي ، وكأنا نظمها تصويراً لحال يوسف مع إخوته :

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لـ مختلف جداً
أراهم إلى نصري بطاءً ، وإن هم	دعوني إلى نصر ، أتيتهم شديداً
وإن أكلوا لحمي . وفرت لحومهم	وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

آ (٩٢) الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار لأخوته بخلاف إيهيم ١٢٣٧

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هو واغبي هويت لهم رشدًا
وان زجروا طيراً بنحس يمرّ بي زجرت لهم طيراً يمرّ بهم سعدًا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدًا
لهم جلّ مالي ان تتابع لي غني وان قلّ مالي لم أكلفهم رفدًا
وإني لعبد الضيف مادام نازلًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدًا

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : « ان رجلاً قال يارسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن اليهم ويسيثروني ، وأحلم عنهم ويجهلون علي » — فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل » (١) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » ، وعن أنس بن مالك ، « ان يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها فجفي بها ، فقيل : ألا نقتلها ؟ » — قال : « لا » ، رواه البخاري في صحيحه .

« وحكي أنه بينما قيس بن عاصم ذات يوم في داره ، إذ جاءته خادمة له بسفود عليه شواء حار ، ففرغت السفود من اللحم والفته خلف ظهرها ، فوقع على ابن له فقتله ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روع عليك ، أنت حرة لوجه الله ! » .

الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار لأخوته بخلاف إيهيم

المادة ٤ — تعليقاً على قوله « يغفر الله لكم » : هم لم يقولوا لأخيهيم : استغفر لنا ذنوبنا ، كما سيأتي أن يقولوا لأيهيم ، ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله ، قبل أن يطلبوا منه ذلك ، وأما أبوهم فع كونهم ابتدأوا وطلبوا منه استغفاره لهم ذنوبهم ، فلم يسادر بطلبهم ، وانما وعدهم بها وعداً مؤجلاً فما الحكمة ياترى في ذلك ؟

(١) اي كأنما تطعمهم الرماد الحار

والجواب عليه من وجوه :

الوجه الأول — معلوم عند العموم أن قلب الوالد سريع الانعطاف ، وأنه محب لخير بنيه بالطبع ، لأنهم معها كانوا فهم أفلاذ كبده ، فلذلك لم يحتج أن يبرهن على ذلك بنحو مبادرته بالاستغفار لهم ، بل آخر ذلك لأمر ما ، ربما يكون فيه خير لأولاده ، بخلاف يوسف ، فهو أخ ، لا أب ، ولذلك احتاج أن يبرهن لهم على حنانه وعطفه عليهم بسرعة استغفاره لهم ، حتى بدون طلب منهم ، فابوهم لم يكن أقل مغفرة لهم ، وعطفاً من أخيه عليهم ، بل هو أكثر مغفرة ورحمة ولكن اختلف الحال ، لما بيناه في جواب السؤال .

الوجه الثاني — وهو أنه أمسك عن توبيخهم ، وغفر لهم ، وأراد أن يجازي سيئتهم بالحسنة ، فرغب اليهم أن يأتوا باهلهم ليعولهم ، وأعطاهم من نفسه هذا الكرم ، لأنه يرى نفسه حاكماً ، وهم محكومون ، وأميراً ، وهم مأمورون ، وعزيراً بمصر ، وهم أدلاء ، ومن رجال البلاط ، وهم سوقة ، ووزير ماليه ، وهم فقراء يائسون ، وقوياً ، وهم ضعفاء ، وكان يراهم أصغر في عينيه من أن يأخذهم بذنب ، أو يعتد عليهم بسيئة ، وإن هذه النظرة العذبة ، التي أصبح ينظر بها اليهم ، إنما هي نظرة الرقيق ، التي يلقيها على البائس الضعيف ، الذي يستحق العطف والرحمة ، شأن أصحاب المراتب العالية ، من أرباب الحكومة ، مع أفراد الرعايا ، وقد قيل : « إن الحكم والعفو في الحكم ، من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم » فهذا ما حدا بيوسف عليه السلام أن يبادرهم برفع التوبيخ عنهم ، والاستغفار لهم ، وهذا بخلاف أبيهم عليه السلام ، فإنه ليس من أصحاب المناصب الدنيوية ، بل هو لا يزال من الناس المحكومين ، الذين لا يرون لأنفسهم على غيرهم ما يراه أهل الدنيا من الرفعة والعظمة .

الوجه الثالث — وهو أن يوسف رغماً عن أنه وزير مالية وعزيز مصر ووكيل

مليکها ، فهو لا يزال يتحسس بالخوف من اخوته ، ومن افسادهم عليه حاله ،
والمقروض يخاف من جرة الحبل ، لا سيما وهم اخوته ، فطعنهم فيه أقرب للتصديق
من طعن الاجانب فلذلك بادر بطمأننتهم بعدم تربيهم ، وبالدعاء لهم بالمغفرة ، وبالرغبة
اليهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، يستصلح بذلك قلوبهم ، ويجعل به بينهم وبين ضررهم
إياه سداً منيعاً ، ولما كان هذا المعنى غير موجود في أيهم ، لم يحتج الى شيء من هذا
القبيل ، بل رغماً عن كونهم تقدموا اليه في استغفار ذنوبهم ، فقد رأينا آخر
الاستغفار لهم ، الى وقت أو مكان أو حال ، ربما يكون الدعاء فيه أقرب للجابة .

الوجه الرابع — افكر يوسف عليه السلام في نفسه أنه ليس بين المتشفي
المصر على النعمة ، وبين المظلوم الجبار المستبد ، إلا ستر رقيق وحجاب ضئيل ،
ففضل أن يعفو عن اخوته ، ولا يثربهم ، بل فضل أن يغفر لهم ، لا سيما وان
التجاوز عن أمثالهم من أهل العناصر الطيبة يفيد في حسن حالهم ، كما ان المغفرة
لذوي الخسة والدناءة تزيدهم تعدياً وطغياناً ، فقد قيل : « إن العفو يفسد من اللئيم
بقدر ما يصلح الكريم » وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك فلم تغفر له فلك الذنب

قيل : لما أتي إبراهيم بن المهدي الى المأمون شاور وزيره في قتله ، فقال له -
وزيره : « إن قتلته ، فلك نظراء ، وان عفوت عنه ، كنت الرجل الوحيد »
فعفى عنه .

العفو أشد أنواع الانتقام

الوجه الخامس — وهو ان العفو اشد انواع الانتقام ، وهو مرارة ساعة .

ثم السعادة الى الأبد ، والانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذي لا يَفنى ، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن اخوته ، ويصفح الصفح الجميل ، فقال بشفته وقلبه : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » ، وهو حقيق بذلك كله ، لأن المقدرة تذهب الحفيظة ، ولعمري لقد جاء عفوهم عنهم تركية لا انتصاره عليهم .

أرحم الراحمين

المادة ٥ — تعليقاً على قوله : « وهو أرحم الراحمين » قال ﷺ : « إنا يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح ، وقال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر ، وقال ﷺ : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة » رواه البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني عن أبي امامة ، وأشار السيوطي في الجامع الصغير الى صحته .

العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة

المادة ٦ — في العدول عن الانتقام الى الغفران فضيلة عالية ، والعفو عن الناس هو من أسمى العواطف البشرية ، لأن الدين — الذي هو دين الفطرة — يخير المظلوم بين الانتقام ، قصاصاً وتأديباً ، وبين الغفران كرمًا وتكريمًا ، ولكنه يفضل الثانية على الاولى ، فالدين يقول في مقام المدح : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ — ثم يقول : — ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولَمَنْ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنا السبيل على الذين يظلمون

الناسَ ، وَيَتَغُوثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾ (٤٣ - ٣٧) ، ويقول : ﴿ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، ويقول : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (٣ : ٢٣٧) ، ويقول : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَتَغَفَرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٤ : ١٤) ، ويقول : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣ : ١٣٣) ، قال « سليمان » عليه السلام : « إِنْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَمْلِكَ عَنَانُ نَفْسِهِ ، لَهُوَ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَفْتَتِحُ الْمَدْنَ وَالْأَمْصَارَ » ، وقال « جويبر » : « خَيْرُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ حَاكِمَ قَلْبِهِ مِنْ أَنْ يَحْكُمَ الشُّعُوبَ » .

غفران الاساءة واجب

المادة ٧ — تعليقاً على قوله : « يغفر الله لكم » بما أن الله تعالى يغفر لنا الاساءة العظيمة يجب علينا أن نغفر لآخواننا إساءاتهم اليانا ، وإن لم نسامح إخواننا في زلاتهم معنا ، يغضب الله علينا ، ولا يسامحنا بل يعاقبنا ، فقد قيل : « إِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلَاتِهِمْ لَا يَغْفِرَ اللَّهُ أَيْضاً لَكُمْ زَلَاتَكُمْ » قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؟ ﴾ (٢٤ : ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ الَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤٥ : ١٣) ، فالله تعالى مع كثرة رحمته شديد العقاب ، فالإيمان الذي لا يكون مصحوباً بالحبية والمسامحة ليس بإيمان كامل ، ليس هو إيمان أهل البر ، ليس هو إيمان أهل الخير والتقوى ، فأبواب السماء مغلقة في وجه القساة ،

مغلقة في وجه الذين يحبون الانتقام لأنفسهم ، من حيث انه انتقام فقط ، لا لعلة اخرى ، مغلقة في وجه أهل الحقد والتشديد ، مغلقة في وجه من يطلب من الله المسامحة وهو لا يسامح إخوته .

من تاب غفر الله له

المادة ٨ — تعليقاً ايضاً على قوله : « يغفر الله لكم » : حصول المغفرة لهم أمر طبيعي ، لأنهم تابوا وأنابوا واعترفوا بما اقترفوا ، واذا كان الله تعالى يغفر للكافرين إذا تابوا كما قال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (٣٩:٨) فالؤمن أولى بالمغفرة متى انتهى ، وقال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٤:٦٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤:١٠٩) ، فهذه الآيات الكريمة ، وما إليها مما هو كثير ، تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى بمجرد توبة اخوة يوسف قد غفر لهم ، أي غفر لهم حقه تعالى ، ومعلوم ان يوسف — وفي ضمنه بنيامين — قد غفر لهم ايضاً حقه ، فما بقي إلا حق أبيهم ، وسيأتي له أن يسامحهم .

ما هو الجزاء الذي وقع على اخوة يوسف حتى غفر الله لهم

وهنا أتذكر أنني كنت سئلت سؤالاً صورته :

ان الجزاء أثر طبيعي للعمل ، إن خيراً فثواب ، وإن شراً فعقاب ، وإن الله بعيد عن المحابة : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٩٩:٨٧) فهل يأتى وقع الجزاء لاختوة يوسف ، حتى نالوا هذه المغفرة عند اعترافهم بالخطأ ، مع أن الأعمال التي خطئوا بها إلى

الله وإلى أبيهم وأخوتهم رهية ورهية جداً؟ هذا ما سألي عنه نبيل وذكي من الطلبة ، فاجبته بما صورته :

لأنهم بتكذيب أبيهم لهم ، إذ قال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ ، وبما ضيق عليهم يوسف في سفرتهم الاولى إذ قال لهم ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ ، وبما ثرّبهم أبوم إذ قال : ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ ﴾ ، وبما شدد النطاق عليهم إذ قال : ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم ﴾ ، وبما سرّقوا حين قيل لهم : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ، وبما كذبوا حين قيل لهم : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ ﴾ وبما سقط في أيديهم ، وكأغا صب من فوق رؤوسهم الحميم ، وخجلوا أمام المعتارين ، وأمام المصريين وأهل البلاط ، إذ استخرجت السقاية من وعاء أحدهم ، بعدما كانوا يقاومون هذه التهمة ، أشد المقاومة ، وبما أنهم ردّوا وخيّبوا ، ولم تنجح مساعيهم ، ولم تقبل شفاعتهم ، حين قال لهم أخوهم : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ، وبما أنهم وقعوا بذلك في اليأس والحرّج ، وهم غرباء والوقت وقت جوع ، وعيالهم في انتظارهم على أحر من الجمر ، وبما أن « رأوين » أنبهم ، وذكرهم بما بُحّرجهم مع أبيهم ، وذكرهم بسابق عملهم مع أخيه ، فقال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ؟ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ ﴾ وبما أن أباهم قد عاد فكذبهم في أن بنيامين سرق ، ونسب اليهم في ذلك دسيسة ومكرأ ، فقال : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ مع أنهم لم يكن لهم هذه المرة دسيسة ولا مكر وبما أنهم وقفوا بين يدي أخيه ، ضارعين مستكينين ﴿ قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ﴾ ، وبما أنهم عوتبوا ووصفوا بالجهالة ، ولم يسعهم إلا السكوت ،

ساعة أن قال لهم أخوهم : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾
 وبما لحوا من طرف خفي الإشارة من أخيه إلى براءته منهم ، وانتسابه لبنيامين
 فقط ، إذ قال لهم : ﴿ أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وبما أنهم سمعوا التعريض بهم
 أنهم لم يكونوا من أهل التقوى والصبر ، إذ يقول أخوهم أمامهم :
 ﴿ إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ، وبما رأوا من حرج
 الموقف الذي اضطرهم أن يعلنوا اختيار الله لأخيه دونهم ، وأنهم أئمة
 خطاة ، إذ قالوا : ﴿ تالله لقد آثر الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ ، ونظم لذلك
 ما كانوا يرزأون به في مدة ٢١ سنة ، من عدم توجه أبيهم اليهم وحنقه عليهم ،
 وأضف لذلك جميعه ما كان يعتريهم كل حين من توبيخ ضمايرهم لهم ، ولوم أنفسهم ،
 إياهم ، وتمرمر معيشتهم ، فيحلول هذه النوازل عليهم ، وصبا فوق رؤوسهم ، علم
 أخوهم يوسف عليه السلام أنهم قد استوفوا جزاءهم جزاء وفاقاً ، وأنهم لم يبق
 عليهم ما يؤخذون به ، سوى الاعتراف ، فلما اعترفوا قال لهم : ﴿ اليوم يغفر
 الله لكم ، وهو أرحم الراحمين ﴾ هذا هو الجواب ، والله الملهم للصواب ، فات
 أصاب الحز ، فمن نعمة الله الوهاب ، وإلا فما أنا أول واهم من بني آدم .

المغفرة والعفو والفرق بينهما

المادة ٩ — تعليقاً ثالثاً على قوله : ﴿ يغفر الله لكم ﴾ : المغفرة من الغفر ، وهو
 لغة الستر ، وستر الذنب بعدم الحساب والعقاب عليه — لا ينافي بقاء أثر خفي له ،
 وأما العفو فهو ذهاب الأثر بالمرّة ، فالعفو عن الذنب ، جعله كائن لم يكن ، بأن
 لا يبقى له أثر في النفس ، لا ظاهر ولا خفي . وبناء على هذا فالعفو لغة أبلغ من
 المغفرة ، وانما عبر يوسف بالمغفرة دون العفو مع انه أبلغ ، لأن إخوته لا يطعمون
 في أكثر من أن يستر الله ذنوبهم في الآخرة بعدم الحساب والعقاب ، ومع كل هذا
 فالفرق بين اللفظين لغوي فقط ، وأما النتيجة فهي واحدة تقريباً .

المغفرة في التلمود والانجيل

المادة ١٠ — جاء في « التلمود » أن شريعة بني إسرائيل توجب على المُنسأء اليه أن يغفر للمسيء لحد ثلاث مرات ، لأن الإنسان عرضة للخطأ ، وأوسع منه ما جاء في « الانجيل » هكذا : ﴿ وإِن أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ ، فَاذْهَبْ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَحْدَكُمَا ، فَإِنْ سَمِعَ مِنْكَ ، فَقَدْ رَبَحْتَ أَخَاكَ ﴾ (مت ١٨ : ١٥) ، وفيه انه سئل المسيح : ﴿ كم مرة يخطيء إليّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل الى سبع مرات ؟ — فقال المسيح : لا اقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات ﴾ (مت ٢٢ : ١٨)

فينبغي للبريء المظلوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمه ، وتبيينه له خطأه ، بدل أن يشكو الى الغير ، او ينتقم منه ، او يحقد عليه ، فيبقى العداوة له في قلبه ، وينبغي ان تكون المعاتبة سراً ، لأنه إذا عاتبه امام الناس اغتاض منه ، او استحى بأن يقر امامهم بأنه اخطأ ، فيجتهد في تبرير نفسه ويقسو بذلك قلبه ، مع انه إذا انفرد به سهل عليه ان يقنعه بالحق ، وينبغي ان يكون العتاب بلطف وحكمة ، وبروح الوداعة ، والا اتسع الخرق على الراقع ، وعمق الجرح بدل ان يبرأ ، وصُب الزيت على النار ، بدلاً من ان يصب عليها الماء .

العبرة بالخواتيم

المادة ١١ — اذا تأمل الانسان في حوادث الدهر ، وجدها سلسلة متصلة الحلقات ، كل حادثة منها ولدت من اخرى ، لولاها لم تولد ، وبدونها لم توجد ، ورأى الخير آتياً من صلب الشر ، والشر نازلاً من صلب الخير ، حتى ينتهي الأمر بأنه يُحكم بعدم وجود خير محض ، ولا شر محض ، وبأنها أمور نسبية ، وينبغي أن يضع نصب عينيه ، ان ما يراه اليوم مصيبة ، قد يضمن في الغد سعادته ، وان

ما يراه سعادة ، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته ، فالأمور بخواتيمها ، والحوادث يحكم عليها لا بصدورها ، بل بأعجازها .

فصول حوادث الحياة وتطبيقها على يوسف

المادة ١٢ — تتألف حوادث الحياة من ثلاثة فصول : فصل الأمل ، وفصل الجهاد ، وفصل الفوز ، فرؤيا يوسف وأحلامه وبشرى أبيه له يمثل الفصل الأول ، وصبره في غيابة الحب وعلى استرقاقه وعبوديته وعن شهوته البدنية وفي سجنه ، يمثل الفصل الثاني ، وفوزه برقيه على أريكة الوزارة بمصر وبانتصاره على زليخا والنسوة المصريات وعلى إخوته ، وبإتيان أبيه وأخيه وسائر أهله يمثل الفصل الثالث .

الطريقة المثلى في المسامحة

المادة ١٣ — هذه الطريقة التي جرى عليها يوسف في مسامحة إخوته هي الطريقة المثلى التي مشى عليها وأوصى بها العقلاء من الناس .

قال الشاعر : (١)

إذا كنت في كل الأمور معاتباً	صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه
فعض واحداً أو صل أخاك فانه	مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها	كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقال غيره :

تريد مهذباً لا عيب فيه وهل عود يفوح بلا دخان ؟

وقال غيره :

لابد للكامل من زلة تخبره آت ليس بالكامل
وقال غيره :

فقلت لها يا عَزَّ كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
وقال غيره :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
وقال غيره :

إذا اعتذر الجاني عما العذر ذنبه وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب
وقال غيره :

أخذ بحملك ما يذكىه ذو غلط من نار غيظك واصفح إن جنى جاني
فالعلم أفضل ما زدان اللبيب به والأخذ بالعفو أحلى ما جنى جاني

اسباغ النعمة على اخوة يوسف

المادة ١٤ — رأى يوسف أن هذا اليوم هو يوم أَسْبِغَتْ عليه فيه النعمة من فوقه ، فناسب أن ينعم هو على من هو دونه ، وأيضاً إن الخصام مع الناس ، لاسيما الأقارب ، لا ينبغي أن يتأدى ويطول ، بل يجب البت فيه ولو بخسارة ، فإن الهم الذي يقلق كثيراً ، إنما هو الهم الحاضر الراهن ، أما الماضي فإن الظروف الجديدة تُعَفِّيه ، والنجاح الجديد يزيل أثره ، فلذلك رأى يوسف عليه السلام أن يسدل الستار على ميدان المعركة الحزبية ، ولم يرد أن يبعث من القبر جثة عفته ، دفنت من زمن بعيد ، ولم يقض لها بالبعث والنشور ، وبذلك صارت قضية يوسف ناجحة موفقة ، قد استجمعت عناصر الفوز والظفر . (مرحى)

قصص البشارة

آ (٩٣) * ... اذهبوا بقيصى هذا ، فألقوه على وجه أبي
يأت بصيراً ، واثبوني بأهلكم أجمعين ! *

الجلسة وتليت الآية الثالثة والتسعون ، فقام السيد
الغمرائي (١) وقال :

(اذهبوا بقيصى هذا ...)

— ١ —

تحقيق عما هو هذا (القميص) وعن كلمة (بصير)

أنا هنا لأحب أن أعود إلى أقوال مفسري هذه الآية الكريمة ، ولكني
أحب أن أجتهد في أن أصل إلى تفسر جديد ، أحب ان احدث السامعين الكرام
بصراحة وامانة وصدق ، أحب ان اكشف لهم عما كان يختلج في ضميري منذ
القديم في التحقيق عن هذا « القميص » وعن كلمة « بصير » .

« القميص » هو كسوة رسمية

هذا القميص هو « ثوب بوس » أي كتان ، ذو شارات مخصوصة وهو كسوة
رسمية ، لا يقدر أن يلبسها كل شخص ، وهذا القميص كان ملك مصر « الريان »
ألبيه يوسف يوم أقامه وكيلاً عنه ، وبيان ذلك : أن يوسف لما خرج من السجن
وقف بين يدي الملك الريان وكلمه يوسف بكلام يشف عن قوة عقل وغزارة علم ،

(١) نسبة الى بلدة ميت غمر في القطر المصري .

فقال الريان له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » - فقال يوسف عليه السلام :
« اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » - فقال الملك لشوراه : « هل نجد
مثل هذا رجلاً فيه روح الله » ، أي رحمته وإلهامه وقوته ، ثم قال الملك ليوسف :
« بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون رئيساً في
البلاط ، تكون ثانياً في المملكة ، بمنزلة ملك ثان ، فيطيعك شعبي حتى يعمل بكل
حكمة تقوه بها بأوامرك ، انظر قد جعلتك على كل أرض مصر و خزائنها وغلاتها » .
وخلع الملك خاتمه من يده ، وجعله في يد يوسف عليه السلام ، وكان هذا الخاتم
تختم به الأوامر ، فكان يوسف بذلك كالملك ، ثم ألبسه « الريان » قميص بوص .
ووضع طوق ذهب في عنقه ، ومعنى « بوص » كتان بقي أبيض ، وكان هذا
ملبوساً رسمياً ، امتاز به الملوك ، وأكابر البلاط والكهنة ، ثم أركبه مركبته .
الثانية ، ونادوا أمامه : « اركعوا » « ابركوا » ، وأتى الملك هذا الاحتفال ،
ليبين لقومه أن يوسف عليه السلام صار حاكمهم في الدرجة الثانية ، لأن الملك
الريان كان في مركبة تجري به ، وتجري وراءها مركبة أخرى بيوسف ، فهذا
« القميص » متى وصل لسيدنا يعقوب ، عليه السلام ، علم أن ابنه زيادة عن انه حي .
قد صار من رجال البلاط بمصر ، ومتى وقف على هذا الرمز ، عرف ما هي درجة
ابنه ومنزله في البلاط الملوكي ، وبصّر بحاله ومآله ، إذ لا بد أن يعقوب عليه
السلام يعرف أن هذا النوع الرسمي من الأقمصة خصيص بأعظم رجال الحكومة .
والكهنة ؛

وما أشبه هذه الحادثة بمحادثة صبي بدوي فارق أهله منذ سن الحداثة بلباس
البداءة ، وانقطعت عنهم أخباره ، لا يعلمون أحيى هو أو ميت ، ولا يعلمون عنه
شيئاً ، ولكنهم كانوا يترجون حياته ، ثم بعد عشرات من السنين ، أرسل ساعياً

لأهله يطمئنهم بحياته وسلامته، ويذكر لهم رتبته في الحكومة ، ودرجته في البلاط الملكي ، وعلامة لذلك ، ولزيادة البشارة قوة واعتباراً ، أرسل معهم لباساً من ألبسة الحكومة الرسمية ، التي يدل طرازها ، ويشير شكلها الى أن صاحبها ترقى الى درجة كذا من درجات رجال العسكرية أو المدنية ، أو الدرجات الدينية ، هذا هو المعنى المألوف قديماً وحديثاً ، المتبادر عرفاً ، الذي يساعده نقل المؤرخين ، (انظر تك ٤١ : ٤٢) مع شرحه « السنن القويم » ، هذا هو القميص الذي تَبَصَّرَ به سيدنا يعقوب حياة ولده ، وعلم به حاله ودرجته في الحكومة .

« البصير » هو العالم علماً قلبياً

إن ماسبق هو تحقيق معنى « القميص » وأما تحقيق معنى « بصير » فقد قال في المصباح : (أَبْصَرْتُهُ بِرُؤْيَا الْعَيْنِ إِبْصَاراً ، وَبَصُرْتُ بِالشَّيْءِ بَصَرًا : عَلِمْتُ فَأَنَا بَصِيرٌ بِهِ ، وَهُوَ ذُو بَصَرٍ وَبَصِيرَةٌ أَيْ عِلْمٌ وَخَبْرَةٌ) ، وقال في الأساس : (بَصَرَ بِعَمَلِهِ : صَارَ عَالِماً بِهِ ، وَهُوَ بَصِيرٌ بِهِ وَذُو بَصَرٍ وَبَصَارَةٍ ، وَهُوَ مِنَ الْبُصَرَاءِ بِالتَّجَارَةِ ، وَبَصَرْتُهُ كَذَا وَبَصُرْتُهُ بِهِ ، عَلِمْتُهُ إِيَّاهُ ، وَرَبَّتُ فِي بَسْتَانِي مُبَصَّرًا : أَيْ نَظَرًا ، وَهُوَ الْحَافِظُ) ، وقال في المختار : (أَبْصَرَهُ : رَأَاهُ ، وَبَصُرَ بِهِ : عَلِمَهُ ، وَبَابُهُ ظَرْفٌ فَهُوَ بَصِيرٌ) ، وفي القاموس : (الْبَصَرُ حَرَكَةٌ : حَسَّ الْعَيْنَ ، وَاجْتَمَعَ أَبْصَارٌ ، وَمِنْ الْقَلْبِ نَظَرُهُ وَخَاطَرُهُ ، وَمِنْ مَعَانِي الْبَصِيرِ الْعَالِمِ) وفي لسان العرب : (الْبَصِيرُ الْعَالِمُ ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : الْبَصِيرُ خَيْرٌ مِنَ الْأَعْمَى) .

فنعلم من مجموع هذه النقول ونحوها من أمهات كتب اللغة الموثوقة أنه يقال : (أَبْصَرَ يُبْصِرُ إِبْصَارًا فَهُوَ مُبْصِرٌ ، وَهَذَا فِيمَا كَانَ بِرُؤْيَا الْعَيْنِ : وَيُقَالُ : بَصُرْتُ يَبْصُرُ بَصَرًا فَهُوَ بَصِيرٌ ، مِثْلُ كَرَمٍ يَكْرُمُ كَرَمًا فَهُوَ كَرِيمٌ ، وَهَذَا فِيمَا كَانَ بِرُؤْيَا الْقَلْبِ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى : هُوَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ ، وَجَمْعُ مُبْصِرٍ مُبْصِرُونَ :

أي بالعين ، وجمع بصير بُصَرَاءُ : أي بالقلب ، وتأنيث مُبْصِرٍ (بالعين) مُبْصِرَةٌ كما أن تأنيث بصيرٍ (بالقلب) بصيرة ، وأما البَصَرُ حركةً فجمعه أَبْصَارٌ ، سواء أكان حس العين أو بالقلب ، وكما يجمع على بُصَرَاءٍ يجمع على بصيرين ، وهو ما كان من قبيل العلم والمعرفة بالقلب ، وأما مُبْصِرٌ فجمعه مُبْصِرُونَ وهو ما كان بالعين . وأنتم تعلمون أن « بصيراً » صفة مشبهة ، والصفة المشبهة لاتصاغ قياساً إلا من فعل ثلاثي لازم ، وشذ نذير من أنذر ، (فبصيراً) هو مشتق من بَصُرَ ، أي بالقلب ، لا من أَبْصَرَ : أي بالعين ، مامن ذلك بد ، وأما قول بعض اللغويين (والبصير ضد الضير) ففيه تساهل وبعد عن التحقيق ، وأظن أن الذي دفعهم لهذا التعبير إرادة السجع .

ولم يرد في كتاب الله تعالى استعمال لفظ (مُبْصِرٍ) إلا وهو من معنى الرؤية بالعين ، كما لم يرد فيه استعمال لفظ (بصير) إلا وهو لدى التدقيق بمعنى العلم بالقلب ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ، لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ (٢٠ : ١٢٥) فاعمى أي عن حجته ، وقد كان في الدنيا بصيراً بحجته فيما يزعم إذ كان عنده شبه حجة بحسب تصوره ، فاعمى ههنا بمعنى جاهل ، وبصير بمعنى عالم وكذا لم يرد في القرآن الكريم استعمال لفظ (أبصر) إلا بمعنى رأى بعينه ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ (٦٨ : ٦٩) فمعناه : فسترى يا محمد ويرون يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب بأيكم المفتون ؟ قاله البغوي في تفسيره ، أي ستري ويرون الأسباب المشاهدة التي يتبين منها من هو المفتون ، أو يقال عبر بالإبصار مبالغة ، إشارة إلى أن هذا الشيء الذي سيعلمونه واضح جلي جداً ، كأنه محسوس بالنظر .

وكذا لم يرد في كلامهم استعمال (بَصُرَ به) إلا بمعنى العلم بالقلب ، ومنه ما حكى عن السامري : ﴿ بَصُرْتَ بِمَا لَمْ يُبْصِرُوا به ﴾ (٢٠ : ٩٦) أي

علمت مالم يعلموا وأدركت مالم يدركوا ، هذا هو المعنى الصحيح على التحقيق الذي ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني في معنى الآية ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ (٢٨ : ١١) فلما كان الابصار فيه بالعين من طريق المخاطلة والتجانب والازورار كان كأنه ليس نظراً بالعين ، بل علماً بالقلب ، فلذلك عبر فيه بالفعل الثلاثي ، على أن (بَصُرَتْ بِمَا لَمْ يُبْصَرُوا بِهِ) و (بَصُرَتْ عَنْ جُنُبٍ) ليسا فعلين لازمين ، « بل هما متعديان بمعنى الإبصار ، ففي إعاة اللهفان : (بَصُرَ بِهِ وَأَبْصَرَ ، يُعْدَى بِالْبَاءِ تَارَةً ، وبالهمز أخرى) .

إذا علمت كل هذا علمت أن لفظ (بصير) في قوله تعالى ﴿ بَاتَ بِصِيرًا ﴾ يَعْرِىَ بِصِيرًا بحال ولده يوسف ، كقولك يحجي البناء محكماً ، بمعنى يصير ، ويشهد له (فارتد بصيراً) أي صار بصيراً ، ولا يجوز لغة تفسير لفظ (بصير) ببصر ، لاختلافهما في المعنى اختلافاً واضحاً ، لأن (بصيراً) كما قلنا صفة مشبهة من بَصُرَ بمعنى علم ، وهو ثلاثي لازم ، وبابه كظُفِرَ ، وأما (مُبْصِرٌ) فهو اسم فاعل من أَبْصَرَ : بمعنى رأى بعينه ، وهو رباعي متعد وبابه كأكرم ، فبينهما في اللغة فروق متعددة ، وكما لا يجوز تفسير (بصير) بمُبْصِرٍ من حيث اللغة ، فلا يجوز أيضاً تفسيره به من حيث الشريعة ، لأن العمى لا يجوز على أنبياء الله ومظاهر أمره لأنه من الدآآت المنفرة لطبائع الجمهور والأنبياء منزهون عن كل منفر للطبيعة ، هذا ماأراه في تفسير كلتي « القميص » و « بصير » ولست أبالي أن أجهر برأى مادمت أعتقد أنني على حق ، وأما من يكلفني أن أمشي على فكر غيري ، فاني اسف على عدم استطاعتي امتثال أمره ، أسفي على إهماله مداواة نفسه .

يعقوب بصير عالماً قلبياً بحال ابنه يوسف

إذا تقرر هذا يكون معنى الآية الكريمة هكذا : قال يوسف لاختوته :

﴿الْوَحَى الْوَحَى ، والنجاء النجاء﴾ قوموا ييموا شطر فلسطين ، اوغلوا في السير ، انتجعوا (قرية اربع) او « سيلون » (اذهبوا بقميصي هذا) الذي يمثل الوظيفة والزلفى من التاج ، وهو القميص الرسمي الحكومي ، قميص « البوص » ذو الشارات المخصوصة ، الذي لا يلبسه الا كبراء رجال البلاط والكهنة ، ولا يقدر أحد أن يلبسه سواهم ، القميص الذي البسني إياه مليسك مصر « الريان » يوم ماولاني « الصدارة » العظمى والوكالة العامة عنه ، وجعلني على خزائن أرض المملكة الهكسوسية ، و « عزيزاً » بالديار المصرية - فما هو الا أن أمر يوسف بعض فتيانه أن يذهب لقصره ، ويأتي له من مشجبه بقميص اعتيادي غير رسمي ، ثم نضا عنه قميصه الرسمي ، ولبس مااتي به اليه وسلمه يوسف لاختوته مؤقتاً ، ليراه أبوه ثم يرجعوه معهم — ثم قال لهم :

(فألقوه) أي أطرفوه وعرضوه (على وجه أبي) المتضمن ذلك القاءه على عينيه ، حتى يراه ، فمتى رآه وعرف حقيقة حاله ومركزه (يأت) أي يصير (بصيراً) عالماً وعارفاً بما أنا عليه في دار الحكومة المصرية ، فاهماً كل شيء بوضوح وجلاء ، واقفاً على ما كان قد خفي عليه ، مكتشفاً لما انطوى عن إدراكه وبصيراً ههنا مقابل جاهلاً — ثم قال يوسف لاختوته : واسرعوا الكرة (واثتوني بأهلكم) زوجاتكم واولادكم وإمائكم (اجمعين) لكي تظفروا بنعمة العيش في ظلال حكومة مصر ، وتساووا اهلها في مظاهر الحياة .

واما اخوته فسمعوا هذه المقالة منه ، فحلت على نفوسهم المذبذبة يا كان من تقاطع وتباغض برداً وسلاماً ، والتفت حولها قلوبهم ، واكبروا صدورهم عن كانوا آذوه وشردوه ، واخيراً سعوا اليه حين احتاجوه .

(اذهبوا بقيصي هذا ...)

— ٢ —

وقام الطبيب بن الحارث وقال :

تفسير (يأت بصيراً) ييجي » مبصراً بعينه

أرى أيها السادة الأكارم انه يحسن بنا أن نفسر جملة « يأت بصيراً » « ييجي » مص. بعينه » لأن الحوادث الجسام التي مرت بسيدنا يعقوب عليه السلام ، والمؤثرات النفسانية والانفعالات الروحية المفاجئة التي اصابته أدت الى فقد حس الرؤية عنده ، كما ستؤدي إلى عودة هذا الحس له عند مفاجأته بالقاء القميص الرسمي لولده يوسف على وجهه .

والطب الحديث يؤيد هذا الرأي ، إذ يوجد فيه حالة مرضية تدعى « العمى الروحي او النفسي » تحدث بتعرض الأشخاص إلى صدمة تأثرية — فرح أو حزن — مفاجئة ، وتؤدي إلى فقد الذاكرة البصرية عندهم ، كما تعود لهم هذه الذاكرة بصدمة تأثرية مفاجئة اخرى — فرح أو حزن .

وهذا ما حصل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، إذ أنه فقد ذاكرته البصرية بسبب صدمة الحزن التي فوجيء بها حينما بلغه اولاده نبأ اوتراس الذئب لولده يوسف ، ثم عادت له هذه الذاكرة بسبب صدمة الفرح التي فوجيء بها حينما اتى اولاده بقميص يوسف الرسمي والقوه على وجهه .

وعلى ذلك يمكن ان نشرح جملة « يأت بصيراً » ييجي » اليّ وهو مبصر بعينه ، سليم من كل مرض فيها ، بريء مما كان اعترأها من ابيضاض او فقد حس الرؤية بمجرد القاء « قميصي » على وجهه ، بسبب فرحه وسروره بوقوفه على حياتي وعلى مركزي ، إذ انه بملامسة قميصي كأنما لامس شخصي — ولا بدع

في كون الحب يبرأ من مرضه بملامسة اثر محبوبه — وعليه فكلمة « بصير » تكون مقابلة لكلمة « اعمى ».

هذا ما فتح به الرحمن علي ألقيته على مسامعكم الشريفة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وهنا قال رئيس المؤتمر : هذا كلام خطيبينا السيد الغمراوي والطبيب بن الحارث تركه الان على علاته ، ومن غير تحليل له أو إبداء رأي فيه ، كما يتطلبه الحياد التام مني ، وأترك حق الحكم فيه لمن يسمع ومن يقرأ فقط .
(قالون)

(اذهبوا بقيصى هذا ...)

— ٣ —

وقام مولانا عبد الحي الدمياطي وقال .

تأويل « القميص » بالترتبة العالية

سادتي : قبل كل شيء إني احبذ ما فهمه السيد الغمراوي في كلمتي « قميص » و « بصير » ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أفهم في لفظ « القميص » وحده فهماً ثانياً على وجه الاحتمال ، وتقريره هكذا :

يقولون : « من قمصك هذا القميص ؟ » أي من جعلك في هذه الدرجة والرتبة العالية ؟ وفي الحديث الصحيح خطاباً « لعثمان » رضي الله عنه « إن الله سيقمصك قميصاً » ، أي سيلبسك لباس الخلافة ، كما في القاموس وشرح الصحيح ، وقد روينا في سنن ابن ماجه : « يا عثمان ان ولائك الله هذا الأمر ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه » ، وفسر شراحه هذا القميص بالخلافة ، وفي نهج البلاغة : « لقد قمصها ابن أبي قحافة ، وهو يعلم أن محلي منها ، محلّ

القطب من الرحي ، ، واستشهدنا بهذا القول ، لا يعني اننا نعتقد انه صح عن علي كرم الله وجهه ، ولكننا نريد منه ان هذا النوع من الاستعمال وارد في اللغة العربية . وإذا قلنا إن علياً (رض) قاله ، قلنا : إنه قاله على وجه الاجتهاد ، والاجتهاد يحتمل الإصا به وغيرها ؛

وللمنصور من خطبة بالمدائن بعد قتل أبي مسلم : « إن من نازعنا عروة هذا القميص ، أجززناه خبيثة هذ الغمد » .

وقد كان رجل اسمه « شبننا » وكيلاً على قصر الملك « حزقيا » في مملكة بني اسرائيل الجنوبية ، وقد كان أنذره الله تعالى بقوله بلسسان النبي « أشعيا » : « أطرذك من منصبك ، وأدعو عبدي « الياقم » وألبسه ثوبك » وأجعل سلطانك في يده » (اش ٢٢ : ١٩ - ٢١) ، ومعنى « ألبسه ثوبك » أقيمه على قصر الملك « حزقيا » عوضاً عنك ، فيكون لا بساً ثوب السلطة على قصر الملك .

فنتعلم من مجموع هذه النقول ان إطلاق « القميص » أو « الثوب » على المنصب الجليل اصطلاح معروف في اللغة العربية كما فيما قبلها من اللغة العبرية ؛

إذا تقرر هذا « فالقميص » ههنا هو أمر معنوي ، وهو « وزارة المالية » ، في مملكة مصر ، أو هو « الوكالة المطلقة » عن مليكها ، أو هو كونه « عزيزاً بمصر » فان يوسف عليه السلام كان حائزاً على هذه المناصب كلها ؛

انتقاد تأويل « القميص » بالرتبة العالية والرد عليه

وأذكر ان طالباً من بلدي « دمياط » كان مسافر للأزهر الأنور بمصر لتكميل تحصيله ، فنقل عني لبعض علماء الأزهر ، أني أذهب الى هذا الفهم الاحتمالي في كلمة « قميص » ههنا ، فكان هذا العالم أنكر هذا الاحتمال ، وأرسل اليّ رقيباً في البريد محتج عليّ فيه بتفسير المتقدمين ، وليس هذا الانكار لشيء سوى أنني خالفت

فيه كلام المفسرين الذين قالوا ، في تفسير هذا « القميص » « إنه القميص المتوارث الذي كان في تعويد يوسف ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله اليه فان فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي ، ويؤسفني انه فات هذا الفاضل ان التفسير ليس وفقاً على ناص دون آخرين ، وليس هو سلعة تباع وتشترى ، أو أن هذه السلعة ملك لقوم دون سواهم ، فلا يجوز أن تعرض في حانوت غير حانوتهم ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وان القميص الذي أنزله المفسرون من الجنة ، لم يسندوه الى حديث أو رواية صحيحة عن صحابي أو نحوه من التابعين ممن يوثق بنقله ، ولعمري إن هذا القميص ، بالصورة التي ذكرها المفسرون فهو من أبعد البعيد ، ولا يصدقه إلا من يصدق تمثال « الزر زور » الذي في « رومة » . هذا وأرجو أن يحمل كلامي على حسن النية ، وحب الحقيقة ومع ذلك فليست أقول إن تفسيري « القميص » بما ذكرته هو الصحيح وما ذكره المفسرون هو باطل - حاشا - فاني إنما ذكرت ما ذكرته على وجه الاحتمال مع إمكان صحة ما سواه ولو بعيداً ، وإني لا أبتغي هدم القول القديم ، قبل تأسيس الجديد وقبوله عند أولي النظر ، نعم إنني لا أهدم بيتي العتيق إلا إذا وجدت لي مسكناً جديداً صالحاً للسكنى فيه ، وعلى كل حال ، فأرجو من هذا العالم الفاضل أن لا يؤآخذني اذا رأي قد خالفت ساداتنا المفسرين في رأي رأوه ، فان الذهاب الى الحق هو فوق الأدب معهم ، وان « بروتوس » كان يقول : « إني أحب قيصر ، ولكن رومية أحب إلي » ، وان مذهبي في تفسير القميص يعبر عن رأي خاص يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته ، وأما قارئوه وسامعوه فلا يتحملون منه شيئاً ؛

وقبل الفراغ من هذا البحث أرجوكم أن تذكروا ما قاله أحد الأئمة وهو الإمام أحمد بن حنبل (رض) : (ثلاثه لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي) ولا يخفى عليكم قدر أحمد في العلم .

تفسير (القميص واللقاء والوجه) بأمر معنوي من باب الاستعارة وترشيحاً
ثم أذكر إن جمعاً من طلبة الأزهر المجيد أرسلوا أيضاً إلي كتاباً في البريد يقولون
فيه إن تفسير « للقميص » بالنصب ، وهو أمر معنوي لا يتلائم مع قوله بعد :
(فألقوه على وجه أبي) فلذلك كنت أرسلت لهم الجواب بأن هذا « القميص »
في عبارة سيدنا يوسف . استعارة مصرحة أصلية جارية في الأسماء ، وقوله
﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات لهذه الاستعارة ، كما في :
« بصق في وجهه » بمعنى استخف به ، كما قاله صاحب الأساس ، فليس هناك
بصق حقيقي ، ولا وجه مبصوق فيه ، وإنما المراد الاستخفاف فحسب ، وكذلك
يقال فيما نحن فيه : « ليس هناك قميص حقيقي » ، ولا وجه ملقى عليه ذلك القميص
وإنما المراد بجملة « فألقوه على وجه أبي » ، أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي ، وأحيطوه
علماً بما أنا عليه .

وحيث أن هؤلاء الطلبة السائلين أو المستشكلين كانوا أربعة عشر شخصاً ،
أتيت بأربعة عشر شاهداً ، هي نظائر لهذه الآية الكريمة لتكون هذه الشواهد
على عدد السائلين واليك بيانها :

١ - قول زهير الشهير :

لدى أسد شاكي السلاح مُقْدَفٍ له لبد ، أظفاره لم تقلم
فقوله « مقذف » أي مرمي باللحم ، و « له لبد » و « أظفاره لم تقلم »
ترشيحات ثلاث لهذه الاستعارة ، ومعلوم أن مبنى الاستعارة على طي ذكر
المستعار له ، ومن ثم نرى البلغاء المفلحين ، أمراء الفصاحة النابغين ، يتناسون في
الاستعارة التشبيه ، ويضربون عن توهمه صفحاً ، وكأنهم يريدون بالمستعار معناه
الحقيقي ، فلذلك أثبت الشاعر للرجل الشجاع التقذيف ، واللبد والأظفار التي لم
تقلم ، وهي أمور لا تناسب إلا المعنى الحقيقي ، وإنما أثبتنا للمعنى المجازي مبالغة

وتقوية للتشبيه كما أنه في آيتنا لمعنى « القميص » المجازي الإشارة الحسية ، والذهاب به ، والإلقاء به على الوجه ، وهي ترشيحات للتشبيه وتقوية للمعنى المجازي ، كأنه هو المعنى الحقيقي ، التي لا تستند هذه الأمور الثلاثة إلا له .

وكما من الغلط الفاضح أن يقول قائل : لا يصح أن يكون « زهير » أراد من « الأسد » المعنى المجازي وهو الرجل الشجاع بدليل قوله : « مقذف ، له لبد ، أظفاره لم تقلم » ، فكذلك من الغلط الفاضح أن يقول قائل : « لا يصح أن يكون يوسف أراد بالقميص المعنى المجازي وهو المنصب في البلاط الملوكي ، بدليل قوله : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي » ، فافهم هذا التحقيق ، فإنه بالفهم حقيق :
٢ — قول أبي تمام :

فما زال يصعد طرق العلا الى النجم مرتدياً بالسَّناء (١)
ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

فحقيقة « يصعد » العلو الحسي في المكان العالي ، ولكنه استعار الصعود للعلو في المرتبة ، وبنى عليه أنه صار مع النجم مرتدياً بالرفعة وأن الجهول إذا رآه هكذا ظن أن له حاجة في السماء ، وكل هذه ترشيحات للتشبيه لا تناسب إلا المعنى الحقيقي ، وإنما ذكرت مع المعنى المجازي وهو الرقي المعنوي الرتبى ، تقوية الاستعارة ، وكذلك الأمر ههنا في آيتنا ؛ ذكر الإشارة الحسية والذهاب بالشار إليه والقائه على وجه أبيه ترشيحاً للاستعارة كأن هذا « القميص » المجازي هو قميص حقيقي .

٣ — قول القائل :

هي الشمس مسكنها في السما ء فعز الفؤاد عزاء جميلاً
فلن تستطيع اليها الصعو د ولن تستطيع اليك النزولا

لما أخبر عن محبوبته بأنها الشمس ، جعلها كأنها عينها ، وبني على ذلك سكناها في السماء . وانه لا يستطيع الصعود اليها ، وهي لا تستطيع النزول ، فهذه كلها ترشيدات للتشبيه ، انما تناسب المشبه به ، فكذلك في آيتنا الكريمة .

٤ - قول العرب في البليد : (رأيت حميراً له أذنان خطلا وان) استعاروا الحمار للبليد ، وأثبتوا له أذنين خطلاوين ، أى مسترخيتين طويلتين ، ترشيداً لتلك الاستعارة لأن الأذن الخطلاء من لوازم الحمار الحقيقي .

٥ - قول الشاعر :

ولما رأيتُ «النَّسْرَ» عَزَّ «ابن داية»

و «عشش» في «وَكْرَيْه» جاش له صدري

يعني لما رأيت شعر الشيب الأبيض غلب شعر الشباب الأسود ، حل ونزل في الرأس واللحية ، ارتاع واضطرب منه قلبي ، فالشاعر استعار لفظ «النسر» للشيب ، ولفظ «ابن داية» وهو الغراب ، للشعر الفاحم ، ورشح الاستعارة بذكر «التعشيش» وهو عمل العش وأخذه ، ثم بذكر «الوكر» وهو موضع الطائر ، الذي يأخذه ويعمله للتفريخ .

وأعلم أن الترشيح قد يكون باقياً على حقيقته ، تابعاً للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها ، وقد يكون مستعاراً من ملاءم المستعار منه ، للملائم المستعار له ، كما في هذا البيت ، فانه استعير لفظ «الوكرين» من معناه الحقيقي ، للرأس واللحية ، أو الفودين ، أعني جانبي الرأس ، وأستعير لفظ «التعشيش» للحلول والنزول فيها وكذلك الأمر في الآية الكريمة ، فانه استعير فيها لفظ «اللقاء على الوجه» للانباء وإحاطة علم يعقوب عليه السلام بمنصب ولده يوسف .

٦ - قول بعض العرب ، يبين حاله مع أمه :

إذا الشيطانُ قصَّعَ في قَفَاها تَنَقَّطْنَاهُ بِالْجَبَلِ التَّوَامِ

يقال (قصَّ فلان اليربوع) : إذا أخرجته من قاصعائه ، أي من جحره ، ودخل هو فيه ، « وقصَّ الشيطان في قفا فلان » ، إذا ساء خلقه وغضب ، كأن الشيطان دخل في قفاه وصار يُبرز منه الغضب وسوء الخلق ، ويقال : « تنفق اليربوع » أي خرج من نافقائه ، « و تنفقت » أي استخرجته منها ، والجبل التوأم : المثني المجدول على طاقين .

استعار « التقصيع » أولاً ، لغضب أمه وإثارة خلقها ، ثم ضم إليه « التنفق » مستعاراً للاجتهاد في إزالة غضبها ، وإمالة مايسوء من خلقها ، ثم جعل « الجبل التوأم » مستعاراً لسبب قوي ، يتوصل به لتلك الإزالة ، « فالجبل » هو بمعنى السبب ، وهاتان الاستعارتان تابعتان للاستعارة الأولى ، ومرشحتان لها باعتبار لفظها ، وعليه فمعنى البيت :

إذا دخل الشيطان في قفاها ، ليبرز منها الغضب ، استخرجناه من نافقائه بالجبل المثني المحكم ، يريد إذا غضبت وساء خلقها اجتهدنا في إزالة غضبها ، وإمالة مايسوء من خلقها ، فهو لما استعار أولاً « التقصيع » أتبعه بما يشاكله ويوآخيه ، وهو « التنفق » و « الجبل التوأم » ، فهذان اللفظان ترشيحان للاستعارة يقصد منها تقويتها ، فلا يقول « إن التنفق والجبل التوأم لا يناسبان المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير إليه » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية وطرق البلغاء المفلقين ، كما ان ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي ﴾ ترشيحات للاستعارة ، يقصد منها تقويتها ، فلا يقول أيضاً « ان الذهاب بالقميص والاشارة الحسية إليه واللقاء على الوجه ، أمور لا تناسب المعنى المجازي ، فلا يجوز المصير لذلك المعنى المجازي » — إلا كل جاهل بأساليب اللغة العربية ، وطرق البلغاء المفلقين .

٧ — قولهم ﴿ من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً ﴾ ، « فالجب » استعارة مرشحة ، والحفر والوقوع والانكباب على الرأس ، ترشيحات لهذه الاستعارة .

٨ — قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (١٦:٢) فمعنى اشتراء الضلالة بالهدى ، اختيارها عليه واستبدالها به ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ولما استعار الاشتراء للاستبدال ، ذكر الربح والتجارة على وجه الترشيح ، كان ثمّ مبايعة على الحقيقة .

٩ — جاء في القرآن : ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول ، فنبدتها ﴾ (٩٦:٢٠) ، فهذا « السامري » علم من معجزات الرسول موسى ، وفطن بما لم يفطنوا له ، من علامته صدقه ، فأمن به وأخذ جانباً من شربته ، وشيئاً من طريقته ، ولكنه لم يلبث أن رفض تلك الطريقة ، بحسب تسويل نفسه الأمانة بالسوء ، « فالقبض » استعارة مصرحة تبعية والقبضة والأثر والنبد ، ترشيحات لها ، لأنها من مناسبات المشبه به .

١٠ — قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زحزحاً ، وارتينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس ﴾ (٢٤:١٠) ، شبه الأرض بالعريس ، واستعار لفظ العرس وحذفه ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الزخرف والزينة ، وإتيان الأمر إليها ، فأخذ الزخرف والتزين وإتيان الأمر إليها ترشيحات لهذه الاستعارة المكنية .

١١ — قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها ﴾ (١٠٣:٣) ، شبههم وهم كفرون بمن جلسوا على حرف حفرة من حفر النار ، وشبه نفسه تعالى بتوفيقه إياهم الاسلام وتخليصهم من الكفران بمنقذ أنقذ الجالسين على حرف الحفرة ، أو استعار شفا حفرة النار — للباطل ورشحه بالانقاذ ، فكما أن الانقاذ ، لا يناسب إلا المعنى الحقيقي ، ولكن جيء به تقوية للاستعارة ، فكذلك

آ (٩٣) تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله: اذهبوا بقميصي هذا... الخ ١٢٦٣

الذهاب بالشيء والاشارة الحسية والإلقاء على الوجه في الآية الكريمة ، هي نعم أمور لا تناسب الا القميص الحقيقي ، ولكن جيء بها تقوية للاستعارة.

١٢ — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ، خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ ﴾ (١١٠ : ٩) ، « شفا الجرف » مجاز عما ينافي التقوي من الباطل والنفاق ، والعلاقة قلة الثبات والاستمسك ، جعل « الجرف الهائر » مجازاً عن الباطل ، فرشحه بلفظ « الانهيار » الذي هو للجرف ، ليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، أو يقال شبه بناء مسجد الضرار في كونه سبباً ملقياً في النار ببناء بني على حرف جرف من رمل لا يثبت حتى يسقط في الجرف الهار .

١٣ — قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ، فَنَحَرَهُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦ : ١٦) شبه المكر بصرح ، وحذفه ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو البناء على سبيل الاستعارة المكنية ، وذكر القواعد والخروور والسقف والفوقية — ترشيحات لهذه الاستعارة .

١٤ — سمعت بعض العرب يقول عن رجل رشى الحاكم بعشرة دنانير ذهبية : « سقاء عشرة أقداح من الخمر شربها ، فغاب عن صوابه فحكم له بها أراد » ، فالأقداح استعارة تصريحية وهي مجاز عن الدنانير ، والسقي والشرب والغيبوبة ترشيحات لهذه الاستعارة ، لانها تناسب المعنى الحقيقي .

تطبيق الاستعارة وترشيحاتها على قوله : اذهبوا بقميصي هذا ... الخ

إذا تقرر هذا ، نقول ههنا في آيتنا الكريمة التي نحن بصدد شرحها : استعار

« القميص » للمنصب الذي 'قِمِصُهُ' ، وتناسى التشبيه ، وجعل « القميص » كأنه مستعمل في معناه الحقيقي ، وبني عليه ما بني على القميص الحقيقي ، وهو الثوب المحسوس الذي يذهب به ويشار إليه ويلقى على الوجه ، وبعبارة أخرى : لما استعار « القميص » للمنصب والوزارة التي له ، أتبعه بما يشاكله ويوآخيه ، وما يكمل بانضمامه إليه ، تقوية للاستعارة ، وليصور للسامع أن المنصب كأنه قميص حقيقي ، مبالغة في التشبيه ، وهذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالحجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق الحجاز ، ثم تُقَفَّى بأشكال لها وأخوات ، اذا تلاحقن ، لم تركلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر رونقاً ، وهو الحجاز المرشح بصفة أو تفريع كلام يلائم المعنى الحقيقي ، فالتعبير بالالقاء على الوجه ، لا ينافي أن « القميص » مجاز عن المأمورية ، لأنه ترشيح ، بل ليست اللغة العربية وحدها هي المصطلحة على مثل هذه العبارات المجازية المرشحة بما يناسب المعنى الحقيقي ، بل جرى على ذلك كل لغات العالم ، والناس يفهمون هذه العبارات على ما وضعت لتأديته ، لا على لفظها ، فمثلاً لو قال رجل عن آخر : « إنه يعبد الورد » فلا يحق لنا أن نقول : إن هذا الرجل مشرك قد عبد « الورد » مع الواحد الأحد ، الذي لا يعبد سواه ، وكذا لو قال رجل : « دخلت الحمام فاذا في الخلوة عند جرن الماء أسد ذولبد وأظفار لم تقلم » وهو يزجر بصوت كالرعد يرعب السامعين ، فلا يحق لنا أن نقول : انه حقيقة هو الوحش المفترس الضاري ، اغتراراً بما اكتنف هذه الاستعارة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي ، وهكذا في الآية الكريمة لا يحق لنا أن نقول : إن هذا « القميص » حقيقة هو الثوب الذي يلبس على الجسم ، اغتراراً بما اكتنف هذه الكلمة من المرشحات الملائمة للمعنى الحقيقي .

وتتمة القول : إذا جاز في المثال الأول ترشيح « الأسد » المجازي بأنه مُقَدَّف وله لبد ، وله أظفار لم تقلم ، الأمور التي لا تناسب « الأسد » المجازي ، وانما تناسب الأسد الحقيقي .

وإذا جاز كما في المثال الثاني ترشيح الصعود المعنوي يظن الجهول أن الصعود
حاجة في السماء ، الأمر الذي لا يلائم إلا الصعود الحسي في المكان.

وإذا ... وإذا ... الخ .. الخ .. فلم لا يجوز أن يقال : إن هذا « القميص »
مجازي ، وقد رشح بما هو من خصائص القميص الحقيقي مبالغة في التشبيه ؟
وما الفرق بين الكلمة التي هي موضوع حديثنا وبين هذه الأمثلة الأربعة عشر
التي ذكرناها ؟.

اللهم لا فرق ، ولا صموة في قبول هذا المعنى الجديد ، لولا الجود على المعنى
الذي نحا إليه المفسرون .

إذا تقرر هذا فيكون المعنى :

تفسير الآية بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها

(اذهبوا) سراعاً (ب) خبر (قميصي هذا) وهو المنصب الكبير الذي علمتموه
وتحققتموه ، حتى صار عندكم كالمحسوس الذي يشار إليه ، (فألقوه على وجه أبي)
أي فأحيطوه علماً به لأن هذه الكلمة كما حققناها ترشيح للاستعارة ، والترشيح
يجوز أن يبقى على حقيقته لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يجري فيه
التجوز أيضاً فيستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، لمعنى يلائم المشبه ، على ما ذكره
علماء البيان — وقولوا له : قد عثرنا على عكاز شيخوحتك ، ومستودع أسرارك
وقبله آمالك ، وطبيب أحزانك ، ومداوي بكك وهمك ، ومضمد جراحك ، قد
عثرنا عليه عزيزاً بمصر ووزير مالية بها ، ووكيلاً عن مليكها الريان في البلاط
فان أوقفتموه على جليلة الواقع (يأت بصيراً) علماً وعارفاً ، لأن خبر هذا القميص
يشف له عن الواقع ، فتظهر له الحقيقة بيضاء ناصعة ، لا غبار عليها ، ويكشف.

له عن سريرة ولده يوسف بالتفصيل ، بعدما كان عاجزاً عن رؤيتها وعلمها إلا إجمالاً ، ومعنى جملة (يأت بصيراً) أنه يأتي ذا بصارة ومعرفة بحالي التي أنا عليها اليوم في البلاط ، أو تقول معنى (يأت بصيراً) يأت مبصراً ، بذهاب ما كان على عينيه من بياض ، فإن هذا القميص ، متى بلغه خبره ، سيكون أكفاً في شفائه من كل الكحالين الحاذقين ، وأنفذ من عملية جراحية يجريها لعينه طبيب حاذق فانه حالاً أو بالتدريج يَنْقَه ، وَيُبَلِّدَ وينتفش ، وإن اتيانه اليّ ، واجتماعي به لهموا العزاء الباقي لي عن جميع ما أتى عليّ من كل الحوادث المؤلمة والضيقات الفاجعة (واثتوني) على جناح السرعة (بأهلكم أجمعين) لنعيش جميعاً في هذه البلاد تحت رضا أبينا الشيخ الجليل ، وتحت رعاية « الريان » المليك المعظم ، فها أنا انتظركم انتظار الظمان لورود الماء ، وها هي ذي أبواب مصر مفتوحة أمامكم على المصريين ، فادخلوا إن شئتم من باب واحد ، أو ادخلوا من أبواب متفرقة ، لا فرق في ذلكم ، فأنتم على كل حال آمنون من كل شيء ، فالبدار البدار ، فانه لا يحول بيننا وبينكم رتاج ، وليس هناك من جبال ولا أمواج .

قوموا اثتوني بأهلكم أجمعين ، فاني أريد ذلكم لخيركم فقط لا لخيري ، والافانا مستغن عنكم بالله تعالى ، لا أسألكم دنيا ، ولا أستفتيكم عن دين ،

قلت لكم اثتوني بأهلكم أجمعين ، من كل ما خواكم الله ، من عقيلات ، من بنين وبنات ، من عبدان وخادمات ، لا تتركوا وراء ظهوركم شيئاً منوطاً بكم ، ارجعوا لمصر ، وقولوا : « على فلسطين السلام » وأنا لا أقول لكم : بيت الضيق يسع ألف صديق ، لا .. بل أقول : انكم ستجدون عندي مراغماً كثيراً وسعة ، أنتم ليس لكم في فلسطين مَبْرُك ناقة ، ولا مَفْحَص قطاة ، سوى ما لأبي في شكيم من قطعة الحقل ، (إنظر تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ و يش ٢٢ : ٣٣) واني أخشى أن ينشب الجوع أظفاره بكم ،

واذا رأيت الأمن عزّ ببلدة وخشيت منها أن يضيق المطلب
فارحل فأرض الله واسعة الفلا طولاً وعرضاً شرقاً والمغرب

قلت : أسرعوا الكرة واثتوني بأهلكم أجمعين ، فلنا ولهم رب اسمه الكريم ،
والصلة التي بيني وبينكم - والحمد لله - لا تزال وثيقة ، لا ينال منها الدهر ، ولا تأخذ
منها عاديّات الأيام ، ولا يؤثر عليها شيء من تلكم الحوادث الغابرة ، أليس انكم
إخوتي ؟ ... وهل يوجد قوة في الأرض تستطيع أن تقطع هذه الصلة ؟ ... كلا ..
لان لمحي من لحكم ، ودمي من دمكم ، يسوءني ما يسوءكم ، ويسرني ما يسركم ،
أنا لكم ، وأنتم لي ، والله للجميع ؛

اثتوني بأبي ، واثتوني بأهلكم أجمعين ، فقد قيل : « اتَّخَذَ النَّاسُ أَبَا وَأَخًا
وَابْنًا ، ثُمَّ بَرَّ أَبَاكَ ، وَصَلَّ أَخَاكَ ، وَارْحَمَ ابْنَكَ » ، فلذلك بالاولى أريد أن
أبرّ أبي ، لأنه والذي على الحقيقة ، واريد أن أصلكم ، لأنكم إخوتي على الحقيقة ،
واريد أن أرحم أبناءكم ، لأنهم كابني منسى وأفرايم .

الى هنا ينتهي مرمى كلام يوسف عليه السلام .
وفي الختام أيها السادة اياكم أن تظنوا أنني بهذه الكلمات التي سطرتها يدي
الحقيرة ، سأعتر وأقول :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الأوائل
حاشالي من هذا ، ومن أقل من هذا ، فأنا الفقير تراب حقير ، أصيب وأخطيء
وأسرع وأبطيء ، ولكني أقول :

هذا ما وصل اليه فهمي القاصر ، فان حاز قبولاً عند أهل العلم والنظر ، فهو
من فضل الله عليّ ، إذ أصبت المخرّ ، بل ومن فضل الله عليهم ، إذ لم يغمطوا
الحق ، وان لم يرق في أعينهم ، فليضربوا به عرض الحائط وليرجعوا الى ما قاله
سادتنا المفسرون .
(مرحي)

(اذهبوا بقيصي هذا ...)

— ٤ —

ثم نهض السيد عبد الحق الطوموي (١) وقال :

تفاوت فهم العلماء في دلالة النصوص الإضافية

سمعت في هذه الجلسة من بعض الاخوان الحاضرين انتقاداً سرياً على السيد الغمراوي في ذهابه الى أن « القميص » هو الكسوة الرسمية المعمولة من الكتان التي قدمت ليوسف من ملك مصر ، وهي من الألبسة الرسمية التي لا يلبسها الا الملوك وكبار أهل البلاط والكهنة، ثم انتقد كذلك على مولانا عبد الحي الدمياطي في قوله إن هذا « القميص » هو قميص معنوي رُتِّيَّ هو عبارة عن « وزارة المالية » في البلاط ، أو عبارة عن انه « عزيز مصر » أو وكيل مطلق عن ملكها، وقال هذا المنتقد ، كيف يجوز لنا أن نخالف ما فهمه السادة المفسرون من قبلنا ؟ هذا انتقاد الأخ المحترم واني الآن ، أريد أن أضخم صوتي الى صوت السيد الغمراوي ومولانا الدمياطي في تفسيرهما القميص ، وبحجيباً عن انتقاد من انتقد عليها فأقول :

غير خاف إن دلالة النصوص الإضافية تختلف باختلاف درجات فهم السامعين وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو ، أحفظ الصحابة للحديث ، وأكثرهم رواية له ، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت أفقه ، بل عبد الله ابن عباس أيضاً هو أفقه منها ومن عبد الله بن عمرو .

وان لنا على تفاوت فهم العلماء لما يسمعون من الكلام شواهد :

منها ١ — قد أنكر النبي ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام ، عام الحديبية

(١) نسبة الى الطوم من البلاد المصرية .

من اطلاق قوله له : ﴿ انك ستأتيه وتطوف به ﴾ ، فانه لادلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتيه فيه .

ومنها ٢ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » — شمول لفظه لحسن الثوب وحسن النعل ، وأخبرهم أن الكبر بطل الحق وغمط الناس .

ومنها ٣ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله : « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه » — انه كراهة الموت ، وأخبرهم أن الكراهة للكافر ، إذا احتضر وبشر بكرامة الله ، أحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه .

ومنها ٤ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ (١٢٢: ٤) ان هذا الجزاء انما هو في الآخرة ، وبين ان هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن والمرض والنصب وغير ذلك من مصائبها ، وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة ..

ومنها ٥ — أنكر ﷺ على من فهم من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٨٢: ٦) — انه ظلم النفس بالمعاصي ، وبين انه الشرك ، وذكر قول لقمان لابنه ﴿ إياك أشركت لظلم عظيم ﴾ (١٣: ٣١) ، مع ان سياق اللفظ عند اعطائه حقه من التأمل يبين ذلك ، فإن الله سبحانه لم يقل : ولم يظلموا أنفسهم ، بل قال : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به واحاطته به من جميع جهاته ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه الا الكفر .

ومنها ٦ — فهم ابن عباس من قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (١٥: ٤٦) مع قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

(٢: ٢٢٣) — ان المرأة قد تلد لستة اشهر ، ولم يفهمه « عثمان » فهم برجم امرأة ولدت بعد ستة اشهر من زواجها ، حتى ذكره ابن عباس فأقر به .

ومنها ٧ — لم يفهم « عمر » من قوله ﷺ : « أُمرتُ ان اقاتل الناس حتى يقولوا : « لا إله إلا الله » ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم ، إلا بحقها » — لم يفهم من هذا قتال مانبي الزكاة ، حتى بين له الصديق ذلك ، فأقر به ..

ومنها ٨ — ماروى ان « عمر » استعمل « قدامة » بن مظعون على « البحرين » فقدم « الجارود » على عمر فقال : « ان قدامة شرب فسكر » — فقال عمر : « من يشهد على ماتقول ؟ » — قال الجارود : « ابو هريرة يشهد على ماتقول » — فقال عمر : « يا قدامة اني جالدك » — قال : « والله لو شربت كما يقولون ما كان لك ان تجلدني » قال عمر : « ولبة ؟ » — قال : « لأن الله يقول : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا وآمنوا وعمالوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا ﴾ (٥٦: ٥) فأنا من الذين آمنوا وعمالوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا واحسنوا ، شهدت مع رسول الله ﷺ بدرأ » و« أُحُدًا » و« الخندق » و« المشاهد » — فقال عمر : « الا تردون عليه قوله ؟ » — فقال ابن عباس : « ان هذه الآيات أُتزلن عذراً للماضين ، والا فالخمر محرمة على الباقين ، لأن الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان ﴾ (٩٣: ٥) — قال عمر : « صدقت » ، وتوضيحه ان هذه الآية التي تمسك بها الجارود ، إنما وردت جواباً لسؤال بعض الصحابة الذين استشكلوا عند نزول هذا الخطر في الخمر والميسر — حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر ، وبأكلون الميسر ، ولا سيما من حضر منهم غزوتي « بدر » و« أُحُد »

وكان امر الحمر عندهم أهم ، ومنهم من كلم النبي ﷺ في ذلك ، وفي رواية انهم سألوا عمن ماتوا ، وعن الغائبين الذين لم تبلغهم آية القطع بالتحريم ، فتزلت هذه الآية جواباً لهم ، وقيل ان الآية نزلت فيمن كانوا يشددون على أنفسهم في الطيبات من الطعام والشراب ، لافي الحمر ، ولو يتأمل الانسان سياق الآية لفهم المراد منها على نحو ما نقول ، فانه انما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه ، وذلك انما يكون باجتناب ما حرمه من المطاعم ، فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما .

ومنها ٩ - انه فهم من فهم من قوله تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (١٩٥:٢) حرمة انغماس الرجل في العدو ، حتى بين له « أبو أيوب » الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده الى التهلكة ، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وان الإلقاء باليد الى التهلكة هو ترك الجهاد ، والاقبال على الدنيا وعمارتها .

ومنها ١٠ - قال « الصديق » رضي الله عنه : أيها الناس ، انكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها ؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (١٠٨:٥) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » ، فاخبرهم أنهم يضعونها في غير موضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها ، كيف وهم لا يهتدون إلا إذا غيروا المنكر (١)

ومنها ١١ - أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه اليك ، وهو يقوم بطاعة الله عز وجل » - فقال لها : جزاك الله خيراً من مثنية على زوجها - فجعلت تكرر عليه القول ، وهو يكرر عليها الجواب ، وكان

« كعب بن سؤر » حاضرًا ، فقال له : « اقض يا أمير المؤمنين بينها وبين زوجها » - فقال « وهل فيما ذَكَرْتَ قضاء ؟ » - قال « إنها تشكو مباحة زوجها لها عن فراشها ، وتطلب حقها في ذلك » - فقال له عمر : « أما إذْ فهمتَ ذلك فاقض بينها » - فقال كعب : « عليّ زوجها » ، فأحضر ، فقال : « إن امرأتك هذه تشكوك » - قال « أقصرت في شيء من نفقتها ؟ » - قال : « لا » - فقالت المرأة شعراً :

يا أيها القاضي الحكيم رشده	آلهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله ما يرقده	فلست في أمر النساء أحمدده
زهده في مضجعي تعبده	فاقض القضا يا كعب لا تردده

قال فقال زوجها :

زهدي في فرشها وفي الحُلل	إني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة وفي السبع الطول	وفي كتاب الله تخويف جَلل

فقال « كعب » :

وأن خير القاضيين من عدل	ومن قضى بالحق جهر أو فصل
إن لها عليك حقاً يارجل	تصيبها في أربع لمن عقل
قضية من ربنا عز وجل	فأعطها ذاك ودع عنك العِلل

ثم قال : « إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن ، تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة » - فقال عمر : « والله ما أدري من أي أمريك أعجب ، أفمن فهمك أمرها ، أم من حكمك بينها ؟ . اذهب فقد وليتك قضاء البصرة » ذكر هذه الحكاية التيجاني في « تحفة العروس » نقلاً عن صاحب « الموفقيات » عن إبراهيم بن المنذر ، عن محمد بن معن ، ثم قال : وذكر « الرشاطي » هذا الحديث في كتابه المسمى « باقتباس الأنوار » وزاد بعد قوله « يوم وليلة »

« فلا تصل في ليلتها إلا الفريضة » ، وحكى أن « كعب بن سور » هذا ، شهد يوم الجمل ، فلما اصطفت الناس للقتال ، أخذ مصحفاً في يده وخرج يناشد الناس في دمائهم ، فقتل على تلك الحالة .

ومنها ١٢ - ماروي عن عمر ، انه كان على المنبر فقرأ ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ (٤٧ : ١٦) ، ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل « التخوف عندنا : التنقص » ثم أنشده :

تخوف الرجل منها تامكاً قر دأ كما تخوف عود النبعة السفن
« التامك » العظيم السنام ، و « القر د » الكثير القردان ، و « عود النبعة » شجر للقسي والسهام ، و « السفن » الحديدية التي يبرد بها خشب القوس ، وعلى ذلك فهو يقول : إن الرجل تنقص سنام الناقة ، كما تأكل الحديدية خشب القسي .

ومنها ١٣ - انه جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : تركت في المسجد رجلاً يفسر هذه الآية : ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ (١٠ : ٤٤) ، قال « يأتي الناس يوم القيامة دخان ، يأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام » - فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل الله أعلم » ، انما كانت هذا ، لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

ومنها ١٤ - أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة من اليهود ، التي لم ترتكب مانهيت عنه ، هل عذبوا ونجوا ؟ حتى بين له مولاه « عكرمة » دخولهم في الناجين ، دون المعذبين ، وهذا هو الحق ، لأنه سبحانه ، قال عن الساكتين : ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ ﴾ (١٦٣ : ٧) فاخبر انهم أنكروا فعلهم ، وغضبوا

عليهم ، وان لم يواجهوهم بالنهي ، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم ، فان الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرض كفاية ، فلما قام به أولئك ، سقط عن الباقيين ، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم ، وأيضاً فانه مباحانه إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به ، واعتوا عما نهوا عنه ، وهذا لا يتناول الساكتين قطعاً ، فلما بين « عكرمة » لسيده ابن عباس انهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين ، كساه برده ، وفرح به (١).

ثم تابع الخطيب « عبد الحق الطموحي » كلامه قائلاً :

وإذ وصلنا ههنا ، فاعتبرونا - يارعاكم الله - بمنزلة عكرمه ، واعتبروا أنفسكم بمنزلة ابن عباس ، فكما قبل ابن عباس تفسير عكرمة ، وفرح به وكساه برده ، فاقبلوا تفسيرنا وافرحوا به فقط ، ولا تزيد منكم أن تكسونا برودكم ، بل إن شاء الله تسلم برودنا منكم . وعرضنا ودعة عندكم . (قانون)

(اذهبوا بقيضي هذا ...) الخ

وقال الفاضل السيد يوسف المجدلي (٢)

رد تفسير كلمة « بصير » بمبصر « ضد الاعمى »

اني أوافق السيد الغمراوي ومولانا عبد الحي الدمياطي على تفسيرهما « القميص » بالرتبة العالية ، و« بصير » بعالم ، ومنع أن يكون « بصير » بمعنى مبصر بعينه ، وأزيد ههنا كلمة وجيزة ، وهي أنه من عرف سيدنا يوسف أن أباه صار أعمى حتى يقول « بصيراً » ويريد مبصراً ، وأما قول بعض المفسرين كالبعوي وأمثلة :

(١) الطرق الحكيمة

(٢) نسبة الى بلدة المجدل بالقرب من غزة (فلسطين)

« لما عرفهم يوسف نفسه ، سألمهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي ؟ - قالوا : ذهب عيناك من البكاء فأعطاهم قميصه ، وقال : إنذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، أي بعد مبعصراً » فيحتاج إلى برهان يثبت ، لأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولا يجوز التهم على الغيب إلا ببرهان ، قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ (٢٧ : ٢٦) والبنوي وأمثلة من المفسرين ، ليسوا رسلاً ، حتى يظهرهم الله على غيبه ، فيقولوا : إن يوسف سألمهم عن أبيه ... الخ .

هذه كلمتي الوجيزة على معنى الآية الكريمة ، واسمحوا لي أن ألحقها بالمواد التالية :

قبيص يوسف كان دثاراً

المادة ١ - كل ما يلي الجسد من الثياب فهو « شعار » وكل ما يلي الشعار فهو « دثار » وظاهر أن القميص الذي كان يلبسه يوسف من قبيل الدثار .

أشياء فوق الطبيعة في سورة يوسف

المادة ٢ - إذا قرأ المؤمن هذه السورة الشريفة وقع نظره على أشياء ، هي مما فوق الطبيعة ، مامن ذلك بد :

فمنها أولاً - رؤيا يوسف في حلمه سجدوا الأحد عشر كوكباً له والشمس والقمر ، ثم وقوع مصداق تلك الرؤيا كما رأى حرفاً بحرف .

ومنها ثانياً - بشارة يعقوب لابنه ، بأن سيجتبيه ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه وعلى آل أبيه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق ، ثم وقوع ذلك حدوث القذة بالقذة (١) .

ومنها ثالثاً - تقطيع النسوة أيديهن بالسكين ، بدون أن يُحْسِنَنَّ بِالْمِثْلِ كُنْ غَائِبَاتٍ عَنْ شَعُورِهِنَّ ، كَأَنَّمَا خُذِّرَتْ أَيْدِيَهُنَّ تَخْذِيرًا مُوَضَّعِيًّا .

ومنها رابعاً - حلما الفتيين في السجن ، وتأويل يوسف لهما ، فوقع ذلك التأويل حسبما تكلم يوسف لا أكثر ولا أقل .

ومنها خامساً - حلما ملك مصر الريان ، فتأويلها ، فتصديق الواقع لذلك التأويل ..

ومنها سادساً - اعتذار سيدنا يعقوب لأولاده ، أو احتجاجه عليهم حين انتقدوا كثرة ذكره ليوסף ، فقال لهم : « واعلم من الله مالا تعلمون » أي من حياة يوسف ، ثم ظهور صحة هذه الدعوى يوم ما جاءوه من مصر « بالقميص » فقال لهم : « ألم اقل لكم : إني اعلم من الله مالا تعلمون ؟ »

ومنها سابعاً - وجود يعقوب رائحة ولده وقتما كان البشير حاملاً قيصه ، خارجاً من آخر حدود مصر ، داخلًا في أول حدود فلسطين ، « فالذين يقرأون هذه السورة المحيدة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم من القول بالمعجزات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، بما يرونه حديثاً ماضياً ، لا يليق بالتربية العصرية ، التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية ، وقلمها يعظم في عين هذه الناشئة كتاب ينطوي على هذه العقائد ، مهما كان مقدساً ، وقصارى ما هناك أنهم يحترمون ذلك الكتاب لكونه مقدساً ودينياً ، أو يحترمونه احتراماً تقليدياً لأبائهم وأسلافهم ، أو لاعتبارات أخرى .

ونحن نحب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الانتقاد إلى مثل هذا المقام بأن العالم المتمدين لا يزال حتى هذه الساعة منقسماً إلى فريقين ، روحي ومادي ، وإن الفريق الروحي هو أكبر جداً ، وأحصى عدداً من الفريق المادي ، بل يوجد في أوروبا وأميركا واليابان عدد لا يحصى من حفول علماء الطبيعة ، يعتقدون

بوجود العالم الروحي ، وآخرون يعترفون بأن مُشكِـل الروح لم يتحل بعد ، وأنه لليوم لم يكنه أحد سر الروح واتصالها بالجسد ؛

وإذا رأينا أناساً مثل « فلاماريون » الفلكي الشهير ، و« فكتور هوغو » أكبر شعراء الفرنسيين ، وسواهما من صِيَّابة (١) العلماء — يعتقدون باستحضار الأرواح ، ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولاتحصى في أوربا مؤلفة خاصة للمباحث الروحية ، واثبات الحوادث التي لاتعمل إلا بوجود شيء وراء المادة — إذا تأكد لدينا هذا كله لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية ؛ ويوجد اليوم قسم من الناشئة يعتقدون أن علو الدرجة في التعقل والتبحر في العلم كثيراً ، يقتضيان رفض ما وراء المادة مما ورد في الدين ، ولكن نحن إذا علمنا أن رجالاً مثل « باستور » بمكان من العلم والاكتشافات الحرقومية التي لم يسبق إليها أحد ، ورجالاً مثل « علاسطون » في الشهرة وتوقد الذهن ، كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين — ظهر لنا أن الاتحاد التام ، ورفض الاعتقاد بما هو خارج عن المادة ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولا قيداً في التبحر في العلم (٢) .

عظمة يوسف يتوخي المنفعة لاهله ولو بعد ما اهانوه

المادة ٣ — تعليقاً على قوله : « واثبتوني باهلكم أجمعين » : علم يوسف عليه السلام أن الرجل العظيم هو من يتوخي للناس المنفعة ، ويوطيء لهم أسباب السرور ، ولو كانوا قد أهانوه ، ولذلك طلب اليهم الإتيان بأهلهم وكان هذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها وعند وقتها ، لأنهم كانوا في فلسطين

(١) الصياغة الحالص والصميم والسيد .

(٢) مأخوذ من تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتابه « حاصر العالم الاسلامي » .

في ضيق عظيم ، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف ، وحنّنه عليهم ، حتى لو لم يعثروا على يوسف أخيه ، لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه ، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم ، ويأمرهم بالإتيان بأهلهم أجمعين ، ولا يخفى ما في هذا العمل الذي تكرم به يوسف ، من نسيان أو تناسي ما كانوا عملوا معه من بخلهم عليه بوجود شخصه بينهم ، فهل آن لنا أن نفتدي بهذا القدوة الطيبة ، ونتناسى أعمال أعدائنا معنا ، لاسيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا !.

وربما يكون سمح عن إخوته ، ورغب اليهم في رجوعهم لمصر ، لكي يعيشوا عنده عيشة طيبة ، مراعاة لوالده الشيخ الجليل ، ولأهل إخوته وسلائهم ، كما قيل : « بعلّة الزرع يسقى الضرع » وقيل : « لأجل الورد يشرب العليق » ، وأيضاً فقد رأى يوسف انه لا يحسن انفراده بالعيشة بمصر ، متمتعاً بالنعم الرغد ، دون إخوته وسلائهم ، وهذا هو مذهب العرب حيث يقول قائلهم (١) :

ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

وهذا هو تعليم الدين الاسلامي ، كما في الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وهو أيضاً التعليم المسيحي ، كما نقل عن السيد المسيح انه قال : ﴿ كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا هكذا أنتم أيضاً ﴾ (مت ١٢: ٧).

لزوم استخدام المال والمنصب والجاه في منفعة ذوي الرحم

المادة ٤ - تعليقاً ثانياً على قوله « واثتوني بأهلكم أجمعين » : المال والمنصب

والجاء هو لصالح المعاش والدنيا ، وشرف المنزلة في أعين الناس ، فيجب استخدام ذلك كله للأقارب والإخوان ، فمن كان له مال أو منصب ولا ينفع بهما ذوي رحمه كان كالذي يعد فقيراً ، وإن كان موسراً ، ويحسب سؤقّة ، وإن كان ذا ولاية ، وإن أولى ما يكون في المال والجاه استخدامهما في سبيل صلة الرحم ، واستثمارهما لمنفعة الأقارب ، فلذلك أراد يوسف أن تشاطره إخوته وأهله جميعاً في ثمار هذا المركز ، الذي أعطاه الله إياه .

أوصاف المؤمنين الاربعة تمت ليوسف

المادة ٥ — بما جرى ليوسف وما أتاه هنا ، تمت فيه الأوصاف الأربعة المذكورة في ضمن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَانصَرُوا ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٤: ٨) ، فيوسف هاجر من فلسطين بلاد الخوف ، لمصر بلاد الأمن ، وجاهد نفسه بترفعه عن النزول على إرادة سيده ، وآوى إخوته وأهليهم ، ونصرهم على شيطانهم ، لانه غفر لهم وصفح عنهم .

وما أنسب ما وقع من يوسف بالمراتب الثلاث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَالكَافِرِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤: ٣) فهو عليه السلام كظم غيظه بقوله : « لا تثريب عليكم اليوم » ، ثم عفا عنهم بقوله « يغفر الله لكم » ، ثم أحسن اليهم بقوله : « وائتوني بأهلكم أجمعين » ونظير هذا ما وقع (المأمون) حينما كان خادم وضوئه يصب عليه ، فسقط الاناء ، فغضب المأمون ، فقال له الخادم ، « والكافرين الغيظ » — فقال « كظمت غيظي » — قال « والعافين عن الناس » — فقال « عفوت عنك » — قال « والله يحب المحسنين » — فقال « اذهب فأنت حر » .

وكان « المنصور أبو عامر » - وهو أحد ملوك اسبانيا ، وإن شئت قلم :
الأندلس - أمر بسجن فتى ، لأن عليه ثلاثة آلاف دينار للخزينة ، ثم عفا
عن سجنه ، فقال الفتى :

أما ترى عفو أبي عامر
كذلك الله إذا ماعفا

لابد أن تتبعه منة
عن عبده أدخله الجنة

فسامحه « المنصور » في ذلك المال .

حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب اهلهم لمصر

المادة ٦ - كانى باخوة يوسف العشرة ، بعد هذه المبادلات في الحديث ،
وبعدما فارقه ، عتب بعضهم على بعض ، وتبرأ قسم منهم من القسم الآخر ، ولا بد
أن يكون « رأوين ويهوذا » من اللاتين ، كما أنه لا ريب أن « شمعون » كان من
الملومين ، أو رئيس الملومين ، أو هو الملوم وحده ، ولأنشك في أن « دان ونفتالى »
كان لحقهما وهما أمام يوسف ، خجل عظيم مامن ذلك بد ، وسببه أنها ابنا « بلهة »
جارية أم يوسف ، وهي التي انتقل يوسف هو وشقيقه (بنيامين) لخيمتها ، بعد
موت أمها (راحيل) ، فترى عندها مع ولديها المذكورين ، ثم هل هذه
الحادثة على هذا الوجه ، توقظ العاقل ، فيشح بنفسه ، ولا يطوح بها في المثي وراء
الغايات النفسية .

نتيجة رحلة بني إسرائيل لمصر

المادة ٧ - كانت النتيجة من رحلة بني إسرائيل لمصر ، أنهم بعد موت
يوسف عليه السلام استعبدوا في مصر ، أيام فرعونها (آحس الأول) مؤسس
الدولة الثامنة عشرة ، إلى أيام (ستي الأول) منشيء عظمة الدولة التاسعة عشرة ،
إلى أيام ابنه (رعسيس الثاني) أعظم ملوك هذه الدولة المذكورة ، ثم أخيراً

توثقوا كالمصريين ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو حركة (شمعون) الثورية ، التي كانت حين كان يوسف ابن ١٧ سنة يوم عدائه الشديد ليوسف عليه السلام ، يوم مفاوضته لاختوته في قتله أو طرحه أرضاً ، يوم ما قرروا أخيراً بإجماع الكلمة القاءه في جب (دوئان) فلعنة الله على تلك الساعة المشؤومة ، تلك الساعة الشيطانية ، ساعة النحاسة ، التي لا يمثّلها اليوم سوى ما حدث في (الحرب العالمية الأولى) ، مع النظر لسببها الأساسي ، وهو إطلاق (برنزيب) الصربي رصاصة على (الارشيدوق فرنز) ولي عهد النمسا عام ١٩١٤ م .

الارهاص والمعجزة

المادة ٨ — إن حملنا قوله « يأت بصيراً » على معنى « يصير بصيراً » تكون الحادثة من قبيل خوارق العادة ، فإن كان هذا قبل نبوة يوسف ، كان من قبيل الإرهاص ، وإن كان بعدها كان من قبيل المعجزة .

عطايا يوسف لزوجته عند زهابهم لحلب أهلهم

المادة ٩ — (اعطاهم يوسف عليه السلام عجالات ، أي مركبات تجرها الحيوانات ، لأجل أبيه وأولادهم ونسائهم ، وأعطاهم زاداً للطريق ، وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب ، وأما بنيامين فاعطاه ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب ، وكانت هبة الثياب تعد في الشرق اكراماً ممتلئاً ، وأرسل لأبيه عشرة حمير حاملة من خيرات مصر ، وعشر أُنْتِ حاملة حنطة وطحاماً ، لأبيه لأجل الطريق ، أي طريق الحجى إلى مصر) (تك ٤٥ : ٢١-٢٣) .

عودة القافلة بالبشارة

آ (٩٤) *... ولَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ، قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لَأَجِدُ
رِيحَ يَوْسُفَ !! لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ... *

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والتسعون فقام مولانا عبد الحى
الدمياطي وقال :

صدع اخوة يوسف بأمر أخيه ، وانصاعوا لشارته ، وركبوا دوابهم ،
ونشطوا في العَدْوِ ، وساروا سيراً حثيثاً ، لابلون على شيء ، حتى جاوزوا
الحدود المصرية ، (ولما فصلت) أي انفصلت (العير) الإبل ، وتعدت « الفرما »
وهي آخر حدود المملكة المصرية ، وهم يحملون بشرى اسناد « وزارة المالية »
لهدة أخيه يوسف ، ونبأ ذلك « القميص » الكريم الذي قصه الله إياه ،
(قال أبوهم) يعقوب عليه السلام ، حسباً ألهمه الله تعالى ، وهو جالس بين ظهري
أولاد أولاده (إني أجد) — من الوجدان الذي كما يطلق على الحسي ، يطلق على
المعنوي — أي أجد بقلبي وأدرك بالهامي ، (ربح) عمكم (يوسف) — والربح
ههنا بمعنى القوة والمنصب والشوكة والدولة والغلبة والنصرة ، فإنها تأتي بكل هذه المعاني
كما في معاجم اللغة ، قال تعالى : * وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ *
(٤٧ : ٨) أي قوتكم أو شوكتكم أو دولتكم الخ . . ، ويقولون : « هبت
ريح فلان » إذا واثاه الدهر وساعدته المقادير وتحسن حاله عن ذي قبل ، وانتصر
على أعدائه وتغلب وقوي وأعطي مراده (لولا أن تفندون) أي تُعَجِّزُون
وتكذبون وتُسَفِّهُون ونجهلون وتضعفون وتهرمون ، — والتفنيد النسبة إلى الفند،
وهو الخرف وانكار العقل من الهرم ، — أي لولا تفنيدكم إياي لصدقتهموني .

هذا ما أقوله أيها السادة تكميلاً وتعصيلاً لما ذهبت إليه سابقاً من أن هذا « القميص » هو أمر معنوي عبارة عن رتبة الوزارة والله تعالى أعلم .

(ولما فصلت العير . . الخ)

— ٢ —

وقام الشيخ نور الدين المدرس في جامعة عليكره في الهند وقال :

تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم

كان يوسف عليه السلام تكلم مع اخوته بكلامه الآنف الذكر ، فسمعوا ما لم يحجر في ظنهم ، ولا سنع على فكرهم ، سمعوه فأميتت خيقتهم ، وانتعشت أرواحهم فقالوا : « نفعل ما مورين طائعين » ، ثم ركبوا دوابهم ووخزوها وأطلقوا لها الأعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً ويطوون البيداء طياً ، ساروا ووجهتهم فلسطين ، يقطعون السهل والوعر ، وهم يودون أن يطيروا على أجنحة النسيم ، وصاروا يتفكرون في أمر يوسف ، ويتعجبون من هذا الحال الذي وصل إليه أخوهم ، ويرددون بينهم وبين أنفسهم معنى قول الشاعر :

والجدّ يفتح كل باب مغلق	الجدّ يدني كل أمر شاسع
عوداً ، فأثمر في يديه ، فحقق	فاذا سمعت بأن مجدودا حوى
ماء ليشربه ، فغاص ، فصدق	واذا سمعت بأن محروماً أتى

مشت دوابهم في تلك الصحراء الرملية ، منحدره تارة ، ومرتفعة أخرى ، وهي تمخر عباب السراب مخراً ، حتى قاربوا آخر حدود مصر ، ولما انفصلت دوابهم من « العريش » آخر حدود المملكة المصرية ، وجاوزت حيطانه ، قال يعقوب بلسان الدهشة ، وبصوت مختنق ، ونفس أسيفة ، وهو جالس بين ظهراني أولاد أولاده : « يا حقدتي ، يا للعجب ! لعمري إنه يلوح لي أن الزمان المنتظر قد اقترب ، إني لأجد

ربح عمكم يوسف العاطر ، وأن « نسيم الصبا جاءت برّيا القرنفل » قد حمله
النسيم الى قلبي فأنعشه ، وإلى أنفي فملأه عرفاً شذيا — هذا ما قاله
يعقوب ايها السادة ، شأن كل عاشق إذا سرت « نسمة عطرة » وجد ربح
معشوقه فيها ، وإذا ومض « البرق » ظن أنه وميض ثغره ، وإذا سمع « تغريد
الطيار » تخيل أنه صوت حبيبه ، وإذا لمس « ثوب قطيفة » ، تصور أنه لمس
جسمه ، وإذا رأى « غصناً معتدلاً » خال أنه قوامه ، وهكذا ... وهذا التنوع
من التطورات لا يدركه إلا أهل الحب كما قال :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبا به إلا من يعانها

وبعبارة أخرى : كان يخيل لسيدنا يعقوب عليه السلام ، أن يوسف ملأ قلبه ، ثم
فاض عنه الى جميع الكائنات التي بين يديه ، فكان يرى في « صفحة السماء » صورة
يوسف ، ويسمع في « تغريد البلابل والشحارير » صوت يوسف ، ويستشرق من
« لآلأ الشمس » نور يوسف ، ويترأى له من « باقة الورد والياسمين والفل » لون
يوسف ، ويستروح في « النسيم العطر » رائحة يوسف ، ويرى في « بريق السماء »
ثغر يوسف ، وفي « الماء الرقراق » رقة عواطف يوسف ،

لقد فصلت « العير » وحمل الصبا رائحة ابنه ، فهاج وجده وحنينه وأخذ
يعانق الهواء ، ويضمه اليه ، كما يضم حبيباً ملقى بين يديه .

واختم كلامي هذا بتوجيهات عديدة ربما نقدر أن نفهم بها كلام سيدنا يعقوب
عليه السلام ، ونوردها فيما يلي :

تنسم يعقوب ربح يوسف عابقة من قميص الكتان

التوجيه الأول — لقد اثبت الشعراء ان للحب خصائص ، منها « تواصل
الأرواح » لاسيما عند القرب ، ومنها « خفق القلوب » عند مرور الأحبة ، ومنها
« تخيل صورة » المحبوب ، ومنها « تنسم ريحه » ، كلها هبت الصبا ؛ والمحـب يتحسس

بما لا يتحسس به سواء ، وعليه فلا غرابة في أن سيدنا يعقوب تنسم ربح ولده
عابقة من القميص — على القول بأن القميص لباس — فلهب سيال يخرق الصرة
التي فيها القميص ، كما تخرق الكهرباء والحرارة الأجسام .
وعلى هذا المذهب الذي نحا إليه الشعراء وردت عنهم منظومات كثيرة منها
قول بعضهم :

أيا جبلي « نعمان » بالله خلّيتا نسيم الصبا يخلص اليّ نسيمها
فان الصبا ربح متى ماتنسمت على نفس مهموم أزالتمومها
ولما صرنا الأديب السيد أحمد عبيد اللّمشقي :

وزهرة راق منها منظر عجب إذا تقطت بنديّ كالدر منتشر
قد فاتها الأرج الزاكي ولو علقت بمن أحب لفازت بالشذا العطر
ولجمل بشينة :

أياريح الشمال أما ترّيني أهيم وإني بادي النحون
هي لي نسمة من ربح « بُشْن » ومّني بالهبوب الى « جميل »
ولعلية ابنة المهدي العباسية أخت هرون الرشيد :

ومعترّب « بالمرج » بيكي بشجوه وقد غاب عنه المُستعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشق يستشفي برائحة الركب
وقال بعضهم :

واني لأستشفي بكل غمامة يهب بها من نحو أرضك ربح
وقال آخر :

ألا يانسيم الصبح مالك كلما تقربت منا فاح نشارك طيبا ؟
كأن سليمي نُبيّت بسقامنا فاعطتك رّياها ، فجئت طيباً

وقال البحري :

ورقٌ نسيم الريح حتى حسبته
يجيء بأنفاس الأحيّة نغمها
ومن ميمية البوصيري :
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من إضم

حس يعقوب رائحة قميص يوسف بالشَّم

التوجيه الثاني — ربما ان الله تعالى كان أرسل على الحقيقة ، رائحة قميص يوسف عليه السلام مع نسيم الصبا ، وان الآله القدير الذي أوصل صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو على المنبر بالمدينة — الى قائد جيش المسلمين «سارية» بن زُئيم ، وقيل ابن رستم الجُلُحي ، وهو في نهاوند (١) لهو قادر على أن يوصل ريح قميص يوسف من آخر حدود مصر الى فلسطين ، وقد قرأنا في الصحف السيارة أنه وقف رجل وامرأة في لندن في غرفة « مختبر » تحتوي على آلة نقل الصورة (تليفزيون) المدهشة التي تحمل الصورة « كما يحمل الراديو الصوت » الى مسافة الالف الأميال ، فشوهدت صورتها في غرفة « مختبر » آخر ، في بلدة قريبة من نيويورك . فكما نؤمن بهذه الحوادث المستندة على آلات وأعمال فنية ، يجب أن نؤمن بالحوادث التي أخبر بها خالق الفنون والآلات .

تحس يعقوب برائحة يوسف تحسناً معنوياً

التوجيه الثالث — قال الجاحظ : للعرب إقدام على الكلام ، ثقة منهم بفهم

(١) وفي هذه القصة كرامتان ، احدهما ان عمر (رض) اطلع وهو على منبر حرم المدينة على حال جيش سارية مع العدو في نهاوند ، وان العدو اعد له كميناً في الجبل ، والثانية انه ناداه « ياسارية الجبل » فأسمعه ، كذا روى هذه القصة البيهقي من المحدثين وتناقلها كثير من المؤرخين .

المخاطب من أصحابهم عنهم ، كما جوزوا أن يقولوا : « ذُقتُ » ، لما ليس يطعم ، وهو قول الرجل اذا بالغ في عقوبة عبده : « ذُق » ، و « كيف ذُقتَه ؟ » أي وجدت طعمه ، قال الله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩:٤٤) ، وقال تعالى ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ، بما كانوا يصنعون ﴾ (١١٢:١٦) وقال تعالى : ﴿ فذاقوا وَبَالَ أَمْرِكُمْ ﴾ (١٥:٥٩) ثم قالوا : « طعمتُ » لغير الطعام ، كما قال العَرَجِيُّ :

فَإِنْ شِئْتُ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أُطْعَمْ تَقَاخًا وَلَا بَرْدًا (١)

فنظيره ههنا قول سيدنا يعقوب : « إني لأجد ربيع يوسف » حال كون كل من يوسف ، وقيدصه ليس له رائحة ، وإنما هو مجاز عن تحسسه بآبئه تحسناً معنوية على الوجه الذي يفهمه هو ، ويعلمه الله تعالى.

اقتباس يعقوب ربيع يوسف بدون وساطة الحواس

التوجيه الرابع — ثبت أن الأنفس البشرية يقتبس بعضها العلم من الموجودات بشراً أو غير بشر ، وهذا الاقتباس يكون بدون وساطة الحواس وبدون الاستنباط العقلي ، كما شاهده بعض الأطباء الماديين ، الذين كانوا ينكرون مثل هذا ، فانه روى عن مريض كان يعالجه ذلك الطبيب في مصر القاهره انه — أي المريض — قال : « إن فلاناً — وذكر قريباً له في الاسكندرية — يريد أن يسافر الآن إلى مصر ، لأجل أن يعودني في مرضي » ، ثم أن هذا المريض عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ، ثم الوقت الذي وصل فيه الى محطة مصر ، ثم لم تكن إلا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هذا القريب ، وكان ذلك الطبيب ينتظره لاستبانة المكاشفة ؟؟.

(١) فقه اللغة ، والتقاخ كغراب : الماء البارد والنوم في العافية والامن ، والبرد : النوم.

وكان من اخبار هذا المريض انه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ،
ويخرج من دمه ما يبلغ وزنه كذا ، فكان كما قال !! .
هذه حكاية المريض ، فلم لا يجوز أن يقتبس سيدنا يعقوب عليه السلام ريح
ولده يوسف ، كما اقتبس هذا المريض ريح قريبه ؟ اللهم ان هذا جائز عقلاً
ومروياً نقلاً ..

وفي صحيح مسلم ، ان « أنس بن النضر » قال يوم أُحُد : « واهاً (١) لريح
الجنة ، أجده دون أُحُدٍ » فقاتل فيه حتى قتل ، وقد ورد في الحديث الصحيح :
« إن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام » ، فكل هذا وما اليه يحمل على ماسبق .

ادراك يعقوب رائحة يوسف الهاماً بقلبه

التوجيه الخامس — تعلمون ان الادراك يكون حسياً ، أي بإحدى الحواس
الخمس ، ويكون معنوياً ، أي بالقلب ، فأما الأول ، فلأن الله جعل في العيين ،
قوة باصرة ، كما جعل في الأذن ، قوة سامعة ، وفي الأنف قوة شامة ، وفي الجلد
قوة حاسة ، وفي اللسان قوة ذائقة .

وأما الثاني ، وهو ادراك القلب ، فهو انكشاف صورة المعلوم للانسان ، بحيث
تكون نسبته إلى القلب ، كنسبة المرئي إلى العين مثلاً ، وقد جعل الله سبحانه
القلب يبصر ويعمى ، كما تبصر العين وتعمى ، قال تعالى : ﴿ فَإِنهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٦ : ٢٢) ، فالقلب
يرى ويسمع ويشم ويذوق ويمس ، بل هذه القوى فيه ، أبلغ من قوى
الحواس الخمس ..

والخلاصة : الادراك نوعان ، إدراك بالحس ، وإدراك بالبصيرة ، فادراك

(١) واهاً كلمة تحن وتلهف .

الحس وقوعه على نفس المحسوس أو مثاله الخارجي ، كرؤية وجه الانسان أو رؤية مثاله في المرآة والماء والصورة الشمسية ، وأما الادراك بالبصيرة ، فوقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي ، فيكون ادراكه له بمنزلة إدراك العين مثلاً ، للصورة الخارجية ، أو الأنف مثلاً « للريح » الخارجية ، وقديقوى سلطان هذا الادراك الباطن ، بحيث يصير الحكم له ، ويقوى استحضر القوة العاقلة لمدرکہا بحيث يستغرق فيه ، فيغلب حكم القلب على حكم الحس ، فيستولي على السمع والبصر والأنف ، بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج ، وكذلك يشم « ريحه » ، وهو في النفس والذهن فقط ، لكن لغلبة الشهود ، وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب ، واستيلائه على القوى ، صار كأنه مرئي بالعين ، مسموع بالأذن ، مشموم بالأنف ، بحيث لا يشك المدرك في ذلك ، ولا يرتاب البتة ولا يقبل عذلاً : وحقيقة الأمر أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية ، تابعة للمعتقد .

فذلك الذي أدرك بعين القلب أو سمع القلب أو « أنف » القلب ، إنما هو شاهد دال على الحقيقة ، وليس نفس الحقيقة ، فإنّ شاهد نور جلال الذات في قلب العبد ، ليس هو نفس نور الذات الذي لا تقوم له السموات والأرض ، فانه لو ظهر لها ، لتدكدكت وأصابها ما أصاب الجبل ، وكذلك شاهد نور العظمة في القلب ، إنما هو نور التعظيم والاجلال ، لا نور نفس المعظم ذي الجلال والاکرام ، وهكذا هنا شاهد « ريح » يوسف ، ليس هو نفس رائحة يوسف ، ولكنه مثاله في المطر والشذا ، وأما نفس رائحته وحقيقتها ، فهي وراء ذلك ؛

فهذه الأمور التي قد يدركها الانسان ، إنما هي شواهد تقوم بقلبه ، كما يقوم بقلبه شاهد من الآخرة والجنة والنار ، وما أعد الله لأهلها ، وهذا هو الذي وجده انس بن النضر (رض) يوم أُحُد ، لما قال : « واهاً لريح الجنة ، اني أجد ريحها دون أُحُد » ومن هذا قوله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا »

— قالوا : وما رياض الجنة ؟ — قال : حِلَقُ الذكر ، وقوله : « ما بين يتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ، فهو روضة لأهل العلم والايمان ، لما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة ، حتى كأنها مرئية لهم رأي العين ؛ ولكن إذا قصد المناق هناك ، لم يكن ذلك المكان في حقه ، روضة من رياض الجنة ، ومن هذا حديث : « الجنة تحت ظلال السيوف » (انتهى ملخصاً من بعض كتب الصوفية) .
وبناء على ما تقدم فلا مانع من أن المقصود من كلام يعقوب عليه السلام ، انه أدرك بقلبه إلهاماً رائحة يوسف ، ويقصد من تلك الرائحة « الأثر » من آثاره ، كما يقال : « هذا الثوب أو هذا الكتاب أو السيف من رائحة فلان » اي هو اثر من آثاره ، فكأنه يقول : إني لقد اتقي في روحي وصار عندي وجدان قلبي ، من طريق الالهام ادركت به اثرأ من آثار ولدي يوسف ، وهو القميص المزمع ان يكون عندي قريباً .

جواز ادراك يعقوب رائحة يوسف كما يدرك المنوم تنويعاً مغناطيسياً للآشياء
التوجيه السادس — للأنبياء أحوال ، يغيبون فيها عن الناس الحاضرين ، ليجدوا ما غاب عن حواسهم ، من قبيل ما يحصل عند المنوم تنويعاً مغناطيسياً ، وهذا النائم يرى البعيد ، كما يرى القريب ، وتسمى تلك الحالة « بالرؤيا الواضحة » ، وفيها يشعر الانسان ايضاً بالاشياء ، وان كانت عيناه مغمضتين ، بل يمكنه القراءة بأي جزء من جسمه ، فقد حدث في محاكم مصر بتاريخ ٣ كانون الاول سنة ١٩١٣ م ، انه نومت فتاة قبطية تنويعاً مغناطيسياً ، فكانت تقرأ الساعة بجمعتها امام القضاة ، وكانت ترى الاشياء من قفاها ، ورأت ما بيد أحد المحامين ، وعيناها معصوبتان ، ويد المحامي مقبوضة . فاذا تقرر هذا ، فهذه الحالة التي كانت حصلت ليعقوب عليه السلام ، ليست بأقل من حالة المنوم تنويعاً مغناطيسياً ، بل هي أقوى وأرقى بكثير ، ومن النواذر التاريخية التي لا تبعد صحتها ، ماروي ان عمر رضي

الله عنه ؛ كان يخطب بالمدينة ، فصاح في اثناء خطبته : « ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم » ، ثم عاد الى الخطبة ، حتى قال فيه بعض الصحابة : « إنه جُنّ » ، ولما سئل رضي الله عنه عن ذلك ، قال باقده رآى جيوش المسلمين تكاد تفتك بها الاعاجم على أبواب « نهاوند » فصاح بقائدهم ليتحصن بالجبل ، وبعد ذلك جاءت الاخبار بأن المسلمين كادوا ينهزمون ، لولا أن « سارية » القائد ، سمع مع بعضهم هاتفاً يرشدهم الى الجبل ، فدهش الناس لذلك ، وعلموا منه مقدار نفس عمر وكبر روحه ، وهذه من اعظم مناقبه ، رضي الله عنه .

شواهد على ادراك الرائحة بالالهام القلي

التوجيه السابع — كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخ اسمه « زيد » (١) قتل في جيش اليمامة (٢) فكان عمر يقول : « ماهبت الريح إلا وجدت فيها رائحة زيد ، ولهذا قال أبو العلاء المعري من قصيدة له في كتاب الزوميات :
والقلب يَغْرِى (٣) بما تُهْدِي الرياحُ له

كحلمها الريحَ من زيد إلى عمرا

فما كان يفهمه العرب في كلام عمر (رض) هو الذي ينبغي أن نفهمه في هذا القول الذي صدر من سيدنا يعقوب عليه السلام ، فالقول واحد ، فيجب أن يكون المعنى واحداً .

(١) القول انه اخوه مصرح به في « الاغاني » وفي « منهاج السنة » خلافاً لما في ديوان ابي العلاء المعري من انه ابنه .

(٢) ارسل ابو بكر هذا الجيش في خلافته تحت قيادة خالد بن الوليد لبني حيفة في اليمامة حيث ارتدوا وآمنوا بمسيلمة .

(٣) من غري الرجل بكدا : اولع به ولرم ذكره .

ونظير هذا ما في الأغاني لأبي فرج الأصبهاني ، في أخبار « عروة بن الورد »
وأحاديثه الحسان ، وقد كان مشهوراً بالسرقه والاحسان ، رَوَى أَنَّهُ جَاءَ لَيْلاً
ليسرق شيئاً ، فكمّن في كَسْرٍ بيت رجل ، كان غائباً عن زوجته ، فأناها عبد
زوجها ، وكان أسود — بعلبة فيها لبن ، وقال لها : « اشربي » — فقالت :
« لا . . أو تبدأ » ، فبدأ الأسود فشرب ، و « عروة » ينظر ، ثم جاء رجلها ،
ودعا بالبلبة ليشرب ، فقال حين ذهب ليكرع : « ريح رجل ورب الكعبة » ،
يتهمها باتخاذ خدن ، فقالت امرأته : « وأي ريح رجل تجده في إنائك غير ريحك ؟ ! »
ثم صاحت بخفاء قومها ، فأخبرتهم خبره وقالت : « يتهمني ويظن بي الظنون » ،
فأقبلوا عليه باللوم ، حتى رجع عن قوله ، ثم أَوَى الرجل إلى فراشه ، فوثب
عروة إلى فرس ذاك الرجل ، فذهب به ، فركب الرجل فرساً عنده أخرى ،
وجعل يركض وراءه ، فلما انقطع عن البيوت ، قال له « عروة » : « أيها الرجل
قف ، أنا عروة بن الورد ، وقد رأيت الليلة منك عجباً ، فأخبرني به وأرد إليك
فرسك » — قال : « وما هو ؟ » — قال : « شممت ريح رجل في إنائك ، وقد
رأيت أن الرجل حين آثرته زوجته زوجتك بالإناء ، وهو عبدك الأسود ، فقلت ريح
رجل ، فلم تزل زوجتك تتنيك عن هذه حتى انثنت ، فرأيتك في هذه الخصلة
أكمل الناس ، ولكنك تتني وترجع ! » فضحك الرجل وقال : « إن الذي رأيت
من صرامتي وحسن فراستي ، فهو من قبل أعمامي ، ورأيت من ضعفي وعدم
ثباتي ، فهو من قبل أخوالي ، وهم بطن من خزاعة ، والمرأة التي رأيت عندي ،
امرأة منهم ، وأنا نازل فيهم ، وأنا منذ الآن للاحق بقومي ، وخارج عن أخوالي
هؤلاء ، ومُخَلِّ سبيل المرأة !!! » — فقال عروة : « خذ فرسك راشداً » —
قال : « ما كنت لأخذه منك ، وعندني من نسله جماعة مثله ، فخذ مباركاً
لك فيه ! » .

وفي الأغاني أيضاً : حدث عمرو بن الزبير قال : سأل « كلاب » بن أمية ابن الأسكر : « أي الأعمال أفضل في الاسلام ؟ » — « فقليل له : الجهاد » ، فسأل عمر بن الخطاب فأغزاه في جيش مع أبي موسى الأشعري ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، فلما طالت عنه غيبة « كلاب » قال :

أناديه فيعرض في آباء
تركت أباك مرعشة يده
فلا وأبي كلاب ما أصابا
وأملك ماتسيف لها شرابا
وإنك والتماس الأجر بعدي
كباغي الماء يتبع السرابا

وطالت غيبة « كلاب » ، فأهتير^(١) « أمية » وخلط جزعاً عليه ، ثم أتى عمر يوماً ، وهو في المسجد ، وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه ، ثم أنشأ يقول :

أعاذل قد عدلت بغير قدر
فإما كنت عاذلي فردّي
ولا تدرين عاذل ما ألاق
« كلاباً » إذ توجه للعراق
فتى الفتيان في عسرٍ ويسرٍ
شديد الركن في يوم التلاقي
فلا وأبيك ما باليت وجددي
ولا شغفي عليك ولا اشتياقي
وإيقادي عليك إذا شتونا
وضمكت تحت نحري واعتناقني
فلو فلق الفؤاد حطام وجد^(٢)
لهم سواد قلبي بانفلاق
سأستعدي على الفاروق رباً
له دفع الحجاج إلى بساق^(٣)
وأدعو الله مجتهداً عليه
بيطن الأخشبين^(٤) إلى دفاق^(٥)

(١) اهتر الرجل : فقد عقله من كبر أو مرض أو حزن .

(٢) حطام الوجد : الحزن الذي يكسر القلب .

(٣) بساق : جبل بعرفات .

(٤) الأخشبان : جيلامكة .

(٥) دفاق : واد .

إن « الفاروق » لم يرد « كلاباً » إلى شيخان^(١) هَامُهَا زواقي^(٢)
 قال فبكى « عمر » بكاءً شديداً ، وكتب برد « كلاب » إلى المدينة المنورة ،
 فلما قدم دخل إلى عمر ، فقال له : « ما بَلَغَ من برِّك لأبيك ؟ » - قال : « كنت
 أوثره وأكفيه أمره ، وكنت أعتد إذا أردت أن أحلب لبناً - أغزر ناقة في
 ابله واسمها فاريجها^(٣) واطرکها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها^(٤) حتى تبرد ،
 فاحتلب له فأسقيه » ، فبعث عمر إلى أمية من جاء به إليه ، فأدخله يتهدى^(٥) ،
 وقد ضعف بصره وانحنى ، فقال له : « كيف أنت يا أبا كلاب ؟ » - قال : « كما
 تراني يا أمير المؤمنين » - قال : « فهل لك من حاجة ؟ » - قال : « نعم ، كنت
 أشتهي أن أرى كلاباً ، فأشمته شمة ، واضمته ضمة قبل أن أموت » - فبكى عمر ثم
 قال : « ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى » ، ثم أمر « كلاباً » أن يحتلب
 لأبيه ناقة ، كما كان يفعل ، وبيعت إليه بلبنها ، ففعل ، فناوله عمر الإناء وقال :
 « دونك هذا يا أبا كلاب » ، فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال : « نعم والله يا أمير المؤمنين ،
 أني لأشمت رائحة ولدي كلاب من هذا الإناء !! » ، فبكى عمر وقال : « هذا
 كلاب عندك حاضر أقد جئتاك به » ، فوثب إلى ابنه وضمه إليه وقبله ، وجعل عمر
 يبكي ومن حضره ، وقال لكلا ب : « الزم أبويك فجاهد فيها ما بقيا ، ثم شأنك
 بنفسك بعدها » ، وأمر له بعطائه ، وصرفه مع أبيه ، فلم يزل معه مقيماً ، حتى
 مات أبواه !!!

ومن هذا القبيل قول امرأة « كعب بن الأشرف » : « إني لأسمع

(١) شيخان : هذا على لغة من ينصب ويجر المثنى بالألف

(٢) زقى الصدى : صباح ، والهام جمع هامة ، والصدى قيل هو طائر صغير يخرج من رأس الميت (على زعمهم) .

(٣) اراح الابل : ادخلها في المراح أي الماوي

(٤) اخلاف : جمع حلف بالكسر وهو صرع الناقة

(٥) التهادي : مشي فيه ثقل وتمايل وضعف .

صوتاً ، كأنه صوت دم ، ، وذلك ليلة قتله ، حينما ذهب اليه « محمد بن مسلمة » ،
فدعاه ليلاً ، فنزل كعب اليه ، فقتل .

فما يفهم العرب في سماع امرأة كعب صوت الدم من لفظ محمد بن مسلمة ، وفي
شم أمية رائحة ولده كلاب من الاناء ، وفي شم زوج المرأة ريح رجل في علبة
الابن ، وفي شم سيدنا عمر رائحة أخيه زيد في كل ريح تهب من جهة اليمامة - ما يفهمه
العرب في هذا كله يجب أن نفهمه نحن في قول سيدنا يعقوب « اني لأجد ريح يوسف »؛

انتقال رائحة يوسف ليحقوق مع الريح

التوجيه السابع — تعلمون ان المخلوقات قسماً: أجسام كثيفة وأرواح لطيفة،
وان الارواح هي المؤثرة في الاشباح ، فاللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي
كل ما يطرأ عليه ، ومن ذلك الفرح والحزن ، والرجاء واليأس ، والنمو والحركة ،
والنور والظلمة ، والقبض والبسط ، والسمع والصمم ، والشم والخلش^(١) ، والحر
والبرد ، إلى غير ذلك .

خذ مثلاً اليك :

١ — الهواء الذي لولاه لما عاشت هذه الأحياء ، الهواء « روح » ولذلك
كان من اسمائه إذا تحرك « الريح » ، وأصلها « رِوح » بكسر الراء ، ولأجل
الكسر قلبت الواو بآء .

٢ — الماء الذي منه كل شيء حي ، هو مركب من روحين لطيفين ، وهو
يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف ، ولكنه الى
الثاني أقرب .

٣ — الكهرباء ، فهي من الأرواح اللطيفة ، ونأهيك بفعلها في الأشباح ،

(١) الخشم : بطلان حس الشم .

فهذه الموجودات اللطيفة التي تسمى أرواحا ، هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون ؛

إذا تمهد هذا نقول : إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل سيدنا يعقوب رائحة يوسف ، مع بعض المخلوقات اللطيفة كالريح . فآخبر بذلك . نحن نعلم أنه يصعب على كثير من الشبية العصريين الاعتقاد بأن رائحة قميص يوسف ، وهي من الأعراض قد انتقلت مع الهواء المتحرك من بلد إلى بلد آخر — يستصعبون هذا جموداً على العادات ، ولو كان لهم دليل على عدم ذلك ، لكانوا معذورين ، ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد ، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل ، فمنه ما يعرفون له سبباً ، ويمبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ، ويمبرون عنه بفلتات الطبيعة ؛ ونحن نقول : إن تلك الأشياء المبر عنها بالفلتات ، قد يكون لها سبب خفي ، لم يقفوا عليه ، وشم سيدنا يعقوب رائحة يوسف لا ينزل عن ذلك ، وإما أن يكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقةً لنظام الأسباب ، لان الأسباب الظاهرة ليست واجبة وجوباً عقلياً مضطرباً ، وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ، ويعده مستحيلاً ، لأنه لم يعرف له سبباً ، ولعل أبناء العصور السابقة ، كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المؤلف من أبناء هذا العصر ، الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدثت به عقلاء الغابرين ، لعدّوه من خرافات الدجالين .

اعتبار ربيع يوسف استعارة مكنية مرشحة

التوجيه الثامن — يقولون « نطق الحال بكذا » ، وأن هذا استعارة مكنية ، بأن شبت الحال بإنسان ذي نطق ، وحذف لفظ المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو النطق ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت

مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الانسان ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به وهو النطق ، قالوا : « وهذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار النطق للدلالة استعارة تصريحية تبعية » ، إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون « ربح يوسف » من هذا القبيل ، أعني استعارة مكنية مرشحة ، وتقريرها أن يقال : شبه يوسف بالغيث ، وحذف لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، ورمز اليه بشيء من لوازمه ، وهو الريح ، على سبيل الاستعارة المكنية المرشحة ، سميت مكنية ، لأنه حذف فيها لفظ المشبه به ، وهو الغيث ، وسميت مرشحة ، لأنها رشحت بما يناسب المشبه به ، وهو « الريح » ، ثم هذا الترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، لا يقصد به إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار من المعنى الملائم للمشبه به ، إلى المعنى الملائم للمشبه ، بأن يستعار « الريح » للأمرّة والعلامة ، استعارة تصريحية أصلية ، وعليه فيكون المعنى : إني أجد — من الوجدان — علامة يوسف الشبيه بالغيث وقبل الختام نقول : من عجائب تفاوت أفهام البشر ، انه لا يزال الكثيرون ينكرون من أخبار الرسل ما لم يألفوا ولا يرون المعروف منها إلا ما عرفوا ، وإذا قيل لهم فيه أو في مثله : إنه قد اكتشفه « المسيو » فلان ، أو « المستر » فلان ، أو « الهر » علاّن - قبلوه مدعنين ، وقالوا : إنه الحق المبين ، مع أن علم الكيمياء ، وعلم الكهرباء ، ونحوها من العلوم الكونية ، قد وصلت اليوم إلى درجة ، لم بعد يستغرب معها شيء من أخبار علم الغيب ، لا سيما إذا كان المخبرون أخصائيين في هذا القبيل ، مثل الأنبياء والأولياء ؛ هذا ما فتح به الفتاح الكريم ، وفوق كل ذي علم عليم .

الأحفاد ينتقدون جدم

آ (٩٥) ﴿ قَالُوا : تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ !!! ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الخامسة والتسعون ، فقام الشيخ عبد الحق الطوموي ^(١) وقال :

ما كاد سيدنا يعقوب يتفوه بقوله : « إني لأجد ريح يوسف » أمام أحفاده الذين كانوا حاضرين حوله ، حتى بادروه مؤننين منتقدين بنفس كبيرة ، وصوت جهوري ، و (قالوا) له (تالله) التاء ههنا حرف قسم كالباء والواو ، ولكن فيها زيادة معنى التعجب ، كأنهم تعجبوا من قول جدم « إني لأجد ريح يوسف » ، أو من استمراره على ذكره إياه مع طول العهد (إنك) يا جده (لـ) مستمر حتى الآن (في ضلالك) في ذهابك عن جادة الصواب ، المعروف أنت به منذ (القديم) منذ ولادة عمنا يوسف حتى الآن ؛ بسبب إفراطك لمحبتة ، ولهيجك بذكره ، ورجائك للقاءه ، في حين أنه قد مضى وفات ، وصار في عالم الأموات .

حقاً إنه ليدهشنا أيها السادة هذا الانتقاد بل التأنيب ، وإنا لندهش بنوع خاص ، كلما تصورنا أنه صادر من حفدة سيدنا يعقوب ، الذين لم يكونوا أقل انتقاداً عليه من أبنائه القائلين : « إن أبانا لفي ضلال مبين » بل كانوا مثل آبائهم حذو القذة بالقذة ، لأنهم تلاميذهم ، أخذوا عنهم دروس الملاحظة والنقد ، بل لعمرى لقد فاتوا في القحة والبهت آباءهم من ثلاثة وجوه .

١ — الحلف باليمن النعوس ، وأما أبائهم فانما طعنوا طعناً خلوّاً من اليمن .

٢ — المواجهة ، فإن آباءهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا

(١) نسبة الى الطوموم من البلاد المصرية .

في غيبته ، ولكن هؤلاء الأحفاد واجهوه به مواجهة ، وخاطبوه به خطاباً ، ولم يحفظوا منزلة الجدودة وكرامتها ، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهباً ، ولم يحتملوا أن يسمعوا منه رأيه الذي رأى ، قال الشاعر :

وقد أبرك من يرضيك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستتراً
٣ — تسجيلهم على جدهم بانه عاش — مع الأسف — في ضلال مستمر معه
ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق — الى أن جاء فلسطين — إلى أن شرد
منها — الى مصر — الى هذا الوقت ، أي أنه في ضلال طيلة (٣٩) سنة ، ولذلك وصفوه « بالقديم » .

عدم الرد على السفية اوجب لامتهانه من الرد عليه

وأما جدهم ، فلما سمع ذلك من أحفاده ، كبر عليه انتقادهم ، وهب جسمه ، وتغرمر في داخله ، وتند تنهداً عميقاً ولم يجبهم بحلوة ولا مرة ، كما كان أجاب أولاده الصليبين ، قائلاً : (إنما أشكو بثي وحزني الى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون) بل اغتفر لهم حديثهم وخشوتهم ، وتغاضى عن نغمتهم الجافة اليابسة ، واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالغض والاحتقال ، أو كأنه سكت ولم يجبهم ، لأنه ذكر أن اعتراضهم عليه ، وإن يكن مصيبة من المصائب ، لكن لاقيمة لمصائب الحياة ، بعد مصابه الذي كان نزل به ، بفقدان يوسف ، وتسريق بنيامين ، واحتباس رأوبين ، فلم يعلق جدهم أهمية على كلمتهم هذه ، بل سكت ، وفي سكوته مايفني عن الجواب ، فلعمري ان سكوته عن مجاوبتهم اوجب لامتهانهم من الرد عليهم :

قال الشاعر

قد أفلج الساكت الصموت فرمبا كلمة تميت
ما كل نطق له جواب جواب مايكره السكوت

وقال :

وأبعدُ من ناداك من لا تحببه وأغبط من عاداك من لا تشاكل

وقال :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل

وإن كان مثلي في محلّ من العلى سكت إذاً حليماً وصفحاً عن المثل

وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

وقد قيل : « ما تسابّ اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الأسفل » لذا لم يجهم

جدهم على قولهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » وقال « حذيفة بن بدر » لرجل :

« أيسرك أن تغلب شر الناس ؟ قال نعم ، قال لن تغلبه حتى تكون شراً منه » ،

وشتم رجل حكيماً ، فقال : « أَسَكْتُ فُلستُ أدخل في حرب ، الغالب فيها شر

من المغلوب » ،

ومنه نتعلم أنه لا ينبغي لنا أن نكافئ السفيه على سفهه بمثله ، فإننا إن فعلنا ،

قضينا له على أنفسنا ، وأصبحنا شركاءه في الخلة التي ننقمها منه ، فإن كان أحدنا

لا بد منتقماً ، فليكن مثله مثل « الأحنف بن قيس » ، إذ جاءه رجل قد حمل

له بعض الناس جُعلاً على أن يُفضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ، ويلحّ في ذلك إلحاحاً

محرّجاً ، والأحنف ساكت ، لا يقول شيئاً ، حتى ضاق بالرجل أمره ، فانقلب

إلى قومه باكياً نادياً ، يا كل إصبعه أكلاً ، ويقول : « والله ما سكت عني إلا

لهواني عليه » .

أحفاد يعقوب

وقبل الختام ، رب سائل يسأل : إذا كانت أولاده الاثنا عشر غائبين عنه :

ثلاثة منهم بمصر ، وتسعة في الطريق مع العير ، فمن هم هؤلاء الناس الذين خاطبهم

سيدنا يعقوب عليه السلام ؟ والجواب إنهم حفدته ، وهم أولاد أولاده :

فلابنه « رأوين » أربعة أولاد ، ولابنه « شمعون » ستة أولاد ، ولابنه « لاوي » ثلاثة ، ولابنه « يهوذا » ثلاثة أيضاً ، ولابنه « دان » ولد واحد ، ولابنه « نفتالي » أربعة ولابنه « جاد » سبعة ، ولابنه « أشير » أربعة ، ولابنه « يساكر » أربعة بنين ، ولابنه « زبولون » ثلاثة ، ولابنه « بنيامين » ستة (تك ٤٦ : ٩ - ١٨) (والسنن القويم) .

فهؤلاء الحفدة الخمسة وأربعون ، كلهم كانوا حوالي جدهم يعقوب عليه السلام بفلسطين ؛

هذا عدا الإناث ، وربما كان الإناث أيضاً ، خصوصاً بنات « ليئة » لهن دخل كبير في الانتقاد على أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام .

البشارة

آ (٩٦) ﴿ ... فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ، أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ! قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والتسعون ، فقام لسأن الحق الحمصي وقال :

(فلما أن جاء البشير) وهو الابن الرابع يهوذا ، حاملاً قميص أخيه يوسف الرسمي المصنوع من الكتان ، دخل خيمة أبيه يعقوب ، ثم سلم ، فقال له أبوه : ما وراءك ؟ قال : « كل خير ... بشارتي عليك ، الرائد لا يكذب أهله ، يوسف حي » ثم أخرج القميص و (ألقاه على وجهه) على وجه أبيه يعقوب وعلى عينيه ، أي عرضه لوجهه حتى رآه (فارتد) أي صار - لأن ارتد تأتي في اللغة العربية

فعلاً ناقصاً بمعنى صار ، فتكون من اخوات « كان » - (بصيراً) عالماً بالقلب ، عارفاً بما عليه يوسف ، لأنه قبل ذلك لم يكن عالماً بما لولده من جاه ومنصب .

ويجوز ان المعنى : لما جاء البشير اتي القميص الكتان على وجه يعقوب وعلى عينيه ، فعوفي من شدة فرحه وسروره ، فرجع مبصراً ، هذا إذا حملنا « القميص » على اللباس الحكومي الرسمي ، فان حملناه على القميص المعنوي وهو المنصب على وجه الاستعارة ، كان قوله (ألقاه على وجهه) ترشيحاً للاستعارة ، والترشيح يجوز أن يبقى على حقيقته ، ولا يقصد منه إلا تقوية الاستعارة ، ويجوز أن يستعار لمعنى يلائم المشبه ، كأن يقال هنا : إن معنى (ألقاه على وجهه) عرفه به ، أي القاء على ذاته وأحاطه به علماً ، (قال) لهم أبوه ، بصوت التقرير واللوم ، يا بني ، لم يزل فكري عالماً بالجملة التي كنت أرسلتها لأسماعكم (ألم أقل لكم) سابقاً ، « اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؟ » ثم ألم أقل لكم : « إني لأجد ريح يوسف ؟ » - فقول القول محذوف ، لأنه معلوم للمخاطبين - وعليه فقوله : (إني أعلم من الله ما لا تعلمون) كلام مبتدأ ، لم يقع عليه القول ، ويحتمل أن المعنى : ألم أقل لكم سابقاً « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » وعليه هو هو مقول القول ، وإذا جرينا على الاحتمال الأول ، وقفنا على كلمة « لكم » ، وبدأنا بقوله : إني أعلم .. الخ وإذا جرينا على الاحتمال الثاني لم يجز الوقف على كلمة « لكم » ، بل يجب وصل الكلام بعضه ببعض لقوة الارتباط بين القول والمقول .

(جيد)

(فلما أن جاء البشير .. اللح)

- ٢ -

وقال الشيخ ابراهيم الأزهرى (١) :

وصول البشير والقاؤه القميص على وجه يعقوب

سبق أن أولاده الصليبين انتقدوه حين تولى عنهم وقال : « يا أسفاً على يوسف وابيضت عيناه من الحزن » فقالوا له : « تالله تفتاً تذكر يوسف ، حتى تكون حرضاً ، أو تكون من الهالكين » فقال لهم : « إنما اشكو بئى وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، وسبق وما بالعهد من قدم — أنه قال : « إني لأجد ريح يوسف ، فقامت أولاد أولاده عليه ، وانتقدوه على كلامه انتقاداً مرأً ، وما هي إلا سويقات قليلة ، حتى وصلت العير ، فاستعجلوا البشير الذي يحمل قميص يوسف وهو يهوذا بالذهاب والتقدم إلى أبيهم ، لينبئهم برجوعهم ويشره بحياة يوسف ومركزه الرسمي ، وفيما يعقوب جالس في خيمته إذا بالبشير « يهوذا » قد دخل عليه وهو يصبح صباح الفرح قائلاً له : « لتهناً بحياة يوسف ، وانه « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » وهذا هو لباسه الرسمي الذي يدل على نوع رتبته في البلاط الملكي المصري !

فلم تكد تموجات هذا الصوت تدرك طبله اذن والدهم حتى انفتح صدره ، وانتعشت آماله وحيي رجاؤه ، فأطرفه بالقميص الكتاني ، وألقاه على وجهه ، فأبل من ابيضاض عينيه الناتج عن الحزن ، فارتد بصيراً ، وبرح الخفاء ، وظهر الصبح لذي عينين ، اذ تبدل مرضه بالصحة ، وضعفه بالقوة ، وحزنه بالفرح ، وبكاؤه بالضحك ، وتبلبل أفكاره بالطمأنينة ، ولانكسار قلبه بالجبران ، وأسفه بالرجاء ، فارتقى نظره الى دور السلامة كأنما في اضعاف هذا القميص جميع عقاقير

(١) نسبة إلى الجامع الأزهر في القاهرة (مصر) .

الصحة ، وكل قطرات الشفاء ، أو كأنا هو حلق من حلق الجنة ، من لبسها عوفي
من كل سوء ، ومن هذا القبيل استشفاء العشاق بما يهب عليهم من جهة أرض
المحبوب ، كما قال :

وإني لاستشفى بكل غمامة تهب بها من نحو أرضك ريح
والتعبير بارتداده بصيراً تواءم عقب إلقاء القميص على وجهه ، تصوير للقاريء
الكرام ، لما كان في ذلك الموقف الرهيب ، من انقلاب سريع وتطور مدهش .
ومالبت يعقوب أن قال لأبنائه وأحفاده ، بلسان الفرح أو الاحتجاج ، ساحمكم
الله ، يا أولادي ويا أحفادي ، ألم أقل لكم سابقاً ولاحقاً ، اني أعلم من أسرار غيب
الله ما لا تعلمون ؟ وليس المخبر بالعلم كالراجم بالظنون ، فلم أكن أنطق بذلك
جزافاً ، ولم أكن كالحاكي (الفونوغراف) ينقل الصوت بلا شعور ولا إرادة ،
بل كنت أتكلم معكم بكلام أقصده قصداً ، وأفهم معناه جيداً ، وأشعر بجراميه ،
وأنا كد اقترب وقوع مضمونيه لا محالة ، لأنني لا أتكلم إلا عن الله تعالى ،
ولكني كنت أجمل لكم القول إجمالاً ، ولم أقله لكم بالتفصيل ، لأنه ما كل ما يعلم
يقال ، وأما الآن فقد زالت الرغبة ، وبدا الصريح .

(فلما أن جاء البشير ... الخ)

— ٣ —

وقال لطفي باشا النابلسي :

خصائص قيص البشارة ورده بصر يعقوب

حكى انه اجتمع في بعض الأزمنة ملوك الأقاليم ، من الصين والهند وفارس
والروم ، وقالوا : « ينبغي أن يتكلم كل منا بكلمة تدون عنه على مدى الدهر » :
فقال ملك الصين : « أنا على ما لم أقل ، أقدر مني على رد ما قلت » .

وقال ملك الهند : « عجبت لمن يتكلم بالكلمة التي إن كانت له لم تنفعه ، وإن كانت عليه أو بقتة »

وقال ملك فارس : « أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتي ، وإذا لم أتكلم بها ، ملكتها » .

وقال ملك الروم : « ماندمت على ما لم أتكلم به قط ، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً » .

إذا كان الأمر هكذا ، فكم ندم أولاد يعقوب عليه السلام وأولاد أولاده على كلامهم السابق الذي أوقعهم في الخجل ، وسجله عليهم التاريخ في باب السباب والشتائم والوقاحة ، ولهذا قال تعالى (فلما أن جاء البشير) يحمل على يده نعمة الخالق الى الخلق .. يحمل على يده النبأ العظيم الذي كان يعقوب يستشرف اليه منذ (٢١) سنة ، يحمل ليعقوب السرور والغبطة والفرح والجدل ، يحمل ليعقوب الحياة الجديدة ، حياة اللقاء بعد الفارقة ، حياة ثلج الصدر بعد الحرقه ، يحمل ليعقوب نبأ أن فريسة « الذئب » هو في قيد الحياة ... يحمل ليعقوب نبأ أن العبد المملوك أصبح مالكا .. وأن نزيل الجب أصبح فوق العرش ... يحمل ليعقوب أن ابن البادية ، الذي كان يرعى الغنم ، قد أصبح اليوم يرعى رعية له هي أهل مصر . يحمل ليعقوب أن صاحب الأحلام ، قد آن للكواكب أن تخزله سجداً ، وأخيراً يحمل ليعقوب اللباس الرسمي مع الرتبة السامية الموجهة عليه من لدن ملك الديار المصرية ، وعند ذلك ألقاه على وجه هذا الشيخ البائس ، وبما في هذا « القميص » من البلاسم الشافية لجراح العيون ، ومن القطرات الممتازة المزيلة لغشاوتها البيضاء ، نشيط وأحس بحركة لا يعبّر عنها إلا بالمجرى الكهربائي ، فارتد بصيراً ، لأن صحة بصره شرعت تتراجع اليه ، وجعل نشاطه يدب فيه ديباً ، وابتدأت عيناه تقبلان على الشفاء ، فما مضى أقل مدة يمكن فيها عادة الشفاء

إلا وقد عوفي وشفي ، والتعقيب في كل شيء بحسبه ، كما يقال تزوج زيد فولد له ،
فهذه الفاء هنا مثلها في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا
حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾
(٨٠ : ٢١ - ٣١) ، وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾
(٨٧ : ٨٧) وقوله : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَانْتَأَتْ أَكُلُّهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (٢ : ٢٦٥) ،
وقوله : ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٤٣ : ٥٦)
وقوله ﴿ خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (٢٥ : ٥٤)

تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه

وبهذا يكون الله قد صدق قول يوسف : « يأت بصيراً » بالفعل ، فيوسف
من عباد الله الذين إذا أرادوا أراد ، كما ان الله أيضاً يجيء البشير بالقميص صدق
بالفعل قول يعقوب « إني لأجد ريح يوسف » ، فيعقوب من الذين إذا وجدوا
الشيء تلميحاً ، وجدوه فيما بعد صريحاً .

أثر المحبوب قد يسبب الشفاء والمعافة . لاسيما متى كان ذلك الأثر يبشر باللقاء ،
كما في هذه الحادثة ، وعلى العكس ربما ان اثر المحبوب قد يسبب الغشي فالموت ،
إذا كان ينذر بعدم اللقاء .

وبعد فمن غرائب التاريخ ، ونوادر الحوادث ، ان الذين يحملون في هذه
المرّة « القميص » الحاضر . الذي يشير إلى حياة يوسف ، وقد نشأ منه سرور
أبيهم ، هم الذين كانوا حملوا « القميص » الماضي ، الذي كان يشير إلى موت يوسف ،
وقد نشأ عنه حزن أبيهم !!!...

واخيراً أختتم كلمتي هذه بالتعليقات التالية :

العلم يقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر

ارتداد بصر يعقوب بالقاء القميص عليه

١ - أتى على الانسان حين - وهو يعتقد ان الضياء الساطع في ظلام الليل لا يكون إلا من طلعة القمر ، او من لهب النار ، فاذا آتس تحت جناح الليل نوراً يتألق بمكان بعيد ، لم يرتب في انه بهرة قمر ، او شعلة نار ، فلم يشعر إلا وقد انضم الى القمر والنار عنصر من عناصر الإنارة وهي « الكهرباء » فلو لم يخترع التنوير بالكهرباء ، وكان فيما نقل من معجزات الرسل إنارة بعض الاجرام من غير ان تمسه نار ، لقال الذين في قلوبهم مرض ، إن الإنارة إنما تنشأ عن لهب النار ولا سبيل الى تحقق الأثر ، متى فقد سببه .

٢ - زعم بعض المرتابين في المعجزات أن قطع المسافة الشاسعة ، كما بين « المسجد الحرام » إلى « المسجد الأقصى » في ليلة واحدة أو بعض ليلة - أمر لا يحتمله الإمكان ، ولا يتقبله العقل ، ولكن هذا الأمر الذي كانوا يذكرونه بوصف المحال قد كشف العلم الصحيح عن إمكانه ، وأخرجه للناس في جملة الكائنات المبصرة ، فهذه سكة الحديد التي قيل فيها :

هذا « وَبُورُ البر » أكبر حجة إن تنكر الاسراء « للمختار »
إن كان صنع هذا العبد سيّره^١ فعلام تنكر صنعة « القهار »

بل إذا تمكن المخلوق باختراع « الطائرة » أن يجعلك تقطع المسافة القاصية في مدة وجيزة ، فماذا يكون شأن قدرة الخالق التي هي أبعد تقديراً وأحكم صنعاً ؟ ..

٣ - كان الفلاسفة يعتقدون أن الوزن هو من خصائص ما يوصف بالخفة والثقل من الأجسام ، وقالوا : « لا نفهم لوزن الأعراض معنى يعقل » ، ومارعهم إلا أن صنع بعض العلماء « ميزان الحرارة والبرودة » وأراهم أن وزن الأعراض

هو من قبيل الممكنات ، وأن للوزن طرقاً غير ما تعرفه الباعة في الأسواق .

٤ — لو كان النبي ﷺ قال: « إن في هذا الماء الذي تشربونه حيوانات تذهب وتجيء » ، ولم يكن قد اخترع المنظار المكبر (مكروسكوب) لأفكر ذلك كثيرون من ضعفاء الايمان ، ولكن الاكتشافات الجديدة جعلت ذلك ممكناً ، بل من الحقائق الراهنة .

إلى غير ذلك مما يفوقه ، ولا يأتي عليه الاحصاء ، فيجب علينا الايمان بأنه حينما ألقى القميص على وجه يعقوب ارتد بصيراً ، فذلك ممكن ، والله قدير على كل شيء . (مرحى)

طلب الاستغفار

١ (٩٧) * — قالوا : يا آبانا استغفر لنا ذُنُوبَنَا ، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية السابعة والتسعون ، فقام فيض الله الكرمي وقال :

(قالوا) أي ابناء يعقوب بلهجة الاعتذار والتوبة ، وقد تراحت على وجوههم حمرة الخجل وصفرة الوجل : (يا آبانا) نعم ، قلت لنا : إنك تعلم من الله ما لا نعلم ، ولكننا — مع الأسف — كنا في سبات عميق ، فأنت غير كاذب ولا مُكذَّب ، ونحن الخطاة الأثمة ، ما من ذلك بد ، وحيث قد اعترفنا (استغفر لنا ذُنُوبَنَا ، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) ، خاطئين أولاً بارتكابنا جرماً يستحق العقاب ، وخاطئين ثانياً بافترائنا حادثة ليس لها نصيب من الصحة ، وخاطئين ثالثاً بقطعنا رحم أخينا ، وخاطئين

رابعاً بعقوبنا لك والحاقنا بك الأذى والحسرة والفكرة ، وخاطئين خامساً بحقارتنا لأنفسنا بتلك الأعمال الشائنة ؛

وبالجملة نحن حشو الخطيئة واعضاء الجريمة ، والهيكल العظمي للحبوب الكبير ، فتكراراً ومراراً نقول : (استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) .

(قالوا : يا أبانا استغفر لنا .. الخ)

— ٢ —

وقام ابو الخير اللدي وقال :

ابناء يعقوب يطلبون من أبيهم ان يستغفر لهم ذنوبهم

تقدم أن أباهم قال لهم : « ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، فما كنت تنبأت به هاهو قد حصل » ، — قالوا : « نعم ، ذلك العتي » — قال : « فاذن :
الفريقين الآن قد تفاهمنا واتفقنا وارتفع الخلاف من بيننا » — قالوا : « يا أبانا —
قال : « قد سمعت » — قالوا « استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين إنا لا نقدر أن
نصف - خجلنا منك ، وخطأنا اليك وإلى الله ، لما سببناه لك من البث والحزن والحسرة
والأسف ، مع البكاء والسهر والفكر ، لإبعاد ابنك عنك ، وتشريده من وطنه ،
نحن مدينون لك وإلى الله ، وقد خطئنا اليك وإلى السماء ، وأنت تعلم إذنا ما كنا
في موطن منذ عقلنا ألا أننا نعرف فيه أمرنا ، غير موطننا هذا ، فكأننا هجمناعليه
متسرعين ، بدون حرد ، ولا إعمال روية ، وبلا نظر في العواقب ، وكأن القضاء
الساوي جعلنا آلة لتنفيذ ذلك الأمر ، الذي رأينا اليوم عاقبته حميدة ، والحمد لله ،
ولقد قيل : « النتيجة تبرر الواسطة » ، ومع كل هذا ، ورغمنا عن كل ما نقول ،
فنحن من حيث أننا لم نكن نقصد خيراً ، بل شرأ ، نعترف بالخطأ ، نعترف بالحبوب

الكبير ، نعترف بالذنوب إلى الله وإلى أيينا وأخيـنا ، فلا.. ولا .. وإنتا.. وإنتا ..» .
واليك المواد التالية على الآية الكريمة :

الشفاعة وأنواعها وحكمها

المادة ١ — اتخذوا أباهم شفيعاً بينهم وبين ربهم ، لأن شفاعة أهل التقى لأهل التقى مشروعة مأذون فيها مرجوة الإجابة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٢٠ : ١٠٩) ، وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٢١ : ٢٨) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣ : ٨٦) وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٧٨ : ٣٦ و ٣٧) وقال تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (١٩ : ٨٨) ، فهذا موطن الشفاعة المثبتة ، التي شرطها الإذن للشافع ، والرضا عن المشفوع له ؛

وأما الشفاعة المنفية ، فهي شفاعة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الآلهة الباطلة ، أو كان المشفوع لهم أهل الشرك أو الكفر ، فهذه لا جرم هي الشفاعة التي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، — قُلْ : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ !! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٠ : ١٨) وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءَ ، وَكَانُوا بِشُرِّ كَاثِرِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣٠ : ١٢ و ١٣) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ

شيئاً ولا يَمَقِلُونَ ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ، ثم اليه تُرْجَعُونَ ﴿ ٣٩ : ٤٣ و ٤٤ ﴾ وعلى ذلك تحمل باقي الآيات التي تنفي الشفاعة وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ، ولا يقبلُ منها عدلٌ ، ولا تنفعُها شفاعَةٌ ﴾ ، ولا هم يُنصرون ﴿ ٢ : ١٢٣ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أقيموا تمّارزقناكم من قبل أن يأتيَ يومٌ ، لا بيعُ فيه ، ولا خُلَّةٌ ، ولا شفاعةٌ ﴾ ، والكافرون هم الظالمون ﴿ ٢٠ : ٢٥٤ ﴾ ، فهذا يجمع بين الآيات التي ذكرت فيها الشفاعة نفياً وإثباتاً ، ويعلم أن شفاعة سيدنا يعقوب لأولاده ههنا هي من قبيل الشفاعة المثبتة ، والله تعالى أعلم .

سبب طلب الاخوة الاستغفار من ابيهم ولم يطلبوه من اخيهم

المادة ٢ — ههنا يتساءل المتسائلون : لماذا لم يطلبوا الاستغفار لانفسهم من

اخيهم ، وإنما طلبوه من ابيهم فقط ؟

وجوابنا عنه ما يلي :

لما كان سيدنا يعقوب من جهة رجل دين ، ومن جهة أخرى أباهم ، رأوه (طبعاً) أهلاً لأن يسألوه الدعاء لهم ، وأما سيدنا يوسف فلما كان من جهة أخاهم الأصغر ، ومن جهة ثانية كان في نظرهم رجلاً مدنياً ، وحاكماً ادارياً ، ووزيراً مالياً ، ولم يعلموا أيضاً أنه نبي — لم يطلبوا منه الاستغفار ، ولكن ذكروا له ما يَسُرُّ الرجال المدنيين ، والحكام الاداريين ، من علو مراتبهم وتقديمهم على الأقران ، فقالوا له : « لقد آثرك الله علينا » ومع أنهم لم يروه (في نظرهم) أهلاً أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم ، فقد رأى هو شخصه أهلاً لذلك ، لأنه أعرف بنفسه منهم ، فقال : « يغفر الله لكم ، وهو أرحم الرحمين » .

مذهب السلف والطوائف الإسلامية الأخرى في النجاة والايان

المادة ٣ — طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم ، ليكونوا من الناجين ، فان العبد لا ينجو بالايان فقط ، ولكن به وبترك سيئ الأعمال ، وفعل صالحها ، والتوبة إلى الله تعالى ، وهذا هو مذهب « السلف » خلافاً « للمرجئة » — وهم طائفة يرجئون الأعمال ، أي يؤخرونها ، فلا يقيمون للأعمال الصالحة وزناً في الخلاص ، وإن كان لها ثواب ، وإنما الخلاص بمحض الإيـان ، كما لا يقيمون وزناً للمعاصي في الهلاك ، وإن كان عليها عقاب ، وإنما الهلاك بالكفر فقط ، وعليه فهم يقولون : المؤمن يستحق الجنة بالايان فقط ، دون بقية الطاعات ، والكافر يستحق النار بالكفر ، دون بقية المعاصي ، وكأن مصدر هذا الخلاف ، الخلاف فيما هو الايمان ، فالسلف الصالح يقولون : « الايمان هو اعتقاد وقول وعمل » وهؤلاء يقولون : « الايمان هو الكلمة والعقد ، دون الاعمال » — « والخوارج » يكفرون مرتكب الكبيرة ، لجملمهم العمل من الايمان ، فهم بعكس المرجئة و أما « المعتزلة » فهم يقولون في مرتكب الكبيرة أنه منزلة وسطي بين المؤمن والكافر ، وأنه يخلد في النار ، ولكن عذابه دون عذاب الكافر .

تعليـل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع

المادة ٤ — رب سائل يسأل : لماذا قالوا : (ذنوبنا) بصيغة الجمع ، مع أنه ذنب واحد ؟ وجوابنا عن ذلك من ثلاثة وجوه :

١ — أنهم اتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم ، لأن كل واحد من العشرة قد اقترب الذنب ، فهو نظير: ركب القوم دوابهم ، ولبسوا عمامتهم .

٢ — لأن ذلك الذنب الواحد مربـع في الحقيقة ، باعتبار أنهم خطئوا إلى

الله ، وإلى كل من أبيهم وأخويهم ، بل وإلى اشخاصهم وضمائرهم ، وشريعتي العقل والنقل .

٣ — إن الذي اجترموه ليس هو ذنباً واحداً ، بل هو ذنوب كثيرة : حسدوا أخاهم ، بغضوه من غير ما جرم ، ضلّوا أباهم ضلالاً مبيناً ، تأمروا على قتل أخيهما أو طرحه أرضاً أو القائه في غيابة الجب ، وأخيراً قرروا هذه المشورة النهائية ، لعبوا على أبيهم دوراً مهماً ، نصبوا أمامه الا حيلة قاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه وقالوا له : وإنا له لناصحون ، ولكن غشوه ، وعدوا أنهم سيحفظونه ، وأخلفوا وعدهم ، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء ، ألقوه فعلاً في غيابة الجب ولم يرحموه ، وبذلك قطعوا الرحم التي بينه وبينهم ، بل والرحم التي بينهم وبين أبيهم ، عقوا بذلك أباهم ، أحزنوا بذلك بنيامين ، بكوا كذباً ، قالوا أكله الذئب كذباً ، جاؤا على قميصه بالدم كذباً ، أقر بعضهم بعضاً على الكذب كذباً ، إلى غير ذلك مما يظهر المتأملين ، ولهذا قالوا : (استغفر لنا ذنوبنا) بصيغة الجمع ، وكان أقل هذا الجمع ثمانية .

لماذا لم يستغفروا لأنفسهم بأنفسهم

المادة ٥ — طلبوا الاستغفار من أبيهم لأن ذنبهم هذا لم يكن ظالماً لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى أبيهم فيكون فيه استغفارهم لأنفسهم بأنفسهم — بل كان ظلمهم تعدى إلى إيذاء أبيهم ، من حيث أنه أب ، له وحده الحق في أن يزيد من المحبة من أولاده لأسباب جوهرية ، وحكم عالية يعرفها هو ، فكان لا بد من توبتهم وندمهم على ما صدر منهم ، أن يظهرُوا ذلك لأبيهم ، ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه ، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم تعديهم عليه وعلى أخيهما وأخيهما ، فان

التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس ، لا تكون مقبولة ولا صحيحة ، إلا بعد استرضاء صاحب الحق .

وهناك وجه آخر في طلبهم من أبيهم الاستغفار لهم ، وهو أن مشاركة الناس بعضهم لبعض في الدعاء مسنونة ، وإن من سنتة تعالى ، أن يتقبل من الجماعة ، بأسرع مما يتقبل من الواحد ، فدعاء الجماعة أرجى للإجابة ، وإن كان كل داع موعوداً بالاستجابة ، وإنما كانت المشاركة في الدعاء ، أرجى للقبول ، لأن الداعي للناس يؤدي هذه العبادة بسببهم ، أي أن ذنوبهم تكون هي السبب في شعوره واحساسه بالحاجة إلى الله تعالى والخضوع له والاتحاد المرضي عنده ، فكان حاجتهم حاجته ، فإذا كان يعقوب (ع) هو الداعي والمستغفر لأولاده أولئك التائبين مع استغفارهم هم ، فذلك من اشتراك قلبه الشريف مع قلوبهم بالحاجة إلى تطهير الله لهم من دنس الذنب ، وطلب النجاة من عقوبته ، ونأهيك بقرب أبيهم يعقوب (ع) من ربه ، والرجاء في استجابة دعائه .

فإن قلتم أين مشاركتهم لأبيهم في التوبة والاستغفار ، حتى يتم هذا التوجيه الذي ذكرته ؟ قلت طلبهم من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم مع قولهم « انا كنا خاطئين » هو توبة واستغفار ، فمعنى كلامهم : يا أبانا ، هانحن أولاء نعترف بذنوبنا وخطأنا ، ونستغفر لذلك ربنا ، فشاركنا في هذا الالتجاء والخضوع ، نعم ، نحن نعلم أن الله أقرب من جبل الوريد لعباده ، لكننا نريد من هذا أن نقر لك أولاً بخطأنا معك ومع الله ، ونريد ثانياً أن يكون طلب المغفرة لنا من الخالق ، بلسان المخلوق الذي كنا قد أخطأنا إليه ، ليكون ذلك أدعى إلى مغفرة الله لنا ، فإن الله أكرم من كل ماسواه .

« اصوات متزاحمة من المؤثر »

(مريحى) (قالون) (جيد) (أحسنت) (ليعش جميع أهل الله ،
لأجل خاطرك يا أستاذ)

تسوية الاستغفار

آ (٩٨) — قال : سوف أستغفر لكم ربّي ، إنّه هو الغفور الرحيمُ

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية الثامنة والتسعون ، فقام ابو الفضل الطنطاوي وقال :

سمع منهم أبوم توبتهم وطلبهم الاستغفار فـ (قال) لهم : وإن يكن هذا منكم إنما كان بعد حلول الدبرة ، وخراب البصرة ، فلا عليكم ، أما أنا فلا موجدة في قلبي نحوكم ، لأن الأيام ، تمحو الآثام ، ولأني أب ، والأب يحن بطبعه لأولاده — على ما فيهم — ؛ ها يومان يا أبنائي ، وهما قيصان ، فمنذ ٢١ سنة جاءني « قيص » ينمي اليّ يوسف ، واليوم جاءني « قيص » يحمل بشري حياته وعزّة ، نعم نعم ، منذ ٢١ سنة حمّل اليّ « قيص » أبكاني فابيضت عيناى ، واليوم حمّل اليّ « قيص » ردّني بصيراً ، والدنيا كلها ماضية ، والحمد لله على كل حال ، والله يغفر لي ولكم ولجميع من كان مخلوقاً من الماء والطين ، فهذا ما كان من جهة حقى ، لاسيما وغريمكم يوسف ، غفر لكم ورضي عنكم ، فأنا إذن لا يصح لي أن أتقاعس عن مساحتكم ، لئلا يقال : « رضي الحصان وأبى القاضي » ، وأما من جهة حق الله تعالى فأبى والله (سوف استغفر لكم ربّي) أذاتكم ، فهو حقيق بالمغفرة ، خليق بالرحمة (إنّه هو الغفور الرحيم) وكفى ! فهو تعالى يُقيل عثرة الخاطئين ، وينهضهم من كبوتهم .

وهنا ملاحظات :

اسباب تسويف يعقوب الاستغفار لاولاده

الملاحظة الأولى — أجاہم بالتسويف والمادة لأسباب :

١ — ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها ، لأنه مامن شيء يفنى في الطبيعة ، وإنما الاشياء تتبدل مظاهرها .

٢ - حينما يذهب الى المعبد الذي كان علمه بالحجر حينما كان مسافراً من فلسطين الى العراق الى خاله « لابان » (١) ، وكان هذا المكان على غاية اثني عشر ميلاً من « القدس » وعلى الشمال منها على جبل افرايم ، وبعبارة أوضح : هذا المكان يسمى « بيت إيل » وهو الى شرقي خط يمتد من « القدس » الى « نابلس » على بعد واحد من كلتا المدينتين ، ويسمى اليوم « بتير » .

٣ — حينما يصل في طريقه لمصر الى « بئر السبع » فيدخل المعبد الذي كان بناه إبراهيم وإسحاق عليها السلام (٢) وهناك يستغفر لهم ، لأنه لا يرى أنسب وأقرب لاجابة الدعاء من أن يكون في المعبد الديني ، فكأنه رأى أن طلبتهم هذه سابقة لمكانها ، ومكانها هو هذا المعبد ؛ قال أبو الطيب المتني :

وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامِ
أي تأخر عطائك عني يـدُل على كثرة ذلك العطاء ، لأن أسرع السحائب مسيراً أقلها ماءً .

٤ — لبعدهما يجتمع يوسف ويراہ قد صفح عنهم تماماً ، وحينئذ يكون العدل قد استوفى حقه ، ولم يبق الا حق الله تعالى ، فلا يكون بعد مانع من استغفار الله تعالى لهم .

(١) انظرتك ١٠: ٢٨-١٩

(٢) انظرتك ٢١: ٣٣ و ٣٦: ٢٥

٥ — آخر ذلك جرياً مع طبع الشيخوخة التي تتطلب التؤدة والتأني في سائر الأمور مطلقاً .

٦ — لحين تكون فيه الاجابة أقرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَابِ ﴾ (١٧: ٣) ، لأن النفس تكون حينئذ أصفى ، والقلب أفرغ من الشواغل ، كما نقل عن بعضهم انه قال : « لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق في الأسحار — ما أحببت البقاء في هذه الدار » .

٧ — شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الانسان مصراً على الذنب ، وبما أن أباهم لم يرههم في حال تدل على الاقلاع والندامة بالمرة ، بخلاف يوسف ، فانه ربما يكون قد رآهم ، بحال تدل على الاقلاع والندامة ، إذ يجوز أن يكونوا قد خشعوا وخضعوا وبكوا أمام أخيهم يوسف ، فرآى انه لا مانع شرعاً من أن يطلب لهم المغفرة ، ولكنهم أمام أبيهم لم يخشعوا ذلك الخشوع ولم يخضعوا ذلك الخضوع ، لأن لهم مع أبيهم حرية أكثر من حريتهم مع أخيهم « وزير المالية » و « عزيز مصر » و « وكيل الملك » فلذلك أخر أبوهم الاستغفار لهم حتى يتأكد توبتهم النصوح ، وندمهم الخالص ، لاسيما وقد سبق أنه رأى منهم الحيل ، وجرب عليهم الختل ، وأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون .

٨ — يرى بعض الناس — ولعل سيدنا يعقوب منهم — أن الوعد بالخير أفضل من اعطائه بغتة ، مثلاً : « منصور بن زياد » كلّم « يحيى بن خالد » في حاجة رجل ، فقال له : « عِدْهُ عني قضاءها » — فقال منصور بن زياد : « وما يدعوك الى العِدّة مع القدرة ؟ » — فقال : « هذا قول من لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجاحها لم تتحدث النفس بسرورها ، إن الوعد مطّعمٌ ، والانجاز طعام ، وليس من قاجأه طعام ، كمن وجد رائحته ، وتطعمه ثم طعمه ، فدع الحاجة تحتمر بالوعد ، ليكون لها عند المصطنع حسن موقع ، ولطاف محل » .

وقال بعض البلغاء : « دع الوعد يركض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ».

هل وفى يعقوب بوعدہ لأولاده بالاستغفار لهم

الملاحظة الثانية — سمعنا أن سيدنا يعقوب وعد أبناءه بالاستغفار ، ولكن لم يبلغنا انه استغفر لهم ربه كما وعد ، والجواب عن ذلك : اننا نتأكد يقيناً وقوع ذلك منه ، لأن وعد الحُرِّ دين ، وكما أن الله لا يخلف الميعاد ، فظاهر أمره عليه الصلاة والسلام كذلك ، ولا يسعنا أن نعتقد في سيدنا يعقوب الا انه كما قال أبو الطيب المتنبى :

أَمْضَى ارَادَتِهِ (فسوف) لَهُ قَدْرٌ وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى (فَتَمَّ) لَهُ هُنَا
أَوْ كَمَا قَالَ :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فَعَلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُتْلَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

هجرة ناس يعقوب

الملاحظة الثالثة — نعلم من التاريخ أن يعقوب عليه السلام هاجر من فلسطين التي هي مسقط رأسه ووطنه الأصلي — هجرتين ، الهجرة الاولى للعراق ، وهذه كانت شخصية ، أي بشخصه فقط ، حينما كان أبوه في قيد الحياة ، وكانت « للخوف » من شر أخيه « عيسو » وهرباً من أن يقتله ، ومدة هذه الهجرة كانت ٢٠ سنة ؛ والهجرة الثانية لمصر ، وهذه كانت عمومية ، بجميع الأسرة ، وكانت — طبعاً — بعد وفاة أبويه ، « إسحاق عليه السلام ، وليئة رحمة الله » ، وهذه الهجرة كانت لدفع ونفع : أي لدفع الجوع والانتفاع بالغذاء ، وان شئت قلتم : كانت رَهْباً وَرَعْباً ، أي رهبة من القحط ، ورعبة في لقاء يوسف ؛

وبعبارة أخرى : كانت هذه الهجرة كمن رمى حجراً ، فأصاب صيدين ، أو

كمن هرب من النار إلى الجنة ، أو كمن خرج من البدو إلى مملكة متمدنة أكثر من كل ممالك العالم ، ومدة هذه الهجرة (١٧) سنة ، ثم توفي عليه الصلاة والسلام .

هجرة الانبياء

وبهذه المناسبة ، والشيء بالشيء يذكر نقول : كانت هجرة نبينا ﷺ من مكة للمدينة هجرة خوف من أهل الاولى ، وأمن عند أهل الثانية ، وهجرة سيدنا ابراهيم كانت هجرة اضطهاد من أهل العراق ، وهكذا كانت هجرة المسيح عليه السلام من فلسطين إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وهجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين ، وهجرتا لوط عليه السلام الاولى مع عمه سيدنا ابراهيم من العراق إلى فلسطين ، وهجرته الثانية من سدوم وعمورة إلى صوغر .

مخلفات سيرة ابراهيم في ارض الميعاد بعد هجرتها عن مصر

الملاحظة الرابعة — قضي الامر ورحل اسرائيل بأسرته جميعاً للديار المصرية ف سجل التاريخ في تلك الساعة أنه قد تم جلاء سلالة ابراهيم عليه السلام عن أرض الميعاد (سورية الطبيعية) بعدما كانوا أقاموا فيها ٢١٦ سنة شمسية ، أعني من سنة (٢٥٤٤ إلى سنة ٢٨٣٨) شمسية قبل الهجرة ، ولم يتركوا فيها وراءهم ملكاً ، سوى تلك المقبرة ، مغارة المكفيلة (الغار الشريف) ، وهي تحتوي إذ ذاك خمسة قبور ، لابراهيم وزوجه (سارة) ، ولإسحاق وزوجه (ربيقة) ، ولامرأة يعقوب (ليئة) ، وكان لسيدنا يعقوب قطعة حقل . ملكاً له في شكيم^(١) (نابلس) .

هذا كل ما ملكوه في تلك السنين الكثيرة ، لأنهم لم يكونوا لينظروا إلى أمور الدنيا ، ولكن كان اهتمامهم بأمور الآخرة !! (مرحي)

(١) « تك ٣٣ : ١٩ و ٤٨ : ٢٢ و ٥٠ : ٢٥ ويش ٢٤ : ٣٢ »

الفصل الخامس

السفرة الرابعة والاختيرة لمصر

يوم اللقاء

آ (٩٩) * ... فلما دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ، آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ،
وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ « إِنَّ شَاءَ اللَّهُ » آمَنِينَ . *

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية التاسعة والتسعون ، فقام وفق الكرام
الرملي وقال :

أمر يعقوب أولاده بالتهيؤ والأخذ في معدات السفر، تسرعاً وشوقاً للقاء ولده يوسف ، فلذلك تهيئوا وقاموا قاصدين مصر ، وما أن صاروا في حدودها ، حتى رأوا يوسف قد أمر بنصب الخيام عند هذه الحدود ، للقاء أبويه (فلما دخلوا) أي أبواه وإخوته (على يوسف) وقد أخذ مجلسه في سرادقه جالساً على عرشه ، قام فسلم على أبويه ، سلام الابن على والديه ، ثم (آوى) أنزل وضم (إليه) في خيمته (أبويه) أباه يعقوب وأمه المجازية « بلهة » وهي مربيته وحاضنته بعد موت أمه « راحيل » وهو ابن عشر سنين ، ومن حيث كونه استقبلهم في مضرب خارج مصر ، وقد أراد الجميع النهوض والقيام بعدما أخذوا حظهم من الراحة (قال) لهم (ادخلوا مصر) أنتم وذراريكم (إن شاء الله آمنين) على أنفسكم وأموالكم وأهلكم لا تخافون أحداً ، حتى ولا من ملوك مصر ، آمنون من أن يلحقكم ضرر ما من جهتي بالجرم السالف ، لا سمح الله تعالى ، لأنني غفرت لكم ؛ آمنون من كل المكارِه والخاوف قاطبة من كل أحد .

(فلما دخلوا على يوسف ... الخ)

—٢—

وقال أبو الفيض الخليلي :

سفرة يعقوب وأسرته لمصر

كان أخوة يوسف أخبروا آباهم بما عليه يوسف ، ونقضوا له جملة حاله ، وما أوتيته من سمو ورفعة ، فأمرهم أبوهم بتحضير وسائل السفر بما يمكن من السرعة لشدة اشتياقه للقاء ولده يوسف على حد قول القائل :

حديثه أو حديث عنه يطربني هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا
كلاهما حسن عندي أسراً به لكن أجلاهما ماوافق النظرا
ولما هياؤا أنفسهم للرحلة من فلسطين لمصر ، ركبوا دوابهم وقد أطلقوا لها
الآعنة ، وهم ينهبون الأرض نهباً .

وداع يعقوب لفلسطين

وكان ييعقوب لما وصل لنتهى حدود فلسطين ومبدأ حدود القطر المصري ، وقف يودع فلسطين بما معناه .

« أنا اليوم في آخر ساعة من ساعات وجودي فيك يا فلسطين ، وأول ساعة من ساعات حلولي بالديار المصرية ، فسلام لك يا فلسطين المحبوبة ، سلام لك أيتها الأرض التي تشخب حجاريتها لبناً وعسلاً ، سلام لك يامدقن إبراهيم وساراي وإسحاق ورفقة . والوداع الوداع ... الوداع . »

لقاء السنتين

وكان يوسف عليه السلام قد أرسل فرساناً وحرساً لاستقبال أبيه الشيخ

وجلس هو في فسطاط أعد له ، جلس يتوقع مجيء أبيه ، وهو على أحر من الجمر ، وأخيراً وصلت الأسرة الاسرائيلية إلى فسحة الفسطاط ، وفي طليعتها نبي الله يعقوب عليه السلام .

ولما دخل يعقوب الفسطاط ، ووقعت العين على العين ، ولأس القلب القلب ، نظر في وجه « عزيز مصر » وتفرت فيه ، وقال مستفهماً « يوسف ؟ .. » — فقال له مستفهماً أيضاً : « والدي ؟ .. » — قال نعم ؛ — قال : ابني ؟ .. — قال أبي ؟ .. قال : نعم .. ولعل الله بعثك من الموت بمعجزة لنجاتنا وسرورنا — قال : سأكون خادماً لكم أجمعين — فقال يعقوب : الحمد لله على انفراج الأزمة برؤية ولدي ، فاذا مت الآن فاني أتوسد التراب قرير العين ناعم البال .

وكأنني بحاضنته « بلهة » تبادلته عبارات التحية والسلام والشوق قائلة : « ولدي يوسف ؟ .. قال : « أمي بلهة » ؟ .. — قالت نعم ، قال : أهلاً وسهلاً » ولا تسأل عن يعقوب وما حل به من دواعي الفرح التي أنسته جميع عوامل الحزن ، إذ نظر نظرة عوضت عليه كل أحزانه وبلباله ؛ والمسافر عليل ، دواءه الوصول ؛ .

وهنا يحتاج القارئ إلى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة ، فانها من ساعات العمر ، إذ دخلوا على يوسف وهو على حال عظيم من الرقي والسؤدد ، والتمكن في أرض مصر ، وعندئذ تمثلت له السعادة عبداً رقيقاً ، ونقد كان المشهد مشهداً بهيجاً ، وكان الجيش والناس حوالى ذلك الحفل ، زرافات ووحداناً ، وكوكبة بعد كوكبة ، ثم قدمت لهم المرطبات والمنعشات الطيبة ، واستراحوا من وعناء السفر : والقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

ولا تسأل عن فرح يوسف بمجيء أبويه إليه ، ولا تسأل عن ساعة اللقاء ما كان أحلاها ؟

ثم قال لهم يوسف : ها قد حللتكم أهلاً ، ووطأتكم سهلاً ، ادخلوا والدي
« صوعن » العاصمة بل جميع الديار المصرية آمناً مطمئناً من الفراق والتهویش
والتشویش ، وادخلوا يا أخوان الصفا مصر . واثم آمنون من كل مقاومة وتكدير
لأنني سبق وقلت : « لا تريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .
واليك التعليقات التالية :

حال يعقوب عند رؤيته يوسف

أولاً — كأنك يعقوب عليه السلام وقع بصره على ولده فبسم وبكى ، وحمد
ربه واشتكى ، وقال في نفسه : « أواه من الماضي ، وشكراً لله على الحاضر » .
وعندي أنه لاشيء يصور حالته هذه مثل قول ابن نباتة المصري يهنيء السلطان
الأفضل ، ويعزيه بوالده المؤيد :

هناؤه محاذك العزاء المقدما	فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع	شبهان لا يمتاز ذو السبق منها
نرد مجاري الدمع والبشر واضح	كوا بل غيث في ضحى الشمس قد همي

مبدأ التاريخ العبراني

ثانياً — دخلوا على يوسف سنة ٢٣٩٣ ش . ق . هـ (أي سنة شمسية قبل
الهجرة) واعتباراً من هذا الحين أصبح بنو إسرائيل جالية فلسطينية بمصر ، وهذا
مبدأ تاريخ العبرانيين وكانت مدة إقامتهم بمصر (٢١٥ سنة) ثم بعده خرجوا
من مصر على يد قائدهم سيدنا موسى (سنة ٢٦٠٨ ش . ق . هـ) ثم افتتحوا بلاد
« سورية » على يد قائدهم النبي يوشع بن نون عليه السلام ، ومن ذلك التاريخ اعتبروا أمة
ببلاد كنعان وفلسطين ، التي هي أرض « الميعاد » حسب توراتهم .

من هي ام يوسف التي اواها اليه

ثالثاً - الكتاب الكريم يقول : « آوى اليه أبويه » وانه لمعلوم أن أباه هو سيدنا يعقوب ، ولكن من هي أمه هذه التي حضرت لمصر ؟ قيل هي أمه الحقيقية « راحيل » ، ولكن ورد في كتب المؤرخين تبعاً لسفر التكوين ، أن راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين ، ودفنت على طريق إفراته « بيت لحم » ، وأقام سيدنا يعقوب نصباً على قبرها ، وكان موقع قبرها معروفاً لحد أيام صموئيل وشاؤل (١ ص ١٠ : ٢) وهو من الأماكن الفلسطينية ، التي يزورها اليهود والمسيحيون والمسلمون بدعوى التبرك به ... وقد زاره السائح « مندريل » (سنة ٢٣١٩ ق.هـ) ، واتفاق العموم على أن ذلك المقام هو قبر « راحيل » ، لاسبيل إلى الاعتراض عليه ، لأن ما ورد في التاريخ يعضده من كل وجه .

وقيل : إن أمه التي حضرت لمصر هي « ليئة » اخت « راحيل » . لأن الحالة أم ، كما أن العم أب ، وقد سمي النبي عمه « العباس » أباه ، وقال تعالى : ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ (٢ : ١٣٣) ، ولكن ورد في التواريخ تبعاً لسفر التكوين أن « ليئة » ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر ، ودفنت في الغار الشريف .

وقيل ان المراد من أمه التي حضرت لمصر « بلهة » جارية أمه ، ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها ، لاسيما أنه بعد وفاتها قد انتقل هو وأخوه بنيامين لخيمتها ، والمربية أو الرابطة تدعى أمأ ، لقيامها مقام الأم ، كما كان « هرون الرشيد » يدعو « عبادة » امرأة يحيى البرمكي - أمأ له ، لأنها كانت أرضعته وهذا هو الصحيح ، وقد ورد في الحديث ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أم أيمن أمي بعد أمي » لأن « أم أيمن » كذلك حضنته وكفلته بعد وفاة أمه السيدة « آمنة » من حين أن كان عمره ست سنين ، الى أن انتقل الى بيت جده « عبد المطلب » وكان ، روجي له الفداء ، يبرها مبرة الأم ، ويكثر زيارتها ، وكان عندها كولدها ، كانت رضي

آ (٩٩) يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف ١٣٢٥

الله عنها مولاة لأم رسول الله ﷺ ، ثم صارت مولاة لرسول الله بالميراث ، وهكذا كان الحال في « بلهة » ، وكانت أولاً مولاة « لراحيل » أم يوسف ، ثم صارت مولاة لولدها يوسف بالواسطة ، أي بواسطة صيرورتها مولاة لأبيه يعقوب ، ثم أن راحيل وهبتها له ليفترشها .

يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف

رابعاً - رحل يعقوب عليه السلام من أرض الشام مع أنها أرض الميعاد ، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، حباً بولده يوسف « بحيرانها تغلوا الديار وترخص » قال بعضهم :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا
وقال العرجي :

نبت حولاً كاملاً كله لانلتقي إلا على منهج
الحج إن حجت ، وماذا منى وأهلته ؟ إن هي لم تحجج
الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، والمؤجر قبل المؤجر ، وأخيراً قال تعالى : « ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة » (٦٦ : ١١)

كيف قابل يوسف أبويه عند دخولهما عليه وكيف عاملهما

سادساً - عندنا أن يوسف قابل أبويه مقابلة تتراوح بين مراعاة مركز الحاكمية ، ومراعاة الادب ، ودليلنا على الشق الأول قوله تعالى : « فلما دخلوا على يوسف فدخلوهم - بما فيه أبواه - عليه في فسطاطه يشعر بأنه لم يخرج منه لاستقبالهم ، وكذلك قوله تعالى : « آوى إليه أبويه » يشعر أنه كان عاملهم إذ ذاك معاملة رحمة ، معاملة راحم لمرحوم ، معاملة حاكم لمحكوم ، معاملة أمير لرعية ،

ودليلنا على الشق الثاني قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش » ، يشعر أنه عامل أبويه إذ ذاك معاملة الاجلال والاكبار ، معاملة رعية لأمير ، معاملة ابن لأب ، فافهموا أسرار كتاب الله ، والسلام عليكم . (مرحى)

خطبة الوثام والسلام

آ (١٠٠) ﴿... ورفع أبويه على العرش ، وخرُّوا له سُجَّدًا ، وقال : يا أبت ، هذا تأويلُ رؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ، قد جعلها ربي حقًا ، وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن ، وجاءَ بكم من البدو ، من بعد أن نزعَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيفٌ لما يشاءُ ، إنه هو العليمُ الحكيمُ . ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المتممة للمئة ، فقام ابو الفتح الحلبي وقال :

(و) بعد أن دخل يوسف وابواه واخوته مصر ، وعبروا دار الحكومة ، (رفع أبويه على العرش) ليجلسا عليه معه ، ويشركهما معه في الجلوس على سرير الحكم ، سرير وكيل الملك ، وأما اخوته فقد طأطأوا رؤوسهم (وخرُّوا له سُجَّدًا) لأنهم لم يروا أنفسهم أكبر من أن يسجدوا له ، ولم يروا يوسف وكيل الملك أصغر من أن يكون مسجوداً له ، ولأن هذا هو شكل التحية الذي كانت الرعية تؤديه للملك ، ولأن كان قريباً من منزلته كوكيله ، فهو قاعدة متبعة قديماً في مصر والصين والفرس والكلدان والهند وعند العبرانيين ، كما رواه لنا التاريخ الشرقي ، ونقله أصحاب السير والأخبار ، ثم عندئذ وقف يوسف خطيباً في أبويه واخوته (وقال : يا أبت ، هذا) الحال الذي تراه اليوم ، في هذه الجلسة التاريخية ، هو

(تأويل رؤياي من قبل) أي منذ ٢١ سنة (قد جعلها ربي حقاً) فأصبح المتام يقظة ، والحلم علماً ، والظن يقيناً والقول فعلاً ، فهذا هو « الشمس » - وأشار إلى أبيه - وهذه هي « القمر » - وأشار إلى أمه بلهة - وهذه هي الحجر « المؤلف من الأحد عشر كوكباً » - وأشار إلى إخوته - وهذا هو الحقير المسجود له - وأشار إلى شخصه الكريم (وقد أحسن) سبحانه وتعالى (بي) إحساناً مزدوجاً (إذ أخرجني من السجن) على الصورة التي أحب ، بريئاً ، شريفاً ، نقي الذيل ، أبيض الوجه (وجاء بكم من البدو) العراء ، على الصورة التي تحبون ، وكان هذا كله (من بعد أن) وقعت تلك الحادثة العتيقة ، وهي أنه قد كان - مع الأسف - أن (نزع الشيطان) أفسد وأغرى وأثار داعية الشر (بيني وبين إخوتي) فعاذنا الله عن ذلك ، بالصفاء والمحبة والالفة ، ولا ريب أن هذا كله بتدبير الرب (إن ربي لطيف لما يشاء) إذا أراد حصول شيء ، سهل أسبابه ، ودبر له طريقاً دقيقة ، فإذا هو حاصل ، وإن كان في منتهى البعد عن المحصول (إنه هو العليم الحكيم) والعبرة بالخواصم .

هذا هو النطق الذي قام يوسف في تلك الجلسة التاريخية ، والقاء على الحاضرين وكان يتكلم وعواطفه تتكلم معه ، وقلبه يتهلل فرحاً ، وقد وقع صوت هذا النطق على قلب يعقوب عليه السلام وقوع الماء الزلال على قلب الظمآن .

ورفع أبويه على العرش ... الخ

— ٢ —

وقام السيد فضل الله الغزي وقال :

مصدق رؤيا يوسف الثانية

ليعني القارئ الكريم من وصف ما كان عرا سيدنا يعقوب عند تلاقيه مع

ابنه يوسف ، من الغبطة والسرور ، وما كان جد ليوسف حينذاك من الفرح والنشاط ، فذلك مالا يقع في الامكان ، ولاتناله قدرة كاتب ، ولا فصاحة خطيب ولو لم يكن يعقوب نبياً ، لو لم يكن هو ذلك الثابت الوقور الرصين ، الذي لاتزعجه حوادث الفرح والترح - لما احتمل لذة سماع البشرى ، بسلامة ابنه وأنه وكيل ملك مصر - لما احتمل ذلك بدون أن يغمى عليه من الفرح والغبطة - لما احتمل لذة رؤية ولده جالساً على العرش ، دون أن يغيب عن الوجود ، من شدة سروره وحبوره - لما احتمل سماع الخطاب التاريخي ، دون أن يملأ تلك الجلسة بكاء ، على حد « من عظم ما قد سرني أبكاني » ، وكيف لا .. وهو لا يشعر إلا وولده المحبوب قد خرج من بين أنياب « الذئب » الى عرش الوزارة بمصر - من الغيبة الى الحضور - من الموت الى الحياة - من رعي الاغنام الى رعي المصريين - من بدو فلسطين ، الى حاضر الكنانة - وبالجملة من لاشيء ، الى كل شيء ..!!!

أقول : عند وصول يعقوب وأبنائه الى دار الحكومة المصرية ودخولهم قاعة العرش التي فيها يوسف ، رفع يوسف أبويه على العرش الذي كان قد استوى عليه ، أي على سرير الوزارة وحاكمية الديار المصرية كعزيز لمصر ووكيل عن مليكها الريان ، وقد كانت هذه الساعة عند سيدنا يعقوب هي أهنأ ساعات العمر وأسعدها ، فغفر للدهر من أجلها جميع سيئاته عنده ، بل نسي عندها انه ذاق شيئاً من طعم الحزن والألم ، وأما إخوة يوسف ، فقد خروا له سجداً - (هكذا قاله ابو حيان في بحره ، وكل من أرجع الضمير للاخوة والأبوين جميعاً ، فقد اعتزل الفهم الصحيح) - خروا له سجداً ، والخنوع والذل يتمشيان في أعضائهم ، واستسلموا بين يديه بحدهم وحديدهم ، مع أنهم فيما تقدم منذ ٢١ سنة لم يكونوا راضين بما هو أقل من ذلك جداً ، وهو أن يكونوا في المنزل الثانية من محبة أبيهم اليهم ، خروا له سجداً ثم جلسوا محيطين به مثل إحاطة الهالة حول القمر ، جلسوا في

صمت عميق ، جلسوا وهم مأخوذون مسلوبون بما غمرهم من الخجل والحياء ،
ويا ما أعظم هذا المقام الرفيع ؛ وذكر رفعه لأبويه العرش ، وخرور إخوته
للسجود أمامه ، يكفينا في تصوير ما في هذا المقام من دهشة ورهبة وجلال ، وهذا
مُصداق رؤيا يوسف الثانية المذكورة في القرآن المجيد ، وهي سجود الأحـد
عشر كوكباً ، والشمس والقمر ، كما انه بمجيء إخوته الأحد عشر عنده ، في
السفرة الثانية ، وسجودهم له حصل مُصداق رؤياه الأولى ، المذكورة في سفر
التكوين ، وهي ان حُزَمَهم الإحدى عشرة سجدت لحُزَمته ، وبهذا وهذا تم
انتصاره على إخوته ، الذي هو من قبيل انتصار المحسود على حاسديه ، أو انتصار
الفرد على الجماعة ، أو انتصار المشرّد المطرود ، على مُشرّديه وطارديه .

وأما أبناء اخوة يوسف ، النجباء الكرام !! . فكشوا غير بعيد ، ينظرون
لعمهم جالساً على عرشه وبجانبه أبواه ، وتحفه إخوته ساجدين لعظمته ، وعندئذ
اعتقدوا أن الذي يبين درجات الناس إنما هو المجالس ، واجتماع الناس بعضهم ببعض .
واذا ما خلا الجبان بأرض ذكر الطعن وحده والنبالا

ولا بد انهم في هذه الحالة تذكروا قولهم لجدهم : « تالله إنك لفي ضلالك .
القديم » فخرجوا بينهم وبين أنفسهم ، وههنا وجد يوسف مكان القول ذا سعة ،
فقام فيهم خطيباً وقال موجهاً الكلام الى أبيه : « يأتبت الشيخ الوقور المحترم ،
تراني لم أذهب بالخيال بعيداً ، ولا أزيدك علماً أن هذا الحال الذي وقع أمامك ،
هو مُصداق رؤياي التي رأيتهما سابقاً في صباي منذ ٢١ سنة ، وهو مصيرها ومرجعها
لا أقل ولا أكثر ، وهي الرؤيا التي علقنا عليها آمالاً جسماً ، وكنا نتقائل بها .
خيراً ، وكنا نقول ، ليس بكثير على الأيام أن يصبح حلمنا يقظة ، وآمالنا حقيقة
راهنة ، فها هو ذا قد جعلها ربي حقيقة واقعة ، حيث جاءت كفلق الصبح ، أصفى .

من طلعة القمر ، ليس دونـه سحاب ، فصدق بذلك قالنا ، وصحت أحلامنا وآمالنا ، فالحمد لله على آلائه ، وله الشكر على نعمائه ، وقد أحسن سبحانه بي احساناً متصلاً بذاتي ممازجاً لنفسي ، إذ أخرجني من السجن ، سجن الظلم على الوجه الذي أحبه وتحبه ، وأرضاه وترضاه ، نقياً ، طاهر الذيل ، ناصع الجبين ، وجاء بكم من البداوة وشظف العيش ، لمصر التاريخية العظيمة بآثارها الخالدة ، المتمدنية المتحضرة ، زهرة ممالك العالم .. جاء بكم من البدو الذي قيل فيه : « من بدأ جفا (١) » أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب ، لتوحشه وانفراده عن الناس ، جاء بكم من البدو الى الحاضرة ، ذات الأنس والاجتماع ، وضروب الأشكال وأنواع المسرات ، ثم الف بين قلوبنا من بعد أن نزغ الشيطان وأثار داعية الشر ودخل في الفساد بيني وبين اخوتي ، وقد ذاب وتلاشى هذا النزغ في الهواء ، أمام اتفاقنا ومحبتنا لبعضنا لبعض ، عملاً بالوصايا السماوية ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً ، فألتف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ﴾ (١٠٣: ٣) ، وهذا من لطفه تعالى ، إذ انه لطيف لما يشاء ، لطيف التدبير ، فلا صعب إلا وله فيه تدبير ، ينفذ فيه مشيئته ، لطيف التوصل لما يريد ، بدقة ومهارة وخفة ورشاقة ، يتلطف لاستخراج الأمر الذي يريده ، وقريب منه : ﴿ وليتلطّف ولا يُشعِرَنَّ بكم أحداً ﴾ (١٩: ١٨) ، فمن لطفه تعالى أن سخرني لاعالة الناس في أيام السغب والمجاعة وبنوع أخص : باعالتكم وقد بلغت اسرتكم الـ ٧٥ شخصاً ، ومن لطفه تعالى انه أطفأ النائرة (١) وسكن النائرة (٢) وذهب بالعداوة بيننا ، وأبدلها بالمودة في القربى ، والرحمة مع ذوي الرحم ، ومن لطفه انه لم يحرمني منكم ، ولم يفجعكم بي ، بل حفظنا جميعاً ، ثم زاد

(١) حديث شريف .

(٢) النائرة العداوة (٣) النائرة الغضب

آ (١٠٠) اختصار يوسف القول في جلسة الالهام وتبسطه فيه في جلسة السلام ١٣٣١

في لطفه بنا ، فنظمتنا في سلك هذه الجلسة التاريخية ، وسيكون جامعاً بيننا في هذا القطر الواحد ، تحت سماء واحدة ، الى ماشاء الله ، فليذهب الماضي بخيره وشره ، ولنسدل عليه الستار وليأت لنا المستقبل بما نحب ، بقوة الله تعالى ، إنه هو العليم الحكيم .

هذه هي الخطبة « النورية » (١) اللطيفة ، خطبة الوثام والسلام بينه وبين اخوته ، كانت منه في مقابلة خطبتهم « النارية » (٢) التي في (ع ٨-١٠) التي كانوا ألقوها وتبادلوا فيها الآراء يوم المؤامرة على يوسف . (أحسن)

(ورفع ابويه على العرش ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد نعمة الله الدمشقي الميداني (٣) :

بحثي في الآية الكريمة على التعليقات التالية :

(اختصار يوسف القول في جلسة الالهام وتبسطه فيه في جلسة السلام)

(١) — نرى يوسف عليه السلام ، قد اندفع في خطابه الذي القاه بحضور أهليه جميعاً كالسيل المنهمر ، ورزق نشاطاً أيما نشاط ، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدي العزيز فوطيفار حينما قالت زليخا : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) ، فأننا رأيناه في ذلك الموقف قد اختصر القول اختصاراً ، إذ قال : (هي راودتني عن نفسي) وسكت ، فأين ذلك الاقتباس والاختصار في القول ، من هذا التبسط والاندفاع فيه ؟ فهو قد أنشأ هنا خطاباً أطنب فيه أيما إطناب .

(١) نسبة الى النور (٢) نسبة الى النار

(٣) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

ولعل السر في هذا الاطناب هو سروره وفرحه بأبيه وذويه ، والسر في اختصاره فيما سبق ، حصره وانقباضه ، لكونه كان عبداً خادماً ، ويعجبني هنا قول القائل :

في انقباض وحشمة فاذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت غير محتشم

وأيضاً أين مقامه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخدوم ؟ وأين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم ؟ وأين مقامه وهو يتكلم بين يدي أهليه ، من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه ؟ وأخيراً أين مقامه وهو صبي يافع ، من مقامه وهو رجل كهل ؟

(مصداق قول يوسف ومصداق قول آية)

(٢) — يقول هنا سيدنا يوسف : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ يريد أن هذا مصداق قوله سابقاً : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً .. الخ ﴾ .

وأما مصداق قول آية له : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. ﴾ فقد اجتباه بالنبوة والرسالة كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك ، قلم : لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ (٤٠ : ٣٤) ، وأما مصداق قوله : ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ فقد أول حلمي الساقى والخباز ، وحلمي ملك مصر ، هذا رأي الجمهور في معنى « تأويل الأحاديث » وأما على رأي البعض ، من أن « تأويل الأحاديث » مغازي (١) مطلق الكلام ، فقد علمه الله مصائر جميع الكلام وأغراضه ، ومخارجه ومداخله ، وكل ما يرمي إليه القول سواء أ كان حديث منام أو حديث يقظة ، وسواء أ كان كلاماً أخروياً ، أو دنيوياً ، سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً ، الى

آخر فنون الكلام ، والدليل على ذلك كله أعمال يوسف الواقعة الثابتة التي قام بها في تدبير المملكة المصرية .

وأما مصداق قوله « ويتم نعمته عليك » فقد تمت بخروجه من السجن ، الى كرسي وكالة المملكة ، وأنه صار « وزير مالية مصر » و « عزيزها » وأنه كان السبب الوحيد في حياة المصريين ، حتى سماه « الريان » « صفات فعنيح » ومعناه على ما قيل « طعام الحياة » أو « قوت الأحياء » أو « مخلص العالم » والمعنى على كل من هذه التفاسير ، أن يوسف كان علة قوت الأحياء أو طعامهم وانقاذهم من الموت ، بما أتاه من خزن الحنطة ، الى زمن القحط ، ومن اتمام نعمته عليه انه تزوج امرأة شريفة وهي « أسنات » بنت كاهن « أون » وهي قرية « بيت شمس » على ستة أميال من القاهرة ، وفي الشمال الشرقي منها ، وكان أبوها واسمه « فوطي فارع » من كبار رجال الدين المقدمين في نظر حكومة مصر ، وقد رزق منها ولدان هما « منسى » و « أفرايم » وكل هذا الذي بلغه يوسف لم يكن إلا بالعناية الإلهية ، فلذلك يعد من أمثلة اتمام نعمة الله عليه ، لا سيما متى تصورنا نبوته ورسالته ومنصبه الجليل .

وأما مصداق قوله « وعلى آل يعقوب » فقد صار بخروجهم فيما بعد من أرض السخرة والعبودية ، ثم بدخولهم الشام أرض العز والحرية ، حيث استولوا عليها على يد موسى ، ثم على يد « يشوع بن نون » وقبض الله لهم قضاة يحكمونهم ، ثم آتاهم الله الملك ، وجعل في سلاسلهم النبوة والكتاب ، وأنزل على موسى منهم التوراة وعلى داود الزبور ، وعلى المسيح الانجيل ، وفضلهم على عالمي زمانهم ، حيث كانوا موحدن ، وأما باقي أهل عصرهم ومواطنيهم من الأمم فكانوا وثنيين .

(الإحسان يتعدى بالباء وبإلى)

(٣) — تعليقا على قوله « أحسن بي » الإحسان يتعدى بالباء وبإلى ، فيقال أحسن اليه وأحسن به ، وكذلك أساء اليه وأساء به ، قال الشاعر : « أسيشي

بنا أو أحسنى لاملومة ، ، والأول أبلغ ، لأن من احسن به الله هو من يتصل به برّه ، وحسن معاملته ، ويلتصق به مباشرة على مقربة منه ، وعدم انفصال عنه ، وأما من أحسن الله اليه ، فهو الذي يسري برّه ، ولو على بعد ، أو بالواسطة ، إذ هو شيء يساق اليه سوقاً ، ونظير ما هنا قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ (٨٣:٢)

(معنى « البدو »)

(٤) — تعليقاً على كلمة « البدو » يجوز أن يكون ذلك مصدراً ، لأنه يقال : « بدا يبدو بدواً » إذا أقام أو نزل في البادية ، والواقع ان يعقوب وأولاده وأهله جميعاً كانوا من أهل الخيام ، من ساكني البادية غالباً ، وقد يكون ساكناً في الحاضرة مثل « قرية أربع » أو « بئر السبع » أو « سيلون » ولكن ذلك قليل ، ويقال للمقيم في البادية : « باد » كقوله تعالى : ﴿ سواء العاِ كِفُ فيه والبادِ ﴾ (٢٢ : ٢٥) وجمعه « بادُون » كما قال تعالى : ﴿ لو أنهم بادُون في الأعرابِ ﴾ (٣٣ : ٢٠) ، ويحتمل أن « البدو » هنا بمعنى البادية ، وهي خلاف الحاضرة ، والنسبة اليها بدَوِيٌّ ، وهنا أتذكر قول القائل سراج الدين الوراق مورياً :

« وبي من « البدو » كحلاء الجفون « بدت » »

في قومها كمهاة بين آساد

فلو « بدت » لحسان « الحُضر » قمن لها

على الرؤوس وقلن : الفضل « للبادي »

فقوله : « وبي من البدو » أي البادية ، وقوله « بدت » أي ظهرت . ويقال بدا من باب سما أي ظهر ، وقوله « الحُضر » جمع حاضر أي ساكن في الحاضرة ، وهو كفارس وفُرْس ، وقوله « للبادي » هو موضع التورية ، ومعناه المقيم في البادية بقرينة « البدو » ومقابلته بالحُضر ، أو معناه الظاهر بقرينة « بدت » ، ويحتمل

ايضاً أن كلمة « البدو » اسم لموضع بالشام قرب « وادي القري » كانت به منزل « علي بن عبد الله بن عباس » وأولاده (رض) ، كما في « النهاية » .

معنى « النزغ » والرد على القول بأن اختلاف الامة رحمة

(٥) — النزغ دخول في أمر لإفساده ، نزغ أفسد وأغرى ، وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري ، نَزَعَ وَنَزَحَ وَنَزَقَ وَنَزَعَ وَنَسَخَ وَنَخَسَ وَنَحَرَ وَنَفَرَ وَتَكَزَرَ وَوَكَزَرَ وَهَمَزَ وَطَمَنَ ، الفاظ متقاربة المعنى ، وأصله اصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالابرة والمهاز والرمح ، أو ما يشبه المحدد كالاصبع . ويقال : نزغ ونزغ بين الناس ؛ والمراد من نزغ الشيطان ، اثارته داعية الشر والفساد في النفس ، بداعية غضب أو شهوة ، حيوانية أو معنوية بحيث تنقحتم بصاحبها الى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهاز ، لتسرع في العدو ، وغلب استعماله في الشر فقط ، وبناء عليه فتزغ الشيطان ، افساده وإغراؤه ، يحمل على التفريق بين الجماعة المؤتلفين ، وهذا هو عين الشقاوة ، وأما ما يروونه من حديث « اختلاف أمتي رحمة » فقال الحافظ السخاوي : « زعم كثير من الأئمة ، أنه لا أصل له » ، وهذا القول هو الصواب ، كيف والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٥ : ٣) وكيف يقال : الاختلاف رحمة ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ (١١ : ١١٩) والثابت بالشرع والعقل والتجربة ، ان الاختلاف نقمة ، وبسببه تفرقت الكلمة ، وذهبت الريح والشوكة ، الى أن وصلنا الى هذه الدرجة من الضعف ، وذهب ملكنا ، وصارت المملكة الكبيرة من محالكننا ، تقع في قبضة الأجانب ، فلا يبالي سائر المسلمين بذلك ، فأين الوحدة والاخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟ كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله ذلك الاختلاف .

توجيه النزغ للشيطان

(٦) - وجهه دفعة النزغ الى الشيطان ، مع أن «الكيد» إنما وقع من إخوته ، لطفاً منه وأدباً معهم ، وأيضاً فهو وجهه فكره للسبب الأول الأساسي ، وهو الشيطان ، وأما أبوه عليه السلام فنظر للسبب الأول ، ولمن سيتأثر منه ، فقال : « فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للانسان عدو مبين » .

أدب يوسف في التعبير وامثلة من ادب تعابير القرآن

(٧) - يقول يوسف : « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » ولم يقل : مثلاً : من بعد أن تأمر عليّ إخوتي ، أو : من بعد أن القاني إخوتي في الحب ، أو : من بعد أن لعب الشيطان على إخوتي ، بل عبر بتلك الجملة الذهبية التي فاه بها أمام إخوته ، لأنها عبارة رقيقة معزّية ، تنعش البائسين ولا تذلل عزة السامعين ، ولا تجرح عواطفهم ، وهذا أدب مشروع في التعبير ، ولطيف جداً ، وفي القرآن الكريم أمثلة عديدة منه كقوله : ﴿ لا تقولوا : راعنا ، وقولوا : انظُرنا ﴾ (٢ : ١٠٤) وهو خطاب للمؤمنين إذ نهى الله تعالى عن أن يقولوا للنبي ﷺ كلمة « راعنا » لما فيها من سوء الأدب وأمرهم بكلمة أدب وألطف منها وفيها المعنى الذي كانوا يريدونه منها وهي « انظُرنا » ، ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ (٥ : ٧٨) والكلام هنا عن المسيح عليه السلام وأمه ، وقوله عز وجل ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ كناية عن أنها بحاجة الى الغذاء والى الهضم والى دفع الفضلات .. أي أنها مفتقرتين الى ما يقوم بأودهما كسائر أفراد نوعها وجنسها ، ففي قوله : « يأكلان الطعام » من أدب اللفظ ولطف التعبير ما فيه ، ﴿ فجعلهم كعصف ما كول ﴾ (٥ : ١٠٥) فالعصف المأكول كناية عن التبن الذي تأكله الدواب ثم تروثه ، وقد عبر القرآن الكريم بذلك لما فيه من الادب والحشمة ، ﴿ خَلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ

بين الصُّلبِ والترائبِ ﴿ (٨٦ : ٦ و ٧) الماء الدافق كناية عن المني، وخروجه من بين الصلب والترائب كناية عن خروجه من مجرى التناسل ، وهي من الالفاظ التي تتضمن الأدب الرفيع ، ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ ﴾ (٧٤ : ٤) فتطهير الثياب كناية لطيفة عن نظافتها من النجاسات ، والكلام موجه الى النبي ﷺ ، ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ فَرَسًا حَسَنًا ﴾ (٧٣ : ٢٠) فاقراض الله كناية لطيفة عن أداء الزكاة الى الفقراء ، ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (٧٣ : ١٠) فالهجر الجميل كناية لطيفة عن المخالفة والابتعاد ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧٠ : ٣٩) كناية لطيفة عن النطفة التي يُستحي من ذكرها .

﴿ يَذَّبُحُونَ أَبْنَاءَ كَمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كَمْ ﴾ (٤٩ : ٢) ، فيستحيون يطلبون حَيَّ المرأة ، وهو فرجها ، فعبر بكلمة « يستحيون » لما فيها من الأدب ونظف العبارة ، ^(١) ﴿ أَحِلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ... فَإِنَّ

معنى استحياء النساء في قوله « يستحيون نساءكم »

(١) وههنا سأل بعض اعضاء المؤتمر الرئيس ان يوضح لهم ويبسط هذا البحث ، وهو بحث « استحياء النساء » الذي جاء في الآية فقال : « يستحيون نساءكم » معناه : يطلبون « حيين » وهو فرج الآدمية ، كما أن « الحياء » فرج الحيوان من ذوات الحف والظلف والسباع ، ويرجع هذا المعنى في الآية بأمر سبعة :

١ - لو كان المقصود من قوله : « يستحيون نساءكم » يستبقوهن ، لكان يستغنى عنه بالاعتصار على ذكر تذييع الأبناء .

٢ - نسمع ربنا سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (٤٩ : ٢) ، ولاريد أنه أراد من البلاء مجموع الأمرين : تذييع الأبناء ، واستحياء النساء ؛ وما هو هذا البلاء العظيم في استبقاء النساء ؟ لعمرى انه نصف رحمة بأهلهم ، ورحمة كاملة بنفس هؤلاء النساء المستبقيات ، فذاك إلا أن لاستحياء هؤلاء النساء معنى آخر به يكون استحياءهن بلاء عظيم ، وما ذاك الا المعنى الذي ذهبنا اليه .

٣ - لو كان المراد من الاستحياء ، الاستبقاء ، اعبر بقوله : « يحيون » لأنه أخصر ،

كما قال : « ومن أحيها فكأنما أحيانا الناس جميعاً » (٥ : ٣٥) =

بشروهن" ، وابتغوا ما كتب الله لكم ﴿١٨٧:٢﴾ ، في هذه الآية ثلاث لطائف : الأولى هي أن أصل «الرفث» الفحش في الكلام ، وأراد منه الوقاع ، والثانية أصل «المباشرة» مماسة ظاهر البشرة أي الجلد ، والمراد منه أيضاً الوقاع ، الثالثة ، يريد

٤ - لو كان الغرض من الاستحياء الاستبقاء ، لعب « بالبنات » بدل تعبيره بالنساء ، الذي يغلب استعماله في المرأة الكبيرة ، موافقة للواقع ، لأن المصريين ما كانوا يستبقون النساء الكبيرات بل البنات الصغيرات ، كما ان اليهود بمصر ما كانوا يستسهلون تمكين المصريين من بناتهم ، ولكن بنسائهم فقط ، لانهم تعلموا استسهاله من اصولهم - على ذمة التوراة - وعلى هذا فيشبه أن يكون في الآية الكريمة ، استخدام على مذهب ابن مالك ، وهو أن يطلق لفظه معينان ، محفوف بقرينتين ، فالسابقة تتطلب أحد المعنيين ، واللاحقة تتطلب المعنى الثاني ، فهذا اللفظ هنا هو « يستحيي » يحتمل أن يراد به : يستبقي بقرينة قوله سابقاً « يذبح » ويحتمل أن يراد منه : يطلب « حي » المرأة بالزنى ، بقرينة قوله لاحقاً : « نساءكم » .

٥ - الزنا هو لزيم التوثن ، كما يعرف تماماً بمراجعة كتب التاريخ القديمة ، لاسيما أسفار التوراة وتاريخ الكلدان وأستور ، وغيرها من الكتب التي تحكي حوادث الامم الوثنية العتيقة ، وأنه لأمر معلوم أن المصريين وثنيون ، ومثلهم الاسرائيليون بمصر في ذاك التاريخ ، فلا بد أن تكون وثنية الطرفين قد أوقعتهم في شبكة الزنا ، لان الزنا والشرك اخوان ، كما هو المعروف عند جميع الوثنيين ، حتى وثنيي العرب والهند ، وحتى أهل الصين واليابان لليوم .

٦ - هذه القصة ذكرت في القرآن في ستة مواضع ، ولم يأت في موضع واحد منها لفظه : يحييون أو يحيي أو نخيي أو استحيوا ، فلو كان المراد الاستبقاء ، لكان عبر - ولو في محل واحد من هذه المحال الستة - بدون سين وتاء ، طلباً لتنشيط القارئ والسامع والكاتب ، بالتبدلات والتغيرات في اللفظ ، كما هو عادة القرآن .

٧ - سنة القرآن باطراد ، انه متى أراد المعنى المقابل للامانة ، أن يعبر عنه « بأحيا » ، بدون سين وتاء ، كما أن سنته المطردة ، أن يقابل تذيبح أو تقتيل أبناء اليهود بمصر ، بمادة « الاستحياء » أي بالسين والتاء دائماً ، فلم هذا الاختلاف المطرد يا عجباً ؟ ! اذا لم يكن لنكتة ، وتلك النكتة هي ما فهمناه ؟

هذا بسط القول في هذا البحث الذي ذكرناه استطراداً وجواباً اسؤال السائل .

والله اعلم . آ هـ

(رئيس المؤتمر)

آ (١٠٠) امثلة من ادب تعابير القرآن - معنى استحياء النساء ١٣٣٩

بقوله ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (١٨٧:٢) الواقعة في...، لافي...، لأن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من النسل، إنما يكون بالواقعة الأولى؛ ﴿ولكن لا تواعدوهن سرّاً﴾ (٢: ٢٣٥) والسر هنا كناية لطيفة عن النكاح، ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ (٢: ٢٣٧) المس هنا كناية عن النكاح، وهي من ألطف وآدب الكنايات، يقول القرآن عن التابوت حين أتى به من عند الفلسطينيين لموقع بني إسرائيل ﴿تحمله الملائكة﴾ (٢٤٨:٢) وهذا التعبير آدب وألطف من عبارة «تحمله البقر» التي عبرت بها توراة اليهود، ﴿فإن تولوا فإن الله أعلم بالفسدين﴾ (٣: ٦٣) ولم يقل فإن الله بفسادكم أعلم، ﴿فالصالحات، قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ (٤: ٣٣) فالغيب هنا هو ما يستحي من اظهاره، أي حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين، ومنه ما يكون بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولا سيما حديث الرفث، فما بالاك بحفظ العرض، فهذه الكتابة من دقائق كنايات النزاهة، تقرأها فرائد المذارى جهراً، ويفهم من ماتومي اليه مما يكون سرّاً، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق، ﴿والذان يأتيا منها منكم فاذووها﴾، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها﴾ (٤: ١٥) هو كناية في غاية الحشمة عن اللواط، بمقابلة قوله قبله ﴿واللّٰتِي يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ﴾ (٤: ١٤) الذي هو عبارة عن السحاق، ﴿وكيف تأخذونه﴾، وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ (٤: ٢٠) يقال أفضى اليه بصره، وأفضى إلى امرأته بأشرها، وهو كناية لطيفة عن الوقاع، أو معناه، خلص بعضكم إلى بعض ذلك الخلوص الخاص بالزوجين، واتصل بعضكم ببعض ذلك الاتصال الذي يكون في الخلوة، وهذا من حسن نزاهة القرآن في التعبير وأدبه العالي في الخطاب، ﴿وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى﴾

والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب ، والصاحب وابن السبيل ﴿ (٣٥:٤) ، فالسبيل الطريق ، وليس للطريق ابن ، فهو كناية عن « اللقيط » لأن اللقيط حيث لم يعلم له أب ينسب اليه ، نسب للطريق الذي وجد فيه ؛ ﴿ ذلك لمن خشي السعنة منك ﴾ (٢٤:٤) العنت بحسب الأصل الشقة والفساد ، وهو هنا كناية عن الزنى ، ﴿ أو جاء أحدكم من الغائط أو لامستم النساء ﴾ (٢٤:٤) فالجبيء الإتيان والغائط هو المكان المنخفض من الأرض كالوادي والجورة ، هذا هو حقيقة الكلام ، ولكن هو كناية عن قضاء الحاجة ، وخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وعبر عنه بذلك كناية كما هي سنة القرآن في التزاوة بالكناية عمالا يحسن التصريح به ، وسبب هذه الكناية أن أهل البوادي والقرى ، بل جميع المسلمين وقت نزول الآية لم يكن لهم مراحيض ، بل كانوا يقصدون بحاجتهم الأماكن المنخفضة لأجل الستر والاستخفاء عن الأبصار ، وكذلك قوله : (أو لامستم النساء) هو كناية لطيفة عن الوقاع ، ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ﴾ (٢٣:٢٤) ، فهذا « الرمي » كناية لطيفة عن القذف بالزنا ، ﴿ أتأتون الذكور أن من العالمين ؟ ﴾ (١٦٥:٣٦) فالإتيان كناية عن المواطاة ، ويوجد في كتاب الله تعالى من الكنايات اللطيفة مالا يحصى ، كما ويوجد في الحديث الشريف وفي كلام الأدباء وحكاياتهم ما يشبه ذلك ، وفيما ألقيته على مسامعكم الكفاية .

عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية

(٨) — تعليقاً على قوله « وجاء بكم من البدو » اذ اعتبر يوسف محجي أبويه وأخوته من عيشة البداوة الى عيشة الحضارة ، ذات الأنس والحبور والحياة الاجتماعية والسرور ، إحسان به ، هذا وإن الدين لا يمنع من العناية بذلك ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هي

للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴿ (٣١:٧) ﴾ ، وإذا كانت
الله يقول : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ (٢٩:٢) فهل المسلم
خارج عن دائرة هؤلاء المخاطبين ؟ وإذا كان الله يتن على عباده بالظلال والكهوف
والثياب التي تستر العورة كما قال : ﴿ والله جعل لكم ممّا خلق ظلالاً ، وجعل
لكم من الجبال أكنافاً ، وجعل لكم سرائيل تسقيكم الحراً ﴾ (٨١:١٦)
فكم تكون منته عليهم إذا سكنوا في المدن ، وتمتعوا بما فيها من مرافق الحياة .. ؟
وإذا كان الله قدامتن على أهل البوادي بجبال الحيوانات كما قال : ﴿ ولكم فيها
جمال ﴾ ، حين تريحون ، وحين تسرحون ﴿ (٦:١٦) ﴾ فكم تكون منته على
الناس ، بما حوته المدن من مظاهر السرور ، ومجالي شرح القلوب .. ؟

نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني

(٩) — تعليقاً على قوله تعالى ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ وبذلك وأمثاله نال
يعقوب شرفاً دنيوياً ، وفخراً زمنياً ، عطفاً على شرف نبوته ، وفخر رسالته ،
فكان حاله مع ابنه كحال « أبي الصقر » مع « شيان » في قول ابن الرومي يمدح
أبا الصقر الشيباني وزير المعتمد العباسي :

قالوا : « أبو الصقر » من « شيان » قلت لهم
كلا ، لعمرى ، ولكن منه شيان
كم من أب قد علا بابن له شرفاً
كما علت برسول الله « عدنان »

مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح

(حسب رأي الإنجيل)

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أدب يوسف عليه السلام مع أبويه ، إذ اعتبر

حاضنته كأم ، وأعطائها واجبات الأم الحقيقية، ورفعها مع أبيه نبي الله على العرش، وهكذا جميع أنبياء الله ورسله ، كلهم يقومون بواجباتهم نحو ربهم ، ثم نحو آبائهم وأمهاتهم ، وأمثلهم في هذا الأدب، سيدنا المسيح عيسى عليه السلام، خلافاً للنصارى الذين ينسبون له عدم احترامه لأمه ، واهانتها مراراً أمام الناس ، إذ مرة جاءته تطلب منه مساعدة أهل العرس في « قانا » ، فقال لها أمام الحاضرين والحاضرات : « مالي ولك يا امرأة » (يو ٢ : ٤) فرجعت بالطبيع مكسورة الخاطر ، كسيفة « البال » واأسفاه ! ويقولون : « فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً — أي عند الصليب — قال لأمه : يا امرأة ، هو ذا ابنك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا أمك » (يو ١٩ : ٢٦) ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من قلة الأدب — حاشا سيدنا المسيح من ذلك ، إذ ناداها بقوله : « يا امرأة » ، كأنها أجنبية منه ، وكأن القواميس ضاقت عليه ، حتى أنه لم يجد فيها سوى كلمة « يا امرأة » التي تشعر بالجفاء واليبس ، ويقولون : « فيما هو يكلم الجموع ، إذ أمه واخوته قد وقفوا خارجاً ، طالبين أن يكلموه ، فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ؟ ومن هم إخواني ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخواني ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات ، هو أخي واختي وأمي » (مت ١٢ : ٤٦ - ٥٠) ، فقابل أعمال المسيح عليه السلام هذه مع أمه على ما في الاناجيل بقول القرآن الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي فِي عَامَيْنِ : أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥٩ : ٣١) ، وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّاَّ إِلَٰهًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا — إِلَى قَوْلِهِ — فَلَا تَقُلْ لَهَا : أُوْفٍ ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهَا قَوْلًا

آ(١٠٠) ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعد ما القى يوسف خطاب الوثام ١٣٤٣

كريباً ، واخفيضَ لهما جناحَ الذلِّ مِنَ الرحمةِ ، وقل ربَّ ارحمَّهما كما ربياني صغيراً ﴿١٧: ٢٣ و ٢٤﴾ ، والقرآن الشريف ، قد كذب الاناجيل في هذه الدعوى أيضاً حيث نقل عن المسيح أنه قال: ﴿وَبَرَّأ بوالدتي ولمَّ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ (١٩ : ٣٢) ، أي لم يكن عاقاً لها ولا قاسياً عليها ، ولا على غيرها ، بخلاف ما يفهم من الاناجيل ، فإن حسن معاملة يوسف مع « بلهة » مرييته ، التي لا اعتبرها كأُم له ، رفعها مع ابيه على العرش — من معاملة المسيح لأُمه الحقيقية ؟ على ذمة تلك الاناجيل ، ولكننا نبرأ إلى الله تعالى من مطاعنهم هذه ، ولا نعتقد إلا بما ورد في القرآن من أنه لم يكن عاقاً لها ولا عديم الاحترام ولا قاسياً ولكنه كان بارّاً أبها ، ومطيعاً لها .

ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعد ما القى يوسف خطاب الوثام

(١٠) — نخال أنه بعدما خرَّ له إخوته سجداً ، ساد السكوت في تلك الجلسة الرهيبة ، لا يبدأ أحد بكلام ، حتى لقد يحاذر أحدهم إذا فاجأ السعال أن يتنحنع ؛

هم صامتون ، والقلوب تتناجي وتتفاهم ، وضرباتها أصوات حية ، تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح ، واستغرقوا في ذكريات الزمن الماضي وحوادثه ، فتتمثلت لكل فريق حاله كما هي ؛ فأما إخوة يوسف فتذكروا حسدهم لأخيه ، فمواآمرتهم عليه ، وما زالت تتسلل الأفكار في ذهنهم ، حتى الساعة التي حضروا فيها الآن جميعاً بأهليهم بين يديه ،

وأما يعقوب عليه السلام فاخذ يتذكر جميع ما جرى له منذ المنام الذي قصه عليه يوسف ، إلى لقائه إياه وهو حيّ ، بل وهو « عزيز مصر » و « وزير ماليتها » .
والحاكم على نهر النيل بالوكالة عن الملك الريان .

وأما يوسف فقد تمثلت له حاله في تلك الجلسة كما هي ، فتذكر ما مرّ به من الأهوال منذ حدوثه ، حتى وصوله إلى هذه الجلسة وسجود اخوته له ، فترك من هذه الذكريات مالا ينبغي ذكره ، فقام ملخصاً الباقي في هذا النطق الذي ألقاه كخطيب مفوه .

(١١) — سمعنا يوسف يتكلم ويخطب ويأتي بالشيء الكثير ، وأما أبوه ، فلم نسمع منه حين اللقاء ، كلمة واحدة ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب قول العامري عاشق ليلي :
ولاني لينسيني لقاءكِ كلما لقيتك يوماً أن أثبك ما ييا

معنى السجود والخروج وحكمهما في الدين

(١٢) — حمل بعضهم السجود هنا على أعظم مظاهره ، وهو وضع الجبهة على التراب ، ولا بأس بهذا المعنى هنا ، بل هو من الحسن بمكان ، وقد كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس . من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير ؛

نعم . نعم ، نعلم من مراجعة «أسفار العهدين» القديم والجديد والكتب التاريخية القديمة أن السجود للمخلوق ، بدون أن يتضمن شعوراً دينياً عبادياً ، كان جائزاً في الأديان السابقة ، منذ عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد السيد المسيح ، وأما السجود الذي يقصد به العبادة ، فهو عندهم غير جائز ، لأنه عمل وثني ، ولكن دين الاسلام يمنع السجود لغير الله مطلقاً ، سواء أكان عبادياً أو احترامياً ، احتياطاً وتحفظاً .

وحمل بعضهم هذا السجود على معنى آخر ، وهو التطامن والخضوع والالتقياد كما هو معناه لغة ، ويكفي في الخروج أن يكونوا قد تطامنوا نحو الأرض ، كما يفعله بعض متقدمي أهل اليوم ، عندما يريدون تعظيم إنسان ذي مقام عال .

ولما كانت المقام يقتضي البسطة في الكلام نقول : قد يتجاوز بالسجود عن

الانقياد لقدرة الله واراادته ، وله أمثلة ، أحدها قوله تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (١٣ : ١٦) ، يصح أن يحمل هذا كله على السجود المجازي ، وأن يحمل في حق العقلاء على السجود الحقيقي ، وفي حق الظلال على السجود المجازي ويكون فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز .

ثانيها قوله تعالى : — ﴿ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ (١٦ : ٤٩) .

ثالثها — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (٢٢ : ١٨) ، وهذا إن حملته على السجود المجازي في الجميع صح ، لأن الكل منقادون لقدرته واراادته وإن حملته على السجود الحقيقي فيمن يعقل وعلى المجازي فيما لا يعقل ، كنت جامعاً بين حقيقة شرعية ومجاز لغوي ، كما قرره « عز الدين بن عبد السلام » فهنا في هذه السورة يجوز أن يحمل السجود من اخوة يوسف على المعنى الحقيقي الشرعي ، وهو وضع الجبهة على الأرض لأنه كان جائزاً في شريعتهم ، وأن يحمل على السجود اللغوي ، وهو الانقياد والطاعة ، ولا ينافي قوله : « وخروا » ، لأن الخروج ، لا يجب أن يكون معناه دائماً النزول من علو الى سفلى ، بل قد يستعمل في مطلق السقوط وقد يطلق على الاسترخاء ، كما نبه على كل ذلك في القاموس ، وقال في التاج ، يقال : خرّ ، إذا عثر بعد استقامة ، وفي التنزيل : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (٣٨ : ٢٤) ، وفي الأساس ، يقال : « شجرة ساجدة : مائلة ، والسفينة تسجد للرياح : تطيعها وتميل بميلها ، وسجد البعير : طمأن رأسه لراكبه » فالخروج لا يقتضي السجود بوضع

الجهة على الأرض ، بل قد يستعمل فيما قد يصل به الانسان الى حالة الركوع ، ولذلك نرى أبا حنيفة وأصحابه استشهدوا بهذه الآية في سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود ، وأما قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ، إِذَا بُتْئِي عَلَيْهِمْ ، يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ، وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبَّنَا ، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ؛ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١٧ : ١٠٧ - ١٠٩) فلا يجب فيه أن يكون السجود وضع الجهة على الأرض ، بل يجوز أن يكون معنى السجود الخضوع والانحناء بالرأس للأذقان ، فقوله : « ويخرون للأذقان ، أى يسترخون وينحنون لجهة الأذقان ، خُضْعًا خُشْعًا ، وتكرير يخرون للأذقان ، يفيدنا أن الخرور وقع منهم مرتين ، مرة في بدء سماع تلاوته عليهم ، قبل قولهم : « سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » ، واخرى في أثناء تلاوته عليهم بعد هذا القول ، ولكن كانوا في هذه المرة الثانية يكون لقوة ما اعتراهم من الخشوع .

البدو وسكناهم وشهادتهم

١٣ — في الحديث الشريف : (ساكن الكفور كسا كن القبور) ، وسكنى البدو تعد أنزل جداً من سكنى القرى ، بلنة المدن ، حتى أنه كان في الاسلام من رجع بعد الهجرة الى موضعه من البدو ، من غير عذر ، يعدونه كالمرتد ، فكان يحرم على المهاجر تركه هجرته ، ورجوعه للبادية ، ويعدد ارتداد المهاجر أعراياً من الكبار ، ولكن كل هذا كان قبل فتح مكة ، فلما كان الفتح سقط فرض الهجرة ، وصارت السكنى في البدو جائزة ، وإنما مع الكراهة ، وذلك لما فيها من البعد عن العلم والدين والنور ، ففي الحديث « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » ، فكره شهادة البدوي ، لما فيه من الجفاء في الدين ، والجهالة بأحكام

الشرع ، ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ، وإليه ذهب مالك ،
والناس على خلافه . - احسنت احسنت -

حسن الختام

آ (١٠١) رَبِّ ! قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلَيْتِي فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *

افتتحت جلسته وتليت الآية المئة والواحدة ، فقام السيد الفراتي وقال :

قال يوسف مخاطباً الباري عز وجل (رب) كم أنا مدين لك ، حيث (قد
آتيتني) خطأ (من الملك) بمصر في مملكة مليكها « الريان » (وعلمتني من تأويل
الاحاديث) احاديث المنام ، واحاديث اليقظة ، يا (فاطر) ياخالق على غير مثال
سبق (السموات والأرض) - والفطر هنا الاختراع والابتداء ، وبابه نصر ،
قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : « كنت لا أدري ما فاطر السموات ؟ حتى
أتاني اعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأتها » - (أنت
ولي) متولي أموري (في) داري (الدنيا والآخرة) أوفي أولى أحوالي وأخراها
(توفي مسلماً) فلاآخرة خير للعبد من الأولى (وألحقني) عند نزول الختام بي
(بالصالحين) في الملاء الأعلى وكفى ، فليست أسألك بعد ذلك شيئاً مع علمي بدوام
افتقاري إليك .

دينهم ، ثم كتبه لهم كاتب منهم ، نشأ في السبي والأسر بين الوثنيين بعد عدة قرون ، فنقص منه وزاد فيه ، ولم تعرف المصادر التي جمع منها ما كتبه ، معرفة صحيحة ، كل هذا كان خفي على علماء المسلمين عدة قرون بعد انتشار العلم فيهم .

(٥) جعل الله تعالى الآية على صحة رسالة النبي ﷺ علمية ، حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين ، وهي إتيان رجل أُمِّي عاش بين الاميين ، إلى ما بعد من الكهولة - بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين ، الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً ، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعده زمنه - ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها ، وأسلوب أشد إعجازاً .

(٦) ويوجد في القرآن ، إخبار عن الغيب المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ (٥٠: ٣٠) وقد ظهر صدق ذلك بعد بضع سنين من نزول الآية ، وكان أبو بكر الصديق (ض) راهن بعض المشركين على صدق الخبر ، فربح الرهان ؛

ومن أظهر هذه الأخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥ : ٩) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ (٥٥ : ٢٤) وقد أنجز الله وعده .

الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً لذاته

التعليق السادس — هذه الآية (ع ١٠٢) بحث من بحوث أصول الدين ، وهو

الاستدلال على النبوة ، ولم يكذب يتعرض له هنا قصداً ولذاته ، ولكن ذكر بعد تمام القصة اليوسفية استدلالاً بها على صحة النبوة ، فهو بحث ذكر بالعرض ، ولذلك اختصر جداً ولم يُطَوَّل فيه ، إذ ليس المقام مقام استدلال ، وإنما هو مقام قصص وتاريخ .

هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ

التعليق السابع — غني عن البيان ان هذه السورة مكية ، واليهود والنصارى لم يسكنوا مكة ، ولو كانوا قد سكنوها ، لكان لكل منها حيّ خاص ، ولكان لكل فريق معبد خاص ، يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم ، وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة عند اليهود والنصارى ما يشير أقل إشارة إلى وجود شيء من ذلك .

نعم ربما أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون إلى مكة لأشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون إلى « خير » ليجلبوا منها حليّ آل « أبي الحقيق » التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها حين زفافهن وغير ذلك .

كذلك كان « كعب » بن الاشرف قد جاء إلى مكة ليرثي قتلى « بدر » وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ، ويحدثنا الواقدي « أنه وجد في مكة عبداً من اليهود كان اسمه « عبد الدار بن جبر » سمع سورة يوسف ، فكان لها وقع شديد في نفسه فأسلم ودخل في ذمة النبي ﷺ ، ولما بلغ الخبر مشركي مكة ، أوسعوه ضرباً ؛

نعم إن بعضاً من أفراد اليهود سكنوا الطائف ، وفي مدن أخرى من الحجاز غير مكة ، ومع ذلك كانوا قليلين ، وقد كان بعض أفراد النصارى من أحرار وعبيد ساكنين في مكة ومختلطين بأهلها ، ولكنهم مع ذلك قليلون جداً .

هذا كل ما قدر عليه الأجانب أن يثبتوه لكي يخيّلوا للناس أن النبي ﷺ

ربما كان سمع ما يتعلق باليهود والنصارى كقصة يوسف ونحوها من بعض هؤلاء المذكورين .

تكرر المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات أخرى

التعليق الثامن إن المعنى الذي حوته هذه الآية قد تكرر في عدة آيات ، منها ما أمر النبي أن يقوله : ﴿ قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَتَمَّ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ، مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمِهِ بِالْأَمَلِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، إِنَّ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنِّي أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٨ : ٦٧ - ٧٠) يشير بذلك لما ذكره عقبه على الأثر من المقابلة بين الملائكة النائب عن الله تعالى وبين إبليس ، وهذان الفريقان هما المراد « بالملأ الأعلى » والمراد من كونها ملأ أعلى ، أنهما من العالم الروحاني لا الجسدي ،

وقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَثَرَ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَوَلَّوْا عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٨ : ٤٤ - ٤٦) ، قل ذلك بعدما قص على نبيه ﷺ قصة موسى عليهما السلام ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ؟ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣ : ٤٤) ، وقوله تعالى بعدما فصل قصة نوح مع قومه : ﴿ تلك من أنباء الغيبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (١١ : ٤٩) .

المكر الساتر والمكر المقدر بقدر العمل المرافق له

التعليق العاشر — قوله « وهم يمكرون » جملة حالية ، ولم يقل « ما كرين »

حتى تكون حالاً مفردة ، لأنه يوجد فرق كبير في المعنى بين هذه الحال الجملة ، والحال المفردة ، فمعنى « وهم يمكرون » أن المكر وصف ثابت لهم في نفسه ، وقد أجمعوا أمرهم في حال تلبسهم به ، ولكنهم هم مكررة أيضاً قبل ذلك وبعده ، ومعنى « ما كرين » أن المكر كان وصفاً لهم حال إجماعهم أمرهم فقط ، فهو تابع لإجماعهم أمرهم ، مقدر بقدره ، تقول مثلاً : « جاء زيد وهو راكب » ومعناه أن الركوب وصف ثابت له في نفسه ، وقد جاء هو في حال تلبسه به ، وتقول : « جاء زيد راكباً » ومعناه أن الركوب كان وصفاً له حال المجيء . فهو تابع للمجيء مقدر بقدره فإذا تقرر هذا المعنى ، فليهنأ اليهود والصهيونيون الذين هم ذرية هؤلاء « المكرة » الموصوفين هنا بدوام المكر !!!

من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في كل مناسبة

التعليق الحادي عشر — هذه الآية والآيات التسع التي تليها ، أتت بها بعد تمام القصة اليوسفية ، لأن عادة القرآن المجيد هكذا ، إذ بينا تراه يتكلم في التاريخ لا يلبث أن يخرج عنه إلى موضوع « التوحيد » وأدلته ، وبيننا تراه يتكلم في الشريعة لا يعم أن يحكي عن « التوحيد » وآياته ، وبيننا تراه يتكلم عن محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، إذا هو ينتقل لذكر « التوحيد » ، الأمر الذي نفهم منه ، أن بيان « التوحيد » هو أهم شيء في نظر القرآن ومنزله والمنزل عليه ، ولا ريب أن الغرض الحقيقي من رسالة النبي ﷺ ، ونزول القرآن عليه هو رفض عبادة الأوثان والثالوث ، وهجر الاعتقاد بذلك ، والحرص على الاعتقاد بالوهمية واحدة ، خلافاً للعرب ، وبربوية واحدة . خلافاً للنصارى ، كما أن القرآن يحرص جد الحرص ، على الاعتقاد بيوم الدين ، والعمل بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، ولعمري كأن النبي ﷺ كان يحس أن عقيدة العرب بالأوثان ، وعقيدة النصارى بالثالوث — كأنها إمرة تنخسه في جسمه ، وتشكه في رأس قلبه ، فلذلك ولكون

ربه كان يسارع في هواه ، اعتنى القرآن الجيد كثيراً وكثيراً جداً ، بالظن في تلك العقائد الوثنية الزائفة .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك)

— ٢ —

وقال الحاج محمد الصومطري (١) :

طرق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والأنبياء
« هذا القرآن العربي المكتوب في المصاحف ، المقروء بالألسنة باللغة العربية ، هو كلام الله تعالى المعجز للبشر ، وانه ليس لجبريل منه إلا تبليغه عن الله ، كما أن الرسول ﷺ ليس له منه إلا تبليغه ، فجبريل تلقاه من الله بالصفة التي تليق به تعالى ، ولا يعلمها من خلقه إلا جبريل ، ثم محمد ﷺ تلقاه من جبريل بالوحي الذي لا يعرف كنهه إلا محمد وأمثاله من الأنبياء الذين تلقوا مثله عن جبريل ، ثم الصحابة سمعوه من النبي ، ثم سمعه منهم التابعون ومن تبعهم إلى عصرنا ، وكما يسمعه بعضنا من بعض بأصواتنا البشرية .

وقد اخترع البشر في العصر الأخير ، وسائل لأداء الكلام وتبليغه لم يكن يعرفها ولا يفهمها أهل العصور السابقة ، كالتلغراف السلكي واللاسلكي والراديو والتلفون وكل منها مظهر من مظاهر الكلام النفسي ووسائل ادائه ، ويسمى كلاماً حقيقياً لا مجازياً ، وينسب كل كلام إلى من صدر عنه ، وكان مجلى كلامه النفس ، فالجمله من كلام زيد من الناس يتناقلها الناس بألسنتهم وأقلامهم وبآلات التلغراف والتلفون والراديو وكل منهم يقول « إنها كلام زيد » ، ومن يرى في القرطاس : « قفا نبك من ذكرى

(١) نسبة الى جزيرة صومطرة في البلاد الاندونيسية .

حبيب ومنزل ، يقول إن هذا كلام امرئ القيس ، ومن يسمع ذلك من لسان أي إنسان يقول ذلك ؛ ولم يقل أحد من العرب في هذا القول الذي كتب وعلق على الكعبة ، ثم كتب في الدفاتر وقرأه الناس : إن لفظه المرسوم في الصحيفة هو كلام الراسم ، وأن الذي أنشد على الناس فيه هو كلام المنشد ، وأن معناه فقط لامرئ القيس ، أو أن ما تمثل من هذا النظم في امرئ القيس هو شعره ، وما نقرأه في الكتب أو من حفظنا لمعلقته هو كلامنا ، ولا أن هذا كلامه مجازاً ، وذلك كلامه حقيقة ، بل أجمعوا على أن هذه القصيدة كلامه ، وأنه ليس لرواتها بالقول والكتابة حظ منها إلا النقل لكلام غيرهم ،

وإذا قدر البشر على تمثيل كلامهم النفسي بعدة مظاهر لا يختلف مدلولها عن مدلول ما في أنفسهم ، فالله تعالى أقدر منهم على ابلاغ كلامه النفسي لرسله من الملائكة والناس ، بما يليق باستعداد كل منهم ، فلا غرو من أن يكون لوحيه للملائكة ، صفة غير صفة وحيه للرسل من البشر ، فيما يكلمهم به بغير واسطة الملك ، وأن يكون لما يسمعه النبي من الملك صفة غير صفة ما يسمعه الملك من الرب سبحانه وتعالى ، ولكن الكلام واحد في جميع مظاهره ، لا يختلف باختلاف طرق ادائه وتبليغه ، كما نعرفه في الكلام المسموع بالأذان والمقروء في الصحف والمأخوذ من آلة التلغراف السلكي أو الهوائي ، ومثله المرسوم في الهواء أو ما تكيف به الهواء ، وبهذا المثال يظهر للمتأمل أن تجلّى كلام الله تعالى في الألسنة والصحف والهواء وآلات التلغراف ، وفي اللوح المحفوظ وفي أنفس الملائكة والبشر - لا يخرج عنه كونه كلامه تعالى ، ولا يقتضي أن تكون صفة الكلام النفسية له تبارك وتعالى ، مشابهة لصفة الكلام في أنفس البشر أو غيرهم من خلقه تعالى ، ولا أن يكون تكليمه للملائكة ول موسى ومحمد ﷺ كتكليم بعضنا لبعض ولكن موأداه واحد ، فالذي نقرأه أو نكتبه في المصاحف هو عين ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد -

ﷺ فتلقيه عند بهذه اللغة العربية ، وهذا الأسلوب المعجز ، الذي يعجز عليه الصلاة والسلام كغيره من البشر عن مثله بمقتضى ملكته العربية .
(عن مجلة المنار)

طبيعة أكثر الناس عدم الإيمان

آ (١٠٣) * وما أكثرُ الناسِ « وَلَوْ حَرَّ

بمؤمنين * .

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وثلاثة ، فقام الهمام احمد اليافي وقال :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : إني قد أطلعتك يا محمد على انباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، (و) مع هذا (ما أكثر الناس) عموم الناس ، أو أهل مكة خاصة ، (ولو حرصت بمؤمنين) حيث تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فأنت ولو استهلك في سبيل إيمانهم ، واستقتلت في الحصول على تصديقهم إياك ، وطار قلبك شعاعاً على ذلك ، فلا كثرة هم جهنميون لا يؤمنون برسالتك ولا بالتوحيد ، لأن في قلوبهم مرضاً :

قال الشاعر :

ومن يك ذا فمٍ مريضٍ يجد مرأً به الماء الزلزالا

وقال البوصيري رحمه الله :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

كما أن البدن إذا مرض ، لم ينفع فيه الطعام والشراب ، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنفع فيه المواعظ والارشادات .

وفيا يلي تعليقان على الآية:

تأسي الناصحين برسول الله ﷺ عند عدم افادة ارشادهم للناس

أولاً — هذا قول الله تعالى لرسوله ، وهو أعلم المرسلين وأخلص المخلصين ، في ارشاده ونصحه للخلق ، فاذا كان هو كذلك ، فليتأس به الناصحون ، الذين تصدروا للارشاد بإخلاص ، ولا يحزنوا من عدم إفادة إرشادهم لكثير من الناس . وليعلموا أن عدم النفع له سببان: فساد في الواعظ يصرف الموعوظ عن سماع مايقول ، وفساد في الموعوظ يجعله غير مستعد للانتفاع بما يسمع ، ولو جاءه جميع المرسلين .

المؤمنون أقل من الكافرين

ثانياً — مقتضى هذه الآية أن المؤمنين أقل من الكافرين ، ولذلك شواهد :

١ — قوله تعالى : ﴿ قَالَ : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلِيُّ ، لَسْنَا أُخْرِتَنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ — إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٧: ٦٢) أي لاستأصلنهم بالاغواء — من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلًا ، وأحنك الشاتين : أي أكلها جميعاً .

٢ — قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسل لهم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يعلم من سورة الشعراء .

٣ — قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ، قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ — قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣ : ٥٢) والحواريون كانوا اثني عشر فقط ، اراد منهم « يهوذا الاسخريوطي »

فبقي أحد عشر ؛ فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الايمان ، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية ، فالمسلمون اليوم يعدون (٣٦٠) مليوناً ، ولكن عدد المسيحيين اليوم (٤٢٠) مليوناً ، وعدد الوثنيين (٥٠٠) مليوناً ، وهؤلاء واولئك وان كانوا مؤمنين بالله إلهاً ، لكن النصارى آمنوا به إلهاً أباً ، وبالمسيح إلهاً ابناً وبالروح القدس إلهاً ناطقاً بالأنبياء ، قالوا : « والكل إله واحد !!!... » ، وأما الوثنيون فأشركوا في الألوهية : أي العبادة ، دون الربوبية : أي الخالقية ، فالخالق عندهم رب واحد ولكن المعبود عندهم ، هو وغيره من الوسطاء .

(مرعى)

إخلاص النبي ﷺ في دعوته

آ (١٠٤) ﴿ وما تسألهم عليه من أجرٍ ، إن هو إلاَّ

ذكرٌ للعالمين ﴾

استمرت الجلسة منعقدة ثم تليت الآية المئة وأربعه ، فقام برهان الحق

الناقلي وقال :

(وما تسألهم) يا محمد (عليه) على ما تحدثهم به وتذكرهم (من أجر) أي من جمالة ولا أجرة ولا جزاء ، أي لا تريد منهم منفعة وجدوى ، كما يعطى ' حملة الأحاديث والأخبار (إن هو) هذا الذي تحدثهم به (إلاَّ ذكر) عظة من الله . (للعالمين) عامة ، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ، يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

واليكم الملاحظات التالية :

تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن

الملحوظة (١) — تكرر ذكر هذا البحث في القرآن الكريم عشر مرات :

فأولاً — قال تعالى خطاباً لخاتم النبيين : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧ : ٣٤)
ثانياً — قال تعالى خطاباً لجناحه الأعظم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ - وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٦ : ٣٨) .

ثالثاً — قال تعالى خطاباً لنور العالم ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٠ : ٦) .

رابعاً — قال تعالى خطاباً لسيد الأنبياء : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ، فَهُمْ مِنْ مُنْغَرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ ﴾ (٥٢ : ٤٠) .

خامساً — قال تعالى خطاباً لفخر الانسانية : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (٤٣ : ٤٢) أي لكني إنما أقصد مودتي لقرباي ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البديع اللطيفة ، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح ، بتقدير دخولها في صفة الذم المنفيه كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٥٦ : ٢٥ و ٢٦) وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتاب

وقول الآخر :

ولا عيب فيه غير أن خدوده بهنّ احمرار من عيون المتئيم

والدليل على ما جرينا عليه في معنى هذه الآية ما نقلناه لك من الآيات الأربع

المخاطب بها سيد الكائنات ، التي تنفي عنه طلب الأجر من الناس من أساسه ، بالمرّة من كل وجوهه ، وخير ما فسّره بالوارد .

سادساً — وهكذا قال نوح: ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ، إن أجرِيَّ إلاّ على رب العالمين ﴾ (٢٦ : ١٠٩) .

سابعاً — وهكذا قال هود: ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرِيَّ إلاّ على الذي فطرني ، أفلا تعقلون ؟ ﴾ (١١ : ٥١) .

ثامناً — وهكذا قال صالح: ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ، إن أجرِيَّ إلاّ على رب العالمين ﴾ (٢٦ : ١٦٤) .

تاسعاً — وهكذا قال شعيب: ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ ، إن أجرِيَّ إلاّ على ربّ العالمين ﴾ (٢٦ : ١٨٠) .

عاشرأً — وهكذا قال حبيب النجار: ﴿ إتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ، وهم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٣٦ : ٢١) يعني بذلك رسل المسيح إلى أنطاكية .

الاضطرص في الدعوة من مستلزمات نجاحها

الملحوظة (٢) — هذه الآية تسير إلى اخلاص النبي ﷺ في دعوته ، إذ الغاية من « الدعوة » صلاح العالم ، وانتظام شئونه على منهاج السعادة ، فاذا وجّه الداعي قصده إلى هذا الغرض ، بدون نظر إلى منفعة مادية ، بل ولا معنوية تعود عليه ، استقام على الطريقة ، وقضى حياته في سيرة راضية ، وكان كلامه مقبولاً جيداً ، وإذا انحرف عن هذا القصد ، ولو قيدَ أغلّة ، رأيته يضطرب في حال دعوته ، ويكون كالريشة تخفق بها الرياح ، أينما تصرفت ، وقد حكى التنزيل أن شعبياً (ع) قد برأ نفسه ورفّعها عن أن تؤمّ غرضاً من « الدعوة » سوى الاصلاح قال: ﴿ إن أُريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعتُ ﴾ (١١ : ٨٨) ، فتشوّف

آ (١٠٥) معنى العالمين — تبريع الغافلين من التفكير في آيات الله ١٣٨٩

« الداعي » إلى ما في أيدي القوم ، وتطلّعه إلى أن ينال من وراء إرشاده شيئاً من هذه الحياة ، قادح في صدقه ، وداخل بالريبة في إخلاصه .

معنى « العالمين »

الملحوظة (٣) — كلمة « العالمين » جمع عالم وهم الناس كما يدل عليه استعمال القرآن ، في مثل : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٢٥ : ١) وقول لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَ أَنِ مِنْ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ (٢٦ : ١٦٥) أي الناس ، فهو على هذا مشتق من العالم ، ولذلك جمع جمع مذكر سالم .

الفصل الثاني

تبريع الغافلين عن التفكير في آيات الله

آ (١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وخمسة فقام نعمة الله الجنيني (١) وقال :

يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات ، من كواكب زاهرات ، ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات وغير متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات ، في الطعوم

(١) نسبة الى جنين من بلاد فلسطين .

والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، فقال تعالى : (وكأيّ) وكم (من آية) علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والأرض) مروا و (يرون) وسيمرون (عليها) ويرون فيها العجب العاجب (وهم) أي الناس (عنها معرضون) مع أن الحقيقة بنت الفكرة والنظر يريد الصواب ، ولكن التفكير والتدبر عند هؤلاء ضائع ، وهم انما يعيشون في الدنيا كالأنعام ، يأكلون ويشربون ولا يتفكرون ، مع أن هذه الآيات كثيرة ، يُحصَى النمل ولا تُحصَى ، وتُستقصى الحركات والسكنات ولا تُستقصى ، قال أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر
غصون من زبرجد شاهدات
وقال أبو العلاء المعري :

كل يسبح فافهم التقديس في
أما الجاوز فارعنة وتوقه
ليس الذي جحد المليك وقد بدت
صوت الغراب وفي صياح الجدد (١)
واستغف ربك من جوار الملحد
آياته ، بأخ لمن لم يجحد

وكأي من آية ...

— ٢ —

وقام الشيخ المحقق اليماني وقال :

اسمحو لي أيها السادة باسماءكم بضعة مواد على هذه الآية العظيمة :

تقرير الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية

الدالة على توحيده

المادة (١) — قوله : « وكأي من آية . الخ » — أي لم يكن كل أمرهم أنهم

(١) الجدد طوير قفاز يشبه الجراد ويقال له صرار الليل .

آ(١٠٥) تقرير أهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل أبصارهم وبصائرهم ١٣٩١

لم يستدلوا بما ذكر في (١٠٢) من دليل النبوة، بل يعطف على هذا ويزاد عليه أنهم أضافوا إلى عدم الاهتداء بدليل النبوة، عدم الاهتداء بالآيات الكونية التي تهديهم وترشدهم إلى توحيد الإله في الألوهية، كما وحدوه في الربوبية، أي فهم مع هذا الاعراض عن النظر في دليل النبوة، معرضون عن الكثير من الآيات الكونية، الدالة على أن الرب الواحد، هو الحقيق بالألوهية وحده، وأنه لا يجوز أن يدعى غيره، ولا أن يعبد سواه، لأن الربوبية والألوهية متلازمان، فالآيات الدالة على أن الرب واحد، دالة أيضاً على أنه هو الإله وحده، ولولا اعراضهم عن النظر في ذلك، والتأمل فيه عناداً من رؤسائهم، وجوذاً على التقليد من دهائهم، المانع من النظر والاستدلال، لظهر لهم ظهوراً لا يمتثل المراء، ولا يقبل الجدل. وأصل «الاعراض» التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه.

تقرير اهل مكة خاصة والناس عامة لتعطيل ابصارهم وبصائرهم

عما في الوجود من آيات

المادة (٢) — هذه الآية الكريمة، نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة، كما أنها للناس عامة، وهي تقرير لمن عطلوا أبصارهم عن ادراك صحائف الوجود، وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة، وكم جاء في القرآن الكريم أقوال من هذا القبيل كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَتَفَقَّهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٨: ٦).

النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله

المادة (٢) — آيات الله التي في السموات والأرض كثيرة جداً، فمنها نوع عتيق، ومنها نوع جديد، فمن آيات الأرض من النوع العتيق أن النمل يرى الإنسان

قاصده ، أو ماشياً قريباً منه ، ولا يترك عمله الذي هو فيه ، ولا يحفل ولا ينتفى
لذعر ، ولا يخاف من غدر ، مع ان الانسان بالنسبة للنمل كالجبل ، ولو اننا تصورنا
جبلاً يعيش على الأرض ، ويكاد يصادم الانسان ، لهلج إذا رآه ، ومات قبل أن
يقرب منه ، فما ذاك إلا لان الله تعالى أودع في قلب النمل من الشجاعة والثبات
على العمل ما لم يودعه في قلب الانسان ، وإن ذلك من أعظم آيات الله في أرضه ،
ومن آيات الأرض ، ثبوتها إذ لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض وذلك
في قوله تعالى : ﴿ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (١٦ : ١٥) ،
ومنها ان كل شيء حي فهو من الماء ، حتى الجراد فإن له حياة قائمة بماء «التبلور»
وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٢١ : ٣٠) .

ومنها ما كشفه علماء النبات من تلاقح النبات ، وأنه أزواج : أي ذكر واثني
والله تعالى يقول : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (٢٠ : ٥٣)
ويقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١٣ : ٣)
ويقول : ﴿ وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴾ (٥١ : ٤٩) ،
ويقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمَنْ
أَنْفُسِهِمْ ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦ : ٣٦) .

ومنها كون الرياح تلقح النبات ، بنقل أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات
بعضها إلى بعض فثمر بالتلقيح ، كما هو صريح قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ
لَوَاقِحَ ﴾ (١٥ : ٢٢) ، ولما علم الافرنج بهذا قال بعض المطلعين على القرآن من
المستشرقين وهو المستر « اجتيري » الانكليزي الذي كان معلم العربية في جامعة
اكسفورد بانكلترة : « إن أصحاب الإبل - يعني العرب - قد عرفوا ان الریح
تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعرفها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً » (نقل ذلك
السيد محمد بيرم الخامس في مقدمة « صفوة الاعتبار ») .

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح ، إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إناثها ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك إلا من القرآن الكريم .

ومن آيات الله تعالى عظمة « الشمس » و كوكب « الشعري » بالنسبة إلى الأرض ، فإن هذه الأرض إذا نحن قدرناها تقديراً نسبياً بحجم الحمصة ، تكون مساحة « الشمس » بالنسبة إليها كمساحة مائدة مستديرة ، طول قطرها ذراع فرنسية ، ومساحة سطح كوكب « الشعري » الذي قال الله فيه : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴾ (٥٣ : ٤٩) تبلغ مئة ذراع فرنسية ، بالقياس إلى تلك الحمصة .

ومن آيات الله تعالى ، أن جميع هذا العالم الشمسي يدور في الثانية الواحدة بسرعة عشرين ألف ذراع فرنسية ، مجتازاً فضاء الله الذي لا نهاية له ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ (٣٦ : ٣٨) . فتأمل هذا التنكير في قوله : « مستقر » فهو يشعر أن العالم الشمسي يجري في اللانهاية إلى نهاية محتومة ، فما الشمس بمؤلمة إذا كان لها استقرار ، بل هي محدثة فانية ، ثم قوله « لها » هو الذي يعين أنها تجري في اللانهاية ، لأن المستقر غير مطلق ، بل هو « لها » .

ومن آيات الله تعالى « الحرّة » وهي سطح هائل في عاية العظم ، وهي محيطية بالسماء ، وتسبح فيها الوف من الموالم .

ومن آيات الله تعالى أن يمدد درجات الليل والنهار . واصباً ودائماً ، ثلاثمائة وستون ، كما ذكر ذلك علماء الميقات ، وقد أشير لذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ (٤٠ : ١٥) ، فإن عدد « رفيع » بحساب الجُمَّل هو ما ذكر ؛

وهل سمعت « بحمام الزاجل » ؟ خذ حمامة من مُطَيَّرها ، واحملها إلى آخر حدود اقليم ما واطلقها ، فترجع إلى مُطَيَّرها ، فما هي هذه الحاسة التي تدفع الحمامة إلى بيتها من مسافة الوف الاميال ؟ ليست حاسة السمع ولا النظر ، ولا شيء من الحواس الخمس ، هي حاسة لا نعرفها ، لأنها ليست فينا .

ومن آيات الله الباهرة ، أن ما تأخذه الأرض مطراً وثلجاً تردّه بخاراً ، وذلك بحسب الاحصاء الأخير ١٦ مليون طن في الثانية وبيانه مذكور بالتفصيل في الكتب المختصة .

ومنها الطير كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ؟ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (١٩: ٦٧)
فمن آيات توحيده وعجائب قدرته ما يرونها في كل وقت وآن من تخليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستعلائها في طبقات الجو ، مع أنها أجسام ضخمة ، كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض ، ولكنه تعالى بياهر قدرته وعجيب صنعه وحكمته ، خالف في أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى ، لا ثقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعلي في الهواء من دون أن تسقط ، فمن فعل هذا ياترى ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟

حقاً إنه ما أمسكها إلا الرحمن الذي رحم هذه الحيوانات ، فيستر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان ما حفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها ، ولا بدع ، فهو تعالى بكل شيء بصير ، يعطي كل شيء من خلقه القوَى والسُنَنَ اللازمة له ، والمتوقف عليها ابقاؤه ، وقد اتفق العلماء على أن السبب في استمرار الطيور طائرة ، يرجع إلى تقعر أجنحتها وتحدبها ، وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في

طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكي أجنحة الطيور وأوضاعها ، ولعمري إن طيران الإنسان ، لهو من الآيات الحديثة العجيبة أيضاً كطيران الطير ، ولو كانت الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى مسألة « الطيران » في جوّ السماء . لذكره القرآن الكريم ، لأهل ذاك العصر ، ولكن قبل اختراعه كيف يذكره لهم ، وهم لا يعرفونه ؟ وكيف يحيلهم على مجهول لهم قد ينكرونه ؟ ولعمري الحق إنه لا فرق بين طيران الطير ، وطيران الإنسان ، في أن كلاهما أثر من آثار قدرة الله وعجيب صنعه في خلقه ، « طار الطائر » بقوى ونواميس مودعة في تركيب جسمه ، وهي من الله ، و « طار الإنسان » يقوى عقله وعلمه وملاحظته وصبره وثباته وشجاعته ، ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه هي من صنع طيارته ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بمجده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلّٰهنا ، وإنما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، أمنا بالله وما أنزل إلينا من عند الله!! (١)

ومن آياتنا نحن أهل اليوم — النظارات المقرّبة ، التي هي عبارة عن عدسيات بلورية ، ضمن انبوب طويل ، بها زري النجوم البعيدة عنا مليارات من الأميال كأنها قريبة منا جداً .

ومنها ان قليلاً من المياه الغالية في مرجل ، تستطيع جر قطار ضخمة ، بقوة لا يستطيعها جواد ولا مئة جواد .

ومنها أن مواد كيمياوية في وعاء يمتد منه شريط نحاسي ، وهو ما يسمى « تلمر افا » يجعلنا نتخاطب مع أقاصي الأرض إلى أقاصيها كأننا واقفون بعضنا إزاء بعض ،

ومن آيات الله تعالى، طريقة التصوير الضوئي «فوتوغراف» بأمساك الظل، وهي مذكورة في آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ۖ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۖ ۞ ﴾ (٢٥ : ٤٥) فتأمل قوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۖ ۞ ﴾ فإن هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر كائن لا محالة .

ومن آيات الله تعالى ، ما اكتشفه العلماء من أن مادة الكون هي « الأثير » ، والله تعالى يقول في بدء الخليفة : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ۖ ۞ ﴾ (٤١ : ١١) .

ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي ، والله تعالى يقول في السموات والأرض : ﴿ كَانَتْ رَتْقًا ۖ فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ ۞ ﴾ (٣١ : ٣٠) .
ومنها المذياع « الراديو » الذي ينقل الصوت والغنة الى مئات الأميال .

ضرورة الاستدلال والتفكر في آيات الكون

المادة (٣) — هذه الآية الكريمة تنعي على الناس أنهم لا يستعملون ما عندهم من العلم والمعرفة التي وهبهم الله تعالى ، فلهذه الآية وأشباهاها أثر كبير في الحياة العقلية وإثارة العقل الى النظر لما في العالم من الظواهر ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ۖ ۞ ﴾ (٧ : ١٨٤) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ ۞ ﴾ (٨٦ : ٥) وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَاهُ الْأَرْضَ شَقًّا ۖ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ وَعَيْنَبْنَا وَقَضَبًّا ۖ وَزَيَّنُّونَا وَنَخْلًا ۖ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۖ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۖ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ ۖ ۞ ﴾ (٨٠ : ٢٤-٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ نَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ ۞ ﴾

الذين يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ ﴿ (١٩١ : ٣) ﴾
وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (٢٢ : ٣٠) إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا الضرب من الآيات بعث
العقل على النظر في الكون ، وكان له أثر في غو الحياة العقلية .

فإنه تعالى لا يريد أن يكون الناس منقادين في عقائدهم ، والاعتراف بوجود
الصانع ووحدانيته انقياداً أعمى ، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكير في آيات
الكون ، قال : ﴿ أَفَلَسَمَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ،
أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (٤٦ : ٢٢)

العقل هو نعمة من الله سبحانه وتعالى وكل من لم يستعمل عقله ، فكأنما
رفض نعمة هذا المنعم ، وانضرب لكم مثلاً : إذا أعطانا صديق هدية ولم نستعملها
ونستفد منها ، بل رميناها ، فأننا نهين صديقنا بهذه المعاملة ، فالصديق رمز عن الله
تعالى ، والهدية هي العقل ، وطرحنا لهديته ظاهر بعدم استعمال عقولنا ، والاعتقاد
بأمور تنافي العقل ، دأيل عدم تحكيم عقولنا فيما نعتقد ، وعدم استعمال عقولنا
فيما يجب أن نعرف ونعتقد ، إهانة كبرى نصنعها مع من قدم لنا هذه الهدية ، إذا
كان باستطاعتنا إهانتته ، ولكن لا نستطيع أن نهينه تعالى جل وعلا .

التوحيد في الربوبية والإشراك في الألوهية

آ (١٠٦) ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ الْوَحِيدِ مُشْرِكُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وستة ، فقام الشيخ مأمون من
علماء القنفذة (١) وقال :

قال تعالى مخاطباً سيد الرسل (وما يؤمن أكثرهم) أي أكثر الناس أو أكثر

أهل مكة ، في إقرارهم بالله وبأنه خلق السموات والأرض ، (إلاّ وهم مشركون) مع عبادة الله عبادة الوثن — لأن أكثر العرب من أهل مكة كانوا يؤمنون بالله ويعترفون به رباً خالقاً ، لكنهم مع الأسف كانوا يشركون في عبادة الوثن ، فهم موحدون في الربوبية ، مشركون في الألوهية ، تعرف منهم وتنكر .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ١ —

ثم تابع الشيخ مأمون كلامه قائلاً :

متى يعبر القرآن بلفظ « الأكثر » و « الكثير »

لقد عبر القرآن « بالأكثر » في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم ﴾ لأنه كان يوجد في أهل مكة من يؤمن بالله ، وليس فيه شيء من الشرك ، وذلك « كأمية بن أبي الصلت » و « ورقة بن نوفل » و « قس بن ساعدة » وغيرهم من الحنفاء ، وأيضاً فالمعروف من طبيعة البشر من أهل كل دين أنهم على ثلاثة أقسام : قسم يميلون الى الغلو والتشدد في الدين ، وآخرون معتدلون ، وقسم ثالث متساهلون يميلون الى الفسوق والعصيان ؛ والقرآن لم يحكم على أمة بمثل : ضلال ، فسق ، هدى ، إيمان ، بنص عام يستغرق جميع الأفراد ، بل تارة يعبر « بالكثير » ، وتارة يعبر « بالأكثر » كما هنا ، واذا أطلق أداة العموم يستثني ، كما قال في بني اسرائيل : ﴿ ثم تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢ : ٨٣) ، وقوله فيهم : ﴿ فلا تَؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٤ : ٤٥) ، أو يحكم على البعض ابتداءً كما في قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقَنْطَارٍ ، يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدَبْنَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٣ : ٧٥) ، وقال تعالى فيهم : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (٧ : ١٥٩) ، وقال فيهم وفي النصارى : ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥ : ٦٦) ، فقد أثبت لبعضهم

عدم التولي ، ثم أثبت للبعض الإيـان ، ثم للبعض الأمانة ، ثم للبعض الهداية بالحق والعدل ، ثم للبعض الاقتصاد — أي الاعتدال في الدين — وقال تعالى : ﴿لَكِنَّ الرَاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٤: ١٦١) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الإيـان المخلصين الذين يتحررون الحق ، هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم ، فالقرآن يعلمنا أنه مامن أهل دين إلا وفيهم الغث والسمين ، فيهم الفاسق والمتشدد والمعتدل ؛ ولكن المفسر المتشيع لأمنه ، الذي لم يختبر غيرها ، ولم يكن عارفاً بطباع الملل ، وحقائق الاجتماع البشري ، لا يكاد يتصور أن الإيـان والاخلاص والتقوى توجد عند غير أهل ملته ، فهو يطبق الآيات على اختباره واعتقاده .

القرآن يبين ما عليه الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال

وجملة القول إن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم ، في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم ، وإن الدقة التي نراها في تحريره الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ولا غيره مما يسمى بالأسفار المقدسة ، فإذا جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يدعون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر والبدع عليهم ، في عصر ظهور الاسلام ، لما انتشر الاسلام ذلك الانتشار السريع .

(وما يؤمن أكثرهم بالله .. الخ)

— ٢ —

كثير من مسلمي اليوم موهنون في الربوبية مسركون في الألوهية وقام السيد الحضرمي من علماء حضرموت وقال :
سبق لأخي الشيخ مأمون أن قال في مقدمة الكلام على تفسير مجمل الآية أن

١٤٠٠ كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية آ (١٠٦)

المراد بكلمة « أكثرهم » أكثر الناس أو أكثر أهل مكة ، على أني أرى أنها تصدق على كثير من مسلمي أهل اليوم المحدثين من الموحدين « اسماً » و « جغرافياً » أو بحسب « هوياتهم » و « سجل نفوسهم » فتري الكثير منهم يسجدون لبعض الأولياء أو لأضرحة الأنبياء ، يرجون الله ويرجون بعض الأنبياء أو الأولياء ! ! يقدمون نذورهم لله ولسواه ! ! يحلفون بالله وبغيره ، يدعون الله وسواه ! ! وكثيراً ما نسمعهم يهجرون الله مقتصرين على ماعده !!

فيقولون : الله ياسيد ، الله يابدوي ، الله والسيد البدوي ، الله يا امام ، الله والامام علي ، الله ياسيد عبد السلام ، الله والنبي ، الله يانبي ، الله يا حسين ، في حفظ الله والسيد ، في حفظ الله والنبي ، هذا نذر لله وللنبي ، لله علي نذر ولك ياسيدي عبد السلام إن صار كذا وكذا ، هذا نذر لله وللسيد البدوي ، أقسم بالله وبسيدنا الحسين ، بالله العظيم وبالامام علي ، وحياة السيدة زينب ، وحياء الله والنبي ، وحياة الباز والله .

وأما الذين يهجرون الله مقتصرين على ماسواه فيقولون :

يا سيد ، يا بدوي ، يا امام ، يا سيدي عبد السلام ، يا نبي ، يا باز ، هذا الخروف للسيد البدوي ، وهذا الجدي لسيدي الدسوقي ، وهذا العجل لسيدي عبد السلام ، وهذا الكبش للسيدة زينب .. والح ، ولك يا سيدي يا بدوي علي خروف إن شفي ولدي ، ولك يا ستي نفيسة خروف إن رجع ولدي بالسلامة ، ثم يقولون : وحياة سيدنا هاشم ، وحياة سيدنا الحسين ، وحق الامام علي ، وحياة السيد البدوي ، وحياة عبد القادر الجيلاني ، وحياة الباز ، إلى آخر ما هو أكثر من الجهلاء المتعالمين وأزيد من أهل الحشو والجمود في الدين .

وعلى ذلك ترى أكثر الناس اليوم لا يذكرون الله إلا ذكراً مصحوباً بالوثنية والاحادويحرون على سوا آل الأنبياء والأولياء وأشبه الأولياء ، والاستعانة بشفعائهم حرص البخيل على درهمه ولو زائفاً ، والجبان على دمه ولو فاسداً .

آ(١٠٦) كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية المسلمين ١٤٠١

كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق

اليوم على أكثرية المسلمين

هذا وان في القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على المسلمين ، ولكن (مع الاسف) وجدنا من حشوي العلماء من طمس هذه الحقيقة ، وجعل كل ما ينكره القرآن هو منزل على غير المسلم ، وأما المسلم فلا يصيبه منه أدنى غبار ، ولا أصغر شرار ، ولو كان المسلم متلبساً بكل ما أنكره كتاب الله ، كما بالعكس جعل كل ما يحمده القرآن خاصاً بالمسلم ، ولو كان غير متلبس بشيء من تلك المحامد ، فكأن القرآن مجموعة قصائد شتى ، فما كان فيه من قبيل المدح ، فما كأنه إلا قصائد مدائح نظمت لتقريظ من حاز لقب « مسلم » سواء كانت أعماله حسنة أو قبيحة ، وما كان فيه من قبيل الطعن ، فما كأنه إلا قصائد ذم دبحت لهجو جماعة اسمهم « غير المسلمين » سواء كانت أفعالهم سالحة أو طالحة . وبهذا حصل تنفير قارئ القرآن غير المسلمين من الاسلام ، كما حصل للمسلم غرور وخدعة ، ووقعت الحيلولة بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . (لافض فوك)

(إلاّ وهم مشركون ...)

— ١ —

وقال العلامة المغربي (١) :

أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال

الشرك ثلاثة أنواع : (١) الشرك في الربوبية (٢) الشرك في الألوهية وهو الشرك الأعظم (٣) النفاق أو الرياء وهو الشرك الأصغر

(١) نسبة الى بلاد المغرب العربي

(١) أما الشرك في الربوبية فهو أن يعتقد أن مع الله رباً آخر يشاركه في الخلق والرزق وتدبير الكون ، وهذا النوع ليس مقصوداً في الآية ، بل هو قليل جداً في عرب مكة وفي مشركي العرب قبل الاسلام وفي أيام خاتم النبيين ، لأنهم كانوا مؤمنين بوجود الصانع ، وبأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ولكنهم كانوا مشركين باتخاذ الشفعاء والتقرب إلى الوسائط من المقرين وتسويتهم برب العالمين ، في التعظيم والتوجه بالدعاء والالتجاء .

(٢) والشرك في الألوهية ، ويقال له الشرك الأعظم ، فهو أن يقدم فرداً من أفراد العبادة لغير الله ، وذلك كالسجود والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والسؤال والنذر ، وما إلى ذلك مما لا ينبغي شرعاً تقديمه لغير الله ، وعلى هذا النوع تحمل الآية الكريمة التي نحن بصددھا ، ولهذا النوع مظاهر في كلام العرب ، فكان يظهر منهم في التلبية ، إذ جاء في الصحيحين ان المشركين كانوا يقولون في تليبتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وفي صحيح مسلم انهم إذا قالوا : [« لبيك لا شريك لك » . قال رسول الله ﷺ : « قَدْ ، قَدْ ، أي حَسْبُ حَسْبُ ، لا تزيدوا على هذا » .

وكان يظهر منهم في الدعاء حين يدعون في الرخاء بعد ما كانوا وقت البلاء . موحدین ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ لَكَ دَعْوَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فلما نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٩ : ٦٥) .

واليوم يظهر من جهة المسلمين في الدعاء مطلقاً ، في حيني البلاء والرخاء ، فتراهم وهم في البر لا يخشون شيئاً ، يقولون : يا محمد ، يا سيد يا يدوي ، يا خضر أبا العباس . يا سروجي ، يا عبد القادر الكيلاني ، يا إمام عليّ ، كما تراه وقد جاءتهم ريح عاصف : ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ : لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَسْكُوتَنَّهُ مِنْ الشَّاكِرِينَ ،

فلما أنجاهم إذا هم يَبْتَغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ ﴿١٠ : ٢٢﴾ وبهذا تعلم ان مشركي هذه الأيام ، شر مكاناً من مشركي الأيام القديمة ، فالشركون القدماء كانوا إذا تضايقوا في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، ولكن مشركي اليوم لا بدعون الله في هذا الحال مخلصين له الدين ، بل نسمعهم يقولون : يا سيد يا يدوي ، وآخر يصرخ : يا نبي الله ، وقوم ينادون : يا عبد السلام الاسمر ، وآخرون : يا حسين ، وغيرهم : يا دسوفي .. الخ الخ مما لا يحصى ولا يستقصى كل قوم لهم من يصرخون له ويلجأون اليه ؛

وقد يظهر الشرك الأكبر في بعض الاعمال الوثنية ، فإن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت : « دخل عبد الله فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ - قالت قلت خيط رُقِي لي فيه - فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرُقَى والتائم والتولة شرك » رواه أحمد ، وفي لفظ لهما « الطيرة شرك » (١) .

(٣) وأما النوع الثالث من الشرك ، وهو النفاق أو الرياء ، ويقال له الشرك الأصغر ، وهو حين يعمل الانسان رياء الناس ، فهو مشرك بعمله ذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ - وَهُوَ خَادِعُهُمْ - وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ ، قَامُوا كُسَالَى ، يُرَآؤُنَ النَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٤ : ١٤١) ، وفي الحديث : ﴿ يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه ﴾ رواه مسلم ، وروى أحمد : « إن أخوف ما أخاف عليكم ، الشرك الأصغر ، - قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ - قال : الرياء » .

(١) الرقى جمع رقية ، وهي العوذة مع الفث .

والتائم جمع تيمة ، وهي الخرزة تنظم في الخيط ويربط في العنق .

والتولة كهزمة وعتبة خرز ايضاً يعلق على المرأة لكي يحبها زوجها .

والطيرة كعنبه وكسيرة ما ينشأ به من الفأل الرديء .

(إلاّ وهم مشركون)

- ٢ -

وبعد أن انتهى العلامة المغربي من بيان أنواع الشرك أضاف قائلاً : ليسمح لي السادة الأفاضل أن اعلق على قوله تعالى (إلاّ وهم مشركون) بالتعليقات التالية :

الفرق بين الجاحد لوجود الله وبين المشرك

(١) — يوجد فرق كبير بين الجاحد النافي لوجود الاله ، كالطبيعي والمادي والدهري ، وبين المشرك ؛ لأن الأول نافي للاله بتهمة ؛ وأما الثاني فهو مثبت ، يعتقد أن الله موجود وأنه هو الخالق ، يشرك معه غيره في العبادة فقط والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَسْتَ تَعْلَمُ : مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ ۚ وَلَسْتَ تَعْلَمُ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ ﴾ (٢٩ : ٦١ و ٦٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَسْتَ تَعْلَمُ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ ۚ ﴾ (٤٣ : ٨٧) وقوله جل شأنه : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ؟ وَمَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمِيتِ ، وَيُخْرِجُ الْمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟ ۚ ﴾ (١٠ : ٣١) وما الى ذلك من الآيات الكثيرة التي تنطق بأن وثنيي العرب في الحجاز ما كانوا مشركين شيئاً في الربوبية ، ولكن كانوا مشركين في الألوهية ، فكانوا يسجدون لغير الله ، ويرجون ويخافون ويسألون ويدعون أوثانهم ، ويستغيثون بآلهتهم ، ويحلفون بها وينذرون لها ، ويتكلمون عليها ، وكل ذلك عبادة لغير الله ، فإذا قد اتخذوا لهم إلهاً غير الله ، وهم مأمورون أن يشهدوا : (أن لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله .

تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية

(٢) - قوله تعالى : «إلا وهم مشركون» يعني بهم أهل مكة إذ كانوا يقدمون لأصنامهم التذور ، ويحلفون بها ، ويسجدون ويركعون أمامها ويدعونها ، الى غير ذلك من أنواع العبادات ، وكان هذا مع إيمانهم بالله ، أي بوجوده ووحدته في الربوبية وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، القائم بتدبير هذا العالم ، وهذا النوع من الشرك قد نشأ في أمتنا ، فبنينا للاولياء الهياكل والاضرحة في مساجدنا ، ودعوناها مع التعظيم والتذلل ، ومسجدنا وركعنا لها ، ونقول اننا لم نقصد بذلك العبادة ، يعني اننا لانسمي هذه الاعمال عبادة ، بل فتتحل لها اسما آخر . فنقول انها «استشفاع» وهذه جناية على اللغة ، تضم الى الجناية على الدين .

الوصول في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق

(٣) - الأصل في النصارى هو التوحيد ، فما كانوا ليؤمنوا إلا بالله وحده ، كما قال المسيح عليه السلام : « وهذه هي الحياة الابدية » ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يو ١٧ : ٣٠) ولكن الشرك طرأ لهم في الربع الاول من الجيل الرابع ، فصاروا يعتقدون بالله أباً وإلهاً قديماً ، وبالمسيح ابناً متولداً من الآب ، وهو إله قديم من إله قديم ، ويؤمنون بالروح القدس ، إلهاً متولداً من الآب والابن ، وجميع الثلاثة إله واحد ، هذا هو ثالوثهم الأقدس ، وهذا ما رتبوه أيام الملك قسطنطين الوثني ، وخلّقه من ملوك الرومان ، وهو طور جديد لم يعرفه المسيح وحواريوه عليهم السلام ، وتشكيل لديهم بشكل من أشكال وثنيتهم السابقة ، مؤلف من تقاليد وثني الهندوس والصين والمصريين والأوربيين القدماء ، كما بين ذلك علماء اوربا الأحرار .

هذا وإن من المعلوم أن الله تعالى أرسل قبل المسيح عيسى رسلاً بشرائع

مخصوصة ، نخص من بينهم موسى ، لوجود بقية من اتباعه ، ولا عترف المسيح عيسى بناموسه ، وإقراره بشريته ، وأنه جاء مكملًا لها فقط ، ولو سألنا قومه اليهود عن أصل شريعتهم ، وعن اعتقادهم في الله ، المبني على دعوة موسى ، لأجابوا بالتوحيد المطلق ، المجرد عن التثليث والأقانيم ، أخذًا من كتبهم ، فههنا نقول : هل هذه هي دعوة موسى؟ وإنها كانت للتوحيد المطلق ، أو أن قومه غيروها بعدما كانت بالتثليث ؟ لا شك أنهم سيقولون بالأول، أي إن دعوة موسى كانت للتوحيد، وعليه نقول: هل كان موسى يجهل ما يجب اعتقاده في مولاه، الذي أرسله واصطفاه؟ أو كان يكذب على قومه ، فيدعوهم إلى أن الله واحد فقط ، وهو يعلم أنه ثلاثة في واحد ، أو واحد في ثلاثة أقانيم ، أو كان يستعمل التورية في أساس الرسالة ، إذ معرفة الله أصل كل دين ، وأساس كل رسالة وشريعة سماوية؟؟ سيقولون إنه كان يعلم أنه واحد في ثلاثة (أي يعلم التثليث) ولكن لم يؤمر بتبليغه ، لأن الشرائع تأتي على قدر العقول ، فنقول لهم : إن اليهود في تاريخ البشر ، هو ميلهم إلى الوثنية والتعدد ، وهؤلاء قدماء المصريين والأشوريين والكلدانيين واليونان والهنود - كان تعدد الآلهة ، معروفًا بينهم وأخذًا حده ، فلو أتى موسى قومه ، ودعاهم على قدر العقول ، لكان الأليق به أن يدعوهم إلى التثليث ، ويقلل تعدد الآلهة نوعاً ما ، خصوصاً وقد كان ظهوره ، في مدة مجد المصريين ، وتعدد الآلهة عندهم أشهر من أن يذكر . فهذا قول لا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إن قضية التثليث غير معقولة، فيجب الايمان بها اتباعاً للوحي، نقول: فلم لم يدع اليها موسى والانبياء ، ما دام لا يشترط فيها العقل ولا الاستعداد ؟

الاعتقاد بقدرية الأولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله

(٤) - يدعي البعض أو يعتقد ان الاولياء والصالحين في قبورهم يضررون وينفعون ، ويحيون ويميتون ويعطون ويمنعون ، وأنه يتوسل الى الله تعالى بذواتهم

ويدعى تعالى بواسطتهم ، لا وحده ، وهو شرك محض . إمد لا نافع ولا ضار الا الله ، وانه لا يتوسل اليه تعالى إلا بما شرعه لعباده في كتابه ، وعلى لسان رسوله من الفرائض والسنن ، وانه لا سبب لقضاء الحاجات ، وجلب المانع ودفع الضار إلا ما هدى الله الناس اليه من سننه المطردة في خلقه ، كما انه لا فاعل الا الله ، ولا يدعى معه أحد سواه ، وان التوسل بالاولياء والصالحين ، انما يصح بمعنى الاهتداء بهديهم المبين ، والله أن يكرم من عباده من شاء ، ولكن لا يصح ان تكون الكرامات والخوارق ، كصنعة من الصناعات ، في أيدي الأولياء ، والحق انه ليس لهم من الامر شيء ، وانه لا يكلف مؤمن ان يعتقد بولي مخصوص ، ولا بكرامة لولي معين مطلقاً ، ولكن على المؤمن أن يعتقد بانه يوجد أولياء وتوجد لهم كرامات ..

ويقولون بأن للاولياء « ديواناً » يجتمع فيه الاحياء والميتون منهم ، فما أقروا عليه ، فهو الذي يقع في الكون - فنقول : اذا كان اولياء المسلمين وانصار الدين ، هم المتصرفون في الاكسوان ، لا يجري فيها الا ما يجرونه ، ولا يستقر الا ما يقررونه فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين ؟ وما بال الاسلام يخذل الآن ، باتفاق الاحياء منهم والاموات ؟؟؟

فضل الله على عباده وأقسامه

(٥) - « يعتقد البعض أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة ، التي منها السر والمدد ، ويقولون كما أن الغني يعطي الفقير شيئاً من رزقه المادي ، فلا مانع أن يمدّه بشيء من رزقه المعنوي » ، غير أن الحقيقة هي أن فضل الله على عباده قسمان : قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه ، وقسم ليس في استطاعة البشر بذله أو البذل منه ، كالإيمان والمعارف الوجدانية ، ومنها ما يسميه الصوفية « بالأسرار » فانهم قالوا : انها أمور ذوقية ، لا يعرفها إلا من ذاقها . فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب .

تحريم سؤال الأولياء ذوي الأضرحة شيئاً مادياً أو معنوياً

(٦) - هذا ولا يصح أن نسأل الأولياء أصحاب الأضرحة شيئاً ما ، لا مادياً ولا معنوياً ؟ إذ كيف نسألهم ما قطعه الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها ، وما لا يبذل من ذلك بحسب الأسباب والسنن الإلهية ، وما يبذل ؟ فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى ، والانتقام من الأعداء ؟ وكيف يجوز أن ندعو ممن كان بالأمس في نعشه ، والمصلون واقفون يدعون له ، يشهدون له بالاسلام ، ويقولون : « اللهم ان كان مسيئاً ، فتجاوز عنه ولفه برحمتك رضاك » ، حتى تبعثه آمناً برحمتك يا أرحم الراحمين . فكل مسلم من أبي بكر الصديق الى اليوم ، يدعى له يوم يموت ويصلى عليه بهذا الدعاء ونحوه فهل يعقل أن يدعى للميت بالامس يوم موته ، ولكنه متى قبر تدعوه الناس أو يدعوه من دعا له قبل ساعة ؟ !

هذا ولم يرد في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله ﷺ ولا نقل عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة ، ولا نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفيين ما يدعيه بعض المشايخ من أن سيدي فلان من الصالحين . وسيدي فلاناً من الأولياء ، هم أصحاب سر ومدد ، ون تلامذتهم في حياتهم ، وأتباعهم بعد مماتهم ، يتوسلون بهم الى الله تعالى ، ويطلبون منهم المدد والسر ، كما نرى ذلك في كتبهم ، ولم يكلفنا الله باتباعهم بل باتباع كتابه وسنة نبيه ، وهدى أصحاب نبيه ، الذين أخذوا الدين عنه مباشرة ، وكانوا به خير العاملين ، وبسيرة السلف الصالح لأنهم أعلم الناس بها .

وأما كلام الصوفية المتأخرين ، فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها ، الذين سلكوا هذه الطريقة الى نهايتها ، وهم صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل . وقد قال الشعراني في بعض كتبه : « أنه سأل شيخه الخواص :

لماذا يطلب من الناس تأويل كلام الأنبياء إذا خالف ظاهر الشرع ، ولم يطلب منهم تأويل كلام الأولياء ؟ فأجابه : لأن الأنبياء معصومون ، فيجب حمل كلامهم على الصحة دائماً والأولياء ليسوا بمعصومين ، فيجوز أن يكونوا فيما خالفوا فيه مخطئين .

التوسل بحاجه الانبياء والأولياء

(٧) - لسائل أن يسأل : ألا يجوز أن نضيف كلمة «جاء» الى الانبياء والأولياء . عند التوسل بهم ؟ والجاء هو القدر والمنزلة ، وكل واحد من الأنبياء ، له قدر ومنزلة عند ربه ، قال تعالى في موسى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ (٣٣ : ٦٩) . وقال في عيسى : ﴿ وجيها في الدنيا والآخرة ﴾ . (٣ : ٤٥) وقال تعالى : (واتخذ الله ابراهيم خليلاً) (٤ : ١٢٤) وغنى عن البيان ان من اصطفاه الله للخلة ، لا بد أن يكون وجيهاً في نظره ، وإلا لم يكن فيه أهلية للخلة ؟

فنقول في جوابه : المفهوم العرفي للفظ (الجاء هو السلطة ، وان شئت قلت : نفوذ الكلمة ، يقال : فلان اغتصب مال فلان بحاجه ، ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بحاجه لدى الامير او الوزير مثلاً ، فزعم زاعم ان لفلان جاهاً عند الله بهذا المعنى اشراك حلي لاخفي ، وقلمنا يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي ، وهو المنزلة والقدر ، والتوسل بلفظ الجاء ، مبتدع بعد القرون الثلاثة من الهجرة ، وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول والسلف الصالح ، وأما ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ (٣٣ : ٦٩) فليس معناه ، انه وجيه عليه ، وانما معناه انه وجيه عنده ، وفرق كبير بين قولك (فلان وجيه علي و فلان وجيه عندي ، فالوجهة الاولى معناها السلطة والنفوذ، والوجهة الثانية معناها انه في حكم الله ذو قدر ومنزلة .

الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل الى الله بغيره

وقد يحتج البعض على جواز التوسل بما رواه الترمذي بسنده الى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : (إن رجلاً ضرير البصر ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادعُ الله ان يعافيني — فقال : إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ ، فهو خير لك — قال : فادعه ، — فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك واتوجه اليك ، بنبيك محمد ، نبي الرحمة ؛ إني توجهت بك الى ربي ، ليقضي لي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه فيّ » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب) ، فنقول أولاً : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد ، والمسألة داخلة في باب العقائد ، لا في باب الأعمال ، ذلك ان الأمر فيها ، يرجع الى سؤال صورته : هل يجوز أن نعتقد أن واحداً سوى الله ، يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجتنا ، أو لا يجوز ؟ والكتاب صريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندَ اللَّهِ ﴾ (١٠ : ١٨) ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١ : ٤) ، فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساساً للرسالة المحمدية ، ونحن لا يمكننا أن نتخذ حديثاً من أحاديث الآحاد ، دليلاً على العقيدة ، مهما قوى سنده ، فان المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد الا الظن ، ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (١٠ : ٣٦) وفي الختام نذكر قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٢ : ١٨٦) وقال الشيخ محي الدين بن العربي ، شيخ الصوفية في صحيفة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته ، عند الكلام

آ (١٠٦) واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى ١٤٠١١

على هذه الآية : « ان الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل لله الحجة البالغة ، فلا يتوسل اليه بغيره ، فان التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وقد أخبرنا الله انه قريب وخبره صدق . »

واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى

(٩) — ان واجب الوجود — وهو الله تعالى — واحد ، وهذا هو توحيد الربوبية ، وكذا مستحق العبادة — وهو الله سبحانه — واحد ، وهذا هو توحيد الألوهية ؛

فالمستحق للعبادة هو واجب الوجود ، وواجب الوجود هو المستحق للعبادة ، وهو الله تعالى ، ولا تصدق العبارتان الا عليه تعالى ، وإن اختلفا في المفهوم ؛ هذا هو مقتضى الشرع والعقل والمنطق والانصاف ، ولكن مشركي العرب المعاصرين لخاتم الانبياء وقبله أيضاً . لم يعقلوا ولم ينصفوا ، فهم مع قولهم بأن واجب الوجود واحد ، قد اعتقدوا غلطاً تعدد المستحق للعبادة ؛

أو نقول قد صرفوا كثيراً من أنواع العبادة لغير الله ، ومثل ذلك مثل شعب لا يعرفون لهم الا ملوكاً واحداً ، هو الذي يرتب لهم المعاشات ، وهو الذي يوليهم الولايات ، وهو الذي يغدق عليهم بالخيرات ، وهو الذي يمنع عنهم الغارات ، الى غير ذلك ، ونظام هذا الملك أن يكون له الخضوع والركوع ، له الاكبار الملوكي والاجلال السلطاني ، له الذل والخنوع ، ولا يطلب شيء من غيره ؛ هذه ونحوها هي شارات هذا الملك وخصائصه التي أراد أن ينفرد بها عما سواه ، فاذا صرف الشعب شيئاً من هذه الاشياء لغير مليكه ، فقد خانته وأشرك معه غيره من الوزراء في مزاياه وخصائصه ، ولو اعتقد بأنه ليس له سلطان سوى المليك ، فلا يمنع عنه تسميته — الكلام عائد للشعب — أنه أشرك مع مليكه سواه ، ولا يمنع عنه العقاب .

ماهو المراد بمثقال حبة من خردل من الإيمان في حديث البخاري

(١٠) — جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : « أَخْرِجُوا مِنْ كَان فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ » ، فيخرجون منها ، قد اسودّوا — الحديث » ، فهل المؤمنون إيمان ربوبية ، المشركون شرك ألوهية — يشملهم هذا الخروج ، لأنه يصدق عليهم أن في قلوبهم مثقال حبة من خردل من إيمان ؟ والجواب عن ذلك : يراد بمثقال حبة الخردل من الإيمان في حديث البخاري المثقال للإيمان الخالص ، الذي لا يشوبه مثقال خردلة من شرك ، جمعاً بينه وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١١٧و٤٧:٤) وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٧٥:٥) ، وقال تعالى في سياق حاجة إبراهيم لقومه في التوحيد والشرك ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٨٢:٦) وقد فسر النبي ﷺ — الظلم هنا — بالشرك ، وهو فكرة في سياق النفي ، يفيد أن الأمن من العذاب المقيم ، الذي أعده الله للمشركين ، خاص بمن آمنوا إيماناً لا يشوبه شيء ما من الشرك ، وإن كان مثقال حبة من خردل ، وحينئذ فلا مندوحة من حمل حديث البخاري المستؤل عنه — على ما يتفق مع هذه الآيات ، وهذا هو المراد من الحديث ، وإن لم يكن هذا هو المراد من الحديث ، كان معارضاً لما ذكرنا من الآيات ، ولا يمكن ترجيحه عليها ، أو إرجاعها إليه ، والقول بأن مثقال حبة من خردل من إيمان مشوب بالشرك ، ينجي صاحبه من النار بعد دخولها ، ويجعله من أهل الجنة ، لم يقل به أحد من المسلمين ، بل أجمعوا على أن الشرك بالله ، لا يغفر منه شيء ، ولا

شك أنه يصدق على مشركي العرب في زمن البعثة ، أنه كان في قلوبهم إيمان كحبة الخردل أو أعظم ، كما هو مقتضى آيتنا اليوسفية وماشابهها من الايات القرآنية ، فلو كان الإيمان بوجود الله ، مع اتخاذ شركاء له منجياً ، لكان مشركوا العرب في الجاهلية - ناجين حتماً ، ولا قائل به من أهل الإسلام .

المعطل المنكر لوجود الله تعالى شر من المشرک

(١١) — المعطل المنكر لوجود الله تعالى ، لا يسمى مشركاً ، ولكنه شر من المشرک ، فاذا كان الله لا يغفر لمن يؤمن به بأنه الخالق الرازق ، إذا توجه لغيره ودعاه من دونه ، ولو ليقر به إلى الله زلفى ، فهل يغفر لمن جحدده مطلقاً ؟

حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك اولوهم

(١٢) — من تلوث من مسلمين اليوم بشيء من شرك الألوهية ، ولا يسمى نفسه مشركاً ولا فعله مشركاً ، ولكنه يسمى نفسه متوسلاً متشفعاً متقرباً ، كما أنه يسمى فعله ، توسلاً وتشفعاً وتقرباً ، وهو مسكين جاهل لم يقصد الشرك ، فاهماً أنه شرك ، ولكنه وقع فيه بجهله ، لأنه لا يعتقد أن ما يفعله شرك ، وهذا يجب أن يُعلم ، حتى تقوم عليه الحجة .

شرك النصارى في الربوبية واولوهم

(١٣) — النصارى لا يقولون بتعدد واجب الوجود صريحاً ، ولكن لهم فيه فلسفة لاتعقل ، وهي التوحيد مع الثلث ، ومع ذلك فهم مشركون في الربوبية ، من جرأ قبولهم التشريع من رؤسائهم ، فيحلون لهم ويحرمون ، وكل النصارى لذلك يقبلون ؛ وأما شركهم في الألوهية ، فهو أيضاً واقع ، ماله من دافع ، لأنهم يعبدون المسيح عيسى ، وليس أقنوم الابن فقط الحال في جسد المسيح ، بل

يعبدون أيضاً جسد المسيح ، أعني إنهم يعبدون المسيح كله ، الحاوي لللاهوت والناسوت — على رأيهم — ، فهم مشركون في الألوهية قطعاً وليس من هذه الجهة فقط ، بل هم أيضاً مشركون في الألوهية ، من جهة أنهم يقدمون أنواعاً من العبادات ، كالسجود والركوع والتذور والأصوام — للسيدة مريم عليها السلام .

الطوائف المنسلخة عن الإسلام بسبب شركها بالله أو بالتشريع

(١٤) — يوجد في مشركي المسلمين اليوم ، من أشركوا بالله بعض آل بيت نبيه بالعبادة والدعاء ونحوها ، ومنهم من أشركوا بالتشريع أيضاً ، كأصناف الباطنية وآخرهم البابية والأزلية والبهائية ، ومن هؤلاء من أنسلخ من اسم الإسلام كما أنسلخ من معناه ، ومنهم من حافظ على انتحال اسمه ، مع لقب مذهب أو طريقة أو طائفة ، ولو على سبيل التقية .

المشرک من يدعو الأصنام أو من يدعو الصالحين

(١٥) — إن بعض المشركين ، بل الغالب من أفرادهم اليوم ، يزعم أن جميع الايات التي جاء فيها تقبيح الشرك وتوبيخ المشركين ، هي خاصة بالأصنام بمعنى الجماد ، مع أننا لو تتبعنا هذه الايات ، التي جاءت في شأن الشرك والمشركين ، لوجدناها مصرحة بأن المشركين فريقان : فريق يدعو الأصنام المجعلة تماثيل لعباد الله الصالحين ، وفريق يدعو الصالحين غير ناظر إلى التماثيل ، فما جاء في تسفية أحلام الفريق الأول قوله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ ﴾ (٩٥:٣٧) وقوله : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ ﴾ (٥٢:٢١) ، وما جاء في التشنيع على الفريق الثاني قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ — مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (٦٥:٤٦) وقوله :

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ، ولا تحويلاً ، أو لئن الذين يدعون ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ (١٧ : ٥٦ و ٥٧) وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ، ليكونوا لهم عزاً ، كلاً ، سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضيلاً ﴾ (١٩ : ٨٢ و ٨٣) وقوله تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله ، لا يخلقون شيئاً ، وهم يُخلَقون ، أمواتٌ غيرُ أحياء ، وما يشعرون أّيانَ يُبعثون ؟ ﴾ (١٦ : ٢١ و ٢٠) فهل يعقل بأن الأصنام بمعنى الجماد تتصف بهذه الصفات ، التي وصف بها المدعون في هذه الايات ، التي جاءت بشأن الفريق الثاني ؟ لا ريب أنه لا يعقل أن يتصف الجماد بالغفلة أو بضدها ، أو يتصف بالعداوة وضدها ، أو بالكفر وضده ، ولا يتأتى أن تبغى الجمادات الوسيلة إلى ربها ، وأن ترجو رحمته ، وتخاف عذابه ، ولا يمكن أن تكون الأصنام بمعنى الجماد ، ضداً على المشركين يوم القيامة ، ولا يتصور أن يوصف الجماد بموت أو حياة ، أو شعور يبعث ، فمن عنده أدنى مسكة من عقل ، يدرك أن جميع هذه الصفات ، لا تنطبق على الأصنام بمعنى الجماد ، بل لا تنطبق إلا على المقربين من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين .
(مرعى مرعى)

إنذار المشركين بالله

آ (١٠٧) ﴿ ... أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة وسبعة ، فقام الامام القليلي وقال : قتل الانسان ما أكفره (أفأمنوا) أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله (أن تأتاهم غاشية) أي نقمة أو وقعة أو عقوبة تغشاهم بحيث تعمرهم وتجللهم .

فيكونون حشوها (من عذاب الله) وعقابه في الدنيا (أو تأتيهم الساعة بغتة) أي هلاكهم الذي يعقبه خلاص الموحدين من شرهم ، (وهم لا يشعرون) باتيانها فوق رؤوسهم ، فهل هم آمنون من ذلك ؟ حال كونهم تحت وقوع شيء منه في القريب المأجل ، فما عليهم إلا أن ينتظروا المعركة المقبلة ، ويعدوا لها العدة ، إن جوزوا لأنفسهم مقاومة سوط النقمه الالهية .

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ . . . الْخ)

— ١ —

وتابع الامام القليبي كلامه قائلاً :

الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها

إن الساعة في قوله ﴿ أو تأتيهم الساعة ﴾ هي فيما نختاره ساعة « بدر » ، فإن صناديد قريش وزعماء المشركين ، قد هلكوا جميعاً في وقعة بدر وغيرها ، ثم هلك باقي المشركين عن آخرهم ، أو نقول إن غزوة بدر هي من أشراط تلك الساعة ، وإنما ساعتهم هي ذلهم واضمحلالهم وهلاكهم التام ، وفناؤهم العام ، بحيث لا يبقى منهم ديار ، ولا نافخ نار ، قال تعالى في سورة الأنعام المكية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ ، أَوَآتَيْتُكُمْ السَّاعَةَ ، أَمْ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ، فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤١ : ٤٠) .

قال شيخنا الغواص : هذه « الساعة » هي ساعتهم الصغرى ، التي تحققت في غزوة بدر ونحوها ، ولا يجوز أن يراد بها الساعة الكبرى ، لأن الساعة الكبرى لا تكشف لا عن المشركين ولا عن غيرهم ، ولا يشاء الله كشفها ، لأنها أمر حتم لا بد منه ، وقال تعالى في سورة الحج المكية : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي

مَرِيَّةٍ مِنْهُ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ، يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٢ : ٥٥-٥٧﴾

قال شيخنا العارف بالله ، لا يزال أهل مكة الكافرون في شك من أمر الرسول الى أن تجيء ساعة انحطاطهم وهلاكهم في غزوة بدر ، وتعظم أمر المسلمين وتعالى شأنهم ، أو يأتهم عذاب يوم عقيم بافتتاح المسلمين مكة وانتصار أهل الإيمان عليهم . ومن ذلك اليوم يكون الملك لظهر أمر الله ومنبع سلطانه وهو سيد الخليقة (ص) وخلفائه من بعده ، وقد حكم النبي وخلفاءه بين الناس ، فالؤمن العامل في نعيم ورفاه ، والكافرون من أهل مكة ويهود يثرب في ذل وهوان ، وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ ، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُونِ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤٣ : ٦١) قال شيخنا ولي الله : المسيح هو علامة على ساعة انقراض النبوة من بني اسرائيل ونقلها الى بني اسماعيل ، ولذلك كان قال لهم : ﴿ لَذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يَنْزِعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لَأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ ، وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحِجَرِ يَتَرَضَّضْ ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقْهُ ﴾ (مت ٢١ : ٤٣ و ٤٤) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ، وَاتَّبِعُونِ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤٣ : ٦١) .

ويجوز أن يكون المسيح « علماً للساعة » ساعة هلاك ودمار وسقوط وانحفاض اليهود ، بسبب كفرهم به ، وايدائهم له ، وساعة ارتفاع ورقى النصراني ، بسبب ايمانهم وتصديقهم له ، أي ساعة مجازاة كل منهم على عمله مجازاة دنيوية ، ونرى متى ومرقس ولوقا ، بعد أن نقلوا ما وصفه المسيح من أهوال الساعة وقيامتها ، قالوا نقلاً عن المسيح : (الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله) (مت ٢٤ : ٣٤ مر ١٣ : ٣٠ لو ٢١ : ٣٢) .

وفي الحديث : ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾ وأشار الى إصبعيه السبابة والوسطى ،

أي متقاربين متلاصقين كهاتين الاصبعين: أي أن ظهوره (ص) علامة على قرب ساعة هلاك وسقوط من كفر به، وارتفاع ورق من آمن به في الدنيا، وفي البخاري: «إذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة» قيل: وما إضاعتها يا رسول الله؟ - قال: إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة» ، وفي البخاري أيضاً «إن من اشراط الساعة أن تلد الأمة ربها أو ربها، وأن ترى الحفاة الرعاة يتطاولون في البنيان، وأن يكثر شرب الخمر والزنا» وكل ذلك وقع فعلاً، فهذه الأشرط هي أشرط للساعة الصغرى وهذه الساعة هي لناس وعلى ناس، فلناس ساعة علو وارتقاء ومنعة، وعلى ناس ساعة انقراض واضمحلال، وعلى الأقل ساعة ضعف وفتور.

ومن أمثلة استعمال لفظ الساعة في معنى الساعة الصغرى، ما في الحديث الذي ذكره صاحب الأساس: «إذا رأيت مكة بُعِجَتْ كظائم وسواى بناؤها رؤوس الجبال، فاعلم أن الساعة قد أظلت» (١).

(أفامنوا ان تأتيهم غاشية .. الخ)

— ٢ —

وقال الفاضل البيهقي (٢):

الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الأخروية

أضرم صوتي الى صوت أخي الإمام القلقيلي حفظه الله وأقول:

(١) ليس أن لفظ «الساعة» متى أطلق ينصرف للساعة الكبرى دائماً، بل قد يكون مراداً منه «الساعة» الصغرى، والحكم في ذلك القرائن، والقرينة هنا على أن «الساعة» هي الساعة الصغرى قرننا بغاشية من عذاب الله وانتظامها

١ - بعجت: حفرت فيها آبار كثيرة، وكظائم جمع كظيمة وهي بئر بجنب بئر بينهما مجرى في بطن الارض.

٢ - نسبة إلى بيسان من بلاد فلسطين.

في سلك واحد ، فكما ان هذه الناشئة هي في الدنيا ، فكذلك هذه « الساعة » تحصل لهم في الدنيا ، وآيتنا هذه في أنها تحتوي على مواعيد دنيوية هي نظير ما قال تعالى في سورة الاعراض المكية : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٧ : ٩٦ - ٩٨) وقال تعالى ، في سورة النحل المكية : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ؟ ﴾ (١٦ : ٤٥) ، وقال في سورة الإسراء المكية : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ؟ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ؟ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (١٧ : ٦٨) وقال في سورة الملك المكية : ﴿ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ، فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ؟ أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ؟ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ (٦٧ : ١٦ و ١٧) .

الحشر الديني

٢ - وكما أن لفظ « الساعة » يدل على يحدث في الدنيا وهو الانقلابات والاضطرابات التي تحصل مفيدة لقوم ضارة بآخرين ، فكذلك لفظ « الحشر » يأتي بمعنى يحدث في الدنيا ، ويأتي للحشر الأخروي ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٧٩ : ٢٣ و ٢٤) فهذا الحشر كان باسم فرعون الخروج « منفثا » لعبيده القبط ، فهو حشر دنيوي . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ ﴾ (٢٧ : ١٧) ، وقال تعالى في سورة الحشر : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ (٥٩ : ٢) ومعنى أول الحشر ، ان هذا أول حشرهم من المدينة الى الشام ، وآخر حشرهم إجلاء « عمر » إياهم من خير الى الشام ، واللام في قوله « لأول » هي

اللام في قولك : جئته لوقت كذا ، وكتبت لعام كذا ، ولشهر كذا ، فهي التي تصحب التاريخ ، وقال تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ (٣٨ : ١٩) فحشر الطير لداود وحشر بني النضير في الشام ، وحشر الجنود لسليمان وحشر القبط لمنفثا ، كل ذلك حشر دنيوي .

النشر والحساب الدنيويان

(٣) - وكذلك لفظ « النشر » يأتي لمعنى دنيوي كما في سورة الفرقان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَآءٍ ، وَالنَّوْمَ مُسَبَاتًا ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (٢٥ : ٤٧) أي جعل النوم موتاً ، والنهار عيشة وحياة بعد الموت .

وكذلك « الحساب » يكون في الدنيا ويكون في الآخرة ، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ وَإِنْ مَا نُزِيتُكَ بِمَعْصِيَتِكَ ، أَوْ ذَنُوبِيَّتِكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِنَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ﴾ لا عليك ﴿ الْحِسَابُ ﴾ (١٣ : ٤٢) وقال تعالى في سورة الأنبياء المكية : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُنْجِدٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأِهيَّةَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢١ : ١ - ٣) ، قالنا هنا هم مشركوا اهل مكة كما قال ابن عباس وهو اصطلاح القرآن يعبر « بالناس » عن اهل مكة المشركين وبأهل الكتاب عن اليهود والنصارى ، وبالمؤمنين عن اتباع النبي المسلمين ، وكما هو صريح نفس هذه الايات التي إنما ذكرت أحوال المشركين وأقوالهم خاصة ، فإن الذين غفلوا عن حسابهم ، ثم لما نهوا أعرضوا ، وأتاهم الذكر فاستمعوه وهم يلعبون ، ذاهلين عنه وقالوا ما قالوا — إنما هم المشركون من اهل مكة لأن السورة مكية ، فهذا « الحساب » الذي اقترب إنما هو حسابهم فقط ، لا دخل لغيرهم فيه ، وهو حساب خاص ، يتجلى في مجازاتهم واهلاكهم في الدنيا ، في مثل غزوة بدر وفتوح مكة وغيرها .

الحساب العام الآخروي

(٤) - وأما « الحساب العام » في يوم القيامة الذي يعم المؤمنين وأهل الكتاب وجميع العالمين ، فهو المذكور في مثل قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمِينَ - عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٥ : ١٢) ، فما في سورة الأنبياء يفيد أنه قرب جداً وقت محاسبة ومجازاة وإهلاك هؤلاء المشركين في حالي غفلتهم ثم إعراضهم عن الذكر ، وفي حال أنهم لا يستمعونه إلا وهم يلعبون ، ذاهلين عنه ، أي أن عذابهم وهلاكهم سيكون في الدنيا وهم متلبسون بهذه الأحوال ، ويساعد هذا الفهم قوله تعالى على الأثر : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ؟ ﴾ (٢١ : ٦) أي أنهم لا يؤمنون كما لم تؤمن القرى التي أهلكناها قبلهم ، أي فحينئذ لا بد من إهلاكهم مثلهم في الدنيا لعدم إيمانهم ، كما كنا أهلكنا تلك القرى لعدم إيمانهم أيضاً .

الصراط والعذاب والعقاب والأجر والثواب الدنيويات

(٥) - وكذلك « الصراط » يطلق على الصراط الدنيوي بمعنى الطريق ، وقد ذكر بهذا المعنى في القرآن أكثر من ٤٥ مرة ، ويطلق على الصراط الآخروي ، وليس له ذكر في القرآن ، ولكنه مذكور في الأحاديث ، وكذلك « الميزان » يطلق على الميزان الدنيوي كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَفْثُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ (٦ : ١٥٢) وقد ذكر هذا في القرآن تسع مرات ، ويطلق على الميزان الآخروي وقد أشير له في مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْوِزْنُ يُومَنُّ الْحَقُّ ﴾ (٧ : ٧) .

وكذلك « العذاب والعقاب » وضده « الأجر والثواب » يكونان في الدنيا والآخرة ، كما يعلم من كثير آيات الكتاب الكريم .

الميعاد الدنيوي

(٦) — وكذلك لفظ « الميعاد » يأتي لمعنى في الدنيا ولمعنى سيحدث في الآخرة ومن مثل الأول ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣٣ : ١٢) قال «معتب بن قشير» حين رأى الأحزاب : « يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ، ما هذا إلا « وعد غرور » فهذا وعد دنيوي ، ومثله ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ، قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (٣٣ : ٢٢) وقال تعالى في سورة الزخرف المكية : ﴿ فَأِمَّا أَنْذَهَبْتَ بَكَ ، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ — في الآخرة — ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ — من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر — ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٤٣ : ٤١ و ٤٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمَمٍ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨ : ١٣) ، فوعد الله هنا هو قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠ : ٦) يشير لوعده الله أن يغلب الروم الفرس في بضع سنين وقد وقع سنة ٦٢٥ ميلادية .

وقال الملائكة في أهل سدوم وعمورة وإهلاكهم :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ (١١ : ٨١) ، وقال تعالى في شأن المؤمنين مع المشركين في غزوة بدر : ﴿ وَكَوُتُوا عِدَّتُمْ لَا تَخْتَلِفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ (٨ : ٤٢) وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ، أَوْ تَهْلِكُ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١٣ : ٣١) ، وعد الله هنا فتح مكة ، وكان الله قد وعد النبي بذلك وقال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ ، لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٤ : ٢٩ و ٣٠) ، فهذا الميعاد دينوي وقع في غزوة بدر ، ولفظ اليوم يراد منه السنة ، كما وقع كثيراً بهذا المعنى في العهد العتيق والعهد الجديد ، وغزوة بدر كانت في نهاية السنة الأولى من الهجرة الشريفة ، وبهذا المعنى وعلى هذا التفسير انطبق الجواب على السؤال ، فهم سألوا عن وقت الوعد وتحديده ، فأجيبوا بأن تحقيق هذا الوعد يكون بعد يوم من الهجرة .

البعث الديني

(٧) - وكذلك لفظ « البعث » قد يستعمل في معنى دينوي ، كما في قول صموئيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ (٢ : ٢٤٧) وقوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ (١٧ : ٥) وقوله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ (١٣ : ٥) .

الآخرة والجزاء الدينيان

(٨) - وكذلك لفظ « الآخرة » قد يجيء مستعملاً في معنى دينوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ : لِيَسْأَوْا وَجْوهَكُمْ .. الْحُجَّ ﴾ (١٧ : ٧) أي المرة الآخرة ، وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ (٣٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (٧٩ : ٢٥) أي كلمته ، فالآخرة هي ﴿ أَنْ رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٧٩ : ٣٤) ، والأولى هي ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢٨ : ٣٨) .

وكذلك لفظ « الجزاء » قد يأتي لمعنى دينوي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ

نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۚ (١) (١٧:٣٤) وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا ، إِلَّا مَا سَحَلَتْ ظُهُورُهَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١٤٦:٦) وقولها تعالى : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا جَنَيْنَاهُمْ بَسَحَرٍ نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ (٣٥:٥٤) .

الحياة بعد الموت في الدنيا

(٩) — وكذلك لفظ « الحياة » بعد الموت ، قد يستعمل في معنى دنيوي ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ، حَذَرُوا الْمَوْتَ ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مَوْتُوا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ؟ ﴾ (٢٤٣:٢) قوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لامن قلة ، فقد كانوا الوفاً ، أي كثيرين وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن ، فأماهم الله بامسكان العدو منهم ، فالأمر أمر التكوين ، أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا موتاً معنوياً ، بما أتوه من سبب الموت المادي الطبيعي ، وهو تمكين المحارب من أقدائهم بالفرار ، ففشتك بهم وقتل أكثرهم ، ثم أحياهم حياة معنوية ، بأن أعاد إليهم استقلالهم ، حيث قد جمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم ، فعادت لهم وحدتهم القوية ، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل الفرقة والعبودية ، إلى عز اجتماع الكامة والاستقلال كذا قاله الاستاذ الامام وكما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٢٤:٨) وقوله : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ ﴾ (١٢٢:٦) .

(مرحى)

الفصل الثالث

الدعوة إلى الإيمان بالدليل

آ (١٠٨) ﴿قُلْ: هَذِهِ سَبِيلِي: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ،
أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وثمانية ، فقام المدقق الذي وقال :

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمد ﷺ: أخبر الناس يا محمد و (قل) لهم: (هذه) السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد هي (سبيلي) أي طريقي . ومسلكي وستي ونهجي (أدعو) الناس (إلى) دين (الله) وسأدعو وسوف أدعو ولا أزال أدعو إلى شهادة أن لا آله إلا الله ، وحده لا شريك له ، هذه سبيلي التي أحيأ فيها وأموت عليها ، أدعوهم دائماً حتى يدفع الحق الباطل ، أدعوهم حال كوني (على بصيرة) ودليل قاطع ، وحجة واضحة غير عمياء (أنا ومن اتبعني) — فكل من اتبعه كذلك يدعو إلى مادعا إليه الرسول ، على بصيرة وبقين وبرهان عقلي وشرعي — (وسبحان الله) أي وأنزه الله عن الشركاء وأجله وأعظمه وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو نظير أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١٧ : ٤٣ و ٤٤) ، (وما أنا من المشركين) لا شرك ربوبية ولا شريك ألوهية .

(قل هذه سبيلي ، أدعو . . . الخ)

— ١ —

وتابع المدقق الذي قوله بسررد المواد التالية على الآية :

التقليد في الدين باطل

المادة (١) — البصيرة الحجة الواضحة والعقيدة ، ومنه : ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ﴾ (١٤:٧٥) أي هو حجة وشاهد ؛ يقال جوارحه بصيرة عليه : أي شاهدة ؛ ومنه (اجعلني بصيراً عليهم) أي شاهداً ؛ فالنبي والقرآن دائماً يستدل على قدرة الله تعالى وارادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٢٢:٢١) وغير ذلك مما لا يحصى ، حتى أنه ليستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات ، والافضاء إلى المنافع ؛ فالتقليد في الدين باطل ، لأنه ينافي أصل العلم باليقين ، فان المقلد في الدين هو من يعتمد في دينه على قول من يشق به من أهله وقومه أو معلمه ، وليس على علم وبصيرة فيه .

النبي والمؤمنون طأوا على بصيرة من الدعوة للإيمان

المادة (٢) — نعلم من قوله ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ أن النبي ﷺ ومثله المؤمنون ، جميعهم كانوا على بصيرة ، فليس عندهم شيء من الشك ، بل هم من أهل العلم ، ومن هذا نعلم أن الأمر بالسوآل في قوله تعالى في سورة النحل المكية : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ﴾ (١٦:٤٣ و٤٤) إنما هو للكفار من وثنيي العرب ، الذين قالوا ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴾ فكان جواب الله اليهم بهذه الآية ، فالخاطبون هنا بتوجيه

السؤال لغيرهم مخصوصون ، وهم جهلة العرب الوثنيين ، والشيء المستؤل عنه هنا مخصوص ، وهو أن الرسل الذين جاءوا قبل محمد ﷺ ماذا كانوا ؟ هل رجالاً أو ملائكة ؟

و كذلك الخطاب في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِ اللَّهِ ، فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٠ : ٩٤ و ٩٥) فهذا الخطاب إنما هو للشاك في صدق هذا الكتاب الذي أنزل لأجله ولأجل هدايته ، وأما النبي ﷺ فلم يكن شاكاً أبداً كما قال : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ؟ ﴾ (١١٤ : ٦) وقال : ﴿ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ (٥٧ : ٦) وقال : ﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ (١٥ : ١٠) ، فتوجيه الخطاب إذاً في آيتي « فاسألوا . . . » الخ و « فإن كنت . . . الخ » هو لغير العالم وللشاك في صدق القرآن المجيد الذي أنزله الله لهدايته : أي إن كنت أيها الإنسان تشك فيما أنزلناه إليك بواسطة نبينا « فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » أي المحققين منهم هل يكن مذكوراً في كتبهم مجيء نبي وكتاب يجب الإيمان بهما ؟ حقاً « لقد جاءك » أيها الإنسان مطلقاً بواسطة نبيك : « الحق من ربك » ، فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكون « أيها الإنسان » من الخاسرين . .

وكون التنزيل يقصد به الناس أيضاً موضح في آيات كثيرة كما في آية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ (١١٤:٦) وآية : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٢:٧) وآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بَرهَانٌ مِّن

ربكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴿ (١٧٣:٤) وآية : ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكرُكم ﴾ (١٠:٢١) إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، ويظهر جلياً صدق هذا المعنى الذي نذهب اليه من قوله تعالى بعد آيات من قوله : « فإن كنت في شك . . » الخ ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ، فلا أعبدُ الذين تعبُدونَ من دونِ الله ، ولكن أعبدُ اللهَ الذين يشوفاكم ، وأمِرتُ أن أكونَ من المؤمنين ﴾ (١٠:٤٠) كذا أفاده بعض المصريين من العلماء .

دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية

المادة (٣) — قام النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى عبادة الحق ، وقرّر ان للعالم إلهاً واحداً بريئاً من كل ما ينسبون اليه من كل مالا يليق به ، أثبت ذلك بالحجج البينات ، وأمر الناس باستعمال الفكر والعقل في كل شيء ، ونهى عن التقليد ، وحض على النظر في الموجودات .

دعاهم بالحجج العقلية ، لتوحيده تعالى ، وإلى دين « العدالة » بين الغني والفقير ثم « المساواة » في الحقوق المدنية والقضائية والسياسية والدينية ، ثم « الأخوة » بين المالك والمملوك .

تلك الأمور التي لم يهتد اليها الناس في « الغرب » إلا بعد أن وصل اليهم شعاع من نور الاسلام في « الشرق » ، فأرجع البصر إلى تاريخ أوربا قبل الإصلاح الديني بـ « لوثر » وقبل الإصلاح السياسي « بالثورة » الفرنسية ، لتعرف ما كانوا عليه ، نعم إن النبي صلوات الله عليه وسلامه أتى بجميع الأخلاق الفاضلة الممتدة ، والعبادات الصالحة والمعاملات الكاملة ، والمبادئ السليمة ، والسياسة القويمة ، وغيرها مما كان السبب في إصلاح أمر الانسان ، وتحريره من العبودية ، وإيقاظ العقل من الأسر ، وردّه إلى مملكته ، ليحكم فيها بالقسط ، فنهض « الشرق » نهضة

سريعة عالية ، لم يعهد لها مثيل في التاريخ ، ثم امتدت إلى « الغرب » .

أكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة

المادة (٤) — النبي عليه الصلاة والسلام ، كان يدعو إلى الله على بصيرة . وهكذا خلفاءه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون وسائر العلماء الصالحين ، ولكن من المؤسف ، أن أكثر دعاة أهل اليوم ، هم على غير بصيرة ، لأنهم مزجوا الدخائل بعقائد الدين ، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية ، وعلّموا الجهال تعاليم خادعة ، لبّست الغي بالرشاد ، كما علّموهم التأويلات الباطلة ، التي شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر « توحيداً » ، وإنكار الأسباب « إيماناً » وترك الأعمال المفيدة « توكلاً » ، ومعرفة الحقائق « كفوفاً » وإلحاداً ، وإيذاء المخالف في المذهب « ديناً » والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات « صلاحاً » . واختبال العقل وسفاهة الرأي « ولاية وعرفاناً » والذلة والمهانة « تواضعاً » ، والخنوع وقبول الضيم « رضياً وتسليماً » ، والتقليد الأعمى لكل متقدم « علماً وإيقاناً » .

دعوة النبي ﷺ وبعثه طائعاتين

المادة (٥) — مفعول « أدعو » محذوف إيداناً بالعموم ، أي أدعو كل الناس حملاً على الآيات الأخرى ، الدالة على عموم بعثته ﷺ ، كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ (٣٤ : ٢٨) وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٢١ : ١٠٧) ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويُزَكِّيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم ﴾ (٦٣ : ٢) ، فقوله وآخرين الخ : معناه يعلم آخرين

غير العرب ، من جميع الأمم الأخرى ، فإنهم صاروا من العرب ، لأن بلادهم
 صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، وقد اختلطوا
 بالعرب بالزواج وغيره ، حتى صاروا منهم في كل شيء ، ولذلك قال : (وآخرين
 منهم لما يلحقوا بهم) أي لم يتجنسوا بالجنسية العربية الآن ، ولم يلحقوا بهم بعد
 ولكنهم سيلتحقون بهم فيما بعد في كل شيء » ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾
 (٢١ : ٩٢) والمقصود إن بعثة النبي العظيم عامة ، وأما سائر النبيين ، فكانت
 رسالتهم خاصة ، بقوم دون آخرين ، ومنهم المسيح عيسى ، ولا يلتفت إلى دعوى
 المسيحيين ، من أن المسيح مرسل لعموم الخلق ، فإن لا نجعل في أيديهم ينطق
 بلسان المسيح بقوله : ﴿ لَمْ أَرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافٍ يَتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ ﴾ (مت
 ٢٤ : ١٥) ، وهو حصر صحيح ، ولا ينفيه قول انجيل مرقس : (واكرزوا
 بالانجيل للخليقة كلها) « مر ١٦ : ١٥ » لأن اللام في « للخليقة » لا يصح أن تكون
 للاستغراق ، لأنه يدخل فيها حينئذ الحيوان الأعجم والنبات والجماد ، فيتعين أن
 تكون للعهد ، ولا معهود إلا خراف إسرائيل الضالة ، وبهذا يرتفع التناقض ويلتئم
 كلام الإنجيل مع قول القرآن الكريم : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٤٩ : ٣)

الدعوة والدعاء والادعاء والدعوى

المادة (٦) — كلمة « أدعو » من الدعوة وهي الطلب ، ومنه قوله تعالى :
 ﴿ قَدْ أَجَبَيْتَ دَعْوَتُكُمَا ﴾ (١٠ : ٨٩) ، وقوله : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ،
 وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ، إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِه
 إِلَى الْمَاءِ ، لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ . وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾
 (١٣ : ١٥) ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ ، إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ
 (٣٠ : ٢٥) ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ
 الرُّسُلَ ﴾ (١٤ : ٤٤) وقول نوح : « اني دعوت قومي ليلا ونهاراً ، فلم يزدتهم

دُعائي إلا فراراً ، (٧١ : ٥ و ٦) فكل ذلك بمعنى الطلب ، سواء أكان طلباً من العبد الى الله ، وهو مانسميه دعاء كما في الآية الأولى ، أو طلب الانسان من الأوثان ، بمعنى دعائهم أيضاً ، وهو مافي الآية الثانية ، أو طلب الله أن يخرج الميت من قبره ، وهو مافي الآية الثالثة ، أو الطلب من الانسان أن يؤمن ، كما في الايتين الرابعة والخامسة .

وأما « الإدعاء » مثل ادعى عليه كذا ، بمعنى زعم أنه له ، سواء أكان حقاً أم باطلاً ، فصدره أو الاسم منه « الدعوى » وذلك كما في ﴿ فما كان دَعَوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا ، إِلَّا أَنْ قَالُوا : إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٧ : ٤) ، أي ما كانوا يدعونهم من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ، إلا اعترافهم بظلالته .

وقد يطلق لفظ « الدعوى » على « الدعوة » بمعنى الدعاء ، كما في : ﴿ قَالُوا : يَا وَيْلَنَا ، إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعَوَاهُمْ .. الْخ ﴾ (٢١ : ١٥) فتلك إشارة إلى « يا وَيْلَنَا » ، فهو دعوى ، بمعنى الدعوة ، وكما في ﴿ دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ .. الْخ ﴾ (١٠ : ١٠) ، فدعواهم هنا : دعاؤهم ، لأن « اللهم » نداء لله ، ففيه أيضاً إطلاق الدعوى على الدعوة .

الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة

المادة (٧) - قوله : ﴿ ادْعُوا اللَّهَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أي بحجة واضحة غير عمياء . لأن الرجل الثبّت ، لا يتكلم إلا بثبّت ، قال : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١٦ : ١٢٥) فالدين إنما يقوم بالحجة ، لا بالسيف والقوة ، كما قال : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢ : ٢٥٦) وقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١٠٩ : ٦) وكذلك نوح عليه السلام قال : ﴿ يَا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ

ربي ، وآتاني رحمة من عنده ، فَعُمِّيتَ عَلَيْكُمْ ، أَنْ لَنْزِرَ مُكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (١١ : ٢٨) ، وقال تعالى عن لسان نبيه الكريم : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (٦ : ١٠٤) ، وقال : ﴿ فَذَكَّرْ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾ ، لستَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّطٍ ﴿ (٨٨ : ٢١ و ٢٢) الى غير ذلك من الايات الكريمة ، التي تفيد أن الإسلام إنما قام بالدعوة ، لا بالسيف والقوة .

وأما حديث : (أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ ، حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ ، وَأَمْوَالَهُمْ ، إِلَّا بِحَقِّهَا) ، فإنما ورد في مشركي العرب ، الذين لم تقبل منهم الجزية بعد الإذن بقتالهم ، وما أُذِنَ للمسلمين بقتالهم إلا بعد أن آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وقعدوا لهم كل مرصد ، ووقفوا في سبيل الدعوة ، فلم يكن الإذن إلا للدفاع عن الحق وحماية الدعوة ، والغرض من الحديث ، بيان أن قول « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، كاف في حقن الدماء ، وإن لم يكن القاتل لها من المشركين معتقداً ، لأن الأمر في ذلك يبنى على الظاهر ، ولأن القصد من الاكتفاء بالاسلام ظاهراً ، أن لا يؤذوا المسلمين ، ولا يقفوا عقبة في طريق انتشار الدين ، لأن القصد أن تكون الجزيرة « معملاً » لأنوار كهرباء الاسلام ، تمتد منها أسلاكه الى كل المعمورة ، ولا يناسب أن يكون في الجزيرة من يحول دون امتداد هذه الأنوار الى باقي الجهات ، ومما يؤيد قولنا : إن الحديث خاص بالمشركين ، وإن كان لفظه عاماً ، رواية النسائي له بلفظ (أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ) ، ولأن « الناس » بحسب اصطلاح القرآن ، يقصد بها غالباً أهل الشرك ، وقد علمت أن المراد بيان غاية القتال ، لا مشروعيته ، وأن سببه الدفاع وتأمين الدعوة ، ومنع الفتنة ، لا إكراه على الدين المنفى بنص القرآن العظيم .

آ (١٠٨) الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم - بيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ١٤٣٣

الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم - بيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه)

(المادة ٨) - الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم ، إذا كفوا أذاً عن المسلمين ، وإنما تتعرض لهم إذا تعرضوا لنا بالأذى ، لأن كل إنسان ، حر فيما يعتقد من الأديان ، وأما حديث « من بدل دينه فاقتلوه » فسيبه أنه كان المرتد من مشركي العرب ، يعود بعد رده ، الى محاربة المسلمين وايدائهم ، وهو مطلع على عوراتهم وقلة عددهم وعددهم ، ويعرف مواطن ضعفهم ، فمشروعية قتله ، أظهر من مشروعية قتال جميع المشركين ، المحادين للإسلام ، وكان بعض اليهود ، يتفر من الناس من الاسلام ، باظهار الدخول فيه ، ثم باظهار الارتداد عنه ، ليقبل قوله بالظن فيه كما ورد : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ ، وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٢:٣) فاذا هدد أمثال هؤلاء بقتل من يؤمن ثم يرتد ، فانهم يرجعون عن كيدهم هذا ، فالظاهر أن الأمر بقتل المرتد ، كان لمنع شر المشركين من العرب ، وكيد الماكرين من اليهود ، فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر ، وهي التي تسمى في عرف أهل عصرنا ، سياسة عرقية عسكرية .

صنع النبي ﷺ بعض المسلمين من أكره أولادهم المتهودين على الاسلام

(المادة ٩) - إن خير دليل على أن الاجراء الآنف الذكر لم يكن لاضطهاد الناس في دينهم ، هو أن بعض المسلمين أرادوا أن يكرهوا أولادهم المتهودين على الاسلام - فمنعهم النبي ﷺ عن ذلك بوحي من الله ، وكان ذلك عند جلاء بني النضير ، والاسلام في أوج قوته ، وقد نزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٢٥٦:٢) ، لأن سبب نزول هذه الآية ماروى أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال : كانت

١٤٣٤ منع النبي ﷺ بعض المسلمين من إكراه أولادهم المتهودين على الإسلام آ (١٠٨).

المرأة تكون مقلاة — أي لا يعيش لها ولد — فتجعل على نفسها ؛ إن عاش لها أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : ﴿ لا تدع أبناءنا ﴾ ، فأنزل الله : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ، يقال له « الحصين » كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ صلوات الله عليه وسلامه : ألا استكرههما ، فانهما قد أيا إلا النصرانية ؟ ﴿ — فأنزل الله الآية ، وفي بعض التفاسير ، « انه حاول إكراههما ، فاختصموا الى النبي ﷺ ، فقال يارسول الله ، أيدخل بعضي النار وأنا انظر ؟ » ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية — تهويد أولادهم ، ليعيشوا ، وأن المسلمين بعد الاسلام ، أرادوا إكراه من لهم من الأولاد الذين تدينوا بدين أهل الكتاب — على الاسلام — فنزلت الآية ، وكانت فصل ما بينهم ، وفي رواية له عن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ صلوات الله عليه وسلامه ، قال عندما أنزلت : (قد خير الله أصحابكم ، فان اختاروكم ، فهم منكم ، وان اختاروهم ، فهم منهم) .

هذا هو حكم الدين الذي بزعم الكثيرون من أعدائه — وفيهم من يظن أنهم من أوليائه — أنه قام بالسيف والقهر ، وكان يُعرض على الناس ، والقوة عن عيئه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه ، حكم السيف فيه حكمه ، هكذا قال أعداء الدين ، ومنهم البروتستانت وبعض الجبهة من أتباع الدين ، ومنهم من له عمامة بيضاء على رأسه .

وهنا نسأل فنقول : هل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الاسلام في مكة ، أيام كان السيد الأعظم ، يصلي مستخفياً ، وكان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من التعذيب ، ولا يجدون رادعاً من المسلمين يردعهم ، حتى اضطر النبي وأصحابه الى الهجرة ؟ أم يقولون إن ذلك الاكراه وقع في المدينة ، وأكثر

أهلها أسلم طوعاً قبل أن يهاجر النبي إليها ، وقد أعز الله الاسلام بأهلها الأنصار وهذه الآية نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فان غزوة بني النضير ، كانت في شهر ربيع الاول من السنة الرابعة ، نقض بنو النضير عهد النبي فكادوا له ، وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلن يكن له بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصروهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه باكره اولادهم اليهودين — على الاسلام — ومنعهم من الخروج مع اليهود ، فذلك هو أول يوم ، خطر فيه على بال بعض المسلمين ، الاكره على الاسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه : ﴿ لا اكره في الدين ﴾ (كذا حرره بعض المعاصرين) .

مرتبتا الدعوة الى التوحيد

المادة (١٠) — قوله : ﴿ ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ، أي ندعو الكافر الى التوحيد ، والمسلم الموحد الى فعل الخير وترك الشر ، فللدعوة مرتبتان : المرتبة الاولى — هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم الى التوحيد والاسلام ، وان يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطا وشهداء على الناس ، وبحكم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبحكم قوله في وصف المؤمنين : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ﴾ (٤١:٢٢) ، فالواجب دعوة الناس الى الاسلام أولاً ، فان أجابوا ، فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

والمرتبة الثانية — هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً الى الخير ، وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ولهذه المرتبة صورتان ، الصورة الاولى ،

الدعوة العامة الكلية ، وانما يقوم بها خواص الامة ، العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه ، وهم المشار اليهم بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٣:٩) ، والصورة الثانية ، الدعوة الخاصة الجزئية ، وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فيه العالم والجاهل ، وهو ما يكون بين المتعارفين ، من الدلالة على الخير ، والحث عليه عند عروضة ، والنهي عن الشر ، والتحذير منه ، وكل ذلك من التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدر .

جاء في الحديث « المؤمن مرآة المؤمن » رواه الطبراني في الأوسط ، والضياء من حديث أنس ، ورواه البخاري في الادب المفرد ، وأبو داود عن أبي هريرة بزيادة ﴿ والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه ﴾ ، وفي الحديث : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهين عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم ، فلا يستجاب لهم » ، وفي الحديث : « من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيانه » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال ﷺ : « إذا رأى الناس المنكر ، فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله يعقاب » رواه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه .

الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل

المادة (١١) — قوله : ﴿ أدعو إلى الله على بصيرة ﴾ يعني انه يدعو الى توحيد الله الذي أثبتته العقل بالدليل ، ولكنه لم يعرف كنهه ، وليس يدعو الى ما ينفيه العقل ، ويجزم بعدم إمكان تحققه ، كأن يدعو الناس أن يؤمنوا بأن بعض الأنبياء إله كامل ، وإنسان كامل ، وأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، لأن

هذا الدعاء ، ليس على شيء من البصيرة ، يدعو الى توحيد الله الذي أثبتته النص والنقل في التوراة والزبور والأنجيل والقرآن المجيد ، وليس يدعو الى ما هو خال عن البصيرة ، مما لم يثبت نقلاً صريحاً ، كالقول بثلاثة أقانيم ، فان هذا إنما هو شيء ناتج عن اجتهاد مجتهدى النصاري في المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ ب. م ولا يجوز الاجتهاد مع وجود النص .

علينا أن نتأسى برسول الله في الدعوة اليوم

المادة (١٢) — قوله : ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ :
ولذلك فنحن أتباعه اليوم ندعو الناس الى الله بفهم كلامه والتأسي برسوله مع البصيرة . أي الدليل والبرهان ، ندعو المسلمين الى الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، كل بقدر استطاعته ، لكن طالب الاهتداء إذا كان من العامة ، أمكنه أن يسأل العلماء عما يجهل عند الحاجة اليه ، لا عن رأيهم وفهمهم لكلام المقلدين فقط ، بل عن حكم الله ورسوله في الحادثة ، ولا يلزمه أن يبحث عن الدليل عندما يريد أن يعمل عملاً ؛ لأن الله يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلا ما آتاها ﴾ (٦٥ : ٧) ، ويقول : ﴿ لا تُنذِرَكم به ومن بلغ ﴾ (١٩ : ٦) .

الفصل الرابع

قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الأنبياء

آ (١٠٩) وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا ، نُوحِي إِلَيْهِمْ ،
 مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
 اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ !

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وتسعة فقام الفقيه الدمشقي وقال: كان قوم نوح يقولون : ﴿ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤: ٢٣) ، وكذلك عاد وثمود : ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أَنْتُمْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ — قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١٤ : ٤١) ، وكذلك أهل مكة طلبوا أن يرسل إليهم ملك ، كما قال تعالى في سورة الأسراء المكية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ ! — قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (١٧ : ٩٤ و ٩٥) ، وكذلك نفر من اليهود : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِذْ قَالُوا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٦ : ٩١) .

هذا ولما قال أهل مكة ما قالوه كغيرهم ، قال تعالى لنبيه ﷺ (وما

أرسلنا من قبلك (يا محمد) (إلا رجلاً) لا ملائكة (نوحى اليهم من أهل القرى)
وهي المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم « بالعواصم » — وهذا
من قبيل قياس الحاضر من الماضي — (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء
المشركين المكذبين لك يا محمد (فينظروا كيف كان عاقبة) آخر أمر (الذين من
قبلهم) يعني الأمم المكذبة ، فيعتبروا ، فانهم متى وقفوا على ذلك رأوا أن الله قد
أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال
تعالى (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) الذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم
يعصوه (أفلا تعقلون ؟) أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة
في الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير .

(أفلم يسيروا في الأرض ... الخ)

— ١ —

وتابع الفقيه الدمشقي كلامه معلقاً على الآية بما يلي :

تطبيق القول على الواقع

التعليق الأول — سبق أن الله تعالى بما قص عليهم من سيرة يوسف واخوته
— علمهم بالقول ، ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى
أو يقل الاعتبار به ، نبههم إلى النظر في الامور الواقعة فقال : ﴿ أفلم يسيروا
في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ وهذا كما قال في
موضع آخر : ﴿ فسـيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾
(٣ : ١٣٧) أي أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت في الأمم الماضية ،
وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل ، وكان ذلك يجري بأسباب مضطردة ، وعلى
طرائق مستقيمة ، يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ، وأن من ينحرف

عنه يخذل ، فليسيروا في الأرض ، وليستقرّوا ما حلّ بالأمم ، ليحصل لهم بذلك العلم الصحيح التفصيلي ، لأن السير في الأرض ، والبحث عن أحوال الماضين ، وتعرّف ما حلّ بهم ، هو الذي يوصل إلى معرفة سنن الله في خلقه ، والاعتبار بها كما ينبغي ، نعم إن النظر في التاريخ ، وسماع قصص الماضين ، يعطى الانسان من المعرفة . ما يهديه إلى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتباراً ، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه .

الحث على السياحة المفيدة والاحسان الى السائح

التعليق الثاني — لأجل الترغيب في السير في الأرض للنظر في أحوال الأمم ، ولأجل الاعانة على السياحة ، لرؤية الآثار وسماع الأخبار ، أمر الله بالاحسان الى السائح في قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ، واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب الجنب ، وابن السبيل ﴾ (٤ : ٣٥) ، فإن السبيل — في قول — هو السائح الرحالة ، في غرض صحيح غير محرّم ، سواء أ كان دينياً أو اجتماعياً أو سياسياً ، أو علمياً أو اقتصادياً ، ففي هذه الآية بل الآيات تنبيه إلى أصل عظيم من أعظم أصول العلم التي تستفاد من السياحة ، واختبار أحوال الأمم وعواقبها ، وهذا العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة ، هو المعبر عنه في هذا العصر « بعلم الاجتماع » .

أهل القرى وأهل البوادي والعراب

التعليق الثالث — قلنا المقصود من القرى في قوله « من أهل القرى » المدن الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها اليوم بالعواصم ، وإما كان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة ، لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا ، فالرسل تبعث من أهل المدن والأمصار ، لأنهم أعقل من أهل البوادي ، وأرق طباعاً وألطف

عريكة ، واعلم وأحلم من أهل العمود ، بخلاف أهل البوادي ، الذين هم من أجفى الناس طبعاً وأخلاقاً ، أما أهل الريف والسواد فإنهم أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي ، ، وقد وردت في أهل البوادي آيات كثيرة ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّحِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ (٩٨:٩) ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا - قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٤٩ : ١٤) ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَفَقَدَ الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٩١:٩) - الْمُعَذِّرُ مَنْ عَذَّرَ فِي الْأَمْرِ إِذَا قَصُرَ فِيهِ وَتَوَانَى وَلَمْ يَجِدْ ، وَحَقِيقَتُهُ أَنْ يَوْمَ أَنْ لَهُ عَذْرًا فِيمَا يَفْعَلُ وَلَا عَذْرَ لَهُ - قَرْنُ هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّرِينَ بِالْمُنَاقِقِينَ ، وَوَعْدٌ كَلَامٌ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ : شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ، فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ - قُلْ : أَفَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ؟ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ، يَلْظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا ، وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (١١٩:٤٨) .

الاستدلال بالقياس الاستقرائي على صحة الدعوة

التعلق الرابع - تقدم أنه قال : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ،

أوتأتهم الساعة بغتة ﴿﴾ ، فهذه دعوى صورتها: أنهم إن لم يؤمنوا صار فيهم هكذا . وههنا استدل على صحة هذه للدعوى بالقياس الاستقرائي ، ومعلوم أن القياس الاستقرائي أعلى مرتبة من جميع القياسات التي تثبت بها حقائق الأشياء ، فإذا ثبت لدينا شيء بواسطة ، لا يسعنا إنكاره ، وإذا أنعمنا النظر نرى أن علم أكثر أشياء هذا العالم ، وعلم حوادث الدهور الغابرة والأزمنة الماضية — إنما حصل لدينا بواسطة الاستقراء ؛ خذ اليك مثلاً: نحن نقول الآن : إن الإنسان منذ خلق يأكل بغمه ، وينظر بعينه ، ويسمع بأذنيه ، ويشم بأنفه ، ويتكلم بلسانه ، فإذا ادعينا خلاف هذا نكون قد رفضنا أيدينا من النتائج القطعية الثابتة لدينا من الاستقراء .

الأنبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي

التعليق الخامس — قوله : « إلا رجالاً نوحى إليهم » ، يراد بهذا الحصر الرد على مزاعم ثلاث :

فأولاً — الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبيه ، كما هو مذهب اليهود والنصارى ، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين ، وهذا الرد وإن يكن صحيحاً ، لكنه غير مراد ههنا .

وثانياً — الرد على مشركي العرب ، إذ قالوا : ﴿ لولا أنزل عليه ملكٌ ؟ ﴾ (٨:٦) ، ﴿ أو جاء معه ملكٌ ﴾ (١٣:١١) ، ﴿ لن نُؤمنَ لك حتى ... تأتي بالله والملائكة قبلاً ﴾ (٩٢:١٧) وهذا قد يكون مراداً ههنا .

وثالثاً — الرد على من يقولون إن الأنبياء هم سياسيون محضون ، استفادوا من حنكتهم وحسن سياستهم تأييد سلطتهم وتصحيح دعواهم النبوة ، وهذا ما يعتقدونه ويؤمنه في نبينا بعض مشركي العرب ، كما يعتقدونه اليوم أهل أوربا ، أي

أنهم يعتقدون أن النبي القرشي ، قام بما قام به ، بحنكته وسياسته ، لا بتأييد الله تعالى له بوحيه وعنايته به ، ومثل الافرنج في هذا الرأي ، كل من لا يدين بدين الإسلام من علماء نصارى الشرق ، فدعوى أن نجاح النبي ﷺ كان بسياسته وحنكته أي بتجاربه ، هي أكبر شبهتهم على الإسلام ، حتى أنهم لولاها لمكانوا مسلمين ، ومن هؤلاء الدكتور « شميل » اللبناني الشهير ، إذ يقول من آيات يمدح بها النبي ﷺ : « رجل الحجا رجل السياسة والدها » ومنهم البرنس « كايثاني » الإيطالي ، فإنه ألف كتاباً في تاريخ الإسلام ، ذكر فيه أن مزية النبي (ص) هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك ، وهو يعتبر أن ماتم على يديه ، إنما كان بالدهاء والسياسة وسمو الأفكار وعلو الأخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال ، « كسبارك » و « نابليون الأول » وإن ما ادعاه من النبوة ، وما جاء به القرآن ، لا تأثير لهما في نفسها ، وإنما التأثير له هو بنفسه وبها ، لأنه استخدمها في تأثير سياسته .

هذا ملخص ما كان يعتقد به بعض مشركي العرب ، ثم صار أهالي أوروبا يعتقدونه ويقررونه ويشرحونه ببسط ، فالله تعالى يرد عليهم ، بهذه الآية وأمثالها فيقول : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ ، أي ما كان الرسل إلا رجالاً عاديين ، إنما امتازوا عن باقي الرجال وتأيدوا بالوحي السماوي .

نعم الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا بد أن يكون الرسل من ذوي الفصاحة وقوة الحججة والعارضة ، ومن أهل الفطنة والذكاء ، ولكن مجرد هذا لا يملوهم عن أمثالهم من الرجال الفصحاء الفطناء الأذكياء ، أقوىاء الحججة شديدي العارضة وإنما الذي بهم عن الرجال ، ويميزهم عنهم ، هو الوحي والتأييد الإلهي السماوي ، فهذه هي الخاصة التي تعلو بهم إلى الثريا ، ويمتازون بها عن كل من عداهم ، من فصحاء وأذكياء كل الرجال .

وعليه فيكون معنى الآية حينئذ وما أرسلنا من قبلك رجالاً، يكون جل أو كل اعتمادهم ونجاحهم ، على أخلاقهم ومزايهم الشخصية ، أو على حسن سياستهم وحنكتهم ودهائهم ، . . . كلا . . . فإن هذا وحده لا يفيد ، ولكن إنما أرسلنا رجالاً جل اعتمادهم أوكله على الوحي ، الذي نسدد به خطاهم ، وبه نرشدهم ونثقفهم ونؤدبهم ، وبه ننصرهم ونعضدهم ونؤيدهم ، فالخاصة التي يمتازون بها غن باقي الرجال العقلاء الفطناء ، ويعلمون بها على الفصحاء والبلغاء ، ويتشرفون بها فوق كل السياسيين والمحنكين والحكماء ، هي الوحي ، كالقرآن مثلاً ، فالقرآن هو السبب في نجاح النبي المختار ، وفي هداية المسلمين .

تطمين محمد ﷺ بالنصر

آ (١١٠) ﴿... حتى إذا استتيأس الرُّسُلُ، وظنُّوا أنَّهم قد كذَّبوا، جاءهم نصرُنا، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عن القومِ المجرِّمينَ .﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية المئة وعشرة ، فقام الاستاذ الخوارزمي (١) وقال :

« حتى » هذه متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام « فكأنه قيل : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم (حتى إذا) حمي الوطيس ، وقامت الحرب على ساق و (استتيأس الرسل) وقتلوا من نصرهم العاجل في الدنيا ، فهماً منهم أنهم سوف ينصرون في الآخرة (وظنوا أنهم قد كذبوا) — فيه قراءتان ، فإن قريء بالتخفيف على البناء للمجهول فمعناه : ظنوا أنهم كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم

(١) نسبة الى بلدة خوارزم في تركستان .

آ (١١٠) الله سبحانه وتعالى يطمئن محمدا ﷺ بأنه ناصره في دعوته ١٤٤٥

بأنهم ينصرون ، أو ظنوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم ، وهذا نظير قوله : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم : مستتهم البأساء والضراء وزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٢١٤ : ٢) .

وإن قريء بالتشديد على البناء للمجهول أيضاً فمعناه : ظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة الحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر — وعند ذلك (جاءهم) أي الرسل (نصرتنا) فجأة ، من غير احتساب (فنجى من نشاء) عند نزول العذاب ، وهم المؤمنون الطيعون ، لأنهم الذين يستأهلون نجاتهم (ولا يرد بأسنا) عذابنا في تلك المعركة (عن القوم المجرمين) مها أعدوا لها العدة ، بل يحيط بهم من كل جانب .

(حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا .. الخ)

وقال الشيخ عبد الرحمن رياض الحيدر آبادي : عندي على هذه الآية التحيقان التاليان :

الله سبحانه وتعالى يطمئن محمدا ﷺ بأنه ناصره في دعوته

التحقيق الاول — لقد كان النبي ﷺ يحزن ويضيق صدره لما يكذبه قومه ، والحق يسطع نوره ، وهم يعمون عنه ، حتى قال الله له : ﴿ فليعلمك تارك بعض ما يوحي اليك وضائق به صدرك ﴾ ، أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل ﴾ (١١ : ١٢) وقال له : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ، حتى آتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله

ولقد جاءك من نبي المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغني نفاقاً في الأرض ، أو سلماً في السماء ، فتأتيهم بآية ... ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين ﴿٦ : ٣٣-٣٥﴾ وقال تعالى : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (١١٠ : ١-٣) وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ، ما يدل على النبي ﷺ كان يضجرو ويقلق من استبطاء نصر الله للحق ، الذي بعث به نبيه ، بل فيه شيء من السهو عن وعد الله بتأييد دينه ، وليس ذلك من النقص الذي يعاب به الأنبياء ، فإن كل مخلوق لا يعلم من غيب الله ما يعلم الله ، لا بد أن يمسه هذا الضجر ، ويصيبه هذا القلق ، وتأخذه الشدة بهذا النسيان ، حتى يكون الكمال لله وحده ، ولكن الله جل شأنه يعده على أقرب المقربين إليه ، كما قالوا : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها

التحقيق الثاني — الأظهر المنطبق على قواعد العقائد ، أن المراد باستيأس الرسل يأسهم من إيمان قومهم ، وفي قوله تعالى (كذبوا) بضم الكاف ، قراءتان سبعيتان أحدهما بتشديد ذال (كذبوا) ولا إشكال فيها ، غير أن الظن فيها بمعنى اليقين لأنه قد يستعمل في الفصح بهذا المعنى وبمعنى الوهم ، وبمعنى حديث النفس ، والقرائن هي التي تعين المعنى المراد ، والقراءة الثانية بتخفيف ذال (كذبوا) ، وفي تطبيق القواعد عليها وجهان : أحدهما أن الضمير في (ظنوا) لأقوام الرسل : أي ظن الأقوام أنهم كذبوا فيما أوعدوا به من وقوع العذاب عليهم ، وثانيهما أن الضمير للرسل ، و (كذبوا) ههنا ، معناه : كذبتهم أنفسهم فيما تمنوا وأملوا في قومهم ، أي خابت آمالهم فيهم ، من كذبه نفسه . إذا منته الأمانى وخيلت إليه من الآمال مالا يكاد يكون ، قال في الأساس : (وكذب نفسه ، وكذبت نفسه .

إذا حدثته بالاماني البعيدة والامور التي لا يبلغها وسعه ومقدرته) ، والمعنى حتى إذا يشس الرسل من ايمان قومهم وظنوا : أي يقتوا أن امانهم في ايمانهم وآمالهم في قبولهم الدعوة ضائعة ، جاءهم نصرنا ، وورد أن عائشة (رض) كانت تنكر قراءة التخفيف ، كما في صحيح البخاري من طريق عروة بن الزبير ، وقد علمت أن العلماء خرجوا هذه القراءة على معني مستقيم والله تعالى أعلم .

هذه كلمتي القيتها على أسماعكم الشريفة ، وما اشبهني بمن قيل فيه :
فانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تقرأ الى أهل خيرا
فانني أيها السادة أجنبي عن لغتكم ، وأنتم الأصل والأهل .
(مرحي مرحي ولا فض فوك) .

الفصل الخامس والآخر

العبرة من قصص الرسل مع اقوامهم

آ (١١١) (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

افتتحت الجلسة ، وتليت الآية المئة واحدى عشرة ، وهي الآية الاخيرة في السورة ، فقام الفهامة الشيخ احمد من علماء « عليكرة » في الهند وقال : يقول الله تعالى : بذاتي حلفت (لقد كان في قصصهم) أي في خبر الرسل مع قومهم وذويهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ، وكيف نصرنا .

المظلومين على الظالمين (عبرة لأولي الألباب) وعظة لذوي العقول ، فإن تاريخ الرسل حافل بالمواعظ والذكرات (ما كان) القرآن المجيد (حديثاً يفترى) يكذب ويمخلق من دون الله (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب السماوية ، كصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور ، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ، ويشير لما وقع فيها من نقصان ، ويحكم عليها بالتقرير لأكثرها ، والنسخ لبعضها (وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والأخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلية ، المجملية والتفصيلية ، والأخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهته عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان (هدى - ورحمة) وبياناً ونعمة (لقوم يؤمنون) تهتدي قلوبهم من الغي إلى الرشاد ومن الضلال إلى السداد .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)

—١—

وقال السيد نور الدين من علماء سنغافورة (١) ههنا مواد جميلة المسالك على هذه الفقرة من الآية الكريمة جمعناها من هنا وهناك وهناك واليك بيانها:

محمد ﷺ مؤسس أمة وامبراطورية وديانة

المادة (١) — قال « بوسورت سميث » في كتابه « حياة محمد » « من حسن الحظ في التاريخ دون غيره أن « محمداً » أسس في وقت واحد ، ثلاثة أشياء من عظام الأمور ، وجيل الأعمال ، فانه مؤسس لأمة ، وامبراطورية ، وديانة ، مع أنه أمي »

(١) نسبة إلى بلدة سنغافورة في شبه جزيرة ملاقا جنوب الهند الصينية

وما كان يقدر أن يقرأ أو يكتب ، ومع ذلك أتى بكتاب هو آية في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة وللدين في آن واحد ، وقال الدكتور « موريس » الفرنسي « إن القرآن أفضل كتاب أخرجته يد العناية الأزلية لبني البشر » .

الغاية من قصص القرآن

المادة (٢) — قص علينا القرآن أحسن القصص ، ليكون عبرة وذكرى وشفاء للقلوب من أمراض الجهالة ، وارشاداً لتقويم شؤون البشر ، وتهذيب نفوسهم ، واصلاح معاشهم ومعادهم ، وليس الغرض من تلك الأقاصيص ، سرد تواريخ الماضين ، وذكر شؤونهم وأطوارهم ، ولكنها للعة والاعتبار ، ولهذا لا يبالي فيها بالتكرار ، ولا يستهجن معها الاطناب بعد الايجاز ، أو الايجاز بعد الاطناب ، ولا أن تسرد غير مراعى فيها تعاقب الوقائع ، ولا ترتيب الحوادث ، فالقرآن يذكر القصة في مواطنها ، بأساليب متغيرة ، أو صور متقاربة . ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره ، ومرمى لا يصيبه سواه ، وإلى هذا يشير قوله تعالى هنا : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك الذين لا يعقلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكنّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُكَ بِهِ فَوَادَّكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٠:١١) .

هذا ولم تتكرر قصة يوسف لأنها قصة محزنة مؤسفة ، ولأن فيها من ذكر ما يتعلق بالعرض والناموس مالا يتفق مع التكرار .

الغاية من ذكر الانبياء وقصصهم في القرآن

المادة (٣) — ورد قوله تعالى بعد ذكر ثمانية عشر نبياً : ﴿ أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ﴾ (٩١:٦) فالغرض من ذكر الانبياء وحوادثهم القدوة بهم في التبليغ واقامة الحجّة والصبر على التكذيب مثلاً ، والصبر على إيذاء

أهل العناد ، والأقارب والأباعد ، واعطاء كل حال حقها ، من مكارم الأخلاق ، وأحسن الأعمال ، والفائدة موجودة دائماً في كل قصص ، حتى في قصص يوسف مع امرأة العزيز وسيرة عشقها له ، ومراودتها إياه ، ثم في سيرة عشق النسوة المصريات لجمالها ، فإن ذلك كله قد اقترن بما يدفع الانسان عن التدهور في مثل هذه الوهدات التي تنزل بالنساء الى الحضيض الأسفل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ - أَلَيْسَ أُنَّ قَالُوا - وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (١٧ : ٨٢) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَاضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) فكل أحد يرغب في سماع هذه القصة ، لتحريك المحبة المذمومة ، أو برعب عن سماعها ، دفعاً لهذه المحبة ، فهو مذموم ، وانما المدوح من يحب سماع تلك السيرة لما حوته من العبر والذكر ، وما يستفاد من عواقب العشق السيئة ، وكذا كل من أحب أن يسمع هذه السورة لتعلم ضروب الحيل ، فهو مذموم ، ولكن المدوح من يتدبر بعض هذه الحيل بما اشتملت عليه من النتائج السيئة ، والبعض الآخر بما شمله من العواقب الحسنة ، وهكذا كل من لذ له أن يسمع ما انطوت عليه من الحسد والعقوق وقطع الرحم والختل والكذب والقساوة وخلف الوعد فهو مذموم ، وانما المشكور من قرأ ذلك وعلم ما فيه من نتائج السيئة وعواقبه المكروهة ، ثم التوبة منه الى الله وإلى الناس الممكور بهم .

وليس ما ذكر خاصاً بسورة يوسف ؛ فقد ذكر الله تعالى في غير هذه السورة أحوال الكفار والفجار واللوطية والفراعنة والظلمة ، ثم الشرك بأنواعه ، والكفر بأسبابه ، وسائر ضروب الفسق ، والحسد وقطع الرحم والعقوق والكذب والاحتيال ونقض العهود وخلف الوعود ، الى غير ذلك مما فيه ذكر معاصي الله

والصد عن سبيله ، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والكفريات وأنواع الفسوق ، وكله مذكور في كتاب الله تعالى ، ولكن ذكره مخفوف بالنهي والترهيب وبيان سوء المغبة ، وقبح السمعة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات

المادة (٤) — القرآن ليس بتاريخ ، كما هو الشأن في سفر التكوين ، وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل والملوك والأنبياء وعزرا والخ والخ فإن هذه الأقاويص ، هي تاريخ محض جاف خال عن العبرة .

القرآن لا ينشر إلا التقوى والفضيلة بين الناس ، ولذلك نص نصاً صريحاً ببراءة الأنبياء الكرام ، الذين رماهم « أهل الكتاب » بالكبائر . راجع القرآن وقوله : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ . ولكن الشياطين كفروا ﴿ (١٠٢ : ٢) وهو رد على توراة اليهود التي تنسب لسليمان — حاشاه — عبادة غير الله .

راجع القرآن وقوله : ﴿ قالوا : ما أخلفنا موعداً بملكنا ، ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقصدنا فثأرها فكذاك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار » فقالوا : « هذا الهكم وإله موسى فنسي » أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ؟ ولقد قال لهم هرون من قبل : « يا قوم إنما فتيتكم به وإن ربكم الرحمن ، فاتبعوني وأطيعوا أمري » .. قالوا : لن نبرج عليه عا كفيين حتى يرجع إلينا موسى » ... قال : ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعهم ؟ أفعميت أمري ؟ .. قال : « يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت أن تقول : « فرقت بين بني إسرائيل ، ولم ترقب قولي » - قال : « فما خطبك يا سامري ؟ » - قال : « بصرت بما لم يبصروا به ، فقبطت قبضة من أثر الرسول ، فنبدتها ، وكذلك سولت لي نفسي » - قال : « فاذهب

فإن لك في الحياة أن تقول: «لامساس»^(١) وإن نك موعداً لن تخلفه، وانظر الى إلهيك الذي ظلت عليه ما كفاً لنحرقه ثم لننسفنه في اليم نسفاً» (٢٠ : ٨٧ - ٩٧) فهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين يقولون إن هرون هو الذي صنع لهم المعجل الذهبي (خر ٣٢ : ١ - ٦) .

القرآن لم يذكر من تاريخ الأنبياء ونحوهم الا ما فيه عبرة ، وما به تغذية النفوس بالصالح والاستقامة وتحسين الاخلاق والآداب — بسياج الفضيلة ، ولكن كتب اليهود والنصارى تقول ما فيه افساد للأخلاق وتعليم للرذيلة ، اقرأ ما جاء في (تك ٩ : ٢٠ - ٢٧) عن ترجمة حياة نوح ، وما جاء في (تك ٢٧ : ٢٥) عن سكر الانبياء ، وما جاء في (خر ٢٩ : ٤٠) و (لا ٢٣ : ١٣) عن إيجاب تقريب الخمر للرب ، وما جاء في (صم ٢ : ١٩) عن سقى داود الخمر لمن أصعد تابوت الرب إلى مدينة داود وما جاء في (يو ٢ : ٧ - ١٠) عن تحويل المسيح الماء خمرأً وتقديمها للضيوف وما جاء في (مت ٢٦ : ٢٧) عن شرب المسيح الخمر وأمره تلاميذه أن يشربوا منها ، وما جاء في (تك ١٩ : ٣٠ - ٤٨) عما فعله لوط مع ابنتيه ،

(١) المراد من قوله « لامساس » أنه كان في شريعة موسى عليه السلام ان الذي يرتكب خطيئة كبيرة ، يعد كأن به داء معديا ، فيفصل عن سائر الشعب ، خارج المحلة ، باعتبار أنه نجس . وكان عندهم يجب عليه أن يعلن مرضه ذلك ، بلباسه وإشارته وكلماته ، وذلك بأن تشق ثيابه ، ويكشف رأسه ، ويغطي شاربيه ، ويطرد من المحلة أو المدينة الى الخارج ، ويلزم أن يصرخ متى رأى أحداً مقرباً اليه ، فيقول : لامساس لامساس ، أو يقول : نجس نجس ، ويبقى على هذا الحال الى أن يتاب عليه ، فيرجع ويختلط بالناس ، ويختلط الناس به ، ويعاشرهم ويعاشرونه ، وهذا قريب من « الهجر » المشروع في الاسلام ، لمرتكي الكبائر ، كما في قصة « كعب بن مالك » و « زرارة بن الربيع » و « هلال بن أمية » المشار اليهم في قوله تعالى : [وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم] (٩ : ١٩) هـ .

فأي عبرة في سرد ذلك للقارئین ؟ وما هو منفعته للسامعين ؟ بل ماهي الحكمة وملاهي العبرة في ذكر جريمة لوط — حاشاه من ذلك — التي أتت في كتبهم كأنها أمر عادي ، وكأن لوطاً لم يرتكب منكراً ، حتى لم يذكر أن الله وبخه أو عاقبه على ذلك ، أو أنه تاب من ذنبه ، بل العجيب أن الكتاب المقدس ، سماه باراً تقياً (٢ بط ٢ : ٧ — ٩) ، فأني عبارة أتى بها الكاتب لبيان شناعة هذا العمل الفظيع ، واستقباحه له ، أو وجوب التوبة منه ؟ وقد قالوا إن الحكمة في ذكر هذه القصة وأمثالها هي إظهار درجة قبح شرب الخمر ، وبيان ما تؤدي إليه !!! ونحن نقول إنما افتجر اليهود هذه القصص تبريراً لشروهم الكثيرة ، وعصيانهم لله مرات عديدة ، واعتذاراً بها عن جرائمهم وآثامهم المتكررة المستمرة إلى اليوم .

القرآن لا يذكر من تاريخ داود ، إلا ما فيه عظة وعبرة لأولي الألباب ، ولكن سيرة داود عند اليهود والنصارى ، معروفة مشهورة ، وقساوته وظلمه ، لا مثيل لهما — حاشاه — ، اقرأ ما جاء في (٢ صم ١٢ : ٣١) و (١ أي ٣٠ : ٣) عن نشره أسرى بني عمون بالمناشير ونوارج الحديد والفؤوس ، وما جاء في (١ مل ١٥ : ٥) عن تعريضه أوريا الحي وزناه بزوجه ، وما جاء في (١ صم ٢١ : ٢) من كذبه وتعليمه الكذب ، وما جاء في (١ صم ١٨ : ٢٥ و ٢٧) من قتله ٢٠٠ من الفلسطينيين ليتزوج ابنة شاول ، وما جاء في (١ مل ٣ : ٨ و ٩) من وصيته لابنه سليمان وهو محتضر بقتل رجل ، وما جاء في (٢ صم ١٣ : ١ — ١٤) من حزنه على ابنه « أمنون » حينما قتل ، مع أنه فسق باخته بعد أن خدعها خدعة دنيئة ، وما جاء في (٢ صم ١٤ : ٢٤ و ٢٨) من أن داود حقد على ابنه أبشالوم الذي قتل أخاه « أمنون » انتقاماً لاختها ؛ وداود هذا ، هو الرجل الذي نصت كتبهم على أنه كان باراً ، وإن جميع أفعاله مرضية عند الله تعالى ، وكلها مستقيمة ، في عيني الرب ، وطبق وصاياه ، (١ مل ١٥ : ٥) .

قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والاخلاق

المادة (٥) — لانرى قصه من قصص القرآن ، إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية ، ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، وإرشاد ونصح ، وتبصرة وتذكيرة ، ونرى القرآن يعرض عن كثير من الوقائع التاريخية التي لا لزوم لها ، ولا معول عليها ، وبالأولى تراه يعرض عما ذكرته تورات اليهود ، التي بين أيديهم ، من الحوادث المخجلة الشائنة ، التي نوهنا بالشيء الكثير عنها .

لوفائدة من درسى التاريخ ان عدل به عن العبرة

المادة (٦) — درس التاريخ أن عدل به عن العبرة ، كان شغلا بلا فائدة ، وضياح وقت وحياة بلا ثمرة ، و « العبرة » مشتق من عبور البحر ، فينقل قاريء التاريخ حال غيره على نفسه ، ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق الراهنة المنوطة بشخصه ، أو بأسرته أو بأئمة ووطنه ، وبدنه ودنياه ، وهو ما أريد به من قصص القرآن التاريخية ، قال تعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ (٦٧ : ٣) وقال : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢ : ١١٨) ، ويقول سليمان عليه السلام : ﴿ فَلَيْسَ تَحْتَ الشَّمْسِ مِنْ جَدِيدٍ ﴾ (جا ١ : ٩) ، ويقول العلماء : « التاريخ يعيد نفسه » ، وقد غفل الناس عن تلك العبرة ، جهالة بالقصد ، ورمياً للفحوى ، ورضى بالقشور ، وابتعاداً عن أسرار البلاغة : جاء الخطاب بلسان العرب ، وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وقد علموا موارد ومضاربها ومغازيها ومراميها ، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها ، أو المعاني دون مفزاها ، وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ، ذكر له قصصاً تشبه حاله ، فيردعه عن غبه ، فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام ، وتثير في القلب حمية

وإقداماً ، أو خيفة وإحجاماً أو صلاحاً واستقامة ، فيزول المراء ، ويرتفع الغطاء ، فان المثل في مغزاه ، كالسهم في مرماه .

قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة

المادة (٧) — إن جمال قصة يوسف ، سائق لما به السعادة ، وهو حفظ الأخلاق ودوام الثقة بالله تعالى ، وانتظار الفرج منه ، فإذا قرأ القاريء ، أن يوسف كان عفيفاً ، حين راودته زليخا لكي يخالطها ، تشوق القاريء الذكي التقي أن يكون كيوسف ، عفة وأمانة ، وكذلك يقلده في العفو ممن ظلمه ، وسماح من تعدى عليه ، بل في نفعه وتثريفه ، ويقول في نفسه : إن هذه الأخلاق اليوسفية ، كانت عاقبتها النبوة والملك ، فهكذا من قلده في أخلاقه ، تكون عاقبته الولاية والرفعة .

ليس المقصود من قصة يوسف ، أن نلوم إخوة يوسف على حسدهم له ، ولكن المقصود أن نلوم أنفسنا عندما يحصل منا حسد لآخوتنا ، وليس الغرض أن نتكدر منهم حينما احتالوا على أبيهم وغدروا بأخيه ، ولكن الغرض أن نتكدر من أنفسنا عندما نجري الحيل على بعضنا ، ويغدر بعضنا ببعض ، وليس المطلوب أن نعترض على إخوة يوسف وقتما نراهم قد قطعوا الرحم ، وقذفوا بأخيه في غيابة الحب ، وإنما المطلوب أن نعترض على أنفسنا وقتما نحصل منا أعمال شاذة وحشية كهذه مع ذوي رحمتنا وأقاربنا .

كما أنه ليس بالأخبار بلقيا يعقوب لولده يوسف ولم شمله به ، واجتماع الأسرة الاسرائيلية جميعاً ، في صعيد واحد ، مطمئتين مسرورين ، وإنما المراد أن نفرح بلم شملنا نحن المسلمين ، وجمع كلمتنا واتحادنا واجتماعنا جميعاً ، تحت راية واحدة ، وتحت إمام واحد .

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

المادة (٨) — لقد كان في قصص يعقوب وأولاده عبرة ، فليعتبر بذلك هؤلاء الناس ، الذين اقتصروا على معرفة الفروع الفقهية ، وظنوا أن الحلال والحرام ، كافيان في الإسلام ، وكم تركوا العظة بآيات كثيرة ، بحجة أنها نزلت في الكفار أو المنافقين ، فلا لزوم للتأمل فيها والاتعاظ بمرامها .

ليقيسوا حالهم على حالهم ، وليقيس كل من كان اليوم من ذرية النبي ﷺ أو غيره من الصحابة ، كأبي بكر أو عمر (رض) — نفسه على أولاد يعقوب ، ويعلم أن كل من كان من السلالة المحمدية أو البكرية أو العمريّة مثلاً ، فهو بين شيئين ؛ إن كان من الصالحين المتقين ، كان على قدم يوسف عليه السلام ، وإن كان من المذنبين ، احتاج للتوبة وكان على قدم اخوة يوسف رحمهم الله تعالى ، فيوسف واخوته كلهم من سلالة بيت نبوة ؛ لكن يوسف إنما انتفع باستقامته وتقواه ، كما أن اخوته إنما انتفعوا بتوبتهم إلى الله ، وهكذا كل من كان اليوم من سلالة الحسين أو الحسن أو أبي بكر أو عمر (رض) أو نحو ذلك ، لا ينفعهم عند الله العمل الصالح والتقوى ، والسيرة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا ، فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٦ : ٩) وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ، لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١٣ : ٤٩) ، وقد قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ احْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! ﴾ (٤٥ : ٢٠) ، وهذا استفهام إنكاري ، يقتضي الإنكار على من يحسب ذلك ويطه ، وإعما بذكر على من حسب وظن الخطأ صواباً ، والباطل صحيحاً .

فعلم أن التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، مما يعلم بطلانه ، وأن ذلك من أظلم الشيء الذي ينزه الله عنه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٢٨: ٣٨) وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ (٣٥ : ٦٨) وبالأجمال ، فالتسوية بين الأبرار والفجار ، والمحسنين والظالمين ، وأهل الطاعة وأهل المعصية — حكم باطل يجب تنزيه الله عنه ، فإنه يتنافى عدله وحكمته ، وهو سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفين ، فهو يسوي بين المتماثلين كقوله تعالى : ﴿ أَكُفِّرُكُمْ حَيْرٍ مِنْ أَوْلَائِكُمْ ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ ﴾ (٥٤ : ٤٣) وقوله : ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١١: ٣) ، فالشريف الهاشمي النقي الصالح ، هو كيوسف ، والشريف الهاشمي الذي خرج عن الحد ، ثم ناب وأتاب إلى الله وحسنت حاله ، هو كأخوة يوسف .
(الله أكبر الله أكبر)

(ما كان حديثاً يفترى)

— ١ —

وتابع السيد نور الدين السنغافوري كلامه فقال :

ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير

المراد من قوله ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ : أن قصص القرآن ، ليس مخترعاً ولا مفترى بدليل وجود أمثله بين الناس قبل نزوله ، فهو وأن اختلف قليلاً في بعض التفاصيل أو الحريثات — عما يرويه الناس ، إلا أنه موافق في الجملة والجوهر . فلا تظنوا أنها المشركون ، ان النبي اخترعه بمقله ، بل اسألوا عنه .

أهل الكتاب ، تجدوا أنه معروف بينهم ، ومروي في كتبهم ، فوجود قصص القرآن عند أهل الكتاب من قبل ، لا يضعف حجته ، كما يتوهم « المبشرون » بل هو من أعظم ما يصدق ويؤيده ، ولذلك ترى القرآن نفسه ، يستدل بذلك على كونه من عند الله ، لأن النبي لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يستنتجن القاريء من هذه الآية ، أن قصص القرآن ، يجب أن لا يختلف عن قصص التوراة والانجيل في شيء ما . . . كلا . . . إذ لو كان هذا الاستنتاج صحيحاً ، لما قال تعالى : ﴿ إِن هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٧٦:٢٧) ، فقصصه قد يختلف عما عندهم ، فيبين لهم حقه من باطله ، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، وبين مخالفته لها في بعض الجزئيات ، كما قلنا .

ويقال أيضاً « ما كان حديثاً يفترى » من قبيل الخرافات والأساطير التي في أسفار النير ، ولكنه كان بالعكس هادماً لتلك الخرافات والأساطير ، التي خلقتها تلك المصور اليهودية ، والمصور الستة قبله ، وكان مصدقاً لما تقدمه من الكتب خلا ما زيد فيها أو حذف منها ، أو سُد بسبب الترجمة السيئة ، وكذلك خلا الكتب « الأبوكريفة » — أي التي ليست قانونية — الموجودة في الترجمة السبعينية ، التي قبلتها الكنيسة البابوية بين الكتب الملزمة .

(ولكن تصديق الذي بين يديه)

— ١ —

وقال المدقق اللدي :

ليسمح لي السادة أن أعلق على هذه الفقرة من الآية الكريمة بالتعليقات التالية:

القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد

أولاً — القرآن مصدق لما قبله في تقرير التوحيد الخاص وافتقاء الشرك ،

صغيرة وكبيرة ، واثبات النبوات والرسالات ، وما يغذي ذلك الإيمان ويقويه ، ومن ترك الفواحش والمنكرات ، وعمل الصالحات .

القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين

ثانياً — القرآن مصدق لأصول الدين وأركانه ، التي هي المقصد من ارسال جميع الرسل ، لا يختلفون فيها ، وإنما يختلفون في طرق حمل الناس عليها ، وهدايتهم بها ، وترقيتهم في معارجها ، بحسب سنة الله في ارتقاء البشر بالتدريج ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، خذ اليك مثلاً على ذلك : المقصد من جميع الحكومات هو العدل ، وإنما تختلف الدول في القوانين المقررة له ، باختلاف أحوال الأمم ، فليس من العقل ولا الصواب أن تنكر الأمة تغيير حاكم جديد ، ما كان عليه من قبله ، إذا كان يوافق في جعله مُقَرَّرًا للعدل ، مقيماً لميزانه بين الناس ، كما كان أو أكمل ، وهو في هذه الحال يسمى مصدقاً لما بين يديه لا مكذباً ولا مخالفاً ، فالقرآن قرر نبوة ابراهيم وموسى وداود وعيسى ونحوهم ، وصدقهم فيما جاءوا به عن الله تعالى ، ووبخ الأقوام المدعين اتباعهم ، على إضافتهم لبعض ما جاءوا به ، وتحريفهم للبعض ، وزيادتهم في بعض المواضع ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى أن أكثرهم هدموا الأساس الأعظم للدين ، وهو التوحيد ، فثلثوا واتخذوا أجبارهم ورهبانهم آرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، فتصديق القرآن لما بين يديه ، لا ينافي مانعاً عنهم من الاضافة والنسيان والتحريف والتأويل المغلط .

القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد

ثالثاً — القرآن مصدق للكتب السالفة في التوحيد ، وروح العبادة وتزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات ، وتهذب الأخلاق ، وفي الكليات الخمس ، وهي

« حفظ الدين » بعدم الردة والكفر ، و « حفظ النفس » بعدم الانتحار وقتل الناس ، و « حفظ المال » بعدم السرقة والربا والغش والخيانة ، و « حفظ النسب » بالتباعد عن الزنا ، و « حفظ العقل » بان لا يتعاطى مسكراً ولا مخدراً ، هذه هي الكليات الخمس ، التي هي مشروعة في كل دين ، وموصى عليها في كل كتاب .

القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الاصيلين

رابعاً - القرآن مصدق لدين اليهود ودين النصارى الاصيلين ، فان ديننا هو عين دينهم ، مع مزيد بيان ، واصلاح يقتضيه ترقى البشر ، ومع ازالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين ، وماهي من الدين في شيء .

القرآن مصدق للكتب السماوية الاصلية

خامساً - القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ، ولكن وجد في هذه السورة ، في القصة اليوسفية ، ماهو مغاير للقصة في سفر التكوين الموجود عند اليهود والنصارى ، ما بين زيادة في السيرة عما هو في سفر التكوين ، ونقصان في السيرة عما هو في السفر المذكور ، ولا يهولكم ذلك ، فالقرآن نزل مهيمناً على كتب اليهود والنصارى ، ومصححاً لها ، فما حكاه القرآن كان صحيحاً ، وما نفاه كان ليس بصحيح ، وما سكت عنه كان غير مهم ، لأن التوراة دخلها مادخلها من التحريف والزيادة والنقصان ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ؟ ﴾ (٤٦ : ٥) ونحو ذلك مما يحتج به دعاة النصرانية ، على كون التوراة التي في أيديهم وأيادي اليهود ، هي ما أنزله الله تعالى على موسى ، لم يعرض لها تغيير ولا تحريف - فهو احتجاج ضعيف ، لأنه لا يجوز للانسان أن يأخذ من القرآن ما يوافق هواه ، ويرد ما يخالفه جداراً ، فالؤمن

يؤمن بالكتاب كله ، والكتاب يبين لنا أن عندهم التوراة ، وأن فيها حكم الله ، في القضية التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ ، وهي قضية رجم الزاني المحسن ، وقد صدق الله تعالى ، وهو أصدق الصادقين ، ولكنه يبين لنا مع ذلك في نفس الكتاب أنهم حرفوا الكلام عن مواضعه (٤ : ٤٥) ، وأن اليهود نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٤) ، وكذا النصارى نسوا حظاً مما ذكروا به (٥ : ١٥) ، وأن اليهود إنما اوتوا نصيباً من الكتاب (٣ : ٣٣) ، إذ أضاعوا منه نصيباً آخر ، وقد صدق الله أيضاً في ذلك كله ، فقلوه : ﴿ وعندهم التوراة ﴾ (٥ : ٤٦) لا يجب أن يعنى التوراة الصحيحة ، بل يجوز أن يراد بها التوراة ولو محرفة أو مزيدة أو ناقصة ، فكل ذلك يصدق عليه أنه توراة ، ولا تنس ههنا قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يَفُصِّلُ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مُخْتَلِفُونَ ﴾ (٢٧ : ٧٦)

شواهد من التوراة الحالية على ان فيها زيادة

هذا ولما خرجت أمة القرآن بالقرآن من الأمية ، وعرفوا تاريخ اهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ، ظهر لهم أن إخبار القرآن بذلك ، كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله ، إذ ظهر لهم أن اليهود كانوا فقدوا التوراة التي كتبها موسى ، ثم لم يجدوها ، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظ منها ممزوجاً بما ليس منها ، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك ، فإن فيها ما نصه : (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها ، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا ، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إليهم ، ليكون هناك شاهداً عليكم ، لأنني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة ، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم ، قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحري بعد موتي ؟ اجمعوا إلي شيوخ أسباطكم وعرفاءكم ، لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات ، وأشهد عليهم السماء والأرض ، لأنني عارف أنكم بعد موتي تفسدون ، وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم ، ويصييكم الشر في آخر الأيام ،

لأنكم تعملون الشر أمام الرب ، حتى تغيظوه بأعمال أيديكم - فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيدالي تمامه) (تث ٣١ : ٢٤ - ٣٠)
وهنا ذكر النشيد في (تث ٣٢) .

ثم قال الكاتب يسفر الثانية : (فأتى موسى ونطق بجميع كلمات هذا النشيد في مسامع الشعب ، هو ويشوع بن نون ، ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع بني اسرائيل بهذه الكلمات ، قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات ، التي أنا أشهد عليكم بها اليوم ، لكي توصوا بها أولادكم ، ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم ، بل هي حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التي أنتم عابرون الأردن اليها لتملكوها) (تث ٣٢ : ٤٤)
(٤٧) ، فلا شك ان هذا الخبر أي كتابة موسى للتوراة زائد على التوراة ليس منها .

وثانياً — خبر موت موسى ، وكونه لم يقم في اسرائيل نبي مثله بعد ، أي إلى وقت الكتابة ، فقد ورد في سفر الثانية (وصعد موسى عن عربات موآب الى جبل نبو ، الى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالي ، وأرض أفرايم ومنسى ، وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي ، والجنوب والدائرة بقعة اريحا مدينة النخل إلى صوغر ، وقال له الرب : هذه هي الأرض التي اقسمت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلاً : انسلك اعطيها قد أريتك اياها بعينيك ، ولكنتك إلى هناك لا تعبر ، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، ودفن في الجوّاء في أرض موآب ، مقابل بيت فنور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ، وكان موسى بن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته ، فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات موآب ، ثلاثين يوماً ، فكملة أيام بكاء مناحة موسى ، ويشوع بن نون كان قد

امتلاً روح حكمة ، إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو اسرائيل ، وعملوا كما أوصى الرب موسى ، ولم يقيم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى) (تث ٣٤ : ١ - ١٠) فهذا الخبر عن موت موسى معدود عندهم من التوراة ، وما هو في الحقيقة من التوراة المنزلة على موسى ، التي كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل هذا الخبر كتب كغيره بعده ، وقد ظهر تأويل علم موسى في بني اسرائيل ، فانهم فسدوا وازاغوا بعدم كما قال ، وأضاعوا التوراة التي كتبها ، ثم كتبوا غيرها ، ولا ندري عن أي شيء أخذوا ما كتبوه ، على أنه فقد أيضاً ، وقد قالوا : (إن « حلقيا » الكاهن وجد سفر شريعة الرب وسلمه إلى « شافان » الكاتب ، فجاء به شافان إلى الملك » (٢ أي ٣٤ : ١٤ - ١٦) ، قال صاحب دائرة المعارف العربية : « إنهم ادعوا أن هذا السفر الذي وجده حلقيا هو الذي كتبه موسى ، ولا دليل لهم على ذلك ، على أنهم أضاعوه أيضاً » ثم إن « عزرا » الكاهن الذي (هياً قلبه لطلب شريعة الرب ، والعمل بها ، وليعلم اسرائيل فريضة وقضاء) (عز ٧ : ١٠) قد كتب لهم الشريعة بأمر « أرتخشستا » ملك فارس ، الذي أذن لبني اسرائيل بالعودة إلى اورشليم .

التوراة الحالية كتبت بعد السبي

وعلى ذلك فجميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي ، كما كتب غيرها من أسفار العهد المتيق ، ويدل على ذلك كثرة الألفاظ البابلية فيها ، وقد اعترف علماء اللاهوت من النصارى بفقد توراة موسى ، مع أنها هي أصل دين النصارى وأساسه ؛ وقد قال صاحب كتاب « خلاصة الأدلة السنية » ، على صدق أصول الديانة المسيحية « ما نصه : « والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية في الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت . لا ب » بختنصر » الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث كان جارياً بين اليهود

١٤٦٤ الرد على القول بأن «عزرا» الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية آ (١١١)

هو أن الكتب المقدسة فقدت، وأن «عزرا» الكاتب ، الذي كان نبياً، جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة ، وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية « انتهى بحروفه .

الرد على القول بأن «عزرا» الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية

ولقد نعلم أنهم يجيبون من يسأل : من أين جمع «عزرا» الكاتب تلك الكتب، بعد فقدانها ، وإنما 'يجمع' الموجود؟ وعلى أي شيء اعتمد في اصلاح غلطها ؟ فيجيبونه قائلين : « إنه كتب ما كتب بالالهام ، فكان صواباً » !!

ولكننا نقول : هذا الالهام مما لا سبيل إلى إقامة البرهان عليه ، ولا هو مما يحتاج فيه إلى جمع ما في أيدي الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، ولو كتب «عزرا» بالالهام الصحيح ، لكتب شريعة موسى مجردة من الأخبار التاريخية، الزائدة على التوراة، ومنها ذكر كتابة موسى لها ، وأنه أمر بوضعها في جانب التابوت ، ومنها ذكر موته ودفنه وعدم بحج مثله ؛

وقد بين بعض علماء أوربا أن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة واحد فقط ، وليس من غرضنا الآن أن نطيل في ذلك ، وإنما نقول : إن الذي بين يدي القرآن ، الذي أتى القرآن مصداقاً له — هو ما أوحاه الله إلى موسى ليبلغه قومه بالقول والكتابة ، وأما سفر التكوين الذي عند القوم المشتمل على قصة يوسف ، فهو سفر تاريخ مشتمل على ما هو صحيح وغير صحيح.

(الله اكبر)

« وتفصيل كل شيء .. »

— ١ —

وقال الشريف المكي :

القرآن يذكر كل شيء مهم من امور الدين

يقول القرآن الكريم : وتفصيل كل شيء ، أي كل شيء يحتاج اليه في الدين ، لانه القانون الذي تستند اليه السنة والاجماع والقياس ، بعد أدلة العقل ، وهذا نظير ما قال عن موسى عليه السلام : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء ﴾ (١٤٤ : ٧) مع أن الألواح إنما هي ثلاثة أو اثنان ، جرياً على قول اليهود وعلى قول من قال : « أقل الجمع اثنان » ، وكانت من حجر ، وهل لا تسع إلا بعض الشيء ، ولكن المقصود من كلمة « وتفصيلاً لكل شيء » مهم يحتاج اليه في الدين ، وذلك الكلمات العشر وما اليها ، فالدين هو نقطة كثرها الناس ،

والشيء بالشيء يذكر ، فقد كان سألني بعض مبشري البروتستانت : كيف تقولون إن القرآن كان « تفصيل كل شيء » كما في آخر آية من سورة يوسف ، وكيف يقول القرآن إن ألواح موسى مكتوب فيها من كل شيء ، وفيها التفصيل لكل شيء ، مع أن تلك الألواح الحجرية الثلاثة على قولكم أو الاثنان على قولنا لا تسع كل شيء ، لا جملة ولا تفصيلاً ؟

فاجبته بقولي : المقصود كل شيء مهم يحتاج اليه في الدين ، ثم ماذا تقول فيما هو في آخر انجيل يوحنا « وأشياء أخر كثيرة ، صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة ، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » (يو ٢١ : ٢٥) ثم ماذا تقول فيما ينقل عن موسى أنه قال لبني اسرائيل : « وهوذا أنتم اليوم كنجوم

السما في الكثرة» (تث ١ : ١٠) ، وماذا تقول في قول سفر القضاة : « وكان المديانيون والعماليق وكل بني المشرق حاليين في الوادي ، كالجراد في الكثرة ، وجمالهم لا عدد لها ، كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة » (قض ٧ : ١٢) ، وماذا تقول فيما ينقل عن المسيح : « وأنت يا كفرناحوم المرتفعة إلى السماء » (مت ١١ : ٢٣) ، وماذا تقول فيما هو في سفر يوحنا « هو ذا العالم قد ذهب وراءه » أي وراء المسيح (يو ١٢ : ١٩) ، وما يقرب من قول يوحنا هنا قول جامعة سليمان : « لعمل كتب كثيرة لا نهاية » (جا ١٢ : ١٢) فما قاله مفسروكم في مثل هذه الأقوال نقوله في آيات القرآن الكريم ، مع أنك سمعت الجواب عن آيات القرآن الكريم ، ولله الحجة البالغة .

(احسنت)

(وهدى ورحمة ، لقوم يؤمنون)

— ١ —

وقال الشيخ القبرصي (١) :

القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة

القرآن في نفسه هدى ورحمة ، وشفاء وموعظة ، فمن اهتدى به واتعظ واشتفى ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء ، فهو دواء له بالفعل ، وإن لم يستعمله ، فهو دواء له بالقوة ، وكذلك الهدي ، فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به ، وبالقوة لمن لم يهتد به ، والهدى في الأصل مصدر هدى يهدي هدىً ، فمن لم يعمل بعلمه ، لم يكن مهتدياً ، كما في الأثر : (من ازداد علماً ولم يزد هدى . لم يزد من الله تعالى إلا بعداً) ، ولكن سمى هدى ، لأن من شأنه

(١) نسبة الى جزيرة قبرص الواقعة في البحر الابيض المتوسط غربي شاطئ البلاد السورية.

أن يهدي ، وههنا ثلاثة أشياء ؛ فاعل وقابل وآلة ، فالفاعل الهادي هو الله تعالى ،
والقابل هو قلب العبد ، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل ،
قاله سبحانه يهدي خلقه هدى ، كما يقال دلهم دلالة ، وأرشدكم إرشاداً ، وبين
لهم بياناً ، والمقصود أن المحل القابل هو قلب العبد المتقى المنيب إلى ربه ، الخائف
منه ، الذي يبتغي رضاه ، ويهرب من سخطه ، فاذا هداه الله بكتابه ، وصل أثر
فعله إلى محل قابل ، فيتأثر به ، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظه بالوجود
والفعل والقبول ، وإذا لم يكن المحل قابلاً ، وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه ، كما
يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فانه لا يؤثر فيه شيئاً ، بل لا يزيده
إلا ضعفاً وفساداً إلى فساد ، كما قال تعالى في حق الآية التي كان نزولها :
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) وقال : ﴿ وَنَزَّلُ مِنْ
الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾
(٨٢ : ١٧) ، فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ، ولعدم آلة الهدى
تارة ، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند
اجتماع هذه الثلاثة ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ،
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨ : ٢٣) فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم
مادة الاهتداء ، وهو إسماع قلوبهم ، وإفهامها ما ينفعها ، لعدم قبول المحل ، فإنه
لاخير فيه ، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بانخير الذي فيه ، والميل إليه والطلب له ،
والحرص عليه ، والقرح بالظفر به ، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك ،
فوصل الهدى إليها ووقع عليها ، كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض
الغليظة العالية ، التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فلا هي قابلة للماء ولا للبنات ،
فاللأ في نفسه رحمة وحياة ، ولكن ليس فيها قبول له ، ثم أكد هذا المعنى في

حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣: ٨) أي أنهم مع عدم قبولهم وقلة فهمهم ، فيهم آفة أخرى ، وهي الكبر والأعراض وفساد القصد ، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به ، فاللهدي في حق هؤلاء ، هدى بيان وإقامة حجة ، لاهدى توفيق وإرشاد ، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، وأما المؤمنون فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة ، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ، ولأولئك هدى بلا رحمة .

(وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

— ٢ —

وقال السيد الدمشقي :

القرآن هدى ورحمة لمن يتفهمه

يقول الله تعالى إن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لأنهم هم الذين يفهمونه فيعملون به فينتفعون ، وأما من لا يفهم كتاب الله ، فنفسه « حمارية » كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ، ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا ، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (٥: ٦٢) ، وكذلك الذين يولون مدبرين عن درس كلام الله القرآن ، هم في نظر الله تعالى حمير ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِ مُّعْرِضِينَ ؟ كَانَهُمْ « حُمُرٌ » مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٧٤ : ٤٩ - ٥١) ، وأما من يفقه الكتب السماوية كالقرآن مثلاً ، ولكنه لا يعمل حسب ما يعلم ، فهو عالم السوء ونفسه « كلبية » ، وفيه بقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ : إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ بَلِيتٌ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلِيتْ ﴾ (٧ : ١٧٤ و ١٧٥) .

الهدى هو الدعوة والدلالة والبيان

والهدى يكون بمعنى الدعوة والدلالة والبيان ، سواء وصل أم لم يصل ، وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر ، كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (١٧ : ٤١) ، ويكون بمعنى جعل الإنسان مهتدياً ، أي بمعنى الدلالة الموصلة ، وهذا يختص بالمؤمنين ، وهو المطلوب في قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١ : ٥) وبقوله في وصف الكتاب : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢ : ٢) ثم قوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (٥ : ٢) وقوله هنا في الآية : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقد شرع الله لنا ، أن نسأله ذلك في كل صلاة ؛ وهو أفضل الدعاء ، وأفضله وأجمعه لكل خير ، وكل أحد محتاج الى الدعاء به ، فلهذا أوجبه الله تعالى على العبد ، في كل صلاة .

(الله أكبر)

انتهى الجزء الثاني

وهنا وقف كاتب سر المؤتمر واختتم جلسات المؤتمر باسم السيد رئيس المؤتمر ثم اتى كلمة تناسب المقام ، شاكراً فيها المحاضرين الأكارم على ما بذلوه من مشقة وجهد في سبيل كتاب الله العظيم ، واعداداً إليهم بدعوتهم إلى عقد مؤتمرات تفسيرية لسور أخرى من القرآن الكريم ، ثم انفض عقد اجتماعهم وهم يهتفون بعضهم بعضاً على حسن الختام (١) .

(١) غير أننا نذكر بملء الأسف والأسى ان المنية قد عاجلت السيد كاتب السر ، اذ تغداه الله برحمته ورضوانه في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى لسنة ١٣٥٥ هـ الموافق لليوم السادس والعشرين من شهر تموز (يوليو) لسنة ١٩٣٦ م .

(ابن المؤلف)

قهرس الجزء الثاني من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع :

٧٤١ الفصل الخامس .

يوسف (ع) يعرف بحاله ويمهد للدعوة للتوحيد .

آ (٣٧) ﴿ قَالَ : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامُ تَرْزُقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ٧٤٢ يوسف يترجم حياته الشخصية والعلمية ٧٤٤ يوسف يفتن الفرصة فيعظ الفتية تمهيداً لدعوتها للتوحيد ٧٤٦ المراد « بالترك » الامتناع ، القوم الوثنيون الذين عناهم يوسف ٧٤٨ الأدوار التي سكت فيها يوسف والتي تكلم فيها ، معنى « تَرْزُقَانِهِ » ٧٤٩ معنى « ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » ، مصدر فضل يوسف ، ترك يوسف ملة الوثنيين بدون سبق مزاوله ٧٥٠ البيئة الوثنية التي عاش فيها يوسف وتغلبه عليها ٧٥١ الوثنيون لا يؤمنون بالله واحداً والماديون لا يؤمنون به موجوداً ٧٥٢ الأدلة على وجود الله تعالى ٧٥٣ عقيدة ابراهيم (ع) وأولاده وعقيدة العرب الجاهليين ٧٥٤ بيان سقوط أكثر بني اسرائيل في هاوية التوثن حسب التوراة التي هي اليوم بين أيديهم ٧٥٨ الإيمان بالله واليوم الآخر ٧٥٩ يوم الآخرة ٧٦٠ الإيمان بالآخرة والطوائف التي لا تعقد به ٧٦١ اتباع يوسف ملة آباءه بعد التفكير ٧٦٢ الفرق التي لا تؤمن بالله كما يجب له ٧٦٤ عقيدة الإيمان الكاملة بالله .

٧٦٥ يوسف (ع) يبدأ بالدعوة إلى التوحيد .

آ (٣٨) ﴿ وَاتَّبَعَتْ مِلَّةَ آبَائِي ، اِبْرَاهِيمَ وَاسْحَافَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ

الصحيفة والموضوع :

لا يشكرون ﴿ ٧٦٦ ﴾ ملة آباء يوسف ، أصول الدين الموجودة في كل ملة
 موحدة ٧٦٧ أركان الإيمان الستة ٧٦٨ العمل بأركان الإيمان شرط مهم في
 الدين ٧٦٩ عمن تلقى يوسف عقيدة التوحيد ؟ ٧٧١ يوسف ينهي عن الشرك
 بالله واسلوب القرآن في استعمال النفي بمعنى النهي ٧٧٢ دين التوحيد هو الدين
 الخالص الذي جاء به الأنبياء ٧٧٣ نصوص عقيدة التوحيد في الإنجيل ،
 الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ٧٧٤ التوحيد فضل من الله على عباده
 ٧٧٥ المؤمنون إخوة ٧٧٦ المرء بأعماله لا بنسبه ٧٧٨ الغمز من فتاة الفتيين ،
 أدب الأنبياء في الخطاب .

٧٨٠ يوسف (ع) يدعو الى التوحيد .

آ (٣٩) ﴿ يا صاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾
 ٧٨١ يوسف يهدي الفتيين بالحاجة والاقتناع ٧٧٢ الديانة الوثنية بمصر ٧٨٤
 واجب الواعظ نحو الموعوظين وأمثلة من القرآن ٧٨٦ واجب المصلح المرشد ،
 الدعوة الى الحق تكون بالدليل والبرهان ولا اكراه في الدين ٧٩١ انطباق
 الآية على معتقد البولسيين من النصارى ورد استدلالهم على معتقدهم في الوهية
 المسيح ٧٩٢ التثليث عند المصريين القدماء ٧٩٦ فرق النصارى الشهيرة ٧٩٩
 شرك المصريين القدماء في الربوبية والالهية ٨٠٠ وحدانيت الربوبية والوهية ،
 الدعوة الادبية ٨٠١ واجب الداعي التحقق مما يدعو اليه ٨٠٢ سبب اقتصار
 يوسف على دعوة صاحبي السجن الى التوحيد فقط ، مثل من يعبد عدة آلهة
 أو آلهة واحداً كمثل العبد المملوك لشركاء عبيدين أو لملك واحد ٨٠٣
 فكرة الدعوة والارشاد في القرآن ومراتبها ٨٠٤ صفات الداعي الى التوحيد
 ٨٠٥ اعتقاد المصريين القدماء بيوم الدين ٨٠٦ وجه عدم ذكر اليوم الآخر

الصحيفة والموضوع :

في التوراة ٨٠٧ عقيدة اليهود الفريسيين والصدوقيين يوم الدين ، ضعة
عقيدة اليهود يوم الدين كانت سبباً في كون أكثر معجزات المسيح (ع)
تدل على هذه العقيدة ٨٠٨ وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود
القيامة ٨٠٠ التعليق على قوله « أم الله الواحد » ، التعليق على قوله « القهار ».

٨١١ يوسف (ع) يتابع الدعوة للتوحيد .

آ (٤٠) ﴿ ماتعبدون من دونه إلا أسماء ، سميتوها أتم وأبأؤكم ، ما أنزل
الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين
القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ٨١٢ اعتناق المصريين الاقباط
النصرانية ٨١٣ وجوب الجهر بالدعوة الدينية ، الامور الداعية لعبادة المعبود
٨١٤ العبادة ضرب من الخضوع لعظمة المعبود وسلطته ٨١٥ ليس في المخلوقات
شيء من اللاهوت ٨١٦ وجوب علم امور الدين علماً استقلالياً استدلالياً ٨١٧
اصطلاحات القرآن اللفظية ، السلطان والحق وتعظيم شأنها ٨٢٠ الدين مبني
على الحجة والعلم ، المسميات لا تتبدل بتبدل الاسماء كما أن العجل والشمس
والتاسيح لا تصير آلهة بتبديل اسمائها ٨٢١ سكوت صاحبي السجن عن
الجواب حكم صامت بصحة كلام يوسف (ع) ٨٢٢ الاستدلال مطلوب في
الدين ٨٢٣ الحكم الشرعي والحكم الفعلي ٨٢٤ وحدة الالهية ووحدة
الربوبية ٨٢٥ الدين والعلم اخوان ٨٢٦ يوسف بكرر الغمز من قناة صاحبيه
في السجن ٨٢٧ عظة يوسف للفتيين كانت صرخة في واد ، وجوب الجهر
بعقيدة التوحيد في كل زمان ومكان وحال ٨٢٨ حكم القرآن بالاحكام الردئة
على الاكثرية الساحقة من الناس ٨٣٠ حكم القرآن بالاحكام الحسنة على القليل
من الناس .

الصحيفة والموضوع :

٨٣١ يوسف يعبر رؤيا الفتيين بالجزم .

آ (٤١) ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرأ ، وأما الآخر فيصلب ، فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ ٨٣٢ .
يوسف يعبر رؤيا الفتيين بصراحة ٨٣٣ اصغاء الفتيين الى وعظ يوسف ٨٣٤ .
استبشار يوسف ببراءة رئيس السقاة ، الحجر الأول في بناء مجد يوسف ،
حال الفتيين حين سماعها تعبير رؤييهما ٨٣٥ النواة والشجرة والثمرة ، تسمية الملك رباً عند المصريين ، لماذا عبر يوسف رؤيا الخباز بصراحة ٨٣٦ تحقق وقوع تعبير رؤيا الفتيين ٨٣٧ خباز فرعون يوسف وخباز فرعون موسى ، من عادة قدماء المصريين خلق شعر رؤوسهم ولحاهم ٨٣٨ الصلب عرفاً هو الامانة على الصليب ، معنى الصلب في القرآن .

٨٣٩ استشفاع يوسف بالناجي من الفتيين .

آ (٤٢) ﴿ وقال الذي ظن أنه ناج منها : اذكرني عند ربك ، فأنساء الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين ﴾ ٨٤١ نسيان الفقى الناجي ذكر يوسف للملك وأسبابه ٨٤٣ مدة بقاء يوسف في السجن ، التوسل وأنواعه والجائز منها شرعاً ٨٤٤ الرد على من انتقد توسل يوسف برئيس السقاة لدى ملك مصر ، التوكل ٨٤٥ تحقق رجاء يوسف من الشرايى ٨٤٦ الاستعانة بالاسباب في قضاء الحاجة ٨٤٧ هل قام الشرايى بما طلبه منه يوسف فور خروجه من السجن ٨٤٨ أسباب عدم اخبار يوسف أباه بسجنه ٨٥٠ .
فصول مأساة يوسف (ع) ، على من يريد انتقاد أحد أن يتمهل حتى تستوفي البيئة نصابها ٨٥١ تحليل تعبيره بكلمة « ظن » في الآية ، اطلاق لفظ « الرب » .

الصحيفة والموضوع .:

مضافاً للعاقل على غير الله تعالى ٨٥٣ علاقة الشر بالله تعالى ٨٥٣ معنى قوله « ذكر ربه » ٨٥٤ سبب مكث يوسف في السجن بضع سنين ، التحقيق في معنى « البضع » وفي مدة مكث يوسف في السجن .

٨٥٦ الفصل السادس — حلما الملك .

آ (٤٣) * ... وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، يأبها الملاء ، أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون * ٨٥٧ الملك الريان يقص حلمه على الملاء طالباً تعبيرها له ٨٥٨ من هو الملك في قوله : وقال الملك .. ٨٥٩ دولة الهكسوس في مصر ، تعبير القرآن بلفظ « ملك » ولفظ « فرعون » لحكام مصر الأقدمين ٨٦٠ غلط المؤرخين والمفسرين في تسميتهم « ملك مصر » في زمن يوسف باسم « فرعون » ٨٦١ عدد سبعة في تاريخ يوسف ، احتياج الملوك للعلماء ٨٦٢ الملاء جماعة من رجال البلاط والعلماء ، يغلب على الحلم أن يرى ولا يسمع ٨٦٣ الفتوى ، تعبير الرؤيا ٨٦٥ طعن الملاء في رؤيا الملك على اعتبار أنها غير صحيحة ٨٦٦ جهل الملاء بتأويل رؤيا الملك على اعتبار أنها صحيحة ٨٦٧ كذب الملاء وصدقهم في جوابهم للملك ، جواب الملاء للملك يدل على جهلهم تعبير الرواى ، معنى « الضغث » ٨٦٨ الحنم والحنم ، احتمال تجاهل الملاء تعبير رؤيا الملك وسببه .

٨٧٠ وعند جهينة « يوسف » الخبر اليقين أو تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه أن يذهب إليه ليؤول له حلمي الملك .

آ (٤٥) * وقال الذي نجا منها ، وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون * ٨٧١ تذكر الفتى الناجي يوسف وطلبه الذهاب إليه ليستعبره

الصحيحة والموضوع :

حلمي الملك ٨٧٢ ثمرة الاحسان ، الحكمة من صرف الله الملاء عن تأويل رؤيا الملك ٨٧٣ التداير الآلهية وجهل الملاء ، الفقى الناجي يتحدى الملاء .

٨٧٤ استعمار رؤيا الملك من يوسف .

آ (٤٦) * ... يوسف ، أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلني أرجع الى الناس لعلهم يعلمون * الفقى الناجي يقابل يوسف ويمتدحه ويستعبره روبا الملك ٨٧٦ الشرايى ينبه يوسف الى سابق صحبته له بدعوته اياه باسمه ولقبه ، كرم اخلاق يوسف بعدم معاتبته الشرايى لعدم قيامه بما كان طلبه منه ، القاب يوسف ٨٧٧ إخفاء رئيس السقاة اسم الملك عن يوسف ٨٧٨ معنى الافتاء ، معنى الصديق ٨٧٩ وجوب التزام الأدب عند مخاطبة النبي ﷺ ٨٨٠ الايجاز في القرآن .

٨٨٣ تأويل يوسف لرؤيا الملك .

آ (٤٧) * قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله ، إلا قليلاً مما تأكلون * ٨٨٣ تعبير يوسف لرؤيا الملك يبسط التدبير اللازم ٨٨٤ سرعة إجابة يوسف بتعبير رؤيى الملك دون قيد ولا شرط ٨٨٥ تدبير يوسف الاقتصادي لأهل مصر ، ملكية الحاصلات في مصر ، الخبر في معنى الأمر والانشاء في قوله « تزرعون » ٨٨٧ ادخار الحنطة ، السنين والأعوام ٨٨٨ أقسام الأحلام الصحيحة ، معنى الدأب .

٨٨٩ تنمة تعبير يوسف لرؤيا الملك .

آ (٤٨) * ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ، يأكلن ماقدمتم لهن ، إلا قليلاً مما تحصنون

الصحيفة والموضوع :

٨٩٢ يوسف يبشر بانهاء أزمة رؤيا الملك بالبركة والخصب .

آ (٤٩) * ثم يأتي من بعد ذلك عام ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون * ، عزو اخبار يوسف بحسن عاقبة الازمة الى ذكائه ٨٩٣ عناية قدماء المصريين بالحدائق والبساتين ، بشرى يوسف للمصريين بحسن خاتمة الرؤيا ٨٩٤ لطف الله بالمصريين عن يد يوسف ، إغفال يوسف تأكيده عند الملك في هذه المرة ٨٩٥ تدبير يوسف أزمة المصريين بنفسه ، مقابلة بين « الملاء » الجاهلاء وبين يوسف العالم ، أين فوطيفار في هذه الأزمة ٨٩٦ الرؤيا على ما عبرت أولاً .

٨٩٦ الفصل السابع .

القصر يطلب يوسف (ع)

آ (٥٠) * ... وقال الملك : ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ... قال : ارجع الى ربك ، فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي يكيدهن علم * ٨٩٨ الملك يطلب يوسف فيرفض الخروج من السجن قبل تبرئة ذمته ٩٠١ البراءة أولاً ثم الخروج ثانياً ، تأدب يوسف بعدم ذكر اسم امرأة العزيز في قصة تبرئته ، سوآل يحقق البراءة ٩٠٢ هوية الرسول الذي ذهب الى يوسف ، تسمية « الملك » « رباً » ، العلماء اغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك ناغنياء عن العلماء بالملك ، حجر اصاب صيدى ٩٠٣ الاجتهاد واجب في نفي التهم ، ديموقراطية حكم الملك الريان ٩٠٤ سبب نزول الملك الريان عن رغبة يوسف بعدم خروجه من السجن قبل اجراء التحقيق في التهمة الموجهة اليه ٩٠٥ دواعي عدم خروج يوسف من السجن ٩٠٦ كيف لم يخش يوسف

الصحيفة والموضوع :

من النسوة أن يكتمن حقيقة أمره ، كيف ينسب يوسف الكيد للنسوة ثم يطلب سؤاها عن قصة المراودة ولم يقع منها شيء من ذلك ٩٠٧ لم يقصد يوسف التشهير بامرأة العزيز في طلبه التحقيق بل ظهور براءته ، سعة صدر الملك الريان ٩٠٨ قذف البريء يعود عليه بالخير عندما تظهر براءته ، على الباغي تدور الدوائر ٩٠٩ المراد بالكيد .

٩١٠ اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف .

آ (٥١) ﴿ ... قال ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ — قلن : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ، — قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ﴾ ٩١١ استنطاق النسوة عن قصة المراودة مجتمعات أو منفردات ثم اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ٩١٢ نسبة المراودة الى جميع النسوة والمراد منه واحدة ، شهادة النسوة ليوسف بالعمق والطهارة ٩١٣ حال زليخا عند اعترافها بمراودة يوسف عن نفسه ٩١٤ دواعي اعتراف زليخا بوقوع المراودة منها ٩١٦ معنى حصحص ، الاجماع على سلامة شرف يوسف ٩١٨ تحقق صرف الكيد عن يوسف ٩١٩ الاعتراف بالخطأ فضيلة ، انصياع الرسول ليوسف بمراجعة الملك ، عاطفة المرأة تملك عقلها وعقل الرجل يملك عاطفته ٩٢٠ داعي اندفاع زليخا للاعتراف بفعلتها والدفاع عن شرف يوسف .

٩٢٣- تمة اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف .

آ (٥٢) ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ ٩٢٤ توبة زليخا ، معنى بالغيب ومحله اللغوي ٩٢٥ الكيد المذموم والكيد

الصحيفة والموضوع :

الممدوح ، نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم .. الخ الآية الى زليخا وليس الى يوسف .

٩٢٧ ختام اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف ثم طلبها الرحمة والغفران .
 آ (٥٣) ﴿ وما أبريء نفسي ، إن النفس لأماره بالسوء ، إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ﴾ ٩٢٩ إطلاق لفظة « ما » على العاقل وغيره اذا اريد بها الصفة ، فضائل الرحمة ومزاياها ٩٣٠ رحمة الله الخاصة ورحمته العامة ، أقوال في توبة زليخا ٩٣١ نهاية سيرة العزيز وامراته ٩٣٢ العار دائم والسبة خالدة ، زليخا تعد مجرمة عزمًا وليست مجرمة فعلاً ٩٣٣ مؤثرات الحب في النفس والأخلاق ٩٣٤ زليخا سهلت ليوسف الخروج من السجن شريفاً باعترافها ، صدى جواب النسوة وامرأة العزيز في الاوساط ٩٣٥ عبرة وذكرى من حادثة العزيز وامراته .

٩٣٨ الباب الرابع .

الفصل الاول .

من ظلمة السجن الى نور الحرية أو خروج يوسف من السجن بريئاً .
 آ (٥٤) ﴿ وقال الملك : « ائتوني به أستخلصه لنفسي » فلما كلمه ، قال : « إنك اليوم لدينا مكين أمين . » ﴾ ٩٤٠ طلب الملك ليوسف ثانية بعد رجوع المندوب من التحقيق ٩٤١ عدد جيئات الرسول السجن ٩٤٢ دواعي حب الملك ليوسف ثم استخلاصه إياه لنفسه ، هندام يوسف حينما استعد لمقابلة الملك ٩٤٣ إكبار الملك ليوسف عندما كلمه وسمع كلامه ثم تقريبه منه ، عمر يوسف عند مثوله بين يدي الملك ٩٤٤ تفاهم يوسف مع الملك في اللغة .

الصحيفة والموضوع :

دعاء يوسف لأهل السجن الذي كان فيه ، العبرة في هذه الآية وما بعدها ..

٩٤٥ يوسف وزير مالية .

آ (٥٥) ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم ﴾ ، مؤهلات .
يوسف لترشيح نفسه لوزارة مالية مصر ٩٤٨ عمل يوسف في سني الخصب .
والجذب في مصر ٩٤٩ الشدائد علمت يوسف ادارة شئون مصر المالية
والاقتصادية ٩٥٢ عزيز مصر وخديويها ٩٥٣ حادثة يوسف في التاريخ ٩٥٥-
الدين الاسلامي والسعي في الدنيا ٧٥٧ دحض اعتراض بعض رجال الدين على .
طلب يوسف وزارة المال ٩٦١ حكم طلب يوسف في الدين الاسلامي .
والتصوف في الاسلام ٩٦٤ التهديد والبراءة من الدنيا في الشريعة المسيحية
٩٦٥ انتقاد يوسف على طلبه وزارة المالية ليس مبنياً على التعاليم الاسلامية ٩٦٨-
حدود تعاون المسلم مع غير المسلم ، خضوع المسلم لغير المسلم ٩٦٩ موالاة المؤمن .
لغير المؤمن ٩٧٢ ارتقاء يوسف لوزارة المالية كان بإرادة الله وقدرته .

٩٧٣ تمكين يوسف عليه السلام

آ (٥٦) ﴿ ... وكذلك مكنا ليوف في الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، .
نصيب ترحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ ٩٧٤ تمكين يوسف
الخاص والعام ٩٧٥ تقدير الملوك الأقدمين للناس بحسب مواهبهم ٩٧٦ تزكية .
انتصار يوسف ، كيف أن اخبار يوسف لم تصل لأبيه ٩٧٧ الانتصارات
التي فاز بها يوسف ، اطلاق يد يوسف في مصر ٩٧٨ تمكين يوسف في مصر
سبعين عاماً ، مصر في أيام يوسف وبعده ٩٧٩ رحمة الله واحسانه يصيدان جميع .
من يستحقها ٩٨٠ أجر المحسنين في الدنيا ، إحسان يوسف الذي استحق .

الصحيفة والموضوع :

عليه التمكين والتبوأ في الارض ، مبدأ تبادل الاحسان ٩٨١ أجر المحسنين
في الدنيا والآخرة ، صلة الملك الريان ييوسف .

٩٨٣ أجر الدنيا وأجر الآخرة

آ (٥٧) * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون * ٩٨٣ الآخرة
لغة واصطلاحاً ٩٨٤ ثواب الجنة جسماني وروحاني ، حظ المؤمن في الآخرة
أرقى منه في الدنيا ٩٨٥ أجر الآخرة مادي وروحي ، أجر يوسف في
الآخرة أجل مما كان له في الدنيا ٩٨٦ الاخلاص يكون بالايان والعمل
الصالح ٩٨٧ يوسف النبي والرسول ، الجزاء يكون على الايمان والعمل
مماً ٩٨٨ عقيدة الصلب والفداء ٩٨٩ رد دعوى زواج يوسف بزيخا بعد
موت زوجها فوطيفار .

٩٩١ الفصل الثاني — سفرة اخوة يوسف الاولى لمصر

آ (٥٨) * ... وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون *
٩٩٢ مجيء أخوة يوسف لمصر للامتيار ٩٩٤ وصف منظر המתارين من
الناس في مصر في زمن يوسف ٩٩٥ رقب يوسف مجيء اخوته ،
يوسف يشرع في تحقيق هدفه ، ابتداء يوم يوسف ٩٩٦ حال اخوة يوسف
بعد ما شردوه ، مجيء اخوة يوسف لمصر كان من أكبر المساعدات لتحقيق
آماله ، الصلة الاقتصادية بين مصر وفلسطين ، اسباب عدم معرفة اخوة
يوسف له عندما قابلوه ٩٩٧ معنى نكر وأنكر ٩٩٨ سبب عدم اظهار
يوسف نفسه لآخوته ٩٩٩ داعي مجيء اخوة يوسف اليه رأساً .

٩٩٩ يوسف يجهز اخوته بالميرة ويطلب منهم الاتيان بينيامين

آ (٥٩) * ... ولما جهزهم بجهازهم ، قال : أثبتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا

الصحيفة والموضوع :

ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴿ ١٠٠٠ جود يوسف على اخوته
وبعض الامثلة المشابهة في التاريخ ١٠٠٢ معنى « الجواز » ١٠٠٣ اشارة
رمزية من يوسف لأبيه يعقوب عليها السلام ١٠٠٥ وجه قبول اخوة
يوسف منة أخيه ، سلسلة كرم يوسف مع اخوته ١٠٠٦ دواعي طلب يوسف
لبنيامين ، منشأ زيادة محبة يوسف لبنيامين ١٠٠٧ لماذا لم يذكر يوسف أباه
بشيء ١٠٠٨ سلوك يوسف مع اخوته على قاعدة المثل القائل اذا لم تغلب
فاخلب ، كيف يمن يوسف على اخوته بما جاد به عليهم ١٠٠٩ محاولة يوسف
اغراء وتحذير اخوته لجلب بنيامين معهم ، محاولة يوسف رجوع اخوته
بنيامين عن طريق الترغيب والتجيب ١٠١٠ معنى الايفاء ووجه امتنان
يوسف على اخوته .

١٠١٣ يوسف يطلب بنيامين بالقهر

آ (٦٠) ﴿ فان لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ، ولا تقربون ﴾ ،
١٠١٣ يوسف ينذر اخوته اذا لم يأتوه ببنيامين

١٠١٥ وعد الاخوة باحضار بنيامين لمصر

آ (٦١) ﴿ قالوا : ... سنراود عنه أباه ، وإنا لفاعلون ﴾ ، وعد الاخوة
باحضار بنيامين معهم لمصر عند موافقة أبيهم .

١٠١٧ يوسف يأمر باعادة ثمن الميرة لاخوته لضمان مجيء بنيامين

آ (٦٢) ﴿ وقال لفتيانته : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا
انقلبوا إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون ﴾ ١٠١٨ سعي يوسف بمجيء بنيامين
بالقول والفعل ، المراد من حكمة « الفتيان » ، ماذا أراد يوسف برد بضاعة

الصحيفة والموضوع :

اخوته اليهم ١٠١٩ كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية ،
 ١٠٢٠ معنى « الرحال » ١٠٢١ مقصد يوسف مما قاله لاختوته ومما فعله
 معهم ، لماذا يخبر يوسف اخوته بجلية الواقع في سفرتهم الاولى ١٠٢٢
 كنه البضاعة التي اشترى بها الاخوة ميرتهم .

١٠٢٤ الاخوة يطلبون بنيامين من أبيه

آ (٦٣) ﴿ ... فلما رجعوا إلى أبيهم ، قالوا : يا أبانا ، منع من الكيل... ،
 فأرسل معنا أخانا ، نكتل ، وإنا له لحافظون ﴾ ١٠٢٥ إخوة يوسف بين
 مطرقتين ، فكرة سفر بنيامين ١٠٢٦ يعقوب يفكر فيما عمله العزيز
 « يوسف » مع أولاده

١٠٢٦ الشك يخامر نفس يعقوب

آ (٦٤) ﴿ قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ ! ؟ !
 فآله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ ١٠٢٧ جواب يعقوب لأولاده
 جواباً سلبياً مندداً بهم وبوعودهم ١٠٢٩ موقف يعقوب مع أبنائه في
 طلبهم بنيامين ١٠٣٠ عمر بنيامين عندما طلبه أخوته من أبيهم ١٠٣١
 الفائدة من قص القرآن المقاولات بين يعقوب وأولاده .

١٠٣٢ أولى الأمور بالنجاح التكرار واللاحاح أو اتخاذ أبناء يعقوب رد بضاعتهم
 اليهم حجة لللاحاح في طلب أخيه بنيامين

آ (٦٥) ﴿ ... ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا :
 يا أبانا ، ما نبغي ؟ ! هذه بضاعتنا ردت إلينا ... وغير أهلنا ، ونحفظ أخانا ،
 ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ﴾ ١٠٣٤ « ما » استغماية في قوله

الصحيفة والموضوع :

« مانبغي » ١٠٣٥ اغراء الاخوة لأبيهم بأربعة أشياء ، نجاح حيلة يوسف .
 في طلبه بنيامين ، معنى « الميرة » ، معنى « البعير » ١٠٣٦ معنى « المتاع » -
 ١٠٣٦ قلب المؤمن دليله أو اشتراط يعقوب على أولاده لارسال بنيامين معهم أن
 يماهدوه على ارجاعه .

آ (٦٦) ﴿ ... قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأقني به ، إلا
 أن يحاط بكم ... فلما أتوه موثقهم ، قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ ١٠٣٩
 الاحتياط والتحفظ لازمان بجانب المقدر ، وجوه سماح يعقوب بانقضاء
 بنيامين مع اخوته ١٠٤٠ الحالف بالله حالف على حساب الله ، حسن
 يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه ، وجوب التعلم من دروس الماضي .
 ١٠٤١ معنى الاحاطة بالذي ١٠٤٢ وعد رأوين ويهوذا لأبيهما باعادة
 بنيامين اليه .

١٠٤٣ نصح يعقوب لأولاده عند دخولهم مصر في المرة الثانية

آ (٦٧) ﴿ ... وقال : يا بني ، لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من
 أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه
 توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ ١٠٤٤ استعداد أبناء يعقوب
 الاخذ عشر للسفر ونصح أبيهم لهم ١٠٤٧ سر التوكيل ؛ وجوب الأخذ
 بأسباب التحرز والحيلة مع التوكل ١٠٤٨ الأخذ بأسباب الحيلة والسلامة
 فرض ديني ، أسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين هو موقف كل منهم
 من القضاء والقدر ١٠٥٠ التوكل والآيات التي تحض على العمل الدنيوي
 والأخروي ١٠٥٢ المين الشريرة وعادات الاعم في دفع أذاها ١٠٥٣

الصحيفة والموضوع:

أبواب الدخول الى مصر ١٠٥٤ الحذر لا يغني من القدر ، هل للعبد إرادة واختيار ١٠٥٥ قول الخوارج : لا حكم إلا لله ١٠٥٦ نظام الطبيعة وأحكام سيرها تعين على حل مشكلة القدر .

١٠٥٦ الفصل الثالث — سفرة اخوة يوسف الثانية لمصر

آ (٦٨) * ... ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغني عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ؛ وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون *

١٠٥٩ اجتماع شمل الشقيقين .

آ (٦٩) * ولما دخلوا على يوسف ، آوى اليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * ١٠٦٠ إخوة يوسف الأحد عشر بين يدي يوسف ١٠٦٢ يوسف يعرف أخاه بنيامين به ويؤاويه اليه .

١٠٦٤ بدء المعركة بين يوسف واخوته — التسريق .

آ (٧٠) * ... فلما جهزهم بجهازهم ، جمل السقاية في رحل أخيه ... ثم أذن مؤذن : أيتها العير ، إنكم لسارقون * ١٠٦٥ المحادثة التي يظن أنها جرت بين يوسف وأخيه بنيامين قبل تسريقه ١٠٦٨ هل كانت العير حميراً أم إبلًا ١٠٧٠ المراد « بالمؤذن » ، بدء المعركة بين يوسف واخوته بإيقاعهم في مأزق خرج مع أبيهم ١٠٧١ اتفاق يوسف مع بنيامين على تسريقه ، مبررات قبول بنيامين التسريق ١٠٧٣ الرد على من قال إن يوسف

قال لبنيامين أنا أخوك اخوة صداقة وحب ١٠٧٤ كيف جوز يوسف لنفسه أن يعمل على اخوته حيلة تسريق بنيامين ليأخذه بها ١٠٧٨ شبه

الصحيفة والموضوع :

حادثة يوسف هذه بمحادثتي العبد الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام.

١٠٧٨ استفهام اخوة يوسف واستهجانهم نسبة السرقة اليهم .

آ (٧١) ﴿ قالوا : — وأقبلوا عليهم — ماذا تفقدون ؟ ﴾

١٠٧٩ الصواع المفقود .

آ (٧٢) ﴿ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به ر

١٠٨٠ اخوة يوسف يردون التهمة .

آ (٧٣) ﴿ قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين ﴾

١٠٨٢ استدراج الاخوة للحكم على أنفسهم بنفسهم بجزاء سارق الصواع .

آ (٧٤) ﴿ قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾

١٠٨٣ الجزاء من جنس العمل .

آ (٧٥) ﴿ قالوا : جزاؤه من وجد في رحله ، فهو جزاؤه ، كذلك

نجزى الظالمين ... ﴾ ١٠٨٤ جزاء السارق في شريعة آل يعقوب أخذه

كعبد ١٠٨٥ اقامة الظاهر مقام المضمّر في قوله « جزاؤه » ، جزاء السارق

في شتى الشرائع ١٠٨٦ الاسترقاق في شتى الشرائع ، كيف جوز يوسف

لنفسه أن يجازي اخوته بشريعتهم .

١٠٨٨ الوقوع في الفخ أو ثبوت السرقة .

آ (٧٦) ﴿ ... فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء

أخيه ، — كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، إلا

الصحيفة والموضوع :

ان يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم ﴿ ١٠٨٩ ﴾ كيد يوسف لاختوته بوحي من الله عقاباً لهم في الدنيا ﴿ ١٠٩١ ﴾ كيد يوسف يجوز أن يكون كيداً تكوينياً راجعاً للقضاء والقدر ، كيد يوسف لاختوته كان حيث اقتضاه الحال بينه وبينهم أو حيث اختاره لنفسه ﴿ ١٠٩٢ ﴾ لَمْ يَلَمْ يَسْرِقْ يوسف أحد اخوته غير بنيامين ﴿ ١٠٩٣ ﴾ يوسف يحتال على اخوته بالحسنى لشعوره بالضعف نحوهم ، أين جرى تفتيش الأوعية ﴿ ١٠٩٥ ﴾ تذكير ضمير « الصواع » وتأنيثه ، كيف جاز ليوسف أن يعمل هذه الحيلة على اخوته ، الرأي واتباع المصلحة مصدر من مصادر الشريعة ﴿ ١٠٩٦ ﴾ علم الله فوق كل علم في الكيف والكم ﴿ ١٠٩٧ ﴾ علم الله فوق كل علم توصل ويتوصل اليه الانسان ﴿ ١٠٩٨ ﴾ كيف رضي بنيامين بتطبيق حيلة اخيه يوسف عليه ، ماهية الكيد في هذه الحادثة وأنواعه ﴿ ١١٠٠ ﴾ معاني « الدين » ﴿ ١١٠١ ﴾ جزاء السارق في حادثة بنيامين كان حسب شريعة ابراهيم ﴿ ١١٠٢ ﴾ الدرجات وأنواعها واطلاقها ﴿ ١١٠٣ ﴾ رفع الله درجات من يشاء من عباده لا ينافي ما وهبه لهم من الاختيار والاستقلال ﴿ ١١٠٥ ﴾ جواز كون ما عمله يوسف عقاباً لاختوته في الدنيا كان موحى به من الله تعالى .

١١٠٦ الطعن بيوسف وشقيقه :

آ (٨٧) ﴿ ... قالوا : « إن يسرف فقد سرق أخ له من قبل » فأسرهما يوسف في نفسه ، ولم يبدها لهم ، قل : « أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون » ﴾ ﴿ ١١٠٧ ﴾ اتهام يوسف بالسرقه وحقيقة هذه السرقه ﴿ ١١١٠ ﴾ إعراض يوسف عن اللغو ﴿ ١١١١ ﴾ تذكر الاخوة ليوسف بالسوء ، ظن

الصحيفة والموضوع :

الاخوة بأن بنيامين بريء من السرقة ، ثبات الاخوة على كره يوسف
١١١٣ اختصار الاخوة الطعن بيوسف ١١١٣ أوجه احتمال قسوله
« فأسرها... » ، مثال لحلم يوسف .

١١١٥ استعطاف الاخوة :

آ (٧٨) ﴿ ... قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا
مكانه ، إنا نراك من المحسنين ﴾ ١١١٦ استعطاف الاخوة ليوسف باطلاق
سراح بنيامين وأخذ واحد منهم عوضاً عنه ١١١٧ أي الاخوة قام
بالاستعطاف ، طلب الاخوة ترك الجاني وأخذ البريء .

١١١٨ يوسف يرد استعطاف اخوته ويصر على أخذ سارق الصواع .

آ (٧٩) ﴿ قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا
لظالمون ﴾ ١١١٩ رفض يوسف ترك بنيامين أو أخذ غيره من الاخوة
١١٢٠ يوسف بين عاملي فرح وكدر ١١٢١ لا محاباة في أحكام الشرع ،
لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، يوسف يصر على تنفيذ الحكم الذي نطق به
اخوته ١١٢٢ تكرار جملة « معاذ الله » في القرآن ، ظاهر قوله « إنا إذا
لظالمون » وباطنه ١١٢٣ التورية في قوله « متاعنا » ١١٢٤ برقيتنا شفرة من
يوسف لأبيه .

١١٢٤ اليأس والمفاوضة والمناجاة .

آ (٨٠) ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ..؟ قال كبيرهم : ألم تعلموا
أن أباًكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ،
فلن أبرح الارض حتى يأذن لي أبي ، أو بحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين ﴾

الصحيفة والموضوع :

١١٢٧ يأس الاخوة من تخليص بنيامين وتفاوضهم وأقوال أخيهما الأكبر
١١٢٩ معنى « النجى » ١١٣٠ مجلس شورى الاخوة ١١٣١ إقرار الاخوة
على التفريط بيوسف سابقاً ، تعريض رأوين باخوته بعدم اشتراكه في
التفريط بيوسف سابقاً .

١١٣٢ نتيجة المفاوضة .

آ (٨١) * ارجعوا الى آيكم ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما
شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين * ١١٣٣ جهل البشر وفهم
الانبياء بالغيب ، اقامة الحجة على النصارى بعدم الوهية المسيح .

١١٣٥ شهود الحال على جريمة التسريق .

آ (٨٢) * وأسأل القرية التي كنا فيها ، والمير التي اقبلنا فيها ، وإننا
لصادقون * ١١٣٦ التحقيق من القرية والمير ، المراد من القرية أهلها
١١٣٧ حال يعقوب وأسرته أنشد .

١١٣٨ تكذيب فصبر فترجي .

آ (٨٣) * ... قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى
الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم * ١١٣٩ حال يعقوب
عندما بلغه نبأ تلصص واستعباد بنيامين ١١٤١ هاتف من يعقوب ١١٤٢
الايحار والحذف في القرآن ١١٤٣ استغشاش يعقوب لأولاده في نبأ
بنيامين ، يعقوب بين الابتسام والانسجام ، تشكك يعقوب في حادثتي يوسف
وبنيامين ١١٤٤ صبر يعقوب ، موقف يعقوب واحد في حالتي كذب
وصدق أولاده ، خوف يعقوب من أولاده .

الصحيفة والموضوع :

١١٤٥ دمة على يوسف .

آ (٨٤) ﴿ وتولى عنهم ، وقال : يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم ﴾ ١١٤٦ تجدد حزن يعقوب ١١٤٨ أخلاق يعقوب .
والنبيين عليهم السلام ١١٤٩ لماذا اختص يعقوب ولده يوسف بالحزن
١١٥٠ تكرار أسف يعقوب على ابنه يوسف ١١٥١ الحاجة التي في نفس
يعقوب ١١٥٢ انما الصبر عند الصدمة الاولى ، جرح على جرح ١١٥٣
أوجه أسف وحزن يعقوب على يوسف ، المراد من العين في قوله « وابيضت
عيناه » ١١٥٤ معنى الكظيم ، مقابلة بين حزن يعقوب وحزن ارميا ١١٥٥
سبب اقتصار أسف يعقوب على يوسف ، الرسل بشر يعترهم ما يعترى .
البشر ١١٥٦ لفظة « يا أسفا » مسجلة الى يعقوب فقط في القرآن ، التجانس .
بين لفظي « الاسف » و « يوسف » ١١٥٧ الرد على من يقول إن حب
يعقوب لابنه يوسف لا يليق الا بمن كان غافلاً عن الله ١١٥٨ ايضاض .
العينين امتلائهما بالدمع من أثر الحزن ١١٦٠ تفسير ايضاض العينين .
بمعناه المجازي .

١١٦١ اشفاق ولصح

آ (٨٥) ﴿ قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف ، حتى تكون حرضاً أو تكون
من الهالكين ﴾ ١١٦٢ أبناء يعقوب يحاولون تهوين الخطب على أبيهم
وتسرية همومه وأحزانه مع شيء من اللوم ١١٦٤ « تالله » كلمة صحيحة .
اريد بها باطل ، الحرض ومرادفاته . استعمال كلمة الهلاك للمسلم
والكافر سواء .

الصحيحة والموضوع :

١١٦٥. أين الشجى من الخلى

آ (٨٦) ﴿قال: إنا أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾
 ١١٦٦ يعقوب يرد لابنائهم نصيحتهم له ولومهم إياه على حزنه على يوسف
 ١١٦٩ جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا وصاحب الباطل بالنعيم
 والعطايا ١١٧٠ الحكمة من منع علم الغيب عن الناس وإطلاع الأنبياء على
 شيء منه ١١٧٢ وجوب الوقوف عند النصوص القطعية فيما يتعلق بعلم الغيب
 ١١٧٣ طرق نقل العلم

١١٧٤: العودة إلى مصر للتحسس

آ (٨٧) ﴿يا بني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا
 من روح الله ، إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ ١١٧٥
 يعقوب يطلب من أولاده العودة لمصر للامتيار ظاهرًا والتحسس من يوسف
 وأخيه باطنًا ١١٧٧ يعقوب يطلب من أولاده التحسس من يوسف وبنيامين
 ثم جلب الميرة ، معنى التحسس ١١٧٨ روح الله وأن اليأس منها كفر ،
 معنى الكفر والكافرين وإطلاقه على غمط النعمة ١١٨٠ إطلاق الكفر على
 المعصية الكبيرة ١١٨١ إطلاق الكفر على الضلال ، إطلاق الكفر على ترك
 بعض أركان الإسلام ١١٨٢ الكفر في عرف القرآن الكريم .

١١٨٣: الفصل الرابع — سفرة أخوة يوسف الثالثة لمصر .

آ (٨٨) ﴿... فلما دخلوا عليه ، قالوا : يا أيها العزيز ، مسنا وأهلنا الضر
 وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل ، وتصدق علينا ، إن الله يجزي
 المتصدقين﴾ ١١٨٤ دخول أبناء يعقوب على العزيز « يوسف » للمرة
 الثالثة وتذللهم له في طلب الميرة ١١٨٦ مراحل الخطاب أو « الاستدعاء »

الصحيفة والموضوع :

مقايسة بين العبرانيين والعرب في الهمة ١١٨٧ البضاعة وطرق المبادلة بها
١١٨٨ اخوة يوسف يثبتون له جزاء على صدقته ١١٨٩ جزاء المتصدقين
في الدنيا والآخرة ١١٩٠ ذلة الاخوة مع الأجنبي « العزيز » وعظمتهم
مع أبيهم وأخيه ، خضوع البشر لحكم الغريب .

١١٩٢ عتاب وتذكير

آ (٨٩) * ... قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون *
١١٩٢ عتاب يوسف لآخوته وتذكيرهم بالتوبة ١١٩٤ يوسف يشفق
على إخوته ويتنصح لهم ، العلم بالقبح يدعو الى الاستقباح وهذا يجر الى
التوبة ١١٩٥ درجات المعاتبة وموقع كلام يوسف منها ، صدق الخبر
الخبر ١١٩٦ أدب الأخوة في طلبهم ومقابلة يوسف لهم بذلك وعدم
حقده عليهم ١١٩٧ أسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام ١٢٠١
تضمن يوسف عتابه لآخوته الاعتذار عنهم بالجهل تمحلة لهم ، سلوك
يوسف مسلكاً وسطاً في أعماله وأقواله ، ١٢٠٤ عمل الاخوة مع بنيامين
لم يكن مباشرة بل بسبب عملهم مع يوسف ، معنى الجهل والجاهلين .

١٢٠٥ اظهار يوسف نفسه لآخوته

آ (٩٠) * قالوا : أأنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخي
قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين *
١٢٠٦ استعراف يوسف لآخوته بنفسه وبأخيه وتعريضه بهم ١٢٠٨
التعريض في الكلام ، التعريض في سورة يوسف ١٢٠٩ المحسن ، إحسان
يوسف ١٢١٠ نتيجة كيد اخوة يوسف له ١٢١١ سبب ذكر يوسف
أخاه بنيامين مقروناً باسمه دون سؤال منهم ١٢١٢ يوسف ثال حظوة

الصحيقة والموضوع :

بإخيه بحواسه الخمس ، التنكيت للتصريح بكلمة « وهذا أخي » ١٢١٤
الجزاء يكون في الدنيا والآخرة .

١٢١٩ اعتراف الاخوة بالخطيئة

آ (٩١) ﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين ﴾ ١٢٢٠
اعتراف اخوة يوسف بخطيئتهم ثم تفضيلهم له عليهم ١٢٢٢ وجوب
الاعتراف بالاساءة ثم طلب الغفران ١٢٢٣ مقابلة بين خاتمة يوسف وبين
ما ذكره الانجيل من خاتمة بطرس تلميذ المسيح ١٢٢٥ الفرق بين لفظي
الخاطيء والمخطيء واخوة يوسف كانوا خاطئين وليسوا مخطئين ،
آيتا الاستغفار ١٢٢٦ عدم تمادي الاخوة في انكار المحسوس ،
الحي الميت ١٢٢٧ توبة اخوة يوسف وتوبة امرأة العزيز ١٢٢٨ مقابلة
بين أقوال اخوة يوسف السابقة وأقوالهم الحالية ١٢٣٠ مقابلة بين تفكير
الاخوة سابقاً وتفكيرهم الآن .

١٢٣١ شفيع المذنب اقراره أو المصالحة والمغفرة

آ (٩٢) ﴿ قال : لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم
الراحمين ﴾ ١٢٣٢ يوسف يعفو عن إخوته ويطلب لهم المغفرة ١٢٣٤
معنى « التريب » ١٢٣٥ متعلق كلمة « اليوم » ١٢٣٦ المشابهون ليوسف
في عمله الاخير مع اخوته ١٢٣٧ الحكمة في مبادرة يوسف بالاستغفار
لاخوته بخلاف أبيهم ١٢٣٩ العفو أشد أنواع الانتقام ١٢٤٠ أرحم
الراحمين ، المدول عن الانتقام الى الغفران فصيلة ١٢٤١ غفران الاساءة
واحب ١٢٤٢ من تاب غفر الله له ، ماهو الجزاء الذي وقع على اخوة
يوسف حتى غفر الله لهم ١٢٤٤ المغفرة والعفو والفرق بينهما ، ١٢٤٥

الصحيفة والموضوع :

المغفرة في التلمود والانجيل ، العبارة بالخواتيم ١٢٤٦ فصول حوادث الحياة
وتطبيقها على يوسف ، الطريقة المثلى في المساحة ١٢٤٧ اسباغ النعمة على
اخوة يوسف

١٢٤٨ قميص البشارة

آ (٩٣) * ... اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ،
واثثوني بأهلكم أجمعين * ، تحقيق عما هو هذا القميص وعن كلمة بصير ،
القميص هو كسوة رسمية ١٢٥٠ « البصير » هو العالم علماً قلبياً ١٢٥٢
يعقوب يصير عالماً علماً قلبياً بحال ابنه يوسف ١٢٥٤ تفسير « يأت بصيراً »
يجيء مبصراً بعينه ١٢٥٥ تأويل القميص بالرتبة العالية ١٢٥٦ انتقاد
تأويل القميص بالرتبة العالية والرد عليه ١٢٥٨ تفسير « القميص واللقاء
والوجه » بأمر معنوي من باب الاستعارة وترشيحاتها ١٢٦٣ تطبيق
الاستعارة وترشيحاتها على قوله : اذهبوا بقميصي هذا .. الخ ١٢٦٥ تفسير
الآية بتطبيق الاستعارة وترشيحاتها عليها ١٢٦٨ تفاوت فهم العلماء في دلالة
النصوص الاضافية ١٢٧٤ رد تفسير كلمة « بصير » ببصر « ضد الأعمى »
١٢٧٥ أشياء فوق الطبيعة في سورة يوسف ١٢٧٧ عظمة يوسف بتوخي
المنفعة لأهله ولو بعد ما أهانوه ١٢٧٨ لزوم استخدام المال والمنصب والجاه
في منفعة ذوي الرحم ١٢٧٩ أوصاف المؤمنين الاربعة تمت ليوسف ١٢٨٠
حال اخوة يوسف عند مفارقتهم له لجلب أهلهم لمصر ، نتيجة رحلة بني
اسرائيل لمصر ١٢٨١ الارهاص والمعجزة ، عطايا يوسف لاختوته عند
ذهابهم لجلب أهلهم

١٢٨٢ عودة القافلة بالبشارة

آ (٩٤) * ... ولما فصلت العير ، قال أبوه : إني لأجد ريح يوسف !!

الصحيحة والموضوع :

لولا أن تفندون .. ❖ ١٢٨٣ تخيل يعقوب رائحة يوسف مع النسيم ١٢٨٤
تنسم يعقوب ريح يوسف عابقة من قميصه الكتان ١٢٨٦ حس يعقوب
رائحة يوسف بالشم ، تحسس يعقوب برائحة يوسف تحسناً معنوياً ١٢٨٧
اقتباس يعقوب ريح يوسف بدون وساطة الحواس ١٢٨٨ ادراك يعقوب
رائحة يوسف إلهاماً بقلبه ١٢٩٠ جواز ادراك يعقوب رائحة يوسف
كما يدرك المنوّم تنويعاً مغناطيسياً الاشياء ١٢٩١ شواهد على
ادراك الرائحة بالالهام القلبي ١٢٩٥ انتقال رائحة يوسف ليعقوب مع
الريح ١٢٩٦ اعتبار ريح يوسف استعارة مكنية مرشحة .

١٢٩٨ الأحفاد ينتقدون جدم

آ (٩٥) ﴿ قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم !! ﴾ ١٢٩٩ عدم الرد على
السفيه أوجب لامتهانه من الرد عليه ١٣٠٠ أحفاد يعقوب .

١٣٠١ البشارة

آ (٩٦) ﴿ ... فلما أن جاء البشير ، ألقاه على وجهه فارتد بصيراً !! قال :
ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ! ﴾ ١٣٠٣ وصول البشير
والقاءه القميص على وجه يعقوب ١٣٠٤ خصائص قميص البشارة وردم
بصر يعقوب ١٣٠٦ تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه
١٣٠٧ العلم بقر ما كان معتبراً من المعجزات قديماً فلم لا يقر ارتداد بصر
يعقوب بالقاء القميص عليه

١٣٠٨ طلب الاستغفار

آ (٩٧) ﴿ — قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين ﴾ ١٣٠٩
أبناء يعقوب يطلبون من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم ١٣١٠ الشفاعة

الصحيفة والموضوع :

وأنواعها وحكمها ١٣١١ سبب طلب الاخوة الاستغفار من أبيهم ولم يطلبوه -
من أخيه ١٣١٢ مذهب السلف والطوائف الاسلامية الأخرى في النجاة
والإيمان ، تعليل قوله « ذنوبنا » بصيغة الجمع ١٣١٣ لماذا لم يستغفروا
لأنفسهم بأنفسهم

١٣١٥ تسويف الاستغفار

آ (٩٨) * - قال : سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم *
١٣١٦ أسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده ١٣١٨ هل وفي
يعقوب بوعد له لأولاده بالاستغفار لهم ، هجرتا يعقوب ١٣١٩ هجرة
الأنبياء ، مخلفات سلالة ابراهيم في أرض الميعاد بعد جلائها عنها لمصر

١٣٢٠ الفصل الخامس - السفرة الرابعة والاخيرة لمصر - يوم اللقاء .

آ (٩٩) * ... فلما دخلوا على يوسف ، آوى اليه أبويه ، وقال : ادخلوا
مصر « إن شاء الله » آمنين * ١٣٢١ سفرة يعقوب واسرته لمصر ،
وداع يعقوب لفلسطين ، لقاء الشتيتين ١٣٢٣ حال يعقوب عند رؤيته
ليوسف ، مبدأ التاريخ العبراني ١٣٢٤ من هي أم يوسف التي آواها اليه ١٣٢٥
يعقوب يرحل عن أرض الميعاد لمصر حباً بولده يوسف ، كيف قابل يوسف أبويه
عند دخولها عليه وكيف عاملها .

١٣٢٦ خطبة الوثام والسلام .

آ (١٠٠) * ... ورفع أبويه على العرش ، وخرّوا له سجداً ، وقال :
يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي
إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزع الشيطان

، الصحيفة والموضوع :

بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ﴿ ١٣٢٧ مصداق رؤيا يوسف الثانية ١٣٣١ اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وتبسطه فيه في جلسة السلام ١٣٣٢ مصداق قول يوسف ومصداق قول أبيه ١٣٣٣ الاحسان يتعدى بالباء وباءلى ١٣٣٤ معنى « البدو » ١٣٣٥ معنى « النزغ » والرد على القول بأن اختلاف الامة رحمة ١٣٣٦ توجيه النزغ للشيطان ، أدب يوسف في التعبير وامثلة من أدب تعابير القرآن ١٣٣٧ معنى استحياء النساء في قوله « يستحيون نساءكم » ١٣٤٠ عدم ممانعة الدين الاسلامي التمتع بحياة المدن الاجتماعية ١٣٤١ نوال يعقوب شرفاً دنيوياً مع الشرف الديني ، مقابلة بين معاملة يوسف لأبويه ومعاملة المسيح (ع) — حسب رأي الانجيل — لأمه ١٣٤٣ ذكريات يعقوب ويوسف واخوته بعدما ألقى يوسف خطاب الوئام ١٣٤٤ معنى السجود والحرور وحكمهما في الدين ١٣٤٦ البدو وسكنام وشهادتهم .

١٣٤٧٠ حسن الختام .

آ (١٠١) ﴿ رب ! قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والارض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفي مسلماً ، والحقني بالصالحين ﴾ ١٣٤٨ تحدث يوسف بنعمة الله وترجيه أن تكون خاتمة حياته حسنة ١٣٤٩ أنواع الادعية في القرآن ١٣٥٢ طفرات حياة يوسف عليه السلام ، إيتاء الملك الشرعي وغير الشرعي ١٣٥٣ الرد على من يقول ان يوسف استقل بالملك ١٣٥٤ الانبياء الذين آتاهم الله الملك والنبوة معاً ١٣٥٥ تعليل عدم ذكر يوسف النبوة في قوله « رب قد

الصحيفة والموضوع :

آتيتي ... الخ ١٣٥٦ الاحاديث التي علم الله يوسف تأويلها ١٣٥٧ الولي
 وأنواع الولاية ١٣٥٩ درجات الولاية ، الآخرة في كتب اليهود والنصارى
 ١٣٦٠ الاسلام دين جميع الرسل ١٣٦٢ دعاء يوسف باماته مسلماً ١٣٦٣
 مبلغ ما أوتيّه يوسف من الملك ١٣٦٤ الاسلام والجاهلية لغة ١٣٦٥ حال
 يوسف اثناء وبعد حفلة الختام ، وفاة يوسف ويعقوب ومدفنها ١٣٦٦
 نهاية اخوة يوسف ١٣٦٧ نهاية بني اسرائيل ومملكتهم .

١٣٦٨ الباب الخامس .

الفصل الاول .

خاتمة الشيء المقصود الذي انعقدت له السورة أو الاستدلال على نبوة
 محمد ﷺ .

آ (١٠٢) ﴿ ذلك من أنباء الغيب ، فوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ
 أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ١٣٧٠ الرد على دعوى الكفرة بأن
 الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة ١٣٧٣ الرد على دعوى
 الكفرة بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة ١٣٧٤ الرد
 على دعوى البروتستانت بأن الرسول ﷺ كان يتصيد المسائل من نصارى
 العرب ويهودها ١٣٧٥ أساس تسرب الغش لأذهان مفسري القرآن وعصمة
 النبي ﷺ من ذلك ١٣٧٦ بعض معجزات القرآن الدالة على أنه وحي من
 الله ١٣٧٨ الاستدلال على نبوة محمد ﷺ هنا كان عرضاً وليس قصداً
 لذاته ١٣٧٩ هل سكن اليهود والنصارى مكة أيام النبي ﷺ ١٣٨٠ تكرر
 المعنى الذي حوته هذه الآية في آيات أخرى ، المكر الثابت والمكر المقدر
 بقدر العمل المرافق له ١٣٨١ من عادة القرآن المجيد ذكر « التوحيد » في

الصحيفة والموضوع :

كل مناسبة ١٣٨٢ ط — رق تبليغ كلام البشر وطريقة تبليغ كلام الله للملائكة والانباء .

١٣٨٤ طبيعة أكثر الناس عدم الايمان .

آ (١٠٣) ﴿ وما أكثر الناس ، ولو حرصت ، بمؤمنين ﴾ ١٣٨٥ تأسي الناصحين برسول الله ﷺ عند عدم افادة ارشادهم للناس ، المؤمنون أقل من الكافرين .

١٣٨٦ اخلاص النبي ﷺ في دعوته .

آ (١٠٤) ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ١٣٨٧ تكرر الدعوة غير المأجورة في القرآن ١٣٨٨ الاخلاص في الدعوة من مستلزمات نجاحها ١٣٨٩ معنى «العالمين» .

١٣٨٩ الفصل الثاني — تقريع الغافلين عن التفكير في آيات الله .

آ (١٠٥) ﴿ وكأي من آية في السموات والارض ، يرون عليها ، وهم عنها معرضون ﴾ ١٣٩٠ تقريع الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية الدالة على توحيد الاله ١٣٩١ تقريع أهل مكة خاصة والناس عامة لتمطيل أبصارهم وبصائرهم عما في الوجود من آيات ، النوع العتيق والنوع الجديد من آيات الله ١٣٩٦ ضرورة الاستدلال والتفكير في آيات الكون .

١٣٩٧ التوحيد في الربوبية والاشراك في الالهية .

آ (١٠٦) ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ١٣٩٨ متى يعبر القرآن بلفظ « الأكثر » و « الكثير » ١٣٩٩ القرآن يبين ما عليه

الصحيفة والموضوع :

الأمم من عقائد وأخلاق وأعمال ، كثير من مسلمي اليوم موحدون في الربوبية مشركون في الألوهية ١٤٠١ كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية المسلمين ، أنواع الشرك ومظاهرها في الأعمال والأقوال ١٤٠٤ الفرق بين الجاحد لوجود الله وبين المشرك ١٤٠٥ تشابه أكثر مسلمي اليوم في الشرك مع أهل مكة في زمن الجاهلية ، الأصل في دعوة المسيح وموسى عليهما السلام التوحيد المطلق ١٤٠٦ الاعتقاد بقدرة الأولياء والصالحين والتوسل بذواتهم شرك بالله ١٤٠٧ فضل الله على عباده وأقسامه ١٤٠٨ تحريم سوال الأولياء ذوي الأضرحة شيئاً مادياً أو معنوياً ١٤٠٩ التوسل بجاه الأنبياء والأولياء ١٤١٠ الرد على من احتج بحديث رواه الترمذي بجواز التوسل إلى الله بغيره ١٤١١ واجب الوجود واحد ومستحق العبادة واحد وهو الله تعالى ١٤١٢ ماهو المراد بمثقال حبة من خردل من الإيمان في حديث البخاري ١٤١٣ المعطل المنكر لوجود الله تعالى شر من الشرك ، حكم تلوث الجاهلين من مسلمي اليوم بشرك الألوهية ، شرك النصاري في الربوبية والألوهية ١٤١٤ الطوائف المنسلخة عن الإسلام بسبب شركها بالله أو بالتشريع ، المشرك من يدعو الأصنام أو من يدعو الصالحين .

١٤١٥ انذار المشركين بالله .

آ (١٠٧) ﴿ ... أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بفتة ، وهم لا يشعرون ؟ ﴾ ١٤١٦ الساعة الصغرى الدنيوية وأمثلة عليها ١٤١٨ الساعة الصغرى الدنيوية والساعة الكبرى الآخروية ١٤١٩ الحشر الدنيوي ١٤٢٠ النشر والحساب الدنيويان ١٤٢١ الحساب العام الآخروي ، الصراط والعذاب والعقاب والأجر والثواب الدنيويات ١٤٢٢ الميعاد

الصحيفة والموضوع :

الدينوي ١٤٢٣ البعث الدينوي ، الآخرة والجزاء الدينويان ١٤٢٤ الحياة بعد الموت في الدنيا .

١٤٢٥ الفصل الثالث : الدعوة الى الايمان بالدليل .

آ (١٠٨) ﴿ قل : هذه سبيلي ، أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٤٢٦ التقليد في الدين باطل ، النبي والمؤمنون كانوا على بصيرة من الدعوة للايمان ١٤٢٨ دعوة النبي ﷺ للتوحيد كانت بالحجج العقلية ١٤٢٩ أكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة ، دعوة النبي ﷺ وبعثته كانتا عامتين ١٤٣٠ الدعوة والدعاء والادعاء والدعوى ١٤٣١ الدين الاسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة ١٤٣٣ الاسلام لا يضطهد الناس لعقيدتهم — وبيان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ، منع النبي ﷺ بعض المسلمين من اكراه اولادهم المتهودين على الاسلام ١٤٣٥ مرتبتا الدعوة الى التوحيد ١٤٣٦ الدعوة الى توحيد الله بالعقل والدليل ١٤٣٧ علينا أن تتأسى برسول الله في الدعوة اليوم .

١٤٣٨ الفصل الرابع : قياس حاضر محمد ﷺ على ماضي الانبياء .

آ (١٠٩) ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا ، نُوحِي إِلَيْهِمْ ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ ﴾ ١٤٣٩ تطبيق القول على الواقع ١٤٤٠ الحث على السياحة المفيدة والاحسان الى السائح ، أهل القرى وأهل البوادي والأعراب ١٤٤١ الاستدلال بالقياس

الصحيفة والموضوع :

الاستقرائي على صحة الدعوة ١٤٤٢ الانبياء رجال كباقي الرجال امتازوا عنهم بالوحي .

١٤٤٤ تطمين محمد ﷺ بالنصر .

آ (١١٠) ﴿ ... حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فننجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ ١٤٤٥ الله سبحانه وتعالى يطمئن محمداً ﷺ بأنه ناصره في دعوته ١٤٤٦ تخريج كلمة « كذبوا » بتشديد الذال وتخفيفها .

١٤٤٧ الفصل الخامس والآخر — العبرة من قصص الرسل مع أقوامهم .

آ (١١١) ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ١٤٤٨ محمد ﷺ مؤسس امة وامبراطورية وديانة ١٤٤٩ الغاية من قصص القرآن ، الغاية من ذكر الانبياء وقصصهم في القرآن ١٤٥١ ليس في القرآن تاريخ بل عبر وعظات ١٤٥٤ قصص القرآن يعلم التوحيد والعلم والاخلاق ، لا فائد من درس التاريخ ان عدل به عن العبرة ١٤٥٥ قصة يوسف تسوق المتعظ بها الى السعادة ١٤٥٦ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ١٤٥٧ ليس القرآن مخترعاً ولا مفترى وليس فيه خرافات وأساطير ١٤٥٨ القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد ١٤٥٩ القرآن مصدق لما قبله من اصول الدين ، القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد ١٤٦٠ القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين ، القرآن

الصحيفة والموضوع :

مصدق للكتب السماوية الاصلية ١٤٦١ شواهد من التوراة الحالية على ان
فيها زيادة ١٤٦٣ التوراة الحالية كتبت بعد السي ١٤٦٤ الرد على القول
بأن « عزرا » الكاتب هو الذي كتب التوراة الحالية ١٤٦٥ القرآن يذكر
كل شيء مهم من امور الدين ١٤٦٦ القرآن هدى ورحمة وشفاء وموعظة
١٤٦٨ القرآن هدى ورحمة لمن يتفهمه ١٤٦٩ الهدى هو الدعوة والدلالة
والبيان ، كلمة الختام .

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤف فيها وأي أو فهم خاص في الجزء الثاني

الصحيفة والموضوع :

٧٧٨ القمز من قناة الفتيين وأدب الأنبياء في الخطاب ٧٨٤ واجب الواعظ
شحو الموعوظين وامثلة من القرآن ٨٠٢ سبب اقتصار يوسف (ع) على دعوة
صاحبي السجن الى التوحيد فقط ٨١٦ وجوب علم امور الدين علماً استقلالياً
استدلالياً ٨٤١ نسيان الفتى التاجي ذكر يوسف الملك وأسبابه ٨٩٦ الرؤيا على
عبرت اولاً ٩٠٢ حجر أصاب صيدين ٩٢٠ داعي اندفاع « زليخا » للاعتراف بفعلتها
والدفاع عن شرف يوسف ٩٢٥ نسبة القول في قوله « ذلك ليعلم.. الخ » الى زليخا
وليس الى يوسف ٩٤١ عدد جيئات الرسول السجين للسجن ١٠٠٩ محاولة يوسف
(ع) رجوع اخوته بينيامين عن طريق الترغيب والتجيب ١٠١٠ معنى الايفاء ووجه
امتنان يوسف على اخوته ١٠١٩ كيف جاز ليوسف التصرف باموال الخزينة
المصرية ١٠٢١ لماذا لم يخبر يوسف اخوته بجليه الواقع في سفرتهم الاولى ١٠٤٠
الحالف بالله حالف على حساب الله ١٠٥٧ « الحاجة » التي في نفس يعقوب (ع)
١١٨٧ البضاعة وطرق المبادلة بها ١٣٤٢ ماهو الجزاء الذي وقع على اخوة يوسف
حتى غفر الله لهم ١٢٥٠ البصير هو العالم علماً قلبياً . ١٢٥٨ تفسير « القميص
والالقاء والوجه » بأمر معنوى من باب الاستعارة وترشيحاتها ١٢٩٦ اعتبار ريح
يوسف استعارة مكنية مرشحة ١٣٢٥ كيف قابل يوسف ابويه عند دخولها
عليه وكيف عاملها ١٣٦٤ الاسلام والجاهلية لغة .

جدول الأخطاء المطبعية وتصويبها في هذا الجزء (الثاني)

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٤٣	١٣	ولو	لو
٧٤٦	٤	الفرصة	الفرجة
٧٥٢	٨	والعقل	والفعل
٧٥٣	٢٣	العظيمة	العظمية
٧٥٥	١٤	لشركهم	بشركهم
٧٥٥	١٥	قض ٦ : ٦٥	قض ٦ : ٢٥
٧٥٥	٢٣	حيدون	صيدون
٧٥٦	١٥	تراقيم	ترافيم
٧٥٦	٢٤	ونبوا	وبنوا
٧٦١	٤	وملحاؤهم	وصلحاؤهم
٧٦٣	١٥	أذربيجان	أذريجان
٧٦٤	١٥	الغيب	الغيب
٧٦٨	٧	(٢ : ٢٧٦)	(٢ : ١٧٦)
٧٧٥	١١	وعشية	وعشيه
٧٧٥	١٣	نعمتي	نعمتي
٧٨٤	١٧	عليها كثيرة	عليها في مواضع كثيرة
٧٨٥	٧	تلبسون	تلبسون
٧٨٥	٩	مصدقاً	مصدقاً
٧٨٥	١٥	يا أيها آمنوا	يا أيها الذين آمنوا
٧٨٨	٤	حبان	حيان
٧٩١	١٧	منه ، أو ما شاءوا	منه ، أو منشقان منه ، أو ما شاءوا

تابع جدول الاخطاء المطبعية وتصويبها في الجزء الثاني

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٧٩٢	١٤	أخرجناه	أخرجاه
٧٩٤	١٩	مترات	مترات
٧٩٤	٢٠	مترات	مترات
٧٩٨	١٥	اوزمية	اورمية
٧٩٨	١٧	الاقسوسي	الافسوسي
٧٩٩	١٢	الفراغة في التوثن	الفراغة وثنيين على طريقة الفراغة في التوثن
٨٠٠	٢	بقوله عز وجل	كما في قوله عز وجل
٨٠٠	٤	ولا يتخذ	ولا يتخذ
٨٠٠	٢١	الأديبة	الادبية
٨٠١	٢	أديبة	أديبة
٨٠٢	١٢	أصحاب	أصحاب
٨٠٣	٢	شركاء	شركاء
٨٠٦	٥	وإن كان	وإن كان
٨٠٦	١٤	فهم	منهم
٨٠٨	١	القامة	القيامة
٨٠٨	٣	يبين	يبين
٨٠٨	٥	(أع ٢٠ : ٢٢)	(أع ٢ : ٢٢)
٨٠٨	١٦	وتطيعوني	وتطيعوني « آه
٨١١	٤	إن الحكم	إن الحكم

التصويب	خطأ	سطر	صحيفة
دائماً	ودائماً	٨	٨١٧
بِنِيَّاتِهِمْ	بِنِيَّاتِهِمْ	١٢	٨١٧
من قبيل	من قبل	٧	٨١٨
يسمعان	يسمعانه	٢٠	٨٢١
داء	أداء	١٦	٨٢٢
وتفصّى	وتَقَصَّى	٨	٨٢٣
الكردي	الكري	١٤	٨٢٣
والسوّال	السؤال	١٧	٨٢٤
وكما	كما	٢٠	٨٢٤
نُشْرِكْ	نَشْرِكْ	٤	٨٢٥
أدنان	أدن	١٥	٨٢٦
لِيُضِلُّونَ	لِيَضِلُّونَ	١١	٨٢٩
« نبو »	« بنو »	١١	٨٣١
بالحزم والصراحة	بصرامة	٤	٨٣٢
« مجلت » أو « ملحق »	« مجللت »	١٥	٨٣٢
شعرا	شعر	٦	٨٣٤
« قاتون »	« قانون »	١٠	٨٣٧
يوسف	يوسف	٢٠	٨٤٥
والجوائح	والجوانح	١٨	٨٤٧
يبيخلون	يبحلون	١٦	٨٤٨
إخبار	خبار	٢١	٨٤٨

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
الصدى	الصدى	١٩	٨٥١
الله خالق	الله خالق	٢١	٨٥٢
أن	أن	١٢	٨٥٣
إن	إن	١٣	٨٥٣
يوم القيمة	يوم القيمة	٤	٨٥٤
سَيُفْلِحُونَ	سَيُفْلِحُونَ	٢٢	٨٥٤
«أبي بن خلف»	«امية بن خلف»	٥	٨٥٥
«أبي بن خلف»	«امية بن خلف»	٧	٨٥٥
فزده	فزوده	٨	٨٥٥
وزاده	وزادوه	٩	٨٥٥
رؤياي	رؤياي	٦	٨٥٦
ورقيقة	وربيعة	١٥	٨٥٧
نابتة	نائية	٢٠	٨٥٧
من عبرت	من عبرت	٤	٨٦٤
قلت هو جمع	هو جمع	٥	٨٦٥
(كما يستفاد من رؤياه)	(يستفاد من رؤياه)	٢٢	٨٦٩
أمة	أمة	١٨	٨٧٠
أنت وروحك	أنت وزورك	١٦	٨٨٠
الرؤيا	الرؤية	٧	٨٨٣
بشأن	لشأن	٢	٨٨٥
قد متهم	قد متهم	١٥	٨٨٩

التصويب	مسطر	الخطأ	صحيفة
الحمام	٢٠	الحمم	٨٩٠
قفى يوسف	٧	قضى يوسف	٨٩٢
هذه المرة أيضاً كحظه في سابقتها، وأمله	١٩	هذه المرة بقول	٨٩٤
اكتفى في هذه المرة بقول « الشرايى »		« الشرايى » *	
باتهامها	١٩	باتهامه	٩٠٢
وأزلقه	٤	وأزلقه	٩٣٩
أو نقصه	١٤	أو نقصه	٩٤١
لحزيم	١١	لحريم	٩٦٤
وطمع	٧	وطمع	٩٦٥
خزائن الملكة	١٢	خزائن	٧٦٨
تصبيان	٨	بصبيان	٩٧٩
بتوئيل	١٤	بيوئيل	٩٩٠
اخوة	٦	اخوة	٩٩١
للمتارين	٨	للمتارين	٩٩٣
فعنيح	١٠	فعنيح	٩٩٧
قال	١٥	وقال	٩٩٩
للقراء	٧	للقرآن	١٠٠١
وقال	١٧	وقام	١٠٠٢
من	٨	على	١٠٠٧
اجملوا	٣١	جعلوا	١٠٢٢
التمدينة	٧	التمدينة	١٠٢٣

التصويب	الخطأ	مطر	صحيفة
(فلما رجعوا)	(فلما رجعوا)	٩	١٠٢٤
ضمن	صمن	١٨	١٠٢٨
الفَرَر	الْعَرَر	٦	١٠٤٥
أمرهم	أمرهم	١٣	١٠٥٦
إلا حاجة	لا حاجة	١٢	١٠٥٦
علم	عليم	١٥	١٠٥٦
أكثر	كثر	١٥	١٠٥٦
مؤذن	مؤذن	٤	١٠٦٤
قبول بنيامين التسريق	قبول بنيامين	١٨	١٠٧١
التسريق	التسويق	١	١٠٧٢
وادي الغضا	وادي الفضا	٢٣	١٠٨١
يردون	يرددون	١	١٠٨٠
كل	كُل	٨	١٠٨٨
بوحى	يوحى	١٩	١٠٨٩
كيداً تكوينياً راجعاً	كيد تكويني راجع	١	١٠٩١
سارق	مارق	١٢	١٠٩٥
العلاّت	العَلّات	١٣	١١٢٣
« العير »	« العيرة »	١٣	١١٣٥
فأْتيا	فأْتيا	٢٢	١١٤٢
دون أن تترك	دون تترك	١١	١١٥٣
واسترق	واسرق	٣	١١٧٠

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
وَلِيُْمَخَّصَ	وَلِيُْمَخَّصَ	١٣	١١٧٠
رَبُّكُمْ	رَبُّكُمْ	١٣	١١٧٩
يُعَلِّمُونَ	يُعَلِّمُونَ	١٦	١١٨٠
العبرانيين	العبرانيين	١٨	١١٨٦
المتمدينة	المتمدينة	١٣	١١٨٨
« لا بان »	« الالبان »	٨	١٢٠٦
من أن أذكره	من أذكره	١٧	١٢١٣
تَرْجِعُونَ	تَرْجِعُونَ	٦	١٢١٥
(٥ : ٦٦)	(٥ : ٦٩)	٣	١٢١٩
يا للخجالة	يا للخجالة	٦	١٢٢٠
دَبْرَ	دَبْرَ	١٣	١٢٣٣
بَصْرَ بَعْمَلِهِ	بَصْرَ بَعْمَلِهِ	١٣	١٢٥٠
للوله يوسف ثم فقده له	لولده يوسف	١٥	١٢٥٤
من فقد الذاكرة البصرية فقدا	من ايضاض أو فقد	١٩	١٢٥٤
روحياً نفسانياً	حسن الرؤية		
ناس	فاص	٥	١٢٥٧
لوازمه	لوارمه	١٦	١٢٦٢
لهو	لهوا	٨	١٢٦٦
الحخر	الحخر	٢١	١٢٦٧
أرشدته ألتهى	رشدته آلهي	٨	١٢٧٢
(إني لأجد)	(إني أجد)	١٣	١٢٨٢

التصويب	مطر	الخطأ	صحيفة
وما رأيت من	١٨	ورأيت من	١٢٩٢
جمع مغزى	٢٣	جمع معزى	١٣٣٢
الكناية	١٣	الكتابة	١٣٣٩
ومملكتهم	١	ومملكتاهم	١٣٦٧
ومملكتهم	٥	ومملكتاهم	١٣٦٧
فالإخبار	١٢	فالأخبار	١٣٧٧
الحجيد	٢	الجيد	١٣٨٢
عنه	٢	عند	١٣٨٤
تشير	١٥	تسير	١٣٨٨
فارعه	١٤	فارعة	١٣٩٠
من	١	على	١٣٩٢
تلغرافاً	٢٠	تلغرافاً	١٣٩٥
غيرها	٨	غيرها	١٣٩٩
في دين النصارى	١٢	في النصارى	١٤٠٥
الحاجات	٤	لحاجات	١٣٠٧
النافع	٤	المانع	١٤٠٧
الأنبياء	٨	الأنباء	١٤٠٩
بجابه	١٥	بجاءه	١٤٠٩
واحد	٥	واحد	١٤١١
يُشْرِكْ	١٢	يُشْرِكْ	١٤١٢

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
وحيثئذ	وحيثئذ	١٨	١٤١٢
مسلمي	مسلمين	١١	١٤١٣
تسفيه	تسفيه	١٧	١٤١٤
عقوبة	عقوبة	٢٢	١٤١٥
الاعراف	الاعراض	٤	١٤١٩
مخشورة	مخشورة	٣	١٤٢٠
ذلك	ذلك	١٢	١٤٢٠
وأوفئوا	وأفوا	١٧	١٤٢١
تستأخرون	تستأخرون	٣	١٤٢٣
وقوله	وقولها	٥	١٤٢٤
حذر	حذر	٩	١٤٢٤
والعبودية	والعبودية	١٧	١٤٢٤
هل لم يكن	هل يكن	١٦	١٤٢٧
الله الذي	الله الذين	٦	١٤٢٨
إيداناً	إيداناً	١٦	١٤٢٩
فإن الانجيل الذي في	فإن لا نجعل في	٩	١٤٣٠
فهو	فهو	١٣	١٤٣١
أولادهن	أولادهم	١٠	١٤٣٤
على الماضي	من الماضي	٤	١٤٣٩
(فينظروا كيف	(فينظروا كيف	٥	١٤٣٩
به من القرآن	به القرآن	١٢	١٤٤٣

التصويب	الخطأ	سطر	صحيفة
استخدمها	استخدمها	١٢	١٤٤٣
عن كل الرجال	عن الرجال	٢١	١٤٤٣
أيقنوا	يقنوا	٣	١٤٤٧
فهذا الباب	فهذ الباب	٢	١٤٥١
صغيره وكبيره	صغيرة وكبيرة	٢	١٤٥٩
من عربات	عن عربات	١٤	١٤٦٢
التوراة	التوواة	٧	١٤٦٣
الفرح	القرح	-٢٠	١٤٦٧
للنبات	للبنات	٢٢	١٤٦٧
التذكّر	التذكر	١٥	١٤٦٨
فكان من الغاوين	فكان الغاوين	١٩	١٤٦٨
والالوهية	والوهية	١٨	١٤٧١

وقد يوجد اخطاء اخرى لا تخفى على القارىء اللبيب

انتهى

66918

To: www.al-mostafa.com